فتح العليم

بحل إشكال التشبيه العظيم
في حديث: "كما صليت على إبراهيم"

لإمام المحدثين نجم المفسرين زبدة المحققين
العلامة الشيخ مولانا محمد موسى الروحاني البازي
رحمه الله تعالى وطيب آثاره

فتح العليم

بحلّ إشكال التّشبيه العظيم

في حديث "كما صلّيت على إبراهيم"

اسم الكتاب : فتح العليم بحل إشكال التشبيه العظيم في حديث" كما صلّيت على إبراهيم"
اسم المؤلف : محمد موسىٰ الروحاني البازي رحمه الله تعالى
الطبعة الثامنة : ١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

إدارة التصنيف و الأدب
العنوان : المكتب المركزي : ١٣/دي ، بلاك بی ،
سمن آباد ، لاهور ، باكستان
هاتف : ٠٠٩٢ ٤٢ ٣٧٥٦٨٤٣٠
جوال : ٠٠٩٢ ٣٠٠ ٤٤٢٦٤٤٠
البريد الإلكتروني : alqalam777@gmail.com
الموقع على الشبكة الإلكترونية : www.jamiaruhanibazi.org

Idara Tasneef wal Adab
(Institute of Research and Literature)
Alqalam Foundation
Address: Head Office: 13-D, Block B,
Samanabad, Lahore, Pakistan.
Phone: 0092-42-37568430
Cell: 0092-300-4426440
Email: alqalam777@gmail.com
Web: www.jamiaruhanibazi.org

الناشر
إدارة التصنيف والأدب

فتح العليم

بحلّ إشكال التّشبيه العظيم
في حديث: "كما صلّيت على إبراهيم"

لإمام المحدّثين نجم المفسّرين زبدة المحقّقين
العلّامة الشّيخ مولانا محمّد موسى الرّوحاني البازي
رحمه الله تعالى وأعلى درجاته في دار السّلام

إدارة التّصنيف والأدب

بسم الله الرحمن الرحيم

هـذه المقدمة تبحث عن حياة العالم العـلامة والبحر الفهامة المحدث الأعظم والمفسّر الأفخم الفقيه الأفهم الرحلة الحجّة اللغوي الأديب صاحب التصانيف الكثيرة والتآليف الشهيرة مستنبط علم الجـلالة ومخترعه الشيخ مولانا **محمد موسى الرُّوحاني البَازي** وعن آثاره العلمية الخالدة وعن خدماته الإسلامية . رَحمه الله تعالى و طيَّب آثاره .

هو العلامة الكبير بل الإمام ذوالشان العظيم نادرة الزمان سلطان القلم والبيان كان آية من آيات الله بلا فرية و نادرة من نوادر الدهر بلامرية .

هَيهاتَ لا يأتِي الزَّمـانُ بمثله
إنَّ الزمانَ بمثله لبَخِيـل

مكانة الشيخ محمد موسى الروحاني البازي عند الله تعالى

كان الشيخ البازي متورّعًا ، تقيًّا ، زاهدًا في الدنيا ، مجاهـدًا في سبيل الله ، دامغًا للبدعات ، لايخاف في الله لومة لائم ، وله كرامات كثيرة لا تحصى لضيق المقام سوف نقتصر على ذكر بعضها فقط لتعلم مدى ماكان لشيخنا الجليل من مكانة عظيمة عند الله تعالى و عند رسول الله ﷺ .

ومن كراماته أنه رابع أربعة في تاريخ الإسلام الذي انبعثت من قبره الرائحة الذكية . و ذلك

بعد أن تم دفن جثمانه الطاهر خرجت رائحة المسك والعنبر من قبره وانتشرت في جميع المقبرة. و هذه الرائحة موجودة حتى اليوم و قد مضت سبعة أشهر مذ وفاته . فإذا ذهبت إلى مقبرته الموجودة في مياني صاحب بلاهور تشم تلك الرائحة الذكية التي تفوح بالعطر و العنبر تنبعث من ذلك الجسد الطاهر و من هذا الثرى الطيب ثرى شيخنا الجليل الشيخ محمد موسى الروحاني البازي طيب الله آثاره .

ومنها أن شيخنا الوقور رحل إلى الحج مصطحبا أسرته . وبعد الفراغ من مناسك الحج شدّ الرحال مع أسرته إلى المدينة المنوّرة . فلمّا علم شيخ الإسلام قدوة الأنام العالم الرباني الشيخ مولانا سعيد أحمد خان رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ ورود الشيخ البازي الجليل إلى المدينة المنوّرة فرحّبه ترحيبا حارًّا و استدعاه مع أسرته إلى المأدبة . فلبّى الشيخ البازي المكرم الدعوة و قدم إلى داره مع أسرته حسب الموعد .

و عند ما لاقى الشيخ البازي المحترم الشيخ سعيد أحمد خان المحترم جلس عنده . وحينما رأى رجلٌ من ندماء الشيخ سعيد أحمد خان الشيخَ البازي فقام مسرعا نحوالشيخ البازي المفخم والتزمه وعانقه وقبّله وصافحه و وقّره غاية التوقير .

ثم قال له : يا معالي الشيخ ! التمس من سماحتك بكل أدب واحترام أن تسامحني فتعجب الشيخ البازي من حفاوته البالغة وتبجيله إياه وطلبه منه التسامح وقال له : على أيّ شيء أسامحك ولا أعرفك ؟

فأجابه الرجل : يا فضيلة الشيخ الجليل ! سامحني أوّلا ثم أدلّك على سبب المسامحة . فتبسّم الشيخ البازي طِبق عادته الشريفة و تلطّف في الإجابة قائلاً بأني سامحتك .

ففرح الرجل غاية الفرح و برقت أسارير وجهه و قال : يا شيخ ! الآن أذكر لك السبب . وهو أني أتمتع بفضل الله وكرمه بالسكنى في رحاب الطِيبة الطيّبة المدينة المنوّرة زادها الله تعالى بركة ورحمة وأمنا و هدوءًا . و قد أخبرني بعض الزملاء بمكانتك الرفيعة و شخصيّتك البارزة في ميادين العلم والتصنيف و التدريس و الدعوة و الإرشاد فصرت مشتاقا جدًّا لرؤيتك و للقائك .

فقبل أسبوع دخلت المسجد النبوي الشريف مع بعض زملائي . فرأك زميلي وبشّرني قائلاً إن هذا الرجل الجميل هو الشيخ البازي المكرم الذي كنت تشتاق لرؤيته وللقائه . فرأيتك و كنت

مشغولاً بالنوافل . فلما أمعنت النظر إلى شخصك و رأيت حلتك الشهباء وعمامتك البيضاء الفاخرة . فخطر في قلبي بعض الخواطر بأن هـذا اللباس الثمين لا يليق بالمشائخ الكرام والعـلماء العظام . فما أحببت أن أصافحك وبعد الفراغ من الصلاة ذهبت إلى بيتي .

و في نفس تلك الليـلة رأيت النبي ﷺ في المنام و على وجهـه آثار الغضب . فدنوت منه لأن أسئله عن سبب الغضب . فقـال لي النبي ﷺ و هو غضبان عليّ : أظننتَ بموسى هذه الظنون فاخرج من مدينتي . فارتعدت وبكيت وطلبت منه العفو فقال النبي ﷺ : لا أجيز لك السكنى في مدينتي إلّا أن يعفوك موسى .

فاستيقظت مندهشًا ومرتعدًا واجتهدت للقائك فما نجحت إلا في هذا الوقت السعيد . فمن ثم بادرت و طلبت من معاليكم العفو و الصفح عن هذه الظنون و الوساوس السيّئة .

فرحمه اللهُ تعالى رحمة واسعة و أسكنه بحبوحة جنة الفردوس و جـزاه عن الإسلام والمسلمين خـير الجزاء ما قدم من عطاء ذاخر في ميدان العلم والمعرفة في سبيل نصرة هذا الدين و في سبيل العلم .

مصنفاته العلمية

كان الشيخ البازي رحمه الله تعالى مفرد العصر و نادرة الدهر ، بحرًا في العلوم و الفنون لا يجارى ولا يماثل ، فصيحًا بليغًا ، شاعرًا ، جامعًا للمنقول و المعقول ، مستنبط علم الجلالة ومخترعه ، نظير نفسه ، فريد الدهر ، من أذكياء العالم . له مؤلفات فريدة كثيرة مقبولة مشتملة على حقائق حقيقة و دقائق دقيقة و لطائف لطيفة وغرائب غريبة وعجائب عجيبة ومسائل فريدة و مباحث جديدة و استنباطات عظيمة و أسرار فنية مخفية دالة على مزية فطنته .

العالم العامل والفاضل الكامل **إمام الحرم الشريف فضيلة الشيخ محمد بن عبد الله السبيل** حفظه الله تعالى دائما يمدح الشيخَ البازي في مجالس علمية .

قَدِم إليه مرّةً وفد علماء الجامعة الأشرفيـة . فسألهم الإمام المذكور عن الشيخ البازي . فتحيّر

العلماء بأنه كيف يعرف عالمًا عجميًّا . ثم قال الإمام :

" يأتي إليّ العلماء و المشائخ من جميع نواح العالم و لكن ما رأيتُ و ما لقيتُ عالما أوسع علمًا و أدق نظرًا من الشيخ البازي " .

و قد تعددت تصانيف شيخنا الفاضل فزادت تصانيفه في مجال العلم على مائتين كتاب في علوم مختلفة وفنون شتّى مثل التفسير والحديث والمنطق والفلسفة والهيئة والنجوم القديمة والحديثة وعلم المرايا وعلم الأبعاد والصرف والنحو والبلاغة وسائر العلوم العربية وعلم التاريخ وغير ذلك .

والحقيقة التي لا يختلف عليها اثنان أن شيخنا الجليل ما ترك فنًّا من الفنون ولا علما من العلوم إلّا و ألف فيه كتابا أو رسالة ما يحيّر الألباب . و هـذا لا يتوفر لأي عالم من العلماء في هذا العصر رحم الله شيخنا الفاضل .

وفـاته

وبعد صراع مع المرض رحل أوحد أهل زمانه وفرد أوانه الشيخ الجليل في صلاة عصر الاثنين عن عالمنا . فلقي ربه بنفس آمنة مطمئنة في السّابع و العشرين من جمادى الآخرة سنة ١٤١٩ هجرية الموافق التاسع عشر من أكتوبر سنة ١٩٩٨ ميلادية وهو ابن ثلاث وستين سنة " يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۞ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً ۞ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۞ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ۞ ". ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث : صدقة جارية أو ولد صالح يدعو له أو علم ينتفع به " .

أبنـاؤه

ومن سعادات الشيخ البازي رحمه الله تعالى أن له أبناءً أربعة كل واحد منهم عالم فاضل بعلوم قديمة وعصرية داخلية وخارجية بتوفيق الله عز وجل . و بأدعية الوالد المشفق و بتوجهه التام و تعليمه وتربيته كل واحـد منهم أنموذج له و مصداق لكلمات النبوة على صاحبها ألوف التحية من أنه إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو ولد صالح يدعو له أوعلم ينتفع به . فكأنّ المرحوم يقول على

لسان الحال :

تلك آثارنا تدل علينَا فانظروا بعدنا إلى الآثار

و صحّ ما قيل : إن الولد سرّ لأبيه ، وكل إناء يترشح بما فيه .

فالأكبر منهم الشيخ محمد زبير الروحاني البازي خريج الجامعة الأشرفية بلاهور وفاضلُها ذهب إلى السعودية وكمّل تعليمه في مكة المكرمة بجامعة أمّ القرى و عاد إلى الوطن فناب مناب الوالد الفقيد بالجامعة الأشرفية . و الثاني منهم محمد عزير الروحاني البازي خريج الجامعة الأشرفية بلاهور . كان يدرس بالجامعة الأشرفية بعد فراغه من دروس الحديث للطلبة الواردين من أوروبّا وغيرها باللغة الإنكليسية . ثم رحل إلى أمريكا لإعداد رسالة الدكتوراه (بي ، أيج ، دي) وفّقه الله لتحصيلها و تكميلها .

و الثالث منهم محمد زهير الروحاني البازي و الرابع عبدالرحمن الروحاني البازي وكلاهما في مرحلة الاستفادة العلمية في رحاب الجامعة الأشرفية . وفّق الله الجميع لما يحب و يرضى .

و الله أسأل أن ينفعنا بعلوم شيخنا الجليل وأن يجعل علومه من الصدقات الجاريات والباقيات الصالحات لنا و للأجيال القادمة .

ثم بعد هذا البيان نسطر فيما يلي رسالة المحقق المدقق صاحب التصانيف الكثيرة البديعة الشيخ الروحاني البازي رحمه الله تعالى . و يبحث فيها الشيخ البازي رحمه الله تعالى عن حياته و أحواله و عن خدماته الدينيّة و العلميّة تحديثًا بنعم الله تعالى وشكرًا له . ندرجها هٰهنا بتمامها وبعبارتها من غيرزيادة ونقص رومًا لتحصيل مطلوب الطالبين لتراث السلف الصالحين .

هذه رسالة الشيخ البازي رحمه الله تعالى و سمّاها

كتيب
الحياة و بعض النشاطات الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على رسوله خاتم الأنبياء محمد و على آله و أصحابه أجمعين .

أمّا بعـد . فهذه خلاصة ترجمتي و ذكر بعض خدماتي في الإسلام والدعوة الإسلامية و في ميدان العلم و التاليف و غير ذلك .

ثم إن أحوالي و شئوني في هذا الموضوع تتنوع أنواعًا متعددة :

١ – منها بيان حياتي و ترجمتي بالاختصار .
٢ – و منها بيان مناظراتي في ردّ أهل البدع المرتكبين أعمالاً تخالف التوحيد .
٣ – و منها بيان مناظراتي الواقعة بيني و بين الكفرة النصارى وغيرهم .
٤ – و منها بيان مناظراتي الواقعة بيني و بين علماء الفرقة القاديانية أتباع غلام أحمد مرزا المتنبي الكذّاب الدجّال .
٥ – و منها بيان مناظراتي الواقعة بيني و بين منكري الأحاديث النبوية .
٦ – و منها بيان مناظراتي الواقعة بيني و بين أهل الرفض و التشيع .
٧ – و منها ذكر مَن أسلم و مَن آمن من الكفرة بدعوتي و إرشادي .

٨ - و منها ذكر ما خدمت العلم الإسلامي والمسلمين بتدريس جميع الفنون الإسلامية .

٩ - و منها ذكر مَن تابوا و أصلحوا من المسلمين بعد ما كانوا مجرمين سارقين تاركين للصلوات و الصيام .

١٠ - و منها ذكر أسفاري للإرشاد والدعوة الإسلامية وإصلاح المسلمين .

١١ - و منها ذكر ماخدمت العلم والدين بتاليف كتب كثيرة في فنون شتّى بلغات متعددة .

و كل ذلك محض فضل الله تعالى و توفيقه و إعانته و هدايته ولا حول ولا قوة إلّا بالله . و ما ذكرت هـذه الأحوال إلّا شكرًا لله عزّ و جل و تحديثًا بنعم الله تعالى لا تكبرًا و فخرًا . أعاذني الله تعالى من الفخر و التكبر .

ما بال مَن أوله نطفة و جيفة آخـره يفخر

ترجمتي و بعض أحوال نشـأتي

أنا محمد موسى ابن الزاهد التقي المولوي شيرمحمد البازي . مولدي قرية كَتَّهْ خَيْل . و كٹه خيل قرية من مضافات مديرية دَيْرَهْ إسماعيلْ خَان في إقليم سرحد من باكستان . كان جدّنا الأعلى من سُكّان بلدة غَزْني أو من سكّان حواليها من ولاية أفغانستان و اسم جدّنا هذا السيّد الشيخ أحمد الروحاني وقبره في سفح جبل من جبال غزني يزار و مشهور في تلك البلاد و كان من كبار أولياء الله تعالى .

و كذلك كان أبي الكريم من الصالحين الزاهدين أهل التقوى و العبادة و من أهل الكشف والمعرفة الباطنيّة . و كان أبي دائم الاستغراق في مراقبة الله و صفاته و أمور الآخرة ، و مع فقره كان جوده و سخاؤه مشهورًا . و لا يزال أهل قريتي كٹه خيل و حواليها من القرى يذكرون قصص جوده وكرمه العجيبة بطريق الاستعجاب والحيرة . قرأ والدي بعض الكتب الدينية على بعض العلماء في قرية كٹه خيل .

مات أبي في مرض طويل مرض اجتماع الماء في البطن والمعدة . وكنتُ عند موت والدي صغيرًا

ابن خمس سنين أو أصغر .

وعند زيارتي لقبر والدي سمعت مرارًا من داخل قبره تلاوة القرآن الشريف خصوصًا تلاوة سورة الملك التي هي منجية تلاوة واضحة جيدة بلسان فصيح و صوت حسن يأخذ بمجامع القلوب ويجذبها كأنّه مزمار من مزامير آل داود . و كنت أشعر بخوف و قشعريرة أوّلاً و كانت أمّي تشجّعني وتقول لي : لا تخف . فاستأنستُ بالتّلاوة و زال الخوف من سماع تلاوة القرآن من داخل قبره . وهذا من عجائب الكرامات .

و في كتب التاريخ أنّ بعض الناس كانوا يسمعون من قبر ثابت البناني العارف بالله تلاوة القرآن الشريف .

ثم بعد موت أبي ربتني والدتي الذاكرة لِله كثيرًا الصالحة الصائمة القائمة لِله تعالى وسبحانه .

ثم إن أبي و أمي من بني هاشم من السَّادات . وهذه منقبة منيفة عظيمة . ما أحسنها وما أجلها إن وفقني الله تعالى وسبحانه للطاعات والصالحات . فكل أمر مرهون بأعماله ونيّاته يوم القيامة .

وقاسينا مصائب كثيرة في زمن الصغر بعد موت الوالد رحمه الله تعالى .

قرأت علوم الدين بأمر والدتي رحمها الله تعالى و إرشادها حسب وصية أبي رحمه الله تعالى .

قرأت أوائل كتب الفقه و جميع كتب الفارسية على بعض علماء القرية . و هذا وفق طريق تعليم ديارنا في باكستان حيث يلزم للطالب قراءة الكتب الفارسية مثل كتاب پنج گنج و جلستان و بوستان لسعدي وغير ذلك من الكتب . ومع اشتغالي بهذه الدروس زمن الصغر كنت أخدم أمي وأساعدها في أمور تتعلق بداخل البيت وخارجه . وكنت أشتغل بجمع العلف لبعض دواب البيت وخدمة إتيان الماء من بعيد . و كان الماء في بعض الأوقات على مسافة ثلاثة أميال .

ثم خرجت بإشارة بعض العلماء لتحصيل العلم إلى بلدة عيسى خيل . و هذا أوّل خروجي لطلب العلم حينما كان عمري أقل من إحدى عشرة سنة .

فبدأت بعلم الصرف و حفظت عدة كتب منه في أشهر عديدة على شيخي فضيلة الشيخ محمد

رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى بإشراف المفتي محمود رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى .

ثم ذهبت معه إلى قرية أباخيل من قرى مديرية بَنُوں حين انتقاله إليها . فمكثت في أباخيل سنتين و حفظت هناك جميع كتب الصرف إلى الفصول الأكبرية و كتب النحو إلى الكافية و أوائل كتب المنطق على المولوي جان محمد و على المفتي الكبير الشهير في العالم المولوي محمود رحمه الله عزوجل .

ثم ذهبت مع الشيخ المفتي المذكور إلى قرية عبد الخيل . فبقيت معه هناك نحو سنتين وقرأت عليه شرح الجامي ومختصر المعاني وكتب المنطق إلى سلم العلوم والمقامات الحريرية و أصول الشاشي وشرح الميبذي لهداية الحكمة و شرح الوقاية في الفقه و بعض كتب القراءة و التجويد .

ثم سافرت إلى أكَورَهْ خَتَك . و هي بلدة معروفة من مضافات مديرية بشاور . و مكثت هناك في جامعة دارالعلوم الحقانية نحو سنتين و قرأت هناك جميع كتب المنطق إلاّ القاضي مبارك وجميع كتب الفلسفة من الطبعيات والالٰهيات و أقليدس و كتب الميراث و أصول الفقه إلاّ التلويح شرح التوضيح للتفتازاني و قرأت المطول و جميع كتب الأدب العربي .

وسافرت من أكوره ختك في الإجازات السنوية إجازات شهر رمضان إلى بلدة راوَلْبِنْدِي . فقرأت ترجمة القرآن الشريف و شرحه و تفسيره على المفسر الموحّد الكبير جامع الفنون مولانا غلام الله خان رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى .

ومولانا الشيخ غلام الله خان رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى كان رئيس الموحّدين وأهل السنة والجماعة وكان من أشدّ أعداء المبتدعين ، وكان سيفًا مسلولاً على رؤوس أصحاب البدعة . مضى عمره في الجهاد معهم . جزاه الله خيرًا و أدخله جنة الفردوس .

ثم ذهبت إلى ملتان و دخلت في الجامعة الكبيرة قاسم العلوم . فمكثت فيها ثلاثة أعوام وتخرجت من جميع العلوم من الفقه والحديث والتفسير والمنطق والفلسفة والأصول وعلم التجويد وعلم القراءة قراءات السبع ، و قرأت جميع الكتب المهمة الباقية .

ثم عينت أستاذًا ومدرسًا في المدرسة الجامعة مطلع العلوم في بلدة كَوِئِتَهْ من إقليم بلوجستان

إلى مدة . و كنت في جامعة مطلع العلوم رئيس جميع الشيوخ المدرسين في هذه الجامعة .

ثم عينت ريئس المدرسين والشيوخ في جامعة إسلامية في بلدة بوريواله من إقليم بنجاب .

ثم انتقلت إلى جامعة قاسم العلوم بملتان من إقليم بنجاب و كنت فيها الأستاذ الأعلى .

ثم إلى الجامعة الأشرفية ببلدة لاهور من إقليم بنجاب وهي أشهر وأكبر جامعة في دولة باكستان .

فأنا من سنة ١٩٧١م إلى هذا الزمان شيخ الحديث والتفسير و الفقه و الفنون في هذه الجامعة الكبيرة و مشغول بالتدريس فيها .

القسم الأوّل من منن الله تعالى على هذا العبد الضعيف

ثم إن لِله تعالى وسبحانه عليّ في باب العلم مننًا ونعمًا لا تعدّ ولا تحصى . خصّني بأمور علمية شريفة و منن عظيمة منيفة من بين علماء هذا العصر . أقول هذا تحديثًا بنعمة الله الكريم وشكرًا لجزيل آلائه لافخرًا و رياءً ، وكيف يفخر مَن أوله نطفة وآخره جيفة و بين يديه القبر وعقبات الآخرة لا يدري فيها مصيره و فيها يسئل عن ذرة من أعماله .

ما بال مَن أوله نطفة و جيفة آخره يفخر

١ – فممّا مَنَّ الله تبارك وتعالى به عليّ أني ما سكنت في مدرسة وجامعة للتحصيل إلّا وأنا كنت أسبق الطلبة و فوقهم في نتائج الامتحانات والاختبارات . وما سبقني في ذلك أحد منهم بل ما ساواني منهم طالب قط . وهكذا كان حالي إلى أن تخرجت من العلوم كلها حتى أن بعض الطلبة من الرفقاء كانوا يجتهدون إلى غاية ويحفظون كتب الدرس للامتحان خفية كي يفوقوني في حلبة المسابقة مسابقة امتحانية لكن ما نجح أحد بمرامه . هذا . ولِله الحمد . وحتى أن الشيوخ والطلبة كانوا يتحيرون ويتعجبون من شدة ذكائي و قوة حافظتي و سعة مطالعتي و إحاطتي بما في كتب الدرس زمن التعليم . وهنا قصص من هذا الباب كثيرة أطوي عنها الكشح اختصارًا .

٢ – و ممّا مَنَّ الله تبارك وتعالى به عليّ أني كثيرًا ما كنت أحل المسائل المشكلة في الفنون أو العبارات الصعبة في الكتب حلًّا يندمغ به الإشكالات في زمن الطلب والتحصيل و قد عجز عن حلها المدرسون الكبار بل أساتذتي العظام . فكانوا يختبرونني بأسئلة استصعبوها أو عجزوا عن حلها و يمتحنونني في الدروس بمواضع صعبة من العبارات في الكتب التي قد قضوا عليها بالغلط وأنا لا أعرف حالهم . فكنت أحلها بداهةً و أقرر تقريرًا ينتفي به إشكال الكلام و ينحل المرام . فيتعجبون تعجبًا . و كل ذلك بإحسان و إلهام من الله تعالى وسبحانه و لا فخر . و هذا أمر غريب قلما رآه أحد من العلماء في المتعلمين . و هنا غير واحد من الأخبار والقصص المتعلقة بهذا الباب أترك ذكرها .

٣ – و ممّا مَنَّ الله تبارك وتعالى به عليّ أن الخصلة المذكورة لي باقية إلى الآن بل ازدادت ازديادًا بتوفيق الله تعالى و إحسانه . ولله الحمد والمنة . فأذكر بتوفيق الله تعالى أثناء الدروس للطلبة و في التصنيفات توجيهات و أسرارًا من عند نفسي في حل المعضلات العلمية و المغلقات من فنون شتّى كالتفسير والحديث والفقه والأصول والمنطق والفلسفة وعلم الأدب العربية وغير ذلك . فلي توجيهات جيدة وتقريرات قوية في غير واحد من مغلقات هذه العلوم تعانق القلوب وتصافح الأذهان وتدخل الأذن قبل الإذن قد خلت عنها الزبر . و مصنفاتي و دروسي شاهدا عدل على ذلك . و مَن شك فليرجع إلى كتبي نحو " بغية الكامل " و " فتح العليم " و " فتح الله " وغير ذلك .

٤ – و ممّا مَنَّ الله تعالى به عليّ أنه وفّقني بفضله وكرمه لاستخراج أجوبة كثيرة خلت عنها الزبر واستنباط غير واحد من توجيهات و وجوه ما فتق بها الآذان من قبلي . وذلك عند حل سوال علمي مهم و دفع مشكلة علمية قوية . حتى أني ربما أذكر في حل سوال واحد نحو عشرة وجوه من الأجوبة و التوجيهات أو نحو عشرين أو أكثر إلى عدة مآت . و كتبي تنبئك ماسطرت إن طالعت و حققت ، و يثلج بها صدرك إن فتشت و دققت .

و هذا الاستكثار من الأسرار المكتومة و الدقائق المكنونة و العلوم السنية و الوجوه العلية نعمة من الله تعالى عظيمة . ولا يقدر على الاستكثار هذا إلّا مَن رزق سعة العلم و بسط المطالعة و دقّة النظر و ذاكرة قوية و ذهنًا غوّاصًا بفضل الله وكرمه . و إن شئت مصداق ذلك فارجع إلى بعض

تصانيفي . فذكرت في كتَابي " فتح العليم" نحو مائة و تسعين جوابًا و توجيهًا لحل الإشكال العظيم في تشبيه حديث " كما صليت على إبراهيم" مع أسرار و دقائق علمية كثيرة من هذا الباب .

حتى قال بعض العلماء بعد رؤية " فتح العَـليم" : ما سمعنا أن أحدًا من العلماء القدماء ذكر لمسألة علمية هذا القدر من عدد الأجوبة والتوجيهات بل ولا نصفها . و قال بعض كبار أئمة الحرمين الشريفين عند مطالعة " فتح العليم ": إن أمثال هـذه التحقيقات لا يقدر عليها عامة علماء العصر ، و إنما كان هذا شان العلماء قبل خمسمائة سنة أو أكثر من ذلك .

وأنهيت في " فتح الله " وجوه خصائص الجلالة إلى ما ينيف على سبعمائة و خمسين خاصة . فلا يطلع أحد من الفضلاء على هذا الكتاب إلّا و هو يتعجب من جمع هذه الخصائص الكثيرة . أقول هذا تحديثًا ولا فخر .

ورأيت في السلف الشيخ العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى ممتازًا في هذه الخصلة السنية حيث سلك في غير واحد من كتبه هذا المسلك من ذكر أجوبة و وجوه كثيرة لحل سوال واحد أو إيضاح مطلب واحد . فأنا متبع منهجه وسالك سبيله و إن كنت قليل البضاعة ذاقلم مكسور وصدر مصدور و أنى للظالع أن يدرك شأو الضليع .

أَسِيْرُ خَلْفَ رِكَابِ النُّجْبِ ذَا عَرَجٍ مُؤَمِّلًا جَبْرَ مَا لَاقَيْتُ مِنْ عِوَجِ
فَإِنْ لَحِقْتُ بِهِمْ مِنْ بَعدِ ما سَبَقُوْا فَكَمْ لِرَبِّ السَّما في النَّاسِ مِنْ فَرَجِ
وَ إِنْ ظَلَلْتُ بِقَفْرِ الأَرْضِ مُنْقَطِعًا فَمَا عَلَى عَرَجٍ في ذَاكَ مِن حَرَجِ

و حق و الحق أحق أن يحق أن البعيد قريب إذا التقى العـزم و التّوفيق كما أن القريب بعيد إذا تلاقى التفريط و التعويق .

٥ – و ممّا مَنّ الله تعالى به عليّ تصنيفي لكتب كثيرة في فنون شتّى . وسهل الله لي طريق التاليف والتصنيف و أسباب ذلك بتوفيقه و فضله . فصنفت نحو مائة كتب في فنون مختلفة من التفسير والحديث والمنطق والفلسفة والهيئة و النجوم القديمة و الحديثة و علم المرايا و علم الأبعاد و الصرف والنحو

و سائر العلوم العربية و البلاغة و علم التاريخ وغير ذلك . وأقول كما قال بعض القدماء من العلماء : ما من مسألة مهمة من مهمات الفنون و العلوم إلاّ و أنا أستطيع بفضله تعالى وكرمه أن أؤلف فيها كتابًا كبيرًا أو رسالة بتوفيق الملك المنعام . و الحمد لله على إحسانه و كرمه .

٦ – ومِمّا أنعم الله تعالى به عليّ في باب التصنيف أن جعل تسويدي للتصانيف تبييضًا لها ومسودتي مبيضة على ما جمعت علومًا كثيرة وحوالات على كتب الأئمة متوفرة . ولله الحمد و المنة و لا فخر .

و هذه خصلة نادرة الوجود مَنّ الله تعالى وسبحانه بها عليّ فيما بين العلماء الكبار . فإن المصنفين أغلبهم يسودون أولاً بجمع المسائل من غير رعاية ترتيب و من غير لحاظ تحسين ونحو ذلك ثم يرجعون و يكررون النظر فيها فيبيضون بتغيير ما كتبوا أوّلاً و إيقاع نبذ من المحو و الإثبات فيها . و كون المسودة مبيضة قل مَن يتصف بها . و يعدّ هذا الوصف من النوادر و يورد في أثناء المدائح .

ولذا قال الشيخ عبد الحي اللكنوي رحمه الله تعالى : و إني أحمد الله حمدًا كثيرًا على أنه جعلني فيما بين علماء عصري متصفًا بهذه الصفة و جعل مسوداتي لمؤلفاتي مبيضة أو كالمبيضة . انتهى . قال الجلال السيوطي رحمه الله تعالى في طبقات النحاة عند سرد أحوال العلامة قطب الدين الشيرازي شارح حكمة الإشراق و القانون و التحفة الشاهية و نهاية الإدراك : إن مسودته مبيضة . انتهى .

٧ – و مما مَنَّ الله تعالى به عليّ التبحر في العلوم كلها النقلية و العقلية من التفسير و الحديث والفقه والكلام والأصول و المعاني والبيان و النحو والصرف و الاشتقاق و اللغة العربية و سائر علوم العربية وما يتعلق بذلك و المنطق و الطبعيات والإلهيات و علم السماء والعالم والهندسة وعلم الهيئة القديمة اليونانية والهيئة الحديثة الكوبرنيكسية . و لي تصانيف في هذه العلوم و تعاليق على كتبها .

بل أعرف بالضبط و المعرفة الجيدة غير واحد من الفنون التي لا يعرفها علماء العصر فضلاً عن التبحر و التمهر فيها . و مشايخي الكبار وأكابر علماء العصر الذين هم في مرتبة مشايخي يعترفون لي بذلك . و ربما جعلوني حكمًا في تحقيق بعض المسائل المختلفة المهمة و ربما فوضوا إليّ تحقيق مباحث مهمة معضلة عجز عن تحقيقها علماء الزمان عن آخرهم و طلبوا مني بسطها و تحقيقها ، فحققتها بالأدلة المقنعة و استقصيت الكلام فيها بالأدلة الشافية الكافية بتوفيق الله تعالى و فضله . فسلموا لذلك و أعجبهم ما

ذكرت و عملوا بوفق ما حررت و حققت . ولله الحمد و المنة .

و بالجملة سهل الله تعالى لي هذه العلوم لاسيا العلوم العقلية من المنطق والفلسفة بأنواعها حيث وهب لي فيها مقام المجتهد المطلق . فأبحث في فصولها و أبوابها وأحكامها وأسبابها بالنقض والإبرام و بذكر الحقائق السنية و إيراد الدقائق العلية حسب أصول المعقول كأني مجتهدها و مؤسسها و أخوض في مباحث لم يخض فيها أحد قبلي وأستنبط علومًا وأسرارًا لم يطمثهن أحد من قبلي وأستنبط خرائد لم يطمثهن أحد غيري .

و أبدي في الدروس بين حلقات الطلبة و العلماء من النكات المخفية والعلوم المستورة ما يظن السامع أن عمري مضى في هذا الفن الواحد و في استحكامه . و هكذا حال درسي لجميع كتب الفنون العقلية والنقلية . و هكذا يحسب سامع كل درس لي في جميع الفنون . و ذلك لكثرة ما يسمع من النقض و الإبرام على وفق الأصول و ضبطي للأصول و الفروع ، و لكثرة ما يقرع سمعه من بدائع اللطائف و لطائف البدائع . ولله الحمد و لا فخر .

ذكرت نبذًا مما مَنّ الله به عليّ تحديثًا بالنعم و ترغيبًا للطلبة والعلماء في جمع العلوم و هدايةً لهم إلى مسالك الفنون و اشارةً لهم إلى أن من جدّ وجد و من دقّ الباب و لَجَّ وَلِجَ . و لنعم ما قيل :

بجد لا بجد كُل مجد　　وهل جد بلاجد بمجد

هذا . والله أعلم و علمه أتم و فضله أجل و نعمه أكمل .

٨ – تبليغ الإسلام و الدعوة إليه و ترغيب الناس إلى الإسلام و إلى الشرائع الدينية والعلوم الإسلامية و ترهيبهم من الكفر و المعاصي من أهم فرائض العلماء ورثة الأنبياء .

و التبليغ نوعان :

الأوّل تبليغ الإسلام لغير المسلمين و دعوتهم إلى أن يؤمنوا بالله تعالى و يوحّدوه و يؤمنوا بصدق نبينا ﷺ و صدق ما جاء به من الشريعة .

والنوع الثاني إرشاد المسلمين العصاة المنهمكين في اتباع الهوى التاركين للصلوات المعرضين

عن عمل الحسنات و الصالحات .

و كل واحد قسمان :

الأوّل باللسان و هو ظاهر .

و الثاني بالقلم كالتصانيف و إذاعة الأحكام الإسلامية و إشاعة تفصيل الموضوعات الدينية بأدلتها المقنعة في الجرائد .

هذه أربعة أنواع الإرشاد و التبليغ .

والله تعالى بفضله و منّه وفّقني للعمل بجميع أنواع الدعوة و الإرشاد . و الحمد لله و المنة .

فقد أسلم بإرشادي و جهدي المسلسل في ذلك أكثر من ألفي نفر من الكفّار و بايعوا على يدي و آمنوا بأن الإسلام حقّ و شهدوا أن الله تعالى واحد لا شريك له و دخلوا في دين الله فرادى و فوجًا .

حتى رأيت في بعض الأحيان أسرة كافرة مشتملة على عشرة أشخاص فصاعدًا أسلموا و بايعوا للإسلام على يدي بإرشادي في وقت واحد و ساعة واحدة . والحمد لله ثم الحمد لله .

و في الحديث : لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك مما تطلع عليه الشمس و تغرب .

خصوصًا أسلم بإرشادي وتبليغي نحو خمسين نفرًا من الفرقة الكافرة الملحدة القاديانية أصحاب المتنبي الكذّاب الدجّال مرزا غلام أحمد .

و أسلم غير واحد من الفرقة الكافرة طائفة الذكريين بإرشادي ونصحي و بما بذلت مجهودي وقاسيت المشقة الكبيرة في الإرشاد و التبليغ .

والفرقة الذكرية فرقة في بلادنا لايؤمنون بكون القرآن كتاب الله تعالى ولا يحجون إلى كعبة الله المباركة بل بنوا بيتًا في ديار مكران من ديار باكستان يحجون إليه و لهم عقائد زائغة .

وأمّا إرشادي المسلمين العصاة التاركين لأداء الزكاة والصلوات والصوم وغيرها فله نتائج طيبة و أحسن و أحسن . ولِله الحمد والفضل و منه التوفيق . فقد تاب آلاف من المجرمين المجاهرين بالفسق من الرجال والنساء وأصبحوا من مقيمي الصلوات و توجهوا إلى أداء الزكاة والصوم والأعمال الصالحة ،

و تبدلت حياتهم و انقلبت أحوالهم . ولا أحصي عدد هولاء التائبين لكثرتهم .

خدمتي الإسلامية في المناظرات

٩ – قد اتفقت لي مناظرات كثيرة لسانية مشافهة في المجالس و قلمية أي بالرسائل مع غير واحد من الكفرة الفجرة .

و ألقيت نفسي لهذا المرام الإسلامي في مهالك ومقاتل تستنتج القتل غالبًا و كان الناس يظنون فيها أن المفسدين الكفرة يحتالون في قتلي لكن إلى الآن حفظني الله عزوجل ، كيف و مَن كان لِلّٰه كان الله له . فالحمد لله و له الفضل . نعم أصابني من الكفرة و الفجرة مصائب كثيرة . والله حسبي نعم المولى و نعم النصير .

مناظراتي مع القاديانيّين الكفرة

١٠ – ناظرت كثيرًا و مرارًا علماء القاديانية فرقة أصحاب المتنبي الكافر الدجّال غلام أحمد مرزا . وهزمتهم و دمغت أقوالهم و أدلتهم التي اعتمدوا عليها .

و رأيت غير مرة أن نفرًا منهم بعد المنَاظرة جاؤا إليّ و أسلموا و أيقنوا أن ذلك المتنبي مرزا غلام أحمد كافر دجّال .

و أخبروني أن القاديانيين يقولون في مجالس خلواتهم : إنّ الشيخ محمد موسى البازي رجل منطقي فلسفي نحوي متكلم محدث مفسر جامع للفنون و العلوم كلها . ما ناظرنا أحدًا أجمع و أكبر علمًا من هذا الشيخ محمد موسى البازي . ولله الحمد و المنة .

مناظراتي مع النصَارى

١١ – ناظرت غير واحد من كبار علماء النصارى و أبطلت مايزعمون من إلهِيّة عيسى عليه الصلاة والسلام و أثبتُّ بأدلّة كافية شافية أن عيسى عليه الصلاة والسلام عبد الله و رسوله و أنه حيّ في السماوات .

مناظراتي مع أهل التشيع و الروافض

١٢ – ناظرت كثيرًا كثيرًا في بلاد شتّى الروافض و الشيعة و رددت خرافاتهم وأباطيلهم و كشفت عن عقائدهم الزائغة و أثبتُّ بأقوال أئمتهم و حوالات كتبهم المعتبرة و الدلائل العقلية و الآيات و الأحاديث بطلان ما زعموا و اعتقدوا . و هذا أمر طويل .

مناظراتي مع طائفة غلام أحمد برويز منكر حجية الأحاديث النبوية

١٣ – في باكستان و الهند فرقة للزنادقة و الملاحدة يقولون : إن القرآن يكفي لمعرفة جميع أمور الشريعة المحمدية .

و يقولون : إنه لا حاجة إلى التمسك بالسنة النبوية . و يقولون : إن الأحاديث النبوية في الصحاح الستة وغيرها كلها باطلة وضعها أعداء الإسلام و ضعفاء المسلمين (أعاذنا الله من شرهم) . وصنفوا في ذلك كتبًا كثيرةً ولهم أتباع كثيرون في دول متفرقة .

و قد اتفقت لي مناظرات كثيرة مع كبيرهم غلام أحمد برويز الزنديق . و ذلك في مجالس و مواقع كثيرة خصوصًا في مجالس ذوي العلم و النهى مجالس محكمة القضاة و وكلاء القضاة ماهري العلم الجديد .

فإن هذا الزنديق المذكور أضلّ ناسًا و قضاة و وكلاء القضاة و غيرهم . و بعد مناظراتي معه تابوا ورجعوا إلى الإسلام وإلى أن السنة النبوية لا غنى عنها في الإسلام .

وكانت لهذا الزنديق غلام أحمد برويز ردود و اعتراضات على الأحاديث النبوية والآثار و على بعض الأصول الإسلامية عجز عن جوابها كثير من العلماء فأبطلتها و دمغتها بما فتح الله تعالى عليّ حتى اطمأنت قلوب الناس الموجودين في تلك المجالس . ولله الحمد و منه التوفيق .

مناظراتي مع أهل البدعة

١٤ – في بلادنا أصحاب البدعة كثيرون . و لهم شوكة و قوة و كثرة . و قد وقعت بيني و بين علمائهم مناظرات ومباحثات رددت فيها على بدعاتهم وخرافاتهم و رسومهم التي اخترعوها وجعلوها جزءً للإسلام و لأحكامه .

وهذه المناظرات بعضها لسانية وقعت في محافل الناس و بعضها قلمية . و أبطلت مزعوماتهم الباطلة و رسومهم المدمرة بأدلة قوية منقولة و معقولة . ولله الحمد و المنة .

أسفاري للتبليغ والدعوة الإسلامية

١٥ – سافرت إلى بلاد نائية في أطراف دولتنا باكستان بل إلى دول خارجة أسفارًا كثيرةً و ذلك للإرشاد و تبليغ أحكام الإسلام والدعوة الدينية . وألقيت هناك خطابات كثيرة في مجالس حافلة .

والحمد لله تعالى على ما رأيت لهذه الأسفار فوائد كثيرة ونتائج طيبة ، إذ صلحت الأحوال الدينية لآلاف الناس و تابوا من ترك الصلوات و ترك الصوم و ترك الفرائض ومن جرائم كثيرة كانوا يرتكبونها وتوجهوا إلى الأعمال الصالحة . فالحمد لله ثم الحمد لله .

خدمتي الإسلامية العلمية بالتصنيف

١٦ – تصانيفي بعضها باللغة العربية و بعضها بلغة الأردو و بعضها بالفارسية وغيرها من الألسنة . ثم إن بعضها مطبوعة وبعضها غير مطبوعة لعدم تيسر أسباب الطباعة . و بعضها صغار و بعضها كبار وبعضها في عدة مجلدات .

وقد وفّقني الله تعالى للتصنيف في جميع الفنون الرائجة قديمًا وحديثًا في علماء الإسلام رحمهم الله مثل فنّ علم التفسير و فنّ أصوله و علم رواية الحديث و علم الفقه و أصوله و علم اللغة العربية و الأدب العربي و علم الصرف و علم الاشتقاق و علم النحو و علم الفروق اللغوية و علم العروض و علم القافية وعلم أصول العروض و في الدعوة الإسلامية والنصائح و علم المنطق و علم الطبيعي من الفلسفة و علم الإلهيات و علم الهيئة القديمة و علم الهيئة الحديثة و علم الأخلاق و علم العقائد الإسلامية وعلم الفرق المختلفة و علم الأمور العامة و علم التاريخ و علم التجويد و علم القراءة . ولله الحمد و المنة .

وكذلك درست بتوفيق الله تعالى في المدارس والجامعات كتب أكثر هذه الفنون إلى مدة . ولله الحمد والمنة .

القسم الثاني من منن الله تعالى على هـذا العبد الضعيف

هذا . ولله تعالى وسبحانه عليّ في باب العلم والتبليغ و خدمة الإسلام والمسلمين نعمًا و مننًا لا تحصى . ولله الحمد . ذكرت عدة من هذه النعم في القسم الأوّل من هـذا الكتيب الخاص .

و أذكر نبذًا من شئوني و أحوالي من هذا الموضوع في القسم الثاني .

و لم أرد من ذكر هـذه المنن إلاّ تحديثًا بآلاء الله تعالى شكرًا لجزيل نعمه لا فخرًا و رياءً . وكيف يفخر مَن حاله ما قال الشاعر :

ما بال مَن أوله نطفة و جيفة آخـره يفخر

١ – فممّا أنعم الله تعالى و سبحانه عليّ أني في جميع المدة المذكورة من قبل أي مدة التدريس و التعليم (بل في زمان تحصيل العلم و طلبه أيضًا) ما زلت مبلغًا مذكرًا واعظًا آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر .

فما زلت و لا أزال ألقي الخطابات تبليغًا و عظةً في مجالس و حفلات هائلة كبيرة مزدحمة مشتملة على آلاف السامعين من الخواص والعوام . وأسافر لهـذا الموضوع إلى بلاد نائية في أقاليم باكستان و أرجائها لطلب الناس إيّاي و لغـير طلبهم . و رأيت لهـذه المواعظ و الخطابات نفعًا كثيرًا و خطاباتي هذه باللغة الشعبية الأردو و غيرها .

٢ – وممّا أنعم الله جَـلّ جلاله وعمّ نواله عليّ أنني ما زلت خطيبًا للجمعة في بعض المساجد الكبيرة الجامعة مواظبًا على إلقاء خطاب و موعظة من قبيل النصيحة والتبليغ والأمر بالمعروف و النهى عن المنكر بلغة الشعب الباكستاني في كل جمعة قبل صلاة الجمعة غالبًا و بعدها في بعض الأيام . و ذلك في مجمع حافل و جم غفير من السامعين المستمعين . و رأيت الناس يأتون لسماع مواعظي من أطراف البلاد وحدانًا و أفواجًـا و ذلك في كل يوم جمعة .

و ظهر لخطاباتي و مواعظي بفضل الله تعالى وسبحانه نفع كثير و تاثير غريب في القـلوب . ولله الحمد . قال الله تعالى : وَ ذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ .

حتى تاب ببركة ذلك من المعاصي و فعـل المنكرات آلاف من الفسقة الفجرة العصاة من

تاركي الصلوات والصوم والحج و غير ذلك من الفرائض ، و من السارقين و قطاع الطريق و من الخائنين والغاصبين و آكلي الربا والمقترفين للفحشاء والمنكر ومن الروافض السابّين أصحاب رسول الله ﷺ و من الفرقة المبتدعة الضالّة وغير هؤلاء من الطغاة .

٣ – و ممّا أنعم الله تعالى وسبحانه عليّ أنه وفّقني لخدمة العلم والإسلام والمسلمين وخصّني لهذا الشغل الديني الإيماني و عصمني من الأمور الدنيوية كالتجارة و نحو ذلك من الأمور التي تعوق عن خدمة الإسلام والعلم والمسلمين . و الحمد لله جل مجده على أن لم يحبب إليّ مكاسب الدنيا و مجلبة الأموال و حطام الدنيا الفانية اللاهية . فإن حبّ الدكاكين و بناء المصانع و تحصيل العقار و إحياء الأراضي والبساتين بالزرع و صرف العمر في ذلك و مضي الأوقات الغالية في السوق و هيشاتها غرور و خسارة .

أين هذه الأمور الفانية من العلم الديني و التصنيف و تدريس الحديث النبوي و التفسير و مطالعتهما و من الخدمة في سبيل الإسلام و المسلمين .

٤ – و ممّا أنعم الله جلّ وعلا عليّ أن أوقاتي كلها أو جلها ليلاً و نهارًا مشغولة في أمور ثلاثة . ولله الحمد و المنة .

الأمر الأوّل : ذكر الله تعالى وسبحانه والدعاء في الخلوة و الجلوة وما يقتضيانه أساسًا و فرعًا .

الأمر الثاني : الخدمة في سبيل الإسلام و المسلمين و التذكير و إلقاء الخطابات و العظة والإنذار و التبشير و الترغيب و الترهيب و إصلاح الأمة و الدعوة إلى الله تعالى و الإرشاد إلى صراط مستقيم صراط الذين أنعم الله تعالى عليهم . ولله الحمد و المنة .

الأمر الثالث : العلم من باب التدريس والمطالعة لكتب الحديث والتفسير والفنون المختلفة وكتابة العلوم و تحرير المسائل و الأسرار و المباحث و التفكر في ذلك .

فما نمت حياتي على الفراش (ما خلا زمن السفر والمرض) إلّا وأكتب العلم وأبحاثه . فإذا تعبت من الكتابة أستريح على الفراش مضطجعًا و آخذ كتابًا أطالعه و بيدي قلم أعلم به على مواضع الحوالة في التصنيف والتاليف وهكذا إلى أن يغلبني النوم فأضع الكتاب و أنام .

هذا ديدني و عادتي المستمرة . ولذا لاتزال توجد ذخيرة كبيرة من الكتب عند رأس فراشي .

ولا أذكر في حياتي إلّا ما شاء الله تعالى (وإلّا نادرًا بل أندر) أني نمت على الفراش مثل نوم عامة الناس من غير مطالعة كتاب . ولله الحمد والفضل .

٥ – و ممّا أنعم الله تعالى وسبحانه عليّ أنه وفقني للتاليف و التصنيف و حبب إليّ ذلك . فما تمضي أوقاتي كلها أو جلها إلّا في ذكر الله تعالى وعبادته وطاعته و في العلم وخدمته والمطالعة والجمع والتاليف و التصنيف و الترصيف .

فألفت كتبًا كثيرةً في كل فنّ . وهذا الأمر نادر في هذا الزمان فقلّ مَن صنّف في فنون كثيرة .

حتى أرى كثيرًا من العلماء متحيرين متعجبين عن جمعي للفنون و تمهري في تلك الفنون الكثيرة و عن تصنيفي في جلها . ولله الحمد و المنة .

٦ – و ممّا أنعم الله تعالى به عليّ أنه وفقني في زمن التحصيل وطلب العلم و في زمن التدريس بعده إلى الآن للمجاهدة في حفظ الكتب والمسائل و لبذل المجهود في مطالعة أسفار العلوم و استفراغ الطاقة في توسيع دائرة الاطلاع على العلوم و الفنون .

ولا آلو جهدًا في الجمع والمطالعة للكتب و ربما ينفجر عليّ الفجر الصادق في الليالي الطويلة و أنا مشغول في المطالعة و التاليف و أسهر سهرًا من غير أن تذوق عيناي النوم .

فأقوم واضعًا للقلم و الكتاب إلى صلاة الفجر . هكذا حالي الآن و كذا كانت حالي و عادتي في زمان طلب العلم . ولله الحمد و المنة و الفضل .

كيف و قد قال الإمام القاضي أبو يوسف رحمه الله تعالى : العلم لا يعطيك بعضه إلّا إذا أعطيته كله . أي كل الأوقات . وحكي عن بعض كبار المشايخ أنه كان يطالع الكتب ساهرًا سائر الليل فإذا انحلت له معضلة دينية و مشكلة علمية قال : أين هذه اللذائذ لأبناء الملوك . وأشار إلى لذة حل المشكلات من المسائل و الأبحاث .

و حكي أن الإمام محمد بن الحسن رحمه الله تعالى كان يطالع الكتب و يشتغل بحل الأبحاث العلمية

سائر الليل . و كان يدفع النوم بالماء البارد و يقول : النوم من الحرارة فلابد من دفعه بالماء البارد .

و ما أحسن ما قيل :

فمن رام المنى ليلا يقوم　　　ومن طلب العلى سهر الليالي
يغوص البحر من طلب اللآلي

٧ – و ممّا أنعم الله جل مجده عليّ و الحمد لله على ذلك حمدًا كثيرًا برؤيتي في زمان طلب العلم مبشرات كثيرة .

و في الحديث المرفوع الصحيح : لم يبق من النبوة إلاّ المبشَّرات . قالوا : و ما المبشرات يا رسول الله ؟ قال : الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له .

و أخرج الترمذي عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا : أن الرسالة و النبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي و لا نبي . قال : فشق ذلك على الناس . فقال : لكن المبشرات . فقالوا : يا رسول الله ! و ما المبشرات ؟ قال : رؤيا المسلم و هي جزء من أجزاء النبوة .

و أخرج الترمذي عن عبادة بن الصّامت رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى " لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ". قال : هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له .

و أخرج الترمذي عن أبي الأحوص عن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : مَن رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي .

فرأيت في أيّام طلب العلم النبي صلى الله عليه وسلم مرارًا و بشّرني ببشارات متعددة . منها البشرى بأنّ الله تعالى وسبحانه يجعلك من العلماء و يوفقك للتاليف والتصنيف في فنون كثيرة ، و أوصاني بالتقوى و الورع .

و ها أنا معترف بالقصور و العجز و التواني و الكسل .

و إنما الرؤيا تسر وما أشرت إلى المنامات المباركة إلاّ لأنها تسر المؤمنين وأن كل مؤمن يفرح بها .

و إلاّ فمعتقدي و معتقد أسلافنا الكرام أن مناط النجاة و مدار الفلاح في الدارين التوحيد و التقوى و الأعمال الصالحة و اتباع أحكام الشريعة الغراء الإسلامية . فأدعو الله تعالى وسبحانه أن

يغفر زلّاتي و يستر عوراتي و أن يجعلني من العلماء الصالحين لا من العلماء المفسدين و أن يعصمني من البدعة و الحدث في الإسلام . إنه تعالى بالإجابة جدير و على كل شيء قدير .

٨ – ومِمّا أنعم الله عزوجل به عليّ أنه هيّأ لي أسباب التعليم و سنى لي أسباب التدريس و مجالس التلاميذ الجمّ الغفير و جعلني مدرسهم و أستاذهم في فنون العلم سيما في فني التفسير و الحديث . و هذه نعمة لله تعالى عظيمة . ولله الحمد و المنة .

و كلّ شيء رهين أسبابه حسب قضاء الله تعالى و مجالس الدراسة و التدريس ومحافل الطلاب من أسباب العلم و الإرشاد و التبليغ كما لا يخفى .

وحكي أن بعض الكبار من العلماء السالفين لم يرزقوا مجالس الطلاب وحرموا رونق الدرس فكانوا يتأسفون لذلك طوال حياتهم .

و الحمد لله تعالى حمدًا لا نهاية له على أن يسر لي أسباب إشاعة العلم و شرفني بمجالس دروس مستمرة حاوية على جم غفير من التلاميذ وحبب دروسي إليهم ومنحني حظًّا وافرًا من شهرة حسنة جذابة لقلوب طلبة العلم إلى القراءة والدخول في صفوف دروسي و صيتة وافية جلابة للمتعلمين عطشى الفنون لاسيما عطشى فني التفسير والحديث حيث يأتون إلى جامعتنا الأشرفية لسماع دروسي وللقراءة عليّ فوجًا فوجًا من كل فجّ عميق و من بلاد نائية بل من دول أخرى خارجة عن باكستان أيضًا .

حتى أن جماعة طلابي وتلاميذي في درس الحديث النبوي حديث النبي ﷺ الموجودين في جامعتنا الأشرفية للقراءة عليّ كتب الحديث المبارك في هذه السنة ١٤٠٦-١٤٠٧ﻫ و كذا في كل سنة أكثر و أكبر عددًا من طلبة الحديث الموجودين في كل جامعة من دولة باكستان . و هكذا حال دروسي الحديثية كل سنة في هذه الجامعة .

٩ – و مِمّا أنعم الله تبارك و تعالى به عليّ أن تلاميذي الواردين لديّ لتحصيل العلم و قراءة الفنون عليّ لاسيما فن الحديث المبارك ليسوا من دولة باكستان فحسب .

بل يأتون كل سنة للقراءة والدخول في جامعتنا الأشرفية من دول كثيرة غير باكستان أيضًا من الهند و إيران و أفغانستان و الجزائر و ماليزيا و بورما و بنغله ديش و الفيلبين و يوغنده و نيجيريه

وغينيه و نيروبيه و غير ذلك من دول قارة أفريقيا .

و من بلاد سمرقند ، بخارا ، تاشقند الداخلة في دولة الاتحاد السوفيتي .

١٠ – و ممّا أنعم الله جل جلاله عليّ أن منحني التمهر في العلوم الشائعة كلها وحباني الحذاقة و الإتقان لجميع الفنون الذائعة المشهورة في أسلافنا الكرام من العرب والعجم منذ ألف سنة فصاعدًا و في فنون نصاب التعليم الرائج في بلاد الهند و باكستان و افغانستان و غيرها المسمى بالدرس النظامي والنصاب النظامي .

و ذلك فضل الله و كرمه ، فله الحمد و الفضل .

و هذه أسماء الفنون التي أعرفها بالضبط و أتقنها و تدرس و تعلم في جامعات بلادنا و مدارسها وكانت تدرس وتحصل في عهد أسلافنا العظام منذ ألف سنة فصاعدًا :

علم الحديث ، علم التفسير ، علم الفقه ، علم أصول التفسير ، علم أصول الحديث ، علم أصول الفقه ، علم العقائد ، علم التاريخ ، علم الفرق المتخالفة ، علم اللغة العربية ، علم الأدب العربي المشتمل على اثني عشر فنًّا و علمًا كما صرح به الأدباء ، علم الصرف ، علم الاشتقاق ، علم النحو ، علم المعاني ، علم البيان ، علم البديع ، علم قرض الشعر ، علم المنطق ، علم الفلسفة الأرسطوية اليونانية ، علم الإلهيات من الفلسفة اليونانية ، علم الطبيعيات من الفلسفة اليونانية ، علم السماء والعالم ، علم الرياضيات من الفلسفة اليونانية ، علم تهذيب الأخلاق ، علم السياسة المدنية من الفلسفة ، علم الهندسة أي علم أقليدس اليوناني ، علم الأبعاد ، علم الأكر ، علم اللغة الفارسية و الأدب الفارسي ، علم العروض ، علم القوافي ، علم الهيئة أي علم الفلك البطليموسي اليوناني ، علم التجويد للقرآن ، علم ترتيل القرآن ، علم القراءات .

١١ – وممّا أنعم الله تعالى به عليّ أني أعرف ، بفضل الله و كرمه ، بطريق الضبط والإتقان و الحذاقة غير واحد من فنون و علوم لا يعرفها عامة علماء هذا الزمان فضلا عن المهارة و الحذق فيها . و من هذه الفنون و العلوم علم الهيئة الكوبرنيكسية و هو علم الفلك الجديد و هو علم لطيف شريف مهم يعرف به كثير من الآثار المخفية في الكون و تنحل به كثير من مشكلات القرآن ومعضلات الحديث و يعرف به عجائب قدرته تعالى و علا و غرائب ملكه و ملكوته و يطلع به على جميل نظام العلويات و السفليات .

و هذا العلم علم الفلك الجديد والفلسفة الحديثة خصني الله تعالى به من بين عامة علماء الإسلام

بفضله تعالى و كرمه . ولله الحمد .

١٢ – وممّا أنعم الله عزوجل به عليّ أنه وفّقني توفيقًا بتسهيل الأسباب ، برحمته و فضله و كرمه ، أن درست جميع الكتب الشائعة في نصاب تعليم بلادنا و دروسها الموسوم بالدرس النظامي و بالنصاب النظامي المشهور الجاري في جامعاتنا و مدارسنا .

وأكثر هذه الكتب مغلقة جدًّا جدًّا لاتنحل بأنامل الأنظار بل تحتاج إلى المهارة التامة والملكة العلمية الراسخة . و بلغ صعوبة عبارات بعض هذه الكتب و دقة مطوياتها إلى حدّ لا يقدر على تدريسها و تفصيل مجملاتها و تبيين معضلاتها و نشر مطوياتها و إظهار مكنوناتها و تنقيح أبحاثها و توضيح مسائلها إلّا شرذمة من الفضلاء و طائفة قليلة من كبار العلماء الجامعين للفنون و العلوم .

ثم إن هذه الكتب كتب دروس جامعاتنا أكثرها للقدماء و الأقدمين من العلماء الذين صنفوها قبل ٣٠٠ سنة أو ٤٠٠ سنة أو ٥٠٠ سنة أو ٦٠٠ سنة أو ٧٠٠ سنة أو ٨٠٠ سنة أو ٩٠٠ سنة أو ١٠٠٠ سنة فصاعدًا .

و معلوم أن مصنفات القدماء أصعب بحثًا و بيانًا و حلًّا .

ولا تدرس في جامعات بلادنا و مدارسها مؤلفات المتأخرين فضلا عن مؤلفات المعاصرين .

ثم إن هذه الكتب درستها مرات كثيرة و بعضها درستها أكثر من عشر مرات و البعض أكثر من عشرين مرة و ذلك في سنين مختلفة و جامعات و مدارس متعددة .

نعم الآن اختص درسي بالتفسير و الحديث و بعض الفنون . فتمضي أكثر ساعاتي في تدريس كتب الحديث المبارك و التفسير و في بعض الساعات أشتغل معهما بتدريس كتب بعض الفنون أيضًا .

و هذه أسماء بعض الكتب التي درستها في أعوام مختلفة :

فمن علم الحديث المبارك : الصحاح الستة الصحيحان للبخاري ومسلم رَحِمَهُمَا اللهُ تَعَالَى ، والسنن للنسائي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ، وأبي داؤد رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ، وابن ماجه رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ، والجامع للترمذي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ، وكتاب الشمائل للترمذي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ، والموطأَن للإمامين مالك رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ومحمد رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ، و شرح معاني الآثار للطحاوي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ، و مشكوة المصابيح

و غير ذلك .

و من علم التفسير : تفسير الجلالين ، و تفسير البيضاوي ، و تفسير القرآن بتمامه .

و من علم أصول الحديث : نخبة الفكر ، شرح نخبة الفكر ، و المقدمة المنسوبة إلى السيد السند رحمه الله تعالى و غير ذلك .

و من علم الفقه : كتاب الخلاصة ، و القدوري ، و نور الإيضاح ، و كنز الدقائق ، و شرح المستخلص ، و شرح الياس ، و الوقاية ، و شرحها المشهور بشرح الوقاية بمجلداته الثلاث ، و مختصر الوقاية ، و كتاب الهداية أربع مجلدات و غير ذلك .

و من علم أصول الفقه : أصول الشاشي ، نور الأنوار شرح المنار ، كتاب الحسامي ، تنقيح الأصول ، مع شرح التوضيح لصدر الشريعة رحمه الله تعالى ، التلويح شرح التوضيح للتفتازاني مجلدان كبيران و غير ذلك .

و من علم العقائد : كتاب العقائد النسفية ، شرحه للتفتازاني رحمه الله تعالى ، عقائد عزيزية مع شرحها لشاه عبدالعزيز رحمه الله تعالى ، حاشية الخيالي على شرح العقائد ، المواقف لعضد الدين رحمه الله تعالى ، شرح المواقف للسيد السند رحمه الله تعالى و غير ذلك .

و من علوم المعاني والبيان والبديع : كتاب تلخيص المفتاح ، شرحي التلخيص المختصر والمطول للتفتازاني وغير ذلك .

و من علم المناظرة : كتاب الرشيدية ، مناظرة عضدية مع شرحها و غير ذلك .

و من علم الأدب العربي : نفحة العرب ، نفحة اليمن ، المقامات الحريرية ، ديوان أبي الطيب المتنبي ، ديوان الحماسة لأبي تمام ، السبع المعلقات ، مقامات بديع الزمان ، ديوان حسان رضي الله عنه وغير ذلك .

و من علم العروض و القافية : محيط الدائرة ، الكافي مع شرحه .

و من علم الفلسفة اليونانية : هداية الحكمة ، الهدية السعيدية ، شرح العلامة الميبذي لهداية

الحكمة ، شرح الصدر الشيرازي لهداية الحكمة و هو شرح مبسوط جدًّا ، الشمس البازغة كتاب كبير ضخم مفصل ، إشارات ابن سينا ، شرح الطوسي لإشارات ابن سينا ، شرح الرازي للإشارات و غير ذلك .

و من علم المنطق : إيساغوجي و شروحه الكثيرة مثل كتاب قال أقول وغيره ، بديع الميزان ، ميزان المنطق ، التهذيب للتفتازاني رحمه الله تعالى ، شرح التهذيب لملاّ عبد الله رحمه الله تعالى ، شرح التهذيب للمحقق الدواني رحمه الله تعالى ، شرح شرح التهذيب لمير زاهد الهروي رحمه الله تعالى ، شرح غلام يحيى رحمه الله تعالى على الزاهد ، كتاب التعريفات المنطقية ، الرسالة القطبية للقطب الرازي رحمه الله تعالى ، شرحها لمير زاهد رحمه الله تعالى ، وشروح شرح مير زاهد الكثيرة ، الرسالة الشمسية ، شرحها المسمى بالقطبي لقطب الدين الرازي رحمه الله تعالى ، سلم العلوم لمحب الله رحمه الله تعالى ، بحر العلوم شرح سلم العلوم ، شرح السلم لملاّ حسن رحمه الله تعالى ، شرح السلم لحمدِ الله رحمه الله تعالى ، شرح السلم للقاضي محمد مبارك رحمه الله تعالى وغير ذلك .

و من علم الصرف كتب كثيرة منها : كتاب زرّادي ، و كتاب دستور المبتدي ، و علم الصيغة ، وصرف مير ، والزنجاني ، و مراح الأرواح ، و صرف البهائي ، و ميزان الصرف ، و فصول أكبرية ، والشافية لابن الحاجب رحمه الله تعالى و غير ذلك .

و من علم النحو : نحو مير ، شرح مائة عامل ، هداية النحو ، الكافية لابن حاجب رحمه الله تعالى ، الفوائد الضيائية شرح الكافية للجامي رحمه الله تعالى ، الألفية لابن مالك رحمه الله تعالى بشروحها ، حاشية الفوائد الضيائية للشيخ عبد الغفور رحمه الله تعالى و غير ذلك .

و من علم التجويد و القراءات المتواترة و غير المتواترة : كتاب الفوائد المكية ، اللمعات ، جمال القرآن ، التسهيل ، المقدمة للإمام الجزري رحمه الله تعالى ، الشاطبي رحمه الله تعالى في بيان القراءات المتواترة ، إجراء القراءات المتواترة و غير ذلك .

و من علم الحساب : كتاب خلاصة الحساب للبهاء العاملي رحمه الله تعالى ، شرح الخلاصة للشيخ عصمة الله رحمه الله تعالى و غير ذلك .

و من علم أصول تفسير القرآن : كتاب علوم القرآن ، كتاب جواهر القرآن للشيخ غلام الله

رحمه الله تعالى ، الفوز الكبير .

و من علم الفلك اليوناني و علم الأبعـاد : التشريح للبهاء العاملي ، التصريح للشيخ لطف الله المهندس رحمه الله تعالى ، السبع الشداد لابن كمال الدين حسين الطباطبا عطاءالله رحمه الله تعالى ، ملخص الجغميني ، شرح الملخص للفاضـل الرومي ، نيل البصيرة في نسبة سبع عرض الشعيرة ، الإفادة الخطـيرة في مبحث نسبة سبع شعـيرة و غير ذلك من كتب علم الهيئة الأرسطوي البطليموسي اليوناني . هذا . ولا تدرس في جامعات بلادنا و معاهدنا إلّا الهيئة القديمة الأرسطوية اليونانية .

و أمّا الهيئة الحديثة الكوبرنيكسية فلا يعرفها أحد من علماء الإسلام غير هذا العبد الضعيف محمد موسى البازي .

و من علم الفلك الجديد الكوبرنيكسية درست عدة من مؤلفاتي في هذا الفن بلغات متعددة مثل كتابي الهيئة الحديثة ، وكتابي الفلكيات الجديدة ، وكتابي سير القمر و عيد الفطر و غير ذلك .

ولا يوجد لأحد من علمـاء الإسلام تاليف في هـذا الفن فن علم الفلك الحديث سوى هذا العبد الضعيف محمد موسى البازي .

١٣ – و ممّا أنعم الله عزّ وجلّ عليّ أنه خصني بالمهارة في فني علم الفلك الجديد و علم الفلك القديم من بين علماء الإسلام .

فلايوجد أحـد منهم هو ماهر في هذين الفنين كليهما غيري . أقول هذا تحديثًا بنعم الله تعالى وشكرًا لا فخرًا . ولله الحمد و المنة .

و صنفت في هٰـذين العلمين كتبًـا أكثر من ثلاثين كتابًا ما خلا تأليفي في فنون أخر . ولله الحمد و الفضل .

١٤ – وممّا أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ أنه اتفق العلماء علماء باكستان بتدريس بعض مؤلفاتي من علم الفلك الجديد في الجامعات والمدارس حتمًا ولزومًا وأدخلوها في نصاب كتب التعليم لازمًا في بلادنا .

إذ لا يوجد لديهم كتاب آخر مناسبًا للتدريس في هذا الفن و لم يفوزوا بسفر آخر في هـذا العلم

أنسب و أحسن و أجمع من كتبي .

و هذا أمر غريب قلما يكون له نظير في الهند و باكستان و أفغانستان و غيرها .

لأن علماء هذه البلاد يأنفون و يترفعون من تدريسهم التلاميذ مؤلفات العالم المعاصر لهم .

١٥ - و ممّا أنعم الله تعالى و سبحانه عليّ اعتماد غير واحد من كبار علماء الدول والممالك و معولهم عليّ و على علمي و استحسانهم مباحثي العلمية و تحقيقاتي الفنية و تآليفي في العلوم .

و العلماء ورثة الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات . فاعتمادهم على شخص علمًا و دينًا سعادة لذلك الرجل لا تساجل و كرامة لا تماثل . و في ذلك وقائع و حكايات متعددة سارة .

و من تلك الواقعات حكاية و واقعة العالم الكبير الحبر المحقق العلامة الإمام صاحب مكارم الأخلاق فضيلة الشيخ عبد الله بن حميد رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ رئيس مجلس القضاء الأعلى في المملكة السعودية إذ أهديت أنا بعض كتبي بيد رجل أمين إلى فضيلة الشيخ المذكور رئيس مجلس القضاء . فقال الشيخ المذكور عند استلام الكتب لذلك الرجل الأمين : أهذا هو محمد موسى البازي الذي هو جامع علوم الفنون كلها و الذي هو أشهر علماء الدنيا في علم الفلك خاصة ؟ قال الرجل الأمين : قلت : نعم . ثم قال له الشيخ المكرم المذكور : أما أرسل إليّ بيدك الشيخ البازي بعض تآليفه في علم الفلك ؟ قال الأمين : قلت : لا .

هذا الذي كتبه إليّ ذلك الرجل الأمين في رسالته بعد المقابلة مع الشيخ المذكور الإمام عبد الله بن حميد رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ .

ثم إن الشيخ المذكور الإمام عبد الله بن محمد بن حميد رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ أرسل إلى هذا العبد الضعيف البازي خطابًا بل غير واحد من رسائل و خطابات (كما أرسلت إليه في الرد رسائل) تدلّ على رابطة المحبة لله تعالى القوية بيني و بينه (ولله الحمد) و طلب مني بعض تصانيفي في علم الفلك .

و كنت أحب الشيخ الإمام المذكور صاحب مكارم الأخلاق كثيرًا كما كان هو يحبني كثيرًا . وكانت هذه المحبة لله تعالى . وكانت هذه الرابطة رابطة المحبة مبنية على حب العلم و على حب العلماء . وكانت باقية مستمرة إلى أن توفي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ وتبقى في يوم القيامة وإلى أن نقوم عليها إن شاء الله تعالى في

المحشر . و ما أحسن ما قال الإمام الشّافعي رَحمه الله تعالى شانه : نعم الوصلة بين العلماء العلم .

و هذه صورة خطاب واحد للشيخ العلامة المحترم عبد الله بن محمد بن حميد رحمه الله تعالى أدرجها هنا أنموذجًا من بين رسائل خطابه الكثيرة المرسلة إليّ .

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
وزارة العدل
مجلس القضاء الاعلى

الرقم ١/١٢٧١
التاريخ ٧/٨/١٣٩٩هـ
المشفوعات ٢ نسخ ٦

من عبد الله بن محمد بن حميد الى حضرة الأخ المكرم الشيخ محمد موسى استاذ الحديث والتفسير والفقه وسائر العلوم في الجامعه الاشرفيه سلمه الله
لاهور : باكستان

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . وبعد :

فقد وصلني خطابكم الكريم المتضمن للافاده عن صحتكم وعافيتكم نحمد الله على نعمه ونسأله شكرها والمزيد منها .

هديتكم القيمه وهي مؤلفكم الثمين كتابان قيمان وصلا شكرالله لكم واكثر فوائدكم النافعه وسأقرأ الكتابين ان شاء الله وأكتب لكم عن مرئياتي فيهما ويصلكم هدية ارجو قبولها الا وهي كتاب (التبيان في اقسام القرآن) للعلامه ابن القيم . وكتاب (السياسه الشرعيه والحسبه) لشيخ الاسلام ابن تيميه وهي كتب نافعه في بابها واذا يمكنكم بعث شيئا من مؤلفاتكم في علم الفلك أكون شاكرا .

والسلام عليكم . ....

رئيس مجلس القضاء الأعلى

عبد الله بن محمد بن حميد

ن/س

١٦ – و ممّا أنعم الله تعالى شانه عليّ أنه وهب لي حظًّا وافرًا من الشهرة المقبولة والصيتة المسموعة بين علماء باكستان في جميع العلوم الإسلاميه من التفسير والحديث و الفقه وغير ذلك من الفنون سيما في علم الفلك القديم و الجديد حتى أن كثيرًا من العلماء الذين هم معمرون و في درجة شيوخي وغيرهم يستفتونني في مسائل عويصة و مباحث علمية مشكلة عسيرة.

وحتى أنهم قد جعلوني حكمًا في عدة من المسائل العالمية المهمة التي اختلفوا فيها وكثر فيها القيل و القال.

من تلك المسائل المختلف فيها اختلافهم في مقدار وقت الصبح في باكستان بل في بعض ممالك أخرى أيضًا اختلافًا أفضى إلى القتال والسباب اختلفوا في أن وقت الصبح من طلوع الفجر الصادق إلى طلوع الشمس ما مقداره و كم هو ؟

و كذا اختلفوا في أن انحطاط الشمس تحت دائرة الأفق عند بدء الفجر الصادق كم درجة ؟

و يتفرع على هذا التشاجر الاختلاف في نهاية الليل ونهاية السحور وغاية جواز الأكل والشرب ليلاً في شهر رمضان.

فقال كل منهم بما ارتأى و بما استبان له و بدا و رمى كل واحد منهم عن قوسه بنبله و أتى بما استطاع من طله و وبله.

و يبتني على هذا الاختلاف غير واحد من الأحكام و كذا اختلفوا في مقدار وقت المغرب و في نهاية الشفق الأحمر و منتهى الشفق الأبيض و بداية وقت العشاء و غير ذلك.

ثم لما بلغ سيل الاختلاف الزبى استنبأوني مرارًا فرادى و أفواجًا.

ثم حكموني و فوضوا تحقيق الحق إليّ و أصروا عليّ و ألحوا. فحققت ما هو الحق والصواب عندي والله الموفق و هو المستعان.

فانقادوا لما فصلت و أوضحت و سلموا ما أبرمت وحررت و اعترفوا بصحة ما كتبت وهذبت وانقضى الشر و النزاع و صلح الأمر. ولله الحمد و المنة و الفضل.

١٧ – وممّا أنعم الله تبارك وتعالى عليّ أن كثيرًا من فضلاء الممالك النائية والقريبة و علمائها ما زالوا ولا يزالون يستفتونني (كما أن غير واحد من فضلاء باكستان يستفتونني) في بعض مسائل عويصة وأبحاث معضلة لاسيما مسائل رؤية الهلال هلال عيد الفطر وغيره وما يترتب على ذلك، و مسائل أوقات الصلوات الفجر و العشاء و غيرها، و وقت بداية الصوم و نهايته، و مباحث سمت القبلة المتعلقة بعلم الفلك و علم الحديث وما يبتني على هذه المسائل و الأبحاث من الأحكام الشرعية.

و من هؤلاء العلماء المستفتين بعض علماء الهند وفضلاء لندن و إنكلترا و بعض ممالك أوروبا حيث تأتي إليّ منهم رسائل الأسئلة و الاستفتاء تترى.

و إذا تأخر مني الردّ لرسائلهم و على أسئلتهم لكثرة أشغالي العلمية يكتبون إلى بعض كبار رجال باكستان و علماءها مستشفعين بهم إليّ طالبين أن أرد على رسائلهم و أسئلتهم و أن أكتب إليهم أجوبة ما استفهمونيها وأن أحل ما استعجم عليهم.

هذا. و ما توفيقي إلّا بالله تعالى شانه.

١٨ – و ممّا أنعم الله تعالى و تبارك به عليّ أنه كره إلى نفسي الغيبة أكل لحوم الإخوة المسلمين. ولا ريب أن الغيبة سم ناقع و مرتع و خيم. فطوبى لمن عصمه الله عزوجل من هذه الفتنة العمياء والآفة الصماء. فلا أتذكر أني اغتبت أحدًا أو ذكرت عيوبه على ظهر الغيب إلّا مَن جاز ذكر عيوبه شرعًا مثل الفجرة المجاهرين و المبتدعين و نحو ذلك.

ولا أزكي نفسي على الله تعالى بل أردت التحديث بنعمة الله تبارك و هو الهادي و المستعان والموفّق.

ولقد وصل إليّ (بل ما زال يصل عليّ) خبر بعض العلماء المصاحبين إيّاي والفضلاء المستكثرين الجلوس لدي أنهم يثنون عليّ على ظهر الغيب هذه الخصلة الصالحة النادرة في هذا الزمان و أنهم يتحيرون من شدّة تنزيهي ساحتي و لساني عن الغيبة المحرمة و طيّ كشحي عن هذه السيئة و المعرة.

و إنهم يقولون: هذه عادة غريبة في هذا العصر إذ قلّما تجالس أحدًا إلّا و تراه مولعًا بالغيبة و أكل لحوم المسلمين مستوليًا عليه هذه العادة السيئة. هذا. ولله الحمد والمنة.

١٩ – و ممّا أنعم الله عزّ وجلّ به عليّ أنه هداني في باب العقائد إلى الصراط المستقيم صراط عقائد السلف الصالح و أئمة الإسلام الكبار المقتدى بهم من الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين و من بعدهم من الذين اتبعوهم بالإحسان ، وعصمني من عقائد تنافي التوحيد في ذات الله تعالى و في صفاته فلاشريك له تعالى في ذاته و صفاته .

و إنه هو المستعان في الأمور كلها و إنه هو قاضي الحاجات المجيب للدعوات و إنه الذي يجب علينا أن ننادي إليه في المصائب و النوائب فلا كاشف للمصائب إلّا هو و إنه لا يعلم الغيب إلّا هو .

و إن الخلق عن آخرهم فقراء إلى الله تبارك وتعالى محتاجون إليه ولا شافي للأمراض إلّا هو . وإنه لامانع لما أعطى ولا معطي لما منع ولا ينفع ذا الجد منه الجد . فهذا هو صراط مستقيم .

كما أخرج أصحاب السنن عن إسماعيل عن سليمان بن حرب عن حماد عن عاصم بن بهدلة عن أبي وائل عن عبد الله قال : خطّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا خطًّا طويلاً و خطّ لنا سليمان خطًّا طويلاً و خطّ عن يمينه و عن يساره فقال : هذا سبيل الله منها . ثم خطّ لنا خطوطًا عن يمينه و يساره و قال : هذه سبل و على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه .

ثم تلا هذه الآية " وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ ".

و عن عمر بن سلمة الصمداني رحمه الله قال : كنّا جلوسًا في حلقة ابن مسعود رضي الله عنه في المسجد و هو بطحاء قبل أن يحصب . فقال له عبيد الله بن عمر بن الخطاب وكان أتى غازيًا : ما الصراط المستقيم يا أبا عبد الرحمن ؟

قال : هو و ربّ الكعبة الذي ثبت عليه أبوك حتى دخل الجنة . ثم حلف على ذلك ثلاث أيمان ولاء . ثم خطّ في البطحاء خطًّا بيده و خطّ بجنبيه خطوطًا و قال : ترككم نبيّكم صلى الله عليه وسلم على طرفه و طرفه الآخر في الجنة . فمن ثبت عليه دخل الجنة و مَن أخذ في هذه الخطوط هلك .

٢٠ – وممّا أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ حفظي لحرمة أشياخي أحياء وأمواتًا . فما زرت أحدًا منهم إلّا و أرى خدمته والتواضع له في الكلام والمعاملات والجلوس في مجلسه بطريق الأدب من الواجبات عليّ .

و أعتقد أن رضاه سعادة لي في الدارين . و روي عن علي رضي الله عنه أنه قال : أنا عبد مَن علّمني حرفًا واحدًا إن شاء باعني و إن شاء تركني .

و أعتقد أن الذي حصل لي من العلم إنما هو من المادة التي أعطانيها شيخي .

و أنا مع كثرة التلاميذ وشهرتي بين العلماء إذا زرت واحدًا من شيوخي ولو كان من صغار العلماء الغير المشهورين (هذا باعتبار الظاهر و إلّا فكل شيخ أكبر شانًا من تلميذه) أساعده حسب استطاعتي من وجوه شتّى و أخدمه في المجلس خدمة تلميذ صغير لشيخ كبير تواضعًا وأداءً لبعض حقوقه وطلبًا لدعائه و رضائه . و أعد هذه الخدمة لنفسي مسرةً و فخرًا و سعادةً و سيادةً .

و أكبس جسده و إن وجدت فرصة أمسح الزيت على رأسه مع حضور تلاميذي . ولا أنقبض ولا أخجل من خدمة الشيخ لأجل حضور طلبتي بل أفرح فرحًا على أن الله تعالى وفّقني لخدمة الشيخ .

٢١ – و ممّا أنعم الله تبارك و تعالى به عليّ أنه وفّقني لإحياء السنة المطهرة و أعطاني حظًّا من تبليغ السنة و إشاعتها و حبّب إلى نفسي هذا الشغل المبارك عملًا و فعلًا و قولًا .

و جعلني محدثًا شارحًا لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومفسرًا لكتابه العظيم المجيد وأستاذًا للحديث و التفسير و مدرسهما .

فلا تمضي أكثر أوقاتي و ساعات ليلي و نهاري إلّا في تدريس الحديث و التفسير و مطالعتهما وتحريرهما و التفكر فيهما .

حتى أن تدريسي كتب الحديث فقط (فضلًا عن تفسير القرآن و تدريس التفسير وغيره) ينتهي في بعض الأيام إلى خمس أو ست من الساعات متواليًا في كل يوم . فأتكلم على شرح الأحاديث المطهرة روايةً و درايةً و سندًا و متنًا و استنباطًا للمسائل الفقهيّة و استخراجًا للنكات والأسرار العلميّة و الأدبيّة والدينيّة في مجلس مزدحم من التلاميذ ست ساعات أو خمس ساعات متتابعًا . ولله الحمد الكثير والشكر .

و أرجو من سعة رحمة الله تعالى أن يتقبل مجالسي هذه العلميّة التدريسيّة بقبول حسن و أن يحشرني يوم القيامة في زمرة مَن وردت في حقهم آثار و رويت في فلاحهم أخبار مرفوعة سارة مبشرة

تورث الطمانينة .

كما روى أبوسعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في حجة الوداع : نضّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها . فرب حامل فقه ليس بفقيه . رواه ابن حبان في صحيحه وغيره .

و عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا : نضّر الله امرأً سمع منّا شيئًا فبلّغه كما سمعه . فرب مبلّغ أوعى من سامع . رواه أبوداود و الترمذي .

و روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم ارحم خلفائي . قلنا : يا رسول الله ! و مَن خلفاؤك ؟ قال : الذين يأتون من بعدي يروون أحاديثي و يعلمونها الناس . رواه الطبراني في الأوسط .

و روي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له . رواه مسلم .

٢٢ – و ممّا أنعم الله جل شانه به عليّ أنه كره إلى قلبي البدعة و الحدث في الإسلام أشدّ كراهية .

و المبتدعون العاكفون على القبور المنادون غير الله تعالى عند الشدائد و المصائب المقترفون للسيئات و الحدث في الدين كثيرون في بلادنا بل في جميع بلاد الدول . و الحمد لله تعالى حمدًا كثيرًا على أن عصمني من البدعة و من حبّ المبتدعة الضالّة و من صحبتهم و الركون إليهم . و الحمد لله جل شانه على أن جلعني من أهل السنة و الجماعة و هداني إلى حبهم و حبّ صراطهم الصراط المستقيم و أرشدني إلى التمسك بسنة النبي صلى الله عليه وسلم . فقد روى البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا : مَن تمسّك بسنّتي عند فساد أمتي فله أجر مائة شهيد .

و عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ . رواه البخاري و مسلم .

و عن العرباض بن سارية رضي الله عنه مرفوعًا : إيّاكم و المحدثات فإن كل محدثة ضلالة . رواه أبو داود و الترمذي .

و روى ابن ماجه عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إيّاكم و محدثات الأمور فإن

شرّ الأمور محدثاتها و إن كل محدثة بدعة و إن كل بدعة ضلالة .

التجنب عن السياسة

٢٣ – ومِمّا أنعم الله تعالى به عليّ أنه حفظني عن أيّ علاقة بالسياسة . و أحمد الله تعالى على أن كره إليّ السياسة و الدخول في هذا الميدان من أوّل زمن تحصيل العلم و تعلمه إلى هذا الزمان .

وما زلت ولا أزال أوصي تلاميذي بالاحتراز من السياسة . والله تعالى حبّب إليّ العلم ومطالعة الكتب و خدمة العلم و المسلمين من جهة التعليم و التدريس و التاليف .

و أشكر الله جلّ و علا على أن عصمني من الدخول في حلبة السياسة . وما أحسن ما قيل : السياسة نار تضرم دارًا دخلتها .

و قد جربنا أن مَن دخل في السياسة حرم الترقي في العلم و في خدمة العلم و حرم رونق التعليم و التصنيف و التاليف و التدريس . هذا . ولله الحمد .

هـذا . والحمد لله ربّ العالمين و الصلاة والسلام على رسوله محمد و آله و أصحابه و مَن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

محمد موسى البازي

استاذ الحديث و التفسير بالجامعة الأشرفية ، لاهور ، باكستان .

انتهت رسالة العلاّمة الشيخ البازي رحمه الله تعالى المشتملة على أحواله و ترجمته . والآن نذكر مؤلَّفات الشيخ البازي رحمه الله تعالى تكميلاً لإفادة التائقين للفنون و قضاءً لشوق المشتاقين للعلوم . و ذلك حسبما يناسب الكلام و يقتضيه المقام .

فهرستُ مؤلفات الروحَاني البَازي

أعلى الله درجاته في دارالسّلام و طيّب آثاره

ندرج ههنا مؤلفات المحدّث المفسّر الفقيه الرحلة الحجّة الشهير في الآفاق جامع المعقول و المنقول أمير المؤمنين في الحديث العلامة الأوحدي و الفهامة اللوذعي الشاعر اللغوي الأديب الشيخ مولانا محمد موسى الروحاني البازي وآثاره العلمية الخالدة . رَحمه الله تعالى رحمة واسعة .

﴿ **قال الشيخ الروحاني البازي رحمه الله تعالى في بعض مؤلفاته :** تصانيفي بعضها باللغة العربية وبعضها بلغة الأردو وبعضها بالفارسية وغيرها من الألسنة ثم إن بعضها مطبوعة وبعضها غير مطبوعة لعدم تيسر أسباب الطباعة . و بعضها صغار و بعضها كبار و بعضها في عدة مجلدات .

وقد وفّقني الله تعالى للتصنيف في جميع الفنون الرائجة قديمًا وحديثًا في علماء الإسلام رحمهم الله تعالى مثل فنّ علم التفسير و فنّ أصوله و علم رواية الحديث و علم الفقه و أصوله و علم اللغة العربية و الأدب العربي و علم الصرف و علم الاشتقاق و علم النحو و علم الفروق اللغوية و علم العروض و علم القافية وعلم أصول العروض و في الدعوة الإسلامية والنصائح و علم المنطق و علم الطبيعي من الفلسفة و علم الإلهيات و علم الهيئة القديمة و علم الهيئة الحديثة و علم الأخلاق و علم العقائد الإسلامية وعلم الفِرق المختلفة و علم الأمور العامة و علم التاريخ و علم التجويد و علم القراءة . ولله الحمد و المنة .

وكذلك درست بتوفيق الله تعالى في المدارس والجامعات كتب أكثر هذه الفنون إلى مدة . ولله الحمد والمنة . ﴾

هذه أسماء نبذة من تصانيف الشيخ البازي رحمه الله تعالى في العلوم المختلفة و الفنون المتعددة من غير استقصاء

في علم التفسير

١ - شرح و تفسير لنحو ثلاثين سورةً من آخر القرآن الشريف . هو تفسير مفيد مشتمل على أسرار و علوم .

٢ - أزهار التّسهيل في مجلّدات كثيرة تزيد على أربعين مجلّدًا . هو شرح مبسوط للتفسير المشهور بأنوار التنزيل للعلامة المحقّق البيضاوي .

٣ - أثمار التكميل مقدمة أزهار التسهيل في مجلّدين .

٤ - كتابُ علوم القرآن . بيّن فيه المصنف البازي رحمه الله تعالى أصول التفسير ومباديه و علومه الكلية وأتى فيه بمسائل مفيدة مهمة إلى غاية .

٥ - تفسير آية " قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ " الآية . ذكر فيه المصنف البازي رحمه الله تعالى من باب سعة رحمة الله غرائب أسرار و عجائب مكنونة مشتملة عليها هذه الآية نحو سبعين سرًّا و هذه أسرار لطيفة مثيرة لساكن العزمات إلى غرفات نيرات في روضات الجنّات . فتحها الله عز وجل على المصنف وقد خلت عنها زبر السلف والخلف . ولله الحمد و المنة .

٦ - كتاب تفسير آيات متفرقة من كتاب الله عز وجل و هو مجموعة خطابات تفسيرية كان المصنف البازي يلقيها على الناس و يذيعها بوساطة الراديو في باكستان و ذلك إلى مدة .

٧ - كتاب ثبوت النّسخ في غير واحد من الأحكام القرآنية و الحديثية و حكم النسخ و أسراره ومصالحه . رسالة مهمة جدًّا فيها أسرار النسخ ما خلت عنها الكتب . كتبها المصنّف البازي دمغًا لمطاعن غلام أحمد برويز رئيس طائفة الملاحدة المنكرين حجيّة الأحاديث النبويّة في

الأحكام الإسلامية . أبطل فيها المصنف البازي رحمه الله تعالى اعتراضات هذا الملحد على الإسلام و على حكم النسخ . و ذلك بعد ما اتّفقت مناظرات قلميّة و خطابيّة بين المصنّف و بين هذا الملحد غلام أحمد و أتباعه .

٨ – فتح الله بخصائص الاسم الله . كتاب بديع كبير في مجلدين ضخمين ذكر فيه المصنف البازي رحمه الله تعالى نحو سبعمائة و خمسين من خصائص و مزايا للاسم الله (الجلالة) ظاهرية و باطنية لغوية و أدبية و روحانية و نحوية و اشتقاقية و عددية و تفسيرية و تاثيرية . و هو من بدائع كتب الدنيا ما لا نظير له في كتب السلف والخلف ولا يطالعه أحد من العلماء أصحاب الذوق السليم والطبع المستقيم إلّا و هو يتعجب مما اجتهد المصنف البازي في جمع الأسرار و البدائع .

٩ – رسالة في تفسير "هدًى للمتّقين" فيها نحو عشرين جوابًا لحلّ إشكال تخصيص الهداية بالمتّقين .

١٠ – مختصر فتح الله بخصائص الاسم الله .

في علم الحديث

١ – شرح حصّة من صحيح مسلم .

٢ – شرح سنن ابن ماجه .

٣ – كتاب علوم الحديث . هذا كتاب مفيد مشتمل على مباحث و علوم من باب أصول الحديث رواية و دراية .

٤ – رياض السنن شرح السنن و الجامع للإمام الترمذي رحمه الله تعالى في مجلدات كثيرة .

٥ – فتح العليم بحلّ الإشكال العظيم في حديث " كما صلّيت على إبراهيم " . هذا كتاب كبير بديع لا نظير له . فتح الله تعالى فيه برحمته وفضله على المصنف البازي أبوابًا من العلوم ما مستها أيدي العقول وما انتهت إليها عقول العلماء الفحول إلى هذا الزمان . ذكر المصنّف في هذا الكتاب لحلّ هذا الإشكال العظيم نحو مائة و تسعين جوابًا . قال بعض العلماء الكبار في حق هذا الكتاب : ما سمعنا أن أحدًا من علماء السلف و الخلف أجاب عن مسألة دينية و معضلة علمية هذا العدد من الأجوبة بل و لا نصف هذا العدد .

٦ - أجر الله الجزيل على عمل العبد القليل .

٧ - كتاب الفرق بين النبي و الرسول . هذا كتاب بديع لطيف ذكر فيه المصنف البازي أكثر من ثلاثين فرقًا بين النبي و الرسول مع بيان عجائب الغرائب و غرائب العجائب و بدائع الروائع و روائع البدائع من باب علوم متعلقة بحقيقة النبوة و بشان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . و هذا الكتاب لا نظير له في الكتب .

٨ - كتاب الدعاء . كتاب كبير نافع مشتمل على أبحاث مهمة لا غنى عنها .

٩ - النفحة الربانية في كون الأحاديث حجة في القواعد العربية . هذا كتاب كبير أثبت فيه المصنف البازي أن الأحاديث حجة في باب العربية و اللغة . و هو من عجائب الكتب .

١٠ - مختصر فتح العليم .

١١ - كتاب الأربعين البازية .

١٢ - الكنز الأعظم في تعيين الاسم الأعظم . كتاب جامع في هذا الموضوع لم تر العيون نظيرَه في كتب المتقدّمين و لم يقف أحد على مثيله في أسفار المتأخّرين .

١٣ - البركات المكيّة في الصلوات النبوية . كتاب بديع مبارك ذكر فيه المصنف البازي أكثر من ثمانمائة اسم محقَّق من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم في صورة الصلوات على خاتم النبيّين صلى الله عليه وسلم .

١٤ - كتاب كبير على حجيّة الأحاديث النبويّة في الأحكام الإسلامية . كتبها المصنّف دمغًا لمطاعن طائفة الملاحدة المنكرين حجيّة الأحاديث النبويّة في الأحكام الإسلامية .

في علم أصول الفقه

١ - شرح التوضيح والتلويح . التوضيح والتلويح كتاب مغلق دقيق محقق جدًّا في أصول الفقه و يدرس في مدارس الهند و باكستان و أفغانستان وغيرها . وهو كتاب عويص لايفهم دقائقه وأسراره إلّا الآحاد من أكابر الفن فشرحه المصنف البازي شرحًا محققا و أتى فيه ببدائع النفائس و نفائس البدائع .

في علم الأدب العربي

١ - شرح مفصل لديوان أبي الطيّب المتنبي .

٢ - شرح آخر مختصر لديوان أبي الطيب .

٣ - خصائص اللغة العربيّة و مزاياها . هو كتاب ضخيم نفيس لا نظير له في بابه فصل فيه المصنف البازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ الفضائل الكلية و الجزئية لهذه اللغة المباركة و أتى فيه بلطائف وغرائب و بدائع و روائع تسرّ الناظرين و تهزّ أعطاف الكاملين و حق ما قيل : كم ترك الأول للآخر .

٤ - رشحات القلم في الفروق . هذا الكتاب مما يحتاج إليه كل عالم ومتعلم لم يصنف في هذا الموضوع أحد قبل ذلك أثبت فيه المصنف البازي علومًا و حقائق الفروق و دقائق الحدود و لطائف التعريفات للمصدر الصريح والمصدر المأوّل وحاصل المصدر واسم المصدر وعلم المصدر والجنس و اسم الجنس وعلم الجنس و الجمع و اسم الجمع و شبه الجمع والجنس اللغوي والفقهي والعرفي والمنطقي والأصولي و نحو ذلك من المباحث المفيدة إلى غاية .

٥ - شرح ديوان حسان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ .

٦ - الطوبى . قصيدة في نظم أسماء الله الحسنى شهيرة طبعت في صورة رسالة مستقلة أكثر من خمس و عشرين مرة استحسنها العوام و الخواص و استفادوا منها كثيرًا .

٧ - الحسنى . قصيدة في نظم أسماء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طبعت في صورة رسالة منفردة مرارًا .

٨ - المباحث الممهدة في شرح المقدمة . رسالة نافعة في مباحث لفظ المقدّمة الواقع في الخطب .

٩ - ديوان القصائد . مشتمل على أشعاري و قصائدي .

في علم النحو

١ - بُغية الكامل السامي شرح المحصول و الحاصل لملاّ جامي . هذا شرح مبسوط محتو على مباحث و حقائق متعلّقة بالفعل والحرف والاسم و حدودها وعلاماتها و وقوعها محكومًا عليها و بها وغير ذلك من أبحاث تتعلّق بهذا الموضوع . و هذا كتاب لا نظير له في كتب النحو . فيه بدائع و حقائق خلت عنها كتب السلف و الخلف . و كتب بعض كبار العلماء في تقريضه : هذا

الكتاب غاية العقل في هذا الموضوع . و من أراد أن يطلع على حقائق الاسم و الفعل و الحرف فوق هذا و أكثر من هذا فليستح .

٢ - التعليقات على الفوائد الضيائية للجامي . هذا شرح الكتاب للعلامة ملاّ جامي . و هو كتاب معروف و متداول في ديار باكستان و الهند و أفغانستان و بنغله ديش و غيرها و يدرس في مدارسها .

٣ - النجم السعد في مباحث " أمّابعد " . هذا كتاب مفيد لطيف بيّن فيها المصنف البازي رحمه الله تعالى مباحث فصل الخطاب لفظة " أمّابعد " و أوّل قائلها و حكمها الشرعي و إعرابها و ما ينضاف إلى ذلك من المباحث المفيدة و ذكر نحو ١٣٣٩٧٤٠ وجهًا و طريقًا من وجوه إعراب و طرق تركيب يحتملها "أمّابعد". و هذا من عجائب اللغة العربية فانظر إلى هذه الكلمة المختصرة و إلى هذه الوجوه الكثيرة .

٤ - لطائف البال في الفروق بين الأهل و الآل . هو كتاب صغير حجمًا كبير مغزى نافع جدًّا لا مثيل له في موضوعه . جمع فيه المصنف البازي فروقًا كثيرة و مباحث و دقائق يجهلها كثير من الناس و يحتاج إليها العلماء .

٥ - نفحة الرّيحانه في أسرار لفظة سبحانه . رسالة مفيدة مشتملة على أسرار هذه اللّفظة .

٦ - الطريق العادل إلى بغية الكامل .

٧ - كتاب الدرّة الفريدة ، في الكلم التي تكون اسمًا و فعلاً و حرفًا أو حوت قسمين من أقسام الكلمة الثلاثة . ذكر المصنف رحمه الله تعالى في هذا الكتاب الذي هو نظير نفسه كلمات تكون اسمًا مرة و حرفًا حينا و فعلا مرة أخرى . و هذا من غرائب كتب الدنيا و مما لا مثيل له .

٨ - رسالة في عمل الاسم الجامد .

٩ - النهج السهل إلى مباحث الآل و الأهل . كتاب نافع لأولى الألباب و سِفر رافع لدرجات الطلاّب لم تسمح في هذا الموضوع قريحة بمثاله و لم ينسج في هذا المطلوب ناسج على منواله . كتاب فريد جمع أبحاث الأهل و الآل منها الفروق بين هذه اللفظين التي بلغت أكثر من خمسة و ثلاثين فرقًا و منها الأقاويل في أصل الآل و منها المباحث و الأقوال في محمل آل النبي

صلى الله عليه وسلم والمراد بهم و غير ذلك من المباحث المفيدة المهمّة جدًّا .

١٠ - رسالة بديعة في حقيقة المشتق .

١١ - رسالة في حقيقة الفعل .

١٢ - رسالة في حقيقة الحرف .

في علم الصرف

١ - كتاب الصّرف . هو كتاب نافع على منوال جديد .

٢ - التصريف . كتاب دقيق في هذا الفن لا نظير له .

٣ - كتاب الأبواب و تصريفاتها الصغيرة و الكبيرة .

في علمي العروض و القوافي

١ - الرّياض الناضرة شرح محيط الدّائرة .

٢ - العيون الناظرة إلى الرياض الناضرة . هذا كتاب لطيف و مفيد جدًّا مشتمل على أصول هذا الفنّ و أنواع الشعر و ما يتعلّق بذلك من البدائع و الحقائق الشريفة .

٣ - كتاب الوافي شرح الكافي . هذا شرح مبسوط للكتاب المشهور بالكافي .

في اللغة العربيّة

١ - كتاب الفروق اللغوية بين الألفاظ العربية هو كتاب نافع جدًّا لكل عالم و متعلم و بغية مشتاقي الأدب العربي أوضح فيه المصنف فروق مآت ألفاظ متقاربة معنى .

٢ - نعم النّول في أسرار لفظة القول . كتاب مفيد فصلت فيه أبحاث و مسائل متعلقة بلفظة القول و مادة " ق ، و ، ل " . و أتى فيه المصنف البازي أسرارًا و أثبت بالدلائل أن هذا البناء بحر فحدث عن البحر ولا حرج .

٣ - كتاب زيادة المعنى لزيادة المبنى . ذكر المصنّف فيه أن زيادة المادة و الحروف تدلّ على زيادة المعنى و أتى بشواهد من القرآن و الحديث و اللغة و أقوال الأئمة .

٤ - فتح الصمد في نظم أسماء الأسد المعروف بلقب نظم الفقير الروحاني في رثاء الشيخ عبدالحق الحقّاني . هذه قصيدة فريدة لا نظير لها في الماضي قد جمع فيها المصنف ما ينيف على ستمائة من أسماء الأسد و ما يتعلق بالأسد و هي في رثاء المحدّث الكبير مسند العَصر جامع المعقولات و المنقولات شيخ الحديث مولانا عبدالحق رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى مؤسّس جامعة دارالعلوم الحقانية ببلدة أكوره ختك .

٥ - كتاب كبير في أسماء الأسد و ما يتعلق بالأسد .

٦ - رسالة في وضع اللغات .

في النصائح و الدعوة الإسلامية العامة

١ - تعليم الرفق في طلب الرزق .

٢ - استعظام الصغائر .

٣ - تنبيه العقلاء على حقوق النساء .

٤ - ترغيب المسلمين في الرزق الحلال و طِعمة الصالحين .

٥ - منازل الإسلام .

٦ - فوائد الاتفاق .

٧ - عدل الحاكم و رعاية الرعية .

٨ - جنة القناعة .

٩ - أحوال القبر و ذكر ما فيها عبرة .

١٠ - الموت و ما فيه من الموعظة .

١١ - مَن العاقل و ما تعريفه و حدّه .

١٢ - التوحيد و مقتضاه و ثمراته .

في علم التاريخ

١ - تحبير الحسب بمعرفة أقسام العرب وطبقات العرب . كتاب مفيد فيه بيان طبقات العرب

وتفصيل أقسامهم و ما ينضاف إلى ذلك .

٢ - الصحيفة المبرورة في معرفة الفرق المشهورة . بيّن المصنف البازي في هذا الكتاب أحوال الفرق في المسلمين و تفاصيل مؤسس كل فرقة .

٣ - مرآة النّجباء في تاريخ الأنبياء . هذا كتاب تاريخي مشتمل على أهم واقعات الأنبياء وتواريخهم عليهم الصلاة والسلام .

٤ - التحقيق في الزنديق . رسالة لطيفة فيها تفصيل تعريف الزنديق و تحقيق لفظه و بيان مصداقه من الفرق الباطلة و حقق فيه المصنف البازي رحمه الله تعالى مستدلًّا بالكتاب و السنة وأقوال الأئمة الكبار أن الفرقة القاديانية أتباع المتنبي غلام أحمد الكذاب الدجال من الزنادقة و أنه لا يجوز إبقاؤهم في الدول الإسلامية بأخذ الجزية عنهم بل يجب قتلهم .

٥ - عبرة السائس بأحوال ملوك فارس . فصل المصنف البازي رحمه الله تعالى فيه تراجم ملوك فارس حسب ترتيب تملكهم وأحوال طبقتي ملوكهم الكينية و الساسانية و ما آل إليه أمرهم و في ذلك عبرة للمعتبرين .

٦ - غاية الطلب في أسواق العرب . كتاب أدبي تاريخي ذكر فيه المصنف البازي تواريخ الأسواق المشهورة في العرب و ما يتعلق بذلك الموضوع من حقائق أدبية .

٧ - إعلام الكرام بأحوال الملائكة العظام . بلغة أردو .

٨ - تراجم شارحي تفسير البيضاوي و مُحشّيه .

٩ - الطاحون في أحوال الطاعون .

١٠ - النظرة إلى الفترة . كتاب صغير مهم تاريخي في مصاديق زمن الفترة و أقسامها بأحكامها وما يتعلق بهذا الموضوع .

١١ - تاريخ العلماء و الأعيان .

١٢ - ترجمة سلمان الفارسي رضي الله عنه .

١٣ - توجيهات علمية لأنوار مقبرة سلمان الفارسي رضي الله عنه . كتاب بديع بيّن فيه المصنف رحمه الله تعالى نحو ثلاثين توجيها علميا لأنوار قبر سلمان الفارسي رضي الله عنه .

في علم المنطق

١ - شكر الله على شرح حمد الله للسنديلي . كتاب حمد الله شرح سلم العلوم للشيخ العلامة حمد الله السنديلي كتاب كبير مغلق دقيق محقق جدًّا في المنطق وهو مما يقرأ و يدرس في مدارس الهند و باكستان و أفغانستان و غيرها لازما و لا يفهم دقائقه و أسراره إلّا بعض أكابر الفن وللمصنف البازي رحمه الله تعالى شهرة في حل هذا الكتاب فشرحه شرحا محققا و أتى فيه ببدائع .

٢ - التعليقات على شرح القاضي مبارك لسلّم العلوم . كتاب القاضي مبارك كتاب نهائي في المنطق و أشهر كتاب في هذا الفن قد اشتهر بين العلماء و الطلبة بأنه عويص و عسير فهما لأجل العبارات الدقيقة الجامعة للأسرار العلمية و أنه لا يقدر على تدريسه و فهمه إلّا القليل حتى قيل في حقه : كاد أن يكون مجملا مبهما . و هذا الكتاب يدرس في مدارسنا و جامعاتنا فشرحه المصنف البازي شرحًا مبسوطا و سهل فهمه للعلماء و الطلبة .

٣ - التعليقات على سلّم العلوم .

٤ - التعليقات على شرح مير زاهد على ملاّ جلال .

٥ - الثمرات الإلهاميّة لاختلاف أهل المنطق و العربية في أن حكم الشرطية هل هو بين المقدم والتالي أو هو في التالي . بيّن المصنف البازي ثمرات و نتائج اختلاف الفريقين المذكورين في محل القضية الشرطية هل هوفيما بين الشرط و الجزاء أو في الجزاء فقط و فرع على ذلك غير واحد من أدقّ مسائل الحنفية و الشافعية و غير ذلك من الأسرار و هو كتاب عويص لا يفهمه إلّا الآحاد من أكابر الفن و لا نظير له .

٦ - شرح مبحث الوجود الرابطي من كتاب حمد الله (باللغة العربية) .

٧ - شرح بحث الوجود الرابطي من كتاب حمد الله (بلغة الأردو) .

٨ - التحقيقات العلميّة في نفي الاختلاف في محلّ نسبة القضيّة الشرطية بين علماء المنطق وعلماء العربية . هذا كتاب لانظير له عويص لايفهمه إلّا بعض الأفاضل الماهرين في المعقول و المنقول حقق فيه المصنّف البازي أن هذا الاختلاف وإن كان مشهورًا مسلّما لكن الحق أنه لا خلاف بين هاتين الطائفتين وأن محل النسبة إنما هو بين الشرط و الجزاء عند كلا الفريقين أهل المنطق

و أهل العربية و أيّد المصنف مدعاه هذا بإيراد حوالات كتب النحو و ذكر أقوال أئمة النحو و حقق ما لا يقدر عليه إلّا مَن كان ذامطالعة وسيعة جدًّا .

في الطبعيات و الإلٰهيات من الفلسفة

١ - تعليقات على كتاب صدرا شرح هداية الحكمة للعلامة الصدر الشيرازي .

٢ - تعليقات على كتاب مير زاهد شرح الأمور العامة .

في علم الفلك القديم اليوناني البطليموسي

١ - شرح التصريح على التشريح . هذا شرح جامع مبسوط لكتاب التصريح المشهور المتداول في مدارس الهند و باكستان و أفغانستان و غيرها .

٢ - التعليقات على شرح الجغميني . هذه التعليقات جامعة لمسائل علم الفلك القديم مع ذكر مسائل الفلك الحديث بالاختصار . و كتاب شرح الجغميني متداول في دروس مدارسنا .

٣ - نيل البصيرة في نسبة سُبع عرض الشعيرة . فصّل المصنف البازي رحمه الله تعالى في هذا الكتاب العجيب مسائل مشكلة ومباحث مغلقة منها أن الجبال هل تضر في الكروية الحسية للأرض أم لا ، بحث فيه المصنف على تعيين أعظم الجبال ارتفاعًا في الزمان الحاضر و في العهد القديم ثم بيّن نسبة أعظم الجبال ارتفاعًا إلى قطر الأرض بيانًا شافيًا .

٤ - كتاب أبعاد السيّارات و الثوابت و أحجامهنّ حسبما اقتضاه علم الفلك القديم البطليموسي .

٥ - كتاب وجوه تقسيم الفلاسفة للدائرة ٣٦٠ جزء قد أجمع الفلاسفة منذ أقدم الأعصار على تقسيم الدائرة إلى ثلاثمائة و ستين درجة ولا يدري الفضلاء فضلاً عن الطلبة تفصيل وجوه ذلك . فذكر المصنف البازي في هذا الكتاب الذي هو نظير نفسه وجوهًا كثيرة غريبة بديعة قد شرح الله تعالى لها صدره و تفرد بها حيث لم يخطر إلى الآن هذه الوجوه على قلب أحد من العلماء .

في علم الفلك الحديث الكوبرنيكسي

١ - الهيئة الكبرى . كتاب كبير مفصّل .

٢ - سماء الفكرى شرح الهيئة الكبرى . هذا شرح لطيف مفيد جدًّا صنف المصنّف الروحاني البازي رحمه الله تعالى هذا المتن الهيئة الكبرى بإشارة جمع من أكابر العلماء و أماثل الفضلاء ثم شرحه أيضًا بطلبهم و إشارتهم .

٣ - الشرح الكبير للهيئة الكبرى .

٤ - كتاب الهيئة الكبيرة . كتاب كبير جامع لمسائل الفن لا نظير له .

٥ - أين محلّ السماوات السبع . هذا كتاب نفيس مُهِمّ لم يصنّف أحد قبل هذا في هذا الموضوع . صنّفه المصنّف البازي لدفع مطاعن المتنوّرين و الفجرة حيث زعموا أن بنيان الإسلام صار متزلزلا و قصره أصبح خاويًا ، إذ بطلت عقيدة السماوات السبع القرآنية لأجل إطلاق السفن الفضائية و الصواريخ إلى القمر و إلى الزهرة وغير ذلك من السيارات فدمغ المصنف في هذا الكتاب العظيم مطاعنهم بأدلة مقنعة و أثبت أن هذه الأسفار الفضائية تؤيد الإسلام و أصوله و أنها لا تصادم السماوات القرآنية .

٦ - هل للسموات أبواب (باللغة العربي) .

٧ - هل للسموات أبواب (بلغة الأردو) .

٨ - هل الكواكب و النجوم متحركة بذاتها (باللغة العربي) .

٩ - هل للنجوم حركة ذاتية (بلغة الأردو) .

١٠ - كتاب السدم و المجرات و ميلاد النجوم و السيارات (باللغة العربي) .

١١ - هل السماء و الفلك مترادفان (باللغة العربي) .

١٢ - السماء غير الفلك شرعًا (بلغة الأردو) . حقق المصنف في هذين الكتابين اللطيفين البديعين أن السماء تغاير الفلك شرعًا و أن السماء فوق الفلك و أن النجوم واقعة في أفلاك لا في أثخان السماوات . واستدلّ في ذلك بنصوص إسلامية كثيرة و بأقوال كبار علماء علم الفلك الجديد وبأقوال أئمة الإسلام .

١٣ - عمر العالم و قيام القيامة عند علماء الفلك و علماء الإسلام (بلغة الأردو) .

١٤ - الفلكيّات الجديدة . من عجائب كتب الفن كتاب جامع لأصول هذا الفنّ لانظير له ولكونه جامعًا متفردًا في موضوعه وأسلوب بيانه قرره علماء دولتنا في نصاب كتب المدارس والجامعات وجعلوا تدريسه لازمًا في جميع الجامعات و المدارس .

١٥ - كتاب أسرار تقرر الشهور و السنين القمرية في الإسلام .

١٦ - كتاب شرح حديث " أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان يصلي العشاء لسقوط القمر لليلة ثالثة " .

١٧ - التقاويم المختلفة و تواريخها و أحوال مباديها و تفاصيل ذلك .

١٨ - أين مواقع النجوم هل هي في أثخان السموات أو تحتهن عند علماء الإسلام و عند أصحاب الفلسفة الجديدة .

١٩ - قدرالمدّة من الفجر إلى طلوع الشمس . هذا كتاب دقيق لايفهمه إلّا المهرة . ألّفه المصنّف عند تحكيم أكابر العلماء إيّاه في هذه المسئلة الكثيرة الاختلاف وقد اختلف العلماء والعوام في هذه المسألة كثيرًا حتى أفضى الأمر إلى الجدال و القتال و ذلك إلى عدة سنين فجعلوا المصنف البازي حكمًا و التمسوا منه أن يحقق الحق و الصواب فكتب المصنف هذا الكتاب و أوضح فيه الحسابات الدقيقة لسير الشمس فاستحسن العلماء هذا الكتاب جدًّا و اعتقدوا صحة ما فيه و عملوا على وفق ما حقق المصنف و ارتفع النزاع و اضمحل الباطل .

٢٠ - هل السماوات القرآنية أجسام صلبة أو هي عبارة عن طبقات فضائيّة غير مجسمة . هذا كتاب مهم و بديع جدًّا .

٢١ - هل الأرض متحرّكة ؟ هذا كتاب مفيد جدًّا جمع فيه المصنف البازي أقوال علماء الإسلام وآراء الفلاسفة من القدماء و المحدثين مما يتعلق بهذا الموضوع .

٢٢ - كتاب عيد الفطر و سير القمر . فيه أبحاث جديدة مفيدة مهمة مثل بحث المطالع و تقدم عيد مكة على عيد باكستان بيوم أو يومين . كتبها المصنف البازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ دمغًا لمطاعن المتنورين الملحدين على علماء الدين بأنهم لا يعرفون العلوم الجديدة .

٢٣ - القمر في الإسلام و الهيئة الجديدة و القديمة .

٢٤ - قصة النجوم . هو كتاب ضخم .

٢٥ - كتاب الهيئة الحديثة . كتاب كبير جامع للمسائل و الأبحاث . أوّل كتاب ألّف باللغة العربية في هذا الفن في ديار الهند و إيران و أفغانستان و باكستان وغيرها و مع هذا هو أوّل كتاب صنّفه المصنّف البازي رحمه الله تعالى في هذا الفنّ .

٢٦ - شرح الهيئة الحديثة (بلغة الأردو) .

٢٧ - الهيئة الوُسطى (باللغة العربي) .

٢٨ - النجوم النُشطى شرح الهيئة الوسطى (بلغة الأردو) .

٢٩ - الهيئة الصغرى (باللغة العربي) .

٣٠ - مدارالبشرى شرح الهيئة الصغرى (بلغة الأردو) .

٣١ - ميزان الهيئة .

في الموضوعات المتفرّقة

١ - كتاب أسرار الإسراء إلى بيت المقدس قبل العروج إلى السماء . هذا كتاب لطيف جامع لكثير من الحكم و الأسرار في الإسراء إلى بيت المقدس .

٢ - الخواصّ العلميّة للاسمين محمد و أحمد اسمي نبيّنا صلى الله عليه وسلم .

٣ - كتاب الحكمة في حفظ الله الكعبة من أصحاب الفيل دون غيرهم . ذكر المصنف البازي رحمه الله تعالى في هذا الكتاب الصغير أسرارًا و حكمًا مخفية في حفظ الله تعالى بيت الله من أصحاب الفيل دون غيرهم من أصحاب الحجّاج الظالم ومن الملاحدة الباطنية . و هذه الأسرار لا توجد في الكتب . صنفه البازي باقتراح بعض أكابر العلماء .

٤ - كتاب الحكايات الحكميّة .

٥ - فردوس الفوائد . كتاب كبير في عدة مجلدات .

فتح العليم

بحلّ إشكال التّشبيه العظيم

في حديث: "كما صلّيت على إبراهيم"

لإمام المحدّثين نجم المفسّرين زبدة المحقّقين

العلامة الشيخ مولانا محمّد موسى الرّوحاني البازي

رحمه الله تعالى وأعلى درجاته في دار السّلام

إدارة التّصنيف والأدب

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سبحان الله و بحمده عدد خلقه . سبحان الله و بحمده رضا نفسه . سبحان الله و بحمده زنة عرشه . سبحان الله و بحمده مداد كلماته . سبحان من سبقت رحمته غضبه . سبحان الله و بحمده . سبحان الله العظيم . أستغفر الله و أتوب إليه . سبحان من أظهر الجميل و ستر القبيح . سبحان الله العلي الديان . سبحان الله الشديد الأركان . سبحان من يذهب بالليل و يأتي بالنهار . سبحان من لا يشغله شأن عن شأن . سبحان الحنّان المنّان . سبحان الله في كلّ مكان .

سبحانك اللّهم و بحمدك على عفوك بعد قدرتك . سبحانك اللّهم و بحمدك على حلمك بعد علمك . سبحان الله و الحمد لله ولا إله إلّا الله و الله أكبر ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم . اللّهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك و لعظيم سلطانك و لفخيم برهانك .

اللّهم صل على سيدنا محمد عبدك و رسولك النبي الأمي سيّد المرسلين و الملائكة المقربين و خاتم النبيين و على آل سيدنا محمد و أزواجه أمهات المؤمنين و ذريته و أهل بيته و أصحابه و أنصاره و أتباعه ومحبّيه كما صليت على إبراهيم و على آل إبراهيم . و بارك على سيدنا محمد النبي الأمي خاتم النبيين و على آل سيدنا محمد و أزواجه و ذريته و أهل بيته و أصحابه و أنصاره و أتباعه و محبّيه كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنّك حميد مجيد ، أفضل صلواتك و أزكى بركاتك عدد معلوماتك و عدد خلقك و عدد الشفع و الوتر و مداد كلماتك التامّات و رضا نفسك و زنة عرشك ، كلما ذكرك الذاكرون و غفل عن ذكرك الغافلون .

اللّهم اجــز سيدنا و نبينا محمدًا عنّا خيرًا بما هو أهله . اللّهم صلّ عليه كما هو أهله و مستحقه . اللّهم بلّغه منّا السلام و اردد علينا منه السلام و ارزقنا شفاعته يوم الدين يا رب العالمين . اللّهم اجعلنا سامعين مطيعين و أولياء مخلصين و رفقاء مصاحبين . آمين ثم آمين .

أمّا بعد فيقول العبد الضعيف محمد موسى ابن العارف بالله المولوي شير محمد الروحاني البازي فسح الله له المرقد و جعله روضة مثل رياض بقيع الغرقد : هــذا كتاب لطيف يرشد الحائرين و مؤلف شريف يحتوي على ثمرات مقاصد العارفين كالفلك المشحون بدرر فرائد الفوائد أو كالفلك المرصع بكواكب درّيّة توقد بالنكت و القواعد . سميته **فتح العَـليم بحلّ إشكال التشبيه العظيم في حديث "كما صليت على إبراهيم"** .

و إشكال التشبيه هذا قد استفاض في الآفاق و اشتهر و استطار في أقاليم الأرض و انتشر . و كثرت فيه مباحثات و مناقشات . و جرت فيه مذاكرات و مناظرات تارةً بين المسلمين و الكفرة و طورًا بين أهل السنّة و الفسقة الفجرة ، كما يحكى أنّ بعض النصارى اعترض على مؤسس دارالعلوم بديوبند الإمام العارف بالله مولانا محمد قاسم النانوتوي رحمه الله في مناظرة بلدة شاه جهان پور في الهند . و زعم أنّ ما ادعى أهل الإسلام أنّ محمّدًا عليه الصلاة والسلام أفضل الأنبياء و المرسلين و أجلّ الكرام المقربين باطل بصلاتهم الإبراهيمية . فإنّ المشبّه به يجب أن يكون أفضل و أقوى من المشبّه . و محمد في هذه الصلاة مشبّه و كذا صلاته ، و إبراهيم مشبه به و كذلك صلاته .

و حكى الإمام الشعراني رحمه الله عن بعض علماء مصر أنّه كان يزعم أن إبراهيم أفضل من محمد مستدلًّا بهذه الصلاة و تشبيهها . و من هنا يستبين أنّ هذا السؤال داهية دهياء كقطع الليل على الربى و آفة عمياء قد بلغ سيلها الزبى ، و أنّ حلّه حسنة عظيمة و خدمة فخيمة من مهمات الأعمال و معظمات الأشغال ، يرجى به سعادة الدارين و شفاعة الخليلين عليهما الصلوات و التسليمات . و قد تصدّى العلماء الأعلام لأجوبته قديمًا و حديثًا و سعوا في توجيهاته سعيًا حثيثًا . فإنّ الموضوع نعم الموضوع و الدعاء إليه دعاء مسموع .

فحداني حادي الشوق مع قلّة حلية عالي الذوق أن أنهج هذا المنهج و أتبرك بالولوج في هذا

المولج مكافحًا عن منزلة نبيّنا السنية و منافحًا عن مكانته العلية رغبةً في شفاعته . فصنّفت بعد ما استخرت الله تعالى هذا الكتاب في أسرار هذا التشبيه المستطاب ، و إن كنت ذا صدر مصدور و قلم مكسور .

أَسِيْرُ خَلْفَ رِكَابِ النُّجْبِ ذَا عَرَجٍ مُؤَمِّلاً جَبْرَ مَا لاَقَيْتُ مِنْ عِوَجِ
فَإِنْ لَحِقْتُ بِهِمْ مِنْ بَعدِ ما سَبَقُوْا فَكَمْ لِرَبِّ السَّما في النَّاسِ مِنْ فَرَجِ
وَ إِنْ ظَلَلْتُ بِقَفْرِ الأَرْضِ مُنْقَطِعًا فَمَا عَلَى عَرَجٍ في ذَاكَ مِن حَرَجِ

و طالما قاسيت العناء في تهذيبه و تثقيفه ، و أسريت بفكري في تقويمه و تأليفه ، و صرفت برهة من الزمان في تصنيفه و ترصيفه . و أتعبت نفسي إذ لا راحة مع بذل الجهد و الطاقة . و سهرت عيني إذ لا نوم مع طلب الغاية . و نالتني لفحات الحرّ و نفحات القرّ في أيّام تتضرّم هواجرها و ليال شاتية تجمد صنابرها متدبّرًا في أسرار التشبيه و مستخرجًا دقائق تسرّ العالم النبيه . و استفرغت جهدي في استنباط حلّ بعد حلّ و تحرير تلّ بعد تلّ . و استنفدت وسعي في الاستسقاء من وبل و طلّ .

و بذلت مجهودي في تهذيب تقسيمات ابتكرتها . و جهدت نفسي في تسوية أقسام ابتدعتها . كأنّها شهب للأماني ثاقبة و سحب للمعاني ساكبة . و سرحت فكري فيه ليحيط بمعانيه . و أطلقت خاطري في مقاطعه و مباديه . و قطعت لجمع النكات قفار الأوراق . و خضت لاقتناص المطالب بحار الآفاق . إذ ليس الرأي بالتظني ولا تدرك الأماني بالتمنّي .

فوقفت بتوفيق الله على مطالب كانت مخزونة و مقاصد ما زالت مصونة كأنّها لآلي مكنونة . وحللت معضلات معقودة بعد ما فتح الله عليّ بمنّه و فضله أبوابًا مسدودة . و حقّ و الحقّ أحقّ أن يحقّ أنّ البعيد قريب إذا التقى العزم و التوفيق ، كما أنّ القريب بعيد إذا تلاقى التفريط و التعويق . و سيقول بعد مطالعة هذا الكتاب اللبيب ذو الفكر الغائر : كم ترك الأوّل للآخر .

وما زلت أمتري أخلاف المزيد و أتطلع إلى ألطاف فضل الله الجديد ، حتى ذكرت فيه نحو مائة و تسعين جوابًا لدمغ هذا الإشكال و كشف ظلمة هذا السؤال . ولا أعلم و لم أسمع أنّ أحدًا من العلماء المتقدّمين و المتأخّرين ذكر هذا العدد من الأجوبة ، بل ولا نصفه لمسألة علمية و معضلة دينية ،

فضلًا عن أجوبة إشكال هذا التشبيه في الصلاة الإبراهيمية . و أحمد الله تعالى على توفيقه و منّه و فضله و كرمه .

خَلِيْلَيَّ مَا هَـذا بِهَزْلٍ وَإِنَّمَا　　عَجِيْبُ الْأَحَادِيْثِ غَرِيْبُ الْبَدَائِعِ

و أرجو لكتابي هذا أن يعتزّ عند الإخوان ، و أن لا يبليه الزمان ولا تمجّه الآذان ، و أن ينجد الطلبة الكرام و يقبله الكملة الأعلام . اللّهم تقبّله و جميع تصانيفي بقبول حسن و اجعلها لي عندك أجرًا و ذخرًا ، و أصلح أعمالي و أنجح آمالي . اللّهم اسمع ندائي و استجب دعائي ولا تخيّب رجائي . و صلى الله تعالى على نبيه الأمين و صفيّه المكين و على آله نجوم الهدى و غيوم الندى و أصحابه مفاتيح الجنة ومصابيح الدجنة و سلّم تسليما كثيرًا .

مقـدّمة

لابدّ من مطالعة هذه المقدمة أوّلاً لمطالع هذا الكتاب و النظر فيها قبل النظر في الأبواب ، كي يكون على بصيرة فيما يريبه فيعذرني ، ولا يظن بي الظنون ولا يعذلني ولا يحرق عليّ الأرّم . و في المثل يؤكل الشعير و يذم . فربّ لائم مليم و ربّ ملوم غير مليم . فهي كالدهليز الذي يتوصل منه إلى طراز الكتاب و النمط الذي اختاره المؤلف عند التأليف .

فاعلم : أنّ الأجوبة المسطورة في هذا الكتاب بعضها أقوى ينهض به الغبار عن أعطاف الحق المبين ، و بعضها قوي يشحذ أذهان المتعلمين . و مع ذلك بعضها لطيف تشوق مطالعه و تروق مقاطعه ، بغية العلماء المناظرين و دامغ الخصوم المقاومين . و بعضها كشفي عالي المباني حالي المغاني ، ينبني على معارف العارفين و ينبع من ذوق السالكين الكاملين .

و أسلم أنّ بعضها ضعيف عند العلماء الكاملين ، لا يرقع الخرق عند المناظرة ولا يرتق الفتق لدى المخاصمة ، إلّا أنّه شريف غير مدفوع عند الطالبين الراغبين في المكاثرة و لطيف غير مردود عند المذاكرة . و أعوذ بالله من أن أسكت ألفا و أنطق خلفا . و كل مؤلف توخّى الإحاطة بالأطراف أو تصدّى لتكثير سواد القراء الأشراف ، يدرج في كلامه النجم و الدرر و الحجر و يشرح في أدراجه النجم و الشجر و الثمر . و قلما يخلو بيانه عن وجوه ضعيفة تذكر في أثناء وجوه قويّة و نكات بهيّة . فلست أنا أوّل من سلك هذا المسلك و استمسك بهذا المستمسك .

ثم إنّك تطلع على بعض أجوبة يدخل في بعض في بادي النظر ، لكن إن حققت التدبّر فيهما

مرّتين و رجعت البصر كرّتين وجدت بينهما تغايرًا و تفاوتًا ، إمّا تقريرًا و بيانًا و إمّا أساسًا و بنيانًا . و لك أن تعدّهما جوابًا واحدًا . و لكلّ وجهة هو مولّيها . و لكلّ قوس بار هو يسوّيها . و هذا أيضًا ليس بأوّل منهج نهجته و مرتج ولجته بل له نظائر في كتب السلف و شواهد في زبر الخلف .

ثم أوصيك أن تعدّ كل باب كأنّه رسالة برأسها و صحيفة في نفسها كما هو نمط الجوابات و طرز التوجيهات عند العلماء . فلا تقس بابًا على باب تطبيقًا ولا تجتهد في ذلك توفيقًا . فإنّك تقف على أجوبة متضادة يخالف أساس بعض أساس بعض . فتجدني أستخرج في باب تقسيمًا ثم أستنبط في باب آخر تقسيمًا يعارض الأوّل . فطالعه وفّقك الله و قل : هذا طور و ذاك طور . و هذا سبيل و ذلك سبيل . نعم شيّدت كل جواب بشواهد مسموعة و قرائن مطبوعة .

ثم إنّ كثيرًا من الأجوبة كتبتها قبل مطالعة مظانّها لوجه عنّ لي عندئذ . ثم بعد رؤيتها في كتب المتقدّمين أو زبر المتأخّرين سطرت حوالة تلك الأسفار . و لذا انتحل بعض الأجوبة إلى نفسي أوّلًا ثم أذكر تلك الحوالة . و هذا من وقع حافر على حافر . و لله الحمد و المنّة و بيده الحول و القوة .

الباب الأوّل

لا مندوحة قبل الخوض في المقاصد من ذكر عدة فصول تتعلق بالتشبيه تنبيهًا على رفعة منزلته في الكلام و تسهيلًا لفهم مقاصد الكتاب . الفصل الأوّل في حدّه ، و الثاني في الغرض منه ، و الثالث في التنويه بشأنه عند العلماء ، و الرابع في استباق البلغاء في جمع تشبيهات متعددة في كلام واحد . فأقول متوكّلًا على الله و توفيقه و منّه :

فصل
في حدّ التشبيه و رسمه

ذكروا للتشبيه حدودًا . و أطلق أصحاب المعاني و البيان أعنّة الكلام في ميادين هذا المرام :

فمنها : أنّه الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى .

ومنها : ما قال الرماني : التشبيه هو العقد على أنّ أحد الشيئين يسدّ مسدّ الآخر في حال . و هذا هو التشبيه العام الذي يدخل تحته التشبيه البليغ وغيره . و التشبيه البليغ هو إخراج الأغمض إلى الأوضح مع حسن التأليف .

ومنها : ما قال بعضهم : إنّه الدلالة على اشتراك شيئين في وصف هو من أوصاف الشيء الواحد .

ومنها : ما قال ابن رشيق في العمدة : إنّه صفة الشيء بما قاربه و شاكله من جهة واحدة . لأنّه

لو ناسبه مناسبةً كليّةً كان إيّاه . ألا ترى إلى قولهم "خدّ كالورد". إنّما مرادهم احمرار أوراقه و طراوتها لا ما سوى ذلك من صفرة وسطه و خضرة كمائمه . انتهى .

ومنها : هو إلحاق أدنى الشيئين بأعلاهما في صفة اشتركا في أصلها و اختلفا في كيفيتها قوةً و ضعفًا . قلت : و هذا حدّ اختاره بعض المحققين . و عندي أنّه مختلّ إذ المشبّه لا يجب أن يكون أدنى من المشبّه به ، بل قد يساويه و قد يعلوه .

ومنها : ما أورد ابن أبي الإصبع في كتابه تحرير التحبير للرماني حدًّا حسنًا . و هو أنّ التشبيه تشبيهان : الأوّل منهما تشبيه شيئين متفقين بأنفسها كتشبيه الجوهر بالجوهر مثل قولك : ماء النيل كماء الفرات . و تشبيه العرض بالعرض كقولك : حمرة الخدّ كحمرة الورد . و تشبيه الجسم بالجسم كقولك : الزبرجد مثل الزمرّد . و الثاني تشبيه شيئين مختلفين بالذات لجمعهما معنًى واحدًا مشتركًا كقولك : حاتم كالغمام و عنترة كالضرغام . ثم تشبيه الاتفاق و هو القسم الأوّل تشبيه حقيقي . و تشبيه الاختلاف و هو القسم الثاني تشبيه مجازي . و المراد المبالغة . انتهى كلامه .

فصل
في الغرض من التشبيه

غاية التشبيه و فائدته أمور :

منها : كشف حال المشبّه أي بيان أنّه على أيّ وصف من الأوصاف كتشبيه ثوب بثوب في لونه إذا كان لونه مجهولا للمخاطب .

ومنها : بيان تقريب وجوده بأن يكون المشبّه أمرًا غريبًا يمكن أن يخالف فيه و يدّعي أحدٌ عدم وقوعه . فيستشهد له بالتشبيه كقوله :

فإنْ تَفُقِ الأنامَ و أنتَ منهم   فإنّ المِسْكَ بعضُ دمِ الغَزالِ

و التشبيه فيه ضمني لا تصريحي . فالشاعر و هو أبو الطيب لما ادّعى أنّ الممدوح فاق الناس

من أبناء جنسه و كان هذا في الظاهر كالبعيد احتج لهذه الدعوى و بيّن تقريبها بحالة المسك الذي هو من الدماء و فاقها .

ومنها : بيان إمكان وجوده بأن يكون المشبّه أمرًا لا يمكن في النظر الجلي و يتوهم امتناعه ، فيظهر بالتشبيه إمكانه و وقوعه كقوله تعالى : كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖ . أراد الله تعالى أنّ الشيء المنفق في سبيله يضاعف إلى سبع مائة ضعف . و كان هذا في الظاهر عند بعض العوام كالممتنع مثّل لتفسير هذه الدعوى بالحبّة المذكورة ، كيف أصبحت سبع مائة حبة .

ومنها : بيان مقدار حال المشبّه إذا كان السامع يعلمها إجمالا كما في تشبيه الثوب الأسود بالغراب في شدّة السواد .

ومنها : إيصال حال المشبّه أي تقريرها في نفس السامع و تقوية شأنه كما في تشبيه من لم يحصل من سعيه على طائل بمن يرقم على الماء .

ومنها : تزيين المشبّه ليرغب فيه كتشبيه وجه أسود بمقلة الظبي و بالليل الأطيب و بالمسك و بالخال . قال ابن الرومي في وصف سوداء :

أكسبها الحبَّ أنّها صُبِغتْ — صبغةَ حَبّ القلوبِ و الحدقِ
كأنّها و المزاح يُضحكها — ليل تفرّى دُجاه عن فلَق

و قال أبوحفص الشطرنجي :

أشبهَكِ المسكُ وأشبهتِه — قائمةً في لونه قاعدَهْ
لا شكّ إذ لونُكما واحدٌ — أنّكما من طينةٍ واحدَهْ

و قال آخر في أسود :

سواد العين في الإنسان حسن — و هذا كله إنسان عين

و التشبيه فيه ضمني .

ومنها : تقبيح المشبّه ليزهد فيه كتشبيه وجه أبيض ببياض العين و الشيب كقول البعض :

مشبهات الشباب و المسك تفديـــــــهنّ نفسي من الردي و الخطوب
كيف يهوي الفتى اللبيب وِصال الـــــــبيض و البِيضُ مشبهات المشيب

و قال ابن الجهم :

و عائب للسمر من جهـله   مفضل للبيض ذي محك
قولوا له عنّي أمَا تستحي   مَن يجعلِ الكافور كالمسك

ومنها : الاهتمام بالمشبّه به كتشبيه الجائع وجه البدر في الإشراق و الاستدارة بالرغيف . و يسمّى إظهار المطلوب .

ومنها : التنويه بالمشبّه في إظهاره و شهرته كتشبيه رجل خامل الذكر برجل مشهور بين الناس .

ومنها : استطراف المشبّه أي عدّه طريفًا حديثًا بديعًا كما في تشبيه فحم فيه جمر موقد ببحر من المسك موجه الذهب لإبراز المشبّه في صورة الممتنع عادة .

ومنها : إيهام رجحان المشبّه على المشبّه به في وجه الشبه . و أكثر ما يكون ذلك في التشبيه المقلوب . كذا في شرح "حلية اللب المصون" للشيخ أحمد الدمنهوري ص١٤١ . كقوله :

و بدا الصباحُ كأنّ غُرّته   وجهُ الخليفة حين يمتدح

ففيه إيهام أن وجه الخليفة أتمّ من الصباح في الوضوح و الضياء . و منه قولهم : الليث مثل الفاسق المصحوب . فالفاسق الصاحب مثل الأسد في عدم أمن غائلته و عوده على صاحبه بالضرر . ففيه إيهام أنّ الفاسق المصحوب أرجح من الليث في وجه الشبه . قاله الدمنهوري رحمه الله تعالى .

ومنها : إظهار المساواة بين المشبّه و المشبّه به كما روى ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : يحشر الناس يوم القيامة حفاةً عراةً غرلًا كما خلقوا . ثم قرأ : كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ .

ومنها : تعيين الجنس المراد بإبراز الأنموذج كقولك عند شراء الثوب : أشتري مثل هذا .

مشيرًا إلى قطعة ثوب في يدك نموذجًا .

ومنها : ربط ما بعد حرف التشبيه بما قبله كما ستراه في أبواب هذا الكتاب .

ومنها : التعليل كقول الله للعاصي يوم القيامة على ما في الحديث : اليوم أنساك كما نسيتني .

ومنها : محض تفسير حال المشبّه . و يكون هذا عند تشبيه الأعلى بالأدنى كما في قوله تعالى : مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ . الآية . و غير ذلك من وجوه كثيرة تعاينها في أبواب هذا الكتاب .

فصل
في التنويه بشأن التشبيه

التشبيه و ما أدراك ما التشبيه . له مقام عند البلغاء رفيع و شأن لدى الأدباء بديع ، أرفع من السماء و أعلى من الجوزاء ، من أهمّ موضوعاتهم و ألطف مصنوعاتهم . يسفر عن حوز النجح و فوز القدح ، و نيل المراد بصنوف المعالي و بلوغ المرتاد و شتى الأماني . يزينون به العبارات لامتداد السرور و ازدياد الحبور ، مظهر لدقائق أفكار الشعراء و مجلي لبدائع أزهار الأدباء . و حقّ ما قال المبرد : التشبيه جار كثير في كلام العرب حتى لو قال قائل " هو أكثر كلامهم " لم يبعد . انتهى .

و لذا صنف فيه العلماء تصانيف . من أقدمها كتاب التشبيهات الشعرية لابن أبي عون الأديب الناقد . عاش ببغداد ، و مات فيها مقتولاً سنة ٢٣٣هـ . جمع فيه طائفة من التشبيهات و رتّبها بحسب الموضوعات . و هو كتاب لطيف غزير المادّة . طالعته فوجدته بديعا .

ومنها : كتاب الجمان في تشبيهات القرآن لعبد الله بن محمد بن الحسين بن ناقيا البغدادي المعروف بابن ناقيا . ولد في ذي القعدة عام ٤١٠هـ ، و توفي ليلة الأحد في الرابع من المحرم عام ٤٨٥هـ . طالعته فرأيته بحث على التشبيهات القرآنية و أكثر فيه من الشواهد الشعرية و الأمثلة العربية ، كثير الفوائد و بديع الدقائق و العوائد .

ومنها : كتاب التشبيهات لأبي عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب ، المتوفّى قريبًا من سنة

عشرين و أربعمائة ، و قد قارب ثمانين سنة ، طالعته .

ومنها : كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لأبي الحسن علي بن محمد الكاتب المتوفّى قريبًا من الثلاثين و أربعمائة .

ومنها : كتاب حلية اللسان و بغية الإنسان في الأوصاف و التشبيهات لأبي عامر السالمي محمد ابن أحمد بن عامر المتوفّى سنة ٥٥٩هـ . و بالجملة جعلوا التشبيه قيد عيانهم و مظهر دقة بيانهم . و أجمعوا أنّ التشبيهات القرآنية أعلى شأنًا و أجلّ مقامًا ، و أنّ كلّ ما ينقله الشعراء و غيرهم من أرباب البلاغة و مالكي أزمّة الفصاحة إلى كلامهم من معاني القرآن لا يبلغون شأوه ولا يدركون مناله إباءً و إعجازًا و امتناعًا و إعوازًا .

و قريب من ذلك في الفخامة التشبيهات النبوية و الذي جاء في العبارات السنية للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، كما روي أنّ رجلًا قال لجابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : كان وجهه ﷺ مثل السيف . فقال : لا . بل مثل الشمس و القمر . أعرض عن السيف الذي لا يستحسن تشبيه الوجه الحسن به إلى الشمس و القمر ، و عن الواحد إلى الاثنين . و في رواية البيهقي : أكان وجهه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حديدًا كالسيف . و قال التلمساني رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : أضرب عن تشبيهه بالسيف لعدم مناسبته . و إنّما يشبّه به نفس الإنسان في نفاذ أمره و شدّته . انتهى .

و في شرح الشمائل لابن حجر : الشمس يشبّه بها غالبًا في الإشراق و الضياء و الرفعة ، و القمر يشبّه به في الملاحة و الحسن . فبين جمع وجهه للمعنيين مع نوع استدارة و طول . و في حديث كعب ابن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : كان ﷺ إذا سرّ استنار وجهه كأنّه قطعة قمر . و في رواية : فلقة قمر . و في رواية للطبري : التفت إلينا كأنّ وجهه شقة القمر . انتهى .

فصل

يدلك على أنّ للتشبيه شأنًا في كلامهم عظيمًا افتخارهم بجمع عدة تشبيهات في كلام واحد و مسابقتهم في ذلك

قال ابن قتيبة رحمه الله تعالى في كتابه "الشعر و الشعراء" في ترجمة امرئ القيس : و مما انفرد به قوله في العقاب :

كأنّ قلوب الطير رطبًا و يابسًا   لدى وكرها العناب والحشف البالي

شبّه شيئين بشيئين في بيت واحد و أحسن التشبيه . و قوله :

له أيطلا ظبيٍ و ساقا نعامةٍ   و إرخاءُ سِرحانٍ و تقريب تَتفُلِ

و قد تبعه الناس في هذا الوصف و أخذوه . و لم يجتمع لهم ما اجتمع له في بيت واحد . انتهى .

قال المبرد رحمه الله تعالى في الكامل عند البحث على التشبيه : فأحسن ذلك ما جاء بإجماع الرواة ما مر لامرئ القيس في بيت واحد من تشبيه شيء في حالتين بشيئين مختلفين . و هو قوله "كأنّ قلوب الطير إلخ" . انتهى .

قلت : مما حكي عن بشار بن برد أنّه قال : ما زلت منذ سمعت قول امرئ القيس في وصف العقاب " كأنّ قلوب الطير إلخ " لا يأخذني الهجوع حسدًا له إلى أن قلت في وصف الحرب :

كأنّ مُثارَ النقعِ فوق رؤوسنا   و أسيافنا ليلٌ تهاوتْ كواكبُه

و من تشبيه أمرين بأمرين بيت الشيخ صفي الدين الحلي في بديعيته :

تلاعبوا تحت ظِلّ السُّمرِ من مَرَح   كما تلاعبتِ الأشبالُ في الأجم

و هذا البيت عامر بالمحاسن .

و منه بيت الشيخ عزّ الدين الموصلي في بديعيته التي عارض بها قصيدة البردة المشهورة :

شيئان بشبيه شيئين انتبهْ لهما　　حِلم و جَهلٌ هما كالبُرءِ والسَّقَم

و منه بيت أبي بكر بن حجة الحموي في بديعيته التي عارض بها البردة :

شيئان قد أشبها شيئين فيه لنا　　تبسّمٌ و عطا كالبرق في الدِّيَم

و منه ما قال ابن حزم أبي محمد علي بن أحمد المتوفّى ٤٥٦هـ في كتاب "طوق الحمامة في الألفة و الأُلَّاف" :

أرعى النجومَ كأنّني كُلِّفتُ أن　　أرعى جميعَ ثبوتِها و الخُنَّس
فكأنّها و الليلُ نِيرانُ الجَوَى　　قد أُضرِمتْ في فكرتي من حِنْدِس

قال وقع لي في البيت الذي أوّله "فكأنّها و الليل" تشبيه شيئين بشيئين في بيت واحد . و هذا مستغرب في الشعر . و لي ما هو أكمل منه و هو تشبيه ثلاثة أشياء في بيت واحد ، و تشبيه أربعة أشياء في بيت واحد . و كلاهما في هذه القطعة في مشوق :

ففي ساعة يُبدي إليك عجائبًا　　يُمِرّ و يستحلي و يُدْني و يُبْعِدُ
كأنّ النّوى و العَتْبَ و الهَجْرَ و الرِّضى　　قِرانٌ و أنداد و نحسٌ و أسْعُدُ
رثى لغَرامي بعدَ طُول تَمَنُّع　　و أصبحْتُ محسودًا و قد كنتُ أحسُدُ
نَعِمْنا على نَوْر من الرَّوضِ زاهرٍ　　سَقَتْه الغوادي فهو يُثْنِي و يَحْمَدُ
كأنّ الحيا و المُزْنَ و الرَّوضَ عاطِرًا　　دموعٌ و أجفانٌ و خَدٌّ مُوَرَّدُ

و " القران " اجتماع كوكبين في درجة واحدة .

و لي أيضًا ما هو أتمّ من هذا . وهو تشبيه خمسة أشياء في بيت واحد في هذه القطعة . و هي :

خَلَوْتُ بها و الرّاحُ ثالِثَةٌ لها　　و جُنْحُ ظلامِ الليلِ قد مُدّ ما انبَلَجْ
فتاةٌ عَدِمتُ العَيشَ إلّا بقُربِها　　فهَلْ في ابتغاءِ العَيْشِ ويحَكَ مِن حَرَجْ

كأنّي و هي و الكأسَ و الخمرَ و الدُّجى ثَرى و حَيا و الدُّرُّ و التِّبْرُ و السَّنَجْ

فهذا أمر لا مزيد فيه ، ولا يقدر أحد على أكثر منه ، إذ لا يحتمل العروض ولا بنية الأسماء أكثر من ذلك . انتهى كلامه .

و من تشبيه أمرين بأمرين قول ابن حجاج و هو بديع :

هذي المجرّةُ و النجومُ كأنّها نهرٌ تَدَفَّق في حديقة نَرجِسِ

و منه قول ابن المعتز في تشبيه الهلال ، و قالوا : إنّه من مخترعاته :

انظُرْ إلى حُسنِ هِلالٍ بدا يَهتِكُ من أنوارِهِ الحِندِسا
كمِنجَلٍ قد صِيغَ من عَسْجَدٍ يَحصُدُ من زَهْرِ الدُّجى نَرجِسا

و في كتاب الجمان لابن ناقيا : جمع ابن المعتز بين تشبيهين في قوله :

وكأنّ البدر لمَّا لاح من تحتِ الثُريّا
مَلِكٌ أَقْبَلَ في التَّا جِ يُفدَّى و يحيَّا

و منه قوله في الهلال :

يتلُو الثريَّا كفَاغِرٍ شَرِهٍ يَفتَحُ فاهُ لأَكل عُنقُود

و لابن حبوس بين ثلاثة و ثلاثة :

وَ مُقرطق يَغني النديم بِوَجهِهِ عن كأسِهِ الملأى و عن إبريقِه
فعل المدام و لَونَها و مَذاقَها من مُقْلَتَيهِ و وَجنَتَيه و ريقِه

و مثله قول ابن الرومي :

آراؤكم و وجوهُكم و سيوفُكم في الحادثاتِ إذا دَجَوْنَ نجومُ

منها معالم للهدى و مصابح تجلو الدُّجى و الأخرياتُ رجوم

و مثله قول حميدة الأندلسية :

و لما أبى الواشون إلّا فراقَنا و ما لهم عندي و عندك من ثار
غزوناهم من ناظريك و أدمعي و أنفاسنا بالسيف والسيل والنار

قلت : هذا من التشبيه الضمني ، و كذا بعض ما سنذكره .

و منه قول الشيخ جمال الدين بن نباتة :

و انظُرْ إلى الخال فوق الخدِّ تحت لَمَى تجِدْ بِلالاً يُراعِي الصبحَ في السَّحَرِ

قلت : هذا من أقبح الأقوال ، و أنا أقشعرّ منه ، حيث ذكر البلال رضي الله عنه في هذا الموضع . أعاذنا الله من ذلك .

و منه بين أربعة و أربعة :

ثغرٌ و خدٌّ و نهدٌ و احمرارُ يدٍ كالطلع و الورد و الرمّان و البلح

و منه بين خمسة قول الشيخ شهاب الدين أبي جعفر :

مَلِكٌ يجيءُ بخمسةٍ من خمسةٍ كفى الحسودُ بها فمات لما بِهِ
من وجهِه و وقارِه و جواره و حُسامِه بيديْهِ يومَ ضرابِه
قمرٌ على رَضْوَى تسِيرُ به الصَّبَا و البرقُ يلمعُ مِن خِلالِ سَحَابِهِ

و منه بين ستة أمور قول ابن جابر :

ان شئت ظبيًا أو هلالاً أو دجى أو زهر غصن في الكثيب الأملد
فللحظها و لوجهها و لشعرها و لخدّها و القدّ و الردف أقصد

و منه بين سبعة أمور قول قاضي القضاة نجم الدين عبد الرحيم بن البارزي :

يقطع بالسكين بطيخة ضحى　　على طبق في مجلس لأصاحبهِ
كبدر ببرق قدَّ شمسًا أهلة　　لدى هالة في الأفق بين كواكبهِ

و منه بين ثمانية أمور قول الشيخ علاء الدين بن مقاتل :

خدود و أصداغ و قدّ و مقلة　　و ثغر و أرياق و لحن و معرب
فورد و سوسان و بان و نرجس　　و كأس و جريال و جنك و مطرب

و منه بين عشرة أمور قول بعضهم :

شعر جبين محيا معطف كفل　　صدغ فم و جنات ناظر ثغر
ليل صباح هلال بانة و نقا　　آسٍ أقاحٍ شقيقٍ نرجسٍ دُرٍّ

و في الأبيات المذكورة لف و نشر . و من عجائب اللف و النشر قول صفي الدين ، و إن لم يكن من باب التشبيه . و هو :

وَجْدي حنيني أنيني فكرتي وَلَهي　　منهم إليهم عليهم فيهمُ بهم

و في أمالي الشريف المرتضى علي بن الحسين المتوفّى سنة ٤٣٦ﻫ : تأمّلت ما اشتملت عليه تشبيهات الشعراء ، فوجدت أكثر ما شبهوا فيه الشيء بالشيء الواحد أو الشيئين بالشيئين . و قد تجاوزوا ذلك إلى تشبيه ثلاثة بثلاثة و أربعة بأربعة و هو قليل . و لم أجد من تجاوز هذا القدر إلّا قطعة مرت بي لابن المعتزّ . فإنّها تضمنت تشبيه ستة أشياء بستة أشياء . و ذكر شواهد الأقسام . قال : فأمّا تشبيه شيئين بشيئين فمثل قول امرئ القيس يصف عقابا "كأنّ قلوب الطير إلخ ". و لآخر :

أبصرتُه و الكأسُ بين فَمٍ　　منه و بين أناملٍ خمسِ
فكأنّها و كأنّ شاربَها　　قمرٌ يُقبّل عارِضَ الشَّمْسِ

و لأبي العباس الناشي :

كأنّ الدُّموعَ على خَدِّها　　بقيّةُ طَلٍّ على جُلَّنَار

و أمّا تشبيه ثلاثة بثلاثة فمثل قول ماني الموسوس :

نشَرَتْ غدائرَ شَعرِها لتُظِلَّني خوفَ العُيونِ من الوُشاةِ الرُّمَّق
فكأنَّه وكأنّها وكأنّني صُبحَانِ باتا تحتَ ليلٍ مُطْبق

و لبعضهم :

رَوضُ وَرْدٍ خِلالُهُ نَرجِسٌ غَضٌّ يحُفَّان أُقْحُوَانًا نضِيرًا
ذا يُباهِي لنا خُدُودًا و ذا يحـ ـكِي عُيُونًا و ذا يُضاهِي ثُغُورًا

و أمّا تشبيه أربعة بأربعة فمثل قول البعض :

كفٌّ تناوَلُ راحَها بِزُجاجَةٍ خَضْرَاءَ تَقْذِفُ بالحبَابِ و تُزْبِدُ
فالكَفُّ عاجٌ و الحبابُ لآلِئٌ و الراحُ تِبرٌ و الإناءُ زَبَرجَدُ

و لآخر :

أفدِي حبيبًا له بَدائِعُ أَوْ صافٍ تعالتْ عن كلِّ ما أَصِفُ
كالبَدْرِ يعلُو ، و الشمْسِ تُشْرِقُ وَالْـ ـغَزَالِ يَعْطُو ، والغُصْنِ ينْعَطِفُ

و أمّا تشبيه خمسة بخمسة فقول الوأواء الدمشقي و هو أبو الفرج :

و أَسْبَلَتْ لؤلؤًا مِنْ نَرجِسٍ وَ سَقَتْ وَرْدًا و عَضَّتْ على العُنّابِ بالبَرَدِ

و أمّا تشبيه ستة بستة فلم أجده إلّا لابن المعتزّ في قوله :

بدرٌ و ليلٌ و غُصْنٌ وجهٌ و شعرٌ و قَدٌّ
خمرٌ و وردٌ و دُرٌّ رِيقٌ و ثغْرٌ و خَدُّ

انتهى باختصار .

الباب الثانى
في فضائل رسول الله ﷺ و هو محتو على ثلاثة فصول

الفصل الأوّل في المقامة

اعلم : أنّ نبينا ﷺ أفضل الأنبياء و المرسلين و أكرم الكرام المقربين المخصوص بمقام قاب الفائز بعرائس خطاب ما تعرض بالتعريض لها الخطاب المختص بمزايا تقف دونها الأفكار حسري الممتاز بأسرار لاهوتية و فضائل ناسوتية لا يستطيع لسان الدهر لها حصرا .

و ذا إيوانُ الاستعلاءِ عالٍ فهيهاتَ التَّفَكُّرَ في الوِصَال

الراقي أعلام فضل رفعت له عليها الأعلام و طأطأت له رؤوس شرفات الشرف فقبلت منه الأقدام . فهو حبيب رب العالمين ، و المبعوث رحمة للعالمين ، و المنعوت بالخلق العظيم بين المرسلين المنزل عليه قرآن مجيد . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . المؤيد بالمعجزات المستمرة الباهرة ، و الفائز بالمقام المحمود و الشفاعة العظمى في الآخرة .

رئيسُ جميعِ العالمينَ محمد على رأسِ أعداهُ حَصًى و تُرابُ

أرسله الله بشيرًا و نذيرًا و داعيًا إليه بإذنه سراجًا منيرًا في زمان سفكت فيه الدماء المحرمة و بعد فترة أهلكت فيها النفوس المكرمة . و العدل مالت دعامته . و الخلق شالت نعامته . و الحق غارت نجومه . و الصدق طمست رسومه . و الناس رغبوا في الدنيا و زخارفها ، و زهدوا في الجنة و مخارفها .

و اغترّوا بأسباب هي كظل السحاب زائلة و كطيف الخيال راحلة و ككوكب الصباح آفلة . و باعوا الحسنات بالسيئات و القبائح ، و اشتروا بمكارم الأخلاق سوء الفضائح .

ما كان لهم دين يردعهم ، ولا حياء ينفعهم ، ولا كرم يزجرهم إلّا أن يكون هناك حجر يحجرهم . كانوا أكذب مقالاً و أسوأ حالاً و أقبح سيرةً و أنجس سريرةً و أقلّ علمًا و أدنى حلمًا . و سبب كلّ ذلك كونهم مغمورين في الكفر و الضلالة ، مسرورين بالغواية و الجهالة . دعواهم منتنة و جاهليتهم متقنة . يفعلون أفعالاً هي مصيبة . و يشتغلون بأشغال هي فتن مريبة . و يعملون أعمالاً هي آفة عمياء و فتنة صمّاء و داهية دهياء ، حتى بلغ سيل الفتن الزبى مثل قطع الليل على الربى . عمت المصيبة مشارق الأرض و مغاربها . و جببت كواهل العلياء و غواربها . و غادرت الضلوع ملتهبة و الدموع منسكبة و الأجفان باكية و الأحزان ذاكية و الجيوب مشققة و القلوب محرقة .

فلم ير غريب إلّا و قد طال سهاده ، ولا مسكين إلّا و زال رقاده ، ولا شخص غير ذي شوكة إلّا وجل عناؤه و قلّ عزاؤه . فارق البشر سكون و قرار . و جانب الإنسان سكينة و وقار . و صار القلق أليفه و الأرق حليفه و الهمّ جليسه و الغم أنيسه .

أمّا مجامعهم فلإيقاد نار الفسوق و الضير و لاصطياد الشر دون الخير . أحسنها عندهم ما تطاير شررها و تقاطر ضررها . أطاعوا الغضب و أضاعوا الأدب . فالشرّ عمّ و البغي تمّ . و تفاقم الأمر و طمّ . و عظم الوقر و لمّ . حتى كادت السماء تنفطر مناكبها و تنكدر كواكبها . و كادت الأرض تنهدم أطرافها و تنحطم أكنافها . فكم من عبرات مصبوبة و زفرات مصبوبة .

كان البغي قيد عيانهم و القتال مصيد طغيانهم . ضلّوا و أضلّوا . بئس ما فعلوا و عملوا . تورّطوا و ورّطوا في الحرب توريطا . و صدفوا باغي الخير و ثبطوه تثبيطا ، تائهين في المهالك و المهاوي ، واقعين في العوائق و العوادي ، حائرين في المهامه و الفيافي ، واردين موردين موارد لا صدر لها ، ممتطين غوارب أمور لا ثمر لها ، مرتطمين في المتالف و متردين في الصوادف ، وائدين بناتهم المعصومات ، و مقحمين أبناءهم قحم الهلكات .

كانوا أعقّ من ضبة و أظلم من حية . و أصبح الشريف فيهم أذلّ من نقد بل أذلّ من قراد

و وتد ، و العدل أعزّ من الأبلق العقوق ، و الوفاء أعزّ من بيض الأنوق ، و العفاف أعزّ من الكبريت الأحمر . تراهم في الشر أطيش من فراشة و أكيس من قشة ، و في أمر الدنيا أروغ من ثعلب و أطمع من أشعب . تطاولوا و تظالموا ، و إن أحد تظلم إلى ذي رياستين ، فكأنّما طلب أثرًا بعد عين أو رفع اليدين لنيل الفرقدين . و لم يرجع إلاّ بخفي حنين كحمار طلب قرنين فعاد مصلوم الأذنين .

جلّ خطابهم الرفث و الفسوق و السب و العقوق . لم يكن خطاب بل خطوب تكدر كلّ عيش و كتائب جاهلية تفل كلّ جيش . ولا كلام بل كلام في الأضالع و فضول بل نصول في الجوانح و ألفاظ كأنياب الأراقم و معان كأظفار الضراغم . فمن لم يكن ذئبا أكلته الذئاب . و ذلّ فيهم من لا سيف له يخسأ به الكلاب . و من كانت له عضد الأعوان تيسر له المطالب ، و إلاّ فقد ذلّ من بالت عليه الثعالب . كان يستوري زناد الفتنة الرؤساء الكفرة . فيحذو حذوهم الأذناب الفجرة كحمار بال فاستبال الأحمرة . يريك القمر إن أريت السهى من ضلّ و ذهب في السمهى .

فأرسل الله نبينا ﷺ إليهم . فنوّر الأرض بنور الله تنويرًا . و عمّرها بتوحيد الله تعميرًا . و أطفأ ذلك الجمر . و تدارك ذلك الأمر . و أضاء القلوب المشتغلة . و سكن الكروب المشتعلة . و أعاد إلى عود التوحيد ماءه و إلى وجه الأيّام رواءه .

و انسدت بمكارم أخلاقه الثلمات . و انكشفت بضياء طلعته تلك الظلمات . و حالت المحنة على المجيب له منحة ، و الرزية على الملبي لأحكامه عطية ، منظمًا لعقد الحسنات ، و جامعًا لشمل الخيرات ، مرغبًا إلى الصالحات الباقيات ، و مرهبًا عن المعاصي الموبقات ، داعيًا إلى المحجة الزهراء و الجادة الغراء ، هاديًا إلى صراط الله المستقيم صراط أصحاب النعيم المقيم ، نبي الله الأمين و صفيّه المكين ، سيّد الأنبياء و المرسلين و رسول رب العالمين .

فلو لي ألفُ ألسِنَةٍ وَ أثني بِها ما ازدَدْتُ إلاّ الانفعَالا

بركاته نامية و تحياته سامية ، متمم مكارم الأخلاق البهية و مكمل فضائل الإنسانية السنية ، منبع الشرف الجم و مطلع المجد الأشم ، معدن الكرامة و الجلالة و مصدر النبوة و الرسالة . لو لاه ما كانت الأرض و السماء ، و ما وجدت الجنة العلياء ، و ما أرسل نبي ولا رسول في الغبراء ، و ما لألأت

نجوم في الخضراء . نقطة دائرة الإنسان و خليل الله الرحمن . أرسله الله في زمنة كانت الأناسم فيها مثل زمنة . فقلّب القلوب إلى الله فحالت . و حول الأفكار إلى دين الله فآلت . و أصبح العزّ ببركته ملتمع الشعاع ، و المجد مرتفع الشراع ، و الدين مشدود النطاق ممدود الرواق ، و الحلم راسخ البنيان ، و العلم شامخ الأركان ، و العدل لائح المراسم ، و الفضل واضح المباسم .

من اعتصم بقوله ملك في الدين و الدنيا غاية أمانيه ، و أدرك في الآخرة و الأولى نهاية مباغيه . فليس الذليل إلّا من رد دعوته ، ولا العزيز إلّا من أجاب شريعته شريعة متسقة النظام مسفرة عن نيل المرام . تشاهد منها رياضًا متفتقة الأزهار و حدائق متفتحة الأنوار . فلا سكينة إلّا في ملّته البيضاء ، ولا فوز إلّا في شريعته الزهراء . و هو بشر لكن لما يدرك بشر ولا ملك مقامه ، و رسول بيد أنّه لم ينل رسول ما خيم فيه خيامه . فهو حامل لواء الحمد و أمجد و ممجد و حامد الله و أحمد و محمد .

و شَقّ له مِن اسْمه ليُجلّه　　　　فَذُو الْعرشِ محمود و هذا محمد

جاء بكتاب مبين و نور مستبين . و قد استوسع الوهي و استنهر الثائي في البلاد الأداني و الأقاصي بين الأذناب و النواصي . فرقع الخرق و رتق الفتق . آخى بين القبائل و قد أعجزت الأواخر و الأوائل . فأصبحوا بنعمة الله إخوانًا أصدقاء خُلاّنًا . و لو أنفق شخص ما في الأرض جميعا ما ألّف بين قلوبهم و ما كشف شيئًا من كروبهم و حروبهم .

و بالجملة فصفاته ﷺ و شمائله و ما انطوى عليه أجلّ من أن يحيط بها وصف ، و أعلى من أن يضم جواهرها نظم أو رصف . فلو جرى القلم إلى أن يحفى و صرّ لسانه إلى أن يخفت و يخفى ما جنى زهرًا أنبتته حدائق تلك الحقائق ، ولا التقط درًّا ملأ حقائب هاتيك الخلائق ، ولا اجتلى من ذلك الأفق الذي كله شموس و أقمار غير شهبه الخفية ، ولا نال على ظمئه من ذلك البحر غير بقية و كل موارده عذبة شهية ﷺ .

إنّ في الموجِ للغريقِ لَعُذْرًا　　　　واضِحًا أنْ يَفوتَه تعــدادُه

و ما أحسن ما قال العباس رضي الله عنه :

مِن قبلِها طِبْتَ في الظِّلالِ و في مُسْتَودَعٍ حيثُ يُخْصَفُ الوَرَقُ
و أنتَ لمّا وُلِدتَ أشرقَت الأر ضُ و ضَاءَتْ بنورِكَ الأُفُقُ

هو السيد الكريم البرّ الرحيم ، رسول ربّ العالمين ، صاحب الشفاعة الكبرى يوم الدين الذي يزدان بمحاسن اسمه الكلام ، و يختال بميامن ثنائه المرام .

قالوا أبو الصقر من شيبان قلتُ لهم كلّا ، لعمري ، و لكن منه شيبانُ
وكم أبٍ قد علا بالابن ذي الشرفِ كما عَلَتْ برسولِ اللهِ عدنانُ

النبي المأمون و الصفي الميمون الذي أدّى الرسالة ، و أبدى الدلالة ، و نصح الغوي ، و أوضح الخفي ، حتى انهدم بناء الشك ، و انهزم لواء الشرك ، و اتّسع نطاق الدين ، و ارتفع رواق اليقين .

يا أحمد المبعوث فينا لقد بلغك المجد إلى منتهاه
كم رمت أمداحك لو أنّ لي لفظًا يوافي ذا المثاني ثناه
إنّي لا أحصي ثناءً على ذي خلق أثنى عليه الإله

ما شمائله إلّا رياض و خمائل ، و للخلق دلائل و فوائد جلائل . كان أشدّ حياءً من العذراء في خدرها ، و أحسن وجهًا من نجوم السماء و بدرها . و كان من البأس و الشدة و الأقدام و النجدة في الغاية التي تكبو دونها سوابق الأبطال ، و تتبرقع الفرسان بغبارها عند القتال .

يقولون لِم لا تمتدِح سيّد الورٰى و تطنب في تعظيمه و امتداحهِ
فقلت لهم جبريل جاء بمدحهِ و ليس مديحي ريشة في جناحهِ

نعم قد دوّن الناس جملةً من شمائله ، و طاقةً من رياحين صفاته . و وضعوا كتبا كأنّها رياض تتأرج بنسمات سماته . و أودعوها نكتا بدورها في التمام . و رصعوها بجواهر تروق في الانتظام .

في بطن قرطاس رخيص ضمنت أحشاؤه درر الكلام الغالي

و بوّبوا و رتّبوا و هذّبوا و أسهبوا و ذكروا و نصّوا و خبروا و قصّوا و جبروا و دبجوا و حكوا

الصحيح و ما روجوا .

و عاجوا فأثنَوا بالذي أنتَ أهلُه ولو سكتوا أثنَتْ عليك الحقائب

ﷺ ما ناح حمام و راح غمام ، و سبح فلك و سبح ملك ، و طلع شارق و لمع بارق ، و على آله الأبرار و أسرته الأخيار و أصحابه الأتقياء و أحبابه الأصفياء أئمة الهدى و أزمّة الورى و مفاتيح الجنان و مصابيح الإيمان .

الفصل الثاني

اعلم : أنّ نبينا ﷺ أفضل خلق الله على الإطلاق . و هذا ما يعتقده المسلمون كافّة . و قدح في ذلك بعض الفسقة و الكفار و قالوا : إنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام أفضل منه . متمسكين بوجوه أضعف من بيت العنكبوت . منها التشبيه في قولنا "اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم" كما حكي أنّه اعترض بعض علماء النصارى محتجًّا بهذا التشبيه على الإمام الكبير المتكلم المناظر العارف بالله العلامة الشيخ مولانا محمد قاسم النانوتوي المتوفّى سنة ١٢٩٧ﻫ سبع و تسعين و مائتين و ألف في مناظرة اتفقت في تاريخ ١٩ , ٢٠ مارس سنة ١٨٩١م الموافقة لسنة ١٢٩٥ﻫ .

و زعم هذا النصراني وكان اسمه محي الدين البشاوري : أنّ في دينكم الإسلام تناقضًا صريحًا ، و ظاهركم يضادّ باطنكم ، و أقوالكم تقاوم عقيدتكم . فتهدمون بألسنتكم ما تبنونه في أنفسكم . فإنّ تشبيهكم في صلاتكم الإبراهيمية يبطل ما اعتقدتم . و اشتهرت هذه المناظرة بمباحثة شاهجهان پور . و هي بلدة من بلاد الهند . وقعت هذه المناظرة لإظهار الحق في مضافات هذه البلدة بين علماء الملل الثلاث الإسلام و النصرانية و الهندوسية الوثنية سنة خمس و تسعين و مائتين و ألف من الهجرة في التاسع عشر و في العشرين من مارس سنة إحدى و تسعين و ثمانمائة و ألف من الميلاد .

و من أجلّ الشركاء و المناظرين فيها لأهل الإسلام مولانا منصور علي رحمه الله تعالى و إمام المناظرين مولانا أبو المنصور و مولانا محمد علي و مولانا عبد الحي و مولانا عبد المجيد و غير هؤلاء رحمهم الله تعالى . و كان رئيسهم المتكلم في المناظرة صاحب العلوم اللدنية الإمام مولانا محمد قاسم مؤسس الجامعة الكبيرة المسماة

بدار العلوم في بلدة ديوبند . و شهرتها في الأمصار تفوق شهرة الشمس في رابعة النهار . و من علماء الهنود ديانند السرسوتي و أندرمن و غيرهما . و من علماء النصارى أسكات مفسر الإنجيل و نولس و محي الدين البشاوري و جان تامس .

و حديث هذه المناظرة طويل . من جملة ذلك أنّ محي الدين النصراني اعترض على تقرير مولانا محمد قاسم و خطبته أربع اعتراضات متعلقة بالمعجزات و عصمة الأنبياء و زمن الفترة . رابعها الاعتراض على أفضليّة محمد ﷺ . فقال اللعين : إنّ التشبيه في الصلاة الإبراهيمية تنادي بأعلى نداء على أنّ إبراهيم لوقوعه في المشبّه به أفضل من محمد لذكره في المشبّه . إذ قد ثبت عند البلغاء و الأدباء أنّ المشبّه به يكون أفضل و أقوى من المشبّه . فأجاب مولانا محمد قاسم في تلك الحفلة الحافلة بآلاف الرجال بأجوبة شافية و توجيهات كافية بهتت الذين كفروا و أفحمتهم .

و حكى البعض أنّ مولانا المذكور لما فرغ عن أجوبة ثلاث اعتراضات على الترتيب و أراد الشروع في جواب سؤال التشبيه مضى الوقت المقرر . و كان الوقت المقرر للجواب عشر دقائق . فصاح الخصم أنّ الوقت المقرر قد انقضى . فجلس مولانا رحمه الله تعالى و اعتذر أنّه لولا ضيق الوقت لذكرت و فصلت جواب السؤال الرابع سؤال التشبيه . ثم ذكر أجوبة هذا السؤال الرابع في مجلسه بين العلماء بعد ما سأله بعض رفقائه و قالوا له : ما كان جوابك إذ ذاك عن هذا الاعتراض لولا ضيق الوقت . و قد ذكرت أجوبة مولانا المذكور اللطيفة الجامعة الإلهامية في بعض الأبواب الآتية في الكتاب .

و جاءني رجلان يومًا في بلدة لاهور . فقال أحدهما و كان رجلًا صالحًا من أصحابي : إنّ رفيقي هذا يريد أن يسأل منك مسألة . و كان رفيقه جاهلًا مدعيًا للعلم . فقلت له : قل و سل . فتكلم بكلام فاسد و ادّعى في أثناء قوله أنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام نبي الأنبياء ، مشيرًا إلى أنّه أفضل من جميع الأنبياء ، و لذا أمر الله تعالى نبينا محمدًا ﷺ باتباعه . و هذا من جهله المركب . و في كتابي هذا بيّنت أنّ نبينا ﷺ أفضل الخلق كلهم . و ذكرت دلائل ذلك . و لله الحمد و المنّة .

قال الإمام العارف بالله سيدي عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى في لطائف المنن : و مما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ شهودي بنور الإيمان و سرّ الإيقان أنّ نبينا ﷺ أفضل خلق الله تعالى على الإطلاق .

فلا أحد من أهل السماوات و أهل الأرض يساويه في مقام من المقامات . ثم لا يتوقف على دليل في ذلك إلّا من أعمى الله بصيرته ، و صار بصره كبصر الخفافيش . لأنّ نور شريعته أضوأ من نور الشمس وقت الظهيرة . و قد وقع في سنة ستين و تسعمائة أنّ شخصًا من طلبة العلم أنكر فضل النبي ﷺ على غيره من الرسل مستندًا إلى قوله ﷺ "لا تفضلوني على يونس بن مَتّى" و قوله ﷺ "لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح" .

و قد أجاب العلماء رحمهم الله عن مثل ذلك بعدّة أجوبة . أظهرها أنه قال ذلك تواضعًا منه ﷺ مع إخوانه من الأنبياء كما في نحو قوله ﷺ "نحن أحقّ بالشك من إبراهيم" و قوله ﷺ في يوسف عليه الصلاة والسلام "لو كنت أنا مكانه لأجبت الداعي" .

فخاف ﷺ من المبالغة في تعظيمه حتى يصل الناس إلى حد التحقير لغيره . كان ذلك من جملة إنصافه ﷺ . و يكفي في بيان فضله إجماع أمّته كلهم في سائر الأقطار على تفضيله على الأوّلين و الآخرين بالبديهة من غير توقف ، مع أنّ أحدًا منهم لم يره ، و إنّما رأى شرعه و سمع هديه فقط . و قد قال ﷺ : لا تجتمع أمتي على ضلالة .

و قد وقع في سنة إحدى و أربعين و تسعمائة أنّ شخصًا آخر زعم أنّ سيّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أفضل من سيدنا محمد ﷺ مسندًا إلى تعليمه ﷺ الصحابة كيفية الصلاة عليه في الصلاة و قوله في حديث التشهد "كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم" بناءً على قاعدة أهل المعاني من أنّ المشبّه به أعلى من المشبّه . و غاب عن هذا الشخص أن المسألة واردة على سبب . و ذلك أنّ الصحابة لما قالوا له : يا رسول الله ! قد علمنا السلام عليك ، فكيف نصلّي إذا نحن صلّينا ؟ فقال : قولوا " اللّهم صل على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم " إلى آخره .

فالنكتة في قوله ﷺ "كما صلّيت على إبراهيم" كونه ﷺ مسؤولاً في تعليم الكيفية . و تأمل إذا قلت لإنسان من الأولياء أو العلماء مثلاً علّمني تحيّة أعظّمك بها و أمدحك بها و أفضّلك بها بين الناس . كيف لا يسعه إلّا السكوت أو النطق بما فيه تواضع .

و لذلك جاء في حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه أنّه قال : لما سألنا رسول الله ﷺ : كيف نصلّي

عليك ؟ سكت و تمعّر وجهه حتى تمنّينا أن لو لم نكن سألناه . يعني من شدة حيائه ﷺ . و قوله ﷺ " أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر و أوّل من تنشق عنه الأرض و أوّل شافع و أوّل مشفّع " صريح في تفضيله على جميع الخلق حتى آدم عليه الصلاة والسلام ، إلّا فيما لا يؤذن له كما تقدّم . و قوله تعالى "وَمَا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ". و إنّما تأدّب ﷺ مع أبيه آدم لأنّه لا ينبغي للولد أن يقول : أنا أفضل من أبي . فإنّه سوء أدب . و هو ﷺ معصوم من مثل ذلك قطعًا ، إلّا ما ورد به الإذن الإلٰهي . كما في حديث " آدم فمن دونه تحت لوائي ".

و قد انتصر علماء مصر و صنّفوا مصنّفات في الردّ على هذا الشخص بتقدير ثبوت ذلك عنه كسيدي محمد البكري و سيدي محمد الرملي و الشيخ ناصر الدين الطبلاوي و الشيخ نور الدين الطندتائي . و قرأت تلك المصنفات على رؤوس الأشهاد بحضرة خلائق لا يحصون . فافهم ذلك . و الحمد لله رب العالمين . انتهى كلام الشعراني بلفظه .

و أخبرني بعض طلبة العلم من المشتغلين لديّ أنّ شخصًا جاء إلينا في الجامعة الأشرفية بلاهور و باحث الطلبة في أنّ إبراهيم أفضل من محمد و من سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، و كان يعتقد ذلك مستدلًّا بنحو كون إبراهيم عليه الصلاة والسلام متبوعًا بأمر الله تعالى نبينا ﷺ في القرآن العزيز باتباعه و بكونه مشبّهًا به في الصلاة الإبراهيمية ، و أنّ دين إبراهيم لم تنسخه شريعتنا ولا شريعة نبي آخر من الأنبياء و المرسلين ، و غير ذلك من الوجوه الركيكة الدالّة على جهله و تعنّته .

ثم اعلم : أنّ المعتزلة ينكرون أفضلية نبينا ﷺ .

و في طبقات الإمام الشعراني رحمه الله تعالى في ترجمة الشيخ أبي المواهب الشاذلي رحمه الله تعالى : كان الشيخ أبو المواهب الشاذلي يقول : وقع بيني و بين شخص من الجامع الأزهر مجادلة في قول صاحب البردة رحمه الله تعالى :

فمَبْلَغُ العـلمِ فيـه أنّه بشرٌ   و أنّه خيرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهم

و قال لي : ليس له دليل على ذلك أي على أنّه عليه الصلاة والسلام خير الخلق . فقلت له : قد انعقد الإجماع على ذلك . فلم يرجع . فرأيت النبي ﷺ و معه أبوبكر و عمر رضي الله عنهما جالسًا عند منبر الجامع الأزهر و قال لي : مرحبًا بحبيبنا . ثم قال لأصحابه : أتدرون ما حدث اليوم ؟ قالوا : لا ، يا رسول الله . فقال :

إنّ فلانًا التعيس يعتقد أنّ الملائكة أفضل مني ؟ فقالوا بأجمعهم : لا ، يا رسول الله . ما على وجه الأرض أفضل منك . فقال لهم : فما بال فلان التعيس الذي لا يعيش ، و إن عاش عاش ذليلاً خمولاً مضيقًا عليه خامل الذكر في الدنيا و الآخرة . يعتقد أنّ الإجماع لم يقع على تفضيلي . أمَا علم أنّ مخالفة المعتزلة لأهل السنّة لا تقدح في الإجماع . انتهى . و قال رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : و رأيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرّةً أخرى فقلت : يا رسول الله ! قول البوصيري رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى :

ع فمبلغ العلم فيه أنّه بشر

معناه : عند منتهى العلم فيك عند من لا علم عنده بحقيقتك أنّك بشر ، و إلاّ فأنت وراء ذلك كلّه بالروح القدسي و القالب النبوي . قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : صدقت فهمت مرادك . انتهى . قلت : حاصله أنّك بشر لكن فقت نوع البشر . فروحك القدسيّ فاز بجميع المراتب البشريّة ثم جازها فحاز بإذن الله و فضله ما وراء الوراء من المراتب العلية و المدارج السنية . و الله أعلم .

قال أبو سعيد النيسابوري في كتابه شرف المصطفى : الفضائل التي فضل بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سائر الأنبياء عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ستون خصلة . انتهى . قال الحافظ السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في الخصائص : قلت : و لم أقف على من عدّها . و قد تتبعت الأحاديث و الآثار فوجدت القدر المذكور ثلاثة أمثاله معه . و قد رأيتها أربعة أقسام : قسم اختص به في ذاته في الدنيا ، و قسم اختص به في ذاته في الآخرة ، و قسم اختص به في أمّته في الدنيا ، و قسم اختص به في أمّته في الآخرة . انتهى .

قال الإمام الشعراني رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في اليواقيت و الجواهر : فإن قلت : قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "لا تفضلّوني على يونس" الحديث . هل هو منسوخ أو قاله تواضعًا ؟ فالجواب : هو تواضع منه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، و إلاّ فهو يعلم أنّه أفضل خلق الله تعالى . و ذلك ليصح له تمام الشكر . فإنّه أشكر خلق الله تعالى لله . ولا يكون ذلك إلاّ بمعرفته كلّ ما أنعم الله به عليه . فافهم . و معنى الحديث : تفضلّوني من ذوات أنفسكم لجهلكم بالأمر . و ليس معناه : لا تفضلّوني مطلقا . فإنّه من فضله بتفضيل الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له . فقد أصاب . فإن قلت : فهل للعارف أن يفضله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بحسب ما تحمله الألفاظ ؟ فالجواب : نعم له ذلك . و لكن الكامل لا يعتمد في جميع ما يقوله إلاّ على ما يلقيه الله عنده ، لا على ما تحتمله الألفاظ . انتهى .

و قال الله تعالى : وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٍ . قال الإمام القسطلاني رَحِمَهُ اللهُ في المواهب : يعني محمدًا ﷺ . رفعه الله بالذات في المعراج و بالسيادة على جميع البشر و بالمعجزات . و قد بيّنت هذه الآية . وكذا قوله : وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٍ . أنّ مراتب الرسل و الأنبياء متفاوتة ، خلافًا للمعتزلة القائلين بأنّه لا فضل لبعضهم على بعض . و قال قوم : آدم أفضل لحق أبوّته . و توقف بعضهم فقال : السكوت أفضل .

و **المعتمد** الذي عليه جماهير السلف و الخلف أنّ الرسل أفضل من الأنبياء . وكذلك الرسل بعضهم أفضل من بعض بشهادة هاتين الآيتين و غيرهما . و نبينا ﷺ أفضلهم على الإطلاق ،كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : أنا سيّد ولد آدم . رواه ابن ماجه . و حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أنا أكرم ولد آدم يومئذ على ربي ولا فخر . لكن هذا لا يدلّ على كونه أفضل من آدم . و روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : أنا سيّد ولد آدم . و فيه : ما من بني آدم فمن سواه إلّا تحت لوائي . و في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا عند البخاري : أنا سيّد الناس يوم القيامة . و هذا يدلّ على أنّه أفضل من آدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ و من كلّ أولاده . انتهى بحاصله .

ثم إنّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يقل "أنا سيّد الناس" عجبًا و افتخارًا على من دونه ، حاشاه الله من ذلك . و إنّما قاله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إظهارًا لنعمة الله تعالى عليه و إعلامًا للأمّة بقدر إمامهم عند الله لتعرف نعمة الله عليهم و عليه . و لما أن العبد إذا لاحظ ما هو فيه من فيض المدد و شهده من عين المنّة و شهد مع ذلك فقره إلى ربّه في كل لحظة أنشأ له ذلك في قلبه سحائب السرور المطرة وابل الطرب . فيجري على لسانه الافتخار من غير عجب ولا فخر . فالافتخار على ظاهره و الافتقار و الانكسار في باطنه ، ولا ينافي أحدهما الآخر .

و قال الشيخ الأكبر في فتوحاته : سعى الإنسان في عدالته عند الحكام لقبول شهادته من باب السعي في حق الغير لا في حق نفسه . و ذلك لأمور تطرأ . فإنّه إذا لم يكن عدلًا لم يقبل الحاكم شهادته . و ربما ظهر الباطل على الحق فوجب السعي في العدالة . لهذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر . فلم يكن مراده ﷺ إلّا إعلام أمّته بمقامه ليريحهم من تعب يوم القيامة . ولا يمشون في ذلك اليوم إلى نبي بعد نبي كما تمشي الأمم . فيقتصرون على محمد ﷺ بما أعلمهم من ذلك بأنّ الرجوع إليه آخر

الأمر . انتهى .

و قال في الباب الخامس من الفتوحات : إنّما كان رسول الله ﷺ أفضل من أبيه آدم لأنّ آدم عليه الصلاة والسلام كان حاملاً لألفاظ الأسماء ، و محمد ﷺ كان حاملاً لمعانيها . و هي جوامع الكلم المشار إليها بحديث "أوتيت جوامع الكلم". فمن حصل على الذات حصل على الأسماء ، وكانت تحت حيطة علمه . و من حصل على الأسماء لا يكون محصلا للذات الذي هو المسمّى . قال : و لهذا فضّلت الصحابة . فإنّهم حصلوا الذات و نحن حصلنا الاسم . انتهى .

قلت : و يدلّ على كونه عليه الصلاة والسلام أفضل من جميع الأنبياء أنّه أرسل إليهم جميعًا بل إلى الملائكة أيضًا ، كما صرح به الإمام السبكي . فهو نبي الأنبياء و المرسلين و الملائكة . و هم أمّته عليه الصلاة والسلام . و معلوم أن النبي يكون أفضل من أمّته . و قال السبكي : فهو ﷺ كالسلطان الأعظم ، و جميع الأنبياء كأمراء العساكر . و لو أدركه جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لوجب عليهم اتباعه . فهم نوّابه مدة غيبة جسمه الشريف .

و نقل الشعراني عن شيخه علي الخواص رحمه الله تعالى : أنّه عليه الصلاة والسلام كان مبعوثا إلى الخلق أجمعين في عالم الأرواح و الأجسام من لدن آدم إلى قيام الساعة . انتهى . و نقل البيهقي في الباب الرابع من شعب الإيمان عن الحليمي : أنّه صرّح بأنّه ﷺ لم يرسل إلى الملائكة . قال الشيخ كمال الدين بن أبي شريف في حاشيته : إنّ الحليمي و إن كان من أهل السنّة فقد وافق المعتزلة في تفضيل الملائكة على الأنبياء . و ما نقل عنه البيهقي من أنّه لم يرسل إلى الملائكة موافق لقوله بأفضلية الملائكة . و أطال الشيخ كمال الدين في ذلك . ثم قال : و مع ذلك فالأليق بالعلماء الوقف عن الخوض في هذه المسألة على وجه يتضمن دعوى القطع في شيء من الجانبين . انتهى بحاصله .

قلت : مذهب جمهور أهل السنّة أنّ خواصّ بني آدم و هم الأنبياء أفضل من خواصّ الملائكة ، و أنّ الأولياء من البشر أفضل من عوام الملائكة . نصّ عليه البيهقي و السعد و غيرهما . و ذهب المعتزلة و الفلاسفة و بعض الأشاعرة إلى تفضيل الملائكة . و هو اختيار القاضي أبي بكر الباقلاني . و تمسّكوا بوجوه ضعيفة كما فصّل في المواهب .

و قال العلامة البرماوي رحمه الله تعالى : الأنبياء أفضل من الملائكة و خواصّ بني آدم أفضل

من خواصّهم و عوامهم أفضل من عوامهم ، و بنات آدم أفضل من الحور العين . انتهى . قال ابن أبي الشريف : المراد من عوام البشر الصلحاء لا الفسقة .

و قال الإمام صفي الدين ابن أبي المنصور : الذي نعتقده أنّ جميع الرسل بعد نبينا ﷺ أفضل من الملائكة بأسرها ، على خلاف بيننا و بين المعتزلة ، و أنّ خواص الملائكة أفضل من عموم النبيين ، و أنّ عموم النبيين أفضل من جملة الملائكة ، و أنّ عموم الملائكة أفضل من عموم المؤمنين . انتهى .

و يعزى إلى الشيخ الأكبر ابن العربي تفضيل الملائكة على خواص البشر . قال الشعراني في اليواقيت : هذا مما دسّ في كتبه على الشيخ . و الذي رأيته في النسخة المقابلة لنسخة الشيخ من الفتوحات بقونية المروية عنه بالإسناد : أنّ خواص البشر أفضل من خواص الملائكة . انتهى . و ذكر الشيخ عبد الكريم الجيلي رحمه الله : أنّ ابن العربي رجع عن القول بتفضيل خواص الملائكة على خواص البشر قبل موته بسنة ، و وافق الجمهور من أهل السنّة . انتهى . و رأيت في الباب الثالث و الثمانين و ثلاثمائة من الفتوحات ج٣ ص٥١٩ تصريحه في الأشعار ، بأنّ رسول الله ﷺ أفضل من الملائكة و جميع المرسلين .

إن قلت : فما معنى قوله عليه الصلاة والسلام كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث : استب رجل من المسلمين و رجل من اليهود " لا تفضّلوني على الأنبياء" و في رواية " لا تفضّلوا بين الأنبياء" و قوله تعالى حكايةً : لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ .

قلت : أجابوا عنه بوجوه : منها أنّ معنى ذلك عدم التفريق في الإيمان بما أنزل إليهم و التصديق بهم . و معنى الأحاديث : كفّ الخوض في تفصيل التفضيل بالآراء أو الخوض في تفضيل بعضهم على بعض في سياسة الأمّة و الصبر على الدين و أداء الرسالة و الحرص على هدي الضلال .

و حكى القاضي عياض رحمه الله عن البعض : أنّ هذا النهي كان قبل أن يعلم أنّه سيّد ولد آدم . قال ابن كثير : في هذا نظر ، لأنّه رواية أبي هريرة رضي الله عنه ، و ما هاجر إلّا عام خيبر متأخرًا . فيبعد أنّه لم يعلمه الله بهذا إلّا بعد هذا .

و قيل : نهى عن ذلك تواضعًا .

و قيل : نهى عن تفضيل يؤدي إلى تنقيص بعضهم أو الغضّ منه .

و قيل : منع التفضيل في حق الرسالة و النبوة . فإنّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيها على حد واحد لا يتفاضلون . و إنّما التفاضل في الخصوص و زيادة الأحوال و الكرامات .

و كذا الكلام فيما روى ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا في الصحيحين : ما ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن مَتّى . و في رواية أبي هريرة رضي الله عنه : من قال "أنا خير من يونس بن متى" فقد كذب .

قيل : ثم الأفضل بعد نبينا صلى الله عليه وسلم الأنبياء أولوا العزم ، كما قال الله تعالى : فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ . و اختلف في عدتهم و تعيينهم على أقوال :

فقال الحسن بن الفضل : ثمانية عشر ، و هم المذكورون في سورة الأنعام .

و قيل : تسعة نوح و إبراهيم و إسماعيل و يعقوب و يوسف و أيوب و موسى و داود و عيسى عليهم الصلاة والسلام .

و قيل : سبعة آدم و نوح و إبراهيم و موسى و داود و سليمان و عيسى عليهم الصلاة والسلام .

و قيل : ستة نوح و هود و صالح و موسى و داود و سليمان عليهم الصلاة والسلام . أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما .

قال السيوطي : أصحها أنّهم خمسة نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و محمّد عليهم الصلاة والسلام .

قال التفتازاني رحمه الله تعالى : أجمع المسلمون على أن أفضل الرسل محمد صلى الله عليه وسلم . قيل : ثم آدم . و قيل : نوح . و قيل : إبراهيم . و قيل : موسى . و قيل : عيسى . عليهم الصلاة والسلام . انتهى .

قال الشهاب الخفاجي في نسيم الرياض ج١ ص٣١٦ : و الراجح عندهم أنّه إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما ورد في الحديث : أنّه خير البريّة . انتهى .

قلت : و لأمر الله تعالى نبيّنا باتباعه في القرآن ، و لكون صلاته مشبّهًا بها في قولنا "كما صلّيت على إبراهيم". ولا أقلّ من أن يثبت بها أنّه أفضل الرسل بعد نبينا صلى الله عليه وسلم .

قال السيوطي رحمه الله تعالى : اتفق أهل العلم أنّ الأفضل بعد نبينا صلى الله عليه وسلم إبراهيم ثم موسى و عيسى

و نوح . و لم يذكروا مراتب بقيتهم . انتهى .

و يحكى أنّ هذه المسألة وقعت في زمن عز بن عبد السلام فأفتى فيها بأنّه ﷺ كان أفضل من كل واحد من الأنبياء ، لا أنّه أفضل من جميعهم . فتمالأ جماعة من علماء عصره على تكفيره فعصمه الله عزّوجلّ . أقول : نحن لا نشكّ في أنّه ﷺ أفضل من كل واحد منهم و من الجميع أيضًا . انتهى . كذا في نسيم الرياض شرح الشفاء .

قال الشيخ محي الدين في الباب الثالث و السبعين من الفتوحات : اعلم : أنّ المختار عدم التفاضل بين المرسلين (أي بعد نبينا ﷺ) على التعيين بالعقل مع إيماننا بأنّ بعضهم أفضل من بعض عند الله . إذ الخوض في مقام المرسلين غير محمد ﷺ من الفضول . فعلم أنّا نعتقد تفاضلهم على الإبهام ، و لابدّ لقوله تعالى "تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ". و لم يعين لنا من هو الأفضل . و معلوم أنّه لا ذوق لنا في مقامات الأنبياء حتى نتكلم عليها ، غاية أمرنا أن نتكلم بالإرث المناسب لمقامنا . و أين المقام من المقام . فلا ينبغي أن يتكلم في مقام الرسول إلاّ رسول ولا في مقام الأنبياء إلاّ نبي . هذا هو الأدب الإلهي ، ولو لا أنّ محمدًا أخبرنا أنّه سيّد ولد آدم لما ساغ لنا أن نفضله بعقولنا . انتهى .

و قال في الكلام على صلاة الجمعة من الفتوحات كما في اليواقيت : لقد اطلعني الله على من هو الأفضل بعد محمد ﷺ من الرسل على الترتيب . ولو أن رسول الله ﷺ لم يقل "لا تفضلوا بين الأنبياء" لعيّنت ذلك . و لكن تركته لما يؤدي إليه من تشويش بعض القلوب التي لا كشف عند أصحابها . انتهى ما في اليواقيت .

قلت : هذا توضيح مراد الشيخ ، لا أنّه عبارته بعينها . راجع الفتوحات ج١ ص٤٦٥ .

و قال في الباب الثاني و الستين و أربعمائة : لا نعرف مراتب الرسل و الأنبياء إلاّ من الختم العام الذي يختم الله به الولاية المحمدية في آخر الزمان . و هو عيسى عليه الصلاة والسلام . فهو الذي يترجم عن مقام الرسل على التحقيق لكونه منهم . و أمّا نحن فلا سبيل لنا إلى ذلك . انتهى .

قال الإمام الشعراني رحمه الله تعالى : سمعت سيدي عليًا الخوّاص رحمه الله تعالى يقول : الخوض في تفاضل الأنبياء على التعيين من غير كشف فضول . فإنّ نحو قوله " مِنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ " و قوله "وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ

إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا" لا يؤخذ منه تفضيل أحدهما على الآخر على القطع للجهل بأيّ المقامين أفضل الخلّة أو الكلام . انتهى .

الفصل الثالث

في بيان الوجوه الدالة على أفضلية نبيّنا ﷺ

الوجه الأوّل : قوله تعالى : تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ . و المراد ببعضهم نبينا ﷺ . صرّح به المحدثون و المفسرون .

الوجه الثاني : قوله تعالى : وَ رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ . قيل فيه لأنّه قرن ذكر محمد بذكره في كلمة الشهادة و في الأذان و في التشهد . و لم يكن ذكر سائر الأنبياء كذلك . بل قرن اسمه في أذان دين بعض الأنبياء أيضًا .

أخرج أبونعيم في الحلية و ابن عساكر من طريق عطاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : نزل آدم بالهند و استوحش . فنزل جبرائيل عليه السلام فنادى بالأذان : الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلّا الله مرّتين ، أشهد أنّ محمدًا رسول الله مرتين . قال آدم : من محمد ؟ قال : آخر ولدك من الأنبياء .

بل كان اسمه عليه الصلاة والسلام مقرونًا في أذان سكّان الملإ الأعلى ، كما في حديث المعراج : أنّه عليه الصلاة والسلام لما انتهى إلى الحجاب الذي يلي الرحمن خرج ملك من الحجاب . فقال : الله أكبر الله أكبر . فقيل له من وراء الحجاب : صدق عبدي . أنا أكبر أنا أكبر . و فيه : فقال : أشهد أن محمدًا رسول الله . فقيل من وراء الحجاب : صدق عبدي . أنا أرسلت محمدًا . الحديث . أخرجه البزار عن عليّ رضي الله عنه كما في الخصائص للسيوطي ج١ ص٢١ .

الوجه الثالث : قوله تعالى بعد حكاية أحوال الأنبياء : أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ . قال القطب الرازي في حواشيه على الكشاف و الإمام الرازي في تفسيره ج٢ ص٣١٤ و الآلوسي في روح المعاني ج٧ ص٢١٧ ، ما حاصله : أنّ الاقتداء المأمور به ليس إلّا في الأخلاق الفاضلة

و الصفات الكاملة كالحلم و الصبر . و يمتنع أن يقال : إنّه عليه الصلاة والسلام لم يمتثل حكم الله . لكونه معصومًا . فلابدّ أن يقال : إنّه عليه الصلاة والسلام ائتمر و أتى بجميع تلك الكمالات و الأخلاق الفاضلة . فاجتمع فيه ما كان متفرّقًا فيهم . فالآية دليل على أنّه عليه الصلاة والسلام أفضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . و هو استنباط لطيف و استخراج بديع . هذا .

الوجه الرابع : أنّ معجزته عليه الصلاة والسلام التي هي القرآن باقية دائمة ما دام الملوان . و معجزات سائر الأنبياء غير باقية . فيكون صلى الله عليه وسلم أفضل بهذا الاعتبار . قاله الإمام الرازي .

الوجه الخامس : أنّه عليه الصلاة والسلام اختص بالمقام المحمود . قال تعالى : عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا . و هو مقام لا ينبغي إلّا لرجل واحد . و قال عليه الصلاة والسلام : أرجو أن أكون أنا ذلك الرجل . و هو مقام الوسيلة و مقام الشفاعة العظمى . و الشفاعات خمس عند بعض ، و سبع عند بعض ، و ثمان عند بعض . و لي في هذه المسألة تحقيق انفردت به . و ذكرت فيه أقسام الشفاعة ما ينيف على عشرين قسمًا . ولله الحمد و المنة .

الوجه السادس : أنّ دينه عليه الصلاة والسلام أفضل الأديان . فيلزم أن يكون هو صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء . بيان الأوّل : أنّه تعالى جعل الإسلام ناسخًا لسائر الأديان . و الناسخ يجب أن يكون أفضل . قاله الفخر الرازي رحمه الله تعالى .

الوجه السابع : أنّه عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء . فيجب أن يكون هو عليه الصلاة والسلام أفضل . لأنّ نسخ الفاضل بالمفضول قبيح . تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا .

الوجه الثامن : اختص صلى الله عليه وسلم بالكوثر . قال تعالى : إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ . أخرج أبو نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا : أوتيت خصالاً لا أقولهن فخرًا . و فيه : و أوتيت الكوثر . آنيته عدد نجوم السماء . خصائص ج٣ ص٢٤٢ .

الوجه التاسع : غفر الله له ما تقدم من ذنبه و ما تأخّر . أخرج أبونعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا : أوتيت خصالاً لا أقولهن فخرًا . غفر لي ما تقدّم من ذنبي و ما تأخّر . و جعل أمّتي خير الأمم . و أوتيت جوامع الكلم . الحديث .

قال بعض المحدثين لثبوت هذه الخصوصية له ﷺ و عدم ثبوتها لغيره من الأنبياء و الرسل عليهم الصلاة والسلام : لا يجترأ أحد يوم القيامة على الإقبال للشفاعة الكبرى إلّا نبينا ﷺ . و لذا يصرح عيسى عليه الصلاة والسلام للناس يوم القيامة بهذه الخصوصية كما ورد في رواية الشيخين : فيأتون عيسى عليه الصلاة والسلام . فيقول : لست هناكم و لكن ائتوا محمدًا عبدًا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . الحديث . قال الله سبحانه : لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ .

وأخرج البزار بسند جيد عن أبي هريرة رضي الله عنه : أنّ النبي ﷺ قال : فضلت على الأنبياء بستّ لم يعطهنّ أحد كان قبلي : غفر لي ما تقدّم من ذنبي و ما تأخّر . و أحلّت لي الغنائم . و جعلت أمتي خير الأمم . و جعلت لي الأرض مسجدًا و طهورا . و أعطيت الكوثر . و نصرت بالرعب . و الّذي نفسي بيده أنّ صاحبكم لصاحب لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن دونه .

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : من خصائصه أنّه أخبره الله بالمغفرة . و لم ينقل أنّه أخبر أحدًا من الأنبياء بمثل ذلك . بل الظاهر أنّه لم يخبرهم بدليل قولهم في الموقف : نفسي نفسي . و قال ابن كثير في تفسيره في آية الفتح : هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره . انتهى . خصائص كبرى ج٣ ص١٦٢ .

الوجه العاشر : قال الغزالي في الإحياء : لأجل اجتماع النبوة و الملك و السلطنة لنبينا ﷺ كان أفضل من سائر الأنبياء . فإنّه أكمل الله تعالى به صلاح الدين و الدنيا . ولم يكن السيف و الملك لغيره من الأنبياء . و فيه : أنّ يوسف و داود و سليمان عليهم الصلاة والسلام كانوا ملوكًا ، جمع الله لهم بين النبوة و الملك ، و مع ذلك فليسوا بأفضل من الرسل الذين ليسوا ملوكًا كإبراهيم و موسى و عيسى عليهم الصلاة والسلام ، بل هؤلاء أفضل منهم لأنّهم أكمل .

الوجه الحادي عشر : اختصاصه ﷺ بعموم الدعوة للناس كافّة . قال تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ . و قال : تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا . فهو ﷺ مرسل إلى الجن بالإجماع و إلى الملائكة في قول . كذا قاله السيوطي رحمه الله تعالى . بل إلى الأنبياء و الرسل عند المحققين . و لذا أخذ عليهم الميثاق لأن يؤمنوا به و ينصروه و يأمروا أممهم بذلك . قال تعالى : وَإِذْ

أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ . الآية . آل عمران .

قال الشيخ تقي الدين السبكي في كتابه "التعظيم و المنة في لتؤمنن به و لتنصرنه" : في هذه الآية التنويه بالنبي ﷺ . و فيها أنّ نبوته و رسالته عامة لجميع الخلق من زمن آدم إلى يوم القيامة . و تكون الأنبياء و الأمم كلهم من أمّته . و يكون قوله "بعثت إلى الناس كافّة" لا يختص به الناس من زمانه إلى يوم القيامة بل يتناول من قبلهم أيضًا . و فيها إشارة إلى أنّه كان نبيًّا منذ الأزل و قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام . و به يتبيّن معنى قوله عليه الصلاة والسلام : كنت نبيًّا و آدم بين الروح و الجسد .

ثم إنّ الله أخذ المواثيق على الأنبياء ليعلموا أنّه المقدم عليهم و أنّه نبيهم و رسولهم . فالنبي ﷺ نبي الأنبياء . و لهذا ظهر ذلك في الآخرة حيث يكون جميع الأنبياء تحت لوائه ، و في الدنيا كذلك ليلة الإسراء إذ صلّى بهم . انتهى ما قال السبكي بخلاصته . كذا في خصائص السيوطي .

الوجه الثاني عشر : ما يدلّ على أنّه الأقدم نبوّةً الأسبق على الأنبياء رسالةً . أخرج ابن سعد عن عامر رضي الله عنه قال : قال رجل للنبي ﷺ : متى استنبئت ؟ قال : و آدم بين الروح و الجسد حين أخذ مني الميثاق .

و أخرج أبونعيم عن الصنابحي قال : قال عمر رضي الله عنه : متى جعلت نبيًّا ؟ قال : و آدم منجدل في الطين . منقطع .

و أخرج البزار و الطبراني في الأوسط و أبو نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قيل : يا رسول الله ! متى كنت نبيًّا ؟ قال : و آدم بين الروح و الجسد .

و أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره و أبو نعيم في الدلائل عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى "وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ" الآية . قال : كنت أوّل النبيين في الخلق و آخرهم في البعث . فبدأ به قبلهم .

فإن قلت : ما معنى قوله عليه الصلاة والسلام "كنت نبيًّا و آدم بين الروح و الجسد"؟

قلت : فيه أقوال :

القول الأوّل : فسّره البعض بأنّ معناه : علم الله بأنّه سيصير نبيًّا في المستقبل . و ردّه الإمام السبكي بأنّ علم الله تعالى محيط بجميع الأشياء . فلو كان المراد ذلك لم يكن لنبينا ﷺ خصوصية بأنّه نبي و آدم بين الروح و الجسد . لأنّ جميع الأنبياء يعلم الله نبوتهم في ذلك الوقت و قبله . فلابدّ من خصوصية للنبي ﷺ ، لأجلها أخبر أمّته ليعرفوا قدره عند الله .

القول الثاني : قال العبد الضعيف الروحاني البازي : الأحسن و الأمس بالعقول و الأعلق بالقلوب أن يقال في تفسير معنى الحديث : إنّ نبوته ﷺ كانت مشهورة في الملإ الأعلى . و الملائكة كانوا يعرفون ذلك قبل خلق النوع الإنساني . و أعلم الله تعالى سكّان عرشه و ملكوته بأنّ محمدًا رسولي و حبيبي و خليلي ، و أنّه أفضل الخلق كلهم ، و أنّه هو الغاية القصوى لخلق العالم و النهاية العليا لذلك ، و أنّ خلق السمٰوات و الأرض و النار و الجنّة لأجله ﷺ . و شأنه العالي هذا كان عند سكّان الملإ الأعلى أشهر من الشمس ، و اسمه السامي كان لديهم أظهر ظهور النفس .

و نظير ذلك ما ثبت بالنصوص القاطعة أنّه ﷺ كان أشهر عند الأنبياء و المرسلين و الأمم السابقين . و كانوا يعرفون أحواله و شأنه و نبوته . ثم أخذ له المواثيق على الأنبياء . قال تعالى في آل عمران : وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ .

فكما كان نبينا ﷺ معروفًا بنبوّته بين الأنبياء قبل ميلاده لا يبعد أن يقال كذلك كان هو ﷺ نبيًّا معروفًا برسالته و نبوته في الملإ الأعلى قبل ميلاد آدم عليه الصلاة والسلام ، حيث كان آدم عليه الصلاة والسلام منجدلًا في الطين و الماء .

و يؤيد ما قلنا ما أخرج ابن عساكر عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ما في الجنة شجرة عليها ورقة إلّا مكتوب عليها "لا إله إلّا الله محمد رسول الله" . و أخرج مثله أبو نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما .

و أخرج الحاكم و البيهقي و الطبراني في الصغير و أبو نعيم و ابن عساكر عن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لما اقترف آدم الخطيئة قال : يا ربّ ! بحق محمد لما غفرت لي . قال : و كيف عرفت محمدًا ؟ قال : لأنّك لما خلقتني بيدك و نفخت فيّ من روحك رفعت رأسي . فرأيت على قوائم العرش مكتوبًا "لا إله إلّا الله محمد رسول الله". فعلمت أنّك لم تضف إلى اسمك إلّا أحبّ الخلق إليك . قال : صدقت يا آدم . ولو لا محمد ما خلقتك .

و أخرج ابن عساكر عن كعب الأحبار قال : إنّ الله أنزل على آدم عصيا بعدد الأنبياء و المرسلين . ثم أقبل على ابنه شيث فقال : أي بنيّ ! أنت خليفتي من بعدي ، فخذها بعمارة التقوى و العروة الوثقى . ما ذكرت الله فاذكر إلى جنبه اسم محمد ﷺ فإنّي رأيت اسمه مكتوبًا على ساق العرش و أنا بين الروح و الطين . ثم إنّي طفت السمٰوات فلم أر في السمٰوات موضعًا إلّا اسم محمد مكتوبًا عليه . و إنّ ربي اسكنني الجنة فلم أر في الجنة قصرًا ولا غرفةً إلّا اسم محمد مكتوب عليه ، و على ورقي داود قصب آجام الجنة (هكذا و الله أعلم) ، و على ورق شجرة طوبى ، و على ورق سدرة المنتهى ، و على أطراف الحجب و بين أعين الملائكة . فأكثر ذكره فإنّ الملائكة تذكره في كل ساعاتها .

و أخرج ابن عساكر عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ليلة أسري بي رأيت على العرش مكتوبًا " لا إله إلّا الله محمد رسول الله ، أبوبكر الصديق ، عمر الفاروق ، عثمان ذو النورين ".

و أخرج الحاكم و صحّحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أوحى الله إلى عيسى : آمن بمحمد و مر من أدركه من أمّتك أن يؤمنوا به . فلو لا محمد ما خلقت آدم ولا الجنة ولا النار . و لقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه "لا إله إلّا الله محمد رسول الله" فسكن . قال الذهبي : في سنده عمرو بن أوس لا يدرى من هو .

القول الثالث : و أقول أيضًا لا يبعد أن يقال في تفسير هذا الحديث : إنّ المواثيق أخذت على الملائكة بأن ينصروني و يؤمنوا بي إذا أدركوا زمني بعد ميلادي و أن يعترفوا بنبوّتي في الأزل . فكنت نبيًّا لهم و كانوا آمنوا بي و آدم بين الروح و الجسد . لم يكن له اسم ولا رسم . و كان ذلك تنويهًا بشأنه الأعلى و مقامه الأسنى . و هذا كما نوّه الله تعالى بشأنه ﷺ إذ أخذ ميثاق الأنبياء و المرسلين لأن يؤمنوا بمحمد

ﷺ و يأمروا بذلك أممهم . قال تعالى : وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ . الآية .

القول الرابع : قال الشيخ تقي الدين السبكي مفسرًا لهذا الحديث "كنت نبيًّا إلخ" في كتابه "التعظيم و المنة في لتؤمنن به و لتنصرنه" : قد جاء أن الله خلق الأرواح قبل الأجساد . فقد تكون الإشارة بقوله "كنت نبيًّا" إلى روحه الشريفة أو إلى حقيقته . و الحقائق تقصر عقولنا عن معرفتها . و إنّما يعلمها خالقها و من أمدّه بنور إلهيّ .

ثم إنّ تلك الحقائق يؤتي الله كل حقيقة منها ما يشاء في الوقت الذي يشاء . فحقيقة النبي ﷺ قد تكون من قبل خلق آدم . آتاه الله ذلك الوصف بأن يكون خلقها متهيئة لذلك ، و أفاضه عليها من ذلك الوقت ، فصار نبيًّا . و كتب اسمه على العرش ، و أخبر عنه بالرسالة ليعلم ملائكته و غيرهم كرامته عنده . فحقيقته موجودة من ذلك الوقت . و أن تأخذ جسده الشريف المتصف بها . و اتصاف حقيقته بالأوصاف الشريفة المفاضة عليه من الحضرة الإلهيّة . و إنّما يتأخر البعث و التبليغ و كل ماله من جهة الله تعالى و من جهة تأهل ذاته الشريفة . و حقيقته معجل لا تأخير فيه ، و كذلك استنباؤه و إيتاؤه الكتاب و الحكم و النبوّة . و إنّما المتأخر تكوّنه و تنقّله إلى أن ظهر ﷺ . و غيره من أهل الكرامة قد تكون أفاضة الله تلك الكرامة عليه بعد وجوده بمدة كما يشاء سبحانه .

ولا شك أن كل ما يقع فالله عالم به من الأزل . و نحن نعلم علمه بذلك بالأدلّة العقلية و الشرعية . و يعلم الناس منها ما يصل إليهم عند ظهوره كعلمهم نبوة النبي ﷺ حين نزل عليه القرآن في أوّل ما جاء جبريل . و هو فعل من أفعاله تعالى من جملة معلوماته و من آثار قدرته و إرادته و اختياره في محلّ خاصّ يتّصف بها . فهاتان مرتبتان : الأولى معلومة بالبرهان . و الثانية ظاهرة للعيان . و بين المرتبتين وسائط من أفعاله تعالى تحدث على حسب اختياره . انتهى كلام السبكي بلفظه على ما في الخصائص .

فائدة

سئل العارف الكبير المجدد للألف الثاني الشيخ أحمد السرهندي عما في كتاب الرشحات لفخر الدين أنّه نقل عن بابا آبريز أنّه قال : لما عجن الحق سبحانه طينة آدم في الأزل صببت الماء في ذلك الطين .

فما يكون تأويل هذا الكلام ؟

فقال الشيخ السرهندي قدس سرّه : اعلم : أنّ الملائكة الكرام كان لهم دخل في خدمة طينة آدم عليه الصلاة والسلام . كذلك يجوز أن يكون لروح المذكور دخل في تلك الخدمة ، و أن يفوض إليه خدمة صب الماء ، و أن يكون مطلعًا من عالم الغيب على هذا المعنى بعد نشأته العنصرية بل بعد كماله . و يجوز أن يعطي الله الأرواح قدرة تصدر بها أفعال الأجسام ، و أوقع صدور هذه الأفعال جماعة في توهّم التناسخ ، معاذ الله من توهم تعلق تلك الأرواح بأبدان أخرى . و الروح المجردة هي التي تفعل أفعال البدن بإقدار الله تعالى . انتهى باختصار و تعريب مكتوب ٢٨ من الجزء الثاني من المكتوبات .

قلت : ثبت من هذه الحكاية أن الله يجعل بعض الأرواح موصوفًا بصفات مخصوصة ، فأيّ بعد في جعله روح النبي صلى الله عليه وسلم نبيًّا .

القول الخامس : هنا تفسير آخر لقوله عليه الصلاة والسلام "كنت نبيًّا إلخ" . و هو : أنّ فيه إشارة إلى تقدّم خلق نوره عليه الصلاة والسلام على جميع المخلوقات . و كان ذلك النور موصوفًا بالنبوّة قبل أن يخلق آدم عليه الصلاة والسلام لما روي : أوّل ما خلق الله نوري . و في سيرة الحلبي عن علي بن الحسين رضي الله عنه عن أبيه عن جده : أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : كنت نورًا بين يدي ربّي قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام بأربعة عشر ألف عام . و عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إنّ قريشًا كانت نورًا بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق آدم عليه الصلاة والسلام بألفي عام يسبح ذلك النور و تسبح الملائكة بتسبيحه . فلمّا خلق الله آدم عليه الصلاة والسلام ألقى ذلك النور في صلبه . قال صلى الله عليه وسلم : فأهبطني الله إلى الأرض في صلب آدم ، و جعلني في صلب نوح ، و قذفني في صلب إبراهيم عليهما الصلاة والسلام . ثم لم يزل ينقلني من الأصلاب الكريمة و الأرحام الطاهرة حتى أخرجني من بين أبوي لم يلتقيا على سفاح قط . انتهى .

قلت عن الكلبي إمام التاريخ : إنّه قال : كتبت للنبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة أمّ أي من قبل أمّه و أبيه . فما وجدت فيهن سفاحًا . و المراد بالسفاح الزنا ، ولا شيئًا ممّا كان من أمر الجاهلية أي من نكاح الأم أي زوجة الأب . كذا في السيرة الحلبية ج١ ص٤٠ .

و رأيت في كتاب التشريفات في الخصائص و المعجزات و لم أقف على اسم مؤلّفه : عن

أبي هريرة رضي الله عنه : أنّ رسول الله ﷺ سأل جبريل فقال : يا جبريل ! كم عمرت من السنين ؟ فقال : يا رسول الله ! لست أعلم غير أنّ في الحجاب الرابع نجم يطلع في كلّ سبعين ألف سنة مرة رأيته اثنين و سبعين ألف مرة . فقال : يا جبريل ! و عزّة ربّي جل جلاله ، أنا ذلك الكوكب . رواه البخاري . كذا في السيرة الحلبية ج١ ص٣٠ .

قال الإمام الشعراني في اليواقيت ج٢ ص٢٠ : فإن قلت : قد ورد في الحديث "أوّل ما خلق الله نوري" و في رواية " أوّل ما خلق الله العقل" فما الجمع بينهما ؟ فالجواب : أنّ معناهما واحد ، لأنّ حقيقة محمد ﷺ تارةً يعبّر عنها بالعقل الأوّل و تارة بالنور . انتهى .

و قال الشيخ تقي الدين بن أبي المنصور : إنّ أوّل ما ظهر من الموجودات بعد فتق العماء هو محمد ﷺ . فاستحق بذلك الأوّليّة للأوّليّات . فهو أبو الروحانية كلّها كما أنّ آدم عليه الصلاة والسلام أبو الجثمانيّات كلِّها . انتهى .

القول السادس : ما ذكره الشيخ الأكبر في فتوحاته ، و أذكره في صورة سؤال و جواب تسهيلاً لفهمه . فأقول :

إن قلت : ما معنى قوله عليه الصلاة والسلام "كنت نبيًّا و آدم بين الروح و الماء و الطين " و النبي ﷺ هو المخبر ؟ و كيف صح إخباره ﷺ قبل أن يخلق ؟

قلت : قال الشيخ في الباب الخامس و ثلاثمائة من الفتوحات ج٣ ص٢٢ : معناه أنّ النبي ﷺ كان يعرف ذاته بذاته بإذن الله في غير مجلى قبل أخذ الميثاق . و هو الحال التي كان فيها ﷺ يعرف نبوّته . و ذلك قبل خلق آدم كما أشار إليه الحديث المذكور ، فكان له ﷺ التعريف في تلك الحالة .

و ذلك أن هذه النشأة الإنسانية كانت مبثوثة في العناصر و مراتبها إلى حين وجودها التي يكون عليها في وجود أعيان أجسامها معلومة معينة في الأمر المودع في السماوات لكل حالة من أحواله التي تتقلب فيها في الدنيا صورة في الفلك على تلك الحالة ، قد أخذ الله بأبصار الملائكة عن شهودها مكتنفة عند الله في غيبه معينة له تعالى ، لا تعلم السمٰوات بها مع كونها فيها . فالعارف من عرف ذاته لذاته من غير مجلى . و أنّ قوله ﷺ "كنت نبيًّا إلخ " إنّما كان هذا القول بلسان تلك الصورة التي فيها من

جملة صور المراتب . و أطال في ذلك ، إن شئت فارجع إليه .

قلت : و ظاهر كلامه المطول هنا يشير إلى قدم الصور و العناصر فهو إمّا مدسوس أو مؤوّل . و الله أعلم .

و قال أيضًا الشيخ الأكبر محي الدين بن العربي ، ما خلاصته : أنّه إشارة إلى كونه سيّد الأنبياء ، و أنّ الأنبياء حجبته عليه الصلاة والسلام في عالم الخلق ، و أنّه عليه الصلاة والسلام عارف بذلك قبل ظهوره الجسميّ و قبل ميلاده في الدنيا . و لعلّ كونه عارفًا بذلك من خواصه ﷺ .

قال في الباب الثاني و الأربعين من فتوحاته في معنى الفتوة ج١ ص٢٤٣ : و من الفتوة قوله تعالى " وَ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ " . فأطلق عليه باللسان العبراني معنى يعبر عنه في اللسان العربي بالفتى . وكان في خدمة موسى عليه الصلاة والسلام . وكان موسى عليه الصلاة والسلام في ذلك الوقت حاجب الباب . فإنّه الشارع في تلك الأمّة و رسولها . و لكل أمّة باب خاص إلهيّ . شارعهم هو حاجب ذلك الباب الذي يدخلون منه على الله تعالى .

و محمد ﷺ هو حاجب الحجاب لعموم رسالته دون سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فهم حجبته ﷺ من آدم عليه الصلاة والسلام إلى آخر نبي و رسول . و إنّما قلنا " إنّهم حجبته " لقوله عليه الصلاة والسلام : آدم فمن دونه تحت لوائي . فهم نوّابه في عالم الخلق . و هو روح مجرد عارف بذلك قبل نشأة جسمه .

قيل له : متى كنت نبيًّا ؟ فقال : كنت نبيًّا و آدم بين الماء و الطين . أي لم يوجد آدم بعد إلى أن وصل زمان ظهور جسده المطهر ﷺ . فلم يبق حكم لنائب من نوّابه من سائر الحجاب الإلهيين . و هم الرسل و الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، إلّا عنت وجوههم لقيومية مقامه إذ كان حاجب الحجاب .

فقرر من شرعهم ما شاءه بإذن سيده و مرسله . و رفع من شرعهم ما أمر برفعه و نسخه . فربما قال من لا علم له بهذا الأمر : إنّ موسى عليه الصلاة والسلام كان مستقلًّا مثل محمد ﷺ بشرعه . فقال رسول الله ﷺ : لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلّا أن يتبعني . و صدق ﷺ . فالفتى أبدًا في منزل التسخير كما قال عليه الصلاة والسلام : خادم القوم سيّدهم . فمن كانت خدمته سيادته كان عبدًا محضًا خالصًا . انتهى كلامه بلفظه .

و في الفص الثاني من الفصوص له و شرحه للجامي ص٧٣ بعد ذكر خاتم الأنبياء و خاتم الأولياء : فإن فهمت ما أشرت به من أنّ الأنبياء من كونهم أولياء و الأولياء كلهم لا يرون الحق إلّا من مشكاة خاتم الأولياء الذي هو مظهر ولاية خاتم الرسل . فقد حصل لك العلم النافع المفضي إلى كمال متابعة خاتم الرسل .

فكلّ نبي من لدن آدم بل آدم أيضًا إلى آخر نبي ما منهم أحد يأخذ النبوة إلّا من مشكاة روحانية خاتم النبيين و إن تأخر وجود طينته عن وجود ذلك النبي الذي يأخذ النبوة من مشكاته . فإنّه أي خاتم النبيين بحقيقته و روحانيته موجود قبل وجود الأنبياء كلهم حتي آدم ، منعوت بالنبوة في هذا الوجود ، مبعوث إليهم و إلى من سواهم في عالم الأرواح . و هو أي وجوده ﷺ قبل وجود الجميع و اتصافه بالنبوة بالفعل في هذا الوجود ما يدلّ عليه قوله "كنت نبيًّا" أي من عند الله مختصًّا بالإنباء عن الحقيقة الأحدية الجمعية الكمالية ، مبعوث إلى الأرواح البشريين و الملكيين ، "و آدم بين الماء و الطين "لم يكمل بدنه العنصري بعد ، فكيف من دونه من الأنبياء أولاده ؟

و بيان ذلك أن الله تعالى لما خلق النور المحمدي كما أشار ﷺ إليه بقوله " أوّل ما خلق الله نوري " جمع في هذا النور المحمدي جميع أرواح الأنبياء و الأولياء جمعًا أحديًّا قبل التفصيل في الوجود الجمعي . و ذلك في مرتبة العقل الأوّل . ثم تعينت الأرواح في مرتبة اللوح المحفوظ الذي هو النفس الكلّية ، و تميزت بمظاهرها النورية .

فبعث الله الحقيقة المحمدية الروحية النورية إليهم نبيًّا . ينبئهم عن الحقيقة الأحدية الجمعية الكمالية . فلما وجدت الصور الطبيعية العلوية من العرش و الكرسي و وجدت صور مظاهر تلك الأرواح ظهر سر تلك البعثة المحمدية إليهم ثانيًا . فآمن من الأرواح من كان مؤهلاً للإيمان بتلك الأحدية الجمعية الكمالية . و لما وجدت الصور العنصرية ظهر حكم ذلك الإيمان في كمل النفوس البشرية . فآمنوا بمحمد ﷺ .

فمعنى قوله "كنت نبيًّا " أنّه كان نبيًّا بالفعل عالمًا بنبوته . و غيره من الأنبياء ما كان نبيًّا بالفعل ولا عالمًا بنبوّته إلّا حين بعث بعد وجوده ببدنه العنصري و استكماله شرائط النبوة . فاندفع بذلك ما

يقال من أنّ كل أحد بهذه المثابة من حيث أنّه كان نبيًّا في علم الله السابق على وجوده العيني و آدم بين الماء و الطين . و كذلك خاتم الأولياء من كونه صورة من صور الحقيقة المحمدية ختمت به الولاية الخاصة المحمدية أو الولاية المطلقة كان حكمه حكم خاتم النبيين . كان وليًّا بالفعل عالمًا بولايته و آدم بين الماء و الطين . انتهى .

و قال أبو العلاء عفيفي في شرح الفصوص ص٢٥ : ولا يقصد ابن العربي بالحقيقة المحمدية أو روح محمد ﷺ محمدا النبي العنصري المتأخر ظهورًا ، بل يقصد حقيقته القديمة التي تقابل العقل الأوّل عند أفلاطون و الكلمة عند المسيحيين . و المقصود عند ابن العربي في الحديث "كنت نبيًّا و آدم بين الماء و الطين " هذه الحقيقة القديمة أو روحه ﷺ . لا بمعنى قدّر لي أن أكون نبيًّا قبل خلق آدم ، كما يدلّ عليه ظاهر الحديث ، بل بمعنى : وجدت حقيقتي أو روحي التي هي العقل الإلهي قبل أن يوجد آدم . انتهى كلام أبي العلاء بتصرف .

الوجه الثالث عشر : جعل الله اسمه الشريف مكتوبًا على قوائم العرش و على أوراق أشجار الجنة و قصورها و غرفاتها كما رقمنا من قبل .

و على السماوات كما أخرج أبو يعلى و الطبراني في الأوسط و ابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ليلة أسري بي عرج بي إلى السماء ، ما مررت بسماء إلّا وجدت اسمي فيها مكتوبًا "محمد رسول الله و أبو بكر الصديق خلفي" .

بل كان مكتوبًا على كتفي بعض الأنبياء كما أخرج ابن عساكر من طريق أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه قال : بين كتفي آدم مكتوب "محمد رسول الله خاتم النبيين" .

و أخرج الطبراني عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : كان فص خاتم سليمان بن داود سماويًّا ، ألقي إليه فوضعه في خاتمه . و كان نقشه "أنا الله لا إله إلّا أنا محمد عبدي و رسولي" .

الوجه الرابع عشر : أخذ الميثاق على النبيين أن يؤمنوا به . أخرج ابن أبي حاتم عن السُّديّ قال : لم يبعث نبي قط من لدن نوح إلّا أخذ الله ميثاقه ليؤمننّ بمحمد و لينصرنّه إن خرج و هو حيّ ،

و إلّا أخذ على قومه أن يؤمنوا به و ينصروه إن خرج و هم أحياء .

و كذا روي عن علي و ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ : و هذا معنى قوله تعالى "وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا" .

الوجه الخامس عشر : أخرج أحمد عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ و كذا البخاري و مسلم و الترمذي عنه عن النبي ﷺ قال : أنا سيّد الناس يوم القيامة . و هل تدرون ممّ ذلك . ثم ذكروا حديث الشفاعة الكبرى الطويل .

و أخرج مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا : أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة ، و أوّل من تنشق عنه الأرض ، و أوّل شافع ، و أوّل مشفّع .

الوجه السادس عشر : أخرج الترمذي و حسّنه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا : أنا أوّل من تنشقّ عنه الأرض ، فأكسي الحلّة من حلل الجنة . ثم أقوم عن يمين العرش . فليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري .

و أخرج أبو نعيم عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا : أوّل من يكسى إبراهيم . ثم يقعد مستقبل العرش . ثم أوتي بكسوتي فألبسها . فأقوم عن يمينه مقامًا لا يقومه أحد غيري . يغبطني فيه الأوّلون و الآخرون . خصائص ج٣ ص٢٢٢ .

الوجه السابع عشر : أخرج أبو نعيم عن أمّ كرز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أنا سيّد المؤمنين إذا بعثوا ، و سابقهم إذا وردوا . و فيه : و أقربهم مجلسًا من الربّ تعالى إذا اجتمعوا .

الوجه الثامن عشر : أخرج الدارمي و الترمذي و أبو يعلى و البيهقي و أبو نعيم عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : أنا أوّل الناس خروجًا إذا بعثوا ، و أنا قائدهم إذا وفدوا ، و أنا خطيبهم إذا أنصتوا . و فيه : لواء الكرم بيدي ، و مفاتيح الجنة بيدي ، و لواء الحمد بيدي ، و أنا أكرم ولد آدم على ربّي ولا فخر . الحديث .

قال الفخر الرازي : قوله عليه الصلاة والسلام " آدم و من دونه تحت لوائي يوم القيامة " و ذلك يدلّ على أنّه أفضل من آدم و من كلّ أولاده . و قال عليه الصلاة والسلام : لا يدخل الجنة أحد من النبيين حتى أدخلها أنا ، ولا يدخلها أحد من الأمم حتى تدخلها أمّتي .

و عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا و أنا حبيب الله ولا فخر . و أنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر . و فيه : و أنا أكرم الأوّلين و الآخرين ولا فخر . أخرجه أحمد و أبو يعلى . خصائص ج٣ ص٢٢٨ .

الوجه التاسع عشر : روى البيهقي : أنّه ظهر علي بن أبي طالب رضي الله عنه من بعيد . فقال عليه الصلاة والسلام : هذا سيّد العرب . فقالت عائشة رضي الله عنها : ألستَ أنت سيّد العرب ؟ فقال : أنا سيّد العالمين ، و هو سيّد العرب . كبير ج٢ ص٣١٧ .

الوجه العشرون : أخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن عن عُمر رضي الله عنه : أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الجنة حرمت على الأنبياء حتى أدخلها ، و حرمت على الأمم حتى تدخلها أمّتي .

الوجه الحادي و العشرون : أنّ الله لم يناده في القرآن باسمه بل قال : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ، يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ، يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ، يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ . بخلاف سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنّه خاطبهم بأسمائهم كقوله تعالى : يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَ زَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ . يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ . يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ . يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ . يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ . يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ . يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ . يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ . هذا .

لكن في غير القرآن قد يناديه باسمه كما تقدم في حديث ثوبان رضي الله عنه حيث جاء فيه : و أنّ الله عزّ وجَلّ قال لي : يا محمد ! إنّي إذا قضيت قضاء فإنّه لا يرد . الحديث .

و كذا منع الله أمّته عن النداء باسمه . قال أبو نعيم : و من خصائصه تحريم ندائه باسمه على الأمّة ، بخلاف سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فإنّ أممهم كانت تخاطبهم بأسمائهم . قال تعالى حكاية عنهم : قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ . إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ . و قال تعالى لهذه الأمّة : لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا . انتهى .

الوجه الثاني و العشرون : ما ذكر ابن العربي الشيخ الأكبر في الفصوص ولا يخلو عن دقة . قال الشيخ في الفص الرابع عشر في كلمة عزيرية من الفصوص ص٢٧٤ : (و اعلم : أنّ الرسل صلوات الله عليهم من حيث هم رسل لا من حيث هم أولياء) و عارفون (على مراتب ما هي عليه) ضمير مبهم يفسره (أممهم) أي على مراتب ما عليه أممهم من الاستعدادات و القابليات (فما عندهم) أي عند كل رسول منهم (من العلم الذي أرسلوا به إلاّ قدر ما يحتاج إليه أمّة ذلك الرسول لا زائد ولا ناقص) لأنّه إنّما أرسل ليعطي كل واحد من أمّته ما سأله بلسان الاستعداد من غير زيادة ولا نقصان ليطابق عطاؤه السؤال (و الأمم متفاضلة يزيد بعضها على بعض ، فيتفاضل الرسل في علم الإرسال) أي في علم يقتضيه إرساله إلى أممهم (بتفاضل أممها) .

و ما يدلّ على ذلك (و هو قوله تعالى : تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) في علوم الرسالة لدلالة الرسل عليه (كما هم أيضًا فيما يرجع إلى ذواتهم عليهم السلام) من حيث أنّهم أنبياء (من العلوم و الأحكام متفاضلون بحسب استعداداتهم) و ما يدلّ على ذلك (هو قوله تعالى : وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ . و قال تعالى في حق الخلق مطلقًا : وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ . و الرزق منه ما هو روحاني كالعلوم و حسي كالأغذيه ، و ما ينزله) أي الرزق (الحق إلاّ بقدر معلوم ، و هو) أي القدر المعلوم (الاستحقاق الذي يطلبه) أي يقتضيه (الخلق ، فإنّ الله أعطى كلّ شيء خلقه فينزل عليه بقدر) أي بقدر استحقاقه (ما يشاء) . انتهى كلامه مع شرحه للجامي بأدنى تصرف في الشرح .

و قال في توضيح هذه العبارة و تلخيص مرامها أبوالعلاء عفيفي شارح الفصوص ص١٦٤ : التفاضل حاصل بين الرسل كما نصت عليه الآية "تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ" و بين النبيّين بدليل قوله تعالى "وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ" ، بل بين الناس عامة كما قال تعالى : وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ .

و على هذه الآيات يبني ابن العربي نظرية لا تخلو من ظرافة في معنى أفضلية بعض الرسل على بعض و أفضلية بعض الخلق على بعض كما يشير إليه اختلاف الرسل في رسالاتهم باختلاف الأمم التي أرسلوا إليها . فالله قد فضل بعض الرسل على بعض لا بمعنى أنّه خص بعضهم بفضل ما و حرم الآخرين

منه ، أو أكرم بعضهم أكثر مما أكرم غيره ، أو غير ذلك مما هو أدخل في المعاني الخلقية . و لكنه بمعنى أنّه أرسل بعض الرسل برسالات لم يرسل بها غيرهم لاختلاف الأمم في مدى استعدادهم لقبول الرسالات الإلهية و العمل بها .

فاختلف الرسل و اختلفت رسالاتهم باختلاف أممهم . و في هذا الاختلاف معنى التفاضل ، و لكنه ليس تفاضُلاً أخلاقيًّا ولا تفاضُلاً يستند إلى قيمة الرسول عند الله ليس أحد من الرسل أفضل من الآخر في عمله ولا في درجة قربه من الله . و لكن الرسل يتفاوتون فيما أرسلوا به من الشرائع و الأحكام كل في الزمان و المكان و إلى الأمّة التي هي أحق من غيرها برسالته . فالشرائع إذن تختلف بساطةً و تعقيدًا كما تختلف في أنواعها ، و يحددها في حالة كل رسول طبيعة الأمّة التي أرسل إليها و ظروفها . فهي متفاضلة أي مختلفة متفاوتة . و كذلك الرسل المرسلون بها . و لكن لكلّ رسول نوعين من العلم يختلف فيهما عن غيره من الرسل .

الأوّل : العلم الخاص بشريعته . و هذا مقيد كما قلنا بظروف الأمّة التي بعث إليها .

الثاني : علم بالأمور الأخرى غير المتصلة بشريعته . و هذا مقيد بطبيعته و استعداده . أمّا الأنبياء فيقع التفاضل بينهم ، أي الاختلاف في النوع الثاني فقط . و من أهمّ أجزائه العلم بالمغيبات . و أمّا غير الأنبياء و الرسل من الخلق فيقع التفاضل بينهم في الرزق . و الرزق منه ما هو ماديّ كالأغذية ، و منه ما هو روحانيّ كالعلوم . ولا يعطي الحق العباد من الرزق إلّا بقدر استحقاقهم . و استحقاقهم هو استعدادهم أو ما تتطلبه حقائقهم و أعيانهم الثابتة . فالتفاضل في الأحوال الثلاثة اختلاف و زيادة و نقص ، ولا تمييز و أفضلية . انتهى كلام أبي العلاء بلفظه .

الوجه الثالث و العشرون : ما يفهم من كلام الشيخ الأكبر محي الدين بن العربي في عدة مواضع من كتابه الفصوص و كتابه الفتوحات المكية و غيرهما . و هو أنّ جميعَ الأنبياء و الرسل عليهم الصلاة والسلام في نبوّاتهم مستمدون من مشكاة نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم و آخذون من مشكاة رسالته صلى الله عليه وسلم و في ولاياتهم يستضيئون بضياء ولايته صلى الله عليه وسلم . فثبت أنّه عليه الصلاة والسلام أفضل الأنبياء و المرسلين عليهم الصلوات و التسليمات .

قال الشيخ محي الدين بن العربي في فصوص الحكم فص حكمة نفثية في كلمة شيثية بعد بيان طويل : و ليس هذا العلم الذي يعطي صاحبه السكوت بالإصالة إلاّ لخاتم الرسل و خاتم الأولياء . و ما يراه أي ما يرى هذا العلم و الشهود و ما يأخذه أحد من الأنبياء و الرسل من حيث أنّهم أولياء لا من حيث أنّهم أنبياء و رسل إلاّ من مشكاة الرسول الخاتم من حيث ولايته . ولا يراه أحد من الأولياء إلاّ من مشكاة الولي الخاتم التي هي جهة باطنية الرسول الخاتم ، حتى أن الرسل أيضًا من حيث أنّهم أولياء لا يرونه متى رأوه إلاّ من مشكاة خاتم الأولياء التي هي مشكاة ولاية الرسول الخاتم . انتهى بحاصله مع شرحه للجامي ص٦٨ .

ثم قال الجامي في توضيحه : اعلم : أنّ الحقيقة المحمدية مشتملة على حقائق النبوة و الولاية كلّها . فأحديّة جمع حقائق النبوة ظاهرها و أحديّة جمع حقائق الولاية باطنها . فالأنبياء من حيث أنّهم أنبياء مستمدون من مشكاة نبوّته الظاهرة ، و من حيث أنّهم أولياء مستمدون من مشكاة ولايته الباطنة . وكذا الأولياء التابعون مستمدّون من مشكاة ولايته .

فالأولياء و الأنبياء كلّهم مظاهر لحقيقته . الأنبياء لظاهر نبوته ، و الأولياء لباطن ولايته . و خاتم الأولياء مظهر أحديّة جمعه لحقائق ولايته الباطنة . فالاستمداد من مشكاة خاتم الأولياء بالحقيقة هو استمداد من مشكاة خاتم الأنبياء . فإنّ مشكاته بعض من مشكاته . فلا استمداد بالحقيقة إلاّ من مشكاة خاتم الأنبياء . و إنّما أضيفت الاستمداد إلى خاتم الأولياء باعتبار حقيقته التي هي بعض من حقيقة خاتم الأنبياء . و معنى استمداد خاتم الأنبياء منه بحسب ولايته استمداده بحسب النشأة العنصرية من حقيقة هي بعض من حقيقته . و ذلك الولي الخاتم مظهره . فهذا بالحقيقة استمداد من نفسه لا من غيره . انتهى كلام الجامي في شرح الفص الثاني من الفصوص ص٧١ .

فإن قلت : كلام الشيخ الأكبر يدلّ على أنّ خاتم الأولياء أفضل من الأنبياء ، و على أنّ الولايةَ أعلى من النّبوّة . و هو خلاف ما أنت بصدده من إثبات أفضلية خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام .

قلت : الجواب من وجوه :

الأوّل : ما اختاره المحققون من العلماء و المحدثين من أنّ قولَ ابن العربي مصادم لظاهر

الشريعة و مخالف للقرآن و الأحاديث الثابتة ، بل مردود بالكشف الصحيح أيضًا عند المجدّد للألف الثاني الشيخ أحمد السرهندي حيث ردّ قوله في عدة مكتوباته ، كما سيأتي . و كم لابن العربي من التفردات في مسائل عديدة غير مقبولة عند العلماء و العارفين .

و علو كعب ابن العربي رحمه الله تعالى مسلّم ، ولكن ما من رجل و إن كان كبيرًا إلّا و في أقواله ما يرد و يقبل إلّا النبي المعصوم عليه الصلاة والسلام . و قد ردّ قوله هذا ابن تيمية و غيره . و حق ما قيل : الصارم قد ينبو و الجواد قد يكبو .

قال العارف الأكبر الذي هو في الأولياء كالكبريت الأحمر و المسك الأذفر و الورد الأزهر و البدر الأنور الشيخ أحمد المجدّد السرهندي في المكتوب الحادي و الخمسين و المائتين ج١ ص٢٢٩ : و من قال : إنّ الولاية أفضل من النبوة . فهو من أرباب السكر و من الأولياء غير المرجوعين الذين ليس لهم نصيب وافر من كمالات مقام النبوة . و لعل نظركم وقع على ما حققه هذا الفقير في بعض رسائله من أنّ النبوة أفضل من الولاية و إن كانت ولاية النبي . و الحق هو هذا . فمن قال بخلاف ذلك فهو من جهالة كمالات مقام النبوة . انتهى كلامه بتعريب .

خلاصة كلام الشيخ السرهندي رحمه الله تعالى في عدة مكتوباته : أنّ بين مقام النبوة و مقام الولاية فرقًا من وجوه . كلّها تدل على أن النبوة أفضل من الولاية :

الفرق الأوّل : أنّ الولاية عبارة عن قرب إلهي مع شائبة الظلية ، بخلاف النبوّة فإنّها خارجة عنها لم تتطرق عليها شائبة الظلية .

الفرق الثاني : قرب الولي لا يكون بدون حيلولة الحجب . فالولاية تلزمها الحيلولة و لو كانت ولاية النبي ، بخلاف النبوة فإنّها تركت الحجب في الطريق و ارتفعت عنها .

قال الشيخ المذكور رحمه الله تعالى في المكتوب الثاني و الثلاثمائة ج١ ص٣٦٣ : أرشدك الله تعالى أنّ الولاية عبارة عن قرب إلهيّ لا يتصور بلا شائبة الظلية ، ولا يحصل بدون حيلولة الحجب . فإن كانت ولاية الأولياء فمتسمة بسمة الظلية ألبتةَ . و ولاية الأنبياء و إن كانت خارجة عن الظلية و لكنها غير متحققة بدون حيلولة حجب الأسماء و الصفات . و ولاية الملإ الأعلى و إن كانت فوق حجب الأسماء

و الصفات و لكنها لابدّ لها من حجب الشئون و الاعتبارات . و التي لم يتطرق عليها شائبة الظلية و تركت حجب الأسماء و الصفات في الطريق إنّما هي النبوة و الرسالة . فتكون النبوة أفضل من الولاية بالضرورة . انتهى كلامه بتعريب .

الفرق الثالث : قرب النبوة ذاتيّ و أصليّ ، بخلاف قرب الولاية .

الفرق الرابع : في مرتبة الولاية الحصول الموقوف على ملاحظة الظلية ، و في مرتبة النبوة الوصول و هو لا يتوقف على تلك الملاحظة .

الفرق الخامس : في مقام الولاية رفع الاثنينية ، لأنّ كمال الحصول يقتضي ذلك . و في مقام النبوة بقاء الاثنينية ، لأنّ كمال الوصول يستدعيه .

الفرق السادس : السكر لازم لمقام الولاية ، و الصحو لازم لمقام النبوة . قال الشيخ رحمه الله تعالى في المكتوب المذكور : و يكون قرب النبوة ذاتيًا و أصليًا . و من لم يطلع على حقيقتها ، كابن العربي رحمه الله تعالى ، حكم بالعكس و قال "إنّ الولاية أفضل من النبوة" و جزم بالقلب . فيكون الوصول في مرتبة النبوة و الحصول في مقام الولاية . فإنّ الحصول لا يتصور بدون ملاحظة الظلية بخلاف الوصول . و أيضًا أن في كمال الحصول رفع الاثنينية ، و في كمال الوصول بقاء الاثنينية . فإذا كان رفع الاثنينية مناسبًا لمقام الولاية يكون السكر في جميع الوقت لازمًا لمقام الولاية بالضرورة . و حيث كان في مرتبة النبوة بقاء الاثنينية يكون الصحو من خواص تلك المرتبة . انتهى كلامه بتعريب .

الفرق السابع : إزالة الإرادة مطلوبة في الولاية ، بخلاف النبوّة حيث لا يكون زوالها مطلوبًا فيها .

الفرق الثامن : مرتبة الولاية تقتضي المجاهدة في نفي جميع الصفات البشرية ، بخلاف مرتبة النبوّة حيث لا تستدعي نفيها ، بل تستدعي نفي المتعلقات السوء لهذه الصفات .

قال رحمه الله تعالى في المكتوب المذكور : و حيث كان رفع الاثنينية مطلوبًا في مقام الولاية يسعى الأولياء في إزالة الإرادة بالضرورة .

قال الشيخ البسطامي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : أريد أن لا أريد . و حيث كان رفع الاثنينية غير منظور في مرتبة النبوّة لم يكن زوال نفس الإرادة مطلوبًا . و كيف يكون مطلوبًا ، فإنّ الإرادة صفة كاملة في حد ذاتها . فإن تطرق النقص إليها فإنّما هو بواسطة خبث متعلقاتها .

فينبغي أن لا يكون متعلقها أمرًا خبيثًا و غير مرضي ، بل يكون جميع المرادات مرضي الحق سبحانه . و كذلك يجتهدون في مقام الولاية في نفي جميع الصفات البشرية . و المطلوب في مرتبة النبوّة نفي المتعلقات السوء لهذه الصفات ، لا نفي أصل هذه الصفات ، فإنّها كاملة في حد ذاتها . مثلاً صفة العلم من الصفات الكاملة ، فإن تطرق إليها نقص فإنّما هو من جهة سوء متعلقها . فكان الضروري نفي سوء المتعلق ، لا نفي أصلها . انتهى .

الفرق التاسع : في مقامات الولاية حصول التجلّيات في كسوة الصور أو في حجب الألوان و الأنوار . و هذه التجلّيات أظلال الأصل . بخلاف مرتبة النبوّة فإنّ فيها وصولاً إلى الأصل و غناءً عن التجلّيات .

الفرق العاشر : و كذا يحتاج مرتبة الولاية إلى تلك التجلّيات في طيّ مبادي الولاية . و أمّا مرتبة النبوّة فغنية عن تلك التجلّيات .

الفرق الحادي عشر : لتخلص النبوّة عن الوسائط و الأظلال . قال تعالى في حق النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ .

قال الشيخ المجدد في المكتوب المذكور : و أيضًا إنّ حصول التجلّيات سواء كان في كسوة الصور و الأشكال أو في حجب الألوان و الأنوار كلّه مقامات الولاية و في طيّ مقدماتها و مباديها . بخلاف مرتبة النبوّة فإنّ في ذلك الموطن وصولاً إلى الأصل و استغناءً عن التجلّيات و الظهورات التي كلّها ظلال ذلك الأصل . و كذلك الاحتياج إلى تلك التجلّيات وقت طيّ مقدمات تلك المرتبة و مباديها . إلاّ أن يقع العروج من طريق الولاية ، فحينئذ حصول تلك التجلّيات بواسطة طيّ مسافة طريق الوصول إلى كمالات النبوّة .

و **بالجملة** أنّ التجلّيات و الظهورات تنبئ عن الظلال . و الذي تخلص عن التعلق بالظلال

تخلص عن التجلّيات . ينبغي أن يطلب سرّ " مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ " من ههنا . انتهى كلامه .

الفرق الثاني عشر : الوصول إلى كمالات الولاية و ما بعدها قد يكون بالكسب و المجاهدة و الرياضة الشديدة ، و قد يكون بطريق الوهب و الاجتباء و محض فضل الله تعالى . و الوصول إلى كمالات النبوّة لا يكون إلّا بالاجتباء .

قال الشيخ المجدّد في المكتوب الحادي و الثلاثمائة ج١ ص٣٦٢ : أيّها الولد ! إنّ حصول كمالات النبوّة مربوط بموهبة محضة ، و منوط بتكرمة صرفة . لا مدخل للتمحل و تجشّم الكسب فيه أصلاً . أيّ عمل و أيّ كسب يكون منتجًا لهذه الدولة العظمى ، و أيّ رياضة و أيّة مجاهدة تكون مثمرة لهذه النعمة العليا . بخلاف كمالات الولاية فإنّ مباديها و مقدماتها كسبية ، و حصولها مربوط بالرياضة و المجاهدة و إن جاز أن يكون بعض الأشخاص مشرفًا بهذه الدولة أيضًا من غير تجشم كسب و مباشرة عمل . انتهى بتعريب كلامه الفارسي .

الفرق الثالث عشر : في الولاية يتأتّى اضطراب العشق و طنطنة المحبة و النياح المهيجة للشوق و الصياح الممتزجة بالتألم و الذوق و الوجد و الرقص لمناسبة كل ذلك لمقامات الظلال و زمان التجلّيات الظلية . بخلاف النبوّة إذ بعد الوصول إلى الأصل و التجاوز عن الأظلال لا يتصور حصول هذه الأمور . كذا قال الشيخ المجدد رحمه الله في المكتوب الثاني و الثلاثمائة .

الفرق الرابع عشر : ما قال الشيخ المجدّد أيضًا في المكتوب الحادي و الثلاثمائة من الجلد الأوّل ص٣٦٢ : اعلم : أسعدك الله ، إنّ الطريق الموصل إلى كمالات النبوّة اثنان :

طريق مربوط بطيّ كمالات مقام الولاية مفصلة ، و منوط بحصول التجلّيات الظليّة و المعارف السكرية التي هي مناسبة بقرب الولاية . و بعد طيّ هذه الكمالات و حصول التجلّيات يوضع القدم في كمالات النبوّة . و في هذا المقام (أي مقام كمالات النبوّة) وصول بالأصل ، و الالتفات إلى الظل ذنب .

و الطريق الثاني هو الذي يتيسر فيه الوصول إلى كمالات النبوّة بدون توسط حصول كمالات الولاية . و هذا الطريق الثاني طريق سلطانيّ و أقرب إلى الوصول . و كلّ من وصل إلى كمالات النبوّة إلّا ماشاء الله وصل من هذا الطريق الثاني من الأنبياء العظام و الصحابة الكرام بتبعيتهم و وراثتهم .

و الطريق الأوّل بعيد و طويل و عسير الحصول و متعذر الوصول . هذا .

ثم قال في تخطئة ابن عربي رَحِمَهُ اللَّهُ و أتباعه و إيضاح علة أفضت بهم إلى الخطإ : و القول بأنّ الولاية أفضل من النبوّة و قد تخيل طائفة من الأولياء في مقام الولاية الذين تشرفوا بشرف النزول : أنّ الكمالات التي تتعلق بمقام النزول هي كمالات النبوّة . و ظنوا التوجه إلى الخلق الذي هو مناسب لمقام الدعوة أنّه من خصائص مقام النبوّة . و ليس كذلك . بل هذا النزول كالعروج من مقام الولاية .

و فوق مقام الولاية عروج و نزول غير ذينك يتعلقان بالنبوة . و هذا التوجه إلى الخلق غير ذاك التوجه إلى الخلق الذي هو مناسب لمقام النبوّة . و هذه الدعوة غير تلك الدعوة التي عدّوها من كمالات النبوّة . و ما ذا يصنعون . فإنّهم لم يضعوا أقدامهم في خارج دائرة الولاية ، و لم يدركوا حقيقة كمالات النبوّة . و ظنّوا نصف الولاية الذي هو جانب العروج تمام الولاية ، و زعموا نصفها الآخر الذي هو جانب النزول مقام النبوّة .

و ليس لِشَيْءٍ كَامِنٍ جَوَّفَ صَخْرَةٍ سِواها سماواتٍ لدَيْهِ ولَا أرض

و يمكن أن يتيسر الوصول لشخص بالطريق الأوّل . و يجمع كمالات الولاية و النبوّة المفصلة . و يحصل له تميز ما بين كمالات هذين المقامين كما ينبغي . و يفرق بين عروج كل منهما و نزولهما . و يحكم أن نبوة نبي أفضل من ولايته . انتهى بتعريب كلامه الفارسي .

الجواب الثاني : الولاية المطلقة و إن كانت أفضل من النبوّة لكن لا يلزم منه أفضلية الولي على النبي . فلا وصمة ولا اعتراض . صرح به الشيخ ابن عربي نفسه . ففي الفصوص و شرحه للجامي : و لهذا أي لأجل كون الولاية جهة حقانية و النبوّة جهة خلقية مقام النبي من حيث هو عالم بالله عارف به و من حيث هو وليّ أتمّ و أكمل من مقامه من حيث هو رسول أو ذو تشريع و شرع .

فإذا سمعت أحدًا من أهل الله يقول أو ينقل إليك عنه أنّه قال : الولاية أعلى من النبوّة . فليس يريد ذلك القائل إلّا ما ذكرنا من أنّ مقامه من حيث ولايته أعلى من مقامه من حيث نبوّته . لا أنّ الولي التابع أعلى من النبي . فإنّ النبي جامع لجهتي الولاية و النبوّة . و الولاية فيه أتمّ و أكمل . و الولي فائت لجهة النبوّة . و الولاية فيه دون ولاية النبي . فكيف يكون أعلى من النبي .

أو سمعت أحدًا من أهل الله يقول : إنّ الولي فوق النبي و الرسول . فإنّه يعني بذلك القول تفوق الولي على النبي في شخص واحد جامع لجهة النبوّة و الولاية . و هو أنّ الرسول من حيث أنّه وليّ أتمّ منه من حيث هو نبيّ و رسول . لا أنّ الوليّ التابع له أي للرسول أعلى من الرسول . فإنّ التابع لا يدرك المتبوع ولا يصل إلى مرتبته أبدًا فيما هو تابع له فيه . انتهى . فصوص ص٢٨١ فص عزيرية .

حاصله : أنّ الولايةَ و إن كانت أعلى من النبوّة مطلقًا لكون الولاية جهة ربانيّة ، بخلاف النبوّة . إلاّ أنّ النّبيّ أفضلُ من الوليّ لكون الوليّ ذا فضيلة واحدة و هي الولاية ، و النبيّ ذا فضيلتين : الولاية و النبوّة .

قال الجامي رَحِمَهُ اللهُ في شرح الفصوص ص٢٨١بعد العبارة المذكورة :

فإنْ قلتَ : الولاية جهة حقانية و النبوّة جهة خلقية فهي أتمّ و أعلى من النبوّة مطلقًا ، سواء تحققت في الوليّ أو النبيّ . ولا يلزم من ذلك تفضيل الوليّ على النبي . فلا حاجة إلى التقييد بكونهما في شخصٍ واحدٍ .

قلتُ : نعم . لكن الشيخ رَحِمَهُ اللهُ إنّما قيد بذلك مبالغةً في الأدب ، و دفعًا لأَنْ يتوهم الجهال من كلامه تفضيل الوليّ على النبيّ . انتهى .

قال أبو العلاء عفيفي في تعليقاته على الفص الثاني من كتاب الفصوص ص٢٤ : يعتبر ابن عربي الولاية أساس المراتب الروحية كلها . فكلّ رسول وليّ وكل نبيّ وليّ . و أخص صفات الوليّ أيًّا كان المعرفة أي العلم الباطن الذي يلقى في القلب إلقاء ولا يكتسب بالعقل عن طريق البرهان . و قد يستعمل ابن عربي رَحِمَهُ اللهُ كلمة الإنسان الكامل مرادفة لكلمة وليّ بهذا المعنى . انتهى .

الجواب الثالث : أنّ هذا فضل جزئيّ حصل لخاتم الأولياء . و أمّا الفضل الكلّيّ فنصيب خاتم الرسل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . صرّح به ابن عربي في كتبه . ففي الفصوص و شرحه بعد بيان أنّ الرسل لا يرون هذا العلم إلاّ من مشكاة خاتم الأولياء : ولا يناقض ما ذهبنا إليه من أنّ المرسلين لا يرون هذا العلم إلاّ من مشكاة خاتم الأولياء . فإنّه من وجه يكون أنزل من الرسول الخاتم كما أنّه من وجه يكون أعلى منه .

و قد ظهر في ظاهر شرعنا ما يؤيّد ما ذهبنا إليه من أنّ الفاضل يجوز أن يكون مفضولاً من وجه كما في فضل عمر على أبي بكر رضي الله عنهما في أسارى بدر بالحكم فيهم، حيث رأى فيهم أن يأخذ منهم الفدية و يطلقهم . و رأى فيهم عمر رضي الله عنه ضرب الرقاب . فأنزل الله الآية الكريمة موافقة لرأي عمر رضي الله عنه . و قد ظهر في تأبير النخل أيضًا حيث منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من تأبير النخل فما أثمر . فقال صلى الله عليه وسلم : أنتم أعلم بأمور دنياكم . فما يلزم الكامل أن يكون له التقدم على غير الكامل في كلّ شيء و في كل مرتبة . انتهى .

قال العبد الضعيف الروحاني البازي : أنا لا أرى إلّا ما ثبت بالنصوص القاطعة . و ابن عربي و إن كان عارفًا بالله عظيمًا إلّا أنّ فضل الوليّ على النبي عليه الصلاة والسلام و إن كان جزئيا يخالف النصوص القاطعة . و الولاية أمر دينيّ إلهيّ أخرويّ . فلا وجه لقياسه على تأبير النخل الذي هو أمر دنيويّ . و الله أعلم .

و قد ردّ شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله سرّه على ابن عربي في غير ما موضع من تأليفه . و حقّ ما قال و الحقّ أحقّ أن يتبع . قال ابن تيمية رحمه الله تعالى كما في الجزء الرابع من مجموعة الرسائل و المسائل له ص٥٩ بعد ذكر عبارة ابن عربي : و في هذا الكلام أنواع : منها أنّ دعوى المدعي وجود خاتم الأولياء باطل لا أصل له . و لم يذكر هذا أحد من المعروفين قبل هؤلاء إلّا أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي الحكيم في كتاب ختم الولاية .

و في هذا الكتاب ما هو خطأ و غلط مخالف للكتاب و السنّة و الإجماع . و هو رحمه الله تعالى و إن كان فيه فضل و معرفة ففي كلامه من الخطأ ما يجب رده . و من أشنعها ما ذكره في ختم الولاية مثل دعواه فيه أنّه يكون في المتأخرين من درجته عند الله أعظم من درجة أبي بكر و عمر رضي الله عنهما و غيرهما .

ثم أنّه تناقض في موضع آخر لما حكى عن بعض الناس أنّ الوَليّ يكون منفردًا عن الناس . فأبطل ذلك و احتج بأبي بكر و عمر رضي الله عنهما و قال : يلزم من هذا أن يكون أفضل من أبي بكر و عمر رضي الله عنهما و أبطل ذلك . و منها ما ادّعاه من خاتم الأولياء الذي يكون في آخر الزمان و تفضيله على من تقدم من الأولياء و أنّه يكون معهم كخاتم الأنبياء مع الأنبياء . و هذا ضلال واضح . فإنّ أفضلَ أولياءِ

الله من هذه الأمّةِ أبوبكر و عمرُ و عثمانُ و عليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ و امثالُهم كما ثبت ذلك بالنصوص .

ثم قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : ثُمَّ إنّ هذا خاتم الأولياء صار مرتبة موهومة لا حقيقة له . و صار يدّعيها لنفسه أو لشيخه طوائف كما ادّعاها صاحب الفصوص و تابعه على ذلك صاحب الكلام على الحروف و شيخ من أتباعه كان بِدمشق . و آخر كان يزعم أنّه المهديّ الذي يزوج بنته بعيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، و أنّه خاتم الأولياء و يدعي المدعي منهم لنفسه أو لشيخه ما ادّعته النصارى في المسيح .

ثم إنّ صاحب الفصوص و أمثاله بنوا الأمر على أنّ الوليّ يأخذ عن الله بلا واسطة ، و النبي يأخذ بواسطة الملك . فلهذا صار خاتم الأولياء أفضل عندهم من هذه الجهة . و هذا باطل و كذب . فإنّ الوليّ لا يأخذ عن الله إلّا بواسطة الرسول إليه .

ثم قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : ومن الأنواع التي في دعواهم أنّ خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء من بعض الوجوه . فإنّ هذا لم يقله أبو عبد الله الحكيم الترمذي ولا غيره من المشائخ المعروفين . بل الرجل أي أبو عبد الله أجلّ قدرًا و أعظم إيمانًا من أن يفتري هذا الكفر الصريح . و لكن أخطأ شبرًا ففرعوا على خطئه ما صار كفرًا .

و أعظم من ذلك زعمه أنّ الأولياء و الرسل من حيث ولايتهم تابعون لخاتم الأولياء ، و أخذوا من مشكاته . فهذا باطل بالعقل و الدين . فإنّ المتقدم لا يأخذ عن المتأخر . و الرسل لا يأخذون عن غيرهم .

و أعظم من ذلك أنّه جعلهم تابعين له في العلم بالله الذي هو أشرف علومهم . فليتدبّر المؤمن هذا الكفر القبيح . و استشهاده على تفضيل غير النبيّ عليه بقصة عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ و تأبير النخل . فهل يقول مسلم : إنّ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان أفضل من النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ برأيه في الأسرى ، و إنّ الفلاحين الذين يحسنون صناعة التأبير أفضل من الأنبياء في ذلك . ثم ما قنع بذلك حتى قال : فما يلزم الكامل أن يكون له التقديم في كلّ علم وكلّ مرتبة . و إنّما نظر الرجال إلى التقدم في مرتبة العلم بالله ، هنالك مطلبهم . فقد زعم أنّه أعلم بالله من خاتم الأنبياء ، و أنّ تقدّمه عليه بالعلم بالله ، و تقدّم خاتم الأنبياء عليه بالتشريع فقط . و هذا من أعظم الكفر .

ثم قال : و قد كان عندهم شيخ من أجهل الناس . كان يعظمه طائفة من الأعاجم . و يقال : إنّه

خاتم الأولياء . يزعم أنّه يفسر العلم بوجهين ، و أنّ النبي ﷺ إنّما فسره بوجه واحد ، و أنّه هو أكمل من النبي ﷺ . و هذا تلقاء من صاحب الفصوص . فأمّا كفر من يفضل نفسه على النبي عليه الصلاة والسلام كما ذكره صاحب الفصوص فظاهر . ولكن من هؤلاء من لا يرى ذلك ، و لكن يرى أنّ له طريقًا إلى الله غير اتباع النبي ﷺ .

ثم ذكر ابن تيمية رحمه الله تعالى قول ابن عربي و هو : أنّ خاتم الأنبياء قال : كنت نبيًّا و آدم بين الماء و الطين . وغيره من الأنبياء ما كان نبيًّا إلّا حين بعث . و كذلك خاتم الأولياء كان وليًّا و آدم بين الماء و الطين . و غيره من الأولياء ما كان وليًّا إلّا بعد تحصيله شرائط الولاية . فخاتم الرسل من حيث ولايته نسبته مع الختم للولاية مثل نسبة الأنبياء و الرسل معه .

ثم قال : هذا كذب واضح مخالف لإجماع أئمة الدين . و أمّا قوله "كنت نبيًّا و آدم بين الماء و الطين " فلا أصل له . لم يروه أحد من أهل العلم بالحديث بهذا اللفظ . و هو باطل . فإنّه لم يكن بين الماء و الطين . إذ الطين ماء و تراب . و إنّما لفظ الحديث : و آدم بين الروح و الجسد . أخرجه أحمد عن العرباض بن سارية رضي الله عنه مرفوعًا . هذا ملخّص ما ذكره ابن تيمية ذلك البحر الزاخر قدس الله سره .

إن قلت : خاتم أولياء من هو ؟

قلت : قال الشيخ الأكبر في جواب السؤال الثالث عشر من الباب الثالث و السبعين من الفتوحات ج٢ ص٤٩ : الختم ختمان : ختم يختم الله به الولاية المحمدية . فأمّا ختم الولاية على الإطلاق فهو عيسى عليه الصلاة والسلام . فهو الولي بالنبوّة المطلقة في زمان هذه الأمّة . و قد حيل بينه و بين نبوّة التشريع و الرسالة . فينزل في آخر الزمان وارثًا خاتمًا . لا وليّ بعده بنبوة مطلقة . كما أنّ محمدًا ﷺ خاتم النبوّة ، لا نبوّة تشريع بعده و إن كان بعده مثل عيسى من أولى العزم من الرسل و خواصّ الأنبياء .

و لكن زال حكمه من هذا المقام لحكم الزمان عليه الذي هو لغيره . فينزل وليًّا ذا نبوة مطلقة . فهو منّا و هو سيدنا . و أمّا خاتم الولاية المحمدية فهو رجل من العرب من أكرمها أصلًا و يدًا . و هو في زماننا اليوم موجود . عرفت به سنة خمس و تسعين و خمسمائة . و رأيت العلامة التي له قد أخفاها الحق فيه عن عيون عباده . و كشفها لي بمدينة فاس . حتى رأيت خاتم الولاية منه . و قد ابتلاه الله بأهل

الإنكار عليه فيما يتحقق به من الحق في سره من العلم به . و قد جمعت بين صاحبي عبد الله و إسماعيل بن سودكين و بين هذا الختم و دعا لهما و انتفعا به . انتهى .

قال العارف عبد الكريم الجيلي في خاتمة كتابه " الإنسان الكامل " عند البحث على مقامات القربة : الوسيلة هي عين مقام القربة . و أوّل مرتبة من مراتبها مقام الخلّة . و انتهاء مقام الخليل ابتداء مقام الحبيب . و إنّما اختصت اسم الخلّة بأوّل مرتبة من مقامات القربة لأنّ المقرب هو من تخللت آثار الحق وجوده . ثم مقام الحب بعد ذلك ، لأنّه عبارة عن المقام المحمدي في المناظر الإلهية . و مقام الختام هو اسم لنهاية مقام القربة . ولا سبيل إلى نهايتها ، لأنّ الله تعالى لا نهاية له . لكن اسم الختام منسحب على جميع مقامات القربة .

فمن حصل في مقام القربة فهو ختم الأولياء و وارث النبي في مقام الختام . لأنّ مقامَ القربة هو المقام المحمود و الوسيلة لذهاب المقرب فيها إلى حيث لا يتقدمه فيها أحد . فيكون هو فردًا في تلك المقامات الإلهية . و ينبغي أن يعتقد ذلك بمحمد ﷺ . و قد أشار عليه الصلاة والسلام إلى ذلك بقوله : إنّ الوسيلة أعلى مكان في الجنة . ولا تكون إلّا لواحد . و أرجو أن أكون أنا ذلك الرجل . لأنّه كان له البدء في الوجود . فلابدّ أن يكون له الختام عليه أفضل الصّلاة والسلام . انتهى باختصار .

قال العارف بالله سيدي السيد مصطفى البكري إمام الطريقة الخلوتية في آخر رسالته "الثغر الدري البسام فيمن يجهل من نفسه المقام و هو من أهل الرسوخ في المقام" : و قد عنّ لي أن أختم هذه الرسالة بخاتمة في الختم المحمديّ ، جعلني الله ممن به يقتدى ليهتدي . فأقول : اعلم ، علّمك الله من لدنه عِلمًا ، و جعل لك في ذوق الحقائق سهمًا : أنّ نبينا ﷺ لما ختم بمبعثه دائرة النبوّة و أكمل حائطها المشيّد بالفتوة كذلك ختم باب ولاية النبوّة في الظاهر . و تختم بعيسى عليه الصلاة والسلام ولاية النبوّة في الباطن . و قد انختمت الولاية المحمدية الباطنية بسيدي محي الدين قدس الله سره . و ستختم الولاية المحمدية الباطنة و الظاهرة بالإمام محمد المهدي المقدام عليه منّا السلام . و لنذكر عبارة سيدي محي الدين في فتوحاته المكية من أنّه خاتم الولاية المحمدية الباطنة .

قال فيها : إنّ رسول الله ﷺ حين ضرب لنا مثلاً في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقال ﷺ : مثلي

في الأنبياء كمثل رجل بنى حائطًا فأكمله إلّا لبنة واحدة . فكنت أنا تلك اللبنة . فلا رسولَ بعدي ولا نبيّ . فشبّه النبوّة بالحائط و الأنبياء باللبن التي قام بها هذا الحائط . وهو تشبيه في غاية الحسن . فإنّ مسمّى الحائط هذا المشار إليه لم يصحّ ظهوره إلّا باللبن . فكان ﷺ خاتم النبيّين .

و كنت بمكة سنة ٥٩٩هـ . أرى فيما يرى النائم الكعبة مبنية بلبن فضة و ذهب ، لبنة فضة و لبنة ذهب . و قد كملت بالبناء و ما بقي فيها شيء . و أنا أنظر إليها و إلى حسنها . فالتفت إلى الوجه الذي بين الركن اليماني و الشامي و هو إلى الركن الشامي أقرب . فرأيت موضع لبنتين : لبنة فضة و لبنة ذهب . ينقص من الحائط في الصفين : في الصف الأعلى ينقص لبنة ذهب ، و في الصف الذي يليه ينقص لبنة فضة . فرأيت نفسي قد انطبعت في موضع تلك اللبنتين . فكنت أنا عين تلك اللبنتين و كمل الحائط . و لم يبق في الكعبة شيء ينقص ، و أنا واقف أنظر و أعلم أنّي واقف ، و أعلم أنّي عين تلك اللبنتين . ولا أشكّ في ذلك . و إنّهما عين ذاتي .

و استيقظت فشكرت الله تعالى . و قلت متأوّلاً : إنّي في الاتباع في صنفي كرسول الله ﷺ في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . و عسى أن أكون ممن ختم الله الولاية بي . و ما ذلك على الله بعزيز . و ذكرت حديث النبي ﷺ في ضربه المثل بالحائط و أنّه كان تلك اللبنة .

فقصصت رؤياي على بعض علماء هذا الشأن بمكة من أهل تبريز . فأخبرني في تأويلها بما وقع لي و ما سميت له الرائي من هو . فالله تعالى أرجو أن يتمها علي تكرمة . فإنّ الاختصاص الإلٰهي لا يقبل التحجير ولا الموازنة ولا العمل . و أنّ ذلك من فضل الله تعالى . يختص برحمته من يشاء . و الله ذو الفضل العظيم . انتهى كلام سيدي محي الدين .

قال السيد مصطفى البكري بعده : و في كل عصر لابدّ من وجود ختم يختم الله به دائرة أولياء عصره . و تارةً يكون هو القطب ، و تارةً يكون غيره . و مقامه مقام الختام ، و أصول مقاماته ألف على التمام ، و له الظهور فيها بدون إبهام ، و سيره بالكشف ، و إرشاده بالرشف . جاز علم مراتب الوجود ، و حاز فهم أسرار الشهود . فكانت الخاء و التاء عدد أصول مقاماته التي اطلع عليها . و الميم لمراتب الوجود التي أوصله الكشف للوقوف على أسرارها و الوصول إليها . يخفى حاله على كثير من الأولياء .

قال شيخنا الشيخ عبد الغني في قصيدته التي مدح بها الهمام الأكبر قدس الله سرهما :

و في كل عصر فرد ختم ولاية　　　على الأوليا يخفى فكيف أولي الجحد

و قلنا في الألفية :

و الختم وهو واحد في العصر　　　قد خص بالتأييد ثم النصر

ثم قلنا مشيرين لختم الولاية المحمدية الخاصة :

للأولياء الكاملين ختم　　　فرد له التقديم فيه كتم

و لم يكن أكبر منه فيهم　　　كأنّ إمداداته تكفيهم

و إنّ ذا ختم الولاية التي　　　بالكامل المحمدي خصت

ثم أشرنا لختم الولاية المحمدية العامة الذي هو المهدي ، فقلنا :

و ثم ختم آخر قد ختمت　　　فيه الولاية التي قد عملت

و من هنا تفرد ﷺ بالكمال . فختم المقامات الإلهية باطنًا . و شهد له بذلك ختمه لمقام الرسالة ظاهرًا . انتهى كلام البكري بحذف .

قلت : و في جواهر البحار ج٤ ص٢٦٣ : إنّي رأيت في كلام بعض العارفين ما يدلّ على أنّ مرتبة الختمية للولاية التي نالها الشيخ الأكبر هي مرتبة باقية . وكان من أهلها أحمد صفي الدين القشاشي المدني المتوفّى سنة ١٠٧٤هـ في المدينة المنورة . و أنقل هنا عبارة كتاب خلاصة الأثر في ذلك لتمام الفائدة .

و هي قول المحبي في ترجمته رحمه الله . و وصل إلى مقام الختمية في عصره . فقد قال فيما وجد بخطه على هامش رسالة العارف سالم بن أحمد شيخان باعلوي المسماة بشق الجيب في معرفة رجال الغيب عند قوله "و الختم و هو واحد في كل زمان يختم الله به الولاية الخاصة و هو الشيخ الأكبر" . انتهى ما نصه الذي يتحقق وجدانه أنّ الختمية الخاصة مرتبة إلهية ينزل بها كل أحد لها حسب وقته و زمانه غير منقطعة أبد الآباد إلى أن لا يبقى على وجه الأرض من يقول " الله ، الله ". لعدم خلو المراتب الإلهية عن

القائمين بها حتى يصير القائم بها كالصفر الحافظ لمرتبة العدد فيما قبله و بعده . بأنفاسه تتم الصالحات و تقضى الحاجات .

و قد تحققنا بذلك حقا و نزلناه منازلة و صدقا . و ممن رأيته من مشائخي من أهل الختمية المذكورة سندًا متصلاً منهم إلينا من غير انقطاع بإذن الله خمسة أنفس . سادسهم كلبهم لا رجمًا بالغيب و ربّه . ثم قال بعدها : قاله عبد الجميع أحمد بن محمد المدني . و مثله لا يتكلم بمثل هذا الكلام إلاّ عن إذن إلهيّ و نفس روعيّ . انتهت عبارة المحبي في خلاصة الأثر .

الوجه الرابع و العشرون لتفضيله عليه الصلاة والسلام : كونه رحمة للعالمين . قال في لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي و أبي الحسن الشاذلي رحمهما الله تعالى : و لقد سمعت شيخنا أبا العباس تلميذ الشاذلي رحمهما الله تعالى يقول : جميع الأنبياء خلقوا من الرحمة و نبينا صلى الله عليه وسلم هو عين الرحمة . قال الله تعالى : وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ . انتهى .

و في الإبريز في علوم القطب العارف بالله عبد العزيز الدبّاغ : أنّ للنبوة سبعة أجزاء . منها الرحمة . و الأجزاء الباقية قول الحق و البصر و معرفة الله و خوف الله و بغض الباطل و العفو . و الرحمة نور ساكن في الذات . يقتضي الرأفة و الحنانة على سائر الخلق . و هو ناشئ عن الرحمة الواصلة من الله للعبد . و على قدر رحمة الله للعبد تكون رحمته لسائر الناس .

ثم قال رحمه الله تعالى : ولا شك أنّه ليس في مخلوقات الله من هو مرحوم مثله صلى الله عليه وسلم . فلذلك كانت رحمته صلى الله عليه وسلم للخلق لا يوازيها شيء ولا يلحقها في ذلك أحد . و لقد بلغ من عظيم رحمته صلى الله عليه وسلم أن عمت رحمته العالم العلويّ و السفليّ و أهل الدنيا و أهل الآخرة . انتهى .

و قال السيد أحمد عابدين في شرح مولد ابن حجر عند قوله " ثم لمّا بلغ صلى الله عليه وسلم أربعين سنة أرسله الله رحمة للعالمين " : أي أرسله رحمة مطلقة تامة كاملة عامة شاملة جامعة محيطة بجميع العالمين ذوي العقول و غيرهم من عالم الأرواح و الأجسام . و من كان رحمة للعالمين لزم أن يكون أفضل من كل العالمين . و عبارة ضمير الخطاب في قوله تعالى " وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ " خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم فقط . و إشارته خطاب لكلّ واحد من ورثته الذين هم على مشربه إلى يوم القيامة بحسب كونهم مظهرًا لإرثه صلى الله عليه وسلم .

و قال بعض الكبار : إنّما كان ﷺ رحمة للعالمين بسبب اتصافه بالخلق العظيم و رعايته المراتب كلها في محالها كالملك و الملكوت و الطبيعة و النفس و الروح و السر . و قال في التأويلات النجمية في سورة مريم : بين قوله تعالى " وَرَحْمَةً مِّنَّا " في حق عيسى عليه الصلاة والسلام و بين قوله في حق نبينا ﷺ " وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ " فرق عظيم . و هو أنّه في حق عيسى عليه الصلاة والسلام ذكر الرحمة مقيدة بحرف " من " . و " من " للتبعيض .

فلهذا كان رحمة لمن آمن به و اتبع ما جاء به إلى أن يبعث نبينا ﷺ . ثم انقطعت الرحمة من أمّته بنسخ دينه عليه الصلاة والسلام . و في حق نبينا عليه الصلاة والسلام ذكر الرحمة للعالمين مطلقة . فلهذا لا تنقطع الرحمة عن العالمين أبدًا . أمّا في الدنيا فبأن لا ينسخ دينه ﷺ . و أمّا في الآخرة فبأن يكون الخلق محتاجين إلى شفاعته حتى إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

و قال بعض العلماء : إنّ كلّ نبي مقدمة للعقوبة لقوله تعالى " وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا " . و نبينا ﷺ كان مقدمة للرحمة لقوله تعالى " وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ " . و أراد الله أن يكون خاتمته على الرحمة لا على العقوبة لقوله تعالى " سبقت رحمتي غضبي " . و لهذا جعلنا آخر الأمم . فابتداء الوجود رحمة ، و آخره و خاتمته رحمة . انتهى .

و اعلم : أنّه لما تعلقت إرادة الحق بإيجاد الخلق أبرز الحقيقة الأحمدية من كمون الحضرة الأحدية . فميزها بميم الإمكان و وصف الحدوث . فالحقيقة الأحمدية ممكنة حادثة مخلوقة . و جعلها رحمة للعالمين . و شرف به نوع الإنسان بل جميع العالمين . ثم انبجست منه عيون الأرواح . ثم بدا ما بدا في عالم الأجساد و الأشباح كما قال عليه الصلاة والسلام : أنا من الله أي مخلوق بلا واسطة مخلوق آخر . و المؤمنون من فيض نوري .

فهو الغاية الجليلة من ترتب الكائنات كما قال تعالى في الحديث القدسي : لولاك ما خلقت الأفلاك . فيكفيه عليه الصلاة والسلام بهذا شرفًا و فضلًا . و إنّما خلق الله الخلق و بعث الأنبياء و الرسل ليكونوا مقدمة لظهوره ﷺ في عالم الملك و الشهادة . فأرواحهم و أجسادهم تابعة لروحه الشريف و جسمه اللطيف . فبه تمّ و كمل سعدهم .

و اعلم : أنّ حياته عليه الصلاة والسلام رحمة و مماته رحمة كما قال عليه الصلاة والسلام : حياتي خير لكم و مماتي خير لكم . قالوا : هذا خيرنا في حياتك . فما خيرنا في مماتك ؟ قال : تعرض عليّ أعمالكم كل عشية الاثنين و الخميس . فما كان من خير حمدت الله تعالى . و ما كان من شر استغفرت الله لكم . انتهى كلام ابن عابدين .

و في الإبريز في علوم الشيخ الأمّيّ العارف عبد العزيز التي جمعها تلميذه الشيخ أحمد بن المبارك في بيان كون مشاهدة النبي صلى الله عليه وسلم : لا تطاق أنّ المشاهدة على قدر المعرفة . و أنّ المعرفة حصلت للنبي صلى الله عليه وسلم حين كان الحبيب مع حبيبه ولا ثالث معهما . فهو صلى الله عليه وسلم أوّل المخلوقات . فهناك سقيت روحه الكريمة من الأنوار القدسية و المعارف الربّانية ما صارت به أصلاً لكل ملتمس و مادةً لكل مقتبس .

فلما دخلت روحه الكريمة في ذاته الطاهرة سكنت فيها سكون الرضا و المحبة و القبول . فجعلت تمدها بأسرارها و تمنحها من معارفها . و الذات تترقى في المعارج و المعارف شيئًا فشيئًا من لدن صغره صلى الله عليه وسلم إلى أن بلغ أربعين سنة . فزال الستر حينئذ الذي بين الذات و الروح . و انمحى الحجاب الذي بينهما بالكلية . و حصلت له صلى الله عليه وسلم المشاهدة التي لا تطاق حتى صار يشاهد كمشاهدة العيان أنّ الحق سبحانه هو المحرِّك لجميع المخلوقات ، و الناقل لهم من حيز إلى حيز . و المخلوقات بمنزلة الظروف و أواني الفخار . لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا .

فأرسله الله تعالى و هو على هذه المشاهدة و المخلوقات في عينيه ذوات خالية و صور فارغة ليكون رحمة لهم . فلا يرى الفعل منهم حتى يدعو عليهم فيهلكوا كما فعل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله مع أممهم . و لهذا استعجلوا دعواتهم و أخّرت دعوة نبينا صلى الله عليه وسلم شفاعة إلى يوم القيامة . فصارت دعوته رحمة على رحمة . و ظهر مصداق قوله تعالى : وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ . و مصداق قوله صلى الله عليه وسلم : إنّما أنا رحمة مهداة للخلق .

و هذا أوّل بداية له صلى الله عليه وسلم في المشاهدة . و في كل لحظة يترقّى و يعرج في مقاماته التي لا تكيف . فقلت : و هل بقي فوق ذلك شيء . فقال رحمه الله تعالى : لو عاش نبينا صلى الله عليه وسلم إلى زماننا هذا ما وقف في الترقي . فإن كمالات مولانا تعالى لا نهاية لها . انتهى .

قال العارف بالله السيد الشريف أبو العباس التجاني الفاسي في كتاب علومه جواهر المعاني :

اعلم : أنّ النبي ﷺ نور في غاية الصفاء . جعل الله هذا النور مقرّا لانصباب كل ما قسمة لخلقه في سابق علمه من الرحمة الإلهيّة . ثم صار يفيض على خلقه ما أقرّه في الحقيقة المحمدية من العلم و الرحمة . فكان بهذه المثابة هو عين الرحمة ﷺ . فلا يصل شيء من الرحمة إلى الوجود إلّا بواسطة ذاته ﷺ . فذاته الكريمة عليه السلام بمنزلة المقرّ للمياه التي تجتمع فيه ، و تتفرق من ذلك المقر سواق للسقي و الانتفاع .

و لذلك قال ﷺ : إنّما أنا قاسم و الله معط . فلهذا سمّي عين الرحمة ﷺ. و أيضًا لنسبة أخرى في عين الرحمة يعني أنّه الأنموذج الجامع في إفاضة الوجود على جميع الوجود . فإنّه لولا وجوده ﷺ ما كان وجود لموجود أصلًا من غير الحق سبحانه وتعالى . فإنّ وجود كل موجود من ذوات الوجود متوقّف على سبقيّة وجوده ﷺ لذلك الوجود . فإنّه لولا هو ﷺ ما خلق شيء من الأكوان ، ولا رحم شيء منها بالوجود ، ولا بإفاضة الرحمة . فإنّه ﷺ كليّة مراد الحق و غايته من الوجود . فإنّه تعالى ما خلق الكون إلّا من أجله ﷺ . ولا أفاض الرحمة على الوجود إلّا بالتبعية له ﷺ .

فوجود الأكوان كلها منوط بوجوده عليه الصلاة والسلام وجودا و إفاضة . فإنّه ﷺ ما خلقه إلّا من أجلّ ذاته العلية المعظمة المقدسة . و ما خلقه لأجل شيء دون الحق حتى يكون علة له و يتوقف وجوده على وجوده بمعنى أن يكون وسيلة بينه و بين الحق . فهو مراد الحق لذاته . و الأكوان كلها مراده لأجله عليه الصلاة والسلام . فذلك الفيض من ذاته ﷺ ينقسم إلى رحمتين :

الرحمة الأولى : إفاضة الوجود على جميع الأكوان حتى خرجت من العدم إلى الوجود .

و الرحمة الثانية : إفاضة فيض الرحمات الإلهية على جميعها من جملة الأرزاق و المنافع و المواهب و المنح . فإنّه بذلك يدوم تمتعها بالوجود .

فإذا علمت هذا علمت أنّه ﷺ عين الرحمة الربانية . و جميع الوجود كلّه نشأ عن الرحمة الربانية . قال تعالى : سبقت رحمتي غضبي . و قال : وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ . لأنّ أصله ﷺ رحمة . ولا يلزم من شمول الرحمة عدم وقوع العذاب و الوعيد و الغضب . لأنّ تلك مقتضيات الكمالات الإلهية . فإنّ الكريم و إن عظم كرمه لولا بطشه و غضبه و عذابه ما خيف جانبه ، و لو أمن منه هذا الحال احتقر جانبه . و ليست هذه صفة الكرم ولا ينبغي له هذا .

فتبين لك أن من صفة الكمال الغضب و البطش و العذاب ليكون جانبه معظمًا مخافًا مهابًا كما كان جانبه مرجوًّا لعفوه و رحمته . انتهى كلامه .

قال بعض العلماء كما في روح البيان : جاء عليه الصلاة والسلام رحمة للكفار أيضًا من حيث أنّ عقوبتهم أخّرت بسببه و أمنوا به عذاب الاستئصال و الخسف و المسخ . و ورد في الخبر : أنّه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام : إنّ الله تعالى يقول : وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ . فهل أصابك من هذه الرحمة شيء ؟ قال : نعم . إنّي كنت أخشى عاقبة الأمر . فأمنت بك لثناء الله عليّ بقوله : ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ . انتهى .

و قال العارف بالله السيد عبد الرحمن العيدروس رحمه الله تعالى المتوفّى سنة ١١٩٢هـ ، و هو من أجلّ مشائخ السيد مرتضى الزبيدي شارح الإحياء في شرح صلاة أبي الفتيان القطب سيدنا أحمد البدوي رحمه الله تعالى ، نقلاً عن بعض العلماء العارفين : اعلم : أنّ الرحمة رحمتان :

رحمة خاصة و هي التي تدارك الله بها عباده في أوقات مخصوصة .

و رحمة عامة و هي حقيقة محمد صلى الله عليه وسلم . و بها رحم الله حقائق الأشياء كلّها . فظهر كلّ شيء في مرتبته في الوجود . فلذلك أوّل ما خلق الله روح محمد صلى الله عليه وسلم . فرحم الله به الموجودات الكونية .

ثم قال السيد العيدروس رحمه الله تعالى : و بالجملة فنعمتان ما خلا موجود عنهما ، و لابدّ لكلّ مكون منهما نعمة الإيجاد و نعمة الإمداد ، كما في الحكم العطائية و هو صلى الله عليه وسلم الواسطة فيهما . إذ لولا سبقية وجوده ما وجد موجود . و لولا وجود نوره في ضمائر الكون إلى أن برز لتهدّمت دعائم الوجود . فهو الذي وجد أوّلاً . و له تبع الوجود . و صار مرتبطًا به لا استغناء له عنه . و لله درّ القطب البكري محمد رحمه الله تعالى حيث قال :

ما أرسل الرحمٰن أو يُرسِلُ   من رحمةٍ تَصۡعَـدُ أو تَنۡزِلُ
في مَلَكُوتِ الله أو مُلۡكِه   من كلّ ما يُخۡتَصُّ أو يَشۡمَلُ
إلّا و طهَ المصطفى عبدُه   نبيـه مُختـاره المرسَـلُ

واسطةٌ فيها و أصلٌ لها يفهم هذا كلُّ مَن يَعْقِلُ

الوجه الخامس و العشرون : أنّ العالم خلق لأجله . روى الحاكم في صحيحه عن عمر رضي الله عنه مرفوعًا : أنّ آدم عليه الصلاة والسلام رأى اسم محمد صلى الله عليه وسلم مكتوبًا على العرش ، و أنّ الله تعالى قال لآدم عليه الصلاة والسلام : لولا محمد ما خلقتك . و في رواية : ولا خلقت سماءً ولا أرضا .

و في المواهب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما اقترف آدم الخطيئة قال : يا ربّ ! أسألك بحق محمد صلى الله عليه وسلم إلاّ ما غفرت لي . فقال الله : يا آدم ! وكيف عرفت محمدًا و لم أخلقه . قال : يا ربّ ! لأنّك لمّا خلقتني بيدك و نفخت فيّ من روحك رفعت رأسي . فرأيت على قوائم العرش مكتوبًا " لا إله إلاّ الله محمد رسول الله " . فعلمت إنّك لم تضف إلى اسمك إلاّ أحبّ الخلق إليك . فقال الله تعالى : صدقت يا آدم . إنّه لأحبّ الخلق إليّ . و إذ سألتني بحقه فقد غفرت لك . و لولا محمد ما خلقتك . رواه البيهقي في دلائله .

و روى أبو الشيخ و الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا : أوحى الله إلى عيسى عليه الصلاة والسلام : آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم و مر أمّتك أن يؤمنوا به . فلولا محمد ما خلقت آدم ولا الجنة ولا النار . و لقد خلقت العرش على الماء فاضطرب . فكتبت عليه " لا إله إلاّ الله محمد رسول الله " فسكن . صحّحه الحاكم .

و روى الديلمي عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا : أتاني جبريل . فقال : إنّ الله يقول : لولاك ما خلقت الجنّة . و لولاك ما خلقت النار .

و روى ابن سبع عن علي رضي الله عنه : أنّ الله قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : من أجلك أسطح البطحأ ، و أموج الموج ، و أرفع السماء ، و أجعل الثواب و العقاب . قال العلامة الزرقاني و هذا ليس لغيره من نبي ولا ملك . و لله درّ من قال :

ومن عجب إكرام ألف لواحد لعين تفدي ألف عين وتكرم

و روى ابن عساكر عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : هبط جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنّ ربّك يقول لك : إن كنت اتّخذت إبراهيم خليلاً فقد اتّخذتك حبيبًا . و ما خلقت خلقًا أكرم عليّ منك .

و لقد خلقت الدنيا و أهلها لأعرّفهم كرامتك و منزلتك عندي . و لولاك ما خلقت الدنيا .

فائدة

قال الملا علي القاري رحمه الله : حديث "لولاك لما خلقت الأفلاك" موضوع . و معناه صحيح . ثم ذكر بعض الأحاديث المتقدمة .

قال العبد الضعيف الروحاني البازي : يدلّك على وضع هذا الحديث أنّ المراد من الأفلاك فيه السماوات بناءً على زعم ترادف السماء و الفلك . و هذا باطل . و لم يثبت في الشرع ترادفهما . فقد ذكرت السماوات السبع في القرآن في مواضع كثيرة ، و لم يقل الله في موضع "سبعة أفلاك" بدل "سبع سماوات" . و ذكرت في الأحاديث آلاف مرّات ، و لم يرو في حديث صحيح "سبعة أفلاك" مكان "سبع سماوات" .

و هذه أحاديث الإسراء بمرأى منك . و مسمع فيها ذكر السماوات و أحوالهن . ترى فيها لفظ السماء و السماوات ، و لن ترى في حديث منها أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "دخلت في فلك" أو "رأيت في فلك كذا و كذا" مع أنّ استعمال مترادف عند تكرار معنى واحد ألذّ و أنسب بشأن البليغ . و ترك لفظ مترادف في بادي الرأي في آلاف المواضع ، لابدّ له من نكتة باعثة على تركه . فالنكتة عندنا ، و الله أعلم ، التنبيه على عدم ترادفها . قلت هذا بعد الفحص البالغ . ولا ينبّئك مثل خبير . و قد نص ابن حجر رحمه الله في فتح الباري و غيره : أنّ الفلك عند علماء الإسلام غير السماء .

و ههنا دقيقة بديعة أخرى . و هي أنّه لم يثبت في حديث صحيح أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نطق بلفظ "فلك" مفرد "أفلاك" لمعنى فضلاً عن معنى السماء ، سوى ما ثبت في القرآن في قوله تعالى "كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ" . و لعلّ وجه ذلك خشية أن يستعمله أحد مترادفًا لسماء . فعصم الله تعالى لسانه صلى الله عليه وسلم لذلك .

إذ لو نطق به مرّات لأيّ معنى كان أصبح هذا اللفظ مانوسًا . و خيف أن يفرط بعض الرواة فيظنهما مترادفين . و يستعمله في الأحاديث عند الرواية بالمعنى في معنى السماء . ثم يقع الخبط في معنى قوله تعالى "كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ" . و يثبت بذلك بعض الناس أنّ النجوم مرتكزة في حاق ثخن السماوات

السبع بنص القرآن ، كما يدّعي اليوم ذلك بعض الناس . لكنّها دعوى ليست لهم بينة . ولو ثبت هذا اللفظ في بعض الأحاديث لكانت دعوى ذات بينة . و الحال أنّها باطلة في نفس الأمر .

و قد انكشف في هذا العصر بقذف الصواريخ على القمر و المريخ و الزهرة لتسخير السيارات و بتلسكوبات هائلة و غير ذلك من التجربات الحديثة أنّ السيارات و كذا النجوم كلّها متحركات في الخلاء الفسيح دائرات في الأفلاك غير مرتكزات في جرم إحدى السماوات السبع .

و بذلك يزعم من كلت بصائرهم و سقمت ضمائرهم أنّ السماوات المنصوصة الإسلامية باطلة لا وجود لها . ولو كانت موجودة كيف دخلت الصواريخ في سماء القمر و جاوزتها إلى سماء الزهرة و المريخ . و لم يدروا أنّ السماوات فوق السيارات و وراء المجرّات و السدم كلّها ، و أنّ النجوم و السيارات بنصّ القرآن في الأفلاك دون السماوات . و هيهات أن يصل صاروخ إلى السماء و أن يصطدم بها . و السماء المنصوصة في الإسلام غير الفلك .

فإنّ الفلك هو الطريق الجوي في هذا الخلاء الفسيح للنجوم كطرق الطيّارات في الفضاء . فهو ليس بجسم . و السماء هو الجسم الكبير المحيط . و أيضًا السماء فوق الفلك . و الفلك تحتها . و أيضًا الأفلاك غير متناهية حسب عدد النجوم و الأقمار و السيّارات . و السماوات سبع بنص القرآن . و أيضًا للسماوات أبواب لا يفتحها الخزنة لداخل إلّا بعد إذن الله . فدخول شيء فيها موقوف بالإذن و فتح الخزنة .

و أمّا الأفلاك فلا يتصور لها أبواب لكونها خلاء . ولا يتعسر دخول شيء فيها بعد ما استمكن من الوصول إليها . و أيضًا السيارات و الكواكب دائرات في الأفلاك دون السماوات . قال الله تعالى : كُلٌّ فِيْ فَلَكٍ يَّسْبَحُوْنَ . و قد صرح الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري و الآلوسي رحمه الله في الروح و الشيخ مولانا أنور شاه الكشميري رحمه الله في فيض الباري و غير هؤلاء : أنّ السماوات غير الأفلاك . انتهى .

نعم ، الفلك و السماء مترادفان عند مهرة الهيئة اليونانية . و قالوا : إنّ القمر و عطارد و الزهرة و الشمس و المريخ و المشتري و زحل على الترتيب في السماء الأولى و الثانية إلى السابعة . و الثوابت في الثامنة . و قد أبطلتها الهيئة الحديثة . و لي تصانيف في الهيئة القديمة و الحديثة تنيف على عشرين

مصنّفًا . و صنّفت كتابًا كبيرًا حققت فيه محلّ السماوات القرآنية و حقيقة الأفلاك .

و استقصيت فيه أقوال أصحاب جميع الأديان و ما يتعلق بمحلّ الجنة و النار و كروية السماوات و العرش و غير ذلك من أبحاث بديعة . و هذا كتاب لا نظير له في الدنيا . و لله الحمد و المنة . و قد سهل الله لي هذه العلوم و أطلعني على أسرارها . و جعلني متفردًا فيها في هذا العصر . ولا فخر . و لله الحمد و المنة .

الوجه السادس و العشرون : الآثار التي فيها نص على أنّه عليه الصلاة والسلام أفضل الخلق و أحبّ إلى الله من كلّ ملك و نبي كرواية سلمان الفارسي رضي الله عنه المتقدمة التي أخرجها ابن عساكر و كما روى أبو نعيم في الدلائل عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام قال : قلبت مشارق الأرض و مغاربها فلم أر رجلًا أفضل من محمد عليه الصلاة والسلام ، و لم أر بني أب أفضل من بني هاشم .

الوجه السابع و العشرون : كون لواء الحمد بيده يوم القيامة . ولا يكون إلّا بيد أفضل الخلق . و قد تقدّمت الآثار في ذلك . قال بعض العارفين : إنّ لله تعالى في المقام المحمود يوم القيامة باسمه الحميد سبعة ألوية الحمد تعطى لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فيها أسماء الله التي يثني بها صلى الله عليه وسلم على ربّه إذا أقيم في المقام المحمود يوم القيامة .

و هو قوله عليه الصلاة والسلام إذا سئل في الشفاعة : قال : فأحمد الله بمحامد لا أعلمها الآن . و هي الثناء على الله سبحانه بهذه الأسماء . و الله تعالى لا يثنى عليه إلّا بأسمائه الحسنى خاصة . و أسماؤه سبحانه لا يحاط بها علمًا .

قال الشيخ محي الدين في الباب الثامن و الثلاثين و ثلاثمائة ج٣ ص١٤٦ : و قد سألت الله أن يطلعني على عدد تلك الأسماء المرقومة في الألوية . فقيل لي : إنّ عددها ألف اسم و ستمائة اسم و أربعة و ستون اسمًا . قد رقم في كلّ لواء منها تسعة و تسعون اسمًا ، من أحصاها هناك دخل الجنة ، غير لواء واحد منها . فإنّ المرقوم فيه منها سبعمائة و سبعون اسما يحمده صلى الله عليه وسلم بهذه المحامد كلّها . و كلّها تتضمن طلب الشفاعة من الله .

فإن قلت : فما حكمة جعل اللواء بيده صلى الله عليه وسلم ؟

فالجواب : أنّه إنّما جعل بيده ليجتمع إليه الناس . إذ هو علامة على مرتبة الملك و على وجود

الملك . و إنّما سمي لواء لأنّه يلتوي على جميع المحامد . فلا يخرج عنه حمد ، كما أشار حديث "آدم و من دونه تحت لوائي" .

و إيضاح ذلك أنّ آدم عليه الصلاة والسلام عالم بالأسماء . و ما ظهر بعلمها إلّا بحكم النيابة عن محمد ﷺ في عالم الملائكة لتقدّمه بالنبوة و آدم بين الماء و الطين .

فلما ظهر جسم محمد ﷺ كان هو صاحب اللواء . فيأخذ اللواء من آدم يوم القيامة بحكم الإصالة . فيكون آدم فمن دونه تحت لوائه . قاله الشيخ ابن عربي في الباب الرابع و السبعين .

فإن قلت : فهل يدخل تحت لوائه ﷺ أيضًا الملائكة ؟

فالجواب : نعم . لأنّهم كانوا تحت ذلك اللواء في زمان آدم . فكذلك يكونون في الآخرة تحته حين يحمله رسول الله ﷺ . و هناك يظهر لجميع الخلق سيادة رسول الله ﷺ و خلافته على الجميع . قاله الإمام الشعراني .

و قال العلامة الشيخ عبد الرؤوف المناوي رحمه الله تعالى المتوفّى سنة ١٠٣٠هـ في شرحه الكبير على الجامع الصغير للسيوطي رحمه الله تعالى : قد سئل الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى عن لواء الحمد : هل هو لواء حقيقي أو معنوي ؟ فأجاب بأنّه معنوي . و هو الحمد . لأنّ حقيقة اللواء الراية ، ولا يمسكها إلّا أمير الجيش . فالمراد أنّه عليه الصلاة والسلام يشتهر بالحمد .

و هذا أحد القولين نقلهما الطيبي و غيره . فقال : يريد به انفراده ﷺ بالحمد يوم القيامة ، أو أنّ للحمد لواء يوم القيامة حقيقة يسمّى لواء الحمد . و عليه كلام التورپشتي حيث قال : لا مقام من مقامات عباد الله الصالحين أرفع من مقام الحمد . و دونه تنتهي جميع المقامات . و لمّا كان المصطفى ﷺ أحمد الخلائق في الدارين أعطي لواء الحمد ليأوي إلى لوائه الأوّلون و الآخرون . و أضاف اللواء إلى الحمد الذي هو الثناء على الله بما هو أهله لأنّه منصبه في الموقف . و هو المقام المحمود المختصّ به ﷺ . انتهى .

الوجه الثامن و العشرون : أنّ نبينا ﷺ أعطي من فنون المزايا و الفضائل ما لا يحصى حتى قال العلماء و الأئمة : إنّ الحقيقة المحمدية لا يمكن إدراك كنهها و الإحاطة بغايتها . و هذا مقام

لم ينله نبي ولا ملك مقرب فضلاً عن سائر المخلوقات و الكائنات . و قالوا : حقيقتان لا تدركان كنهًا و ذاتًا . و إنّما تدركان باعتبار الآثار ، و تعرفان بالنظر إلى شئونهما : إحداهما خالقة و هي حقيقة الله تعالى . و الثانية مخلوقة حادثة و هي الحقيقة المحمدية .

قال السيد أحمد عابدين المتوفّى سنة ١٣٢٠ﻫ تقريبًا ، و هو ابن أخي السيد محمد عابدين رحمه الله تعالى مؤلّف ردّ المحتار شرح الدرّ المختار المتوفّى سنة ١٢٥٢ﻫ ، في شرح مولد ابن حجر رحمه الله تعالى : فلو بالغ الأوّلون و الآخرون في إحصاء مناقبه و خصائصه لعجزوا عن استقصاء ما حباه مولاه الكريم من مواهبه الأحمدية و أخلاقه المحمدية و صفاته المصطفوية . و ما مثل من أراد إحصاء فضائله ﷺ بمدحه إلّا كمثل إنسان مدّ يده ليتناول الثّريّا بها . و أين الثّريّا من يد المتناول . و لذا قال بعض العارفين كما في أوائل شرح الشفا لعلي القاري : الخلق ما عرفوا الله تعالى و ما عرفوا محمدًا ﷺ . انتهى كلام السيّد أحمد .

فائدة لطيفة

قال العارف بالله الشيخ عبد الغني النابلسي رحمه الله تعالى المتوفّى سنة ١١٤٣ﻫ في شرح ديوان ابن الفارض الصوفي رحمه الله تعالى : و قد بحثت يومًا مع بعض الإخوان على هذا البيت لابن الفارض في مدح النبي ﷺ :

و على تفَنُّنِ واصِفِـيْهِ بِحُسْنِه   يَفنَى الزمانُ و فيهِ ما لم يُوصَفِ

أيّهما أبلغ ، هذا أم قول صاحب البردة رحمه الله تعالى :

فإنّ من جودك الدنيا و ضرتها   و من علومك علم اللوح و القلم

فكان يقول : إنّ بيت صاحب البُردة أبلغ . فقلت له : في بيت صاحب البردة فن من فنون الوصف النبوي و المدح المحمدي . فهو داخل تحت تلك الفنون التي أشار الشيخ عمر رحمه الله تعالى في بيته إلى يوم القيامة . فاعترف بذلك . فلا أبلغ من هذا البيت المذكور . و لهذا سجد الشيخ ابن الفارض بعد إنشاده شكرًا لله تعالى . انتهى .

قلت : و لهذا البيت قصة غريبة . و هي أنّ سبط الشيخ عمر بن الفارض الجامع لديوان جدّه قال : و قال لي ولد ابن الفارض : رأيت الشيخ والدي رحمه الله تعالى نهض و رقص زمانًا طويلاً و تواجد وجدًا عظيمًا و تحدر منه عرق كثير حتى سال تحت قدميه و خرّ إلى الأرض و اضطرب اضطرابًا شديدًا . و لم يكن عند الشيخ حين صدور تلك الحالة غيري . ثم سكن حاله و سجد لله تعالى . قال ولده : فسألته عن سبب ذلك . فقال : يا ولدي ! فتح الله عليّ بمعنى في بيت لم يفتح عليّ بمثله . و هو هذا البيت :

و على تفَنُّنِ واصِفِـيْهِ بِحُسْنِه　　　يَفنَى الزمانُ و فيهِ ما لم يُوصَفِ

الوجه التاسع و العشرون : أفضل الأنبياء بعد نبينا صلى الله عليه وسلم إبراهيم عليه الصلاة والسلام . و قد قال الله في القرآن العزيز : وَإِنَّ مِنْ شِيْعَتِهِۦ لَإِبْرَاهِيمَ . و الضمير فيه راجع عند كثير من العلماء إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فثبت أنّه أفضل من إبراهيم ، و أنّ إبراهيم فرد من جماعته التابعين له . و بهذا ثبت كونه أفضل من سائر الأنبياء . هذا عند أهل السنّة . و قد سبق خلاف المعتزلة القائلين بتفضيل الملك على البشر .

و في " القول الحق في أنّ محمدًا صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق " تأليف الشيخ نور الدين علي بن زين الدين أبي المواهب سليم الشهير بابن الجزار ، و هو من أهل القرن العاشر تلميذ الشهاب الرملي : قال ابن الجزار : بلغني عن بعض العلماء أنّ المعتزلة القائلين بتفضيل الملك على البشر استثنوا في هذا محمدًا صلى الله عليه وسلم . و قد سمعت من لفظ بعض أصحابنا المشائخ الموجودين أنّه وجد ذلك منقولا . انتهى .

فائدة

و من أعظم الدلائل الصريحة المعلنة بفضله عليه الصلاة والسلام على عيسى عليه الصلاة والسلام و غيره قوله تعالى عن عيسى "وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ" . و معلوم عند سائر العقلاء أنّ المبشر إذا قدم بالبشارة بقدوم الملك فلا خفاء على أحد في تفاوت المرتبتين .

و بلغنا فيما نقل إلينا أنّ الحافظ العزّ بن عبد السلام رحمه الله تعالى ناظر نصرانيًا زعم أنّ عيسى عليه الصلاة والسلام لكونه حيًا أفضل من محمد عليه الصلاة والسلام لكونه ميّتًا . و طلب النصراني منه حجة على كون محمد أفضل من عيسى . فاحتج العز بن عبد السلام بهذه الآية . فبهت النصراني و قال : أبلعني ريقي . فقال له العزّ رحمه الله تعالى :

أبلعتك الدجلة . ولا خفاء في أنّه كان من أرباب الأحوال . فانفقأ قلب النصراني و انفجر بطنه و مات لوقته . انتهى . كذا في القول الحق .

قلت : و يشبه هذا قصة الشاه عبد العزيز المحدث ابن الشاه وليّ الله الدهلوي رحمهما الله تعالى مع نصراني . و هي أنّ نصرانيًّا خاطبه و هو على المنبر يوم الجمعة و أراد إفحامه على رؤوس الأشهاد . و زعم أنّ عيسى عليه الصلاة والسلام لكونه في المكان العالي حيًّا أفضل من محمد لكونه في المكان السافل أي الأرض . و أنشد النصراني هذا الشعر الفارسي :

كسے بگفت كه عيسى ز مصطفى أعلىٰ است　　　كه ايں بزير زميں دفن آں بأوج سما است

فأجابه المحدث الشاه عبد العزيز الدهلوي رحمه الله تعالى على المنبر ارتجالًا :

بگفتمش كه نه ايں حجتت قوى باشد　　　حباب بر سر دريا گهر ته دريا است

فبهت النصراني و رجع ذليلًا .

الوجه الثلاثون : كثرة معجزاته صلى الله عليه وسلم . و قد أوتي مثل أو نظير كلّ معجزة أوتيها نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . و العلماء شكر الله مساعيهم بحثوا على ذلك . و في المنتظم لابن الجوزي رحمه الله تعالى : أنّ بعض العلماء صنّف في ذلك كتابًا جمع فيه نحو ألف معجزة له عليه الصلاة والسلام .

قلت : هذا باعتبار الظاهر و إلّا فأخلاقه الكريمة و فضائله الجسيمة و كمالاته العلمية و خصائصه الملكية السياسية و نحوها كلّ ذلك معجزات لا تعدّ ولا تحصى . و لقد أبدع البوصيري بقوله في مدحه عليه الصلاة والسلام :

إنّ من معجزاتك العجز عن وصـــــفك إذ لا يحـده الإحصـاء

حيث جعل من بعض معجزاته العجز عن الإحاطة بكل فرد من أوصافه التي اختصه الله تعالى بها من الأخلاق العظيمة و الأوصاف البالغة أقصى ما يمكن البشر الرقي إليه . فهي لا حدّ لها باعتبار أنّه صلى الله عليه وسلم لا يزال يترقّى في مراتب القرب في الحياة و بعد الممات و في الموقف و في الجنة إلى ما لا نهاية له ولا انقضاء . و قال الإمام السبكي في آخر تائيته يخاطبه صلى الله عليه وسلم :

و أقسم لو أنّ البحار جميعها		مدادي و أقلامي لها كلّ غوطة
لما جئت بالمعشار من آيك التي		تزيد على عدّ النجوم المنيرة

قلت : الأحسن أن يقال " عدّ الرمال الكثيرة " بدل " عدّ النجوم المنيرة ". فإنّ في ذكر النجوم و إن تحققت فائدة و هي جعل كلّ معجزة مثل النجم في الضياء إلّا أنّ فيه تقصيرًا باعتبار أصل المقصد . و هو بيان كثرة الآي . فإنّ عدد النجوم كما صرّح به أهل الهيئة الحديثة أقلّ من أن يحتاج عند عدّها إلى جعل البحر الواحد مدادًا فضلاً عن جميع البحار ، بل النهر الواحد مثل النيل أو الفرات ، بل أقلّ من ذلك يكفي إن شاء الله .

و وجه ذلك أنّ عدد النجوم كلّها في هذا العالم ٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ أي أربعة وعشرون صفرًا قبل رقم اثنين . صرّح به الفلسفي الفلكي جيمس جينس صاحب النظرية الشهيرة في تكوّن العالم الشمسي في لندن في مؤتمر الفلاسفة بتاريخ ٨ مارس سنة ١٩٢٨م . و كتابة هذا العدد و عدّه لا يحتاج إلى البحار .

و قال الفخر الرازي رحمه الله : إنّ الله أمر محمدًا صلى الله عليه وسلم بأن يتحدى بكل سورة من القرآن فقال تعالى : فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ . و اقصر السور سورة الكوثر . و هي ثلاث آيات . فكان الله تحدّاهم بكل ثلاث آيات من القرآن . و لما كان القرآن ستة آلاف آية مع زيادة لزم أن لا يكون معجزًا واحدًا بل يكون ألفي معجزة و أزيد . انتهى .

الوجه الحادي و الثلاثون : أسماؤه صلى الله عليه وسلم حاوية على بدائع اللطائف و لطائف البدائع و عجائب الغرائب و غرائب العجائب من الأسرار التكوينية و الرموز التشريعية . لاسيما اسميه الكريمين محمدًا و أحمد . و لي رسالة مستقلّة في بيان أسرارهما . و لله الحمد و المنّة . نذكر هنا نبذة من الفوائد و الأسرار :

الفائدة الأولى : قيل : اسم محمد أفضل من أحمد . و قيل بالعكس .

قال الحموي في شرح الأشباه : إنّ محمدًا أشهر و أفضل على الأصح . انتهى .

و إنّما كان أفضل لوجوه :

الأوّل : قرانه مع اسم الله في كلمة التوحيد .

والثاني : أنّه المخصوص بالذكر غالبًا مع اسم الله كما قال تعالى : وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ . أي ذكرت حيث ذكرت . و الغالب في مثل ذلك ذكر الاسم محمد من بين الأسماء .

والثالث : كونه مكتوبًا على العرش كما رواه البيهقي في دلائله و على أبواب الجنان و على أوراق أشجار الجنّة ، كما ثبت في غير ما حديث .

و أمّا كون أحمد أفضل فلوجوه :

الأوّل : كونه أسبق وضعًا . قال الكافيجي كما نقل عنه الحموي وغيره : إنّ الله سمّاه بأحمد قبل أن سماه بمحمد للآية و هي " وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ " .

والثاني : ما قيل : إنّ اسمه ﷺ أحمد قبل محمد في النشأتين . فهو أحمد قبل كونه محمدًا في الدنيا و الآخرة . كذا في شرح الشفا .

الفائدة الثانية : "أحمد" يحتمل أن يكون منقولاً من الفعل المضارع ، و أن يكون منقولاً من صفة . و هي اسم تفضيل . و في كشف الأسرار : أنّ الألف فيه للمبالغة في الحمد . انتهى .

و قال بعض العارفين : سمّي به لكون حمده عليه الصلاة والسلام أتمّ و أشمل من حمد سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . إذ محامدهم لله بمقتضى توحيد الصفات و الأفعال . و حمده عليه الصلاة والسلام أنّما هو بحسب توحيد الذات المستوعب لتوحيد الصفات و الأفعال . انتهى .

الفائدة الثالثة : لم يسم بأحمد أحدٌ غيره ﷺ قبله . وكذلك محمد أيضًا لم يسمّ به أحد من العرب ولا غيرهم إلى أن شاع قبيل وجوده عليه الصلاة والسلام و ميلاده أنّ نبيًّا يبعث اسمه محمد . فسمّى بعض الناس أولادهم بذلك رجاءَ أن يكون أحدهم هو . و هم قيل : ستة . و قيل : فوق عشرة .

الفائدة الرابعة : محمد مصدر . سمّي به مبالغة مثل قوله تعالى : وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ . و قيل : كان اسم مفعول في الأصل فنقل و صار علمًا . و هو من صيغ المبالغة إذ التشديد يدلّ

على المبالغة . و المعنى لغة : الذي يحمد مرة بعد أخرى و حمدًا بعد حمد . و قيل : مرتجل . هذه ثلاثة أقوال ذكروها .

قال العبد الضعيف الروحاني البازي : المختار عندي وجه آخر لم يذكره أحد . و هو أنّه منقول من الظرف . و هذه الصيغة مشتركة بين الثلاثة : المصدر و اسم المفعول و الظرف . و هذا أعلق بالقلب . فإنّ ذاته ﷺ منبع البركات و مصدر التحيات و مركز الأنوار الموجودة في الدنيا و الآخرة و مورد الألطاف الإلٰهية و الفتوحات الربانية و شمس المعارف و الرحمات و مأخذ العبادات و البركات . فكلّ خير جار من عين ذاته . و كلّ كمال يرى في الدنيا فإنّه بعض من كمالاته . و لهذا قال عليه الصلاة والسلام : إنّما أنا قاسم و الله يعطي .

و قال العارف الشيخ أحمد المجدد : إنّ الحقيقة المحمدية حقيقة جميع الحقائق . فهي أصل و سائر حقائق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام و كذا حقائق الملائكة أظلال لها . انتهى .

و الحمد شامل في العرف لجميع الأذكار و العبادات البدنية و المالية كما صرحوا بذلك . فكلّ ذكر لله في الدنيا و كلّ عبادة له في الأرض إلى يوم القيامة . فإنّها مأخوذة من معارف حواها صدره ﷺ و مربوطة بحياض علومه . و كلّ ذكر أو عبادة لم يكن مأخذها النبي ﷺ و وحيه المنزل على قلبه من الله سبحانه فهي مردودة . و مأخذها الشيطان . و كذا وجود كلّ موجود مستمد من وجوده ﷺ . إذ لولاه ما خلق موجود سواء كان علويًّا أو سفليًّا .

و قال الشيخ أبو عبد الله بن سلطان كما نقل عنه الفاسي في شرح دلائل الخيرات : رأيت رسول الله ﷺ في النوم فقلت له : يا سيدي ! يا رسول الله ! أنت مدد الملائكة و المرسلين . فقال لي أنا مدد الملائكة و النبيين و المرسلين و سائر خلق الله أجمعين . و أنا أصل الموجودات . انتهى . و في ا البردة :

وكلُّ آيٍ أَتَى الرُّسلُ الكِرامُ بها   فإنّما اتصلتْ من نورِه بهم
فإنّه شمسُ فضلٍ هم كواكبُها   يُظهِرنَ أنوارَها للناسِ في الظُّلَمِ

و قال آخر :

أنظر إلى المختار كيف بفيضه ملأ السما و الأرض و الأكوانا
فتراه مثل الشمس في كبد السما و ضياؤها ملأ الوجود عيانا

الفائدة الخامسة : قال الشيخ أبو عبد الله البكي : لاسم محمد أشارات لطيفة من حيث صورته و مادته أي من جهة حروفه المادية و من جهة هيئته الصوريّة .

أمّا الأوّل فلما اشتمل عليه باعتبار حروفه من ميم الملكوت الأعلى ، و حاء الحياة و الحفظ الذي به و فيه كتب القلم الأسنى ، و ميم الملكوت الباطن في ميم الملك الظاهر ، و دال الدوام و الإتصال الماحية لوهمي الإنقطاع و الإنفصال .

و أمّا الثاني فإنّ صورة هذا الاسم على صورة الإنسان . فالميم الأولى رأسه . و الحاء جناحاه . و الميم الثانية بطنه . و الدال رجلاه . انتهى . حكاه السيد مصطفى البكري المتوفّى سنة ١١٦٢ﻫ في شرحه على صلوات سيدي عبد السلام بن مشيش رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ .

الفائدة السادسة : اعلم : أنّ الأنبياء مائة ألف و أربعة و عشرون ألفًا . و الرسل منهم ثلاثمائة و ثلاثة عشر . و في رواية : أربعة عشر . و في رواية : خمسة عشر . و هذا مجموع أعداد حروف اسم محمّد بحساب الجمّل الكبير . هكذا ميم و عددها تسعون . حاء عددها تسعة . ميم ثم ميم و عددهما مائة و ثمانون . دال و عددها خمسة و ثلاثون . و المجموع عدد الرسل عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أي ثلاثمائة و أربعة عشر .

و فيه إشارة إلى أنّ ذاته ﷺ حاوية على رسالات جميع الرسل ، و أنّ رسالتهم مستمدّة من رسالته ﷺ . و إذا كان هذا حال الرسل فحال الأنبياء أولى بذلك كما تقدّم في الوجوه السابقة في هذا الباب .

قال سيدي السيد مصطفى البكري رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ في شرحه لصلوات الشيخ عبد السلام بن مشيش رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ : و ههنا لطيفة و هي أنّ اسم محمد الميم الأولى منه إذا قلت ميم كانت ثلاثة أحرف . و الحاء حرفان : حاء و ألف . و الهمزة لا تعد لأنها الألف . و الميان المضعفان ستة أحرف . و الدال ثلاثة : دال و ألف و لام . فإذا عددت حروف اسمه كلّها ظاهرها و باطنها حصل لك من العدد ثلاثمائة و أربعة عشر . الثلاثمائة و ثلاثة عشر على عدد الرسل الجامعين للنبوّة . و يبقى واحد من العدد . و هو لمقام الولاية

المفرّق على جميع الأولياء التابعين للأنبياء و له عليه و عليهمُ الصلاة والسلام .

و ههنا دقيقة و هي كونه لم يبق من العدد المفرّق على الأولياء إلّا الفرد . لأنّ فيهم الأفراد الذين اختصوا من التحقيق بالإنفراد . أولئك الواحد منهم . يجعله الحق في كيانه جامعًا لنور زمانه . و هذه الدقيقة الفردانية من الحقيقة الجامعة المحمدية . انتهى كلامه .

الوجه الثاني و الثلاثون : صلاة الله عليه ﷺ و أمره المسلمين أن يصلّوا عليه من أجلّ الفضائل و الخصائص له ﷺ .

قال ابن حجر الهيتمي في المولد الصغير : الذي اصطفاه الله تعالى بدوام الصلاة عليه من الله سبحانه و من جميع ملائكته التي لا يحصي كثرتهم إلّا هو تعالى و من أمّته في سائر الأمكنة و الأزمنة . انتهى .

قال في شرح هذا المولد العلامة السيد أحمد بن عبد الغني بن عمر عابدين الدمشقي المتوفّى سنة ١٣٢٠هـ : أي لما يفيد التعبير بالجملة الاسمية في آية " إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ " المفيد للدوام و الاستمرار . و هذه آية باهرة لم توجد لغيره ﷺ و إن وجد أصل الصلاة لإبراهيم و آله عليهم الصلاة والسلام كما يفيده حديث التشهّد .

و في هذا بلاغ للمؤمنين بأنّه ينبغي لهم إدامة الصلاة عليه ﷺ تأسّيًا بالله و ملائكته في ذلك . و اكتفي بهذا التاكيد في جانب الصلاة أي بأنّ و اسمية الجملة و الإعلام بأنّه تعالى و ملائكته يصلّون على النبي . و أكّد التسليم بالمصدر . إذ ليس ثمّ ما يقوم مقامه . أفاده الداودي عن ابن علان في شرح الأذكار .

و في روح البيان : عن الأصمعي قال : سمعت المهديّ على منبر البصرة يقول : إنّ الله أكرم نبيّه بأمر بدأ فيه بنفسه و ثنّى بملائكته . فقال : إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ . الآية . آثره ﷺ من بين الرسل و اختصكم بها من بين الأمم . فقابلوا نعمة الله بالشكر . انتهى .

و إنّما بدأ الله بالصلاة عليه ﷺ بنفسه المقدسة إظهارًا لشرفه و منزلته ﷺ ، و ترغيبًا للأمة . فإنّه تعالى مع استغنائه إذا كان مصلّيًا عليه ﷺ كانت الأمّة أولى به لاحتياجهم إلى شفاعته . و تقويةً

لصلاة الملائكة و المؤمنين . فإنّ صلاة الحق حق و صلاة غيره رسم . و الرسم يتقوى بمقارنة الحق . و إشارةً إلى أنّه عليه الصلاة و السلام مجلى تامّ لأنوار الجمال و الجلال و مظهر جامع لنعوت الكمال به . فاض الجود و ظهر الوجود .

ثم ثنّى بملائكة قدسه . فإنّهم مقدّمون في الخلقة ، و أهل علّيّين في الصورة ، خائفون كبني آدم من نوازل القضاء ، و مستعيذون بالله من مثل واقعة إبليس . فاحتاجوا إلى الصلاة على النبي ﷺ ليحصل لهم جمعية الخاطر و الحفظ من المحن و البليّات ببركة الصلوات . و أيضًا ليظهر لصلوات المؤمنين رواج بسبب موافقة صلواتهم ، كما ورد في موافقة آمين .

و أيضًا لما خلق آدم عليه الصلاة و السلام و رأوا أنوار محمد ﷺ على جبينه صلّوا عليه وقتئذ . فلمّا تشرّف هو ﷺ بخلقة الوجود قيل لهم : هذا هو الذي كنتم تصلّون عليه . و هو نور في جبين آدم عليه الصلاة و السلام . فصلّوا عليه و هو موجود بالفعل في العالم .

ثم ثلّث بالمؤمنين من بريّة جنّه و إنسه . فإنّ المؤمنين محتاجون إلى الصلاة عليه ﷺ أداءً لبعض حقوق الدعوة و الأبوّة . فإنّه عليه الصلاة و السلام بمنزلة الأب للأمة .

و قد أجاد في التعليم و التربية و الإرشاد . و بالغ في لوازم الشفقة على العباد . و ثناء المعلّم واجب على المتعلّم ، و شكر الأب لازم على الابن .

و أيضًا في الصلوات شكر على كونه ﷺ أفضل الرسل و كونه خير الأنام .

و أيضًا فيها إيجاب حق الشفاعة على ذمة ذلك الجناب . فإن الصلوات ثمن الشفاعة . فإذا أدّوا الثمن هذا اليوم يرجى أن يحرزوا المثمّن يوم القيامة . و بقدر صلواتهم عليه ﷺ تحصل المعارفة بينهم و بينه ﷺ . و علامة المصلي يوم القيامة أن يكون لسانه أبيض . و علامة التارك أن يكون لسانه أسود . و بهما تعرف الأمّة يومئذ .

و أيضًا فيها مزيد القربات . و ذلك لأنّ بالصلوات تزيد مرتبة النبي ﷺ . فتزيد مرتبة الأمّة . لأنّ مرتبة التابع تابعة لمرتبة المتبوع .

و أيضا فيها أثبات المحبة . و من أحبَّ شيئًا أكثر ذكره .

قال سهل بن عبد الله التستري قدّس سرّه : الصلاة على محمد ﷺ أفضل العبادات . لأنّ الله تولّاها هو و ملائكته . ثم أمر بها المؤمنين . و سائر العبادات ليس كذلك . يعني أن الله تعالى أمر بسائر العبادات ولم يفعلها . انتهى .

و بذلك أبان الله تعالى فضل نبيّه ﷺ . و صلاته تعالى لا تنقطع أبدا . وكذا الملائكة في كلّ وقت يصلّون عليه ﷺ . و كذا أمّته لم يزالوا ولا يزالون يصلّون عليه ﷺ في كل زمان و مكان . أي يطلبون له زيادة الصلاة و الرفعة و الشرف لا أصل الصلاة . إذ هي حاصلة له من ربّه ﷺ ولا تنقطع أبدًا . انتهى كلامه .

إن قلت : الملائكة أمروا بالسجود لآدم . و هي فضيلة لم تحصل لنبينا ﷺ . و هذه تدلّ على أنّ آدم أفضل .

قلت : الجواب من وجوه :

الوجه الأوّل : هـذه فضيلة جزئية . و الفضل الكلّي لرسول الله ﷺ . إذ له مزايا و فضائل لا تعدّ . كما لا يخفى على من نظر في الوجوه السابقة .

الوجه الثاني : قال الفخر الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره : إنّ الملائكة أمروا بالسجود لآدم لأجل أنّ نور محمد ﷺ كان في جبهته . و لله درّ القائل :

تَجَلَّيتَ جَلَّ اللهُ في وجهِ آدمٍ   فصَلَّى له الْأَمْلَاكُ حينَ توسَّلوا

و قال ابن حجر الهيتمي عن بعض المحققين : إنّ سجود الملائكة لأجل نور محمد ﷺ في جبين آدم عليه الصلاة والسلام . ثم ذكر قول العارف بالله علي وفا :

لو أبصـر الشيطان طَلعة نوره   في وجه آدمَ كان أوّل من سجَد

انتهى .

الوجه الثالث : عن أبي عثمان الواعظ فيما حكاه الفاكهاني قال : سمعت الإمام سهل بن محمد يقول : هذا التشريف الذي شرّف الله به محمدًا ﷺ بقوله " إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ " الآية ، أتمّ و أجمع من تشريف آدم عليه الصلاة والسلام لأمر الملائكة له بالسجود . لأنّه لايجوز أن يكون الله مع الملائكة في ذلك التشريف . فتشريف يصدر عن الله تعالى و عن الملائكة و المؤمنين أبلغ من تشريف تختصّ به الملائكة . انتهى .

الوجه الرابع : كان سجودهم لآدم عليه الصلاة والسلام كان تأديبًا ، و أمرهم بالصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام كان توقيرًا له و تعظيمًا . و مقام التوقير أعلى من مقام التأديب . كذا قال السيد أحمد عابدين رحمه الله تعالى في شرح مولد ابن حجر رحمه الله تعالى .

الوجه الخامس : ما ذكره بعض العلماء أنّ ذلك وقع مرة و انقطع . و هذا دائم إلى يوم القيامة .

إن قلت : إنّه عليه الصلاة والسلام أوّل من تنشق عنه الأرض يقوم من قبره . فيلقى موسى عليه الصلاة والسلام آخذًا بساق العرش . و إنّ إبراهيم يكسيه الله حلّتين يوم القيامة .

قلنا : للعلماء أجوبة عن ذلك .

و حاصل الأمر أنّ الأمر الجزئيّ لا يقابل بالكليّ . وكون إبراهيم عليه الصلاة والسلام خصّ بخصوصية لكونه في الدنيا ألقي في نار النمرود . و كما أنّ هارون عليه الصلاة والسلام يبعث ملتحيًا لكون موسى عليه الصلاة والسلام أخذ بلحيته فطلعت في يده . فلا تقابل تلك الخصوصيات جمة . وقد يوجد في المفضول ما ليس في الفاضل . علا أنّ نبيّنا ﷺ يبعث مكسيًا راكبًا كاملاً مكمّلاً على أكمل الأحوال و أجلها .

و مما يدلّك على تقدّمه ﷺ على موسى عليه الصلاة والسلام في الشرف و الرتبة و الوجود أنّه سأل ربّه تعالى كما في السنّة الشريفة الشهيرة . فقال : ربّ ! إنّي أجد في التوراة أقوامًا صفتهم كذا و كذا . فاجعلهم من أمّتي . فقال : هم أمّة أحمد يا موسى إلى آخره . حتى تمنّى موسى عليه الصلاة والسلام أن يكون من أمّته عليه الصلاة والسلام . كذا قال الشيخ نور الدين علي بن زين الدين الشهير بابن الجزار من علماء القرن العاشر في كتابه " القول الحق في أنّ محمدًا أفضل الخلق " .

و قال أيضًا فيه : فانظر إلى أثر فضل الله تبارك وتعالى على رسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام حيث أظهر التفاوت في مرتبتي محمد و موسى عليهما الصلاة والسلام . إذ يحكي القرآن قول موسى "رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي" و يحكي قول الله "أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ" بالإستفهام التقريري .

لا يقال : إنّ قوله تعالى " قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ " دالّ على أنّه أعطاه ذلك قبل السؤال لوروده بصيغة الماضي . لأنّه ليس من عادة الكريم إذا سئل في شيء أن يقول على وجه المنّ : قد أعطيتك ذلك أوّلاً مثلاً .

ولو فرض التنزل فلا يخلو إمّا أن يكون موسى عليه الصلاة والسلام علم بالانشراح أوّلًا . لاجائز أن يقال : لا . لأنّ انشراح الصدر من الأمور الضروريّة المستلزمة للعلم بها عند وجودها . و إذا كان علم بذلك فلا يخلو إمّا أن يكون السؤال لانشراح خاصّ أوّلًا . فإن كان لانشراح خاصّ لم يبق لصيغة الماضي موضع . و إن لم يكن فيكون السؤال من موسى عليه الصلاة والسلام عبثًا . و ذلك لا يجوز على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

فتعين حمل ذلك على أنّ المراد بصيغة الماضي الإعطاء النافذ القويّ على عادة العرب في مثل ذلك . فإنّهم إذا سئلوا مثلاً يقول المسؤول : أعطيتك . تحكيمًا لقوّة الإعطاء . فيكون بصيغة الماضي . فيكون منه الإنشاء كبعتك و اشتريت منك و غير ذلك . انتهى بلفظه .

حكاية لطيفة مشتملة على فضل النبي عليه الصلاة والسلام و كرامة لبعض الأولياء رحمهم الله تعالى . و الكرامات لا ينبغي لمسلم أن ينكرها أو يعدّ أمرها مشكلاً . ذكرها الإمام العارف بالله عبد الله بن أسعد اليافعي المتوفّى سنة ٧٦٨هـ في أواخر كتابه " نشر المحاسن الغالية في فضل مشائخ الصوفية أصحاب المقامات العالية " . قال : إشارة إلى شيء مما شوهد من عظيم شرفه صلى الله عليه وسلم و جلالة قدره و علوّ مقامه فوق جميع مقامات الأصفياء و استمداد الكلّ من نوره و تأدّب الكلّ معه ، وما يكشف للشيوخ العارفين من العجائب و ينالون من المواهب ببركته صلى الله عليه وسلم .

من ذلك ما روي عن الشيخ العارف بالله أبي عبد الله محمد بن أحمد البلخي رحمه الله تعالى قال : سافرت من بلخ إلى بغداد و أنا شابّ لأرى الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى . فوافيته يصلّي العصر بمدرسته . وما كنت رأيته ولا رآني قبل ذلك . فلمّا سلّم و أهرع الناس للسلام عليه تقدّمت إليه و صافحته .

فأمسك بيدي و نظر إليّ متبسّمًا و قال : مرحبًا بك يا بلخي ! يا محمد ! . قد رأى الله سبحانه مكانك و علم نيّتك . قال : فكأنّ كلامه كان دواء الجرح ، و شفاء العليل . فذرفت عيناي خشيةً . و ارتعدت فرائصي هيبةً . و نفضت أحشائي شوقًا و محبّةً . و أوحشت نفسي من الخلق . و وجدت في قلبي أمرًا لا أحسن أعبر عنه . ثم ما زال ذلك يمو و يقوى و أنا أغالبه .

فلمّا كان ذات ليلة قمت إلى وردي . و كانت ليلة مظلمة . فبرز لي من قلبي شخصان . بيد أحدهما كأس و بيد الآخر خلعة . فقال لي صاحب الخلعة : أنا علي بن أبي طالب . و هذا أحد الملائكة المقرّبين . و هذا كأس شراب المحبة . و هذه خلعة من حلل الرضى . ثم ألبسني تلك الخلعة . و ناولني صاحب الكأس فأضاء بنوره المشرق و المغرب . فلمّا شربته كشف لي عن أسرار الغيوب و مقامات أولياء الله تعالى و غير ذلك من العجائب . فكان مما رأيت مقامًا تزلّ أقدام العقول في سرّه ، و تضلّ أفهام الأفكار في جلاله ، و تخضع رقاب الأولياء لهيبته ، و تدهش أبصار البصائر لأشعّة أنواره . لا تسامته طائفة من الملائكة الكروبين و الروحانية و المقرّبين إلّا حنت ظهورها على هيئة الراكع تعظيمًا لقدر ذلك المقام . و سبحت الله ﷺ بأنواع التقديس و التنزيه ، و سلّمت على أهل ذلك المقام .

و يقول القائل : إنّه ليس فوقه إلّا عرش الرحمن . يتحقق الناظر إليه أنّ كلّ مقام لواصل أو حال لمجذوب أو سرّ لمحبوب أو علم لعارف أو تصريف لوليّ أو تمكين لمقرّب فمبدؤه و موئله و جملته و تفصيله وكلّه و بعضه و أوّله و آخره فيه استقرّ و منه نشأ و عنه صدر و به كمل . فمكثت مدة لا أستطيع النظر إليه . ثم طوّقت النظر إليه . و مكثت مدّة لا أستطيع أن أسامته . ثم طوّقت مسامتته . و مكثت مدّة لا أستطيع أعلم بمن فيه .

ثم بعد مدّة علمت بمن فيه . فإذا فيه رسول الله ﷺ و عن يمينه آدم و إبراهيم و جبريل و عن شماله نوح و موسى و عيسى عليهم الصلاة والسلام . و بين يديه أكابر أصحابه رضي الله عنهم و الأولياء قدّس الله أرواحهم قيام على هيئة الخدم كأنّ على رؤوسهم الطير من هيبته ﷺ . وكان ممن عرفت من الصحابة أبوبكر و عمر و عثمان و عليّ و حمزة و العباس رضي الله عنهم . و ممن عرفت من الأولياء معروف الكرخي و سرّي السقطي و الجنيد و سهل التستري و تاج العارفين أبو الوفاء و الشيخ عبد القادر و الشيخ عدي و الشيخ

أحمد الرفاعي رحمه الله . و كان من أقرب الصحابة إلى النبي ﷺ أبوبكر ، و من أقرب الأولياء إليه الشيخ عبد القادر .

فسمعت قائلاً يقول : إذا اشتاقت الملائكة المقرّبون و الأنبياء المرسلون و ا لأولياء المحبوبون إلى رؤية محمد ﷺ ينزل ﷺ من مقامه الأعلى إلى هذا المقام . فتضاعف أنوارهم برؤيته ، و تزكو أحوالهم بمشاهدته ، و يعلو مكانهم و مقاماتهم ببركته . ثم يعود للرفيق الأعلى . قال : فسمعت الكلّ يقولون : سمعنا و أطعنا غفرانك ربّنا و إليك المصير . ثم بدت لي بارقة من نور القدس الأعظم . فغيبتني عن كلّ مشهود . و أسقطت مني التمييز بين كلّ مختلفين . و أقمت على هذا الحال ثلاث سنين .

فلم أشعر إلّا و أنا في سامرا و الشيخ عبد القادر رحمه الله قابض على صدري . و إحدى رجليه عندي و الأخرى ببغداد . و قد عاد إليّ تميزي و ملكت أمري . فقال لي الشيخ : يا بلخي ! قد أمرت أن أردك إلى وجودك و أملّكك حالك و أسلب منك ما قهرك . ثم أخبرني بجميع مشاهداتي و قال لي : لقد سألت رسول الله ﷺ سبع مرّات حتى طوقت النظر إلى ذلك المقام ، و سبع مرّات حتى طوقت مسامتته ، و سبع مرات حتى اطلعت على من فيه ، و سبع مرّات حتى سمعت المنادي . و لقد سألت الله فيك سبع مرات و سبع مرّات حتى ألاح لك تلك البارقة . و كنت من قبل سألته فيك سبعين مرة حتى سقاك كأسًا من محبته و ألبسك خلعة رضوانه . يا بنيّ ! اقض جميع ما فاتك من الفرائض . انتهى .

الوجه الثالث و الثلاثون : قال السعد التفتازاني رحمه الله : و أفضل الأنبياء محمد ﷺ لقوله تعالى " كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ " الآية . ولا شكّ أنّ خيريّة الأمّة بحسب كمالهم في الدين . و ذلك تابع لكمال نبيهم الذي يتبعونه . انتهى .

الوجه الرابع و الثلاثون : ثبت في الأحاديث الصحيحة أنّ أمّته عليه الصلاة والسلام أكثر الأمم دخولاً في الجنة . و هذا مقام له عليه الصلاة والسلام لا يجارى ولا يماثل . حيث كثر تعداد السعداء في أمّته حتى كأنّهم هم العامرون للجنة الساكنون فيها . كأنّ الجنّة لهم خلقت . روى عبد الله ابن الإمام أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : لمّا نزلت هذه الآية " ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝ وَ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ " قال ﷺ : أنتم ثلث أهل الجنة ، أنتم نصف أهل الجنة ، أنتم ثلثا أهل الجنة . قال الطبري : تفرّد برفعه ابن المبارك عن الثوري

رحمهما الله تعالى . و في حديث بهز بن حكيم رحمه الله تعالى رفعه : أهل الجنّة عشرون و مائة صف . أنتم منها ثمانون . كذا في المواهب .

قال الإمام الشعراني رحمه الله تعالى في لطائف المنن ج٢ ص٤٨ : سمعت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول : عملت مرّة على المراقبة و المشاهدة لحضرة التكوين حتى أطلعني الله على عدد النوع البشري من السعداء الذين يدخلون الجنة من ذرّيّة آدم عليه الصلاة والسلام . فقلت : كيف ؟ قال : تضرب كلّيّات العالم في ثلاثمائة و ستين من النظرة الرحمانية تعثر على ذلك . فقلت : وما عدد الكلّيّات ؟ فقال : عددها سبعمائة ألف ألف ألف ثلاث مرّات و نصف و ستة عشر ألفًا و ستمائة و ستة و ستون و سدس يضرب ذلك في ثلاثمائة و ستين . فما تحصل من ذلك فهو عدد السعداء الذين كانوا في ظهر آدم عليه الصلاة والسلام . لا يزيدون واحدًا . قلت له : فما عدد الأشقياء الذين يدخلون النار ؟ فقال : ذلك لا يحصيه إلّا الله عزّ وجلّ . وهو كلام ما رأيته قط لغيره . انتهى بحروفه .

و قال في اليواقيت و الجواهر : قد أخبرني أخي أفضل الدين رحمه الله تعالى أنّ الله تعالى أطلعه على عدد السعداء الذين كانوا في ظهر آدم عليه الصلاة والسلام دون الأشقياء . قال : و عدّتهم ما تحصل من ضرب تسعمائة ألف ألف ألف ألف ألف ألف ألف ألف تسع مرّات و تسعمائة و تسعة و تسعين ألفًا و نصف ذلك . و ثلث ذلك مضروب جميعه في الأصول التي ذكرناها . فما يحصل من ذلك فهو عدد من كان في ظهر آدم من السعداء . لا يزيدون واحدًا ولا ينقصون . وهو حساب لا يتعقله العقل . و إنّما طريقه الكشف . انتهى .

قلت : ما في اللطائف يخالف ما في اليواقيت . فتفكر .

الوجه الخامس و الثلاثون : جعل الله تعالى أمّته نظراء أنبياء بنى إسرائيل . قال عليه الصلاة والسلام : علماء أمّتي كأنبياء بني إسرائيل . أي بأن جعلهم ورثة الأنبياء في تبليغ شرائع الإسلام و أحكام الدين و الجهاد في سبيل الله تعالى و إصلاح الأمّة . وكان إذا مات نبيّ في بني إسرائيل خلفه نبيّ آخر . و أمّا بعد خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام فعلماء الأمّة خلفاؤه . ثم هذا الحديث و إن كان موضوعًا باعتبار ألفاظه كما صرّح به الأئمة لكن معناه صحيح . إذ لا ريب في أنّ العلماء ورثة الأنبياء .

و أيضًا له نظائر كما أخرج ابن عساكر عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ما من نبيّ إلّا له نظير في أمتي . أبوبكر نظير إبراهيم . و عمر نظير موسى . و عثمان نظير هارون . و علي نظيري . و من سرّه أن ينظر إلى عيسى ابن مريم فلينظر إلى أبي ذر رضي الله عنه . كذا في الخصائص .

و أيضًا هو حديث النبي ﷺ عند أهل الكشف . ذكر العارف بالله سيدي السيد عبد الله الميرغني المتوفّى سنة ١٢٠٧ﻫ أحد مشائخ السيّد مرتضى الزبيدي شارح الإحياء و القاموس في كتابه " النفحات القدسية في شرح الصلاة المشيشية " حكاية جليلة سمعها من بعض مشائخه . و هي ما حكي عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى : أنّه كان نائمًا ذات ليلة ببيت المقدس . فلما مضى بعض الليل إذ رأى السقف قد انفرج . و إذا كراسي من ذهب و فضة مرصّعة نزلت منه . و رتّبها رجل . و إذا بتخت عظيم مرصّع بأنواع الجواهر يحير الواصفون في نعته . و إذا بملإ من الناس نزلوا ، و قعد كلّ واحد على كرسي . و إذا رجل لم ير مثله في الحسن و الأنوار نزل فقعد فوق التخت منفردًا لم يشاركه فيه غير .

قال : فقلت لمن في جانبي : من هؤلاء ؟ قال : الأنبياء . قلت : و الذي على التخت ؟ قال : نبينا ﷺ . قلت : لمن جاؤوا ؟ قال : جاؤوا يستشفعون الرسول ﷺ في الحلاّج حيث خالف ظاهر الشرع .

قال : ثم بعد ذلك قال موسى عليه الصلاة والسلام للرسول ﷺ : بلغني أنّك تقول : علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل . فأحبّ أن تريني واحدًا منهم . فأشار ﷺ إلى رجل . فإذا هو الغزالي رحمه الله تعالى . فقال موسى عليه الصلاة والسلام : يا رسول الله ! ائذن لي أن أتكلم معه . فسأله عن مسألة . فأجابه الغزالي بعشرة أجوبة . فقال موسى عليه الصلاة والسلام : سبحان الله ، سألتك عن شيء واحد فأجبتني بعشرة أجوبة . فقال له الغزالي : يا سبحان الله ! ربّك لمّا قال لك : وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ . قلت : هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَ أَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَ لِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ .

ثم إنّي لم أزل متعجّبًا في كون آدم أبي البشر و نوح و إبراهيم خليل الله و موسى كليم الله و عيسى عليهم الصلاة والسلام كلّهم تحت التخت ، و الرسول ﷺ وحده منفرد به ، مع كونهم آباؤه و كبار الأنبياء . و بينما أنا في ذلك و إذا واحد يرفسني و يقول : قم . أما علمت أنّه أصل الكلّ و سيّدهم المنفرد بسائر الكمالات . فكيف يشاركونه فيه ﷺ . انتهى ما في مقدمة النفحات القدسية .

و ذكر هذه القصة أيضًا الشهاب الخفاجي في أواخر شرح الشفا عند الكلام على قتل الحلاّج باختلاف يسير بين الألفاظ . فقال في آخرها : إذ زقني شخص برجله زقة مزعجة . فانتبهت . فإذا بقيّم المسجد يشعل قناديل الأقصى . فقال : لا تعجب . فإنّ الكلّ خلقوا من نوره ﷺ . فخررت مغشيًّا عليّ . فلما أقاموا الصلاة أفقت و طلبت القيّم . فلم أجده إلى يومي هذا . انتهى .

قلت : قد يزعم بعض الناس أنّ قصة كلام موسى عليه الصلاة والسلام مع الغزالي من السؤال و الجواب حديث مرفوع . و كانت ليلة المعراج . و هذا غلط . و الصحيح أنّها منام الشاذلي رحمه الله تعالى .

الوجه السادس و الثلاثون : تخلق نبينا ﷺ بمكارم الأخلاق فوق ما تخلق به أحد من خلق الله ﷺ .

قال ابن حجر الهيتمي رحمه الله تعالى في شرح الهمزية للإمام البوصيري : و لمّا اجتمع فيه ﷺ من خصال الكمال و صفات الجلال و الجمال ما لا يحصره حدّ ولا يحيط به عدّ ، أثنى الله تعالى عليه في كتابه العزيز فقال عزَّ من قائل : وَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ . فوصفه بالعظم . و زاد في المدحة بإتيانه "بِعَلىٰ" المشعرة بأنّه ﷺ استعلى على معالي الأخلاق و استولى عليها . فلم يصل إليها مخلوق غيره . و وصف بالعظم دون الكرم الغالب في وصفه به . لأنّ كرمه يراد به السماحة و الدماثة . و خلقه ﷺ غير مقصور على ذلك . بل كما كان عنده غاية الرحمة للمؤمنين كان عنده غاية الغلظة و الشدّة على غيرهم . فاعتدل فيه الإنعام و الانتقام . ولم تكن له همّة سوى الله تعالى . فعاشر الخلق بخلقه و باينهم بقلبه . و من ثَمّ ورد بسند فيه ضعف : إنّ الله بعثني بتمام مكارم الأخلاق و كمال محاسن الأفعال . و في رواية الموطا بلاغًا : بعثت لأتمم مكارم الأخلاق . فكلّ خلق حميد اندرج تحت خلقه ﷺ . و من ثَمّ قالت عائشة رضي الله عنها :كان خلقه القرآن . انتهى .

و قال العلامة عبد الرؤوف المناوي المتوفّى سنة ١٠٣٠هـ في شرحه الكبير على الجامع الصغير عند قوله ﷺ " إنّما بعثت لأتمم صالح الأخلاق "كما رواه ابن سعد و البخاري في الأدب و الحاكم و البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه : لأتمم . أي لأجل أن أكمل صالح الأخلاق . و في رواية : مكارم الأخلاق . بعد ما كانت ناقصة و أجمعها بعد التفرقة . قال الحكيم : أنبأنا به ﷺ أنّ الرسل قد مضت فلم تتم هذه

الأخلاق . فبعث بإتمام ما بقي عليهم .

و قال بعضهم : أشار ﷺ إلى أنّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله بعثوا بمكارم الأخلاق و بقيت بقية . فبعث المصطفى ﷺ بما كان معهم و بتمامها .

و قال الحسن رحمه الله تعالى : صالح الأخلاق هي صلاح الدين و الدنيا و المعاد التي جمعها ﷺ في قوله : اللّهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري . و أصلح لي دنياي التي فيها معاشي . و أصلح لي آخرتي التي فيها معادي .

و قال العارف ابن عربي : معنى الحديث أنّه لما قسمت الأخلاق إلى مكارم و إلى سفساف و ظهرت مكارم الأخلاق كلّها في شرائع الدين التي أتى بها الرسل و تبين سفسافها من مكارمها عندهم وما في العالم إلاّ أخلاق الله . وكلّها مكارم . فما ثم سفساف أخلاق فبعث ﷺ بالكلمة الجامعة إلى الناس كافّة و أوتي جوامع الكلم . وكلّ نبيّ تقدّمه على شرع خاصّ . فأخبر عليه الصلاة والسلام بأنّه بعث ليتمم صالح الأخلاق . فعاد الكل مكارم أخلاق . فما ترك في العالم سفساف أخلاق جملة واحدة لمن عرف مقصد الشرع .

فأبان لنا مصارفه بهذا المسمى سفسافاً من نحو حرص و حسد و شره و طمع و بخل وكلّ صفة مذمومة . فأعطانا لها مصارف إذا أجريناها لها عادت مكارم أخلاق . و زال عنها اسم الذم . فكانت محمودة . فتمم الله به ﷺ مكارم الأخلاق . فلا ضدّ له كما أنّه لا ضدّ للحق . لكن منّا من عرف المصارف و منّا من جهلها . انتهى ما في شرح الجامع .

و قال الشيخ إسماعيل حقي صاحب روح البيان في قوله تعالى " وَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ " :كلمة " على " للاستعلاء . فدلّت على أنّه عليه الصلاة والسلام مشتمل على الأخلاق الحميدة و مستول على الأفعال المرضيّة حتى صارت بمنزلة الأمور الطبيعية له عليه الصلاة والسلام . و لهذا قال تعالى : قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ . أي فيما يظهر لكم من أخلاقي ، لأنّ المتكلّف لا يدوم أمره طويلاً بل يرجع إليه الطبع .

ثم قال : و إنّما أفرد الخلق و وصفه بالعظمة كما وصف القرآن بالعظيم لينبّه على أنّ ذلك الخلق الذي هو عليه جامع لمكارم الأخلاق . اجتمع فيه شكر نوح و خلة إبراهيم و إخلاص موسى و صدق

وعد إسماعيل و صبر يعقوب و أيوب و اعتذار داود و تواضع سليمان و عيسى و غيرها من أخلاق سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما قال تعالى "فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ" . إذ ليس هذا الهدى معرفة الله لأنّ ذلك تقليد . و هو غير لائق بالرسول عليه الصلاة والسلام . ولا الشرائع لأنّ شريعته ناسخة لشرائعهم و مخالفة لها في بعض الفروع .

و المراد منه الاقتداء بكلّ منهم فيما اختص به من الخلق الكريم . إذ كان كل منهم مختصًّا بخلق حسن غالب على سائر أخلاقه . فلما أمر ﷺ بذلك فكأنّه أمر بجمع جميع ما كان متفرّقا فيهم . فهذه درجة عالية لم تتيسر لأحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .كما قال بعض العارفين :

لكلِّ نبيٍّ في الأنام فضيلة و جملتها مجموعةٌ لمحمد

و في التأويلات النجمية : كان خلقه ﷺ القرآن بل كان هو القرآن . قلت : أي مبالغةً في الاتصاف بما فيه كما أنّه عليه الصلاة والسلام عين رحمة كذلك . و قال الجنيد قدّس الله سرّه :كان ﷺ على خلق عظيم لجوده بالكونين .

له هِمَمٌ لا مُنتهى لكبارها و هِمَّتُهُ الصغرى أجَلُّ من الدهرِ

و قال أبو الحسن النوري رحمه الله تعالى : كيف لا يكون خلقه عظيمًا و قد تجلّى الله بسرّه بأنوار أخلاقه .

و في تلقيح الأذهان لابن عربي : أوتي عليه الصلاة والسلام جوامع الكلم لأنّه مبعوث لتتميم مكارم الأخلاق . و لذلك قال تعالى : وَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ . و هو عين كونه على الصراط المستقيم . قال ﷺ : إنّ لله ثلاثمائة و ستين خلقًا . من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة .

قال أبوبكر رضي الله عنه : هل فيّ منها يا رسول الله شيء ؟ قال : كلّها فيك يا أبابكر . و أحبّها إلى الله السخاء . انتهى ما ذكره الشيخ إسماعيل باختصار .

و قال العلامة المناوي في شرح الجامع الصغير عند شرح الحديث " وكان ﷺ أحسن الناس خلقًا " ، رواه مسلم و أبوداود عن أنس رضي الله عنه : لحيازته ﷺ جميع المحاسن و المكارم و تكاملها فيه . ولما اجتمع فيه من كمال الخصال و صفات الجمال و الجلال ما لا يحصره عدّ و لا يحيط به حدّ أثنى الله عليه بقول : وَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ . وكمال الخلق إنّما ينشأ عن كمال العقل . لأنّه الذي تقتبس به الفضائل

و تتجنب الرذائل . انتهى كلام المناوي .

و قال العارف الكبير الشيخ السهروردي رحمه الله تعالى في كتابه العوارف عند بيان قول عائشة رضي الله عنها " و كان خلقه القرآن " : في قولها ذلك رمز غامض و إيماء خفي إلى الأخلاق الربانية . فاحتشمت من الحضرة الإلهية أن تقول :كان متخلّقًا بأخلاق الله تعالى . فعبّرت عن المعنى بقولها "كان خلقه القرآن " استحياءً من سبحات الجلال و سترًا للحال بلطيف المقال . و هذا من وفور عقلها و كمال أدبها . انتهى كلامه .

و قال بعض العارفين : لمّا كان خلقه أعظم خلق بعثه الله إلى جميع العالمين . انتهى .

و علم من كلام عائشة رضي الله عنها أنّ كمالات خلقه عليه الصلاة والسلام لا تتناهى كما أنّ معاني القرآن لا تتناهى ، و أنّ التعرض لحصر جزئيّاتها غير مقدور للبشر . ثم ما انطوى عليه صلى الله عليه وسلم من كريم الأخلاق لم يكن بالكتاب و رياضة . و إنّما كان في أصل خلقته بالجود الإلهيّ و الإمداد الرحماني الذي لم تزل تشرق أنواره في قلبه إلى أن وصل لأعظم غاية و أنهى نهاية .

قال ابن حجر الهيتمي في شرح الهمزية : و اعلم : أنّ كمال الخلق أنّما ينشأ عن كمال العقل . لأنّه الذي به تقتبس الفضائل و تجنب الرذائل . و العقل لسان الروح و ترجمان البصيرة . فهو جوهر الإنسان و لكن جوهره البصيرة . و الحديث المشهور " أوّل ما خلق الله العقل قال له اقبل إلخ " موضوع . و عقل نبيّنا صلى الله عليه وسلم وصل في الكمال إلى غاية لم يصل إليها ذو عقل . و من ثم روى أبو نعيم و ابن عساكر عن وهب : أنّه وجد في أحد و تسعين كتابًا أنّ الله لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله صلى الله عليه وسلم إلّا كحبة رمل من بين رمال جميع الدنيا . و مما يقطع بذلك سياسته عليه الصلاة والسلام للعرب الذين هم كالوحوش الشاردة . و صبره على طبائعهم المتنافرة و المتباعدة حتى قاتلوا دونه أهاليهم و هجروا في رضاه أوطانهم و أحبابهم مع أنّه لم يطلع على سير الماضين ولا تعلم من العقلاء المعاصرين . انتهى كلام ابن حجر رحمه الله تعالى .

الوجه السابع و الثلاثون : ومما فضل الله به نبيّنا صلى الله عليه وسلم على جميع الأنبياء أنّ الله تعالى أجلسه على العرش تشريفًا و تبجيلاً . و هذه مزيّة لم يثبت لأحد غيره عليه الصلاة والسلام . روي هذا عن كثير من

الأئمة منهم الإمام إسحاق بن راهويه و أبو قلابة و ابن جرير الطبري و الدار قطني و عبد الله ابن الإمام أحمد . و لعلّه سمع ذلك من أبيه الإمام أحمد . قال الإمام ابن القيم رحمه الله في بدائع الفوائد ج ٣ ص ٣٩ : قال القاضي : صنّف المروزي كتابًا في فضيلة النبي ﷺ . و ذكر فيه إقعاده على العرش .

قال القاضي : و هو قول أبي داود و أحمد بن أصرم و يحيى بن أبي طالب و أبي بكر بن حماد و أبي جعفر الدمشقي و عياش الدوري و إسحاق بن راهويه و عبد الوهاب الوراق و إبراهيم الحربي و هارون ابن معروف و محمد بن إسماعيل السلمي و محمد بن مصعب العابد و أبي بكر بن صدقة و محمد بن بشر بن شريك و أبي قلابة و علي بن سهل و أبي عبد الله بن عبد النور و أبي عبيد و الحسن بن فضل و هارون بن العباس الهاشمي و إسماعيل بن إبراهيم الهاشمي و محمد بن عمران الفارسي الزاهد و محمد بن يونس البصري و عبد الله ابن الإمام أحمد و المروزي و بشر الحافي . انتهى .

قلت : لعل إقعاده تعالى للنبي ﷺ على العرش كان ليلة المعراج . قال ابن القيم : قلت : و هو قول ابن جرير الطبري و إمام هؤلاء كلّهم مجاهد إمام التفسير . و هو قول أبي الحسن الدار قطني . و من شعره فيه :

حديثُ الشفاعة عن أحمَدٍ   إلى أحمدَ المصطفى مُسندُهُ
و جاء حديثٌ بإقعادِه   على العرشِ أيضًا فلا نَجحَدُهُ
أمِرُّوا الحديثَ على وجهِه   ولا تُدْخِلُوا فيه ما يُفْسِدُهُ
ولا تُنْكِرُوا أنّه قاعدٌ   ولا تُنْكِرُوا أنّه يُقْعِدُهُ

الوجه الثامن و الثلاثون : له عليه الصلاة والسلام أسماء كثيرة . و مع هذا كلّ اسم له عليه الصلاة والسلام حامل لمعنى عظيم و مشير إلى أسرار لطيفة و حقائق شريفة . و كثرة الأسماء تدلّ على شرف المسمّى و قوّته و هيبته . و لذا كثر أسماء الله تعالى و أسماء مكة المكرمة و المدينة المشرّفة . و رأيت لصاحب القاموس رسالة جمع فيها أسماء مكة الشريفة .

قال الحافظ السيوطي رحمه الله في الخصائص : من خصائصه ﷺ أنّ له ألف اسم و اشتقاق اسمه

من اسم الله ، و أنّه تسمّى من أسماء الله بنحو سبعين اسمًا ، و أنّه سمّي أحمد و لم يسمّ به أحد قبله . انتهى .

و روى البخاري و مالك و مسلم و الترمذي عن جبير بن مطعم مرفوعًا : أنّ لي أسماءً . أنا محمد و أنا أحمد و أنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي و أنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر و أنا العاقب .

قال العلامة عبد الرؤوف المناوي المتوفّى سنة ١٠٣٠ھ في شرح الجامع الصغير : و له عليه الصلاة والسلام أسماء أخر . بلغها بعضهم كما قال النووي في المجموع و تهذيب الأسماء و اللغات ألفًا . لكن أكثرها من قبيل الصفات . قال ابن القيم : فبلوغها ذلك باعتبارها ، و مسماها واحد باعتبار الذات . فهي مترادفة باعتبار ، متباينة باعتبار . انتهى .

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى : و قد خصّه الله تعالى بأن سماه من أسمائه الحسنى بنحو من ثلاثين اسمًا . و قال ابن دحية في كتابه المستوفى : إذا فحص عن جملتها من الكتب المتقدمة و القرآن و الحديث وفى الثلاثمائة اسم . انتهى .

و في كتاب أحكام القرآن للقاضي أبي بكر بن العربي : قال بعض الصوفية : لله تعالى ألف اسم ، و للنبي صلى الله عليه وسلم ألف اسم . انتهى .

و في القول البديع للحافظ السخاوي رحمه الله تعالى وغيره من كتب الأعلام ذكر ما يزيد على أربعمائة اسم . و زاد نحو ضعفها الحافظ الشامي تلميذ الحافظ السيوطي كما ذكر الزرقاني في شرح المواهب و في شرح العلامة سليمان الجمل لدلائل الخيرات . و قال ابن فارس فيما حكي عنه أنّ أسماءه صلى الله عليه وسلم ألفان و عشرون . انتهى .

الوجه التاسع و الثلاثون و المتمم الأربعين : أنّه عليه الصلاة والسلام أحبّ الخلق إلى الله و إلى كلّ مؤمن كما روي في غير ما حديث . فعلم أنّه أفضل الخلق حتى الملائكة و الرسل . و أيضًا صحّ عن عبد الله ابن سلام رضي الله عنه أنّه قال : إنّ النبي عليه الصلاة والسلام أفضل من الأنبياء و الملائكة .

اعلم : أنّ تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلق من العقائد الضرورية الواجبة . قال ابن حجر الهيتمي رحمه الله تعالى في شرح الهمزية : ولا يظن بأحد من أئمة المسلمين أنّه يتوقف في أفضلية نبينا على جميع الملائكة و كذلك سائر الأنبياء . و أطال في الحط و الردّ على من توقف في ذلك . و زعم أنّ هذا ليس مما

كلّفنا بمعرفته . ثم قال : و هذا الزعم باطل . فإنّ هذا من مسائل أصول الدين الواجبة الاعتقاد على كلّ مكلّف و البيان بسوق أدلّتها و إيضاحها على كلّ من تأهّل لذلك .

و قد صحّ في الحديث المشهور : ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان . من كان الله و رسوله أحبّ إليه مما سواهما . فتأمّل قوله " مما سواهما " تجده ظاهرًا بل صريحًا في كلّ ما ذكرناه .

و قال أيضًا : و اختيار الباقلاني و الحليمي أفضلية الملائكة يمكن حمله على غير نبينا ﷺ . و بهذا جزم بعض أجلّاء تلامذته كالبدر الزركشي ، أو على تفضيل في نوع خاص أي لأنّه قد يوجد في المفضول مزيّة بل مزايا لا توجد في الفاضل . انتهى .

و صحّ عن بحيرا الراهب وهو من علماء أهل الكتاب : هذا سيّد العالمين . و صحّ عن عبد الله ابن سلام رضي الله عنه إمام أهل الكتاب أنّه ذكر بالمسجد يوم الجمعة أمورًا ، منها : و أنّ أكرم خليقة الله على الله أبو القاسم ﷺ . فقيل له : فأين الملائكة ؟ فضحك ، و قال للسائل : يا ابن أخي ! هل تدري ما الملائكة ؟ إنّما الملائكة خلق كخلق السماوات و الأرض و الرياح و السحاب و الجبال و سائر الخلق التي لا تعصي الله شيئًا . و إنّ أكرم الخلق على الله أبو القاسم ﷺ . و بيّن السراج البلقيني أنّ هذا في حكم المرفوع . وهو كذلك . فإنّه من أجلّ الصحابة . فلا يقول إلّا عنه ﷺ أو عما صحّ في التوراة .

الباب الثالث
في إيضـــاح السؤال

قال التلمساني رحمه الله تعالى في شرح الشفا : قد اشتهر سؤال بين المتأخّرين في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في قوله "كما صليت على إبراهيم " . و هو أنّ المشبه دون المشبّه به . فكيف تطلب في الصلاة صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم تشبه الصلاة على إبراهيم عليه الصلاة والسلام . انتهى .

و قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في جلاء الأفهام : إنّ النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من إبراهيم عليه الصلاة والسلام . فكيف طلب له من الصلاة ما لإبراهيم عليه الصلاة والسلام مع أنّ المشبّه به أصله أن يكون فوق المشبّه ، فكيف الجمع بين هذين الأمرين المتنافيين ؟ انتهى .

و في القول البديع للسخاوي رحمه الله تعالى : قال شيخنا : اشتهر السؤال عن موقع التشبيه في قوله "كما صليت على إبراهيم " مع أنّ المقرّر أنّ المشبّه دون المشبّه به . و الواقع ههنا عكسه . لأنّ محمدًا صلى الله عليه وسلم وحده أفضل من إبراهيم عليه الصلاة والسلام و آل إبراهيم لاسيما و قد أضيف إليه آل محمد . و قضية كونه أفضل أن تكون الصلاة المطلوبة له أفضل من كلّ صلاة حصلت أو تحصل لغيره . انتهى .

و قال العلامة الهندي الشيخ محمد أعلى بن علي التهانوي في كشّاف اصطلاحات الفنون : القاعدة في المدح تشبيه الأدنى بالأعلى ، و في الذم تشبيه الأعلى بالأدنى . فيقال في المدح : فصّ كالياقوت ، و في الذم : ياقوت كالزجاج . و كذا في السلب . و منه قوله تعالى " يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ " أي في النزول لا في العلو ، و قوله تعالى " أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ " أي في سوء الحال أي لا نجعلهم كذلك . نعم أورد على ذلك "مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ" . فإنّه شبّه فيه الأعلى بالأدنى لا في مقام السلب . و أجيب بأنّه

للتقريب إلى أذهان المخاطبين ، إذ لا أعلى من نوره فيشبّه به . كذا في الإتقان .

أقول : هكذا أورد في تشبيه الصلاة على نبينا و آله ﷺ بالصلاة على إبراهيم و آله عليه الصلاة والسلام بأنّ الصلاة على نبيّنا أكمل و أعلى لقوله تعالى " إِنَّ ٱللَّهَ وَ مَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَ سَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا " ، و لقوله تعالى " هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّ عَلَيۡكُمۡ وَ مَلَٰٓئِكَتُهُۥ " الآية . و لأنّ نبينا ﷺ سيّد المرسلين بالإجماع ، لا خلاف فيه لأحد من المؤمنين . فالصلاة عليه أشرف و أكمل و أعلى بلا ريب . فيلزم تشبيه الأعلى بغير الأعلى . انتهى ما في الكشاف .

و أجيب بوجوه كثيرة ، نذكرها في الأبواب الآتية . والله حسبي و نعم الوكيل .

الباب الرابع
في الجواب الأوّل

قالت طائفة من العلماء : هذا السؤال و الطلب شرع ليتخذه الله خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً . و قد أجابه الله تعالى إلى ذلك كما ثبت عنه في الصحيح : ألا و إنّ صاحبكم خليل الرحمن . يعني نفسه . و في رد المحتار : أنّ المراد صلاة خاصة يكون به نبينا ﷺ خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً . انتهى .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى بعد ذكره هذا الجواب فى كتابه جلاء الأفهام ، ما حاصله : أنّ هذا الجواب فاسد . فإنّ مضمونه أنّه بعد أن اتخذ الله خليلاً لا تشرع الصلاة عليه على هذا الوجه . و هذا من أبطل الباطل .

قلت : يمكن أن يقال في دفع ما قال ابن القيم رحمه الله تعالى : إنّ الصلاة على هذا الوجه بقيت مشروعة أداءً لحق أبوّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام و تنويهًا بشأنه ، أو إظهارًا لمحبّة المصلي للنبي ﷺ . فإنّ هذه الصلاة تضمنت أمورًا ثلاثةً :

الأمر الأوّل طلب أن يتخذه الله خليلاً .

و الثاني تبجيل إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

و الثالث إظهار محبة الطالب المصلّي للنبي ﷺ حيث سأل له الرفعة و العظمة .

و الأمر الأوّل و إن لم يكن مقتضيًا لمشروعية الصلاة على هذا الوجه لكنّ الأمرين الأخيرين يستدعيان مشروعيتها على الوجه المذكور . فاندفع ما قال ابن القيم رحمه الله تعالى .

أو يقال في الجواب : شرعت الصلاة على هذا الوجه بعد حصول نفس الخلّة طلبًا للزيادة في دائرة الخلّة و المقام الأعلى و المنصب الأسنى في هذه الدائرة . إذ الخلّة و إن كانت فوق جميع المقامات إلّا أنّها متنوّعة المراتب ، بعضها فوق بعض . ألا ترى أنّ الإنسان فوق جميع المخلوقات ، و مع ذلك تتفاوت مراتب أفراده . منهم وليّ و منهم شهيد و منهم بدل و منهم قطب و منهم صديق و منهم نبي و منهم رسول . ثم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام شتّى المراتب . قال الله تعالى : تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ . فمقامات القرب من الله لا تحصى ، و مدارج معرفة الله لا تتناهى . و فوق كلّ مطلوب مطلوب . و لذا أمره الله تعالى بطلب العروج في المعارف فقال : وَ قُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا .

و في حديث الشفاعة الكبرى إيماء إلى هذا حيث قال عليه الصلاة والسلام فيه كما رواه أنس رضي الله عنه : فأقول : أنا لها فأنطلق فأستاذِن على ربّي فتؤذن لي . فأقوم بين يديه ، فأحمده بمحامد لا أقدر عليه إلّا أن يلهمنيه الله صلى الله عليه وسلم .

و في رواية أبي هريرة رضي الله عنه : فآتي تحت العرش فأقع ساجدًا لربّي . ثم يفتح الله عليّ من محامده و حسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد قبلي .

قال في لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي رحمه الله تعالى و أبي الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى عند ذكر هذا الحديث : و فيه من الفوائد أنّ المعارف لا تتناهى لقوله عليه الصلاة والسلام : لا أقدر عليه إلّا أن يلهمنيه الله صلى الله عليه وسلم . و يشهد له قوله عليه الصلاة والسلام : لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك . و يشهد له قوله تعالى : وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا . انتهى .

و في رواية حذيفة رضي الله عنه لحديث الشفاعة : أنّ الخليل عليه الصلاة والسلام قال : لست بصاحب ذلك . إنّما كنت خليلًا من وراء وراء . معناه : لم أكن في مدارج الخلّة و التقريب و الإدلال بمنزلة خلّة محمد صلى الله عليه وسلم . و إنّما كنت خليلًا من وراء وراء الخليل محمد صلى الله عليه وسلم . و أنّ خلته مقدّمة مرتفعة عن خلّتي بمرتبتين بناءً على أنّ وراء وراء يفيد معنى المثنى أو بمراتب إن أفاد معنى التكرار و الجمع . ففي هذا الحديث إشارة إلى أن للخلّة مدارج ، بعضها فوق بعض ، و إلى أنّ مقامات القرب لا تحصى ، و مدارج المنن لا تتناهى . والله أعلم .

و في عوارف المعارف للعارف بالله الإمام السهروردي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عند البحث على الأحوال و المقامات : و مقدورات الحق غير متناهية و مواهبه غير متناهية . و لهذا قال بعضهم : لو أعطيت روحانية عيسى و مكالمة موسى و خلّة إبراهيم عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لطلبت ما وراء ذلك . لأنّ مواهب الله لا تنحصر . و هذه أحوال الأنبياء ولا تعطى الأولياء .

ولكن هذه إشارة من القائل إلى دوام تطلع العبد و تطلبه ، و عدم قناعته بما هو فيه من أمر الحق تعالى . لأنّ سيّد الرسل صلوات الله عليه و سلامه نبّه على عدم القناعة و قرع باب الطلب و استنزال بركة المزيد بقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : كلّ يوم لم أزدد فيه علمًا فلا بورك لي في صبيحة ذلك اليوم . و في دعائه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : اللّهم ما قصر عنه رأيي و ضعف فيه عملي و لم تبلغه نيتي و أمنيتي من خير وعدته أحدًا من عبادك أو خير أنت معطيه أحدًا من خلقك فأنا أرغب إليك و أسألك إيّاه .

فاعلم : أنّ مواهب الحق لا تنحصر . و الأحوال مواهب . و هي متصلة بكلمات الله التي ينفد البحر دون نفادها و تنفد أعداد الرمال دون أعدادها . انتهى .

فالمطلوب من هذه الصلاة الزيادة في دائرة الخلّة و أن يفوز هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مقامات الخلّة بمقام هو أسنى المقامات و أجلى المراتب و أجلّ المدارج . ثم لما حصلت له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخلّة نفسها ببركة هذه الصلاة طلب له بهذه الصلاة الزيادة أيضًا تبرّكًا و تفاؤلاً .

أو يقال : جعلت الصلاة على إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ميزانًا للزيادة المسؤولة له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دائرة الخلّة بعد حصول نفس الخلّة . أي لتكن الزيادة بقدر ما صليت على إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . هذا . والله أعلم .

الباب الخامس
في الجواب الثاني

إنّه عليه الصلاة والسلام كان أفضل من إبراهيم عليه الصلاة والسلام و آله . و كذا كانت صلاته أجلّ من صلاة إبراهيم عليه الصلاة والسلام و آله . ثم إنّما قال ذلك تواضعًا و تنويهًا بشأن التواضع و تعليمًا لأمّته . و من تواضع لله رفعه الله . فشرع هذه الصلاة لأمّته ليكتسبوا بذلك الفضيلة و الرفعة .كذا ذكر كثير من العلماء . منهم الحافظ العيني و ابن حجر و السخاوي و العسقلاني و النووي رحمهم الله تعالى و غيرهم .

و من قبيل التواضع ما في صحيح البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا يقولنّ أحدكم : إنّي خير من يونس بن متّى . و في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال : لا ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متّى .

قال النووي رحمه الله تعالى : قال العلماء : هذه الأحاديث تحتمل وجهين : أحدهما أنّه عليه الصلاة والسلام قال هذا قبل أن يعلم أنّه أفضل من يونس عليه الصلاة والسلام . فلمّا علم ذلك قال : أنا سيّد ولد آدم . و لم يقل هنا : إنّ يونس عليه الصلاة والسلام أفضل منه أو من غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . و الثاني أنّه عليه الصلاة والسلام قال هذا زجرًا عن أن يتخيل أحد من الجاهلين شيئًا من حط مرتبة يونس عليه الصلاة والسلام من أجل ما في القرآن العزيز من قصّته . انتهى .

و يضعف الوجه الأوّل بأنّ راوي هذا الحديث أبوهريرة رضي الله عنه و هو متأخّر الإسلام جدًّا . و ما أسلم إلّا سنة سبع . فيبعد أنّه عليه الصلاة والسلام لم يعلمه الله بتفضيله على جميع الأنبياء إلّا بعد هذا . فالأحسن أن يقال : إنّه عليه الصلاة والسلام قال ذلك تواضعًا .

فائدة

ههنا وجوه أخر، ليس هذا موضع بسطها. ألطفها ما نقله القرطبي في تذكرته عن إمام الحرمين، حاصله: أنّه إنّما نهى عن تفضيله على يونس عليه الصلاة والسلام نفيًا للجهة لئلا يتوهم من ارتقائه صلى الله عليه وسلم إلى أعلى المنازل مقام قاب قوسين أو أدنى أنّه أقرب إلى الله تعالى من يونس عليه الصلاة والسلام الذي التقمه الحوت و نزل به في قعر البحر، بل هما متساويان في القرب من الله تعالى بعلمه. إذ القرب أو البعد المكانيّ من أوصاف الأجسام تنزه سبحانه عن ذلك. هذا. و لم يخبر إمام الحرمين بهذا المنزع اللطيف حاضري مجلسه حتى التزم واحد منهم لضيفه بألف دينار. فانظر همّة هؤلاء الطلبة الأخيار. انتهى.

قال الإمام الشعراني رحمه الله تعالى في اليواقيت: فإن قلت: فما الدليل على كونه صلى الله عليه وسلم أفضل من أبيه إبراهيم مع أنّه صلى الله عليه وسلم أمرنا أن نسأل الله أن يصلي عليه كما صلّى على إبراهيم عليه الصلاة والسلام. و القاعدة أن يكون المشبّه به أفضل من المشبّه.

فالجواب: ليس المراد ما يتبادر من ذلك إلى الاذهان. و إنّما النكتة في قوله "كما صلّيت على إبراهيم" أنّه صلى الله عليه وسلم كان مسؤولاً في تعليم الصحابة كيفية الصلاة عليه. فلمّا قالوا له: كيف نصلّي عليك؟ ما وسعه إلّا التواضع. فقال قوله "كما صلّيت على إبراهيم". و أنت إذا قلت لإنسان: علّمني ألفاظًا أفخمك بها، لا يقدر ينطق لك بألفاظ تعطي التفخيم، مع كونه أقل حياءً من الشارع عليه الصلاة والسلام بيقين. فافهم. انتهى.

و من التواضع قوله عليه الصلاة والسلام في حق يوسف عليه الصلاة والسلام "لو كنت مكانه لأجبت الداعي"، و في حق إبراهيم عليه الصلاة والسلام "نحن أحقّ بالشك من إبراهيم". و للعلماء في ذلك كلام طويل. شكر الله مساعيهم.

و من التواضع مع الله و تعليمه الأمّة ذلك استغفاره صلى الله عليه وسلم من ذنوبه مع أنّه كان معصومًا. و يحتمل غير ذلك كما قال الغزالي في الإحياء في قوله عليه الصلاة والسلام: إنّه ليغان على قلبي فاستغفر الله تعالى في اليوم و الليلة سبعين مرة. المراد بذلك أنّه عليه الصلاة والسلام كان دائم الترقي. فكان يستغفر الله صلى الله عليه وسلم عن كل مقام ترقّى عنه. فإنّه ثم مقام رفيع و مقام أرفع. انتهى بحاصله.

الباب السادس
مشتمل على جوابين

ذكر النووي رحمه الله تعالى في شرح صحيح مسلم نقلاً عن القاضي عياض : أنّ أظهر الأقوال أنّ نبينا صلى الله عليه وسلم سأل ذلك لنفسه و لإهل بيته ليتم النعمة عليهم كما أتمّها على إبراهيم و على آل إبراهيم عليه الصلاة والسلام . و قيل : بل سأل ذلك لأمّته . انتهى كلامه . فتفكّر و تدبّر .

فصل

قال الفخر الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره : و هنا سؤال وهو أن يقال : ما الحكمة في ذكر إبراهيم مع محمد عليهما الصلاة والسلام في باب الصلاة ، حيث يقال "اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم" .

ثم قال : و أجابوا عنه من وجوه :

أوّلها : أنّ إبراهيم دعا لمحمد حيث قال : رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ . فلمّا وجب للخليل على الحبيب حق دعائه له قضى عنه حقّه بأن أجرى ذكره على ألسنة أمّته إلى يوم القيامة .

و **ثانيها :** أنّ إبراهيم سأل ذلك ربّه بقوله : وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ . يعني أبق لي ثناءً حسنًا في أمّة محمد صلى الله عليه وسلم . فأجابه الله إليه و قرن ذكره بذكر حبيبه إبقاءً للثناء الحسن عليه في أمّته .

و **ثالثها :** أنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان أبا الملة لقوله تعالى "مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ" . و محمد صلى الله عليه وسلم كان

أبا الرحمة . و في قراءة ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ : النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم . و هو أبٌ لهم . و قال تعالى : بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ . و قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ : إنّما أنا لكم مثل الوالد . يعني في الرأفة و الرحمة . فلمّا وجب لكلّ واحد منهما حق الأبوة من وجه قرن بين ذكرهما في باب الصلاة .

و رابعها : أنّ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان منادي الشريعة في الحجّ . قال تعالى : وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ . و كان محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منادي الدين . قال تعالى : رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا . فجمع الله بينهما في الذكر الجميل . انتهى .

قلت : و ههنا وجوه أخر ، نذكر بعضًا منها . فأقول :

و الخامس : أنّ إبراهيم أفضل الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بعد نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فقرن اسم الأفضل بالأفضل .

و السادس : أنّ إبراهيم أبوه الأقرب من الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ، فخصّه بالذكر أداءً لحق الأبوّة . و أمّا آدم و نوح و غيرهما ممن قبل إبراهيم من الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فهم أبعد زمانًا .

و ذكر بعض المحققين وجوهًا أخر :

منها : ما قال العارف بالله الشيخ علي دده البوسنوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ المتوفّى سنة ١٠٠٧هـ ، و هو خليفة مصلح الدين الخلوتي ، على ما في خلاصة الأثر في كتابه خواتم الحكم : السؤال الثالث بعد المائتين : ما الحكمة في جعل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مشتركًا في الصلاة مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله "كما صلّيت على إبراهيم" .

الجواب : قال بعض العلماء : شاركه في الصلاة عليه لأنّه دعا لنا ولم نكن نحن موجودين . فجعل ذلك مكافأة له . قيل : قد دعا لنا رسولان . فكافأهما تعالى بالصلاة والسلام عليهما . الأوّل نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حيث قال : رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ . الآية . فجعل الله تعالى مكافأته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقوله : سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ . و إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ دعا لنا فقال : رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ . فكافأه الله تعالى بما أمرنا بالصلاة عليه .

و قيل : ضمه مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصلاة لأنّه كان خليل الله و محمد حبيب الله . فقرن اسمهما في الصلاة . و لأنّ الحبيب يحبّ أن يذكر أحبابه و أخلاءه .

و قال إمام المحقق النيسابورى : لأنّه سأل الله أن يبعث نبيًّا من ذرّيّة إسماعيل فقال : رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ . و لذا قال ﷺ : أنا دعوة أبي إبراهيم . فكافأه شكره و أثنى عليه مع نفسه بالصلاة التي صلى الله و ملائكته عليه ﷺ . و هذه الصلاة من الحق تعالى عليه . و هي قرة عينه . لأنّها أكمل مظاهر الحق و مشاهدة تجليّاته و مجامع أسراره . فالصلاة مشتركة اشتراكًا قوليًّا أو فعليًّا كالصلوات الخمس . فافهم سرّ الصلاتين و اشتراكهما بين رتبتي الخلّة و المحبّة لتجلى الحق بظهور الهوية و سريانها في أكمل خلّة جامعة .

و ذكر بعض العارفين في شرح الفصوص في الفص الإبراهيميّ : أنّ خلّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام كانت مستفادة من حيث الباطن من الخلّة المحمدية الثابتة لحقيقته أوّلًا و آخرًا . فأكمل ظهور الخلّة الأحمديّة كان في وعاء الإبراهيمية . و لذلك كان إسماعيل عليه الصلاة والسلام وعاء لها من ذرّيّته . فمن اطّلع على ذلك السرّ فقد وقف على سرّ اشتراك الصلاة عليه و على ذرّيّته في قوله "كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم" . فإنّه ﷺ داخل في آل إبراهيم معنى . فصلاته على نفسه ظاهرًا و باطنًا . و هو المقام المحمديّ الجامعيّ ﷺ .

و قد صرّح أهل التحقيق بأنّ أكمل مظهر للحقيقة المحمدية حضرة الخليلية . ثم حضرة الكليمية . و لهذا السرّ العلى شاركهما رسول الله ﷺ . فقد صلى الله عليه بالذات و صلى عليهم بوساطته لما ورد : إذا صلّيتم عليّ فصلّوا على موسى لأنّ الخليل و الكليم أشدّ مناسبة فخُصَّا و شوركا في الصلاة و الثناء على الحضرة المحمدية .

و في الخبر : أنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام رأى في المنام جنة عريضة مكتوبًا على أشجارها " لا إله إلّا الله محمد رسول الله" . فسأل جبريل عليه السلام عنها . فأخبره بقصّتها . فقال : يا ربّ ! أجر ذكري على لسان أمّته ﷺ .

و أيضًا أمرنا بالصلاة على إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأنّ قبلتنا قبلته و مناسكنا مناسكه و الكعبة بناؤه و ملّته متبوعة الأمم . فأوجب الله على الأمّة ثناءه عليه الصلاة والسلام . انتهى كلام الشيخ علي دُدَّه رحمه الله تعالى .

الباب السابع
في الجواب الخامس

و هذا ما نسب إلى الإمام الشافعي رحمه الله تعالى و هو أنّ التشبيه إنّما هو لأصل الصلاة بأصل الصلاة . فهو كقوله تعالى : إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ . و قوله : كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ . فإنّ المختار فيه : أنّ المراد أصل الصيام لا وقته و عينه . و هو كقول القائل : أحسن إلى ولدك كما أحسنت إلى فلان . و يريد بذلك أصل الإحسان لا قدره . و منه قوله تعالى : وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ .

و رجع هذا الجواب القرطبي في المفهم و اختاره النووي في شرح مسلم و جعله من أحسن الأجوبة ، حيث قال فيه : و المختار في ذلك أحد ثلاثة أقوال حكاه بعض أصحابنا عن الشافعي رحمه الله تعالى . فذكر قولاً ثم قال : و القول الثاني معناه اجعل لمحمد صلى الله عليه وسلم و آله صلاة منك كما جعلتها لإبراهيم عليه الصلاة والسلام و آله . فالمسؤول المشاركة في أصل الصلاة لا قدرها . انتهى .

قلت : هذا الجواب مبني على عدم تسليم قاعدة كون المشبّه به أقوى و أعلى من المشبّه . أو يقال : مبناه على الفرق بين تشبيه شيء بشيء في تحقق أصل وجه الشبه من غير نظر إلى أمور أخر ، فلا يجب فيه أن يكون المشبّه به أقوى ، و بين تشبيه شيء بشيء في أمور زائدة على أصل وجه المشاركة . فينبغي فيه أن يكون المشبّه به أقوى . والله أعلم .

ثم أقول : ما أحسن هذا الجواب جواب الإمام الشافعي رحمه الله تعالى . و حق ما قيل : كلام الإمام إمام الكلام . حيث يدفع به الإشكال في كثير من التشبيهات . و يعلم من كلام الأدباء و البلغاء كثرة

استعمال هذا التشبيه .

ولا يبعد أن يكون من هذا الباب التشبيه في قوله تعالى " وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ " . و المهل كل شيء أذيب حتى انماع . قاله ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : هو درديّ الزيت . و قال سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ : هو الذي قد انتهى حره . و يشكل هذه الآية بأنّ نار جهنم أشدّ من نار الدنيا سبعين مرّة بل أكثر . وكذا ماء أهل النار أحرّ من المهل إن كان المراد منه الشيء المذاب أو الحميم ، و أقبح و أشدّ منه إن كان المراد منه دردي الزيت . فكيف التشبيه بالمهل .

و يدفع الإشكال بجواب الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ هذا بأنّ التشبيه إنّما هو في أصل الحرارة لا في القدر . فلا وصمة .

و هذا الإشكال متحقق في قوله تعالى : وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ . و التقدير في المعنى : يسقى من صديد كالماء . قال ابن ناقيا البغدادي المتوفّى ٤٨٥هـ في كتابه الجمان في تشبيهات القرآن ص١١٥ : سمّي الصديد ماءً على جهة الإستعارة و ليس بماء . انتهى .

و المقصود التشبيه في أصل السيلان وكونهما مائعين ، لا في سائر الأوصاف . و إلاّ فالماء يشرب و يطلب ، فهو ضدّ الصديد الذي يتنفر منه الطبائع . فلا إشكال .

و من هذا الباب ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : صلّوا على أنبياء الله و رسله . فإنّ الله بعثهم كما بعثني . أخرجه الطبراني . و ما رواه ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال : قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إذا صليتم عليّ فصلّوا على أنبياء الله . فإنّ الله بعثني كما بعثهم . أخرجه الطبراني . أراد التشبيه في نفس البعثة . و لذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما هو رواية ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : بعثني كما بعثهم . و عكس في رواية أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال : بعثهم كما بعثني .

و منه ما أخرجه مسلم من طريق سالم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ : اللّهم إنّما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر . و ما أخرجه أيضًا من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا و لفظه : إنّما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر و أغضب كما يغضب البشر . فأيّما أحد دعوت عليه من أمّتي بدعوة ليس لها بأهل أن يجعلها له طهورًا و زكاةً و قربةً . المقصود المشاركة في نفس الغضب و نفس الرضا .

و منه ما أخرجه الترمذي عن علي بن ربيعة قصة ركوب عليّ كرّم الله وجهه الدابة ، و فيه : فلمّا استوى على ظهرها قال : الحمد لله ثلاثًا سبحانك إنّي قد ظلمت نفسي فاغفرلي . فإنّه لا يغفر الذنوب إلّا أنت . ثم ضحك . فقلت : من أيّ شيء ضحكت يا أمير المؤمنين ؟ قال : رأيت رسول الله ﷺ صنع كما صنعت ثم ضحك . فقلت : من أيّ شيء ضحكت يا رسول الله ؟ الحديث . فالتشبيه في قوله "كما صنعت" للمشاركة في نفس الصنع و فعل الضحك ، لا في أنّ صنعه و ضحكه أعلى شأنًا من ضحك النبي ﷺ . و حاشا مؤمن أن يقول بذلك .

و منه حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، أخرجه الترمذي وغيره قال : جاء الفقراء إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ! إنّ الأغنياء يصلّون كما نصلّي و يصومون كما نصوم ، و لهم أموال يعتقون و يتصدقون . الحديث .

و منه قوله عليه الصلاة والسلام في قوم : يخرجون من النار فيلقون في نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبّة في حميل السيل . أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . أراد المشاركة في أصل النبت أو أصل سرعته ، لا في قدر السرعة و زمان النبت و سائر أحواله . إذ نبت أهل الجنة كما لا يخفى على عارف الحديث يكون أحسن و أقوى و أسرع و أبهى . لهم فيها ما يشاؤون . و هؤلاء بعد الخروج من النار و ولوجهم في نهر الحياة صاروا من أهل الجنة .

و منه الحديث المروي : ستكون فتنة كأنّها صياصي بقر . و الصياصي هاهنا القرون . قال الشريف الرضي المتوفّى ٤٠٦هـ في كتابه المجازات النبوة ص ٩٩ : قيل : إنّما شبه عليه الصلاة والسلام الفتنة بقرون البقر لكثرة ما يشرع فيها من الرماح . انتهى . أراد التشبيه في الأصل لا في القدر ، إذ الفتن الواقعة عند قرب القيامة أشدّ تهويلاً و تأثيرًا من قرون البقر .

و منه قوله عليه الصلاة والسلام : تعرض للناس جهنم كأنّها سراب يحطم بعضها بعضًا . قال الشريف الرضي في المجازات النبوة ص١٠٣ : و هذا مجاز ، لأنّه عليه الصلاة والسلام أراد شدّة احتدامها و التفاف ضرامها ، فكأنّ بعضها يحطم بعضًا . انتهى . فالتشبيه بالسراب في أصل الحطم و نفس الاضطراب و التموج ، لا في القدر .

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : إنّ الإسلام ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحيّة إلى جحرها . أراد المشاركة في

نفس الفعل ، لا في القدر و سائر الأوصاف ، إذ الحيّة مبغوضة و الإسلام محبوب . فالمراد أنّ الإسلام ليأوي إلى المدينة كما تأوي الحيّة إلى جحرها .

و منه قوله عليه الصلاة والسلام في الرحم : هي شجنة من الله . قال أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الشريف الرضي في المجازات النبوة ص١٣٨ : هذا القول مجاز . لأنّ أصل الشجنة اسم لشعبة من شعب الغصن المتصل بالشجرة . و منه قولهم " الحديث ذوشجون " أي ذو شعب تنشعب ، فيذكر بعضها بعضًا و يجر أوّل آخرًا . المراد أنّ الله سبحانه جعل حقها واجبًا و ذمامها لازمًا . انتهى .

فشبّه الرحم و القرابة بالشجنة كأنّ الرحم شعبة و جزء متصل بالله تعالى . هذا على سبيل التمثيل . و المشاركة في أصل الاتصال و الارتباط بالشيء . و إلّا فإتصال الرحم أقوى و أمرها أهمّ و قطعها أشدّ من قطع الشعبة . و من قطعها قطعه الله تعالى .

و منه قوله تعالى : إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا .

و منه قول النبي صلى الله عليه وسلم : لو أنّكم تتوكّلون على الله حق توكّله لرزقكم كما يرزق الطير . تغدو خماصًا و تروح بطانًا . فالتشبيه في أصل الرزق ، لا في قدره ولا في كيفيته .

فصل

اعلم : أنّ ابن القيم رحمه الله ضعّف هذا الجواب ، حيث قال : و هذا ضعيف أيضًا لوجوه . منها أنّ ما ذكروه يجوز أن يستعمل في الأعلى و الأدنى و المساوي . فلو قلت : أحسن إلى فلان و أهلك كما أحسنت إلى مركبك و خادمك ، و نحوه جاز ذلك .

و من المعلوم أنّه لو كان التشبيه في أصل الصلاة لحسن أن تقول : اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على آل أبي أوفى ، أو كما صلّيت على آحاد المؤمنين و نحوه ، أو كما صلّيت على آدم و نوح و هود و لوط عليهم الصلاة والسلام . فإنّ التشبيه عند هؤلاء إنّما هو واقع في أصل الصلاة ، لا في قدرها ولا صفتها . ولا فرق في ذلك بين كلّ من صلّى عليه ، وأيّ مزيّة وفضيلة في ذلك لإبراهيم عليه الصلاة والسلام وآله ، وما الفائدة

حينئذ في ذكره و ذكر آله . و كان الكافي في ذلك أن يقال : اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد فقط . انتهى بلفظه .

قلت : و الجواب أنّ القائلين بالتشبيه في نفس الصلاة أرادوا بذلك ما سيذكره ابن القيم رحمه الله تعالى في الاعتراض الثاني ، أي تقرير المشبّه و الاستدلال من المشبّه به و التقريب إلى الفهم . ولا يؤدي هذا الغرض بقولنا " صلّ على محمد و آله " فقط . و أيضًا لابدّ فيه من تيقن تحقق المشبّه به بالإصالة ليقاس عليه المشبّه و ليستدل منه على تقرر المشبّه و ليقرّبه إلى الفهم .

و صلاة الله على آحاد الأمّة كأبي أوفى رضي الله عنه و نحوه فرع صلاة الله على محمد . و المتقرر المتيقن إنّما هو صلاة الأنبياء الذين خلوا . فلو قيل " كما صلّيت على نوح و آدم عليهما الصلاة والسلام " مثلًا لكفى ، لكن خصّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالذكر لكونه أفضل السابقين . و تحقق البركة الرحمانية عليه و على أهل بيته أشهر و مصرّح في القرآن . فذكره أدخل في الاستدلال و أنسب للتقريب و أوفق للتقرير .

ثم قال ابن القيم رحمه الله تعالى : و الثاني أنّ ما ذكروه من الأمثلة ليس بنظير الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام . فإنّ هذه الأمثلة نوعان : خبر و طلب . أمّا الخبر فالمقصود بالتشبيه به الاستدلال و التقريب إلى الفهم و تقرير ذلك الخبر و ما لاينبغي لعاقل إنكاره كنظير المشبّه به فكيف تنكرون الإعادة . وقد وقع الاعتراف بالبداءة . و هي نظيرها . و حكم النظير حكم نظيره .

و لهذا يحتجّ الله بالمبدإ على المعاد كثيرًا . قال تعالى : كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُوْدُوْنَ . و قال تعالى : كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيْدُهُۥ . و كذلك قوله تعالى : إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوْحٍ وَ ٱلنَّبِيّٖنَ . أي لست أوّل رسول طرق العالم بل قد تقدمت قبلك رسل أوحيت إليهم كما أوحيت إليك . فهذا ردّ و إنكار على من أنكر رسالة النبي صلى الله عليه وسلم مع مجيئه بمثل ما جاءت به الرسل من الآيات بل أعظم منها . فكيف تنكر رسالته . و ليست من الأمور التي لم تطرق العالم ، بل لم تخل الأرض من الرسل و آثارهم . فرسولكم جاء على منهاج من تقدمه من الرسل في الرسالة .

و كذلك قوله تعالى "وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِيْنَ ءَامَنُوْاْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ" إخبار عن عادته سبحانه في خلقه و حكمته التي لا تبديل لها ، أنّ من آمن

و عمل صالحًا مكّن له في الأرض و استخلفه فيها و لم يهلكه و يقطع دابره كما أهلك من كذّب رسله و خالفهم و قطع دابره . فأخبرهم سبحانه أنّه يفعل بهم كما فعل بمن قبلهم من أتباع الرسل .

و هكذا قول النبي ﷺ " لو أنّكم تتوكّلون على الله حق توكّله لرزقكم كما يرزق الطير " إخبارًا بأنّه تعالى يرزق المتوكّلين عليه من حيث لا يحتسبون و أنّه لا يخليهم من رزق قط كما ترون ذلك في الطير . فإنّها تغدو من أوكارها خِماصًا فيرزقها الله حتى ترجع بِطانًا من رزقه . و أنتم أكرم على الله من سائر الحيوانات . فلو توكّلتم عليه لرزقكم من حيث لا تحتسبون و لم يمنع أحدًا منكم رزقه . هذا ما كان من قبل الإخبار . انتهى .

قلت : الجواب أنّ هذا الذي ذكره في الردّ هو مراد القائلين بالتشبيه في نفس الفعل أي في نفس تحققه و تقرره دون قدره و كيفيته . أرادوا التقريب إلى الفهم و تقرير ذلك الخبر . فعلى هذا معنى قوله تعالى "كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُوْدُوْنَ" كما أنّ نفس البدء متحقق و متقرّر يقينًا كذلك العود متحقق . فينبغي أن لا ينكر و أنّ العود على منهاج ما تقدّمه من البدء . و هكذا في سائر الأمثلة . و ليت شعري كيف خفي هذا على مثل هذا الإمام المحقّق رحمه الله تعالى .

ثم قال ابن القيم رحمه الله تعالى : و أمّا في قسم الطلب و الأمر فالمقصود منه التنبيه على العلة . فإذا قلت : علم كما علمك و أحسن كما أحسن الله إليك و اعف كما عفا الله عنك . كان في ذلك تنبيه للمأمور على شكر النعمة التي أنعم الله بها عليه . و إنّه حقيق أن يقابلها بمثلها و يقيدها بشكرها . و إنّ جزاء تلك النعمة من جنسها . و معلوم أنّه يمتنع خطاب الربّ سبحانه بشيء من ذلك . ولا يحسن في حقه . فيصير ذكر التشبيه لغوًا لا فائدة فيه . و هذا غير جائز . انتهى .

قلت : و الجواب أوّلًا : أنّا لا نسلم أخذ معنى العلة و إلّا كانت الكاف للتعليل لا للتشبيه .

و ثانيًا : على التسليم فالتعليل إنّما هو بالمعنى اللائق بشأن الله العظيم . و قد صرّح كثير من الأئمة و المفسّرين بأنّ الكاف في قولنا "كما صلّيت على إبراهيم" و نحو ذلك من عدّة آيات من القرآن للتعليل . و فصلناه في باب آخر يأتي بعد ثلاثة أبواب من هذا الكتاب . فكيف يمتنع خطاب الربّ سبحانه بذلك . و كيف لا يحسن هذا . و الله أعلم .

ثم قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ : الثالث : أنّ قوله "كما صلّيت على آل إبراهيم" صفة لمصدر محذوف . و تقديره : صلاة مثل صلاتك على آل إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . و هذا الكلام حقيقته أن تكون الصلاة مماثلة للصلاة المشبهة بها . فلا يعدل عن حقيقة الكلام و وجهه . انتهى .

قلت في الجواب : نعم ، تقديره كذلك . و حقيقته المماثلة بين الصلاتين أي المماثلة في نفس الفعلين تحقّقًا و تقرّرًا . فلم نعدل عن حقيقة الكلام و وجهه .

الباب الثامن
في الجواب السادس

لإبراهيم عليه الصلاة والسلام فضل من وجه جزئي لكون نبينا صلى الله عليه وسلم دعوته ، كما في الحديث : أنا دعوة أبي إبراهيم و بشرى عيسى عليهما الصلاة والسلام . أخرجه الطبري في تاريخه .

و عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قيل : يا رسول الله ! أخبرني عن نفسك . قال : نعم . أنا دعوة أبي إبراهيم ، وكان آخر من بشر بي عيسى ابن مريم عليهما السلام . أخرجه ابن عساكر .

فنبينا صلى الله عليه وسلم كأنّه من جملة حسنات إبراهيم عليه الصلاة والسلام بهذا الاعتبار . لكن هذا فضل جزئيّ . فلا وصمة فيه . و إنّما الفضل الكليّ لنبينا عليه الصلاة والسلام . و الله أعلم .

الباب التاسع
في الجواب السابع

و قريب من الجواب المقدّم ما قال العلامة الشيخ محمد أعلى بن علي التهانوي في كشّاف اصطلاحات الفنون : إنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام دعا لنبينا عليه الصلاة والسلام حيث قال : رَبَّنَا وَ ٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ . الآية . و قال النبي صلى الله عليه وسلم : أنا دعوة إبراهيم . الحديث . فلمّا وجب للخليل على الحبيب حق دعائه قضى الله عنه حقه بأن أجرى ذكره على ألسنة أمّته إلى يوم القيامة . انتهى بلفظه .

قلت : هذا مأخوذ من تفسير الفخر الرازي . ثم إنّ بين هذا الجواب و الجواب المتقدّم فرقًا جليًا . فإنّ المتقدم متفرع على إثبات الفضل الجزئيّ لإبراهيم عليه الصلاة والسلام . و هذا الفضل غير ملحوظ في هذا الجواب ، بل الملحوظ فيه قضاء حق الدعاء . والله أعلم .

الباب العاشر
في الجواب الثامن

قال مؤلف كشاف الاصطلاحات في جواب إشكال التشبيه : إنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان منادي الشريعة في الحج ، و كان نبينا صلى الله عليه وسلم منادي الدين بقوله تعالى : سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ . الآية . فجمع بينهما في الصلاة . انتهى ما في كشاف اصطلاحات الفنون .

و هذا مأخوذ من التفسير الكبير للفخر الرازي لكن الرازي رحمه الله تعالى ذكره وجهًا لقران ذكر إبراهيم مع ذكر محمد صلى الله عليهما وسلم في الصلاة الإبراهيمية . و صاحب الكشّاف ذكره جوابًا للإشكال الناشئ من التشبيه . و كذا الجواب المتقدم في الباب السابق .

الباب الحادي عشر
في الجواب التاسع والعاشر

الكاف للتعليل لا للتشبيه . و صرّح أئمة النحو أنّ الكاف ترد لهذا المعنى . قال الإمام أبو حيّان النحوي في تفسيره المسمّى بالبحر المحيط في بيان قوله تعالى "كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ" : على تقدير مضاف أي اذكروني ذكرًا مثل ذكرنا لكم بالإرسال . و هو قول مجاهد و عطاء و الكلبي . و هو اختيار الأخفش و الزجاج و ابن كيسان و الأصم رحمهم الله . و يحتمل على هذا الوجه بل يظهر ، و هو إذا علقت بما بعدها أن لا تكون الكاف للتشبيه بل للتعليل . و هو معنى مقول فيها : إنّها ترد له ، و حمل على ذلك قوله تعالى "وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ" . و قول الشاعر :

ع لا تشتم الناس كما لا تشتم

أي و اذكروه لهدايته إياكم . ولا تشتم الناس لكونك لا تشتم . أي امتنع من شتم الناس لامتناع الناس من شتمك . انتهى باختصار .

و قال ابن هشام صاحب المغني في معاني الكاف : و الثاني التعليل . أثبت ذلك قوم ، و نفاه الأكثرون . و قيّد بعضهم جوازه بأن تكون الكاف مكفوفة بما ، كحكاية سيبويه "كما أنّه لا يعلم فتجاوز الله عنه" . و الحق جوازه في المجردة من "ما" نحو "وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ" أي أعجب لعدم فلاحهم . و في المقرونة بما الزائدة كما في المثال و بما المصدرية نحو "كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ" الآية . قال الأخفش : أي لأجل إرسالي فيكم رسولاً منكم فاذكروني . و هو ظاهر في قوله تعالى "وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ". انتهى .

قلت : و منه قوله عليه الصلاة والسلام يوم الأحزاب : اللّهم املأ قبورهم و بيوتهم نارًا كما شغلونا عن صلاة

الوسطى . الحديث . أخرجه الترمذي عن علي رضي الله عنه . و الأعلق بالقلب أن يقال : إنّ الكاف فيه للتعليل .

فائدة

في كلام الشيخ الحافظ السخاوي رحمه الله تعالى عند بيان الكاف التعليلية يستنبط جواب آخر حيث قال : إنّ الكاف للتعليل كما في قوله تعالى "كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ " و في قوله تعالى " وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ " . و قال بعضهم : الكاف على بابها من التشبيه . ثم عدل عنه للإعلام بخصوصية المطلوب . انتهى .

فقوله "و قال بعضهم" لعله إيماء إلى جواب على حدة قريب من الكاف التعليلية . والله أعلم .

الباب الثاني عشر
في الجواب الحادي عشر

هو ما ذكره المفتي سعد الله رحمه الله تعالى في تتمة التنويه حيث قال ، ما تعريبه : إنّ التشبيه في وجه لا ينافي الفرق من وجه آخر كما في قوله تعالى " إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ " . حيث شبّه عيسى بآدم عليهما الصلاة والسلام في عدم وجود الأب ، و إن كان آدم عليه الصلاة والسلام لم يكن له أمّ أيضًا .

فالمعنى : اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد بمقدار فضلهم و شرفهم عندك كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم بمقدار فضلهم و شرفهم . فهذا مثل قوله تعالى " فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ " . أي اذكروا الله بقدر نعمه كما تذكرون آباءكم بقدر إحسانهم إليكم . هذا كلامه . فتفكّر في مرامه .

الباب الثالث عشر
في الجواب الثاني عشر

إنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام والد نبينا عليه الصلاة والسلام . فله من حيث كونه والدًا فضل على نبينا ﷺ من حيث كونه ابنًا له . و رسول الله ﷺ مع كونه أفضل من إبراهيم و سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام غير متصف بهذه المنقبة العظمى بالنسبة إلى إبراهيم . فإبراهيم عليه الصلاة والسلام بالنظر إلى هذا الفضل الجزئيّ مكنوف بالجلال و محفوف بالإقبال منبع الشرف الجمّ و مطلع المجد الأشم ، ذو عزّ ملتمع الشعاع و مجد مرتفع الشراع . و قد ثبت بالنصوص أنّ الولد الصالح من جملة حسنات الوالد . و هذا فضل جزئيّ . و أمّا الفضل الكلّيّ فنصيب نبينا ﷺ . فلا اعتراض .

الباب الرابع عشر
في الجواب الثالث عشر

إنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام أبو الملّة لقوله تعالى " مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ " الآية . و لقوله تعالى " قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا " الآية . و نبينا عليه الصلاة والسلام كان أبا الرحمة لقوله تعالى " ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ " الآية . فلمّا وجب لكل واحد منهما عليهما الصلاة والسلام حق الأبوّة و حق الرحمة قرن بين ذكريهما في باب الصلاة و الثناء . كذا في كشاف اصطلاحات الفنون للشيخ العلامة محمد أعلى بن علي التهانوي رحمه الله تعالى .

قلت : فرق بين هذا الجواب و الجواب المتقدّم . فإنّ المتقدّم مبنيّ على تحقق الفضل الجزئيّ لإبراهيم عليه الصلاة والسلام و على اعتبار أبوّته لنبينا صلى الله عليه وسلم . و هذا مبني على ثبوت مناسبة حق الأبوّتين : الأبوّة للملّة و الأبوّة للرحمة .

الباب الخامس عشر
في الجواب الرابع عشر والخامس عشر

مقدمة

اعلم : أنّ الواسطة على ما هو المشهور على أربعة أقسام :

الأوّل : الواسطة في الإثبات . و هي الحد الأوسط في القياس . و تختص بالنظريات . و تكون علة للعلم أي للتصديق بثبوت المحمول للموضوع .

و الثاني : الواسطة في العروض . و تكون الواسطة فيه متصفة بصفة أوّلاً و بالذات ، و ذو الواسطة ثانيًا وبالعرض كالسفينة المتحركة لحركة جالسها .

و الثالث : الواسطة في الثبوت . و هي قسمان : الأوّل ما يكون الواسطة و ذو الواسطة كلاهما متّصفين بالصفة بالذات ، إلاّ أنّ الواسطة تكون متصفة بها أوّلاً و ذا الواسطة ثانيًا كاليد المتحركة لحركة المفتاح .

و الثاني ما تكون الواسطة فيه سفيرًا محضًا . لا تتصف بالصفة أصلاً كالصباغ لصبغ الثوب ، والوكيل بالنكاح بين رجل و امرأة . إذ به يحل أحدهما للآخر ، ولا حق للوكيل في أن يحل أحدهما له . فهذه أربعة أقسام . و قد اشتهر حصر الواسطة فيها .

و ألهمني ربّي قسمين آخرين :

الرابع : أن يكون الوصف ثابتًا للواسطة و لذي الواسطة كليهما بالذات و حقيقة في زمان

واحد . كما إذا صنعت مأدبة لأمير القوم . ثم جاء معه خدّامه تبعًا ، و أكل الأمير طعام المأدبة و أكله خدّامه بواسطته و بركته . فالأكل أي فعل ابتلاع الطعام ثبت للأمير و خدّامه بالذات . و اتصف به هذا و ذاك حقيقة في زمان واحد .

فإن أكل الخدّام قبل الأمير فهو قسم آخر خامس . و هو أن يتصف الواسطة و ذو الواسطة بالصفة بالذات ، و يكون اتصاف الواسطة ثانيًا و ذي الواسطة أوّلاً .

و بعد ذكر هذه المقدمة نقول : فائدة التشبيه حصول العلم باتصاف المشبّه بواسطة المشبّه به . و إن شئت بواسطة التشبيه فإتصاف زيد بالشجاعة علم من قولنا " زيد كالأسد " بواسطة المشبّه به و التشبيه . فسبيل التشبيه على الأغلب سبيل الدليل الإنّي . كما إذا علم تحقق النار برؤية الدخان .

ثم المشبّه به قد يكون واسطة لعلم المخاطب واسطة في العروض . فيتعلق العلم أوّلاً و بالذات بالمشبّه به و بواسطته بالمشبّه ثانيًا و بالعرض . و هذا فيما يكون المشبّه به أصلاً في الاتصاف بالوصف معلومًا عند المخاطب مسلّمًا و معروفًا بذلك عند الناس نحو زيد كالأسد . فالأسد أصل في الشجاعة باعتبار نوعه . ولذا يكون كل فرد منه شجاعًا . و زيد ليس كذلك . إذ في الإنسان شجاع و جبان . ففي هذا التشبيه أفدتَّ السامع شجاعة زيد بواسطة معرفته بأنّ الأسد شجاع واسطة في العروض . و منه : أصحابي كالنجوم .

ثم في هذا النوع يكون المشبّه به غالبًا أقوى و أجلى في وجه الشبه من المشبّه . و إن لم يكن المشبّه به في الوصف بمثابة الأسد في المثال المتقدم ، ولم يكن المشبّه مجهول الوصف ولا مشكوكًا فيه قبل التشبيه كما إذا كان زيد مجهولَ الوصف ، أو مشكوكًا فيه قبل قولك "زيد كالأسد ". ثم بعده علم علم اليقين أنّه شجاع مثل الأسد ، بل كان المخاطب يعلم علم اليقين اتصاف المشبّه بالوصف قبل التشبيه كما كان مستيقنًا باتصاف المشبّه به بذلك . فالمشبّه به حينئذ يصير واسطة في الثبوت لعلم السامع ، حيث يعلم اتصاف كليهما بالوصف بالذات ، إلاّ أنّه للواسطة أوّلاً لتقدّمها زمانًا و لذي الواسطة ثانيًا لتأخّره .

و استبان من هذا البيان أنّ المشبّه به في هذا النوع لا يجب أن يكون أقوى أو أفضل ولا التشبيه يقتضي ذلك . بل لا يصح إرادة الأفضلية نظرًا إلى نفس التشبيه ، لكون الوصف ثابتًا

لكليهما بالذات معلومًا عند المخاطب كذلك . نعم ، يجب تقدم المشبّه به أو تقدّم العلم به زمانًا بالنسبة إلى المشبّه ليتحقق هذا النوع للواسطة .

و التشبيه في قولنا "كما صلّيت على إبراهيم" من باب النوع الثاني . إذ المخاطبون كانوا مستيقنين بتحقق صلاة الله على المشبّه و المشبّه به حقيقة . فالمشبّه به في هذه الصلاة واسطة في العلم ، و في تحقق المرام واسطة في الثبوت ، حيث تحققت الصلاة لمحمد و إبراهيم عليهما الصلاة والسلام كليهما حقيقة و بالذات .

و إن شئت فقل : استبان تحققها لهما حقيقة و بالذات . و الفرق بالزمان فقط . فلإبراهيم أوّلًا و لمحمد ثانيًا عليهما الصلاة والسلام . ولا يدلّ هذا على أفضليّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بل على تقدّم زمانه فقط . هذا . ولله الحمد . و العلم عند الله سبحانه .

فصل

و ههنا تقرير آخر لا يبعد أن يصح مبني على القسم الرابع للواسطة ، و هو القسم الثاني من الواسطة في الثبوت بأن تكون الواسطة سفيرًا محضًا . و هو جواب آخر . فعلى هذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أو صلاته واسطة بمعنى السفير المحض للمشبّه و هو محمد عليه الصلاة والسلام أو للصلاة عليه .

و إنّما صحّ كونه سفيرًا لكونه أبًا لنبينا لوجوده في هذه النشأة . و كذا صار تحقق صلاة الله على إبراهيم عليه الصلاة والسلام و جعله مفخمًا معظّمًا أبًا للأنبياء بعده ، و منهم محمد عليهم الصلاة والسلام ، واسطةً و سببًا لتحقق صلاة الله على محمد عليه الصلاة والسلام . إذ لولا الوالد لم يكن ابن . كلّ هذا نظرًا إلى ظاهر النشأة . و أمّا في الحقيقة فالأمر بالعكس ، حيث كان نبيًّا و آدم بين الماء و الطين .

فصلاة المصلّي هذه " اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت إلخ " في الحقيقة صلاة على محمد و على آله فقط . و ذكر إبراهيم و صلاته بطريق التشبيه إنّما هو لهذا الوجه وجه السفارة في النشأة الظاهرة . نعم ، السفير في أمثال هذه الأمور العظام المباركة لا يخلو عن فضل عظيم و مجد فخيم . فهذا التشبيه يتضمّن ثناء إبراهيم ثناء السفرة الكرام البررة . و أمّا القول بتضمن دلالته على أنّه أفضل من محمد عليهما الصلاة والسلام فلا يصحّ ولا يمكن . ألا ترى أنّ السفير بين السلطانين لا يعلوهما مجدًا ولا يفضلهما جدًّا .

الباب السادس عشر
في الجواب السادس عشر

هذا التشبيه من قبيل التهييج و إثبات الوصف للأفضل أي المشبّه بالطريق الأولى حيث أثبت للفاضل و هو المشبّه به . و ليس من قبيل إلحاق الكامل بالأكمل حتى يرد ما ورد .

و في البدر الساري حاشية فيض الباري : قلت : و هناك نكات أخرى ذكرها القوم .

منها : أنّ معنى التشبيه أنّه تقدمت منك الصلاة على إبراهيم عليه الصلاة والسلام فنسأل منك الصلاة على محمد عليه الصلاة والسلام و على آله بالطريق الأولى ، لأنّ الذي يثبت للفاضل يثبت للأفضل بالطريق الأولى .

و محصل الجواب : أنّ التشبيه ليس من باب إلحاق الكامل بالأكمل ، بل من باب التهييج و نحوه أو من باب إلحاق حال ما لا يعرف بما يعرف . فلا يلزم أن يكون المشبّه به أقوى . انتهى .

الباب السابع عشر
في الجواب السابع عشر

إيضاحه أنّ التشبيه بين أمرين له طريقان :

الطريق الأوّل : ما يكون للمشاركة في أمر كلّيّ يكون المشبّه به فردًا لهذا الكلّيّ . و المطلوب فيه دخول المشبّه في نوع المشبّه به و كونه فردًا منه كما كان المشبّه به فردًا منه . ولا يلاحظ في هذا الطريق كينونة المشبّه به أقوى من المشبّه بل قد يكون مساويًا له أو أدنى منه .

و أيضًا لا دخل فيه للمشبّه به إلّا في العنوان دون المعنون و إلّا في الظاهر والصورة دون الباطن و الحقيقة و إلّا في الحكاية دون المحكي عنه ، و إن كان تخصيص المشبّه به بالذكر و العنوان مستدعيًا تفخيم شأنه و تكريم عيانه . و هذا كما قالوا : إنّ كون الكعبة قبلة المصلين يقتضي فخامة مقامها . لكن لا يستلزم ذلك كون الكعبة أجلّ من المصلّين كلّهم . إذ فيهم أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام . و هم أفضل منها و أكرم .

و أيضًا لا يراعى في هذا الطريق إضافة وجه الشبه إلى المشبّه به في الحقيقة و المعنون . و بعبارة أخرى : وجه الشبه يضاف إلى المشبّه به في الظاهر فقط . فهنا أمور ثلاثة : المضاف و المضاف إليه و الإضافة أي تقييد المضاف بالنسبة إلى المضاف إليه . فالمرعي حقيقة في هذا الطريق المضاف مطلقا الذي هو أمر كلّيّ دون الأمر الثاني و الثالث .

ولا يجب في هذا الطريق أن يكون المشبّه به أقوى من المشبّه لعدم رعاية إضافة وجه الشبه إليه إلّا في العنوان دون المعنون .

والطريق الثاني : ما يكون بخلاف ذلك . و لابدّ فيه من لحاظ المشبّه به بخصوصه . و كذا لابدّ فيه من لحاظ وجه الشبه مع إضافته إلى المشبّه به . و بعبارة أخرى : يلاحظ في هذا الطريق الثاني الأمور الثلاثة كلّها أي المضاف و المضاف إليه و الإضافة . و بعبارة أخرى : يلاحظ فيه المضاف أي وجه الشبه مع تقييده بالمضاف إليه أي المشبّه به .

و بعبارة أخرى : الفرق بين الطريقين كالفرق بين المثال و النظير . فالمثال ما يكون من نوع الممثّل له و جنسه . و النظير ما يكون مباينًا له . و إنّما يذكر لإفادته التسهيل و الإيضاح . فالمطلوب في الطريق الأوّل التماثل أو التجانس أي كينونة المشبّه و المشبّه به فردين من نوع واحد أو من جنس واحد . و في الطريق الثاني التنظير أي جعل المشبّه نظيرًا للمشبّه به لأنّ وجه الشبه إنّما اعتبر فيه من حيث كونه وصفًا للمشبه به المعين . سواء كان ذلك المعين نوعًا أو شخصًا . و وصف موصوف معين لا يحتمل الشركة بأن يعمّ هذا الموصوف و غيره . و لكونه عرضًا قائمًا بالموصوف لا يمكن انتقاله من الموصوف كما صرّح به المتكلمون و أهل المعقول .

ألا ترى إلى علم زيد مثلاً فإنّه لا يمكن أن ينتقل إلى ذهن عمرو و إن يعمّهما . نعم ، يحتمل المناظرة بينه و بين علم عمرو بأن يحصل لعمرو علم يكون نظيرًا لعلم زيد كمًّا و كيفًا . فإذا قيل "عمرو كزيد في العلم" يراد أنّ علم عمرو نظير علم زيد في الكمّ و الكيف . لا أنّ ههنا أمرًا كلّيًّا و نوعًا عامًّا دخل تحته علم زيد و عمرو . إذ لا يعقل ههنا هذا الأمر الكلّيّ .

إن قلت : ذلك الكلّيّ هو العلم .

قلت : لم يرد قائل ذلك التشبيه في مطلق العلم و إلاّ لما كان لذكر زيد حاجة . و هذا أمر بديهيّ يعلم عند المخاطبات . بل أراد التشبيه في علم زيد أي المساواة مع علمه كيفًا أو كمًّا . و هذا معنى التنظير .

و الأكثر في هذا الطريق أن يكون المشبّه به أقوى و أفوق من المشبّه ليفيد التشبيه فائدة جديدة . و إلاّ يكون كقول الرجل عند بيان سخاء حاتم طيّ "الحاتم كزيد في السخاء" و عند بيان شجاعة خالد رضي الله عنه "خالد أشجع من بكر" أو "هو كبكر" . و هذا مما لا جدوى فيه . و لذا قيل :

ألم تر أنّ السيف ينقص قدره ... إذا قيل إنّ السيف أعلى من العصا

نعم ، إذا أريد الطريق الأوّل يفيد التشبيه فائدة كبيرة من غير أن يكون المشبّه به أقوى و أفوق كما سطرنا من قبل .

ثم التشبيه فيما نحن فيه و هو "كما صلّيت على إبراهيم" من قبيل الطريق الأوّل . و المقصود منه أن يحصل لنبينا ﷺ صلاة هي مندرجة في جنس الصلاة الإبراهيمية ، و فرد من ذلك النوع من الصلاة كما أنّ صلاة إبراهيم فرد منه . فذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام و نسبة الصلاة إليه لتعيين ذلك النوع المطلوب ، لا لأنّ إبراهيم أفضل من محمد ﷺ . نعم ، لو كان التشبيه من باب الطريق الثاني لكان لأفضلية إبراهيم عليه الصلاة والسلام مساغ ، و إذ لا فلا . هذا . و الله أعلم .

الباب الثامن عشر
في الجواب الثامن عشر

لا يبعد أن يقال : إنّ لإبراهيم عليه الصلاة والسلام فضلاً جزئيًّا . وهو لا ينافي الفضل الكلّيّ الحاصل لنبينا صلى الله عليه وسلم . و ذلك الفضل الجزئيّ هو كونه متبوعًا في الظاهر ، و نبينا صلى الله عليه وسلم تابعًا له مأمورًا من الله باتباع ملته . ولا يخفى على ذي اللب البون بين التابع من حيث أنّه تابع و المتبوع من حيث أنّه متبوع ، و إن كان التابع ههنا أفضل من المتبوع باعتبار آلاف الحيثيات الأخر . ثم هذا بالنظر إلى ظاهر الأمر و هو التقدّم الزماني الحاصل لإبراهيم عليه الصلاة والسلام في عالم النشأة و كونه أبًا لآلاف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . و إلاّ ففي الحقيقة سائر الأنبياء أتباع لنبينا صلى الله عليه وسلم و نبوّاتهم مستفادة من نبوته عليه الصلاة والسلام .

قال الله تعالى : مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ . و قال : قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا . فرسول الله صلى الله عليه وسلم سأل الله و إن كان تابعًا المشاركة مع إبراهيم عليه الصلاة والسلام في هذه المنقبة ، و أمر أمّته أن يسألوا الله له هذا المقام الأسنى . و قد أجاب الله هذا الدعاء . فأعطاه هذا المقام حيث جعله إمام الأنبياء ليلة الإسراء . و يبدو للناس كلّهم مقامه هذا يوم القيامة .

و نظير هذا الفضل الجزئيّ و الكلّيّ ما صرح به العلماء أنّ الصديق رضي الله عنه أفضل الناس على الإطلاق بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . و قد ثبت في غير واحد من النصوص الأفضلية الجزئيّة لغير الصديق رضي الله عنه . كما روي مرفوعًا : أنّ عثمان أحياهم ، و عمر أشدّهم في أمر الله ، و عليّ أقضاهم ، و أبو عبيدة أمين هذه الأمّة ، و أصدقهم لهجةً أبوذر ، و سيّد الشهداء حمزة ، و أقرأهم أبيّ رضي الله عنهم .

فصل

إن قلت : في أيّ أمر أريد اتباع إبراهيم الذي أمر الله تعالى به نبينا ﷺ ؟

قلت : أجابوا عنه بوجوه :

الوجه الأوّل : أنّ المراد بذلك الأمر الأضاحي و ذبحها كما ورد في الحديث . قالوا : ما هذه الأضاحي يا رسول الله ؟ قال : سنة أبيكم إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) .

و الوجه الثاني : المراد الحجّ و مناسكه . فإنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام أوّل من أذّن في الناس بالحجّ كما في القرآن بعد رفع قواعد البيت . و الدليل على ذلك ما أخرج عبد الرزاق و ابن أبي شيبة معًا في المصنّف و ابن المنذر و ابن مردويه و البيهقي في الشعب عن ابن عمرو رضي الله عنه قال : صلّى إبراهيم الظهر و العصر بعرفات . ثم وقف به حتى إذا غابت الشمس دفع ، ثم صلى المغرب و العشاء بجمع . ثم صلّى به الفجر كأسرع ما يصلي أحد من المسلمين . ثم وقف به حتى إذا كان كأبطأ ما يصلي أحد من المسلمين دفع ، ثم رمى الجمرة ، ثم ذبح و حلق . ثم أفاض به إلى البيت فطاف به . فقال الله لنبيه : ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا . والله أعلم .

و الوجه الثالث : قال ابن حجر الهيتمي المتوفّى سنة ٩٧٣ه عند البحث على قوله تعالى "ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا" : المراد بهذه الآية الاتباع في التوحيد الخاصّ بمقام الخلّة الذي هو مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام المشار إليه بصيغة "حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ" . و المتسبب عن تفويضه المطلق لما أن ألقي في النار و جاء إليه جبريل عليه السلام قائلًا له : ألك حاجة . قال : أمّا إليك فلا . فوصل إلى غاية من التفويض لم يصل إليها أحد قبله ولا بعده إلّا نبينا ﷺ . فإنّه وصل إليها و ارتقى عنها بغايات لا يعلمها إلّا خالقه و بارئه المنعم عليه بمالم يؤته لغيره .

و من ثم يقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام عند مجيء الناس إليه في ذلك الموقف العظيم للشفاعة العظمى في فصل القضاء قائلين له " إنّ الله اصطفاك بالخلّة " : إنّما كنت خليلًا من وراء وراء . فأعلمهم أنّه و إن كان خليلًا لكنّه متأخّر الرتبة عن غيره المنحصر في نبينا ﷺ .

و نظير تلك الآية السابقة " أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ " . فالمراد الأمر بالاقتداء في التوحيد و ما يليق به من المقامات العلية التي ترجع إلى الأصول لا الفروع . إذ كان منهم من ليس رسولاً أصلاً كيوسف عليه السلام على قول . و الباقون كانت فروع . شرائعهم مختلفة . فاستحال حمل الاقتداء بهم على ذلك .

لا يقال : التوحيد إنّما ينشأ عن الأدلّة القطعية ، فكيف يتأتّى الاتباع فيه . لأنّا نقول : قد أشرنا إلى رد ذلك بقولنا "و ما يليق به المقامات العلية إلخ" . انتهى ما قال ابن حجر .

حاصله : أنّ الاتباع إنّما هو في طيّ مقامات الخلّة العلية .

و الوجه الرابع : الاتباع المقصود ما هو في الأصول من العقائد كاعتقاد توحيد الله و وجوده و الرسالة و البعث بعد الموت و الجنّة و النار و الميزان و غير ذلك مما اتفق فيه جميع الأنبياء و الرسل ، لا في الفروع حتى يلزم أفضلية إبراهيم عليه الصلاة والسلام من نبينا صلى الله عليه وسلم .

و الوجه الخامس : المراد به كيفية الدعوة إلى التوحيد ، و هو أن يدعو إليه بطريق الرفق و السهولة و إيراد الأدلّة الواضحة الظاهرة المرة بعد المرة على أنواع مرتبة متمايزة تأخذ بالقلب و تدهش اللب كما هو الطرائق المألوفة في القرآن . كذا ذكر ابن حجر الهيتمي وغيره رحمه الله تعالى .

قال العبد الضعيف : هذا الاتباع إنّما هو باعتبار الظاهر و هو تقدّم زمان إبراهيم عليه الصلاة والسلام على نبينا صلى الله عليه وسلم . و إلّا فنبينا صلى الله عليه وسلم هو الأصل في الدعوة و كيفيتها ، و الأنبياء عليهم الصلاة والسلام نوّابه و أتباعه . قال السيد أحمد عابدين رحمه الله تعالى في شرح مولد النبي لابن حجر : و كيف لا وهو صلى الله عليه وسلم رسول الرسل الداعين الخلق إلى الله تعالى القائمين بالنيابة عنه بتبليغ الأحكام التي شرعها الله لهم .

قال الشيخ أبو عثمان الفرغاني : فلم يكن داع حقيقي من الإبتداء إلى الإنتهاء إلّا هذه الحقيقة الأحمدية التي هي أصل جميع الأنبياء ، و هم كالأجزاء و التفاصيل لحقيقته صلى الله عليه وسلم . فكانت دعوتهم من حيث جزئيّتهم عن خلافة من كلّهم لبعض أجزائه . و كانت دعوته صلى الله عليه وسلم دعوة الكل لجميع أجزائه . و الإشارة إلى ذلك بقوله تعالى "وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ" . و الأنبياء و الرسل و جميع أممهم و جميع المتقدمين و المتأخرين داخلون في كافة الناس . فكان هو صلى الله عليه وسلم داعيًا بالإصالة ، و جميع الأنبياء يدعون

الخلق إلى الحق عن تبعيته ﷺ . فكانوا خلفاءه في الدعوة ، لأنّ الله أخذ الميثاق عليهم بأنّهم من أتباعه . فرسالته ﷺ عامة لجميع الخلق و الأنبياء و أممهم من لدن آدم إلى يوم القيامة . و حينئذ يدخلون في قوله عليه الصلاة والسلام : و أرسلت إلى الناس كافةً . و لأجل ذلك يكون الأنبياء كلهم يوم القيامة تحت لوائه ﷺ .

قال البوصيري رحمه الله تعالى :

و كلُّ آيٍ أتَى الرُّسلُ الكِرامُ بها فإنّما اتصلتْ من نورِه بهم

فإنّه شمسُ فضلٍ هم كواكِبُها يُظْهِرْنَ أنوارَهَا للناسِ في الظُّلَمِ

و الغرض أنّ الرسل إنّما يروج دينهم عليهم الصلاة والسلام مالم يظهر دينه ﷺ . انتهى كلام السيد أحمد .

و الوجه السادس : ما قال ابن عربي في الباب الثامن و الخمسين و خمسمائة من الفتوحات في الكلام على اسمه "المعطي" ، ما نصه : اعلم : أنّ الله تعالى ما أمرنا باتباع ملّة إبراهيم لكونه أحقّ بها من محمد ﷺ . و إنّما أمرنا بها لتقدّمه في الزمان فيها . فللزمان حكم في التقدم من حيث هو لا في المرتبة كالخلافة بعد رسول الله ﷺ الذي كان من حكمة الله تعالى إعطاؤها لأبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم بحسب أعمالهم التي قدّر الله وقوعها أيام ولاية كل واحد على التعيين . وكل لها أهل في وقت أهلية الذي قبله .

و لابد من ولاية كل واحد منهم و خلع المتأخر لو تقدم لابدّ منه حتي يلي من لابدّ له عند الله في سابق علمه من الولاية . فرتب الله الخلافة ترتيب الزمان للأعمار ، حتى لا يقع خلع مع الاستحقاق في كل واحد من متقدم و متأخر . وما علم الصحابة ذلك إلّا بالموت . انتهى .

قلت : و الجمهور على أنّ ترتيب خلافة الأربعة مبني على ترتيب فضل الأربعة . فأبوبكر أفضلهم و مع هذا تقدم موته . ثم أفضلهم عمر مع تقدّم موته على موت من بعده . ثم عثمان و قدر الله تقدم موته على موت علي . ثم علي رضي الله عنهم . و لعل تقدم زمان الموت مع ترتيب الفضل هو مراد محي الدين . و أراد ما قال في أمر الله إيّانا باتباع إبراهيم أنّ وجه الأمر بالاتباع نفس تقدم زمان إبراهيم لا كونه أفضل من محمد صلى الله عليهما وسلم .

و الوجه السابع : ما يعلم من كلام المجدد للألف الثانية الشيخ أحمد السرهندي و هو مبني

على الفرق بين مقامي الخلّة و المحبّة : أنّ تحصيل مقام الخلّة هو المقصود باتباع إبراهيم عليه الصلاة والسلام . و هذا الجواب كشفي لطيف . و ستأتي عبارة الشيخ في الباب الثاني و الخمسين من هذا الكتاب ، فراجع ذلك الباب . والله أعلم .

و الوجه الثامن : ما ذكره بعض الجاهلين بل الفاسقين الضالّين . و هو أنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم . و تمسّك بهذه الآية و أمثالها ، كما نقله الإمام الشعراني في لطائف المنن . و هو ضلالة و فسق كبير . أعاذنا الله منه . و قد تقدم البحث عليه في الفصل الثاني من الباب الثاني .

و الوجه التاسع : أيضًا ذكره و اختاره بعض الجهلة الفاسقين . و هو أنّ محمدًا عليه الصلاة والسلام و إن كان أفضل من إبراهيم عليه الصلاة والسلام لكنّه جاء لتقرير شرع إبراهيم عليه الصلاة والسلام . و لذا أمر باتباعه . و هذا قول مردود .

قال ابن حجر رحمه الله تعالى في فتاواه الحديثية : و زعم بعض من لا تحقيق عنده ولا اطلاع على حقائق الكتاب و السنة أنّ نبينا صلى الله عليه وسلم كان على شريعة إبراهيم عليه الصلاة والسلام و ليس له شرع منفرد به . و إنّما المقصود من بعثته إحياء شرع إبراهيم عليه الصلاة والسلام تمسّكًا بظاهر قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ . فزعمه بالغلط بل بالخرافة أشبه . و من ثم قالوا : إنّ مثله لا يصدر إلّا من سخيف العقل كثيف الطبع . انتهى .

قلت : إنّما ذكرت هذين الوجهين تنبيهًا على ردّهما ، و إلّا فشأنهما أقل من أن يذكرا في سلسلة الوجوه .

الباب التاسع عشر
في الجواب التاسع عشر

قال الشيخ العيني رَحِمَهُ ٱللَّهُ : هذا ليس من باب إلحاق الناقص بالكامل ، بل من باب بيان حال ما لا يعرف بما يعرف . و ما عرف من الصلاة على إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ و آله ليس إلّا في قوله تعالى : رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ . انتهى . عمدة القاري ج٧ ص ٣٦٩ ، و فيض الباري و حواشيه ج ٤ ص ٣٥ .

قلت : من هذا الوادي قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في خروج أهل النار المؤمنين العصاة من النار و دخولهم الجنة بالشفاعة : ثم يقوم الشفعاء فيشفعون فيؤتى بهم ضبائر على نهر يقال له الحياة أو الحيوان فينبتون كما تنبت القثاء بحميل السيل . رواه مسلم و ابن أبي حاتم و أحمد عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ . شبه بنبت القثاء لكونه أعرف نبت أهل الجنة و الرضوان ، و إلّا فأين القثاء و نبتها من أهل الجنة و نباتهم .

و منه قول ابن الرومي :

دَهْــرٌ علا قَدْرُ الوضيعِ به　　　و غدا الشريفُ يحطُّه شرفُهُ
كالبحر يرسُبُ فيه لؤلؤه　　　سفلاً و تَطفو فوقَه جِيَفُه

شبه علو قدر الوضيع بطفو الجيفة فوق الماء لكون المشبّه به أعرف و أثبت في القلوب . و كذا انحطاط الشريف برسوب اللؤلؤ في البحر لذلك ، لا لأنّ اللؤلؤ أعلى قدرًا من الرجل الشريف .

ومن هذا الباب ما قال شمس المعالي قابوس ، لكن التشبيه فيه معنوي مفهوم غير لفظي :

أما ترى البحرَ تعلو فوقه جِيَفٌ و تستقِرُّ بأقصى قعره الدُّرَرُ
و في السماء نجومٌ لا عِدادَ لها وليس يكسِفُ إلّا الشمسُ والقمرُ

و نظيره قول البحتري :

و لست ترى شَوْكَ القتادةِ خائفًا سَمُومَ الرّياحِ الآخذات من الرَّندِ
ولا الكلبَ محمومًا وإن طال عمْرُه ألا إنّما الحمّى على الأسَدِ الوَرْدِ

و قول أبي الوليد بن زيدون آخذًا من البحتري :

لا يهنأ الشامتَ المُرتاحَ خاطِرُهُ أنّي مُعَنَّى الأماني ضائعُ الخَطَرِ
هل الرياحُ بنَجْمِ الأرضِ عاصِفَةٌ أم الكُسُوفُ لِغَيرِ الشَّمْس و القَمَر

و قول ابن الرومي :

طارَ قومٌ بِخِفَّةِ الوزنِ حتى لَحِقُوا رِفْعَةً بِقابِ العُقابِ
ورَسَا الراجِحُونَ من جُلَّةِ النَّا سِ رُسُوَّ الجِبَالِ ذاتِ الهِضَابِ
لا وَ مَا ذاكَ لِلِّئامِ بفَخْرٍ لا ، ولا ذاكَ لِلْكِرامِ بِعَابِ
هكذا الدُّرُّ راسِخُ الوَزنِ رأسٍ و كذا الذَّرُّ شائِلُ الوَزْنِ هابِ
جِيَفٌ أنْتَنَتْ فأَضْحَتْ على اللُّجْـــجَةِ و الدُّرُّ تحتها في حِجابِ
و غُثاءٌ عَلا عُبَابًا مِنَ اليَمْـــمِ وغاصَ المرجانُ تحتَ العُبابِ

قلت : ما قال العيني رَحِمَهُ اللهُ "إنّ هذا من قبيل بيان حال ما لايعرف بما يعرف" أمر عسير لا أجترئ عليه . إذ هذا الكلام قريب من إلحاق الناقص بالكامل . فالأولى عندي أن يقال : هذا من باب بيان حال المعروف حالاً بما هو معروف قديمًا . ولك أن تقول : من قبيل بيان حال المعروف بالأعرف . و هذا التقرير لا وصمة فيه ولا إيهام سوء أدب . هذا . والله أعلم .

ومن التشبيه بالأعرف الأثبت قول شاعر :

الدهرُ كالميزانِ يرفعُ ناقصًا أبدًا ، و يخفضُ راجحَ المقدارِ
و إذا انتحى الإنصاف ساوى كونه في الوزنِ بين حديدةٍ و نضارِ

أترى الميزان أعلى و أجلّ من الدهر .

و قال ابن الرومي :

قالتْ علا الناسُ إلاّ أنتَ قلتُ لها كذاكَ يسفلُ في الميزانِ من رَجحا

و قال جمال الدين محمد بن نباتة :

زد كلَّ يومٍ رفعةً في العلى و ليصنع الحاسد ما يصنع
الدهر نحوي كما ينبغي يدري الذي يخفض أو يرفع

أي الدهر كالنحوي . شبّه الدهر بالنحوي لكون النحوي أعرف و أشهر في تصرف الخفض و الرفع . لا سيما عند النُّحاة .

و منه ما قال عبد الرحمن العطوي :

أتيتُك مشتاقًا فلم أَرَ حاجبًا ولا جالسًا إلاّ بوجه قطوبِ
كأنّي غريمٌ مُقْتَضٍ أو كأنَّني طُلُوعُ رَقيبٍ أو نُهُوضُ حبيبِ

شبّه نفسه بمن هو معروف بالإستكراه و هو الغريم و الرقيب و فراق الحبيب .

و قال ابن بسام يهجو أخاه :

يا طُلُوع الرقيب ما بينَ إلْفٍ يا غريمًا أَتَى على مِيعادِ
يا رُكُودًا في يومِ غَيمٍ و صَيْفٍ يا وُجُوهَ التِّجَارِ يومَ الكَسَادِ

و قال ابن بسام في أخيه :

حانتْ مَنِيّتُهُ فأسوَدَّ عارضُهُ كما تُسَوَّدُ بعد المَيّتِ الدارُ

لما كان سواد البيت غمًّا بعد الميت أعرف شيء شبّه به ما شبّه .

و منه قول بعض الأنصار رضي الله عنهم في مدح النبي ﷺ حين دخل المدينة مهاجرًا :

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا　　　مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعِ

شبّه النبي ﷺ بالبدر لكون البدر أعرف ، لا لكون البدر أعلى عندهم من النبي ﷺ . و حاشاهم أن يعتقدوا ذلك . هذا . والله أعلم .

الباب العشرون
في الجواب العشرين

التشبيه نوعان : الأوّل ما يكون للمد و الزيادة . و الثاني ما يكون للإسقاط و الاقتناع . و هذا كقول النحاة : الغاية نوعان : غاية إسقاط كما في قوله تعالى "وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ" ، و غاية مد كما في قوله عَزَّوَجَلَّ "أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ" .

فالتشبيه للمد و الزيادة ما يكون فيه إلحاق الأدنى بالعالي أو العالي بالأعلى نحو "زيد كالأسد" . و المشبّه به في هذا النوع أكثر ما يكون أفضل أو أعرف من المشبّه .

و التشبيه للإسقاط و الاقتناع حكمه بعكس ذلك . أي يكون فيه إلحاق الأعلى بالأدنى و إنزال العالي إلى مقام السافل و اقتناع الأفضل بوصف الأسفل و حاله و ترك الأكبر حظه الأسنى الذي يستحقه و ارتضائه بحظ يساوي حظ الناقص الأصغر . فالمشبّه في هذا النوع يجب أن يكون أفضل أو أقوى من المشبّه به . و هذا كما إذا أردت أن تعطي زيدًا و عمرًا مالًا ، و كان زيد أفضل من عمرو ، و نويت أن تؤتي زيدًا أزيد مما تؤتي عمرًا ، فقال لك زيد : أعطني مثل ما أعطيت عمرًا من المال و نحوه ، أي أنا أقتنع بهذا القدر و يكفيني ما يساوي حظ عمرو ، لا آخذ المزيد و إن كنت له مستحقًّا . إكرامًا لعمرو و تبجيلًا بشأنه .

فمثل ذلك كمثل سلطان جاءه رجلان : أحدهما أب لآخر . و الآخر ابن له . و كان للابن فضل علم و نحوه على أبيه . فعرض السلطان للابن مجلسًا أعلى من مجلس أبيه ، و كرسيًّا أسنى مقامًا من كرسيّ والده . فأنكر الابن أن يجلس على كرسيه حياءً من أبيه و أدبًا معه . و قال للسلطان : دعني أجلس مع

أبي ، و أقتنع بإكرام مثل إكرام أبي ، و أرضى بمقام يساوي مقام والدي . فالسلطان فيما نحن فيه هو الله ملك الملوك . و الجائيان هما إبراهيم و محمد ، الأب و الابن عليهما الصلاة والسلام . فشأن محمد صلى الله عليه وسلم أكبر من شأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام . و استحق صلاةً و تعظيمًا أسنى من صلاة إبراهيم و تعظيمه عليه الصلاة والسلام .

فإن قلت : فعلى هذا ما فائدة ذكر صلاة إبراهيم عليه الصلاة والسلام و التشبيه بها ، و الظاهر الاكتفاء بالصلاة على نبينا صلى الله عليه وسلم .

قلت : فيه فوائد :

الأولى : إكرام لإبراهيم وإحسان بوالد نبينا صلى الله عليهما وسلم .

و الثانية : الإنباء بأنّ إبراهيم أفضل الأنبياء بعد نبينا صلى الله عليهما وسلم حيث اختص بالذكر من بينهم كما صرح به المحققون .

و الثالثة : تشريعًا لأمّته التواضع للآباء و الأدب مع الكبراء .

و الرابعة : طلبًا للخيرات العليا و الدرجات القصوى فوق حظه الأوفر و سهمه الأكبر . إذ من شغله الأدب مع الكبار عن المسألة آتاه الله أفضل و أكثر مما أعطى السائلين . كما ورد في الحديث القدسي : من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين .

و الخامسة : رجاء أن يكون الدعاء أقرب من القبول إذ بذكر مثل إبراهيم عليه الصلاة والسلام تستنزل البركات و ترجى الرحمات و تهبّ الرياح الطيبات من نفحات الجنات .

الباب الحادي والعشرون
في الجواب الحادي والعشرين

سمعت بعض العلماء المحققين يقول : لا حرج في أن تكون نفس الصلاة الإبراهيمية أعلى من الصلاة المحمدية . لأنّ هذه فضيلة جزئية منحها الله تعالى إبراهيم . و الفضل الكلي لم يحوه إلّا نبينا ﷺ ذو الذات الخيرة و الصفات النيرة . ولا نبحث عن حقيقة الصلاة أنّها ما هي ؟ و لا عن كيفيتها و تفصيلها . بل نكتفي على ظاهر معناها . لأنّ الصلاة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مما يتلفظ به كّل مؤمن معتقدًا بأنّه أمر مقدس معروف بالجلال و مكنوف بالكمال و محفوف بفضل الإقبال و صفة مجيدة من مئات الصفات المجيدة التي اتصف بها نبينا و سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

فنبينا ﷺ متفرد بالنظر إلى مجموع هذه الكمالات الحميدة و الصفات المجيدة . لا يدانيه فيها نبي مرسل ولا ملك مقرب . ولا ضير في أن يكون إبراهيم عليه الصلاة والسلام أفضل منه في وصف خاص . فله فضل جزئيّ . و لنبينا ﷺ فضل كلّيّ . فتفكّر .

الباب الثاني والعشرون
وهو مشتمل على جوابين

ما ذكره الشهاب الخفاجي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في شرح الشفا حيث قال : و في الدر المنضود لشيخ مشائخنا ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أنّ التشبيه للمجموع بالمجموع . فإنّ الأنبياء من آل إبراهيم كثيرون . فإذا قبلت (قلت : لعل العبارة "قوبلت") تلك الذوات الكثيرة من إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ و آله بالصفات الكثيرة التي لمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمكن انتفاء التفاضل . انتهى .

و قال النووي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في شرح صحيح مسلم : القول الثالث : إنّه على ظاهره . و المراد : اجعل لمحمد و آله صلاة بمقدار الصلاة التي لإبراهيم و آله . و المسؤول مقابلة الجملة بالجملة . فإنّ المختار في الآل كما قدمناه أنّهم جميع الأتباع . و يدخل في آل إبراهيم خلائق لا يحصون من الأنبياء . ولا يدخل في آل محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبي . فطلب إلحاق هذه الجملة التي فيها نبي واحد بتلك الجملة التي فيها خلائق من الأنبياء . انتهى .

قلت : ما ذكره النووي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى جواب آخر يغاير جواب الشهاب المنقول من ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ، إذ جواب النووي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى مبني على الظاهر . و هو تسليم أفضلية المشبّه به على المشبّه . و جواب الشهاب متفرع على انتفاء التفاضل و إنكار الأفضلية ، بناءً على ما يعلم من ظاهر كلامه كما لا يخفى على المتدبر .

الباب الثالث والعشرون
في الجواب الرابع والعشرين

اعلم : أنّ النبي ﷺ نبي الأنبياء و المرسلين و أممهم جميعًا كما أنّه نبي أمّته ﷺ . فإنّه ﷺ أرسل إلى الناس كافّةً و إلى الجن بالإجماع و إلى الملائكة على قول و إلى الأنبياء و الرسل كلهم عند المحققين . وكل ذلك يدخل في قوله تعالى : وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ . و قال تعالى : تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا . و قوله عليه الصلاة والسلام : بعثت إلى الناس كافّةً . فرسالتهم وكمالاتهم فيض من فيوض رسالة نبينا ﷺ وكمالاته . فله النبوة بالإصالة و لغيره بالظلية . وهو الداخل في قصر النبوة بالحقيقة و غيره من الأنبياء طفيليون . فلو لم يلج ما استطاعوا أن يلجوا .

فنبوتهم طلعت من مطلع نبوته ﷺ . و فضائلهم نبعت من منبع رسالته . و شرائعهم جداول من بحر ذاته و نفسه . و أديانهم أشعة من بدره و شمسه . فهو قبلة النبوات وكعبة الرسالات و أمّ كلّ الكمالات و أصل جميع المقامات . كشجرة طيبة أصلها ثابت و فرعها في السماء . ينتفع العالم من فواكهها و ثمراتها و فوائدها و بركاتها .

خَلِيلَيَّ مَا هٰذا بِهَزۡلٍ وَ إِنَّمَا　　حَدِيثٌ عَجِيبٌ مِن بَدِيعِ الۡغَرَائِبِ
قَدۡ خابَ مِنۡ خَال ذَا هُزُوًا وَ هَذۡرَمَةً　　وَ فَازَ مَنۡ كانَ فيهِ حِدَّةُ الۡبَصَرِ

إذا عرفت هذا سنح لك أنّ نبينا ﷺ أفضل الأنبياء ، و جميع الرسل و الأنبياء و منهم إبراهيم و موسى و عيسى عليهم الصلاة والسلام من أمّة النبي ﷺ .

ولا يلزم من قولنا " كما صلّيت على إبراهيم " أنّه أفضل من النبي ﷺ إذ كلّ فضل و مجد أوتيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام فهو في الحقيقة غرفة وافرة اغترفت من بحر كمالات نبينا ﷺ و فضائله ، و عين جارية من أنهار بركاته ﷺ و مزاياه . و أي نقص في أن يأخذ السلطان مالاً من خزائنه أو يطلب شيئا من أمينه و خازنه .

و مثل ذلك كمثل سلطان صنع مأدبة فيها أنواع كثيرة من النعم و الفواكه و الأطعمة . و دعا لها الوزير و الأمراء و الخدّام الخاصة و عامّة الناس . فجاؤوا و أخذ كلّ واحد منهم حظه الأوفر و نال مطعمه . و كان أكثرهم أخذًا و أحسنهم و أوفرهم سرورًا و كيفًا الوزير . ثم أراد الملك في الآخر المجاراة معهم و المشاركة مع الآخذين الطاعمين و الجلوس على السفرة . فقال لقاسم هناك : أعطني من أنواع النعم و الأطعمة بقدر ما أعطيته الوزير . فلا يلزم من هذا أن يكون الملك أنزل من الوزير ، ولا أن يكون ما عنده من النعم و الأطعمة أقلّ مما عند الوزير . إذ كل ما عند الوزير و عند سائر الخدّام و الأمراء مملوك هذا الملك صاحب المأدبة . فهو المحسن إليهم و المنعم عليهم .

نعم ، هنا نكتة و هي أنّ في قول الملك " أعطني بقدر ما أعطيته الوزير " إشارة إلى أنّ الوزير أكبر و أفضل من سائر المدعوّين في المأدبة و كلّ الطاعمين و الآخذين للأطعمة و أنّه الأكمل حظًّا و الأجلّ حصّةً ما خلا الملك صاحب المأدبة .

من ههنا يتيسر لك فهم التشبيه في قولنا " كما صليت على إبراهيم " . فنبينا ﷺ نبي المرسلين و الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . و هم من أمّته عليه الصلاة والسلام . و قد ثبت أنّ كل كمال و فضل ثبت للأمة فهو من فيض نبيهم و بركة رسولهم . فهو ﷺ صاحب مأدبة النبوة و ملاك أنواع فضائل الرسالة . و كمالات إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الأصل من كمالات نبينا ﷺ نالها إبراهيم عليه الصلاة والسلام طفيليًا ببركة النبي ﷺ . و لولاه ما كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام ولا غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا هذه الدنيا .

وَ مِنَ الْمُحَالِ الْمَشْيُ فِي طُرُقِ الصَّفَا   يا سَعْد من غير اتباع الْمُصْطَفَى

فلا يثبت من تشبيه قولنا " كما صليت على إبراهيم " أفضلية إبراهيم على جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين نبينا ﷺ منهم . نعم ، في هذا التشبيه نكتة بديعة . و هي الإشارة إلى أنّ إبراهيم أفضل من سائر الأنبياء الجالسين على سفرة النبوة النائلين من نعم تلك المأدبة إلّا نبينا ﷺ .

فإبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ليس بأفضل منه ﷺ ، إذ هو صاحب تلك المأدبة و مالك هذه السفرة بإعطاء الله تعالى و منّه عليه . إلاّ أنّه ﷺ لما جاء في الظاهر و في نشأة جسمه متأخّرًا عن إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ و الأنبياء و إن كان في الباطن نبيًّا متقدمًا و آدم بين الماء و الطين و بين الروح و الجسد ، و أراد أخذ حظّ على حدة و حصّة منفردة خصّ ذكر إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . و قال : اللّٰهم ! يا قاسم الخيرات و الكمالات ! صل عليّ كما صلّيت على إبراهيم ، و آتني من الكمالات و الفضائل بقدر ما آتيت إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . فأين يحصل أنّ إبراهيم أفضل من محمد عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، و الحال أنّ كل ما له فهو من كمالات النبي ﷺ .

و أقول بعض الناس عنك كناية خوفَ الوشاة و أنت كلُّ الناس

ثم إنّما سأل رسول الله ﷺ لنفسه مقدار ما ناله إبراهيم لإظهار فضل إبراهيم و إدامةً لاسمه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مادام الملوان و أداءً لحق أبوّته له ﷺ أو لمقصد آخر شاءه و مرام غير ذلك رامه . و الله تعالى أعلم .

في مَجدِكم لا يَلحَقُ النُّقْصَانُ مَنْ هذا وَ لي فيه أُلوفُ كَرَامَةً

فصل

ثم كون نبينا ﷺ نبي الأنبياء و المرسلين صرّح به كثير من المحققين كالحافظ السيوطي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ، صرّح به في كتابه " الخصائص الكبرى للنبي ﷺ " ، و الحافظ الشيخ تقي الدين السبكي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ، و ألّف في ذلك رسالة سماها " التعظيم و المنّة في لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ".

قال الشيخ السبكي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في هذه الآية أي آية " لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ " : من التنويه بالنبي ﷺ و تعظيم قدره ما لا يخفى . و فيه مع ذلك أنّه على تقدير مجيئه في زمانهم يكون مرسلاً إليهم . فتكون نبوته و رسالته عامّةً لجميع الخلق من زمن آدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى يوم القيامة . و تكون الأنبياء و أممهم كلّهم من أمّته . و يكون قوله " بعثت إلى الناس كافةً " لا يختص به الناس من زمانه إلى يوم القيامة بل يتناول من قبلهم أيضًا .

و يتبين بذلك معنى قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ "كنت نبيًّا و آدم بين الروح و الجسد ". و أنّ من فسره بعلم

الله بأنّه سيصير نبيًّا لم يصل إلى هذا المعنى ، إذ لا خصوصية فيه لنبينا ﷺ . لأنّ جميع الأنبياء كذلك . كان الله يعلم نبوتهم في ذلك الوقت و قبله . فلابد من خصوصية للنبي ﷺ ، لأجلها أخبر بهذا الخبر إعلامًا لأمّته ليعرفوا قدره عند الله .

فالصحيح في معنى الحديث أنّه قد جاء أنّ الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد . ففي قوله "كنت نبيًّا و آدم بين الروح و الجسد " إشارة إلى روحه الشريفة أو إلى حقيقته . و الحقائق تقصر عقولنا عن معرفتها . و إنّما يعلمها خالقها و من أمدّه بنور إلهيّ . فأتى الله تعالى حقيقة النبي ﷺ وصف النبوة في الأزل بأن يكون خلقها متهيئة لذلك ، و أفاضها عليها من ذلك الوقت . و لم يؤت وصف النبوة غير حقيقة النبي ﷺ من حقائق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فصار نبيًّا و كتب اسمه على العرش و أخبر عنه بالرسالة ليعلم ملائكته و غيرهم كرامته عنده .

فحقيقته موجودة من ذلك الوقت وإن تأخّر جسده الشريف المتصف بها . و غيره من أهل الكرامة قد تكون إفاضة الله تعالى تلك الكرامة عليه بعد وجوده بمدة كما يشاء سبحانه . فالنبي ﷺ خير الخلق فلا كمال لمخلوق أعظم من كماله ولا محل أشرف من محله . فعرفنا بالخبر الصحيح حصول ذلك الكمال من قبل خلق آدم لنبينا ﷺ من ربّه سبحانه و أنّه أعطاه النبوة من ذلك الوقت .

ثم أخذ له المواثيق على الأنبياء ليعلموا أنّه المقدم عليهم و أنّه نبيهم و رسولهم . قال تعالى : وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ .

فانظر هذا التعظيم العظيم للنبي ﷺ من ربّه سبحانه وتعالى . فإذا عرفت ذلك فالنبي ﷺ هو نبي الأنبياء . و لهذا ظهر ذلك في الآخرة حيث تكون الأنبياء جميعهم تحت لوائه ، و في الدنيا كذلك ليلة الإسراء حيث صلّى بهم . و لو اتفق مجيئه في زمن آدم و نوح و إبراهيم و موسى و عيسى عليهم الصلاة والسلام وجب عليهم و على أممهم الإيمان به و نصرته . و بذلك أخذ الله الميثاق عليهم .

فنبوّته عليهم و رسالته إليهم معنى حاصل له . و إنّما أمره يتوقف على اجتماعهم معه . فتأخّر ذلك الأمر راجع إلى وجودهم ، لا إلى عدم اتصافهم بما يقتضيه . و فرق بين توقف الفعل على قبول

المحل و توقفه على أهلية الفاعل . فهنا لا توقف من جهة الفاعل ولا من جهة ذات النبي ﷺ الشريفة . و إنّما هو من جهة وجود العصر المشتمل عليه . فلو وجد في عصرهم لزمهم اتباعه بلا شكّ . و لذا ورد في الحديث : لو كان موسى و عيسى حيَّين ما وسعهما إلّا اتباعي .

و لهذا يأتي عيسى عليه الصلاة والسلام في آخر الزمان على شريعة نبينا ﷺ ، وهو نبي كريم على حاله ، لا كما يظن بعض الناس أنّه يأتي واحدًا من هذه الأمّة . نعم ، هو واحد من هذه الأمّة لما قلناه من اتباعه للنبي ﷺ . و إنّما يحكم بشريعة نبينا ﷺ بالقرآن و السنّة ، وهو نبي كريم على حاله لم ينقص منه شيء .

و كذلك لو بعث النبي ﷺ في زمانه أو زمان موسى و إبراهيم و نوح و آدم عليهم الصلاة والسلام كانوا مستمرّين على نبوّتهم و رسالتهم إلى أممهم . و النبي ﷺ نبي عليهم و رسول إلى جميعهم . فنبوّته و رسالته أعمّ و أشمل و أعظم و متّفق مع شرائعهم في الأصول لأنّها لا تختلف . و تقدم شريعته ﷺ فيما عساه يقع الاختلاف فيه من الفروع . إمّا على سبيل التخصيص و إمّا على سبيل النسخ ، أو لا نسخ ولا تخصيص بل تكون شريعة النبي ﷺ في تلك الأوقات بالنسبة إلى أولئك الأمم ما جاءت به أنبياؤهم ، و في هذا الوقت إلى هذه الأمّة هذه الشريعة . و الأحكام تختلف باختلاف الأشخاص و الأوقات .

و بهذا بان لنا معنى حديثَين كانا خفيَّين عنّا :

أحدهما : قوله "بعثت إلى الناس كافة" . كنّا نظن أنّه من زمانه إلى يوم القيامة . فبان أنّه جميع الناس أوّلهم و آخرهم .

والثاني : قوله ﷺ "كنت نبيًا و آدم بين الروح و الجسد" . كنّا نظن أنّه بالعلم . فبان أنّه زائد على ذلك على ما شرحناه . انتهى ما قال السبكي رحمه الله تعالى بخلاصته .

و قد فصلت الأقوال في تفسير قوله عليه الصلاة والسلام "كنت نبيًا و آدم بين الروح و الجسد" في الفصل الثالث من الباب الثاني من هذا الكتاب ، فراجعه .

و قد تكلم الشيخ الأكبر على عموم رسالته ﷺ بطرز كشفي بديع مفصلًا في الباب السادس و الثلاثين من فتوحاته ج١ ص٢٢٥ . فراجعه .

قال العارف الجامي في شرح فصوص الحكم ص٧٠ بعد بحث ابن عربي على خاتم الأولياء و خاتم

الرسل : اعلم : أنّ الحقيقة المحمدية مشتملة على حقائق النبوة و الولاية كلّها . فأحدية جمع حقائق النبوة ظاهرها و أحدية جمع حقائق الولاية باطنها . فالأنبياء من حيث أنّهم أنبياء مستمدون من مشكاة نبوته الظاهرة ، و من حيث أنّهم أولياء مستمدون من مشكاة ولايته الباطنة . و كذا الأولياء التابعون مستمدون من مشكاة ولايته . فالأولياء والأنبياء كلّهم مظاهر لحقيقته . الأنبياء لظاهر نبوته ، و الأولياء لباطن ولايته .

و خاتم الأولياء مظهر أحدية جمعه لحقائق ولايته الباطنة . فالاستمداد من مشكاة خاتم الأولياء بالحقيقة هو استمداد من مشكاة خاتم الأنبياء . فإنّ مشكاته بعض من مشكاته . فلا استمداد بالحقيقة إلّا من مشكاة خاتم الأنبياء . و إنّما أضيفت الإستمداد إلى خاتم الأولياء باعتبار حقيقته التي هي بعض من حقيقة خاتم الأنبياء . و معنى استمداد خاتم الأنبياء منه بحسب ولايته استمداده بحسب النشأة العنصرية من حقيقة هي بعض من حقيقته . و ذلك الولي الخاتم مظهره . فهذا بالحقيقة استمداد من نفسه لا من غيره . والله أعلم . انتهى كلام الجامي بلفظه .

إذا فهمت هذا فأقول على طبق هذا : لما كانت الأنبياء و منهم إبراهيم مظاهر لحقيقة النبي ﷺ و مستمدون في نبوّتهم و ولايتهم من مشكاة نبوة نبينا ﷺ و ولايته فاستمداد نبينا ﷺ في صلاته من صلاة إبراهيم و طلبه ﷺ من الله سبحانه ذلك لنفسه في تشبيه قوله " اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم " بالحقيقة استمداد من مشكاة صلاة ذاته ﷺ لا غيره .

فإنّ مشكاة صلاة إبراهيم عليه الصلاة والسلام و كمالاته بعض من مشكاة صلاة نبينا و كمالاته ﷺ و مظهر من آلاف آلاف مظاهره ﷺ . فلا يلزم استكماله ﷺ بالغير من الأنبياء ولا كينونة أحدهم أفضل و أجلّ منه ﷺ .

فصل

لما أنّ نبوته ﷺ جامعة لنبوات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام و ولايته لولاياتهم و شريعته لشرائعهم ترى في بعض الآثار و عبارات الصوفية العارفين الكاملين عند بيان مراتب الأولياء أنّ الأولياء منهم من تكون

ولايته مأخوذة من ولاية عيسى عليه الصلاة والسلام ، و منهم من تكون ولايته مستمدة من موسى عليه الصلاة والسلام ، و منهم من يكون على قدم إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، و منهم من يكون على قدم نوح عليه الصلاة والسلام و نحو ذلك .

و يستعجم المراد من أمثال هذه الآثار و العبارات على بعض الناس حيث يقول : كيف يكون فرد من هذه الأمّة على قدم نبي غير نبينا صلى الله عليه وسلم مع إنّا أمرنا باتباعه و اتباع شريعته و اعتقاد نسخ سائر الأديان .

و توضيح المراد أنّ ولاية كل نبي بعض من ولاية نبينا صلى الله عليه وسلم ، و رسالة كلّ رسول مستمدة من رسالته صلى الله عليه وسلم . فكون ولي على قدم عيسى عليه الصلاة والسلام أو إبراهيم عليه الصلاة والسلام مثلاً ينافي كونه على قدم نبينا عليه الصلاة والسلام ولا كونه من هذه الأمّة . هذا . والله أعلم .

قال الإمام العارف الشيخ أحمد السرهندي رحمه الله تعالى في مكتوباته بعد بيان العبادة والبحث على ثمراتها : و حصول هذه النعمة العظمى موقوف على كمال اتباع شريعة النبي صلى الله عليه وسلم . فإنّ شريعة كلّ نبي التي أعطاه الله تعالى إيّاها من طريق النبوّة مناسبة لولايته . فإنّ التوجّه في الولاية إلى الحق بالكلية . فإذا نزل بإذن الله سبحانه إلى مقام النبوة ينزل بذلك ، و يجمع ذلك الكمال مع التوجّه إلى الخلق . و سبب حصول كمالات مقام النبوة هو ذلك النور أيضًا . ولهذا قيل : ولاية النبي أفضل من نبوّته . فلا جرم تكون شريعة كل نبي مناسبة لولايته ، و اتباع ذلك الشريعة مستلزم للوصول إلى تلك الولاية .

فإن قيل : إنّ بعض من يتبع نبينا صلى الله عليه وسلم لا نصيب له من ولايته صلى الله عليه وسلم ، بل هو على قدم نبي آخر ، وله نصيب من ولاية ذلك النبي ، لا من ولاية نبينا صلى الله عليه وسلم .

أجيب : أنّ شريعة نبينا صلى الله عليه وسلم جامعة لجميع الشرائع . و الكتاب الذي أنزل عليه شامل لجميع الكتب السماوية . فاتباع هذه الشريعة كأنّه اتباع لجميع الشرائع . فمن له مناسبة لنبي من الأنبياء يأخذ نصيبًا من ولاية ذلك النبي على قدر استعداده ، ولا محذور فيه .

بل أقول : إنّ ولاية نبينا صلى الله عليه وسلم حاوية لولايات جميع الأنبياء عليهم الصلاة و التسليم . فالوصول إلى واحدة من تلك الولايات وصول إلى جزء من أجزاء هذه الولاية الخاصة . و سبب عدم الوصول إلى تلك الولاية القصور في كمال متابعته عليه الصلاة والسلام . و للقصور درجات . فلا جرم حصل

التفاوت في درجات الولاية . ولو تيسر كال الاتباع لأمكن الوصول إلى تلك الولاية . و الاعتراض إنّما يرد إذا حصلت الولاية المحمدية لمتابعي شرائع الأنبياء الأخر عليهم الصلاة والسلام . و إذ ليس فليس . انتهى كلام الشيخ العارف . "المكتوب السابع و السبعون من المجلد الأوّل" ص ٨٩ .

و قال أيضًا الشيخ المجدد السرهندي المذكور في المكتوب الحادي و الخمسين و المائتين من المجلد الأوّل ص ٢٢٧ : اعلم : أنّ ولاية موسى وقعت على يمين الولاية المحمدية و الولاية العيسوية على يسارها . و لحضرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه و حضرة الفاروق رضي الله عنه مع وجود الكمالات المحمدية فيهما البالغة أقصى درجات الولاية المصطفوية مناسبة في طرف الولاية لإبراهيم و في طرف الدعوة لموسى عليهما الصلاة والسلام . و هما حاملا ثقل النبوة المحمدية . و لعلي كرم الله وجهه مناسبة في كلا الطرفين لسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام . و لعثمان رضي الله عنه مناسبة في كلا الطرفين لنوح عليه الصلاة والسلام .

و حيث كان عيسى عليه الصلاة والسلام روح الله و كلمته كان طرف ولايته غالبًا في جانب نبوته . و كذا شأن علي رضي الله عنه . فإنّ طرف ولايته غالب بهذه المناسبة . ثم الصديق رضي الله عنه و الفاروق رضي الله عنه حاملا ثقل النبوة المحمدية على اختلاف المراتب . و علي رضي الله عنه حامل ثقل الولاية المحمدية . و ذوالنورين رضي الله عنه باعتبار برزخيته حامل كلا الطرفين . و يمكن أن يكون إطلاق ذي النورين عليه بهذا الاعتبار أيضًا . و المهدي الموعود مثل علي رضي الله عنه . و كان إحدى قدمي عيسى عليه الصلاة والسلام على رأس عليّ ، والأخرى على رأس المهديّ .

ثم إنّ النبوة أفضل من الولاية و إن كانت ولاية النبي . و سلسلة النقشبندية لكونها منتسبة إلى الصديق رضي الله عنه الذي هو حامل ثقل النبوة كانت أتمّ و أجلّ و فوق جميع السلاسل . و علي رضي الله عنه لمّا كان حاملاً لثقل الولاية المحمدية كان تربية مقام الأقطاب والأوتاد والأبدال الذين هم من أولياء العزلة مفوضة إلى إمداده وإعانته ، و رأس قطب الأقطاب الذي هو قطب المدار تحت قدمه و يجري بأمره رضي الله عنه . انتهى بتصرف .

و أخرج أبونعيم في الحلية عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ لله في الخلق ثلاثمائة قلوبهم على قلب آدم صفي الله (عليه الصلاة والسلام) . ولله في الخلق أربعون قلوبهم على قلب موسى

(عليه الصلاة والسلام) . ولله في الخلق سبعة قلوبهم على قلب إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) . ولله في الخلق خمسة قلوبهم على قلب جبريل . ولله في الخلق ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل . ولله في الخلق واحد قلبه على قلب إسرافيل . فإذا مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة . و إذا مات من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة . و إذا مات من الخمسة أبدل الله مكانه من السبعة . و إذا مات من السبعة أبدل الله مكانه من الأربعين . و إذا مات من الأربعين أبدل الله مكانه من الثلاثمائة . و إذا مات من الثلاثمائة أبدل الله مكانه من العامّة . فبهم يحيي و يميت و يمطر و ينبت و يدفع البلاء .

قيل لعبد الله : كيف بهم يحيي و يميت ؟ قال : لأنّهم يسألون الله إكثار الأمم . فيكثرون و يدعون على الجبارة فيقصمون . و يستسقون فيسقون . و يسألون فتنبت لهم الأرض . و يدعون فيدفع بهم أنواع البلاء . حلية ج١ ص٩ ، خصائص ج٣ ص٢١٣ .

و قال الشيخ الأكبر محي الدين في المجلد الثاني من فتوحاته في الباب الثالث و السبعين ص٧ : قيل لبعضهم :كم الأبدال ؟ فقال : أربعون نفسًا . فقيل له : لم لا تقول أربعون رجلًا ؟ فقال : قد يكون فيهم النساء . ألقابهم عبد الحي و عبد العليم و عبد القادر و عبد المريد . و منهم رضي الله عنهم الأبدال (أي الخواصّ منهم) . وهم سبعة لا يزيدون و لا ينقصون . يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة . لكل بدل إقليم فيه ولايته .

الواحد منهم على قدم الخليل عليه الصلاة والسلام . و له الإقليم الأوّل . و أسوقهم على الترتيب إلى صاحب الإقليم السابع . و الثاني على قدم الكليم عليه الصلاة والسلام . و الثالث على قدم هارون . و الرابع على قدم إدريس . و الخامس على قدم يوسف . و السادس على قدم عيسى . و السابع على قدم آدم على الكل الصلاة والسلام .

وهم عارفون بما أودع الله سبحانه في الكواكب السيّارة من الأمور و الأسرار في حركاتها و نزولها في المنازل المقدرة . و لهم من الأسماء أسماء الصفات . فمنهم عبد الحي و عبد العليم و عبد الودود و عبد القادر . و هذه الأربعة هي أربعة أسماء الأوتاد . و منهم عبد الشكور و عبد السميع و عبد البصير . لكلّ صفة إلهية رجل من هؤلاء الأبدال ، بها ينظر الحق إليهم . و سموا هؤلاء أبدالًا لكونهم إذا فارقوا موضعًا

و يريدون أن يخلفوا بدلاً منهم في ذلك الموضع لأمر يرونه مصلحة و قربة يتركوا به شخصًا على صورته . لا يشكّ أحد ممن أدرك رؤية ذلك الشخص أنّه عين ذلك الرجل . و ليس هو بل هو شخص روحانيّ يتركه بدله بالقصد على علم منه . فكلّ من له هذه القوّة فهو البدل ، و من يقيم الله عنه بدلاً في موضع ما ولا علم له بذلك فليس من الأبدال المذكورين . انتهى كلام ابن عربي رحمه الله تعالى .

و قال أيضًا الشيخ محي الدين رحمه الله تعالى في الباب السادس و الثلاثين من فتوحاته ج١ ص٢٢٢ : اعلم ، أيّدك الله تعالى : أنّه لما كان شرع محمد صلى الله عليه وسلم تضمن جميع الشرائع المتقدمة ، و أنّه ما بقي لها حكم في هذه الدنيا إلّا ما قررته الشريعة المحمدية . فبتقريرها ثبتت فتعبدنا بها نفوسنا من حيث أنّ محمدًا صلى الله عليه وسلم قررها ، لا من حيث أنّ النبي المخصوص بها في وقته قررها . فلهذا أوتي رسول الله صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم .

فإذا عمل المحمدي فلا يخلو أن يصادف في عمله طريقة من طرق نبي من الأنبياء المتقدمين مما تتضمنه هذه الشريعة . فإذا فتح له في هذه الطريقة فإنّه ينتسب إلى صاحب تلك الشريعة . فيقال فيه "عيسوي" أو "موسوي" أو "إبراهيمي" . و ذلك لتحقيق ما تميز له من المعارف ، و ظهر له من المقام من جملة ما هو تحت حيطة شريعة محمد صلى الله عليه وسلم . فيتميز ذلك للعامل بتلك النسبة أو بذلك النسب من غيره ليعرف أنّه ما ورث من محمد صلى الله عليه وسلم إلّا ما لو كان موسى أو غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيًّا و اتبعه ما ورث إلّا ذلك منه .

ثم لا يقال في أحد من أهل هذه الطريقة : إنّه محمدي إلّا لشخصين : إمّا شخص اختصّ بميراث علم من حكم لم يكن في شرع قبله . فيقال فيه "محمديّ" . و إمّا شخص جمع المقامات ثم خرج عنها إلى لا مقام كأبي يزيد و أمثاله . فهذا أيضًا يقال فيه "محمديّ" . و ما عدا هذين الشخصين فينسب إلى نبي من الأنبياء . ولهذا ورد في الخبر : إنّ العلماء ورثة الأنبياء . و لم يقل : ورثة نبي خاص . انتهى كلام ابن عربي رحمه الله تعالى بحذف .

و قال أيضًا في آخر الباب الخامس و الأربعين منها ج١ ص٢٥٣ بعد ذكر أصحاب الأنوار و غيرها : و من الرجال الواصلين من ليس لهم معرفة بهذا المقام ولا بالأسماء الإلٰهية . و لكن لهم وصول إلى حقائق الأنبياء و لطائفهم . فإذا وصلوا فتح لهم باب من لطائف الأنبياء على قدر ما كانوا عليه من

الأعمال في وقت الفتح . فمنهم من يتجلى له حقيقة موسى عليه الصلاة والسلام فيكون موسوي المشهد . و منهم من يتجلى له لطيفة عيسى عليه الصلاة والسلام . و هكذا سائر الرسل . فينسب إلى ذلك الرسول بالوراثة ولكن من حيث شريعة محمد صلى الله عليه وسلم المقررة من شرع ذلك النبي الذي تجلى له ، مثل قوله تعالى " أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ " . فإنّ ذلك من شرع موسى عليه الصلاة والسلام ، و قرره الشارع لنا فيمن خرج عنه وقت الصلاة بنوم أو نسيان . انتهى كلامه .

فصل

لما ثبت أنّ نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم جامعة لنبوات جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام و شريعته لشرائعهم ناسب أن يكون كتابه الذي أعطيه عليه الصلاة والسلام جامعًا لجميع الكتب و الصحف التي أعطوها عليهم الصلاة والسلام .

أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن الحسن البصري قال : أنزل الله مائة و أربعة كتب . أودع علومها أربعة : منها التوراة و الإنجيل و الزبور و الفرقان . ثم أودع علوم التوراة و الانجيل و الزبور في الفرقان . ذكره السيوطي في الخصائص ج٣ ص١٢٩ .

فصل

و لهذا ينبغي أن يعطى جميع المعجزات التي أعطيها الأنبياء المتقدمون ، ليكون هو صلى الله عليه وسلم جامعًا لمعجزاتهم . و قد صرّح كثير من العلماء المحققين بذلك .

قال الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى في الخصائص ج٣ ص١٣١ : و اختص هو صلى الله عليه وسلم بأنّ معجزته مستمرة إلى يوم القيامة . وهي القرآن . و بأنّه أكثر الأنبياء معجزات . فقد قيل : إنّها تبلغ ألفا . و قيل : ثلاثة آلاف . ذكر ذلك البيهقي .

قلت : و مما يعد في خصائصه أنّه جمع له كلّ ما أوتيه الأنبياء من معجزات و فضائل ، و لم يجمع ذلك لغيره ، بل اختص كلٌّ بنوع . انتهى بحذف . هذا . والله أعلم بالصواب .

الباب الرابع والعشرون
في الجواب الخامس والعشرين

ذكر الحافظ السخاوي نقلاً عن البعض ، ما حاصله : أنّ التشبيه إنّما هو في دعاء الخليلين للأمّة لا في الصلاتين ولا في دعاء الأمم . و إن شئت فقل : التشبيه بين استجابة دعاء محمد و إبراهيم عليهما الصلاة والسلام في أمّة كل واحد منهما و في بنيهما . قال في القول البديع : المراد اللّهم استجب دعاء محمد في أمّته كما استجبت دعاء إبراهيم في بنيه . و يعكر على هذا عطف الآل في الموضعين . انتهى .

فعلى هذا نظير دعاء الصلاة هذا ما دعا رسول الله ﷺ للمدينة الطيبة و لأهلها . أخرج الترمذي وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أنّ رسول الله ﷺ طلع له أُحد . فقال : هذا جبل يحبنا و نحبه . اللّهم إنّ إبراهيم حرم مكة و إنّي أحرم ما بين لابتيها .

و أخرج الترمذي عن علي رضي الله عنه حديثًا و فيه : فقال رسول الله ﷺ : ايتوني بوضوء . فتوضأ ثم قام فاستقبل القبلة . فقال : اللّهم إن إبراهيم كان عبدك و خليلك و دعا لأهل مكة بالبركة ، و أنا عبدك و رسولك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم في مدّهم و صاعهم مثلَي ما باركت لأهل مكة مع البركة بركتين . هذا . والله أعلم بالصواب .

الباب الخامس والعشرون
في الجواب السادس والعشرين

الكاف في قولنا "كما صلّيت" ليست للتشبيه حتى يرد ما يرد ، بل هو اسم بمعنى "مثل" . قال الحافظ السيوطي في الإتقان ج١ ص ١٦٧ : ترد الكاف اسمًا بمعنى "مثل". فتكون في محل إعراب و يعود عليها الضمير . قال الزمخشري في قوله تعالى "كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيْهِ" : إنّ الضمير في "فيه" للكاف في "كهيئة الطير" . أي فأنفخ في ذلك الشيء المماثل فيصير كسائر الطيور . انتهى .

و هذا الاحتمال و إن كان بعيدًا لكن لما ساغ في القرآن أفصح الكلام و أخذوا به في كتاب معجز الأنام جاز أخذه في غيره بالطريق الأولى . فنقول : الكاف بمعنى "مثل" . و لفظ "مثل" كثيرًا ما ينزع عنه معنى التشبيه و يجرد هو عنه . فيطلق و يراد به الذات . و يضاف و يقصد به عين المضاف إليه . صرّح به علماء الأدب و المعاني . و به خرّج الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام قوله تعالى "لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ" . قال بعض العلماء : إنّ الكاف زائدة للتوكيد . و قال الشيخ عزّ الدين رحمه الله : ليست بزائدة بل "مثل" يطلق و يراد به الذات أي عين المضاف إليه كقولك "مثلك لا يفعل هذا" أي أنت لا تفعله . كما قال :

ولم أَقُلْ مِثْلُكَ أَعْنِي بِهِ سِوَاكَ يَا فَرْدًا بِلاَ مُشْبِهِ

و قد قال تعالى : فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ . أي بالذي آمنتم به إيّاه . فالتقدير في الآية : ليس كذاته شيء . انتهى . كذا في الإتقان .

و من هذا القبيل "مثل" في قولنا هذا . فمعنى الصلاة : اللّهم صلّ على محمد و آله صلاةً مثل

ما صلّيت على إبراهيم و آله . أي صلاةً هي عين ما صلّيت على إبراهيم بأن يكون هو شريكًا مع إبراهيم عليه الصلاة والسلام في صلاته . فالكاف ليست للتشبيه . و الإشكال إنّما نشأ من تحقق التشبيه . و إذ ليس فليس . هذا . (٢١ من شهر رمضان ١٣٩٠ه قبيل صلاة العصر . ملتان .)

الباب السادس والعشرون
في الجواب السابع والعشرين

ههنا قاعدة شريفة . و هي أنّ التشبيه نوعان :

الأوّل : خبريّ نحو " زيد كالأسد " حيث يقصد فيه بيان حال طرف واحد فقط ، كزيد في هذا المثال . إذ تبين منه أنّه شجاع . و أمّا الطرف الآخر فيه فليس ذكره لبيان حال الأسد ، بل ذكر لشرح حال " زيد " ليس إلّا . و المشبّه به في هذا النوع يكون غالبًا أفضل و أسلم و أعلى و أعرف . و وجه ذلك أنّ المشبّه به بمنزلة المحكي عنه لبيان حال المشبه كزيد في المثال المذكور . والمحكي عنه أصل . و الحكاية فرع له . و أنّه مقيس عليه لبيان وصف المشبّه . و المقيس عليه قاعدة لما يقاس عليه . و إنّه بمنزلة المأخذ لشأن المشبّه . و المأخذ أساس لما يؤخذ منه . فيكون أفضل و أقوى .

والنوع الثاني : إنشائيّ . و هو على ثلاثة أقسام :

الأوّل : ما يكون الطرف الأوّل فيه إنشاء ، دون الثاني كقولك لرجل "أكرمني كما أكرمت فلانًا".

والثاني : بعكس هذا . و ليس له وجود كما لا يخفى على المتدبر .

والثالث : ما يكون كلا طرفيه إنشاء . و يختصّ هذا النوع بالدعاء .

و من هذا القبيل ما نحن فيه . فالمشبّه في قولنا "اللّهم صلّ على محمد كما صلّيت على إبراهيم" أمر . و هو إنشاء . و المشبّه به أيضًا إنشاء . إذ الإخبار عن الحمد و الصلاة إنشاء كما أنّ الماضي في الدعاء

إنشاء بمعنى الأمر . نحو غفر الله ، رحم الله ، نوّر الله قبره و نحو ذلك على ما صرّح به المحققون من النحاة .

فقولنا "كما صليت" خبر ظاهرًا و إنشاءٌ معنًى أو ضمنًا أو إشارةً . و بعد اللتيا و التي ليس هو مثل "كالأسد" في قولنا " زيد كالأسد " . إذ لا يراد فيه إلّا توصيف المشبّه و هو "زيد" بالشجاعة . وما تصدّينا لبيانه أريد فيه إنشاء وصف إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالصلاة كما أريد إنشاء وصف المشبّه محمد صلى الله عليه وسلم بها .

ولا يجب في هذا النوع كون المشبّه به أعلى و أجلى و أفضل من المشبّه لانتفاء حيثية كونه محكيًّا عنه و مأخذًا و أصلًا مقيسًا عليه للمشبّه . فلا إشكال . ولله الحمد و المنة .

الباب السابع والعشرون
في الجواب الثامن والعشرين

الكاف في قولنا "كما صليت على إبراهيم" ليست للتشبيه حتى يتوهم ما يتوهم من أفضلية إبراهيم عليه الصلاة والسلام . بل هي للتشابه . و التشابه بين أمرين يفيد تساويهما في الوصف المشترك فيه . و ينافيه التفاوت بأن يكون أحدهما أقوى و أعلى من الآخر . بخلاف التشبيه حيث يفيد غالبًا و نظرًا إلى الظاهر أنّ أحد الطرفين أقوى من الآخر أو أعلى منه .

و منه قوله عليه الصلاة والسلام : من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه ما بين صلاة الفجر و صلاة الظهر كتب له كأنّما قرأه من الليل . أخرجه مسلم عن عمر رضي الله عنه .

قال العلامة الشيخ عزّ الدين عبد اللطيف بن عبد العزيز المعروف بابن الملك المتوفّى ٧٩٧هـ في كتابه "مبارق الأزهار في شرح مشارق الأنوار" للإمام الصغاني المتوفّى ٦٥٠هـ ، عند شرح هذا الحديث : فإن قلت :كاف التشبيه في"كأنّما " يقتضي أن يكون الأجر فيه أنقص ، و ليس كذلك . قلت : هذا من باب التشابه لا التشبيه ، لأنّ تعيين ذلك الوقت لم يكن بتعيين الشرع حتى يكون التفويت منقصًا بوقوعه قضاء . ولو كان التعيين بطريق النذر يكون تشبيهًا . انتهى .

توضيحه : أنّ التشبيه تفعيل . يقال : شبّه عمرو زيدًا بالأسد في الشجاعة . فعمرو فاعل فقط . وما بعده مفعولان للفعل : الأوّل منهما مشبّه ، و الآخر مشبّه به . ولا يحتمل المشبّه أن يجعل مشبّهًا به ولا بالعكس لاتصاف كلّ واحد من المفعولين بوصف لا يوجد في الآخر . و هي الفرعية و الأصلية شجاعة . و المعروفية و غير المعروفية كذلك . فالأسد أصل في الشجاعة و معروف بها ، بخلاف زيد كما

لا يخفى .

ثم التشبيه يقاربه التشابه . فلا بعد في أن يتوسع و يستعمل أحدهما في معنى الآخر . بل هذا أمر واقع حيث يستعمل باب في معنى باب آخر كما لا يخفى على المتفحص لخاصيات الأبواب . و التشابه تفاعل . و هو تشارك أمرين فصاعدًا في أصل الفعل و مأخذه على السويّة صريحًا لفظًا و معنًى . بل المفاعلة أيضًا كذلك . فزيد و عمرو في قولنا " تضارب زيد و عمرو " و في قولنا " ضارب زيد عمرا "سواء في نسبة الضرب إليهما ، و في كون كلّ واحد منهما فاعلاً و مفعولاً لفظا و معنى في الأوّل ، و معنًى فقط في الثاني . فزيد ضارب و مضروب ، وكذا عمرو . لا فرق بينهما في ذلك .

قال الرضي في شرح الشافية : ثم اعلم : أنّه لا فرق من حيث المعنى بين فاعل و تفاعل في إفادة كون الشيء بين اثنين فصاعدًا . و ليس كما يتوهم من أنّ المرفوع في باب فاعل هو السابق بالشروع في أصل الفعل على المنصوب بخلاف تفاعل . ألا ترى إلى قول الحسن بن علي رضي الله عنهما لبعض من خاصمه : سفيه لم يجد مسافهًا . فإنّه رضي الله عنه سمّى المقابل له في السفاهة "مسافهًا" و إن كانت سفاهته ، لو وجدت ، بعد سفاهة الأوّل ، و تقول : إن شتمتَني فما أشاتمك . و نحو ذلك ، فلا فرق بين المغزى و المقصد الحقيقي بين البابين . انتهى كلام الرضي .

فعلى هذا إذا قلت "شابه زيد عمرا " فزيد مشبّه و عمرو مشبّه به . هذا في اللفظ . و أمّا في المعنى فكلّ واحد منهما مشبّه و مشبّه به . و إذا قلت " تشابه زيد و عمرو "كان كل واحد منهما مشبّهًا و مشبّهًا به لفظًا و معنًى . و التفاضل إنّما يتأتى من حيث المعنى بأن يكون أحدهما فرعًا و غير معروف في وجه الشبه . فلابد من جعله مشبّهًا . و الآخر أصلاً و معروفًا في ذلك . فيجب أن يكون مشبّهًا به . و المشبّه به يكون غالبًا أقوى و أعلى من المشبّه في وجه الشبه .

و أمّا إذا انتفى هذا التفاضل المعنوي كما في قولنا " تشابه زيد و عمرو " و قولنا " شابه زيد عمرا " ثبت التساوي في وجه الشبه . ولا يصح القول بأنّ أحدهما أقوى و أعلى من الآخر . فالكاف في قولنا "كما صلّيت على إبراهيم " للتشابه . و المشابهة دون التشبيه . و التشابه لا يقتضي أن يكون إبراهيم عليه الصلاة والسلام أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم .

و نظير ذلك قوله تعالى " وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا " . و وجه الشبه اللون كما قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، أو الاسم كما قال البعض . و روي عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أيضًا . روى الحسن : أنّ أحدهم يؤتى بالصحفة فيأكل منها . ثم يؤتى بأخرى فيراها مثل الأولى . فيقول ذلك : فيقول الملك : كُلْ ، فاللون واحد و الطعم مختلف .

و عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : ليس في الجنة من أطعمة الدنيا إلّا الأسماء . و لعدم التفاوت في اللون و الصورة و الاسم و لو أدنى تفاوت يقولون : هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ . ولا يقولون : هذا كالذي رزقنا من قبل .

فائدة

في ذكر وجوه تدل على الفرق بين التشابه و التشبيه ، بعضها أمثال و بعضها نظائر

منها : أنّ الآيات المقابلة للمحكمات تتصف بالتشابه دون التشبيه . قال الله تعالى : مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ .

ومنها : يقال : القرآن متشابه . ولا يقال : مشبه . و هذا كما قال علماء الأصول : إنّ القرآن كلّه متشابه . أي بعضه يشبه بعضًا في الحقّية و الصدق . ثم قولهم "بعضه يشبه بعضًا" يفيد فائدتين :

الأولى : أنّ التشابه أخ التشبيه حيث تضمن معنى التشبيه ، فيصح فيه إيراد الكاف مثلًا بين الآيتين ، لكن يطلق عليهما أنّهما من قبيل التشابه .

و الثانية : أنّه يستلزم المساواة في وجه التشابه . و هو ههنا الصدق و الحق و نحو ذلك . فلا يجوز أن يقال : هذه الآية أصدق من تلك الآية أو أحقّ و أقرب إلى الحق منها .

فقولنا "كما صلّيت على إبراهيم " مقام التشابه . جيء فيه حرف التشبيه و أريد التشابه و المساواة دون التفاضل . ولا يدلّ على فضل المشبّه به على المشبّه .

وبالجملة التشابه لا يفيد التفاضل . نعم ، لاحرج فيه من تحقق التفاضل بوجوه خارجيّة دالّة

على تفضيل المشبّه أو المشبّه به . و قد ثبت بالنصوص القاطعة أنّ محمدًا أفضل من إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، كما أنّ آيات القرآن العزيز متساوية في الاتصاف بالبلاغة و الفصاحة و الإعجاز ، مع أنّ بعضها في أقصى مراتب البلاغة و بعضها فيما يقرب من ذلك .

ومنها : قول المتكلمين "إنّ التشابه هو الاتحاد في الكيف ، و يسمّى مشابهةً أيضًا" . كذا في شرح المواقف في مقصد الوحدة و الكثرة . و في الأطول شرح المطوّل : التشابه في الاصطلاح الكلاميّ الاتحاد في العرض . انتهى . و الاتحاد يتحقق في المتساويين دون المتفاضلين .

ومنها : أنّهم لما عرفوا التشبيه بالدلالة على مشاركة أمر لأمر آخر ورد على ظاهر هذا أنّه شامل لنحو قولنا " قاتل زيد عمرا " و " جاءني زيد و عمرو " و ما أشبه ذلك ، مع أنّها ليست من التشبيه .

و أجابوا بوجوه : منها ما في كشاف اصطلاحات الفنون لمولانا محمد أعلى بن علي التهانوى رحمه الله تعالى حيث قال : التحقيق أنّ هذه الأمثلة على تقدير قصد المشاركة فيها تدل على التشابه . و فرق بين التشابه و التشبيه كما ستعرف . انتهى .

و قال بعد صفحة : إذا أريد الجمع بين شيئين من غير تفاضل في أمر مركّبًا كان أو مفردًا حسيًّا كان أو عقليًّا واحدًا كان أو متعددًا فالأحسن أن يسمّى تشابهًا لا تشبيهًا . و يجوز التشبيه أيضًا أي إطلاق التشبيه و إيراد حروفه . و ذلك تارةً يكون في المتساويين في وجه الشبه و تارةً يكون في المتفاوتين من غير قصد إفادة التفاوت . قال الشاعر :

رَقَّ الزجاجُ و راقَتِ الخمرُ … فتشابها فتشاكلَ الأمرُ
فكأنّه خمرٌ ولا قدَحٌ … و كأنّها قدَحٌ ولا خمرُ

انتهى بتوضيح يسير .

الباب الثامن والعشرون
في الجواب التاسع والعشرين

مثل ما ذكر قبيل عدة أبواب من إثبات الأفضلية الجزئية لإبراهيم عليه الصلاة والسلام لكن من وجه آخر و هو تعظيم الله إيّاه كسوا يوم الحشر . و الصلاة هي التعظيم كما قالوا . فإنّه عليه الصلاة والسلام أوّل ما يكسى يوم القيامة . و هذه منقبة لا تماثل و مرتبة لا تساجل .

أخرج مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول صلى الله عليه وسلم : إنّكم محشورون حفاة عراة . و أوّل من يكسى من الجنة يوم القيامة إبراهيم عليه الصلاة والسلام . يكسى حلّة من الجنة . و يؤتى بكرسيّ فيطرح له عن يمين العرش . ثم يؤتى بي فأكسي حلّة من الجنة لا يقوم لها البشر . ثم أوتي بكرسي فتطرح لى على ساق العرش .

و أخرج البيهقي في كتاب الأسماء و الصفات عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : أوّل من يكسى يوم القيامة إبراهيم قبطيتين و النبي حلّة حبرة و هو عن يمين العرش .

فسأل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك المقام الأسنى و المجد الأعلى و المشاركة فيه مع إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأن يكسى أوّلاً كما يكسى إبراهيم عليه الصلاة والسلام كذلك . و أن يعظّمه الله تعالى هذا التعظيم كما عظّم إبراهيم عليه الصلاة والسلام . ثم أمر أمّته أن يسألوا الله له ذلك . و يفهم من الحديث المذكور أنّ الله تقبّل دعاءه و دعاء أمّته . فيكسى أوّلاً كما يكسى إبراهيم أوّلاً . و إن كانت الأوّلية لإبراهيم عليه الصلاة والسلام حقيقية و لنبينا عليه الصلاة والسلام أضافية ، أي بالنسبة إلى سائر الناس ما خلا إبراهيم عليه الصلاة والسلام . بل يدلّ بعض النصوص أنّه صلى الله عليه وسلم يكسى مع إبراهيم عليه الصلاة والسلام في زمان واحد . فتكون الأوّلية لكليهما حقيقية كما روى البيهقي في كتاب الأسماء و الصفات

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : أوّل من يكسى يوم القيامة إبراهيم قبطيتين و النبي حلة حبرة و هو عن يمين العرش (عليهما الصلاة والسلام) .

فائدة

لا يقال : إنّ شأن الكسوة أقلّ من أن يدخل في مفهوم الصلاة و يشار بها إليه لأنّ العبرة لعلة الكسو و عليه كون إبراهيم عليه الصلاة والسلام عند الله تعالى ذا مرتبة فخيمة و مكانة عظيمة ، فطلب المشاركة معه في الكسو طلب المشاركة معه في تلك المرتبة العليا و المكانة المقدسة . و قد قبل الله هذا الدعاء فيكسوه صلى الله عليه وسلم حلّة أعلى من حلّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، حيث قال : فأكسى حلّة من الجنة لا يقوم لها البشر .

الباب التاسع والعشرون
في الجواب الموفّى الثلاثين

ما ذكره غير واحد من العلماء . منهم النووي في شرح مسلم و العسقلاني في المواهب و ابن عابدين في منحة الخالق على البحر الرائق و الخفاجي في شرح الشفا . و ذكروا أنّه منقول عن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى و هو أنّ معناه : صلّ على محمد . و تمّ الكلام هنا . ثم بعده كلام مستأنف . فقولنا " و على آل محمد " معناه : و صلّ على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم إلخ . فالمسؤول له مثل صلاة إبراهيم و آله إنّما هم آل محمد لا نفس محمد صلى الله عليه وسلم .

و في المواهب : أنّ قوله " اللّهم صل على محمد "كلام مقطوع عن التشبيه . فيكون التشبيه متعلّقًا بقوله "و على آل محمد" . و تعقب بأنّ غير الأنبياء لا يمكن أن يساووا الأنبياء . فكيف يطلب لهم صلاة مثل الصلاة التي وقعت لإبراهيم . و الأنبياء من آله . و يمكن أن يجاب عنه بأنّ المراد و المطلوب الثواب الحاصل لهم ، لا جميع الصفات التي كانت سببًا للثواب . انتهى .

قال العبد الضعيف : لا يبعد أن يقال في الجواب : إنّ المراد من التشبيه إلحاق الأدنى بالأعلى بطريق إدناء الأوّل إلى الثاني مبالغةً بالمشارفة . و ليس المراد جعل الأدنى عين الأعلى أو إيتاء الأدنى عين ما للأعلى ، ولا رفعه إلى أن يقام في وسط مقامات الأنبياء و في حاق صفوفهم كلا . و من ثم تراهم يقولون : فرق بين التشبيه و بين جعل شيء عين شيء آخر .

فبون بعيد بين " رأيت أسدًا يرمي " و بين "زيد كالأسد". ففي الأوّل جعل زيد من أفراد الأسد ادّعاءً ، ولا كذلك الثاني . و لذا قالوا : إنّ الأوّل أبلغ من الثاني . و نظير ذلك ما قال البدر العيني في

شرح حديث مشهور و هو " فلا يبصق قبل وجهه فإنّ الله قبل وجهه " و في بعض الروايات " أنّ ربّه بينه و بين القبلة ". قال : لا يصح على الظاهر ، لأنّ الله منزّه عن الحلول في المكان . فالمعنى على التشبيه : أي كأنّه بينه و بين القبلة . انتهى .

و كذا لا يبعد أن يقال في الجواب : إنّه من قبيل قول الفقهاء في بيان قعدة التشهد الأخيرة "ثم يدعو بما يشبه القرآن أو المأثور من الدعاء" . و يرد على قولهم سؤال مشهور ، و هو أنّ غير القرآن لا يشابه القرآن . فإنّ القرآن معجز و كلام العباد غير معجز .

وحلّ الإشكال كما في السعاية ج ٢ ص ٢٤٨ لمولانا عبد الحي اللكنوي رحمه الله تعالى حيث قال : قد تنبّه لوروده صاحب جامع المضمرات . فدفعه بقوله : لم يرد به حقيقة التشبيه ، لأنّ الدعاء كلام العباد و القرآن كلام الله . ولكن أراد به أن يدعو بدعوات يكون معناها معنى الدعوات المذكورة في القرآن . انتهى . فأشار إلى أنّ التشبيه ليس من جميع الوجوه بل من جهة اتحاد المعنى . انتهى ما في السعاية .

و حاصله : أنّه لم يرد هنا حقيقة التشبيه ، و لكن أراد أن يصلي الله على محمد و آله صلاةً يكون حاصلها و مآلها في المعنى ما هو حاصل صلاة إبراهيم عليه الصلاة والسلام و آله ، و هو التعظيم من الله في الدنيا و الآخرة .

و كذا لا يبعد أن يجاب : أنّ المراد التشبيه في نوع الصلاة . ولا وصمة في مشاركة غير الأنبياء مع الأنبياء في أنواع المناقب و المزايا مع تحقق التفاوت بين أفراد ذلك النوع كمشاركة الأمّة مع النبي في البشرية و في نوع الإيمان و في الصراط الذي أنعم الله به على الأنبياء . ولذا نطلب في كل صلاة و نقول : ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ . هذا . والله أعلم .

و أجاب العلامة البلقيني بجواب آخر حيث قال ، ما لفظه : أنّ تشبيه الصلاة على الآل بالصلاة على إبراهيم عليه الصلاة والسلام و آله ليس تشبيهًا في القدر ولا في الرتبة حتى يقال : إنّ غير الأنبياء لا يمكن أن يساويهم . بل التشبيه ههنا في أصل الصلاة . و ذلك قدر مشترك بين الأنبياء و الآل ، أعني مطلق الصلاة . و إذا كان كذلك فلا يلزم من طلب الصلاة للآل كالصلاة على إبراهيم عليه الصلاة والسلام و آله أن يكون طلبًا لما لم يمكن وقوعه و هو المساواة . فيسقط السؤال . انتهى .

فصل

في هذا الجواب للعلماء كلام و أبحاث لا يخلو ذكرها عن فوائد . فأقول و منه التوفيق : لهم عبارات شتى في بيان هذا الجواب . فقال البعض : في هذه الصلاة طلب لآله و ليسوا بأنبياء منازل إبراهيم عليه الصلاة والسلام و آله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . و التشبيه عائد لقوله "و آل محمد" . و هذا ما نقله الشيخ أبوحامد عن الشافعي رحمه الله تعالى . انتهى .

و في جلاء الأفهام : فالصلاة المطلوبة لآل محمد هي المشبهة بالصلاة الحاصلة لآل إبراهيم عليه الصلاة والسلام . و هذا نقله العمراني عن الشافعي رحمه الله تعالى . و التشبيه عائد إلى الآل فقط . انتهى .

و تعقبه ابن دقيق العيد بأنّ غير الأنبياء لا يمكن أن يساويهم . فكيف يطلب لهم وقوع ما لا يمكن وقوعه . انتهى .

قال ابن حجر رحمه الله تعالى : و يمكن الجواب عن ذلك بأنّ المطلوب الثواب الحاصل لهم لا جميع الصلاة التي كانت سببًا للثواب . انتهى .

قال الزرقاني في شرح المواهب وغيره : قال ابن القيم : إنّ الشافعي رحمه الله تعالى أجلّ من أن يقول مثل هذا . ولا يليق هذا بعلمه و فصاحته . فإنّه في غاية الركاكة و الضعف بعيد من كلام العرب .

و تعقّبه الحافظ ابن كثير وغيره فقال : ليس هذا التركيب المذكور ضعيفًا ركيكًا ، بل التقدير : اللّهم صل على محمد و صل على آل محمد كما صليت إلخ .

قال الزرقاني : و لم يظهر دفع الركة بهذا التقدير . فإنّه حاصل معناه . فلا يدفع التعقيب .

و قد تعقبه الزركشي أيضًا بأنّه مخالف لقاعدة الأصول في رجوع المتعلّقات إلى جميع الجمل ، و بأنّ التشبيه جاء في بعض الروايات من غير ذكر الآل . انتهى .

و في الفتوحات الربانية و غيرها : هذا ليس في محلّه . و أيّ مانع من تعلق الجار و المجرور بالمعطوف فقط ، لداع إليه . هو هنا خوف محذور إيهام أفضلية إبراهيم عملاً بالقاعدة السابقة . فما قاله الشافعي رحمه الله تعالى ظاهر لا غبار عليه . و أمّا أنّ غير الأنبياء لا يساويهم . فأجيب عنه : بأنّه لما تبعوا نبينا

ﷺ لم يبعد أن يسأل لهم الرحمة المقرونة بالتعظيم التي هي نظير ما للأنبياء . و الاستحالة المذكورة إن سلمت إنّما هي في غير من لم تكن له تبعًا . و قصد المماثلة في الصفات التي هي أسباب للثواب ، لا الثواب فحسب .

و مما يصرح بهذا أنّ الصلاة خاصة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام و مع ذلك يستعمل في تابعيهم تشريفًا لهم . انتهى . و في قول البديع للحافظ السخاوي رحمه الله تعالى : وقد نقل العمراني في البيان عن الشيخ أبي حامد : أنّه نقل هذا الجواب عن نص الشافعي رحمه الله تعالى حيث قيل له : رسول الله ﷺ أفضل الأنبياء ، فكيف قيل في الصلاة عليه "اللّهم صل على محمد إلخ" . فقال : قوله " اللّهم صل على محمد "كلام تام ، و قوله " و آل محمد " عطف عليه ، و "كما صليت إلخ " راجع إلى الذي يليه و هو " آل محمد ". انتهى .

فصل

لمّا أنّه اشتهر اعتراض ابن القيم رحمه الله تعالى على جواب الإمام الشافعي رحمه الله تعالى ناسب ذكر عبارته تبصرةً . قال في كتابه "جلاء الأفهام " بعد ذكر عدة أجوبة : و قالت طائفة أخرى : التشبيه عائد إلى الآل فقط . و تم الكلام عند قوله "اللّهم صل على محمد" . ثم قال : "و على آل محمد كما صلّيت على آل إبراهيم" . فالصلاة المطلوبة لآل محمد هي المشبهة بالصلاة الحاصلة لآل إبراهيم . و هذا نقله العمراني عن الشافعي رحمه الله تعالى . و هو باطل عليه . فإنّ الشافعي رحمه الله تعالى أجلّ من أن يقول مثل هذا . ولا يليق هذا بعلمه و فصاحته . فإنّ هذا في غاية الركاكة و الضعف . و قد تقدّم في كثير من أحاديث الباب : اللّهم صلّ على محمد كما صليت على آل إبراهيم . و قد تقدّمت الأحاديث بذلك .

و أيضًا فإنّه لا يصح من جهة العربية . فإنّ العامل إذا ذكر معموله و عطف عليه غيره ثم قيّد بظرف أو جار و مجرور أو مصدر أو صفة مصدر كان ذلك راجعًا إلى المعمول و ما عطف عليه . هذا الذي لا تحتمل العربية غيره . فإذا قلت " جاءني زيد و عمرو يوم الجمعة "كان الظرف مقيدًا لمجيئهما لا لمجيء عمرو وحده . و كذلك إذا قلت : ضربت زيدًا و عمرًا ضربًا مؤلمًا أو أمام الأمير أو سلّم على زيد و عمرو يوم الجمعة و نحوه .

فإن قلت : هذا متوجه إذا لم يعد العامل . فأمّا إذا أعيد العامل حسن ذلك . تقول : سلّم على زيد و على عمرو إذا لقيته . لم يمتنع أن يختص ذلك بعمرو . و هنا قد أعيد العامل في قوله "و على آل محمد" .

قيل : ليس هذا المثال بمطابق لمسألة الصلاة . و إنّما المطابق أن تقول " سلّم على زيد و على عمرو كما تسلّم على المؤمنين " و نحو ذلك . و حينئذ فادّعاء أنّ التشبيه لسلامه على عمرو وحده دون زيد دعوى باطلة . انتهى كلام الإمام ابن القيم بلفظه مع تصرف في عدة ألفاظ .

قال العبد الضعيف الروحاني البازي : العلامة ابن القيم غير مدفوع عن التبحر في العلوم و الاطلاع على مواقع كلام العرب . لكن الإمام الشافعي رحمه الله أجلّ منه و أعلم . فلا ينبغي له مثل الاجتراء عليه .

فإن قلت : هو ينكر عزوه إلى الشافعي ولا يسلّم أنّه قوله .

قلت : هذا عذر غير مسموع . كيف و رد نقل الثقة و نسبته إلى الكذب أو الغلط بالرأي لا تجوز . ولو انفتح مثل هذا الباب لبلغ السيل الزبى و الحزام الطبيين . و جاء طوفان فتن الاعتراضات على أقوال الأئمة .

أمّا قوله "إنّه لم يثبت لفظ الآل في المشبّه في بعض الروايات" فالجواب : أنّ أكثر الروايات بالاقتران هكذا "على محمد و على آل محمد" . و لذا ذكر ابن القيم نفسه في " جلاء الأفهام " سر لزوم اقترانهما في المشبّه و سر الاكتفاء بأحدهما في المشبّه به . و نمقنا ذلك في الباب التاسع و الستين فراجعه . و جواب الإمام الشافعي رحمه الله مبني على هذه الروايات حسب سؤال السائل على ما نقل السخاوي في "القول البديع " في عبارته المذكورة سابقًا .

و أمّا الرواية التي هي بغير الآل فلها أجوبة أخر . منها ما نقل عن الشافعي رحمه الله : أنّ التشبيه في نفس الصلاة لا في القدر .

و أمّا اعتراضه بأنّ هذا في غاية الركاكة و الضعف فأجابوا عنه بوجوه . و يخطر ببالي وجه لم يذكروه . لا يبعد أن يكون أقوى الوجوه . و هو أنّ التشبيه على تقدير هذا مقدّم على العطف . فشبّه أوّلًا قولنا "و على آل محمد" بما بعده ، ثم عطف مجموع ذلك على قولنا " على محمد " . و تعلق بالفعل المذكور

و هو " صلّ ". فلا حاجة إلى تقدير فعل آخر يتعلق به قولنا " و على آل محمد " حتى يقال : إنّ هذا في غاية الركاكة . و لهذا نظائر لا تخفى على المتفحص .

فائدة

العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى تابع في هذا الاعتراض على وجه الإمام الشافعي رحمه الله تعالى لشيخه الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى حيث قال في فتاواه بعد ذكر هذا الوجه : و هذا نقله العمراني عن الشافعي رحمه الله تعالى . و هذا باطل عن الشافعي قطعًا . لا يليق بعلمه و فصاحته . فإنّ هذا كلام ركيك في غاية البعد . و فيه من جهة العربية بحوث لا تليق بهذا الموضع . انتهى .

الباب الثلاثون
في الجواب الحادي والثلاثين

ههنا قاعدة لطيفة و ضابطة شريفة ، و هي أنّ التشبيه نوعان :

الأوّل : ما يكون المقصود فيه النسبة بين الطرفين المشبّه و المشبّه به و إثبات اتصافهما بصفة بحيث لا تتعدى المتكلم ولا يوصف بها نحو " زيد كالأسد " حيث يدلّ على اتصاف زيد و أسد بالشجاعة . و أمّا المتكلم فلا يجب أن يتصف بها . ولا يدل هذا الكلام على ذلك . و المشبّه به في هذا النوع يكون أفضل أو أعرف أو أقوى في وجه الشبه من المشبّه غالبًا .

و الثاني : ما يعود على المتكلم عوائده و يؤول إليه فوائده أكثر من الطرفين و أوفر من الجانبين . ولا يجب في هذا النوع أن يكون أحد الطرفين أفضل من الآخر . بل لا ينظر فيه إلى النسبة بينهما . نعم ، لابدّ فيه من أفضلية طرفي التشبيه من المتكلم . لأنّ المتكلم هو الذي اكتسب به المجد و الكرامة و نال به الشرف و الفخامة . و الكامل لا ينال المجد إلّا من الأكمل و لا يستفيد الرفعة إلّا من الأرفع الأفضل .

و بعد بيان هذا التمهيد أقول بحول الله و قوته : إنّ التشبيه فيما تصدينا لبيانه من وادي النوع الثاني . لأنّ الصلاة على النبي ﷺ من الحسنات و المأمورات المؤكدة . فالمصلي يتقرب بها إلى الله تعالى و رسوله و يبدي بها مع رسول ﷺ الرابطة القلبية و العلاقة الروحانية . فالصلاة و إن كانت تفيد النبي ﷺ على ما صرح به بعض المحققين لكنه ﷺ غنيّ عنها . و المصلي هو المحتاج ، يقضي بها حاجته و وطره . و هو الفقير يدفع بها فقره . و له الحظ الأوفر و القسم الأضفر الأنضر . إن صلى واحدة صلى الله

عليه عشرًا و زاده أجرًا و ذخرًا .

قال بعض العلماء : معنى الصلاة : طلب رحمة ، أي إنعام مقرون بتعظيم من الله تعالى .

فإن قلت : الرحمة حاصلة له عليه الصلاة والسلام . فطلبها طلب لما هو حاصل .

قلت : المقصود بصلاتنا عليه الصلاة والسلام طلب رحمة لم تكن حاصلة له . فإنّه ما من وقت إلّا و هناك نوع من الرحمة لم يحصل له . فلا يزال يترقى في الكمالات إلى ما لا نهاية له . إذ ما من كمال إلّا و عند الله أكمل منه . كما يشير لذلك قوله تعالى : وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ . بناءً على ما قاله أهل التحقيق من أنّ المعنى و للحظة المتأخرة خير لك من اللحظة المتقدمة . فهو ﷺ ينتفع بصلاتنا عليه لكن ينبغي للمصلّي أن يقصد أنّه هو المفتقر إلى النبي ﷺ و أنّه يتوسل به إلى ربّه في نيل مطلوبه لأنّه الواسطة العظمى في إيصال النعم إلينا . انتهى حاشية لقط الدرر بشرح متن نخبة الفكر ص١٦ .

فصل

و إنّما قلنا : إنّ فائدة الصلاة تحصل للمصلي لأحاديث كثيرة :

أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من صلى عليّ واحدة صلى الله عليه عشرًا .

و أخرج أحمد عن ابن عمرو رضي الله عنه قال : من صلى على رسول الله ﷺ صلاة صلى الله عليه و ملائكته بها سبعين صلاةً . فليقل العبد من ذلك أو ليكثر .

و أخرج الحاكم و صححه عن أبي طلحة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أتاني ملك قال : إنّ ربّك يقول : أما يرضيك أن لا يصلي عليك أحد من أمّتك إلّا صلّيت عليه عشرًا ، ولا يسلّم عليك إلّا سلمت عليه عشرًا .

و أخرج القاضي إسماعيل عن عبد الرحمن بن عمرو رضي الله عنه قال : من صلى على النبي ﷺ كتب الله له عشر حسنات ، و محا عنه عشر سيئات ، و رفع له عشر درجات .

و أخرج الترمذي و ابن حبان عن ابن مسعود رضي الله عنه : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنّ أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة .

و أخرج القاضي إسماعيل و الأصبهاني في الترغيب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صلّوا عليّ . فإنّ صلاتكم عليّ زكاة لكم .

و أخرج الأصبهاني عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صلّوا عليّ . فإنّ صلاتكم عليّ كفارة لكم .

و أخرج الأصبهاني عن خالد بن طهمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلّى عليّ صلاة واحدة قضيت له مائة حاجة .

و أخرج الترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : الدعاء موقوف بين السماء و الأرض . لا يصعد منه شيء حتى تصلّي على نبيّك .

و أخرج الأصبهاني عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من دعاء إلّا بينه و بين السماء حجاب حتى يصلّى على النبي صلى الله عليه وسلم و على آل محمد . فإذا فعل ذلك انخرق الحجاب و دخل الدعاء . وإن لم يفعل ذلك رجع الدعاء .

و أخرج الطبراني بسند جيد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى عليّ حين يصبح عشرًا و حين يمسي عشرًا أدركته شفاعتي يوم القيامة .

و أخرج الأصبهاني عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلّى عليّ في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له ما دام اسمي في ذلك الكتاب . كذا في خصائص الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى ج٣ ص٣٤٠ .

الباب الحادي والثلاثون
في الجواب الثاني والثلاثين

هو مثل المذكور سابقًا إلّا أنّ في هذا الجواب إنكار أن يحصل لرسول الله ﷺ فائدة من صلاة أمّته كما هو رأي بعض العلماء حيث قالوا : الأدب مع رسول الله ﷺ يقتضي ذلك . و أيضًا إنّ الله و ملائكته يصلّون عليه صلّى عليه أحد من أمّته أو لا . و أيضًا يدلّ بعض الأحاديث على ذلك .

أخرج الأصبهاني عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إنّ أنجاكم يوم القيامة من أهوالها و مواطنها أكثركم عليّ في دار الدنيا صلاةً . إنّه قد كان في اللهِ و ملائكتِه كفايةٌ ، و لكن خَصّ المؤمنين بذلك ليثيبهم عليه . و أيضًا لم يثبت في حديث ثبوت فائدة الصلاة له عليه الصلاة والسلام كما ثبت إفادة دعاء الوسيلة إيّاه ﷺ مع كثرة أحاديث الصلاة .

فصل

اختلف في أنّ نفع الصلاة عائد للمصلي فقط أم له و للمصلّى عليه جميعًا . قولان . و أكثر العلماء على القول الأوّل . قال في رد المحتار : إنّ المختار عند جماعة منهم أبو العباس المبرد و أبو بكر بن العربي أنّ نفع الصلاة غير عائد له ﷺ بل للمصلي فقط . وكذا قال السنوسي في شرح وسطاه : إنّ المقصود بها التقرّب إلى الله تعالى ، لا كسائر الأدعية التي يقصد بها نفع المدعوّ له .

و ذهب الإمام القشيري و القرطبي إلى أنّ النفع لهما . انتهى ما في ردّ المحتار .

قال ابن عبد السلام في الباب الثامن من كتابه المسمى " بشجرة المعارف " : ليست صلاتنا على النبي ﷺ شفاعة له . فإنّ مثلنا لا يشفع لمثله . و لكنّ الله أمرنا بمكافأة من أحسن إلينا . فإنّ عجزنا عنها كافأناه بالدعاء . فأرشدنا الله لما علم عجزنا عن مكافأة نبينا ﷺ إلى الصلاة عليه . و ذكر نحوه عن الشيخ أبي محمد المرجاني .

و قال ابن العربي : فائدة الصلاة عليه ترجع إلى الذي يصلّي عليه لدلالة ذلك على نصوص العقيدة و خلوص النية و إظهار المحبة و المداومة على الطاعة و الاحترام للواسطة الكريمة ﷺ . و قال الحليمي : و المقصود بالصلاة عليه ﷺ التقرب إلى الله بامتثال أمره تعالى و قضاء بعض حق النبي عليه الصلاة والسلام . هذا . كذا في المواهب . و في القول البديع : قال أبو محمد المرجاني : صلاتك عليه في الحقيقة لمّا كان نفعها عائدًا عليك صرت في الحقيقة داعيًا لنفسك . انتهى .

و قال العارف بالله السيد الشريف أبو العباس التجاني الفاسي رحمه الله تعالى صاحب الطريقة العلية التجانية من أهل القرن الثالث عشر ، في آخر شرح صلاة الفاتح : لمّا أغلق لسيدي محمد البكري الكبير رحمه الله تعالى بعد سؤال خليفته الشيخ العلامة علي حرازم رحمه الله تعالى عن مسألة إهداء الثواب له ﷺ . قال التجاني رحمه الله تعالى : اعلم : أنّه ﷺ غني عن جميع الخلق جملة و تفصيلاً فردًا فردًا و عن صلاتهم عليه و عن إهدائهم ثواب الأعمال له ﷺ بربّه أوّلاً ، و بما منحه من سبوغ فضله و كمال طوله . فهو عند ربّه في غاية لا يمكن وصول غيره إليها . ولا يطلب معها من غيره زيادة أو إفادة يشهد لذلك قوله تعالى : وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ .

و هذا العطاء و إن ورد من الحق بهذه الصفة السهلة المأخذ القريبة المحتد . فإنّ لها غاية لا تدرك العقول أصغرها فضلاً عن الغاية التي هي أكبرها . فإنّ الحق سبحانه وتعالى يعطيه من فضله على قدر سعة ربوبيته . و يفيض على مرتبته ﷺ على قدر حظوته و مكانته عنده . و ما ظنّك بعطاء يرد من مرتبة لا غاية لها . و عظمة ذلك العطاء على قدر تلك المرتبة . ثم يرد على مرتبة لا غاية لها أيضًا . و عظمته على قدر وسعها أيضًا . فكيف يقدر هذا العطاء ، و كيف تحمل العقول سعته . و لذا قال تعالى : وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا .

و أقل مراتبه في غناه ﷺ أنّه من لدن بعثته إلى قيام الساعة .كلّ عامل يعمل لله ممن دخل في طوق رسالته ﷺ يكون له مع ثواب عمله بالغًا ما بلغ . فليس يحتاج مع هذه المرتبة إلى زيادة لهذا الثواب . لما فيها من كمال الغنى الذي لا حد له . و هذه أصغر مراتب غناه ﷺ ، فكيف بما وراءها من الفيض الأكبر و الفضل الأعظم الأخطر الذي لا تطيق حمله عقول الأقطاب فضلاً عمن دونهم .

و إذا عرفت هذا فاعلم : أنّه ليست له حاجة إلى صلاة المصلّين عليه عليه الصلاة والسلام ، ولا شرعت لهم ليحصل له ﷺ النفع بها ، و ليست له حاجة إلى إهداء الثواب ممن يهدي له ثواب الأعمال . و ما مثل المهدي له في هذا الباب ثواب العمل متوهّمًا أنّه يزيده ﷺ به أو يحصل له به نفعًا إلاّ كمن رمى نقطة قلم في بحر طوله مسيرة عشر مائة ألف عام و عرضه كذلك و عمقه كذلك متوهمًا أنّه يمد هذا البحر بتلك النقطة و يزيده . فأيّ حاجة لهذا البحر بهذه النقطة ، و ماذا عسى أن تزيد فيه .

و إذا عرفت رتبة غناه ﷺ و حظوته عند ربّه فاعلم : أنّ أمر الله للعباد بالصلاة عليه ﷺ ليعرفهم علوّ مقداره عنده و شفوف مرتبته لديه و علوّ اصطفائه على جميع خلقه . و ليخبرهم أنّه لا يقبل العمل من عامل إلاّ بالتوسل إلى الله به ﷺ . فمن طلب القرب من الله و التوجه إليه دون التوسل به ﷺ معرضًا عن كريم جنابه و مدبرًا عن تشريع خطابه كان مستوجبًا من الله غاية السخط و الغضب و غاية اللعن و الطرد و البعد ، و ضل سعيه و خسر عمله ، ولا وسيلة إلى الله إلاّ به ﷺ كالصلاة عليه وامتثال شرعه .

فإذًا فالصلاة عليه ﷺ فيها تعريف لنا بعلوّ مقداره عند ربّه . و فيها تعليم لنا بالتوسل به ﷺ في جميع التوجهات و المطالب لا غير . هذه من توهّم النفع له ﷺ بها لما ذكرنا سابقًا من كمال الغنى . و أمّا إهداء الثواب له عليه الصلاة والسلام فتعقّل ما ذكرنا من الغنى أوّلاً ثم تعقل مثالاً آخر يضرب لإهداء الثواب له ﷺ بملك عظيم المملكة ضخم السلطنة . قد أوتي في مملكته من كل متموّل خزائن لا حدّ لعددها . كلّ خزانة عرضها و طولها من السماء إلى الأرض . مملوّة كل خزانة على هذا القدر ياقوتًا أو ذهبًا أو فضّةً أو زروعًا أو غيرها من المتمولات .

ثم قدر فقيرًا مثلاً لا يملك مثلاً غير خبزتين من دنياه ، فسمع بالملك و اشتدّ حبّه و تعظيمه له

في قلبه ، فأهدى لهذا الملك إحدى الخبزتين معظّمًا له و محبًّا ، و الملك متسع الكرم . فلا شك أنّ الخبزة لا تقع منه ببال ، لما هو فيه من الغنى الذي لا حدّ له . فوجودها عنده و عدمها على حد سواء .

ثم الملك لاتّساع كرمه علم فقر الفقير و غاية جهده و علم صدق حبه و تعظيمه في قلبه ، و أنّه ما أهدى له الخبزة إلاّ لأجل ذلك . ولو قدر على أكثر من ذلك لأهداه له . فالملك يظهر الفرح و السرور بذلك الفقير و بهديّته لأجل تعظيمه له و صدق حبّه ، لا لأجل انتفاعه بالخبزة . و يثيب على تلك الخبزة بما لا يقدر قدره من العطاء لأجل صدق المحبّة و التعظيم ، لا لأجل النفع بالخبزة . و على هذا التقدير و ضرب المثل قدر إهداء الثواب له ﷺ .

و أمّا غناه عنه ﷺ فقد تقدم ذكره في ضرب المثل بعظمة البحر المذكور أوّلاً و إمداده بنقطة القلم . و أمّا إثابته ﷺ فقد ذكر المثل لها بإهداء الخبزة للملك المذكور . والسلام . انتهى كلام التجاني رحمه الله تعالى من كتاب " جواهر المعاني " . و هو كتاب لطيف جمع فيه علوم التجاني رحمه الله تعالى أجلّ خلفائه العلاّمة الشيخ علي حرازم بن العربي براده الفاسي على شكل كتاب الإبريز .

الباب الثاني والثلاثون
في الجواب الثالث والثلاثين

هذا ما ذكره المفتي سعد الله في تتمة التنويه بالتشبيه حيث قال : اشتراط كون المشبّه به أفضل و أعلى من المشبّه حيث يمكن ما هو أفضل من المشبّه . و إلّا فلا كما فيما نحن فيه . إذ ليس في الخلق من هو أفضل من محمد ﷺ ولا من يساويه . انتهى بتعريب .

و قال في الباب الثاني من هذه الرسالة : الأصل أنّ المشبّه دون المشبّه به ليحصل بذلك الترقي . و هو إلحاق الأدنى بالأعلى إلّا في مواضع . منها أن لا يعقل ما هو خير منه و أعلى . فحينئذ يتنزل في التشبيه إلى ما هو أدنى كقوله تعالى : مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ . و قوله عليه الصلاة والسلام : سترون ربّكم كما ترون القمر ليلة البدر .

قال العارف الجامي رحمه الله تعالى :

وجودش آں فروزاں آفتاب است   كه ذرّه ذرّه از وے نورياب است

هذا في المعقول . و أمّا في المحسوس فكقوله عليه الصلاة والسلام : اللّٰهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم . و لهذا الوجه شبّه النظامي نبينا عليه الصلاة والسلام بنفسه حيث قال :

گزيں كرده هر دو عالم توئي   چو تو گر كسے باشد آں هم توئى

انتهى .

الباب الثالث والثلاثون
في الجواب الرابع والثلاثين

إنّ صلاة الله على نبينا و على إبراهيم عليهما الصلاة والسلام و إن كانت متساوية الأقدام و متحدة الأعلام إلّا أنّ هذا لا يستلزم تساوي المصلّى عليهم في المرتبة و المقام . فههنا ثلاثة أمور :

الأوّل : المصلّي و هو الله تعالى .

والثاني : الصلاة .

والثالث : المصلّى عليه .

ولا فرق باعتبار الأوّل ولا باعتبار الثاني . إذ المصلي على إبراهيم و محمد صلى الله عليهما وسلم واحد و هو الله تعالى . و كذا الصلاة عليهما شيء واحد . و إنّما التفاوت و التغاير بالنظر إلى الأمر الثالث أي المصلّى عليه . و اتحاد الأمرين الأوّلين لا يستلزم اتحاد الأمر الثالث ولا تساويه .

و كذا لا يستلزم طلب الثاني لشخص وهو ههنا نبينا صلى الله عليه وسلم مثل ما حصل لآخر و هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يكون الشخص الثاني أفضل من الشخص الأوّل كما لا يستلزم ذلك أن يكون الأوّل أفضل من الشخص الثاني . و إنّما الأفضلية بين المشبّه و المشبّه به بالنظر إلى الأمر الرابع . و هو سعة الظرف و زيادة شرح الصدر و سطوع لوح القلب و قوة استعداده لما يقع عليه من أشعّة شمس الصلاة . فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . ولله درّ من قال في الفارسية :

نقصان ز قابل است وگرنه على الدوام — فيض سعادتش همه كس را برابر است

و في الاردوية :

اس کے الطاف تو ہیں عام نظیری لیکن　　تجھ سے کیا ضد تھی اگر تو کسی قابل ہوتا

و هذا كالشمس تطلع على العالم و ترسل أشعتها على السويّة . ثم كلّ شيء يلمع بأشعّتها و يستضيء بضيائها بقدر صفائه و استعداده .

فانظر في تفاوت استنارة الأحجار و المرايا المحماة و المرايا العاكسة و حياض المياه و الصحارى حيث يشاهد في البعض صورة الشمس لامعة دون الآخر ، و ينعكس في بعض حرارة الشمس دون بعض . و كلّ ذلك نتيجة اختلاف استعداد هذه الأمور و تفاوت صفائها . فإن رأى أحد حجرًا مستضيئًا بضياء الشمس و رأى المرآة محجوبًا عنها الشمس بسبب السحاب أو نحو ذلك من الموانع .

ثم سأل الله هذا الناظر وقوع أشعّة الشمس على المرآة كما تقع على الحجر . فهل يقتضي هذا التشبيه مساواة الحجر المرآة أو كونه أفضل و أضوأ من المرآة . كلاّ ثم كلاّ . إذ كلّ عاقل يستيقن أنّ المشبّه و هو المرآة أنور و أضوء من المشبّه به و هو الحجر ، لقوّة قابلية المرآة و شدّة صفائها .

و بعد هذا التقرير أقول : إنّا معاشر المصلّين . سألنا الله تعالى أن يصلي على نبينا و يرسل أشعّة شمس البركات و الصلوات على عرش صدره الشريف و لوح قلبه المنيف و أن يزيل أستار الحجاب فيما بينها و بينه كما صلّى على إبراهيم و أرسل على صدره ضياء شمس الصلاة بإزالة الحجب .

فلمّا تقبل الله دعاءنا و صلّى و أزال الأستار انجذبت أشعّة شمس الصلاة في لوح قلبه عليه الصلاة والسلام ، و انعكست في مرآة صدره . فادهشت العقول علوًّا و بهاءً و بهرت العيون ضياءً و سناءً . و أصبح أقرب إلى الله من كل مقرّب . فكان قاب قوسين أو أدنى . و فاق كلّ نبي و رسول حتى إبراهيم حيث صار حبيبًا و كان إبراهيم خليلاً . و الحبيب أفضل من الخليل .

و قال : لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرّب ولا نبي مرسل . و طار على البراق إلى السماء إلى الملإ الأعلى إلى العرش إلى ما لا يعلمه إلاّ الله . فأوحى إلى عبده ما أوحى . و رأى ما رأى . ما كذب الفؤاد ما رأى . لنريه من آياتنا أنّه هو السميع البصير . و أمّا إبراهيم فرأى الملكوت و هو في الأرض دون

السماء . و كذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات .

فالمصلّي واحد ، و الصلاة واحدة ، و الاستعداد مختلف ، و القابليّة متفاوتة عناية من الله . أخرج مسلم عن واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أنّ رسول الله ﷺ قال : إنّ الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل و اصطفى من بني إسماعيل بني كنانة و اصطفى من بني كنانة قريشًا و اصطفى من قريش بني هاشم و اصطفاني من بني هاشم .

و أخرج أحمد : أنّ رسول الله ﷺ صعد المنبر فقال : من أنا ؟ قالوا : أنت رسول الله ﷺ . فقال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب . إنّ الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه . و جعلهم فرقتين فجعلني في خير فرقة . و جعلهم قبائل فجعلني في خير قبيلة . و جعلهم بيوتًا فجعلني في خيرهم بيتًا . فأنا خيركم بيتًا و خيركم نفسًا . فلوح قلب نبينا ﷺ أصفى و أكمل . و كان لوح فؤاد إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صافيًا و كاملًا . فهو أفضل من إبراهيم عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . هذا ما ألهمني ربي يوم الثلثاء و السادس من شوال ١٣٨٩هـ ١٦ ديسمبر ١٩٦٩ء و كنت مغمومًا شديدًا . غفر الله لي ولأبوَيّ و للمؤمنين و المؤمنات أجمعين . آمين ثم آمين .

و يؤيده ما قال العارف الأكبر الشيخ أحمد السرهندي المجدّد للألف الثاني في عدة مكتوباته في بيان الخلّة : إنّ الخلّة أمر كلّيّ . و له حصص . و لكلّ نبيّ حصّة منها على قدر استعداده و شرفه لأنّه أراد بها تفصيل كمالات ذات الله تعالى . و لكلّ نبي حصل تفصيل كمالات ذاته تعالى بقدر استعداده و شرفه .

و خصّ إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالخلّة لشهرته بها . و لنبينا ﷺ خلّة على قدر استعداده و شرفه . و هي أشرف و أعلى درجةً من الخلّة التي لغيره ﷺ من الأنبياء . و المراد بالصلاة في قوله " اللّهم صلّ على محمد كما صلّيت على إبراهيم " الخلّة و الرحمة . معناه : اللّهم أعط الخلّة و الرحمة محمدًا ﷺ بقدر استعداده و شرفه عندك كما أعطيتها إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بقدر استعداده و شرفه عندك . و لنبينا ﷺ حصلت حصّة الخلّة في حين حياته . و هي أشرف و أعلى من حصّة الخلّة التي لإبراهيم بأعمال نفسه ﷺ .

و هكذا تترقى درجة الخلّة و الرحمة لنبينا ﷺ يومًا فيومًا في البرزخ أيضًا . لأنّها غير متناهية بأعماله ﷺ بنفسه لا بغيره . و هي الأعمال الصالحة لأمّته ﷺ بموجب حديث : من سنّ سنةً حسنةً

فله أجرها و أجر من عمل بها .

و الأعمال الصالحة للأمّة كلّها سنة حسنة سنّها النبي ﷺ . و الأمّة كالآلة لحصول تلك الأعمال الصالحة للنبي ﷺ كالسكين للقاطع . فإسناد كسب كمالات الخلّة إلى فرد من أفراد أمّته ﷺ إسناد مجازيّ كإسناد القطع إلى السكين . و مقرّ النبي ﷺ فوق مرتبة الخلّة . و هي الولاية المحمدية و مرتبة المحبوبية . و هي أشرف و أعلى من الخلّة . و دعاء ذلك الفرد و الأمّة بقول " اللّهم صلّ على محمد كما صلّيت على إبراهيم " لإتمام مرتبة الخلّة للنبي بقدر استعداده و شرفه عند الله قرن بالاستجابة . و هذا الدعاء لازدياد شرفه و قربه في مرتبة المحبوبية عند الله باقٍ إلى يوم القيامة . هذا . و الله أعلم .كذا في حواشي المكتوبات ج٢ ص١١٨ .

و قال بعض العارفين رَحِمَهُمُ اللهُ : اعلم ، أيّدنا الله و إيّاك : أنّ الفيض الإلهيّ إنّما يكون على قدر القوابل . أما ترى الشمس تظهر في المرآة بشعاعها ، حتى لا يكاد الشخص أن يستطيع النظر إلى المرآة . و تظهر في بقية الجمادات بغير هذا المظهر .

و كذلك إذا نظرت في المرآة المعتدلة الهيئة ظهر وجهك فيها على ما هو عليه . و إذا نظرت في مرآة مستطيلة ظهر وجهك فيها طويلاً ، و في العريضة عريضًا ، و في الصغيرة صغيرًا ، و في الكبيرة كبيرًا . فعلم بذلك أنّ الفيض على قدر القابلية . لأنّ الله حكيم لا يضع الأشياء إلّا في مواضعها . فظهور الحق تعالى في المخلوقات على قدر قوابلهم ، بل ظهوره في أسمائه و صفاته على حسب ما تقتضيه قوابلها . إذ ليس ظهوره في اسمه المنعم كظهوره في اسمه المنتقم . و ليس ظهوره في النعمة كظهوره في النقمة . فالظاهر واحد ، والظهور مختلف لاختلاف المظاهر .

و قد علمت بما مضى أنّ ظهور الحق في المظاهر بقدر القوابل ، و أنّ قوابل الأشياء تتعلق بمحاتدها التي ظهرت منها . فالنعمة مخلوقة و النقمة مخلوقة . فهما مظهران مخلوقان . فمحتد النعمة اسم المنعم و محتد النقمة اسم المنتقم . و هما اسمان إلهيّان . فهما مظهران قديمان ، لأنّ صفات الله قائمة بذاته .

و قد شرحنا لك فيما سبق أنّ كل شيء في العالم إنّما هو أثر أسمائه و صفاته . فكلّ فرد من أفراد العالم له محتد من أسماء الله تعالى و صفاته . فالأنبياء عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خلقوا من أسمائه الذاتية ، فهي محاتدهم .

والأولياء خلقوا من أسمائه الصفاتية ، فهي محاتدهم . و بقية الموجودات مخلوقة من صفاته الفعلية ، فهي محاتدهم .

و رسول الله ﷺ مخلوق من ذاته ، فمحتده الذات . و لهذا كان ظهور الحق عليه بالذات . ألا تراه انفرد دون غيره بجميع الكمالات الإلهية لأنّ الصفات ترجع إلى الذات . و لهذا نسخ دينه سائر الأديان ، لأنّ الصفات لا تشهد بعد بروز الذات بل يبقى علمها . و لأجل ذلك بقيت نبوّة الأنبياء على حالها ، و ما انتسخ إلّا أديانهم .

فنسبة القابليّة المحمديّة كنسبة البحر . و نسبة قوابل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام و الأولياء رضوان الله تعالى عليهم أجمعين كالجداول و الأنهار . و نسبة قوابل بقيّة العوالم كالقطرات من ذلك البحر . و سبب ذلك أنّ محمدًا ﷺ مجموع العوالم . و العالم كلّه مخلوق منه أي من أجله ﷺ . فقابليته وحده بقوابل سائر الموجودات . فهو المستفيض الأوّل و المفيض الثاني لأنّ الفيض الأقدس الذاتي متوجّه إليه بالتوجّه الأوّل . و منه يتوجّه إلى بقيّة المخلوقات بقدر قوابلهم . فهو كلّ الوجود و له كلّ شيء . و ما أحسن قول الإمام عبد الله اليافعي رحمه الله تعالى في مدحه عليه الصلاة والسلام حيث يقول :

يا واحد الدهر ياعين الوجود و يا غوث الأنام و هادي كلّ حيران

و لمّا كانت قابليته ﷺ كلية و قابلية سائر الأكوان من المرسلين و النبيّين و الملائكة المقرّبين و سائر الأولياء و الصديقين و غيرهم من المؤمنين الصالحين جزئيّة كانت قاصرة بالطبع عن درك شأوه المنيع عاجزة عن اللحوق بشأنه الرفيع . و لما علم ذلك الأنبياء وضعوا الرؤوس خضوعًا على باب عزّه العالي و حطوا رقابهم على أرض المذلة لمجده الشامخ السامي . و ذلك معنى أخذ الله تعالى على الأنبياء العهد لتؤمننّ به و لتنصرنّه . قال الله : وَ إِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَ أَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ .

ثم إنّ جميع الأولياء المقرّبين مع علوّ شأنهم إنّما يترقون ويعرجون بالاستمساك بحبل عروته الوثقى ﷺ . و لهذا قال الجنيد رحمه الله تعالى : انسدّ كلّ باب إلى الله تعالى إلّا باب محمد ﷺ . فلا طريق إلى الله تعالى

إلّا من بابه ﷺ . يعني ليس لأحد طريق إلّا أن يمشي خلفه ، و يكون تابعه ظاهرًا و باطنًا حتى يصل إلى الله تعالى ، و إلّا فلا . ولولا ذلك لادّعت الأولياء ما ادّعته الأنبياء من قبل .

فإنّ الأولياء من أمّة محمد ﷺ نالوا كثيرًا من مقامات القرب ، ولم ينالوا النبوة لانقطاعها بمحمد ﷺ . فدين محمد ﷺ كلّيّ . و لهذا كان مبعوثًا إلى كافّة الخلق ، بخلاف غيره من الأنبياء و المرسلين صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين . لأنّهم إنّما بعثهم الله إلى أقوام مخصوصة . لأنّ دينهم جزئيّ ، و دين كلّ منوط بمحتده كلّيّ بكلّيّ و جزئيّ بجزئيّ .

فقوّة محمد ﷺ أي قوة قابليته و استعداده بقوّة العالم كلّه العرش و الكرسيّ و اللوح و القلم و الأفلاك و الأملاك و السماوات و النجوم و الكواكب السيارات و الشمس و القمر و النار و الريح و الماء و التراب و الشجر و الحجر و المعدن و الحيوان و جميع الإنس و الجانّ و مجموع ما خلق الله تعالى وما هو خالق . و يزيد على ذلك كلّه بالجمعية الكبرى التي خصّ هو بها . و ذلك هو المعبّر عنه بقاب قوسين ﷺ . و ليس لسواه من ذلك كلّه إلّا ما وسعته قابليته . فافهم و ألحق نفسك به لحوق القطرة بالبحر لتفوز بالسعادة الكبرى و المكانة الزلفى .

و في هذه النكتة سرّ جليل و أمر نبيل ، لو قدر الله لك فهمه . و إلى هذا اللحوق بالبحر المحمدي أشار الشيخ أبو الغيث بن جميل رحمه الله بقوله : خضنا بحرًا وقفت الأنبياء على ساحله . لأنّ اللحوق الحقيقي بالشخص لا يكون إلّا لمن بعده صورةً و معنًى . فالأولياء الكمّل من أمّة محمد ﷺ لاحقون به صورةً و معنًى . فهم خائضون بحر اللحوق المحمدي بخلاف الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، لأنّهم إنّما لحقوا بمحمد ﷺ حكمًا . فهم لاحقون من حيث المعنى لا من حيث الصورة .

فلأجل ذلك وقفوا على ساحل بحر اللحوق بالكمال المحمدي . لأنّهم كانوا في الظاهر متبوعين لا تابعين لغيرهم على أنّهم في الحكم تابعون له ﷺ . و الأولياء تابعون له لا متبوعين . فالأولياء تابعون له ﷺ صورةً و معنًى عينًا و حكمًا . فمن وفق الله تعالى له أن يلحق قطرته ببحر الحقيقة المحمدية فاز بالسعادة الأبدية الكبرى . انتهى ما في كتاب الناموس .

الباب الرابع والثلاثون
في الجواب الخامس والثلاثين

ألقى الله تعالى في روعي أنّ هذا التشبيه دليل على كون نبينا ﷺ أفضل من إبراهيم بل من جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيث سأل الله لنفسه و لذاته ما كان لإبراهيم عليه الصلاة والسلام . و جميع الأنبياء الذين هم آل إبراهيم من البركات و الطيبات و الصلوات . فالصلوات التي انقسمت على جميع الأنبياء جمعت لنبينا ﷺ و أعطيها . فكان أفضل من كلّ نبي حتى إبراهيم . و ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

و ليس على اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أن يَجمَعَ العَالَمَ في واحِدِ
و الناس ألف منهم كواحد و واحد كالألف إن أمر عنا
ولم أر أمثال الرجال تفاوتًا من الناس حتى عُدّ ألفٌ بواحد

و هذا كما استدلوا على أفضلية نبينا ﷺ من جميع الأنبياء بقوله تعالى "أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ" . قال القطب الرازي في حواشيه على الكشاف : إنّ لاقتداء المأمور به ليس إلّا في الأخلاق الفاضلة و الصفات الكاملة كالحلم و الصبر و الزهد و كثرة الشكر و التضرع و نحوها .

و يكون في الآية دليل على أنّه ﷺ أفضل منهم قطعًا لتضمنها أنّ الله تعالى هدى أولئك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى فضائل الأخلاق و صفات الكمال و حيث أمر رسول الله ﷺ أن يقتدي بهداهم جميعًا . امتنع للعصمة أن يقال : إنّه لم يمتثل . فلابدّ أن يقال : إنّه عليه الصلاة والسلام قد امتثل و أتى بجميع ذلك و حصل تلك الأخلاق الفاضلة التي في جميعهم . فاجتمع فيه من خصال الكمال ما كان متفرّقًا فيهم .

و حينئذ يكون أفضل من جميعهم قطعًا كما أنّه أفضل من كلّ واحد منهم . و هو استنباط حسن . انتهى . روح المعاني ج٧ ص٢١٧ .

قال الشيخ محي الدين في الباب الأربعين و ثلاثمائة من الفتوحات ج٤ ص١٥٥ بعد بيان يتعلق بالأدب حكايةً عن الله تعالى : فإنّه من عرف قدره و قدر الأشياء عرف قدري و وفاني حقي . ألا ترى محمدًا ﷺ لما فرض عليه و على أمّته خمسين صلاةً نزل بها و لم يقل شيئًا ولا اعترض ولا قال : هذا كثير . فلما نزل إلى موسى عليه الصلاة والسلام فقال له : راجع ربّك . عسى أن يخفف عن أمّتك . فإنّي قاسيت من بني إسرائيل في ذلك أهوالًا . و أمّتك تعجز عن حمل مثل هذا و تسأم منه . فبقي محمد ﷺ متحيّرًا .

الأدب الكامل يعطيه ما فعل من عدم المعارضة و الشفقة على أمّته تطلبه بالتخفيف عنها حتى لا يعبد الله بضجر ولا كره ولا ملل ولا كسل . فبقي حائرًا . فهذا ما أثرت الوسائط و الجلساء . فأخذ يطلب الترجيح فيما قاله موسى عليه الصلاة والسلام و فيما وفّى هو ﷺ من حق الأدب مع الله .

و قد كان الله تقدم إليه عند ذكر جماعة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . منهم موسى عليه الصلاة والسلام بأن قال له : أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ . فتأوّل أنّ هذا الذي أشار به عليه من "هداهم" ولم يتفطن في الوقت أنّ موسى عليه الصلاة والسلام لما كان في حال هديه ما سأل التخفيف . و ذلك الهدى هو الذي أمر رسول الله ﷺ أن يقتدى به فأعطاه هذا الاجتهاد الرجوع إلى الله فسأله التخفيف . فما زال يرجع بين الله تعالى و بين موسى عليه الصلاة والسلام إلى أن قال ما أعطاه الأدب : استحييت من ربّي . و انتهى الأمر بالتخفيف .

فنزل به على أمّته و شرع أن يشرع لأمّته الاجتهاد في الأحكام التي بها صلاح العالم . لأنّه ﷺ بالاجتهاد رجع بين الله و بين موسى عليه الصلاة والسلام . فأمضى ذلك في أمّته لتأنس بما جرى منه ولا تستوحش . و جبر بهذا التشريع قلب موسى عليه الصلاة والسلام في ذلك . فإنّه لابدّ إذا رجع مع نفسه و زال عنه حكم الشفقة على العباد قام معه تعظيم الحق و ما ينبغي لجلاله . فلم يستكثر شيئًا في حقه . و علم أنّ القوة بيده يقوّي بها من شاء . و إذا خطر له مثل هذا و أقامه الحق فيه لابدّ له أن يؤثر عنده ندمًا على ما جرى منه فيما قاله بمحمد ﷺ .

فجبر الله قلبه بقوله " مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ " في آخر رجعة . وكان قد تقدم القول بالتكثير

و بدّله بالتخفيف و التقليل . فأعلم موسى أنّ القول الإلهي منه ما يقبل التبديل و منه ما لا يقبل التبديل . و هو إذا حق القول منه فالقول الواجب لا يبدل ، و القول المعروض يقبل التبديل . فسر موسى عليه الصلاة والسلام بهذا القول ، و إنّه ما تكلم إلّا في عرض القول لا في حقه .

و كذلك لما علم بما شرع الله لأمّة محمد صلى الله عليه وسلم من الاجتهاد في نصب الأحكام من أجل اجتهاد محمد صلى الله عليه وسلم جبر الله قلب محمد صلى الله عليه وسلم فيما جرى منه . و سرى ذلك في أمّته صلى الله عليه وسلم كما سرى الجحد و النسيان في بني آدم من جحد آدم و نسيانه جبرًا لقلب آدم . فإنّ هذه النشأة الطبيعية من حكم الطبيعة فيها الجحد و النسيان . فكانت حركة آدم في جحده حركة طبيعية ، و في نسيانه أثر طبيعي . فلو تناسى لكان الأمر من حركة الطبيعة كالجحد من حيث أنّه جحد هو أثر طبيعي ، و من حيث ما هو جحد بكذا هو حكم طبيعي لا أثر .

فهذا الفرق بين حكم الطبيعة و بين أثرها . و النسيان من أثرها و التناسي من حكمها . و الغفلة من أثرها و التغافل من حكمها . و قليل من العلماء بالله من يفرق بين حكم الطبيعة وأثرها . فاجتمع في آدم حكم الطبيعة بالجحد . لأنّه الأوّل الجامع في ظهره للجاحدين فحكموا عليه بالجحد . فجحد لأنّ الابن له أثر في أبيه . فالجحد و إن كان من حكم الطبيعة فإنّه من أثر الجاحدين من أبنائه لأنّ آدم إنسان كامل . و كذا النسيان الواقع منه هو أثر الطبيعة و حكم الأبناء . فإنّه حامل في ظهره للناسين من أبنائه . فحكموا عليه بالنسيان . فانظر ما أعجب هذه الأمور و ما يعطيه فتوح المكاشفة من العلوم . انتهى بلفظه .

فصل

إن قلت : قوله تعالى " فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ " يدلّ بظاهره على أنّهم أفضل من نبينا صلى الله عليه وسلم لكونه مأمورًا باتباع هداهم عليهم الصلاة والسلام .

قلت : هذا بحث شريف مهمّ لا مندوحة من الخوض فيه . حاصل الجواب : أنّه لا يدلّ على ذلك لأنّه عليه الصلاة والسلام أمر باتباع اعتقاداتهم أو أخلاقهم الكريمة . و هي المرادة من الهدى . ولا فرق بين الأنبياء كلّهم في ذلك . فكلّهم على صراط مستقيم لا عوج فيها . ثم لتقدمهم زمانًا أمر عليه الصلاة والسلام باتباع هداهم

و لم يؤمر باتباعهم و إلّا قال : فبهم اقتده .

و كذا كان عليه الصلاة والسلام مأمورًا باتباع ملّة إبراهيم ، لا باتباع إبراهيم عليه الصلاة والسلام . نعم ، نبينا صلى الله عليه وسلم بعث ليتمم مكارم الأخلاق . فكان أفضل منهم و كذلك هم تابعون له صلى الله عليه وسلم . كما ورد في الحديث : لو كان عيسى و موسى حيَّين ما وسعهما إلا اتباعي . حيث قال "اتباعي" بالإضافة إلى ذاته عليه الصلاة والسلام و لم يقل "اتباع ملتي" . فاعرف الفرق بين المقامين ، ولا تكن من الغافلين .

قال العارف بالله السيد عبد الرحمن العيدروس المتوفّى سنة ١١٩٢هـ ، و هو من مشائخ السيد مرتضى الزبيدي شارح القاموس : فاعتقاد الأنبياء و المرسلين صلى الله عليهم وسلم متحد في التوحيد لكنهم مختلفون في الشرائع لاختلاف أمزجة الأمم . و ذلك لا يقدح في وجود الأصل و ظهوره صلى الله عليه وسلم في آخر الزمان جسمًا و روحًا . لأنّه لو كان موجودًا بجسمه من لدن آدم لكان من بعده تحت شريعته . فيلزم أن لا يبعث أحد من الأنبياء و المرسلين . فتقدم صلى الله عليه وسلم روحًا لا بدنًا .

و بعث الانبياء و المرسلون إلى أقوام مخصوصة لظهور حكمة إلهيّة في ذلك . و لم تعمّ رسالتهم لتحقق نيابة كل واحد منهم يعني عن النبي صلى الله عليه وسلم . و لذا يحكم عيسى عليه الصلاة والسلام حين ينزل آخر الزمان بشرعه صلى الله عليه وسلم . فيقرّر شرعه الشريف في الظاهر . لكن لما لم يتقدم في عالم الحسّ أوّلاً وجوده صلى الله عليه وسلم نسب كل شرع إلى من بعث به . و هو في الحقيقة شرعه صلى الله عليه وسلم . قال الله تعالى : أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ . و لم يقل : فبهم اقتده . لأنّ هداهم من الله و هو شرعه صلى الله عليه وسلم . فالمعنى : ألزم شرعك الذي ظهر به نوّابك قبل ظهور جسدك الشريف . و قال تعالى : ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ . فهو صلى الله عليه وسلم مأمور باتباع الدين ، لأنّ أصله من الله ، لا باتباع أحد من الأنبياء . انتهى كلام العارف العيدروس رحمه الله .

قلت : يفهم منه جواب آخر ، حاصله : أنّه عليه الصلاة والسلام مأمور في قوله تعالى "فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ" بشرعه إذ كلّ شرع لهم في الأصل شرع له صلى الله عليه وسلم لكونهم عليهم الصلاة والسلام نوّابه . هذا . والله أعلم .

و قال الشيخ ابن عربي في الباب العاشر من فتوحاته : نحن ما فضلناه بل الله فضله . فإنّ ذلك ليس لنا و إن كان قد ورد " أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ " لمّا ذكر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فهو صحيح . فإنّه قال : فَبِهُدَىٰهُمُ . فهداهم من الله و هو شرعه صلى الله عليه وسلم أي الزم شرعك الذي ظهر به نوّابك

من إقامة الدين ولا تتفرقوا فيه . فلم يقل : فبهم اقتده . و في قوله تعالى " لَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ " تنبيه على أحديّة الشرائع . و قوله "ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ" و هو الدين فهو ﷺ مأمور باتباع الدين . فإنّ الدين إنّما هو من الله تعالى لا من غيره . و انظروا في قوله عليه الصلاة والسلام : لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلّا أن يتبعني . فأضاف الاتباع إليه . و أمر هو ﷺ باتباع الدين و هدى الأنبياء ، لا بهم . انتهى .

وقال السيد أحمد عابدين في شرح مولد ابن حجر رحمه الله تعالى : المراد بهداهم جميع كمالاتهم المتفرّقة فيهم و ما توافقوا عليه من التوحيد و أصول الدين الواحدة لا فروع الشرائع المختلفة . فإنّها لاتبقى هدى بعد النسخ . انتهى .

قال بعض العلماء : و احتجّ العلماء و منهم ابن حجر رحمه الله تعالى بهذه الآية على أنّه ﷺ أفضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأنّ صفات الكمال و خصال الشرف كانت متفرّقة فيهم . فداؤد و سليمان كانا من أصحاب الشكر على النعمة . و أيوب كان من أصحاب الصبر على البليّة . و يوسف كان جامعًا بينهما . و موسى كان صاحب المعجزات القاهرات . و زكريا و يحي و عيسى و إلياس كانوا أصحاب الزهد . و إسماعيل كان صاحب الصدق . فكلّ منهم قد غلب عليه خصلة معينة . فجمع الله كلّ خصلة جميلة فيهم في حبيبه الأعظم صلى الله عليه و عليهم وسلم . لأنّه إذا كان مأمورًا بالاقتداء لم يقصر في التحصيل .

الباب الخامس والثلاثون
في الجواب السادس والثلاثين

ما يفهم من كلام الشيخ العارف سيدنا أحمد السرهندي رحمه الله . و هو أن إبراهيم حصل له فضل جزئيّ على نبينا عليهما الصلاة والسلام لأنّه خليل الله و نبينا حبيب الله تعالى . و الخلّة عامّة و تأثيرها فائض في جميع الموجودات بل في المعدومات . و لولا الخلّة لما وجد شيء من الأشياء . و المحبّة فرد كامل من أفراد الخلّة ، و جزئيّ عظيم من جزئيّاتها ، أو جزء كبير من أجزائها . و للكلّيّ من حيث أنّه كلّيّ فضل على الجزئيّ من حيث أنّه جزئيّ . و هذا مما لا يخفى . و يكفي هذا الفضل الجزئيّ للمشبّه به في قوله "كما صلّيت على إبراهيم" . فنبيّنا صلى الله عليه وسلم سأل الله تعالى هذا الفضل العامّ بأن يحصل للفرد بركة الكلّيّ . و يحوز الجزء صلاة حاصلة للأجزاء كلّها .

قال العارف الأكبر الشيخ أحمد السرهندي المجدد للألف الثانية في المكتوب الثامن و الثمانين من المجلد الثالث : إنّ الحق سبحانه إذا شرف عبدًا بدولة خلّته ، هي بالإصالة مخصوصة بحضرة إبراهيم على نبينا و عليه الصّلاة والسلام ، و جعله ممتازًا بالولاية الإبراهيمية بجعله أنيسه و نديمه ، و يورد في البين نسبة الأنس و الألفة التي هي من لوازم الخلّة ، و لمّا حصلت في البين نسبة الخلّة التي من لوازمها الأنس و الألفة ارتفع من النظر قبح أخلاق الخليل و كراهة أوصافه . فإنّه لو كان قبح في النظر لكان باعثًا على النفرة و عدم الألفة . و هي منافية لمقام الخلّة التي هي ألفة بالكلية .

فإن قيل : إنّ ارتفاع قبح أوصاف الخليل عن النظر في مرتبة المجاز ظاهر . فإنّه يجوز أن يغلب نسبة الخلّة في ذلك الموطن . فتستر قبح أوصاف الخليل . و أمّا في مرتبة الحقيقة التي فيها العلم بالأشياء كما

هي فلا يجوز فيها ظهور القبيح غير قبيح و كونه مغلوب نسبة الخلّة .

قلت : إنّ في كل قبيح وجهًا من وجوه الحسن . فيمكن أن يرى ذلك القبيح حسنًا بالنظر إلى ذلك الوجه الحسن و يحكم بحسنه .

ينبغي أن يعلم أنّ ذاك القبيح و إن لم يعرض له حسن مطلق و لكن لمّا كان وجه الحسن ملحوظًا و منظورًا للمولى جلّ شأنه كان بحكم " فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ " غالبًا على سائر وجوهه القبيحة . و جعل كلّها في لونه و صيّرها مستحسنة . فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ .

اعلم ، أرشدك الله تعالى سواء الصراط : أنّ النسبة بين الخلّة و المحبّة عموم و خصوص مطلقًا . فإنّ الخلّة عامّة و المحبّة فردها الكامل .

و قال أيضًا : إنّ الخلّة مقام عالٍ جدًّا و كثير البركة . و كل ما فيه أنس و ألفة و سكونة و اطمينان مع الآخر في عالم المجاز كلّ ذلك من ظلال مقام الخلّة .

و قال أيضًا : لو لم يكن في البين خلّة و أنس و ألفة لما وجد مركّب أصلًا ، ولا ينضم جزء بجزء آخر . خصوصًا إذا كانت بينهما نسبة التضاد . بل لمّا ينضم وجود إلى ماهية ما أصلًا بل لا يدخل شيء من العالم تحت إيجاد الواجب تعالى . فإنّ المحرك لسلسلة الإيجاد و الباعث على وجود الأشياء هو الحبّ . فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق . حديث قدسي .

و الحبّ فرد كامل من الخلّة كما مرّ . فلو لم يكن الخلّة لما وجد شيء من الأشياء ولا يجتمع شيء بشيء ولا يحصل بين الشيئين ألفة . و وجود العالم و نظامه كلاهما مربوطان بالخلّة . فلو لم تكن الخلّة لكان النظام كالوجود مفقودًا . فكانت الخلّة أصل الإيجاد من جانب الموجد و من الموجود . فإنّ الذي جعل الممكن مأنوسًا لقبول الوجود و أورده في قيد الإيجاد هو الخلّة . بل العدم أيضًا مطمئنّ و مستريح في بيت خلوته بدولة الخلّة مؤانس بلا شيئيته . بل مؤتلف و مؤانس بنقيضه أيضًا . و لهذا صار مرآةً لكمالاته و واسطةً لوجود الممكنات . فكانت الخلّة أكثر بركةً من جميع الأشياء . و كانت بركاتها شاملةً للموجود و المعدوم . انتهى .

الباب السادس والثلاثون
في الجواب السابع والثلاثين

المراد التشبيه في وصول ذلك لمن وصل إليه بمحض الفضل وصوله لإبراهيم ولآل إبراهيم كذلك . فهو توسّل إلى الفضل بالفضل . و من لطيف ما يحكى أنّ ممتنحا أنعم عليه كريم . ثم جاءه بعد . فقال له المانح : من أنت ؟ فقال : أنا الذي أنعمت عليه سابقًا . فقال : مرحبًا بمن توسّل لفضلنا بفضلنا . كذا في الفتوحات شرح الأذكار النووية .

الباب السابع والثلاثون
في الجواب الثامن والثلاثين

الكاف استعملت في "كما صلّيت على إبراهيم" في ضدّ معناها و عكس مغزاها . فإنّها في الأصل تفيد غالبًا أجلّيّة المشبّه به على المشبّه . و ههنا استعملت في خلاف ذلك ، و أدّت أفضلية المشبّه على المشبّه به .

و إيضاحه : أنّ بعض الكلمات قد يطلق على ضدّ معناه الموضوع له و يفيد عكس مرماه الحقيقي . و علاقة التضاد إحدى علاقات المجاز . ثم إنّما يحمل اللفظ على ضد معناه إذا وجد على ذلك دليل قويّ ، و لم يكن إلى إرادة المعنى الحقيقي سبيل سويّ .

فالكاف ههنا تفيد ضد معناها المعروف ، و تدلّ على أنّ المشبّه أي محمّدًا ﷺ أجلّ من المشبّه به . لأنّ القرائن الباهرة الدالة على كونه ﷺ أفضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ساعدته ، و الدلائل النيّرة على ذلك عاضدته . و انعقد على ذلك الإجماع .

ولهذا نظائر كثيرة استعملت في أضدادها و أتت مأتى أندادها :

منها : حرف " ثم " العاطفة . فإنّها للترتيب و تأخير ما بعدها عما قبلها . لكنها استعملت على خلاف ذلك في قوله :

قل لمن سَادَ ثم سادَ أَبُوهُ ثم قد سَادَ قبل ذلك جدُّه

و من هذا القبيل عند البعض كما صرّح به ابن كثير في تفسيره قوله تعالى " هُوَ ٱلَّذِىٓ خَلَقَ

لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ " بدليل قوله تعالى "وَ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ" . راجع تفسير ابن كثير ج١ ص٦٨ . و منه قوله تعالى "هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا" و قوله تعالى "ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ" .

ومنها : الفاء . فإنّها للتعقيب مع الوصل ، لكن قد تقع للتراخي الذي هو معنى "ثم" . و التراخي ضد التعقيب مع الوصل كما في قوله تعالى "أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً" . قال ابن هشام في المغني : و منه قوله تعالى "ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا" . فالفاءات في " فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ " و في " فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ " و في " فَكَسَوْنَا " بمعنى " ثم " لتراخي معطوفاتها . و قد تقع لمطلق الجمع و هو معنى الواو . و الجمع ضد التراخي و التعقيب نحو قوله "بين الدخول فحومل" . كذا في المغني .

ومنها : "بعد" . فإنّه قد يقع بمعنى " قبل" . قال ابن خالويه النحوي الإمام : ليس في القرآن "بعد" بمعنى "قبل" إلّا حرف واحد و هو "وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ" . قال الحافظ مغلطاي في كتاب الميسر : قد وجدنا حرفًا آخر و هو قوله تعالى "وَ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ" . قال أبو موسى في كتاب المغيث : معناه هنا "قبل" لأنّه تعالى خلق الأرض في يومين . ثم استوى إلى السماء . فعلى هذا خلق الأرض قبل السماء . انتهى . كذا في الإتقان ج١ ص١٤٤ .

ومنها : "قبل" . فإنّه ربما يفيد إفادة "بعد" كما قد يؤدى "بعد" مؤداه . و من هذا القبيل عندي الحديث المشكل الذي رواه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إذا سجد أحدكم فلا يبرك كما يبرك البعير ، و ليضع يديه قبل ركبتيه . أبوداود ص١٢٢ . أي بعد ركبتيه بدليل النهي عن البروك مثل بروك البعير . و البعير يضع يديه قبل رجليه .

و بدليل حديث وائل بن حجر رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ إذا سجد وضع ركبتيه قبل يديه . و هذا التوجيه أحسن و أولى و أسلم مما ارتكبه الشرّاح رحمهم الله من نسبة الخطأ إلى الراوي الثقة الضابط أو التصحيف إليه و إنّه كان في الأصل "ولا يضع يديه قبل ركبتيه" فصحفه الراوي إلى "ليضع إلخ" و نحو ذلك . و المرء يختار أهون البليّتين عند الوقوع في المصيبتَين .

ومنها : "كلّ" و "بعض". فإنّهما متضادان لكن ربما يأتي أحدهما مأتى الآخر. قال الإمام الأديب اللغوي النحوي الكاتب الشهير عبد الرحمن بن عيسى بن حماد الهمذاني المتوفّى ٣٢٠هـ في كتابه الألفاظ الكتابية ص٢١٤ باب أخذ الشيء بأجمعه و بعض الشيء بمعنى كلّه و كلّه جميع أجزاء الشيء : قال ابن خالويه : قد يكون "كلّ" بمعنى "بعض"، و "بعض" بمعنى "كلّ". و منه قول القرآن الشريف : وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ . و فيه أيضًا : وَ أُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ . أي من بعضه . و فيه أيضًا : يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ . و فيه أيضًا : تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا . انتهى بلفظه .

قلت : لعلّ النقل من ابن خالويه من تصرّف بعض تلامذة عبد الرحمن .

ومنها : "وراء". فإنّه بمعنى "خلف". و قد استعمل بمعنى "قدّام" و "أمام" في قوله تعالى : وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا . و قوله تعالى : مِن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ . و قوله تعالى : وَ يَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا . قاله الإمام الرازي في تفسيره ج٥ ص٥٢٢ .

ومنها : "إلّا" الإستثنائية . فإنّها موضوعة لإخراج ما بعدها عما قبلها ، و مخالفة ما بعدها لما قبلها إثباتًا و نفيًا نحو "ما جاءني إلّا زيد". فهي ضدّ الواو العاطفة التي هي للجمع . ثم قد تأتي "إلّا" بمعنى الواو و تفيد ما تفيده الواو من الجمع . و على ذلك يخرج قوله تعالى ، و هو من المعضلات و المشكلات : وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ . "فإلّا" بمعنى الواو . و التقدير : و هو في كتاب مبين .

و للشيخ سراج الدين البلقيني رحمه الله فيه رسالة سماها "الاستغناء بالفتح المبين في الاستثناء في -وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ-"، ذكر فيها أربعة أجوبة . منها أنّ "إلّا" بمعنى الواو . و نقل فيها أنّ الأخفش سعيد بن مسعدة المجاشعي حمل على ذلك قوله تعالى : لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ . أي و الذين ظلموا منهم . و استشهد الأخفش بقول الشاعر :

و أرَى لها دارًا بأغْدِرَةِ السّيِّـــدانِ لَمْ يَدْرُسْ لها رَسمُ
إلّا رَمادًا هامِـدًا دَفَعَتْ عنْهُ الرِّيَـاحَ خَوَالِدٌ سُحمُ

أي : أرى لها دارًا و رمادًا .

و قال الفراء في قوله تعالى ، و حكى عنه ذلك مكي و استحسنه ، فقال : قوله تعالى " وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ " إن حمل على ظاهره و جعل قوله" إِلَّا فِى كِتَٰبٍ " متصلاً بما قبله و كان المعنى " ما يعزب عن ربّك إلّا في كتاب " أوجب أنّ أشياء تعزب و تغيب عن الله و هي في كتاب مبين . تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا . و مثله في سورة الأنعام : وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ .

قال أبو محمد المكي عقب حكايته ذلك : هذا قول حسن لولا أنّ جميع البصريين لا يعرفون " إلّا " بمعنى الواو . و كذلك قال قوم في قوله تعالى " يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ " : إنّ معناه : و اللمم . و "إلّا" بمعنى الواو . و أجاز الفرّاء أن تكون " إلّا " بمعنى الواو في قوله تعالى "خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ " . الأشباه و النظائر للحافظ السيوطي رحمه الله تعالى ج٤ ص١٩٣ ، ١٩٤ .

الباب الثامن والثلاثون
في الجواب التاسع والثلاثين

هذا جواب الإمامين الكبيرين ابن عساكر و ابن عبد السلام رَحِمَهُمَاٱللَّهُ تَعَالَىٰ . إيضاحه أنّ مجموع المشبّه و إن لم يكن أفضل من المشبّه به لكن مع هذا لا تذهب أفضلية محمد ﷺ من اليد ، بل يدلّ الكلام على أنّه أفضل الأنبياء و المرسلين عَلَيْهِمُ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ . و هذا لطيف و بديع حيث دلّ هذا التشبيه على أنّ محمّدًا ﷺ أفضل الأنبياء و المرسلين مع كونه ﷺ مندمجًا في مجموع المشبّه . و من ثم قالوا : إنّها الصلاة التامة الكاملة الجامعة أفضل من جميع الصلوات .

قال العلاّمة الخفاجي في نسيم الرياض شرح الشفا ج٣ ص٥٢٣ بعد سرد عدة توجيهات : و يقرب منه قول ابن عساكر و ابن عبد السلام ، ما حاصله : أنّ الصلاة على النبي ﷺ و آله شبهت بالصلاة على إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ و آله . فيحصل لنبيّنا ﷺ و آله من آثار الرضوان ما يقارب الحاصلة لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ و آله الذين هم معظم الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ . ثم تقسم الجملة "على نبينا ﷺ و على آله" فلا يحصل لآل النبي منها ما حصل لآل إبراهيم . إذ غير الأنبياء لا يساويهم . فيتوفر ما بقي من آثار الرضوان الشاملة لمحمد و آله على محمد ﷺ . و هذا يشعر بأنّه ﷺ أفضل من إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ . انتهى .

و اعترض بأنّه جاء في رواية مقابلة الاسم بالاسم فقط . و لفظها : اللّهم صل على محمد كما صلّيت على إبراهيم . انتهى . راجع الباب التاسع عشر و مائة . فهناك بحث مهمّ لطيف يتعلق بهذا الجواب .

الباب التاسع والثلاثون
في الجواب الأربعين

التشبيه نوعان :

الأوّل : تشبيه مفرد بمفرد نحو "زيد كالأسد". و الأغلب فيه كينونة المشبّه به أمثل و أقوى .

و الثاني : تشبيه جملة بجملة . ولا ينظر فيه إلى كينونة المشبّه به أجلّ و أمثل . بل لا يعتبر ذلك . و إنّما يعتبر فيه تشبيه مضمون جملة و معناها بمضمون جملة أخرى . و معناها نحو " ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ " حيث لا يدلّ هذا الكلام على أنّ المشبّه به إنّما ذكر لكونه أعلى من المشبّه . كما لا يخفى على المتدرب . و تشبيه الصلاة من الباب الثاني .

إيضاحه : أنّ التفاضل إنّما يكون غالبًا في المفردات الموجودة في الخارج نحو "زيد" و "أسد" . و أمّا المعاني الموجودة في الذهن فسواسية في ظرفها . لا تتفاوت ما دامت في الذهن . لأنّ مدار التفاضل المحكي عنه و الوجود الأصلي و مصداق المعاني . ولا يتصور ذلك في الحكاية و الوجود الظلّيّ و المعاني .

ألا ترى أنّ العلم أفضل من الأكل و الشرب باعتبار المصداق و الثمرات و الآثار الخارجية لا باعتبار المعنى المتحقق في الذهن . ولا يصح أن يدعى أنّ مفهوم " ع ، ل ، م " أفضل من مفهوم " ا ، ك ، ل " لتساويهما في التحقق الذهني ، و في كون كلّ واحد منها مدلول اللفظ . و لم يقل أحد : إنّ فهم معنى مادة " ع ، ل ، م " أي دانستن أفضل من فهم معنى مادة " ا ، ك ، ل ". و إنّما فضل العلم باعتبار مصداقه و ما هو منشأ الانكشاف في الخارج .

و كذلك الأكل صار مفضولاً باعتبار المصداق و ما هو منشأ الشبع . و بهذا يفضل العالم على الآكل . و بهذا يسمّى هذا عالمًا و ذاك آكلاً ، لا بفهم هذا معنى العلم المصدر المركّب من العين و اللام و الميم و فهم ذاك معنى الأكل المصدر المركّب من الألف و الكاف و اللام . بل فهم معنى كلا اللفظين من باب العلم باعتبار منشإ الانكشاف و فاهم كليهما يسمّى عالمًا .

فأنّى يتحقق التفاوت و كيف يوجد التفاضل . و حاصل الكلام أنّ التشبيه في المفردات يراد به التشبيه في مرتبة المحكي عنه ، و في الجمل يراد به التشبيه في نفس تحقق المعاني في مرتبة الحكاية . و الأحسن أن يقال : فيما هو بمنزلة الحكاية في اعتبار التساوي في التحقق دون قصد التفاضل . هذا . و الله أعلم بالصواب .

الباب الأربعون
في الجواب الحادي والأربعين

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ في الفتح : و وجدت في المصنّف لشيخنا مجد الدين الشيرازي اللغوي جوابًا آخر نقله عن بعض أهل الكشف . حاصله : أنّ التشبيه لغير اللفظ المشبّه به لا لعينه . و ذلك أنّ المراد بقولنا " اللّهم صل على محمد " اجعل من أتباعه من يبلغ النهاية في أمر الدين كالعلماء بشرعه بتقريرهم أمر الشريعة "كما صلّيت على إبراهيم " بأن جعلت في أتباعه أنبياء يقررون الشريعة . و المراد بقوله " و على آل محمد " اجعل من أتباعه ناسًا محدثين بالفتح يخبرون بالمغيبات "كما صلّيت على آل إبراهيم " بأن جعلت فيهم أنبياء يخبرون بالمغيبات .

و المطلوب حصول صفة الأنبياء لآل محمد ، وهم أتباعه في الدين كما كانت حاصلة بسؤال إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . و هذا محصّل ما ذكره . و هو جيّد إن سلّم أنّ المراد بالصلاة هنا ما ادّعاه . والله أعلم . انتهى .

قلت : لعلّ مراد المجد الشيرازي من بعض أهل الكشف الصوفي ابن عربي . و قد ذكرت جوابه في باب آخر من هذا الكتاب فراجعه . و يحتمل أن يكون المراد غير ابن عربي . والله أعلم .

الباب الحادي والأربعون
في الجواب الثاني والأربعين

إنّ التشبيه قسمان :

الأوّل : ما يكون المشبّه فيه أمرًا واحدًا و كذا المشبّه به نحو "زيد كالأسد" .

الثاني : ما يشتمل كل واحد من الطرفين على أمرين فصاعدًا نحو "أصحابي كالنجوم" .

و بعد تمهيد هذا نقول و بالله التوفيق : سلّمنا أنّ المشبّه به أكثر ما يكون أعلى و أقوى من المشبّه في القسمين كليهما لكن في القسم الثاني قد يكون المشبّه أدنى من المشبّه به باعتبار جميع ما اشتمل عليه من الأجزاء و المشبّه به أقوى كذلك أي بالنظر إلى مجموع أجزائه ، وقد يكون باعتبار بعض أجزائه أدنى من المشبّه به . وقد كثر جعل الكلّ في حكم الجزء و بالعكس ، و كثر نسبة الحكم إلى الجزء في ضمن الكلّ و بالعكس كما لا يخفى على ذوي الألباب . و قولنا " اللّٰهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم إلخ " من القسم الثاني . و المشبّه به فيه أفضل من المشبّه باعتبار جزئه و هو آل محمد لا باعتبار المجموع من حيث المجموع . ولا ريب في أنّ آل محمد أدنى من إبراهيم عليه الصلاة والسلام و آله .

الباب الثاني والأربعون
في الجواب الثالث والأربعين

الكاف في "كما صلّيت" ليست للتشبيه حتى يتوجّه ما يتوجّه . بل بمعنى "على" أي صلّ على محمد و آله بناءً على ما صلّيت على إبراهيم إلخ .

و لمعناه تقريران :

الأوّل : اللّهم إنّك تصلّي كما هو عادتك القديمة على الأنبياء منذ أرسلتهم بناءً على ما صلّيت على إبراهيم و على آله في القرآن . فيا ربّنا استمرّ على هذه العادة القديمة المباركة ، و صلّ على محمد و على آله .

و التقرير الثاني : اللّهم إنّا نسألك أن تصلي على محمد بناءً على أنّك صلّيت على من هو أدنى منه و هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام و آله . و خصّ إبراهيم بالذكر لثبوت الصلاة عليه في القرآن .

ثم إنّ الأئمة قد صرّحوا بمجيء الكاف بمعنى "على" . قال ابن هشام في معاني الكاف : و الثالث "الاستعلاء" . ذكره الأخفش و الكوفيون . و إنّ بعضهم قيل له : كيف أصبحت ؟ فقال : كخير . أي على خير . و قيل : المعنى : بخير . و لم يثبت مجيء الكاف بمعنى الباء . و قيل في "كن كما أنت" : إنّ المعنى : على ما أنت عليه . انتهى . مغني ج١ ص١٥٢ .

و قال ابن جني في "سر صناعة العرب" ج١ ص٣١٨ : و اعلم : أنّ كلام العرب إذا قيل لأحدهم "كيف أصبحت" أن يقول :كخير . و المعنى : على خير .

قال أبو الحسن : فالكاف في معنى "على" . و قد يجوز عندي أن تكون في معنى الباء ، أي

بخير . قال أبو الحسن : و نحو منه قولهم : كن كما أنت ، أي كن على الفعل الذي هو أنت عليه . انتهى بلفظه .

و منه قولهم في الكتب عند الحوالة مثلاً "روى أبوهريرة رضي الله عنه مرفوعًا كما في البخاري" أي على ما في البخاري . و "روى أنس رضي الله عنه كذا كما في مسلم" أي على ما في مسلم . ولا محل ههنا للتشبيه . إذ ما ذكر عين ما في مسلم لا أنّه مثل ذلك .

و منه قولهم مثلاً "أخرج الدارمي كما في المشكاة" أي بناءً على ما في المشكاة . و "حكم هذه المسألة كذا كما في الهداية" أي بناءً على ما فيها . و "هذا الأمر كذا كما في القرآن" أي بناءً على ما فيه .

و منه قولهم بعد ذكر الحديث النبويّ "معنى هذا الحديث كذا و كذا كما هو في ذهني أو كما فهمت معناه" أي بناءً على ما في ذهني أو على ما فهمته . إذ المذكور عين ما في ذهنه لا نظيره ، و نفس ما فهمه لا مماثله .

و منه قوله تعالى في سورة هود "فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ" أي على ما أمرت . فالكاف فيه بمعنى "على" عند بعض المحققين . منهم الإمام ابن عطية و رأس المفسرين مقاتل و إمام الأئمة جعفر الصادق .

قال الآلوسي رحمه الله تعالى في روح المعاني ج١٢ ص١٣٧ : و ذهب بعض المحقّقين إلى كون الكاف في "كما" بمعنى "على" كما في قولهم "كن كما أنت" أي على ما أنت عليه . ومن هنا قال ابن عطية و جماعة : المعنى : استقم على القرآن . و قال مقاتل : امض على القرآن . و قال جعفر الصادق رحمه الله تعالى : استقم على الأخبار عن الله بصحة العزم . انتهى .

و منه عندي ما في صحيح مسلم عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه مرفوعًا : من حلف على يمين بملّة غير الإسلام كاذبًا فهو كما قال . الحديث . أي على ما قال .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في الفتح : إن اعتقد الحالف تعظيم ما ذكر كفر ، و إن قصد حقيقة التعليق فينظر . فإن كان أراد أن يكون متصفًا بذلك كفر ، لأنّ إرادة الكفر كفر . و إن أراد البعد عن ذلك لم يكفر . لكن هل يحرم ذلك عليه أو يكره . الثاني هو المشهور . انتهى . كذا في فتح الملهم ج١ ص٢٦٦ .

الباب الثالث والأربعون
في الجواب الرابع والأربعين

ما أشار إليه العارف الأكبر الشيخ أحمد السرهندي المجدّد للألف الثانية ، تلخيصه : أنّ لإبراهيم فضلاً جزئيًّا على نبينا ﷺ ، و أنّ التجلّي الذاتيّ نصيب حضرة الخليل عليه الصلاة والسلام . و كذا الوصول النظري إلى الذات الربانية تعالت و تقدّست نصيبه عليه الصلاة والسلام بالإصالة . و إبراهيم عليه الصلاة والسلام عقبة أولى لمن رام الوصول إلى ذات الله تعالى . و هو عليه الصلاة والسلام مرآة لغيب الغيب . و لهذا طلب نبينا ﷺ الصلاة و البركة المتشابهتين لصلاة إبراهيم و بركته عليه الصلاة والسلام . و هذا هو السر لأمر الله سبحانه خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بمتابعته ليصل بتبعيته إلى ولاية إبراهيمية . ثم يتبختر منها إلى حضرة الذات جل شأنها .

قال العارف الأكبر الشيخ أحمد المجدد في المكتوب الثامن و الثمانين إلى حضرة المخدوم زاده الخواجه محمد سعيد رحمه الله تعالى بعد بيان طويل في عظمة شأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام و كون ولايته عقبة أولى : لابدّ من قطعها لمن أراد الوصول إلى الله .

فإن قيل : لزم من هذا البيان أن يكون إبراهيم أفضل من خاتم الرسل على جميعهم الصلاة والسلام و الحال أنّ الإجماع على أفضليّة خاتم الرسل على جميعهم . و لزم أيضًا أن يكون التجلّي الذاتيّ نصيب حضرة الخليل بالإصالة و يكون لغيره بتبعيته . و من المقرّر عند أكابر الصوفية أنّ التجلّي الذاتيّ بالإصالة مخصوص بخاتم الرسل و لغيره بالتبعية .

أجيب : أنّ الوصول إلى الذات كتجلّي الذات تعالت و تقدّست على قسمين : باعتبار النظر و باعتبار القدم . يعني أنّ الواصل إمّا النظر أو الناظر بنفسه . و الوصول النظريّ نصيب الخليل

عليه الصلاة والسلام بالإصالة . فإنّ أقرب التعيّنات إلى حضرة الذات هو التعين الأوّل الذي هو ربّه كما مر . و مالم يوصل إلى ذلك التعين لا ينفذ النظر إلى ما ورائه .

و الوصول القدميّ نصيب الحبيب بالإصالة ، فإنّه محبوب ربّ العالمين . و يوصل بالمحبوبين إلى محل يعجز عنه الأخلاّء إلاّ أن يذهبوا فيه بتبعيته . و اللائق بالخليل أن يصل نظره إلى مقام يصل إليه رئيس المحبوبين عليه و على آله الصلاة والسلام ، و أن لا يقصر في الطريق .

و بالجملة أنّ تجلّي الذات من وجه مخصوص بالخليل وغيره تابع له ، و من وجه مخصوص بخاتم الرسل وغيره تابع له عليه و على آله الصلاة والسلام . و لمّا كان الوجه الثاني أقوى و أدخل في مراتب القرب كانت مناسبة التجلّي الذاتيّ بخاتم الرسل أكثر و أزيد . و كان هو صلى الله عليه وسلم أفضل من الخليل و من سائر الأنبياء بالضرورة . فكان الفضل الكلّيّ نصيب الحبيب و الخليل من بين الأنبياء و إن كان أحدهما أفضل من الآخر . انتهى .

و قال أيضًا الشيخ أحمد قدس سره : و لمّا كان موسى عليه الصلاة والسلام رئيس المحبّين كما كان نبينا صلى الله عليه وسلم رئيس المحبوبين كان له بحكم " المرء مع من أحب " معية بحضرة الذات بالضرورة ليست هي لغيره . و له أيضًا في تلك الحضرة منزلة لا مدخل فيها لغيره . و إنّما نال ذلك بواسطة محبته فقط . و لكن هذا الفضل راجع إلى جزئيّ . يمكن أن يقال : إنّه عديل للكلّيّ . فإنّ الجمّ الغفير من الأنبياء تابعون له في ذلك المقام . و مع ذلك الكلّيّ هو ما كان نصيب الخليل و الحبيب عليهما الصلاة والسلام . و إن كان كلّ منهما تابعًا للآخر من وجه حيث أنّ الخليل أصل في الوصول النظريّ و الحبيب تابع له فيه ، و عكسه في الوصول القدميّ . انتهى .

و قال أيضًا قدّس سرّه : اعلم : أنّه قد ظهر لهذا الفقير الآن بتوسّط بركات هذه المعارف أنّ التعيّن الأوّل هو تعيّن حضرة الذات تعالت و تقدّست بحضرة الوجود . و ذلك التعين الأوّل هو ربّ حضرة الخليل على نبيّنا و عليه الصّلاة والسلام . و لهذا كان هو إمام الكلّ " إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا " و صار سيّد البشر مأمورًا بمتابعته " ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفًا " .

و كلّ نبيّ جاء بعده كان مأمورًا بمتابعته . و سائر التعينات مندرجة في ضمن هذا التعين الوجوديّ سواء كان تعيّنًا علميًّا جمليًّا أو تفصيليًّا . و يمكن أن يكون من ههنا ذكر نبينا صلى الله عليه وسلم إبراهيم

عليه الصلاة والسلام بالأبوّة و ذكر سائر الأنبياء على جميعهم الصلاة والسلام بالأخوّة . فلو ذكر سائر الأنبياء بالبنوّة لجاز . فإنّ تعيناتهم مندرجة في تعينه الذي هو التعين العلميّ الجمليّ على ما قالوا .

و ما ورد في الصلاة المأثورة من قوله عليه الصلاة والسلام "كما صلّيت على إبراهيم " يمكن أن يكون من جهة أنّ الوصول إلى حضرة الذات تعالت و تقدست بدون توسط التعين الأوّل الذي هو التعين الوجوديّ و بلا إتمام كمالات الولاية الإبراهيمية غير ميسّر . فإنّه هو العقبة الأولى لتلك المرتبة المقدسة . و هو الذي صار مرآة لغيب الغيب . فأوردا بطن البطون إلى عرصة الظهور . فلابدّ حينئذ لكلّ أحد من توسّطه . و أمر الله سبحانه خاتم الأنبياء عليه و عليهم الصّلاة والسلام بمتابعته ليصل بتبعيته إلى ولايته . ثم يتبختر منها إلى حضرة الذات جلّ شأنه . انتهى بلفظه .

فإن قلت : كيف يسوغ طلب مقامات الأنبياء لآل محمد على ما يدلّ عليه التشبيه في قوله " اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم " مع أنّ غير النبي لا يصل و لن يصل إلى مقام النبي .

قلت : يفهم من قول الشيخ أحمد السرهندي أنّ بعض أفراد الأمّة يصل إلى تلك المقامات وصولاً نظريًّا أي بالنظر أو وصولاً قدميًّا لا بالإصالة بل بطريق الخدمة و نحو ذلك . ولا يلزم من ذلك المساواة مع النبي ، لأنّ النبي متبوع و هذا تابع له و خادم له . و نال ما نال باتباع النبي مثل مصاحبة الخادم مع المخدوم . و أين الخادم من المخدوم . و أنّى للتابع ما للمتبوع .

قال العارف الأكبر الشيخ أحمد في مكتوبه الثامن و الثمانين : ينبغي أن يعلم أنّ الأنبياء إذا وصلوا إلى حضرة الذات تعالت و تقدست بتوسط نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يكون ذلك النبي حائلاً بين حضرة الذات و بين هؤلاء الأنبياء ، بل لهم من حضرة الذات نصيب بالإصالة .

غاية ما في الباب أنّ وصولهم إلى تلك الدرجة مربوط بتبعية ذلك النبي عليه و عليهم الصّلاة والسلام . بخلاف أمّة نبي وصلت بتوسطه . فإنّ ذلك النبي حائل في البين . إلاّ أن يكون لفرد من أفراد الأمّة نصيب من حضرة الذات بالإصالة . فالحيلولة ثمّة أيضًا مفقودة و تبعيته له موجودة . و قليل ما هم بل أقلّ .

فإن قيل : فعلى هذا التقدير ما يكون الفرق بين ذلك الفرد من الأمّة و بين سائر الأنبياء ،

فإنّ الحيلولة مفقودة في كليهما و التبعية موجودة ؟

أجيب : أنّ تبعية ذلك الفرد من الأمّة باعتبار التشريع . فإنّه ما لم يتبع شريعة نبي لا يصل . والتبعية في الأنبياء باعتبار أنّ وصول النبي المتبوع إلى تلك الدرجة أوّلًا و بالذات ، و وصول غيره ثانيًا و بالعرض . فإنّ المطلوب من الدعوة هو المحبوب ، و غيره إنّما يدّعي بتطفله و يطلب بتبعيته . و لكن الكلّ جلساء على سفرة واحدة و مستوفون للتلذّذات و التنعّمات في مجلس واحد على تفاوت درجاتهم . و الأمم هم الذين ينالون من زلاتهم و يأكلون من فضلاتهم ، إلّا أن يكون فرد من أفرادهم مخصوصًا بكرم الله تعالى . فيصير جليس مجلس الأكابر كما مرّ . مصرعه :

ع لا عسر في أمر مع الكرام

و مع ذلك الأمّة أمّة . لا يجوز إطلاق اسم النبي على أحد منهم . و النبيّ نبيّ . و الأمّة و إن حصل لها غاية الرفعة و نهاية العلوّ و لكن لا تبلغ رأسها قدم نبي من الأنبياء . قال الله تعالى : وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِيْنَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنْصُوْرُوْنَ ۝ وَ إِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ ٱلْغَالِبُوْنَ ۝ انتهى كلام الشيخ .

فائدة

اعلم : أنّ الوصول النظريّ ما يصل إليه السالك بالنظر كوصولنا إلى الشمس و القمر بوقوع نظرنا عليهما و نحن على وجه الأرض ، و الوصول القدميّ ما يصل إليه بالقدم كما يصل أحد إلى الشمس ببدنه أو بروحه . و هو قسمان : أحدهما ملكيّ مسكنيّ بالإصالة . و هو عبارة عن وصوله إلى المرتبة التي هي مسكنه و مأواه و ملكه . و الثاني غيره . و هو عبارة عن وصوله إلى تلك المرتبة بالتبع و العارية ، ولا تكون ملكه ، ولا يقدر أن يسكنها إلّا برضاء صاحب المرتبة أو بخدمته . هذا ما صرّح به العارف السرهندي رحمه الله تعالى وغيره .

الباب الرابع والأربعون
في الجواب الخامس والأربعين

إبراهيم عليه الصلاة والسلام رُزق حظًّا أوفر من القبول في الأمم الكثيرة . فكلّ من اليهود و النصارى و الصابئين و المجوس ادّعوا أنّه إمامهم . و كلّ حزب يفتخر باتباعه . و هذا شأن عظيم لم يؤت أحدًا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام غير إبراهيم عليه الصلاة والسلام نتيجةً لدعائه المذكور في القرآن . و هو "وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ" . قال العلامة الآلوسي رحمه الله تعالى : أي اجعل لنفعي ذكرًا صادقًا في جميع الأمم إلى يوم القيامة . انتهى .

و نظرًا إلى هذا الفضل الجزئيّ صحّ أن يقال : إنّ قولنا " اللّٰهم صل على محمد إلخ " من قبيل تشبيه الكامل بالأكمل و إن كانت الأكملية جزئيّة . و نبينا صلى الله عليه وسلم أمر أمّته أن يدعوا له بأن يؤتيه الله هذه المنقبة الفخيمة و يجعله مشاركًا لإبراهيم عليه الصلاة والسلام فيها . و يظهر أثر دعاء الأمّة تامًّا في زمن عيسى عليه الصلاة والسلام بعد نزوله من السماء حيث لا يقبل من الناس إلّا الإسلام ، و يضع الجزية . فعند ذاك يؤمن به صلى الله عليه وسلم الناس عن آخرهم . و في يوم القيامة حيث يمدحه الأوّلون و الآخرون عند الشفاعة الكبرى شفاعة الإراحة الشاملة لكلّ مسلم و كافر . هذا . والله أعلم .

الباب الخامس والأربعون
في الجواب السادس والأربعين

قال العلامة الشيخ محمد أعلى بن علي التهانوي في كشاف اصطلاحات الفنون : إنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام سأل ربّه بقوله "وَ ٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ" يعني أبق لي ثناءً حسنًا في أمّة محمد ﷺ . فأجابه الله تعالى إليه و قرن ذكره بذكر حبيبه إبقاءً للثناء الحسن عليه في أمّته . انتهى كلامه بلفظه .

و فرق بين الجوابين . فإنّ الجواب المقدم مبني على الفضل الجزئيّ لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، و أنّ نبينا ﷺ سأل الله تعالى ذلك الفضل ، و أنّ الله يعطيه عند نزول عيسى عليه الصلاة والسلام و يوم القيامة . بخلاف جواب هذا الباب فإنّه لا يبني على ذلك كما لا يخفى . و لك أن تعدّهما جوابًا واحدًا . و الله أعلم بالصواب .

الباب السادس والأربعون
في الجواب السابع والأربعين

هذا يتوقف على بيان مقدمة . و هي أنّي سمعت بعض المشائخ المهرة أوان التحصيل أنّ التشبيه قسمان :

أحدهما و هو الأشهر ما يكون لبيان حال المشبّه قياسًا على المشبّه به حيثما يكون المشبّه به معلوم الحكم ظاهر الحال قبل التشبيه . نحو " زيد كالأسد " . فإنّ شجاعة الأسد أمر بيّنٌ . و المشبّه به في هذا النوع أكثر ما يكون أقوى و أفوق ليصح الترقي بإلحاق الأدنى بالأعلى . و الأعلى هو المشبّه به .

وثانيهما ما يكون لبيان حال المشبّه به و قياسه على المشبّه . فما يكون المشبّه معلوم الحكم و الحال و لم يكن المشبّه به مبيّنًا ولا معروفًا قبل التشبيه بل كان مبهمًا مطلقًا أو من وجه ، فيشبّه به ليصبح معروفًا مشاركًا للمشبّه في الوصف . ولا يجب فيه أن يكون المشبّه به أعلى و أقوى من المشبّه بل لا يصح . و ربما يكون فيه إلحاق الأدنى و هو المشبّه به بالأعلى والأجلى و هو المشبّه .

إذا علمت هذا فاعلم : أنّه لا يبعد أن يدّعى أنّ قولنا "كما صلّيت على إبراهيم " من قبيل القسم الثاني . و المقصود إلحاق إبراهيم عليه الصلاة والسلام و صلاته بمحمد و صلاته صلى الله عليهما وسلم ، و إرشاد الناس إلى أنّ الله صلّى على إبراهيم و آله كما صلّى على محمد و آله صلى الله عليهما وسلم حيث قال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ . الآية .

و لم تكن صلاة الله على إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعد معلومة معروفة عند الصحابة رضوان الله عليهم حق علم و معرفة . و يدلّك على ذلك شأن ورود هذه الصلاة . و هو أنّه لما نزلت آية " إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ

يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ " الآية ، سألوا رسول الله ﷺ :كيف نصلّي عليك ممتثلين أمر الله تعالى إيّانا بالصلاة عليك ؟ و هذا السؤال كان بعد ما عرفوا تحقق وقوع صلاة الله و الملائكة على النبي ﷺ . فقال النبي ﷺ في جوابهم : قولوا : اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم .

فأرشدهم كيف يمتثلون أمر الله تعالى . و لاداء حق الأبوّة و تصديق اتباع ملّة إبراهيم زادهم بقوله "كما صلّيت على إبراهيم " فائدة . و هي أنّي لست متفرّدًا في هذه المنقبة بل يشاركني فيها إبراهيم عليه الصلاة والسلام أيضًا .

فعلى هذا مقتضى هذا التشبيه أنّ محمدًا ﷺ أفضل و أجلّ من إبراهيم عليه الصلاة والسلام . هذا . ولله الحمد و الفضل .

و من تفحص كتب الفنون و عبارات المحققين من العلماء و محاورات البلغاء يقف على صحة ما سطرنا ، و يجد له شواهد صريحة و نظائر مؤيدة و مآخذ جليّة . و كلّ قاعدة يؤيده صريح كلام البلغاء و العرب الأقحاح . فالأحرى أن لا يرتاب في صحتها و إن لم يذكرها السلف . و سكوتهم عنها و عدم ذكرهم لها لا يدلّ على عدم صحة تلك القاعدة . و كلام البلغاء هو المأخذ لقواعدهم التي ذكروها ، و المأخذ المأخذ لقاعدتنا هذه .

و هذا عدة شواهد و قرائن تؤيد قاعدتنا :

فمنها : قوله تعالى : وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ .كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ . أي أهل الكتاب الذين جزءوا الكتاب ، فآمنوا ببعضه و كفروا ببعضه . المراد إنزال العذاب على اليهود من قريظة و النضير . و لم يكن معلومًا ولا نازلًا عند نزول هذه الآية لإنّها مكيّة . فالتشبيه إنّما هو من قبيل القسم الثاني من القسمين المذكورين سابقًا ، أي لبيان حال المشبّه به و الإخبار عنه بأنّه سيتحقق كما تحقق المشبّه .

قال العلامة الآلوسي رحمه الله في إعراب هذه الآية : و قيل : هو متعلّق بقوله تعالى " وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ " لأنّه في قوّة الأمر بالإنذار . كأنّه قيل : أنذر قريشًا مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين . يعني اليهود . بأن جعل المتوقع كالواقع . و قد وقع كذلك . انتهى .

أقول : إذا جعل هذا التشبيه من قبيل النوع الثاني لا يرد ما قدح به الآلوسي القول المتقدم

حيث قال بعد تلك العبارة : و تعقّب بأنّ المشبّه به المنذر ينبغي أن يكون معلومًا حال النزول . و هذا ليس كذلك . فيلغو التشبيه . انتهى . روح المعاني ج١٤ ص٨١ . و وجه عدم وروده أنّه من قبيل النوع الثاني . و فيه لا يكون المشبّه به معلومًا قبل التشبيه . و إنّما يقصد بالتشبيه تبيينه و إلحاقه بالمشبّه المعلوم المعروف .

ومنها : قوله تعالى "إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ". فلا يبعد أن يقال : إنّ المراد الإخبار بأنّ أصحاب الجنة أيضًا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجحيم . إذ ليس بلاء أصحاب الجنة أعرف و أشهر من بلاء أهل النار .

ومنها : ما قال البعض محاكمًا بين صحيح البخاري و صحيح مسلم :

تنازع قومٌ في البخاريّ و مسلمٍ لديّ فقالوا أيّ ذَيْنِ يُقدّمُ
فقلتُ لقد فاقَ البخاريُّ صحةً كما فاقَ في حُسْنِ الصّناعَةِ مُسْلِمُ

فقوله "كما فاق إلخ" من هذا القبيل . ليس المقصود تشبيه فوقيّة البخاري صحةً بفوقية مسلم صناعةً حتى يكون المشبّه به أعلى أو أثبت من المشبّه . إذ هذا المعنى ينافي المحاكمة . بل المقصود إثبات هذا و ذاك . و استيناف الإخبار بهذه العبارة بأنّ حال صحيح مسلم التفوّق صناعةً و حال صحيح البخاري التفوّق صحةً . هذا . والله أعلم .

ومنها : الدعاء المشهور ذكره ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة و قال : إنّه من الدعوات الفصيحة المستحسنة . و هو "اللّهم إنّا بك نعزّ كما إنّا بغيرك نذلّ ، و إيّاك نرجو كما إنّا من غيرك نيأس ، و إليك نفوّض كما إنّا من غيرك نعرض" . شرح نهج البلاغة ج٣ ص٩٠ .

ومنها : ما في مقدمة صحيح مسلم : وهما صاحبا الحسن و ابن سيرين كما أنّ ابن عون و أيوب صاحباهما . المراد : تبيين أنّ ابن عون و أيوب تلميذان لهما ، و الحكاية عن هذا المراد بهذه العبارة . إذ لم يذكر الإمام مسلم قبل هذه العبارة أنّهما صاحبا الحسن و ابن سيرين حتى يحال على ذلك حال المشبّه و يكون من باب النوع الأوّل .

ومنها : ما قال العلامة الثاني مولانا التفتازاني في التلويح شرح التوضيح عند البحث على

إعراب الحمد : جعل الحمد قيدًا أي للابتداء كما جعل التسمية قيدًا . لم يصرّح قبل هذا الكلام بل لم يشر أنّ التسمية قيد حتى يكون المشبّه به معلوم الحكم و يقاس عليه المشبّه ، و هو "الحمد" . بل أراد بقوله "كما جعل التسمية قيدًا " شرح إعراب البسملة و الإرشاد إلى أنّها أيضًا مثل الحمد في أنّها قيد .

ومنها : ما قال المحقق الجلال الدواني رحمه الله في حواشي التهذيب للتفتازاني رحمه الله ص٥٩ : إنّ معاني الألفاظ لا يلزم أن تكون حين الاستعمال حاصلة في الذهن بالذات كما أنّها حين الوضع لا يلزم ذلك . فالقول بوضع الألفاظ للصور الذهنية مأوّل كما أنّ القول بوضعها للأعيان الخارجيّة مأوّل . انتهى .

فالتشبيه في قوله "كما أنّها حين الوضع إلخ " و في قوله "كما أنّ القول إلخ " لبيان حكم المشبّه به بهذه العبارة . إذ لم يبين الدواني رحمه الله قبل هذه العبارة حكم المشبّه به الأوّل و لا حكم المشبّه به الثاني حتى يصيرا معروفين و يقاس بهما المشبّه ، كما لا يخفى على من رجع إلى كلامه .

ومنها : قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ۝ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ . أي دأبهم كدأب آل فرعون . الظاهر أنّ المراد ذمّ آل فرعون بعد ما ذمّ المخاطبين من الكفار ، و إظهار أنّ دأب آل فرعون كان مثل دأبهم و ترهيبهم بذكر قصة آل فرعون أن يؤول عاقبتهم إلى أسوء حال كما آل آل فرعون إلى أسوء عاقبة . و دأب آل فرعون لم يذكر قبل هذا في هذه السورة حتى يشبّه به و يجعل من قبيل قولنا "زيد كالأسد" .

و هنا ثلاث قرائن تدلّ على أنّ المقصود بيان حال المشبّه به و قياسه على المشبّه لا بالعكس .

الأولى : عدم ذكر المشبّه إشارة إلى عدم لحاظ بيان حاله .

والثانية : تفسير المشبّه به بقوله "كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ " إيماءٌ إلى أنّ التشبيه لتفسير المشبّه به ، لا لتفسير المشبّه .

والثالثة : هنا ذكر حال آل فرعون . و دأب القرآن في القصص و بيان أحوال الأمم الماضية ذكرها بدون حرف التشبيه . و إيراد حرف التشبيه هنا للتفنّن أو لهذا المرام و لما يعلمه الله تعالى .

الباب السابع والأربعون
في الجواب الثامن والأربعين

قال الإمام القسطلاني رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : مما يعزى للعارف الرباني أبي محمد المرجاني رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أنّه قال : و سرّ قوله ﷺ "كما صلّيت على إبراهيم " و "كما باركت على إبراهيم " و لم يقل "كما صلّيت على موسى " لأنّ موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان التجلي له بالجلال فخرّ موسى صعقًا . و الخليل إبراهيم كان التجلّي له بالجمال لأنّ المحبة و الخلّة من آثار التجلّي بالجمال .

فلهذا أمرهم صلوات الله و سلامه عليه أن يصلّوا عليه كما صلّى على إبراهيم . فيسألوا له التجلي بالجمال . و هذا لا يقتضي التسوية فيما بينه و بين الخليل عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . لأنّه إنّما أمرهم أن يسألوا له التجلّي بالوصف الذي تجلّى به للخليل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . فالذي يقتضيه الحديث المشاركة في الوصف الذي هو التجلّي بالجمال . ولا يقتضي التسوية في المقامين ولا في الرتبتين .

فإنّ الحق سبحانه يتجلّى بالجمال لشخصين بحسب مقاميهما و إن اشتركا في وصف التجلي بالجمال . فيتجلّى لكل واحد منهما بحسب مقامه عنده و رتبته منه و مكانته . فيتجلّى للخليل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالجمال بحسب مقامه . و يتجلّى لسيدنا محمد ﷺ بالجمال بحسب مقامه . فعلى هذا يفهم الحديث . انتهى كلام العارف أبي محمد .

الباب الثامن والأربعون
فى الجواب التاسع والأربعين

قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ في دفع هذا الإشكال : و منها أنّ التشبيه غير منظور فيه إلى جانب زيادة أو نقص . و إنّما المقصود أنّ لهذه الصلاة نوع تعظيم و إجلال كما فعل في حق إبراهيم و تقرر و اشتهر من تعظيمه و تشريفه . و هو خلاف الظاهر . انتهى .

الباب التاسع والأربعون
في الجواب الخمسين

قيل : إنّ التشبيه راجع إلى المصلّي السائل فيما يحصل له من الثواب ، لا بالنسبة إلى ما يحصل للنبي ﷺ .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى : و هذا ضعيف ، لأنّه يصير كأنّه قال : اللّهم أعطني ثوابًا على صلاتي على النبي ﷺ كما صلّيت على آل إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

و يمكن أن يجاب بأنّ المراد مثل ثواب المصلّي على آل إبراهيم عليه الصلاة والسلام . انتهى .

قلت : هذا الجواب ذكره ابن القيم في جلاء الأفهام ناقلًا عن طائفة حيث قال : إنّما هذا التشبيه راجع إلى المصلّي فيما يحصل له من ثواب الصلاة عليه . فطلب من ربّه ثوابًا و هو أن يصلّي عليه كما صلّى على آل إبراهيم لا بالنسبة إلى النبي عليه الصلاة والسلام . فإنّ المطلوب لرسول الله ﷺ من الصلاة أجلّ و أعظم مما هو حاصل لغيره من العالمين .

ثم ردّه فقال : إنّ التشبيه ليس فيما يحصل للمصلّي بل فيما يحصل للمصلّى عليه و هو النبي عليه الصلاة والسلام و آله . فمن قال : إنّ المعنى " اللّهم أعطني من ثواب صلاتي عليه كما صلّيت على آل إبراهيم عليه الصلاة والسلام " فقد حرف الكلم و أبطل في كلامه . انتهى .

قلت : يمكن أن يجاب : ليس مراد صاحب هذا الجواب أنّ معناه المطابقيّ هذا ، بل أراد المآل . لاسيما على مسلك من ادّعى أنّ فائدة الصلاة إنّما تعود على المصلّي فقط ، و أنّ نبينا ﷺ غنيّ عن ذلك و إن وقع في الصورة تشبيه صلاته عليه الصلاة والسلام بصلاة إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

الباب الخمسون
في الجواب الحادي والخمسين

قيل : الغرض من التشبيه قد يكون بيان حال المشبّه من غير نظر إلى قوة المشبّه به . هذا ما ذكره العلامة الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ . ثم قال : و هو قليل لا يحمل عليه إلّا لقرينة . انتهى .

قلت : القرينة ههنا متحققة . و هي أنّ نبينا ﷺ أفضل الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ . و ثبت ذلك في النصوص القاطعة .

الباب الحادي والخمسون
و هو مشتمل على جوابين

الكاف ليست تشبيهية حتى يرد ما يرد ، بل هي للمقارنة بين صلاتي إبراهيم و محمد عليهما الصلاة والسلام أو هي للمفاجأة . و كاف المفاجأة تفيد مفاد كاف القِران . و المقارنة المطلوبة إنّما هي في كون صلاتيهما منسوبتين إلى الله تعالى ، و في كونه تعالى هو الفاعل المصلّي ، و في مشاركة آلهما في صلاتيهما ، و في دوام الصلاة على الطائفتين و استمرارها مستقبلاً ، و في مقارنة بدإ الصلاة على الحزبين ماضيًا .

هذا . و قد صرح بعض أئمة الحديث كالكرماني وغيره و أئمة النحو بإفادة الكاف معنى المقارنة و المفاجأة . ففي حديث أنس رضي الله عنه في تحويل القبلة : فمرّ رجل من بني سلمة و هم ركوع في صلاة الفجر و قد صلّوا ركعة فنادى : ألا ، إنّ القبلة قد حوّلت . فمالوا كما هو نحو القبلة . أخرجه مسلم في صحيحه " فما " في "كماهم " موصولة ، و الكاف للمبادرة . و قال الكرماني : للمقارنة . و " هم " مبتدأ و خبره محذوف . انتهى . كذا في فتح الملهم .

و من هذا الوادي ما في الهداية في بيان أنّه متى يصير الماء مستعملاً في الوضوء و الغسل ، حيث قال المرغيناني رحمه الله تعالى : إنّه كما زال من العضو صار مستعملاً . فالكاف عند صاحب النهاية و غيرها للمفاجأة ، و عند العيني و أتباعه للقران .

قال المولي عبد الحي رحمه الله تعالى في السعاية ج١ ص٣٩٦ : و الكاف في قوله "كما زال " للمفاجأة ، كما تقول " كما خرجت من البيت رأيت زيدًا " أي فاجأت ساعة خروجي ساعة رؤية زيد (أي قارنت ساعتا الخروج و الرؤية) أي يصير الماء مستعملاً مفاجأة وقت زواله عن العضو من غير توقّف على الاستقرار .

كذا في النهاية وغيرها .

و ذكر العيني في البناية : أنّ النحاة ذكروا أنّ الكاف إذا كان بعدها " ما " الكافة يكون لها ثلاثة معان :

أحدها : تشبيه مضمون جملة بمضمون جملة أخرى .

و الثاني : أن تكون بمعنى " لعل ". حكاه سيبويه عن العرب في قولهم : انتظرني كما آتيك . أي لعلّ ما آتيك .

و الثالث : أن تكون بمعنى قران الفعلين في الوجود ، نحو أدخل كما يسلّم الإمام . و كما قام زيد قعد عمرو . و الكاف ههنا من هذا القبيل . ولم أر أحدًا منهم قال : إنّ الكاف تكون للمفاجأة وإن كان معناها قريبًا مما ذكرنا . انتهى كلام العيني ملخّصًا .

أقول : إنّ المطلوب الصلاة على محمد ﷺ و آله مع الصلاة على إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الماضي و الدعاء له ﷺ . فإنّه و إن كان متأخّرًا زمانًا من إبراهيم عليه الصلاة والسلام لكن يا ربّنا صلّ عليه منذ صلّيت على إبراهيم ولا تنظر إلى التقدّم و التأخّر الزمانيّ كي لا تنتقص صلاة نبينا ﷺ باعتبار البدء بالنسبة إلى صلاة إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

و أمّا باعتبار المنتهى و بالنظر إلى آخرها فصلاة نبينا زائدة على صلاة إبراهيم عليهما الصلاة والسلام كما لا يخفى .

فحاصل المعنى : اللّهم صلّ على آل محمد مع الصلاة على محمد و إن كانوا متأخرين عنه ﷺ وصل على محمد و آله مع الصلاة على إبراهيم عليهما الصلاة والسلام و آله في الماضي و إن كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام و آله سابقين حتى يرتفع تفاوت الزمان من البين ، و ينتفي القول بتقدم صلاة إبراهيم على صلاة محمد عليهما الصلاة والسلام . و صلّ على آل إبراهيم و هم الأنبياء المتأخرون في بني إسرائيل مع صلاتك على إبراهيم قبلهم و إن كانوا مسبوقين زمانًا و إبراهيم سابقًا عليهم (عليهم الصلاة والسلام) .

الباب الثاني والخمسون
في الجواب الرابع والخمسين

إنّ لنشأة البشر الطبيعية آثارًا و أحكامًا . فما كان للقصد و العمد مدخل فيه فهو حكم الطبيعة و إلّا فهو أثرها . صرّح بذلك بعض العارفين .

و بعد بيان هذا التمهيد أقول : إنّ الصلاة في الطرفين المشبّه و المشبّه به واحدة حقيقةً وإن كانت مختلفة صورةً ، و متحدة في الباطن و إن كانت متباينةً في الظاهر . فلا تفاضل بين الجانبين إذ لمّا انتفى الاثنينية انتفى التفاضل ، لأنّه خاصة الاثنينية و إذ لا فلا .

و إنّما قلنا باتحاد صلاتي المشبّه والمشبّه به لأنّ الصلاة على إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الماضي في الحقيقة هي صلاة على محمد صلى الله عليه وسلم أيضًا الذي كان نوره في ظهر إبراهيم عليه الصلاة والسلام إذ ذاك مستورًا و كان لله تعالى عند الصلاة منظورًا . فهو صلى الله عليه وسلم كان إذ ذلك الزمان موجودًا من وجه و معدومًا من وجه متحدًا مع إبراهيم عليه الصلاة والسلام و مغايرًا غائبًا و حاضرًا داخلًا و خارجًا . كما قيل :

لئن صار عن عيني وجهك غائبًا ... ففي حبّ قلبي حبّ وجهك حاضر

و كما قيل :

أيا غائبًا حاضرًا في الفؤاد ... سلام على الحاضر الغائب

ثم إنّ ذلك النور الأنور و الجزء الأزهر في ظهر إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان مقتضيًا للتعظيم و داعيًا طالبًا للصلاة المخصوصة على إبراهيم عليه الصلاة والسلام و التسليم حكمًا لطبيعة النور الأفخم و أثرًا طبيعيًّا للجزء الأعظم . و للابن أثر في أبيه ، إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ . فالصلاة على إبراهيم عليه الصلاة والسلام و كذا السلام

عليه من آثار طبيعة ذلك الجزء أو من أحكامها .

ألا ترى أنّ الإنسان بسبب جزئه الذي هو الروح يكرم و يبجل و يهاب عنه و يحفظ . فإذا مات و خرج روحه يدفن ، و يتشتت بعد عدة ساعات ، و يسلب عنه جميع الكمالات المتعلقة به في حياته .

و هذا كما قال بعض العارفين : إنّ جحد آدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بعد أكل الشجرة كان لما في ظهره من الجاحدين . و للأبناء تأثير في الآباء . فإبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ استحق الصلاة المخصوصة . و صلى الله عليه و على آله بتلك الصلاة كرامةً لجزئه المستور في ظهره ولا غرو . فإنّ المسك بعض دم الغزال ، و القلب مضغة البدن و مدار الكمال ، و الروح جزء الإنسان مع كونه مناط الجمال .

خلاصة الكلام : أنّ المصلي يسأل الله تعالى أن يصلّي على محمد و آله حكمًا لطبيعته الفخيمة الفاخرة كما صلّى على محمد في الماضي أي " على إبراهيم و آله " أثرًا لنشأته البشرية العظيمة الزاهرة ، أو بالعكس أي المسؤول الصلاة على محمد ﷺ أثرًا للنشأة مثل ما صلى الله عليه في الماضي حكمًا لها . و التغاير من وجه بين طرفي التشبيه يكفي لصحة التشبيه .

تنبيه

يسهل عليك فهم هذا الجواب التدبر في فحوى كلام الشيخ الأكبر ، حيث قال في الباب الأربعين و ثلاثمائة من الفتوحات المكية ج٤ ص١٥٦ بعد بيان طويل يتعلق بالأدب : سرى الجحد و النسيان في بني آدم من جحد آدم و نسيانه جبرًا لقلب آدم . فإنّ هذه النشأة الطبيعية من حكم الطبيعة فيها الجحد و النسيان .

فكانت حركة آدم في جحده حركة طبيعية و في نسيانه أثر طبيعيّ . فلو تناسى لكان الأمر من حركة الطبيعة كالجحد من حيث أنّه جحد هو أثر طبيعيّ و من حيث ما هو جحد بكذا هو حكم طبيعيّ لا أثر . فهذا الفرق بين حكم الطبيعة و بين أثرها . و النسيان من أثرها و التناسي من حكمها . و الغفلة من أثرها و التغافل من حكمها .

و قليل من العلماء بالله من يفرق بين حكم الطبيعة و أثرها . فاجتمع في آدم حكم الطبيعة بالجحد . لأنّه الأوّل الجامع في ظهره للجاحدين . فحكموا عليه بالجحد . فجحد لأنّ الابن له أثر في أبيه . فالجحد و إن كان من حكم الطبيعة فإنّه من أثر الجاحدين من أبنائه ، لأنّ آدم إنسان كامل . و كذا النسيان الواقع منه هو من أثر الطبيعة و حكم الأبناء . فإنّه حامل في ظهره للناسين من أبنائه . فحكموا عليه بالنسيان . فانظر ما أعجب هذه الأمور و ما يعطيه فتوح المكاشفة . انتهى بلفظه .

الباب الثالث والخمسون
في الجواب الخامس والخمسين

محصوله : أنّ الكلام في هذا التشبيه من قبيل الكلام في قوله تعالى : وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ . فالإشكال الإشكال و الجواب الجواب .

و إيضاحه : أنّ في هذه الآية أضيف الذنب إلى النبي ﷺ . و نسبة الذنب إليه ﷺ أبعد عن علوّ مقامه و أقدح في رفيع شأنه ﷺ من جعله ﷺ مشبّهًا بإبراهيم عليه الصلاة والسلام . إذ إبراهيم عليه الصلاة والسلام نبي جليل الشأن . ولا يبعد أن يكون لإبراهيم عليه الصلاة والسلام أفضليّة جزئية على نبينا ﷺ . و أمّا الذنب فالأنبياء معصومون عن آخرهم من مباشرة الصغائر و الكبائر بقضّها و قضيضها . لاسيما سيّد الأنبياء و حامل لواء المرسلين محمد ﷺ .

و بعد تحرير هذه المقدمة أقول : كما أنّه لا يتصوّر كونه ﷺ مفضولًا مشبّهًا و غيره ﷺ فاضلًا و مشبّهًا به ، ولا يصح ذلك ، و هذا مما لا ينكر ، كذلك لا يتصور صدور الذنب عنه ﷺ ولا تصح نسبته إليه ﷺ . ثم مع ذلك كما نسب الذنب إلى نبينا عليه الصلاة والسلام و أمر بالاستغفار في هذه الآية تمهيدًا لاستغفار ذنوب المؤمنين و المؤمنات . و المقصود من هذا التمهيد هضم النفس ، و الاعتراف بالتقصير ، و إظهار عظمة شأن الله تعالى بكونه قبلة الحاجات و المضطرّين ، و تعليم أنّ الإنسان يحتاج إلى الدعاء من الله و إن كان أعلى من كل عال ، و حمل الأمّة على ذلك فعلًا و اعتقادًا .

كذلك جعل النبي ﷺ نفسه أدنى من إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام و مشبّهًا به توطئة للصلاة على آل محمد .

و المراد من هذه التوطئة كسر النفس و الإقرار بأنّ مقامات القرب من الله تعالى أكثر من أن يحصى ، و إبداء أنّ العبد لايستغني عن طلب المقامات العالية المقرّبة إلى الله تعالى زلفى ، و إن فضل كلّ فاضل و فاق كلّ كامل ، و بعث المسلمين على ذلك . و قد ذكر العارفون بالله أنّ لنبينا ﷺ في كلّ لحظة عروجًا إلى مقام أعلى مما كان فيه و صعودًا إلى مرتبة أسنى مما حصل له .

و من هذا القبيل قوله تعالى : لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَ ٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ . قال أصحاب المعاني : المراد ذكر التوبة على المهاجرين و الأنصار إلاّ أنّه جيء في ذلك بالنبي ﷺ تشريفًا لهم و تعظيمًا لقدرهم . و هذا كما قالوا في ذكره تعالى في قوله تعالى : فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَ لِلرَّسُوْلِ . كذا في روح المعاني ج١١ ص٣٩ .

فصل

اعلم : أنّ هذه الآية و كذا قوله تعالى " لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ " من المشكلات إذ لا ذنب هنا . فما معنى الاستغفار و المغفرة ؟

و حلّ ذلك من وجوه :

الأوّل : أنّ فيه إظهار التواضع و العبدية لله تعالى . و هو أمر مستحسن وإن لم يكن ثم ذنب .

و الثاني : فيه إرشاد للأمّة و ترغيب لهم في طلب مغفرة الله في جميع الأحوال .

و الثالث : المراد من الذنب خلاف الأولى من الأمرين اللذين كلّ منهما جائز أو طاعة لكن أحدهما أولى من الآخر . إذ حسنات الأبرار سيئات المقرّبين .

و الرابع : أنّ المراد لو كان ذنب فرضًا فقد غفره الله أو فاستغفر الله منه .

و الخامس : أنّ المراد أنّه عليه الصلاة والسلام كان دائم الترقي . فبعد الرقى إلى الدرجة العليا يعد ما تحتها كالذم و النقص .

و السادس : أنّ المراد من الذنب حجاب الأنوار ، لا حجاب الأغيار . قال العلامة عبدالرؤوف

المناوي المتوفّى سنة ١٠٣٠هـ في شرحه للجامع الصغير عند قوله عليه الصلاة والسلام "إنّه ليغان على قلبي و إنّي لأستغفر الله في اليوم مائة مرة" ، رواه الإمام أحمد و مسلم و أبوداود و النسائي عن الأغر المزني : " ليغان " من الغين ، و هو الغطاء . "و إنّي لأستغفر الله " أي أطلب منه الغفران و هو الستر في اليوم مائة مرة .

قال العارف الشاذلي : هذا غين أنوار لا غين أغيار ، لأنّه عليه الصلاة والسلام دائم الترقي . فكلّما توالت أنوار المعارف على قلبه ارتقى إلى رتبة أعلى منها . فيعد ما قبله كالذم . انتهى . أي فليس ذلك الغين غين حجاب ولا غفلة كما وهم . و إنّما كان يستغرقه صلى الله عليه وسلم أنوار التجليات . فيغيب بذلك الحضور . ثم يسأل الله تعالى المغفرة أي ستر حاله عليه . لأنّ الخواص لو دام لهم التجلي لتلاشوا عند سلطان الحقيقة . فالستر لهم رحمة و للعامة حجاب و نعمة . انتهى كلام المناوي .

قلت : قال الشيخ تاج الدين أحمد بن عطاء الله السكندري رحمه الله تعالى في كتابه لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي رحمه الله تعالى و شيخه أبي الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى : و قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى : سمعت الحديث الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنّه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم سبعين مرة" فأشكل عليّ معناه . فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول لي : يا مبارك ! ذاك غين الأنوار ، لا غين الظلم و الأكدار . انتهى بلفظه .

و من كلام العارف بالله السهروردي : لا ينبغي أن تعتقد أنّ الغين نقص في حال المصطفى صلى الله عليه وسلم بل كمال أو تتمة كمال . و هذا السر دقيق لا ينكشف إلّا بمثال . و هو أنّ الجفن المسبل على حدقة البصر وإن كانت صورته صورة نقصان من حيث هو إسبال و تغطية على ما يقع به الإبصار .

فإنّ القصد من خلق العين إدراك الحسيات . و ذلك لا يمكن إلّا بانبعاث الأشعة الحسية من داخل العين و اتصالها بالمرئيات عند قوم و بانطباع صور المدركات في الكرة الجبليّة عند آخرين . فكيف ماكان لا يتم المقصود إلّا بانكشاف العين و عرائها عما يمنع انبعاث الأشعّة .

لكن لما كان الهواء المحيط بالأبدان الحيوانية قلّما يخلو من الغبار الثائر بحركة الرياح . فلو كانت الحدقة دائمة الانكشاف تأذت به ، فتغطت بالجفون وقاية لها مصقلة للحدقة ، فيدوم جلاؤها . فالجفن و إن كان نقصًا ظاهرًا فهو كمال حقيقة . فلهذا لم تزل بصيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم معرضة لأن تصدأ بالغبار الثائر

من أنفاس الأغيار فدعت الحاجة إلى أسبال جفن من الغين على حدقة بصيرته ﷺ سترًا لها وقاية و صقالًا عن تلك الأغبرة المثارة برؤية الأغيار و أنفاسها . فصحّ أنّ الغين وإن كان نقصًا فمعناه كمال و صقال حقيقة . انتهى كلام السهروردي . و المراد تكثير الاستغفار . فلا تدافع بين رواية المائة و السبعين .

قلت : لبعض العارفين هنا كلام حسن يعلم منه جواب سابع . وهو العارف الكبير الشيخ عبد العزيز الدباغ الفاسي المتوفّى بعد سنة ١١٣٠هـ . و هو أمّي تكلم حسب الكشف على الآيات و الأحاديث . و جمع علومه بعض أصحابه في كتاب الإبريز .

قال في الإبريز ، ما حاصله : أنّه عليه الصلاة والسلام يتكلم حسب ما يكون في مشاهداته الثلاث . فتارة يكون في مشاهدة الذات العلية المحضة لله تعالى . و تارة يكون في مشاهدة الذات و قوتها و سلطانها و قهرها . و في هذه المشاهدة الثانية خوف و انزعاج بسبب مشاهدة القوة و سلطان القهر . و في هاتين المشاهدتين يكون ﷺ غائبًا عن الخلق . ولا يشاهد منهم أحدًا . و تارة يكون في مشاهدة الذات مع الممكنات فيشاهد القوة سارية في الممكنات . و تغيب الذات العلية و تبقى أفعالها . و في هذه المشاهدة الثالثة يحصل امتثال الشرائع و تعليم الخلق و إيصالهم إلى الحق . و إلى هذه المشاهدة الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام : إنّه ليغان على قلبي فأستغفر الله . الحديث .

قال رحمه الله تعالى : و ليس في طوق الخلائق أجمعين أن يقدروا على الدوام على المشاهدة الأولى و الثانية . و لابد لهم من النزول إلى الثالثة ليستريحوا . فكان ﷺ إذا نزل إليها يستغفر الله و يعد ذلك ذنبًا . انتهى كلامه .

و للعارف عبد العزيز الدباغ أيضًا تحقيق آخر لطيف ، أذكره لإتمام الإفادة و لدلالته على جواب ثامن . و هو هذا : قال تلميذه : و سألته رحمه الله تعالى عن قوله تعالى "إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ" . فقال رحمه الله تعالى : المراد بالفتح المشاهدة أي مشاهدته تعالى . و ذلك أنّه سبق في سابق علمه تعالى أنّ الخلق لا يعرفونه جميعًا . إذ لو عرفوه جميعًا لم تكن إلّا دار واحدة . و قد قضى تعالى أنّ له دارين .

فحجب الخلق عنه تعالى إلّا من رحمه الله . فمنعهم من مشاهدة الفعل منه تعالى و من مشاهدة

ذاته . فإنّه لو كشف الغطاء عنه لشاهدوه تعالى . كما قال : وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ . وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ . وَ إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ . وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ . و شاهدوا أفعالهم كلّها مخلوقة له تعالى . و أنّه هو الفاعل لا هم . و إنّما هم ظروف و أجرام موضوعة . و هو تعالى يحرّكها كيف شاء . كما قال تعالى : وَ ٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ . و عند ذلك لا يعصيه أحد قط . لأنّ المعصية لا تكون إلّا من المحجوب الغافل الساهي عن ربّه وقت معصيته .

قال : و المؤمنون و إن كانوا يعتقدون أنّ الله هو الفاعل فيهم المريد لأفعالهم لكن هذا الاعتقاد يحضر و يغيب . و سببه الحجاب . فاعتقادهم مجرد إيمان بالغيب لا عن مشاهدة عيان . و من رحمه اللهُ تعالى أزال عنه الحجاب و أكرمه بمشاهدته تعالى . فلا يرى إلّا ما هو حق من الحق و إلى الحق . فهذا هو المشار إليه بالفتح المبين .

فقلت : و متى وقع ؟

فقال : من صغره ﷺ . فإنّه لم يحجب عنه تعالى .

فقلت : و هذا الفتح ثابت لكلّ نبيّ بل و لكلّ عارف . فأيّ خصوصية فيه لنبينا ﷺ ؟

فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : الفتح يختلف بالقوة و الضعف . فكلّ على ما يطيق . و القوة التي في النبي ﷺ عقلاً و روحًا و نفسًا و ذاتًا و سرًّا و حفظةً لم تثبت لغيره . حتى لو جمع أهل الفتح كلّهم من الأنبياء وغيرهم و جعلت القوة المشار إليها عليهم لذابوا جميعًا و تهافتت ذواتهم .

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : و المراد بالذنب في قوله تعالى " مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ " سببه . و هو الغفلة و ظلام الحجاب الذي في أصل نشأة الذات الترابية . قال : هذه الغفلة و الحجاب للذنوب بمثابة الثوب العفن الوسخ لنزول الذباب عليه . فمتى كان هذا الثوب على أحد نزل عليه الذباب . و متى زال عنه ذلك الثوب زال عنه الذباب . فالثوب مثال الحجاب ، و الذباب مثال للذنوب .

فمن سمّى ذلك الثوب ذبابًا فهي تسمية سائغة . فكذلك المراد هنا بالذنب هو الحجاب . و المراد "بما تقدّم" و "ما تأخّر" الكناية عن زواله بالكلّيّة . فكأنّه تعالى يقول : إنّا فتحنا لك فتحًا مبينًا ليزول عنك الحجاب بالكلية و لتتم النعمة منّا عليك و لتهدي و تنصر . فإنّه لا نعمة مثل نعمة زوال الحجاب

ولا هداية فوق هداية المعارف ، ولا نصرة أبلغ من نصرة من كانت هذه حالته .

فقلت : و هل هذا خاصّ بالنبي ﷺ ؟

فقال : نعم .

فقلت : ولم ؟

فقال : لأنّه عين كل شيء .

فقلت : و لذلك يقول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في المحشر : ائتوا محمدًا عبدًا غفر الله له ما تقدّم من ذنبه و ما تأخّر . انتهى .

و قال الشيخ الأكبر العارف الكبير الإمام محي الدين بن عربي رحمه الله تعالى في كتابه " الفتوحات المكية " في آخر الباب الثالث والسبعين ج٢ ص١٣٩ : السؤال الخامس و الخمسون و مائة : ما معنى المغفرة التي لنبينا ﷺ ، و قد بشر النبيين بالمغفرة ؟

الجواب : الغفر الستر . فستر عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الدنيا كونهم نوّابًا عن رسول الله ﷺ . و كشف لهم عن ذلك في الآخرة إذ قال : أنا سيّد الناس يوم القيامة . فيشفع فيهم ﷺ أن يشفعوا . فإنّ شفاعته ﷺ في كلّ مشفوع فيه بحسب ما يقتضيه حاله من وجوه الشفاعة . فبشر النبيّين بالمغفرة الخاصة ، و بشّر محمدًا ﷺ بالمغفرة العامة ، و قد ثبتت عصمته . فليس له ذنب يغفر . فلم يبق إضافة الذنب إليه إلاّ أن يكون هو المخاطب و القصد أمّته . كما قيل :

ع　　　إياك أعني فاسمعي يا جاره

و كما قيل له : ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَ﴾ . و معلوم أنّه ليس في شكّ . فالمقصود من هو في شكّ من الأمّة . و كذلك : ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ . وقد علم أنّه لا يشرك . فالمقصود من أشرك من الأمّة فهذه صفته . فكذلك قيل له : ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ . و هو معصوم من الذنوب . فهو المخاطب بالمغفرة و المقصود من تقدّم من آدم إلى زمانه و ما تأخّر من الأمّة من زمانه إلى يوم القيامة . فإنّ الكل أمّته . فإنّه ما من أمّة إلاّ و هي تحت

شرع من الله .

و قد قرّرنا أنّ ذلك هو شرع محمد ﷺ من اسمه الباطن حيث كان نبيًّا و آدم بين الماء و الطين . و هو سيّد النبيّين و المرسلين فإنّه سيّد الناس و هم من الناس . وقد تقدم تقرير هذا كلّه . فبشّر الله محمدًا ﷺ بقوله " لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ " بعموم رسالته إلى الناس كافّةً .

و كذلك قال : وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ . وما يلزم الناس رؤية شخصه . فكما وجه في زمان ظهور جسمه رسوله عليًّا رضي الله عنه و معاذًا رضي الله عنه إلى اليمن لتبليغ الدعوة كذلك وجه الرسل و الأنبياء إلى أممهم من حين كان نبيًّا و آدم بين الماء و الطين . فدعا الكل إلى الله . فالناس أمّته من آدم إلى يوم القيامة . فبشّره الله بالمغفرة لما تقدّم من ذنوب الناس وما تأخّر منهم .

فكان هو المخاطب و المقصود الناس . فيغفر الله للكلّ و يسعدهم . وهو اللائق بعموم رحمته التي وسعت كلّ شيء ، و بعموم مرتبة محمد ﷺ حيث بعث إلى الناس كافّةً بالنص . ولم يقل : أرسلناك إلى هذه الأمّة خاصّة ، ولا إلى أهل هذا الزمان إلى يوم القيامة خاصة .

و إنّما أخبره أنّه مرسل إلى الناس كافّة . و الناس من آدم إلى يوم القيامة . فهم المقصودون بخطاب مغفرة الله لما تقدّم من ذنب و ما تأخّر . والله ذو الفضل العظيم . لكن ثم مغفرة في الدنيا و ثم مغفرة في القبر و ثم مغفرة في الحشر و ثم مغفرة في النار بخروج منها و بغير خروج . لكن يستر عن العذاب أن يصل إليه بما يجعل له من النعيم في النار مما يستعذبه . فهو عذاب بلا ألم . انتهى كلامه بلفظه .

الباب الرابع والخمسون
وهو مشتمل على جوابين

ذكر المفتي سعد الله المراد آبادي : أنّ وجه الشبه كون صلاة كلّ واحد من هذين الطرفين المشبّه و المشبّه به أفضل من صلاة من تقدّم زمانًا . فكما أنّ الصلاة على إبراهيم أفضل من الصلاة على جميع من تقدّم على إبراهيم عليه الصلاة والسلام كذلك الصلاة على محمد عليه الصلاة و التسليم أفضل من الصلاة على من تقدّمه زمانًا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ومنهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام . فتكون صلاة نبينا صلى الله عليه وسلم أفضل من صلاة إبراهيم عليه الصلاة والسلام . هكذا قالوا . انتهى بتعريب .

قلت : هذا الكلام يدلّ على أنّ إبراهيم أفضل ممن تقدمه زمانًا كآدم و شيث و إدريس و نوح عليهم الصلاة والسلام ، ولا يدلّ على أنّه أفضل من موسى و شعيب و هارون و داود و غير هؤلاء من أنبياء بني إسرائيل ، مع أنّ القول المحقق عند العلماء أنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام أفضل من سائر الأنبياء غير نبينا صلى الله عليه وسلم . لكن لا جُناح في ذلك ، إذ ليس هذا موضع إثبات أفضليّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام . و يمكن أن يقال : هذا مبني على قول من قال : إنّ أفضل الأنبياء بعد نبينا صلى الله عليه وسلم موسى أو عيسى عليهما الصلاة والسلام ، كما تقدّم في الفصل الثاني من الباب الثاني .

و نظير هذا الجواب ما في كنز العمال عن ابن عباس رضي الله عنهما : قال عليه الصلاة والسلام لفاطمة رضي الله عنها : أما ترضين أنّي زوّجتك أوّل المسلمين إسلامًا و أعلمهم علمًا . فإنّك سيدة نساء أمّتي كما سادت مريم قومها .

و ههنا جواب آخر نحو هذا مبنيّ على أنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام أفضل من جميع الأنبياء بعد رسول

الله ﷺ . ذكره العلامة الشيخ محمد أعلى بن علي التهانوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كشاف اصطلاحات الفنون حيث قال : و بعد تسليم اشتراط كون المشبّه به أكمل و أتمّ في وجه الشبه يكفي أن يكون المشبّه به أتمّ وأكمل ممن سبق أو من غيره . ولا يشترط كونه أتمّ من المشبّه كما في قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ . الآية . انتهى .

فزيادة قوله " أو من غيره " بعد قوله " ممن سبق " فارقة بين هذا الجواب و الجواب المقدم ، مشيرة إلى أنّ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أفضل الأنبياء بعد نبينا عليه وعليهم الصّلاة والسلام . ولك أن تعدّهما جوابًا واحدًا كما هو الظاهر .

الباب الخامس والخمسون
في الجواب الثامن والخمسين

التشبيه نوعان :

أحدهما : ما يكون للمفاضلة . وهو أشهر من " قفا نبك " و من الشمس في رابعة النهار ، و أكثر استعمالاً . و لشهرته و كثرة تعاوره يظن كثير من الناس انحصار التشبيه فيه . و من هذا النوع قولهم "زيد كالأسد" . و المشبّه به في هذا النوع أكثر ما يكون أقوى و أفوق من المشبّه .

و ثانيهما : ما يكون للمساواة بين الطرفين في وجه التشبيه . ولا يقصد فيه تفضيل أحد الطرفين على الآخر في ذلك الوجه . و التشبيه في قولنا "كما صلّيت على إبراهيم" من هذا القبيل . فثبت منه تساوي صلاة محمد و صلاة إبراهيم عليهما الصلاة والسلام . و بعبارة أخرى ثبت التساوي بين محمد و إبراهيم عليهما الصلاة و السلام . ولا يقتضي هذا التشبيه كون إبراهيم أفضل من محمد ﷺ .

إن قلت : المساواة أيضًا تضرنا ، لكون نبينا ﷺ أفضل الأنبياء .

قلت : نحن بصدد دفع قول من قال : إنّ هذا التشبيه يستدعي كينونة إبراهيم عليه الصلاة والسلام أفضل . و تقرير المساواة يكفي لدفع ذلك . و أمّا أفضلية نبينا ﷺ فلإثباتها طرقٌ أخرى و دلائل كثيرة في الأحاديث وغيرها .

إن قلت : هل لما ادّعيت من " أنّ التشبيه قد يكون للمساواة " شواهد جلية .

قلت : نعم ، ولله الحمد والمنّة . **منها :** قوله تعالى : وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ

مُدْبِرًا . الظاهر أنّ المقصود التساوي بين العصا و الجانّ لا المفاضلة بقرينة قوله تعالى : فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ . حيث لم يقل : كأنّها ثعبان . والله أعلم .

ومنها : قوله تعالى : إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ۝ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ۝ المراد مساواة غلي ما في البطون لغلي الحميم ، لا المفاضلة بأنّ غلي الحميم أقوى و أشد .

ومنها : قوله تعالى : إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝ "المنقعر" المقطوع من أصوله الساقط على الأرض . الأظهر أنّ المراد مساواة حالتهم حالة النخل المنقعر في السقوط على الأرض طولاً . إذ الأشياء الساقطة على الأرض الواقعة القارة بها متساوية الأقدام في تلك الحالة حالة السقوط و الاستقرار ، لا تفاضل بينها في حالة السقوط بعد ما سقطت .

ولذا لا يقال عند رؤية الأشياء الساقطة على الأرض : هذا أسقط من ذلك . كما لا يقال بعد وقوع موت رجلين مثلا : هذا أموت من ذاك . نعم ، لو شبّه إنسان غير ساقط على الأرض لأجل غمه و مصيبته بالنخلة المنقعرة كان التشبيه من قبيل النوع الأوّل أي المفاضلة رومًا للمبالغة و تهويلاً لشأن حاله . كما نظم يحي بن خالد البرمكي لفظ القرآن في شعر كتبه إلى الرشيد حين نكب البرامكة . فقال يحي يخاطبه و يذكر حالهم :

عمتهم لك سخطة   لم تبق منهم باقيَة
فكأنّهم مما بهم   أعجاز نخل خاويَة

ومنها : قوله تعالى : فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ .

ومنها : قول امرئ القيس :

حتى تركناهم لَدَى مَعْرَكٍ   أَرْجُلُهُمْ كالخَشَبِ الشَّائِلِ

و الخشب الشائل الذي قد ألقي بعضه على بعض .

ومنها : قول الآخر :

ع	كأنّهم خشب في القاع منجدل

ومنها : يمكن أن يعد من هذا الوادي قوله عليه الصلاة والسلام : بعثت أنا و الساعة كهاتين . و أشار بالسبابة و الوسطى إلى ما فضل أحدهما على الأخرى . أخرجه الترمذي عن أنس رضي الله عنه . أراد مساواة فضل إحدى الأصبع على الأخرى لفضل ما بين القيامة و بعثته عليه الصلاة والسلام .

ومنها : قوله عليه الصلاة والسلام في أيّام الدجّال : قلنا : يارسول الله ! و ما لبثه في الأرض ؟ قال : أربعين يومًا ، يومٌ كسنة و يوم كشهر و يوم كجمعة و سائر أيّامه كأيّامكم . أخرجه الترمذي عن النواس بن سمعان رضي الله عنه .

ومنها : يمكن أن يكون من هذا الباب قوله عليه الصلاة والسلام : لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان و يكون السنة كالشهر و الشهر كالجمعة و تكون الجمعة كاليوم و يكون اليوم كالساعة و تكون الساعة كالضرمة بالنار . أخرجه الترمذي عن أنس رضي الله عنه . أراد تساوي السنة و الشهر في قلّة البركة . فكلّ فعل كان يصير تامًّا في الشهر في زمن القدماء يتمّ في السنة في زمان المتأخرين . هذا . و الله أعلم .

ومنها : قوله تعالى : وَ إِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّوْنَ . المقصود التنبيه على مساواة اليوم الربّاني لألف سنة مقدارًا و طولاً .

ومنها : ما روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه في تاكيد الصلاة بالجماعة ، و فيه : و لو أنّكم صليتم في بيوتكم كما يصلّي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم . و لو تركتم سنة نبيكم لضللتم . الحديث . لا يخفى أنّ المطلوب بالبيان مساواة الطرفين المشبّه و المشبّه به في ترك الجماعة بغير عذر و في ترك السنّة و في الضلالة .

ومنها : ما ذكر الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر ص٧٤ : روي أنّ الله تعالى أوحى إلى داود : كن لليتيم كالأب الرحيم و كن للأرملة كالزوج الشفيق . و اعلم : أنّك كما تزرع كذا تحصد . معناه : إنّك كما تفعل كذلك يفعل معك أي لابدّ أن تموت و يبقى لك ولد يتيم أو امرأة أرملة . انتهى . المعنى : مساواة رحمته على اليتيم و شفقته على الأرملة لرحمة الأب على ولده و لشفقة الزوج على زوجته . إذ المأمور به كمال الرحمة و الشفقة . و ذلك لا يتحقق بنقصان المشبّه من المشبّه به . فلابدّ من تساويهما . وكذلك

قوله : كما تزرع كذا تحصد .

ومنها : بيت من أبيات كتاب سيبويه الخمسين التى لا يعرف قائلها :

وكنتُ أُرَى زيدًا كما قيلَ سيّدًا　　　إذا أنَّه عبدُ القَفَا وَ اللَّهَازِمِ

المعنى : كنت أحسبه سيّدًا مثل ما قيل و اشتهر . و ليس المعنى : أنّي كنت أحسبه سيّدًا دون ما اشتهر و أدنى مما قيل في حقه . و إلاّ لما كان لتحيره المطلوب بقوله " إذا أنّه إلخ " وجه معقول .

الباب السادس والخمسون
في الجواب التاسع والخمسين

لا مندوحة من ذكر مقدمة . و هي أنّ قولنا " اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد " دعاء بالصلاة أمرنا به في قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيۡهِ وَ سَلِّمُوا۟ تَسۡلِيمًا . لكن لقصور مقامنا عن مقام نبينا ﷺ نفوّض ذلك إلى الله تعالى و نقول : اللّهم نحن قاصرون فصلّ أنت على محمد و على آل محمد .

قال الأمير المصطفى التركماني في شرح مقدمة الفقيه أبي الليث الحنفي : فإن قيل : ما الحكمة في أنّ الله تعالى أمرنا أن نصلي و نحن نقول : اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد . فنسأل الله تعالى أن يصلي عليه ولا نصلي عليه نحن بأنفسنا . يعني بأن يقول العبد في الصلاة : أصلّي على محمد .

قلنا : لأنّه ﷺ طاهر لا عيب فيه . و نحن فينا المعايب و النقائص . فكيف يثني من فيه معائب على طاهر . فنسأل الله تعالى أن يصلي عليه لتكون الصلاة عن ربّ طاهر على نبي طاهر . كذا في المرغيناني . انتهى .

و نحو ذلك منقول عن النيسابوري في كتابه اللطائف و الحكم . فإنّه قال : لا يكفي للعبد أن يقول في الصلاة " صلّيت على محمد " لأنّ مرتبة العبد تقصر عن ذلك . بل يسأل ربّه أن يصلّي عليه لتكون الصلاة على لسان غيره . فالمصلّي في الحقيقة هو الله تعالى . و نسبة الصلاة إلى العبد مجازية بمعنى السؤال . انتهى . و قد أشار ابن أبي حجلة إلى شيء من ذلك فقال : الحكمة في تعليمه الأمّة صيغة " اللّهم صلّ على محمد " إنّا لما أمرنا بالصلاة عليه و لم يبلغ قدر الواجب من ذلك أحلناه عليه لأنّه أعلم بما يليق به . و هو كقوله : لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك . كذا في القول البديع .

و بعد تمهيد هذه المقدمة أقول و بالله التوفيق : قد لاح من هذه المقدمة أنّ المراد من قولنا " اللّهم صلّ على محمد إلخ " إنّما هو الدعاء بالصلاة لنبينا ﷺ و سؤالها من الله له عليه الصلاة والسلام . فنحن نسأل الله بقولنا " اللّهم صلّ إلخ " أن يصلّي عليه . و الله يجيب دعوة الداعي إذا دعاه . فيصلّي الله على نبينا ﷺ إذا أجابنا و شاء ذلك . و هكذا كانت كلّ أمّة من الأمم المتقدّمة مأمورة بالصلاة على أنبيائهم . و منهم إبراهيم عليهم الصلاة والسلام . إذ الدعاء و تعظيم الأنبياء من الأصول المشتركة بين جميع الملل السماوية الإلهية . فكانوا يصلّون عليهم و على إبراهيم عليهم الصلاة والسلام . والله مجيب الدعوات . فيصلي الله على إبراهيم و على سائر الأنبياء حسب دعوات الأمم الماضية .

فمعنى قولنا " اللّهم صلّ على محمد إلخ " : اللّهم إنّا ندعوك أن تصلّي على محمد كما دعاك الأمم الخالية أن تصلّي على إبراهيم و على سائر الأنبياء الذين هم آله . و بعبارة أخرى معناه : اللّهم إنّا نسألك الصلاة على محمد . فصلّ عليه كما سألك الأمم السابقة الصلاة على إبراهيم و على آله من الأنبياء فصليت عليهم . و بعبارة أخرى : اللّهم إنّا ندعوا لنبينا كما دعوا لإبراهيم . فلم يقصد التشبيه بين الصلاتين حتى يرد ما يرد . بل قصد التشبيه بين الدعائين . أي تشبيه دعائنا بدعائهم . فاندفع الاعتراض و زال الإشكال .كما لا يخفى على المتدبّر فيما ذكرنا . والله أعلم . ولله الحمد و المنّة .

الباب السابع والخمسون
في الجواب الستين

الكاف في "كما صلّيت " مقحمة . وكثيرًا ما تقحم الكاف و تزاد ، كما في " ليس كمثله شيء " . وكلمة " ما " مصدرية زمانية ، كما في " ما دمت حيًّا " أي مدة دوامي حيًّا .

فمعنى الصلاة : اللّٰهم صلّ على محمد و على آل محمد ما دمت مصلّيًا على إبراهيم ، أي مدة صلاتك على إبراهيم عليهما الصلاة والسلام . و هذه محاورة يقصد بها الدوام و الاستمرار .

و في دلائل الخيرات : صلى الله عليه و على آله و أصحابه صلاة نامية دائمة ما سجعت في أيكها الأطيار و همعت بوبلها الديمة المدرار . انتهى بحذف آخر الحزب السابع .

و عن علي رضي الله عنه في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كما في الشفاء و شرحه نسيم الرياض ج٣ ص٥٢٩ باب الصلاة على النبي : صلوات الله البرّ الرحيم و الملائكة المقربين و النبيين و الصديقين ما سبح لك من شيء . قال الخفاجي : " ما " مصدرية أي صلوات هؤلاء دائمة مستمرة مدة تسبيح الأشياء لك . و إن من شيء إلّا يسبّح بحمده . انتهى .

قال الرضي في شرح الكافية : و يكون الكاف أيضًا زائدة إذا لم يلتبس بالأصلية . كما في قوله : لو أحق الأقراب فيها كالمقق . أي فيها المقق ، أي الطول .

و قال ابن هشام في بحث " ما " : و الثاني أن تكون أي " ما " مصدرية . و هي نوعان : زمانيّة و غير زمانيّة .

فغير الزمانية نحو " عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ " و " ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ " و " ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ " .

و الزمانيّة نحو : مَا دُمْتُ حَيًّا . أصله مدة دوامي حيًّا . فحذف الظرف و خلفته " ما " و صلتها . كما جاز في المصدر الصريح نحو : جئتك صلاة العصر و آتيك قدوم الحاج . و منه : إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ . فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ . انتهى . مغني ج٢ ص٦ .

ثم إنّ هذا التوجيه و عدة نظائره في هذا الكتاب و إن كان فيها نوع بعد لكن الإنسان إذا ابتلي ببليّتين يختار أهونهما . و هذه سنة مستمرة قائمة و عادة لهم متقبلة دائمة حيث يتمسكون بأمور بعيدة لدفع المعضلات و دمغ المهلكات .كيف و الغرقى يتشبّثون و لو بتبنة في الأمواج الموبقات في بحر الظلمات . و هؤلاء أئمتنا في العلوم فضلاً عن عامة العلماء . ذكروا أمثال هذه التوجيهات بل أبعد في حل مشكلات القرآن الحكيم . فلا ينبغي لقادح أن يقدحنا و يذمّ و يدفعنا و يزمّ . و نحن في الفسحة التي أمرها يسير و بالنسبة إلى القرآن غير عسير .

فمن ذلك ما قال الله تعالى حكاية : إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ . قرأ الأعمش و خلف و الإخوان و الصاحبان من السبعة " إنّ " بتشديد النون و " هذان " بالألف و النون . و استشكلت هذه القراءة جدًّا . فذكروا في حلّها وجوهًا قريبة و بعيدة و أبعد و أغرب .

فمن الأبعد بل الأغرب ما قال المبرّد و الأخفش ذلكما الإمامان : إنّ " إنّ " بمعنى " نعم " . فاسمع وجوه ضعف هذا التوجيه :

الأوّل : أنّه لم يثبت " إنّ " بمعنى " نعم " . قاله الآلوسي وغيره .

و الثاني : على التسليم فهو نادر . و النادر كالمعدوم .

و الثالث : سلّمنا عدم الندرة لكن ليس قبلها ما يقتضي جوابًا حتى تقع " نعم " في جوابه .

و الرابع : على التسليم فلام الابتداء لا تدخل على خبر المبتدإ . و إنّما تدخل على خبر " إنّ " الناصبة للاسم .

و الخامس : انظر إلى بعد قول من قال في الجواب : إنّ اللام زائدة . مع أنّ زيادتها خاصة بالشعر و الضرورة . و ليست الآية محلّ ذلك .

و السادس : تفكر في غرابة قول الزجاج و نقل عن المبرد أنّه قبله و قال : إنّه أجود ما سمعناه في هذا "أنّها داخلة على مبتدإ محذوف" ، أي لهما ساحران . و ردّه ابن جنّي بأنّ الحذف للإيجاز . و التاكيد من باب الإطناب . و الجمع بينهما محال للتنافي . و زيفه الإمام أبو علي الفارسي أيضًا بوجه آخر أطول و أقوى .

و السابع : تدبّر ندرة رأي من ارتأى أنّها دخلت بعد إنّ هذه لشبهها بأنّ المؤكدة لفظًا . راجع لتفصيل ذلك روح المعاني ج١٦ ص٢٢٢ .

الباب الثامن والخمسون
في الجواب الحادي والستين

إنّ الصلاة كانت ثابتة له ﷺ . و السؤال إنّما هو باعتبار الزائد على القدر الثابت . و بانضمام ذلك الزائد المساوي أو الناقص إلى ما قد ثبت تصير أعظم قدرًا .

تفصيل المرام : أنّ الصحابة كانوا يصلّون على النبي ﷺ قبل أمره عليه الصلاة والسلام أمّته أن يصلّوا عليه بهذه الصيغة التي وقع فيها التشبيه . فصلاة أصحابه رضي الله عنهم كانت ثابتة له ﷺ من قبل بأتمّ وجه . ثم ثبتت له ﷺ بصلاة التشبيه صلاة و بركة تساوي صلاة إبراهيم و بركته عليه الصلاة والسلام . فإذا انضمت هذه الصلاة إلى صلاة ثبتت له ﷺ من قبل صارت أعظم قدرًا و أعلى شأنًا . نعم ، لو ثبت نصّ على أنّ الصحابة لم يكونوا يصلّون على النبي عليه الصلاة والسلام قبل ذلك و إنّما ابتداؤها بهذه الصلاة بعد أمر النبي ﷺ لكان للقدح مجال . و دون ثبوته خرط القتاد .

الباب التاسع والخمسون
في الجواب الثاني والستين

ثم ههنا تقرير آخر يعدّ جوابًا آخر . و هو أنّ قولنا " اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم إلخ " صلاة أمّته . سألوا الله أن يصلّي على محمد و على آله كما صلّى على إبراهيم و على آله .

و الصلاة الثابتة له ﷺ على ثلاثة أنواع :

الأوّل : صلاة الله عليه .

و الثاني : صلاة الملائكة .

و الثالث : صلاة أمّته .

و النوعان الأوّلان متقدّمان وجودًا على النوع الثالث لقوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا .

و التشبيه في النوع الثالث و الأمر من الله تعالى أيضًا باعتبار هذا النوع الثالث . و هو القدر الزائد على النوعين الأوّلين . و هذا القدر الزائد سواء كان مساويًا لصلاة إبراهيم عليه الصلاة والسلام أو ناقصًا عنها إذا انضم إلى ما قد ثبت له ﷺ من النوعين الآخرين تصير صلاته عليه الصلاة والسلام أعلى قدرًا و أجلّ شأنًا .

و يدلّ على تقدم النوعين الأوّلين أنّ سؤالهم من النبي ﷺ و أمره لهم بهذه الصلاة كان بعد نزول هذه الآية . بل كان سبب السؤال نزول هذه الآية حيث أمر الله تعالى في الآية أمّته بأن يصلّوا عليه كما يعلم من حديث أبي مسعود رضي الله عنه عند مسلم بلفظ : أتانا رسول الله ﷺ في مجلس سعد بن عبادة

(رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) . فقال له بشير بن سعد (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) : أمرنا الله تعالى أن نصلّي عليك . فكيف نصلي عليك .

و روى الترمذي عن كعب بن عجرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : لما نزلت " إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ " الآية قلنا : يا رسول الله ! قد علمنا السلام فكيف الصلاة ؟ فقال : قولوا "اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم إلخ " .

مثل ذلك كمثل رجلين يملك أحدهما ألفًا و يملك الآخر ألفين . فيسأل صاحب الألفين أن يعطى ألفًا أخرى نظير الذي أعطيها الأوّل . فيصير المجموع للثاني أضعاف ما للأوّل . هذا . و الله أعلم .

الباب الستون
في الجواب الثالث والستين

التشبيه نوعان :

الأوّل : ما يكون المقصود من إيراده مدح أحد الجانبين أو ذمّه أو استعظام أحد الطرفين أو استصغاره و استخفافه نحو "زيد كالأسد" . جيء بالتشبيه لمدح زيد بالشجاعة . و نحو "طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ" . المقصود استخفاف المشبّه . و في حديث : سحر لبيد بن الأعصم رسول الله ﷺ في بير ذي أروان . فقال رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها : والله لكأنّ ماءها نقاعة الحناء ، و لكأنّ نخلها رؤوس الشياطين . الحديث . بخاري ج٢ ص٩٤٥ . و في هذا القسم يكون المشبّه به غالبًا أقوى في وجه الشبه و أشدّ ليمكن انتقال الذهن . و لولا ذلك لكان كما قال الشاعر :

ألم تر أنّ السيفَ ينقُصُ قدرُه إذا قيلَ إنَّ السيفَ أعلى مِنَ الْعَصَا

و علامة هذا القسم صحة إيراد صيغة التفضيل فيه نحو " الأسد أجلد و أشجع من زيد " في قولنا : زيد كالأسد .

و الثاني : أن لا يكون المقصود ذلك بل بيان محض الواقعة و إيضاح ما في نفس الأمر بغير المدح و الذم نحو : ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ . لم يقصد فيه مدح المشبّه أو المشبّه به بل قصد تحقق إله كما تحققت آلهة و إيضاح ذلك .

و منه قولنا : صلّ على محمد كما صلّيت على إبراهيم . أريد ثبوت الصلاة و تحققها لمحمد ﷺ كما

ثبتت لإبراهيم عليه الصلاة والسلام في الواقع و الخارج . ولم يرد إثبات فضل أحدهما على آخر .

و لذلك نظائر كثيرة . فمن هذا الباب ما في الحديث : اللّهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف . رواه البخاري ج٢ ص٩٤٦ . لم يرم إبداء فضل سني يوسف أو شدّتهم على سني قريش . و إنّما ريم أن تتأتّى هذه كما تتأتّى تلك .

و منه "مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ" . المطلوب إيضاح نور الله تعالى للسامعين . كيف و نور الله لا يدانيه مصباح المشكاة فضلاً عن أن يساويه أو يفضله .

و منه ما في الحديث : فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام . بخاري ج٢ ص٨١٥ . توخّي أنّ عائشة أفضلهن في الواقع ، و لإيضاح ذلك أتي بالتشبيه . أي كما أنّ الثريد أفضل الأطعمة كذلك عائشة في النساء . و لم يتوخ النسبة بين عائشة و الثريد . إذ هي أجلّ من أن يقرب فضلها فضل لقيمات الثريد الفانية .

و منه الحديث المرسل لأبي قلابة رضي الله عنه مرفوعا : البرّ لا يبلى و الإثم لا ينسى و الديان لا يموت . فكن كما شئت كما تدين تدان . فيه رمز إلى وقوع هذا الدين عند وقوع ذلك الدين لا إلى أنّ أحدهما أجلّ أو أقوى .

و منه ما رواه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه في حديث نزول " وَٱلْمُرْسَلَٰتِ " في غار بمنى : فتلقيناها من فيه و إنّ فاه لرطب بها إذ خرجت حية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عليكم اقتلوها . قال : فابتدرناها فسبقتنا . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وقيت شركم كما وقيتم شرها . قد نبّه على حصول الوقايتين من الشرّين . ولا معنى لكون أحدهما أقوى و أشدّ من الآخر .

و منه قوله عليه الصلاة والسلام : ملأ الله قبورهم و بيوتهم نارًا كما حبسونا و شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس . رواه مسلم ، باب الصلاة الوسطى هي العصر . قد سأل الله وجود النار في قبورهم مثل وجود الحبس و الشغل عن الصلاة ، مع قطع النظر عن كون هذا أعلى أو أشدّ ، و ذاك أدنى أو أخف .

و منه حديث : جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين صلاتي الظهر و العصر جميعًا بالمدينة في غير خوف ولا سفر . قال أبو الزبير : فسألت سعيدًا : لم فعل ذلك ؟ فقال : سألت ابن عباس رضي الله عنهما كما سألتني .

فقال : أراد أن لا يحرج أمّته . رواه مسلم في باب الجمع بين الصلاتين . فقوله " سألت ابن عباس كما سألتني " أراد به تحقق السؤالين من غير تفاضل بينهما .

و منه ما روي عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : عمران بيت المقدس خراب يثرب ، و خراب يثرب خروج الملحمة ، و خروج الملحمة فتح القسطنطنية ، و فتح القسطنطنية خروج الدجال . ثم ضرب بيده على فخذ الذي حدثه أو منكبه . ثم قال : إنّ هذا لحق كما إنّك ههنا أو كما إنّك قاعد . رواه أبو داود في كتاب الملاحم ، باب أمارات الملاحم . فقوله " إنّ هذا لحق كما إنّك إلخ " قصد به ثبوت الأمرين من غير نظر إلى أنّ أحدهما أفضل من الآخر أو أقوى و أشدّ .

و منه رواية عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث : أنّ ربيعة و عباس بعثني و الفضل بن عباس إلى رسول الله ﷺ . فقلنا : جئنا لتؤمرنا على بعض هذه الصدقات . فنؤدي إليك كما يؤدي الناس و نصيب كما يصيبون . رواه مسلم .

و منه حديث الصدقة و إن كانت تمرة ، فتربو في كفّ الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربّي أحدكم فلوه أو فصيله . رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا .كذا أخرجه مسلم .

و منه ما رواه أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما أخرجه مسلم : أنّ ناسًا من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ : يا رسول الله ! ذهب أهل الدثور بالأجور . يصلّون كما نصلّي ، و يصومون كما نصوم ، و يتصدّقون بفضول أموالهم . رواه مسلم .

و منه حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أخرجه مسلم في باب تقديم الضعفة من النساء من المزدلفة إلى منى : أنّ سودة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا استأذنت رسول الله ﷺ ليلة المزدلفة تدفع قبله و قبل حطمة الناس و حبسنا حتى أصبحنا فدفعنا بدفعه . و لأن أكون استأذنت رسول الله ﷺ كما استأذنته سودة . فأكون أدفع بإذنه أحبّ إليّ من مفروح به .

الباب الحادي والستون
في الجواب الرابع والستين

التشبيه على نوعين :

الأوّل : ما يكون الطرفان فيه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما في تشبيه الصلاة هذه .

و الثاني : ما لا يكون الطرفان كذلك نحو : زيد كالأسد .

و حديث أفضلية المشبّه به يتعلق بالنوع الثاني . و يمنع هذا في النوع الأوّل . ألا ترى إلى قوله تعالى " إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ". فإنّ عيسى عليه الصلاة والسلام المشبّه أفضل من آدم عليه الصلاة والسلام لكونه رسولاً نبيًّا و آدم عليه الصلاة والسلام نبيّ و ليس برسول عند البعض . و أيضًا عيسى عليه الصلاة والسلام من أولي العزم من الرسل ، و ليس آدم عليه الصلاة والسلام منهم عند المحققين .

فالتشبيه في قوله " إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ " الآية إنّما وقع لبيان أنّ عيسى ولد من غير أب ، و إثبات هذا بذكر المشبّه به و هو آدم . فليس ذكر المشبّه به لكونه أفضل .

توضيحه أنّ التفاضل بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على وجهين :

الأوّل : على العموم و الإبهام في الطرفين أو على الإبهام في أحدهما . و هو جائز بل حق لقوله تعالى : تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ . حيث أبهم الطرفان في القرينة الأولى و عيّن في القرينة الثانية الأفضل فقط . وهو الكليم . ولم يعيّن الطرف المفضول . و معناه : أنّ الكليم ممن فضلناه على بعض . و كذلك قوله تعالى بعده : وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَ ءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَ

أَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ . و منه قوله عليه الصلاة والسلام : أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر . رواه مسلم .

و الثاني : أن يتعيّن الطرفان باسميهما . و ذلك يمنع إلاّ على سبيل تعليم الطلبة و تربيتهم . و معلوم أنّ مقام الصلاة مقام الوظيفة الدائمة و الذكر المستمر . و إنّما منع التفضيل في صورة التعيين لإيهامه سوء أدب . قال تعالى : لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ .

و هذا هو المراد مما روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متّى . وكذا رواه مسلم ج٢ ص٢٦٨ .

قال ابن كثير في تاريخه البداية و النهاية : أي ليس لأحد أن يفضل نفسه على يونس . و القول الآخر : لا ينبغي لأحد أن يفضلني على يونس بن متى . كما قد ورد في بعض الأحاديث : لا تفضّلوني على الأنبياء ولا على يونس بن متّى . و هذا من باب الهضم و التواضع منه صلوات الله و سلامه عليه . انتهى . بداية ج١ ص٢٣٧ .

قلت : عندي أنّ هذا المنع لإيهامه سوء أدب . و معنى " لا تفضلوني على الأنبياء " أي على التعيين كما سبق .

و أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : استب رجلان ، رجل من اليهود و رجل من المسلمين . فقال المسلم : و الذي اصطفى محمدًا صلى الله عليه وسلم على العالمين . و قال اليهودي : و الذي اصطفى موسى (عليه الصلاة والسلام) على العالمين . قال : فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم وجه اليهودي . فذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تخيّروني على موسى (عليه الصلاة والسلام) .

و في رواية لمسلم : لا تفضّلوا بين أنبياء الله . فإنّ الناس يصعقون فأكون أوّل من يفيق . فإذا موسى عليه الصلاة والسلام باطش بجانب العرش . فلا أدري أ كان فيمن صعق فأفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله . و في رواية بعده : ولا أقول : إنّ أحدًا أفضل من يونس بن متّى عليه الصلاة والسلام . مسلم ج٢ ص٢٦٧ .

فمعنى رواية مسلم هذه : لا تفضّلوا بين أنبياء الله . أي على التعيين . و هو الصورة الثانية المذكورة سابقًا كما تفصّله الرواية الأخرى . و هي : لا تخيّروني على موسى . حيث ذكر فيه نبيّ معين و هو موسى عليه الصلاة والسلام .

قال ابن كثير في البداية بعد ذكر هذه الروايات : و هذا من باب الهضم و التواضع ، أو نهى عن التفضيل بين الأنبياء على وجه الغضب و العصبية ، أو ليس هذا إليكم بل الله هو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات . و ليس ينال بمجرد الرأي بل بالتوقيف .

و من قال : إنّ هذا قاله (قلت : من قائلي ذلك الإمام النووي في شرح مسلم) قبل أن يعلم أنّه أفضل . ثم نسخ باطلاعه على أفضليّته عليهم كلّهم . ففي قوله نظر لأنّ هذا من رواية أبي سعد و أبي هريرة رضي الله عنهما . وما هاجر أبو هريرة رضي الله عنه إلّا عام خيبر متأخّرًا . فيبعد أنّه لم يعلم بهذا إلّا بعد هذا . والله أعلم . ولا شكّ أنّه أفضل البشر بل الخليقة . قال تعالى : كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ . و ما كمّلوا إلّا بشرف نبيّهم . و ثبت بالتواتر عنه ﷺ أنّه قال : أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر .

و اختص ﷺ بالمقام المحمود الذي يغبطه به الأوّلون و الآخرون الذي تحيد عنه الأنبياء حتى أولوا العزم الأكملون نوح و إبراهيم و موسى و عيسى ابن مريم عليهم الصلاة والسلام . و قوله ﷺ : فأكون أوّل من يفيق ، فأجد موسى باطشًا بقائمة العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور . هذا الصعق الذي يحصل للخلائق في عرصات القيامة حين يتجلى الربّ لفصل القضاء ، فيصعقون من شدّة الهيبة .

و في قوله " لا أدري أصعق فأفاق قبلي " شرف كبير لموسى عليه الصلاة والسلام من هذه الحيثية . ولا يلزم تفضيله بها مطلقًا من كلّ وجه . لأنّ المسلم لما ضرب وجه اليهودي حين قال : لا و الذي اصطفى موسى على البشر . قد يحصل في نفوس المشاهدين لذلك هضم بجناب موسى عليه الصلاة والسلام . فبيّن النبي ﷺ فضيلته و شرفه .

و قوله تعالى : قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَ بِكَلَٰمِى . أي في ذلك الزمان . لا ما قبله لأنّ إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام أفضل منه ، ولا ما بعده لأنّ محمدًا أفضل منهما . كما ظهر شرفه ليلة الإسراء على جميع المرسلين و الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وكما ثبت أنّه قال : سأقوم مقامًا يرغب إليّ الخلق حتى إبراهيم . انتهى كلام ابن كثير في البداية مختصرًا ج١ ص٢٨٥ .

خلاصة الكلام : أنّ التفاضل بين الأنبياء و تفضيل بعضهم على بعض بحيث يورث التباغض أو القدح في شأنهم الفخيم ممنوع . و التفاضل بينهم على التعيين و التصريح بالاسم ربما يوهم ذلك .

فصل

اعلم : أنّه كما لا يسوغ تفضيل بعض الأنبياء على بعض بحيث يورث التباغض و التحاسد بين متبعيهم أو التنقيص في شأنهم المجيد و مقامهم الحميد ، كذلك لا يجوز تفضيل بعض السلف على بعض و ترفيع الأئمة الأربعة و من قاربهم كداود الظاهري و سفيان و غيرهم بعضهم على بعض ما يورث تنقيص حق البعض و الطعن في شأنه ، و كذلك لا يسوغ ترجيح بعض المذاهب على بعض مساق الطعن و التقبيح المورث للتغالي و الانحراف المثير للإحقاد و المعاندة و الازدراء و المخالفة .

قال الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه الموافقات : المسألة الثالثة : حيث يتعين الترجيح . فله طريقان : أحدهما عامّ و الآخر خاصّ . فأمّا العامّ فهو المذكور في كتب الأصول إلّا أنّ فيه موضعًا يجب أن يتأمل و يحترز منه . و ذلك أنّ كثيرًا من الناس تجاوزوا الترجيح بالوجوه الخالصة إلى الترجيح ببعض الطعن على المذاهب المرجوحة عندهم أو على أهلها القائلين بها ، مع أنّهم يثبتون مذاهبهم و يعتدون بها و يراعونها و يفتون بصحة الاستناد إليهم في الفتوى . و هو غير لائق بمناصب المرجحين . و أكثر ما وقع ذلك في الترجيح بين المذاهب الأربعة و ما يليها من مذهب داود و نحوه . فلنذكر هنا أمورًا يجب التنبه لها .

أحدها : أنّ الترجيح بين الأمرين إنّما يقع في الحقيقة بعد الاشتراك في الوصف الذي تفاوتا فيه و إلّا فهو إبطال لأحدهما و إهمال لجانبه رأسًا . و مثل هذا لا يسمّى ترجيحًا . و إذا كان كذلك فالخروج في بعض المذاهب على بعض إلى القدح في أصل الوصف بالنسبة إلى أحد المتصفين خروج عن نمط إلى نمط آخر مخالف له . و هذا ليس من شأن العلماء . و إنّما الذي يليق بذلك الطعن و القدح في حصول ذلك الوصف لمن تعاطاه و ليس من أهله . و الأئمة المذكورون براء من ذلك النمط لا يليق بهم .

والثاني : أنّ الطعن في مساق الترجيح يبين العناد من أهل المذهب المطعون عليه و يزيد في دواعي التمادي و الإصرار على ما هم عليه . لأنّ الذي غض من جانبه مع اعتقاده خلاف ذلك حقيق بأن يتعصب لما هو عليه و يظهر محاسنه . فلا يكون للترجيح المسوق هذا المساق فائدة زائدة على الإغراء بالتزام و إن كان مرجوحًا . فإنّ الترجيح لم يحصل .

والثالث : أنّ هذا الترجيح مغر بانتصاب المخالف للترجيح بالمثل أيضًا . فبينا نحن نتتبع

المحاسن صرنا نتتبع القبائح . فإنّ النفوس مجبولة على الانتصار لأنفسها و مذاهبها و سائر ما يتعلق بها . فمن غض من جانب صاحبه غض صاحبه من جانبه . فكان المرجح لمذهبه على هذا الوجه غاض من جانب مذهبه . فإنّه تسبب في ذلك كما في الحديث : و أنّ من أكبر الكبائر أن يسبّ الرجل والديه . قالوا : و هل يسبّ الرجل والديه . قال : يسبّ أبا الرجل فيسبّ أباه و يسبّ أمّه فيسبّ أمّه . فهذا من ذلك . و قد منع الله أشياء من الجائزات لإفضائها إلى الممنوع ، كقوله تعالى : لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا . و قوله تعالى : وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ . الآية . و أشباه ذلك .

والرابع : أنّ هذا العمل مورث للتدابر و التقاطع بين أرباب المذاهب . و ربما نشأ الصغير منهم على ذلك حتى يرسخ في قلوب أهل المذاهب بغض من خالفهم فيتفرقوا شيعًا . و قد نهى الله تعالى عن ذلك و قال : وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ . و قال : إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ . فكلّ ما أدّى إلى هذا ممنوع . فالترجيح بما يؤدّي إلى افتراق الكلمة و حدوث العداوة و البغضاء ممنوع .

و نقل الطبري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه و إن لم يصحح سنده : أنّه لمّا أرسل الحطيئة من الحبس في هجاء الزبرقان بن بدر قال له : إيّاك و الشعر . قال : لا أقدر يا أمير المؤمنين على تركه مأكلة عيالي و نملة على لساني . قال : فشبب بأهلك . و إيّاك و كلّ مدحة مجحفة . قال : و ما هي ؟ قال : تقول : بنو فلان خير من بني فلان . امدح ولا تفضل . قال : أنت يا أمير المؤمنين أشعر مني . فإن صحّ هذا الخبر و إلاّ فمعناه صحيح . فإنّ المدح إذا أدّى إلى ذمّ الغير كان مجحفًا . و العوائد شاهدة بذلك .

والخامس : أنّ الطعن و التقبيح في مساق الردّ أو الترجيح ربما أدّى إلى التغالي و الانحراف في المذاهب زائدًا إلى ما تقدم . فيكون ذلك سبب إثارة الإحقاد الناشئة عن التقبيح الصادر بين المختلفين في معارض الترجيح و المحاجة .

قال الغزالي رحمه الله تعالى في بعض كتبه : أكثر الجهالة إنّما رسخت في قلوب العوام بتعصب جماعة من جهال أهل الحق . أظهروا الحق في معرض التحدي والإدلاء ، و نظروا إلى ضعفاء الخصوم بعين التحقير و الازدراء . فثارت من بواطنهم دواعي المعاندة و المخالفة ، و رسخت في قلوبهم الاعتقادات الباطلة .

و تعذر على العلماء المتلطفين محوها مع ظهور فسادها ، حتى انتهى التعصب بطائفة إلى أن اعتقدوا أنّ الحروف التي نطقوا بها في الحال بعد السكوت عنها طول العمر قديمة . و لولا استيلاء الشيطان بواسطة العناد و التعصب للأهواء لما وجد مثل هذا الاعتقاد مستقرًّا في قلب مجنون فضلاً عن قلب عاقل .

هذا ما قال . و هو الحق الذي تشهد له العوائد الجارية . و قد جاء في حديث الذي لطم وجه اليهودي القائل " والذي اصطفى موسى على البشر " : أنّ النبي ﷺ غضب و قال : لا تفضّلوا بين الأنبياء ، أو لا تفضّلوني على موسى . مع أنّ النبي ﷺ جاء بالتفضيل أيضًا .

قال المازري نقلاً عن بعض شيوخه : التفضيل المنفي ما يؤدّي إلى نقص بعضهم . قال : وقد خرج الحديث على سبب و هو لطم الأنصاري وجه اليهودي . فقد يكون عليه الصلاة والسلام خاف أن يفهم من هذه الفعلة انتقاص موسى عليه الصلاة والسلام . فنهى عن التفضيل المؤدي إلى نقص الحقوق .

قال عياض : يحتمل أنّه عليه الصلاة والسلام نهاه عن الخوض فيه و المجادلة به . إذ قد يكون ذلك ذريعة إلى ذكر ما لا يجب منهم عند الجدال أو ما يحدث في النفس لهم بحكم الضجر و المراء . فكان نهيه عن المماراة في ذلك كما نهي عنه في القرآن و غير ذلك . و هو حقّ . فيجب أن يعمل به فيما بين العلماء . فإنّهم ورثة الأنبياء .

و أمّا إذا وقع الترجيح بذكر الفضائل و الخواصّ و المزايا الظاهرة التي يشهد بها الكافّة فلاحرج فيه ، بل هو مما لابدّ منه في هذه المواطن أعني عند الحاجة إليه . و أصله من الكتاب قول الله تعالى : تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ . فبيّن أصل التفضيل . ثم ذكر بعض الخواص و المزايا المخصوص بها بعض الرسل . و قال تعالى : وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا .

و في الحديث من هذا كثير .

لمّا سئل : من أكرم الناس ؟ فقال : أتقاهم . فقالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فعن معادن العرب تسألوني . خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا .

و قال : و كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلّا آسية امرأة فرعون و مريم ابنة عمران .

و إنّ فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام .

و في حديث : أنا سيّد ولد آدم . و قال : خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم . و قال ابن عمر رضي الله عنهما : كنّا نخيّر بين الناس في زمان رسول الله ﷺ . فنخيّر أبا بكر ثم عمر ثم عثمان . و قال : خير دور الأنصار بنو النجار ثم بنو عبد الأشهل ثم بنو الحرث بن الخزرج ثم بنو ساعدة . و في كل دور الأنصار خير . و قال : أرحم أمتي بأمتي أبو بكر ، و أشدّهم في أمر الله عمر ، و أصدقهم حياءً عثمان ، و أعلمهم بالحلال و الحرام معاذ بن جبل ، و أفرضهم زيد بن ثابث ، و أقرؤهم أبي بن كعب . و لكل أمّة أمين ، و أمين هذه الأمّة أبو عبيدة بن الجراح (رضي الله عنهم) .

و قال معاذ رضي الله عنه عند الموت : التمسوا العلم عند أربعة رهط : عند عويمر أبي الدرداء و عند سلمان الفارسي و عند عبد الله بن مسعود و عند عبد الله بن سلام (رضي الله عنهم) . الحديث .

و ما جاء في الترجيح و التفضيل كثير لأجل ما ينبني عليه من شعائر الدين . و جميعه ليس فيه إشارة إلى تنقيص المرجوح . و إذا كان كذلك فهو القانون اللازم و الحكم المنبرم الذي لا يتعدى إلى سواه . و كذلك فعل السلف الصالح .

و ربما انتهت الغفلة أو التغافل بقوم ممن يشار إليهم في أهل العلم أن صيروا الترجيح بالتنقيص تصريحًا أو تعريضًا دأبهم . و عمروا بذلك دواوينهم . و سودوا به قراطيسهم حتى صار هذا النوع ترجمة من تراجم الكتب المصنّفة في أصول الفقه أو كالترجمة . و فيه ما فيه مما أشير إلى بعضه بل تطرق الأمر إلى السلف الصالح من الصحابة فمن دونهم .

فرأيت بعض التآليف المؤلّفة في تفضيل بعض الصحابة على بعض على منحي التنقيص بمن جعله مرجوحًا ، و تنزيه الراجح عنده مما نسب إلى المرجوح عنده ، بل أتى الوادي فطمّ على القرى . فصار هذا النحو مستعملاً فيما بين الأنبياء . و تطرق ذلك إلى شرذمة من الجهّال . فنظموا فيه و نثروا . و أخذوا في ترفيع محمد عليه الصلاة والسلام و تعظيم شأنه بالتخفيض من شأن سائر الأنبياء . و لكن مستندين إلى منقولات أخذوها على غير وجهها . و هو خروج عن الحق . و قد علمت السبب في قوله عليه الصلاة والسلام "لا تفضّلوا بين الأنبياء" وما قال الناس فيه . فإيّاك و الدخول في هذه المضايق . ففيها الخروج عن الصراط المستقيم .

هذا . و الله أعلم .

فائدة

انظر إلى هذا الأدب أدب رسول الله ﷺ مع موسى كليم الله عليه الصلاة والسلام و مع سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في قوله : لا تخيّروني على موسى ولا تفضّلوا بين الأنبياء . و هكذا أدب كلّ نبي مع سائر الأنبياء .

ثم انظر إلى ما صنع غلام أحمد المتنبئ القادياني . فإنّه قدح في شأن كثير من الأنبياء كعيسى عليه الصلاة والسلام وغيره . و هذه بينة واضحة على كذبه و دجله . فكلّ إناء يترشّح بما فيه . و كم نشرت فرقته القاديانية المرزائية الكافرة في مختلف البلاد على تنائيها من نشرات تدعو إلى المروق و اعتناق هذا الدين الجديد . و مروقهم و كفرهم أمر لا يرتاب فيه إلّا من يرتاب في شمس الضحى قابعًا في موضع لا يشع عليه نور العلم قانعًا بالشكّ في كلّ شيء بعد انكشاف الغطاء عن كفرهم . فيكون العار علينا أن لا نكون على بينة من نحل الرافضة و الإباضية و الإسماعيلية و القاديانية و البابية و البهائية و نحوها لنتمكن من صون المجتمع من شظايا شذوذهم و شرورهم .

و إليك عدة نصوص من كلمات ذلك المارق المستبيح لحريم الدين باسم حرية الرأي لا تدع ريبًا في كفره و كفر طائفته :

(١) قد ذكرت العيسوية له أي لعيسى عليه الصلاة والسلام معجزات كثيرة . و الحق أنّه لم تظهر عنه معجزة . حاشية ضميمة أنجام آتهم ، تأليف غلام أحمد بلغة الأردي ص٦ .

(٢) ثم هو من أطهر أرومة و خؤولة و عمومة حيث كانت ثلاث من جداته الصحيحة و ثلاث من جداته الفاسدة مومسات و بغايا و منهن لحمه و دمه . من الكتاب المذكور ص٧ .

(٣) و لعلّ مصاحبته للبغايا و صبوه إليهن كان من جهة هذه القرابة النسبية . منه ص ٧ .

(٤) و يحي النبي أفضل منه فإنّه لم يكن يشرب الخمر و لم تسمع بغي عطرت رأسه بعطر من مالها الخبيث . من كتاب إعجاز أحمدي له ص١٣ .

(٥) و في حاشية كشتيء نوح ص١٦ : كان ليسوع أربعة إخوة و أختان من أب و أم حيث

كانوا كلّهم أولاد يوسف النجار و مريم .

(٦) كان عيسى ابن مريم يشتغل بالتجارة مع أبيه يوسف إلى اثنتين و عشرين سنة . من كتاب إزالة الأوهام له بالأردي ص١٢٥ .

(٧) و في إزالة الأوهام له ص١٢٧ : لولا آبائي و استقذاري لمثل هذه الأعمال لم أكن بفضل الله و توفيقه أحط رتبة من عيسى ابن مريم في هذه الشعبذات و النيرنجيات .

(٨) و قد بعث الله في هذه الأمّة مسيحًا أفضل و أرفع في جميع الكمالات عن المسيح السابق و سمّاه غلام أحمد . من كتابه دافع البلاء ص١٣ .

(٩) كنت أعتقد في أوائل أمري أنّي لا ألحق بغبار عيسى ابن مريم في الفضائل و الكمالات . كيف و هو نبي و من أجلّ المقرّبين عند الله تعالى . و كلّما بدا لي ما يفضّلني عليه أعدّه فضيلة جزئية . إلّا أن الوحي الإلهيّ الذي صاب عليّ كوابل المطر بعد لم يتركني على تلك العقيدة . و أعطيت النبوة صراحة بلا خفاء . من كتاب حقيقة الوحي له ص١٤٩ .

(١٠) و في حقيقة الوحي له ص٣١١ : و أحلف بالله العظيم إنّي أومن بهذه الإلهامات كما أومن بقرآنه و سائر كتبه ، و أذعن بالكلام الذي ينزل عليّ أنّه كلام الله كما أذعن أنّ القرآن كلامه .

(١١) و في أنجام آتهم ص٩٧ : فكلّمني و ناداني و قال : إنّي مرسلك إلى قوم مفسدين . و إنّي جاعلك للناس إمامًا . و إنّي مستخلفك إكرامًا كما جرت سنتي في الأوّلين .

(١٢) يقول في كتابه حقيقة الوحي ص١٠٧ : إنّ قوله تعالى " إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ " نزل في حق غلام أحمد . و كذلك زعم في قوله تعالى : إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

(١٣) و في كتاب حقيقة الوحي له ص١٧٩ : يجعل الكفر قسمين : أحدهما جحد الإسلام و نبوة محمد ﷺ . و الثاني جحد المسيح الموعود . يعني نفسه . ثم يقول في حاشية ترياق القلوب له ص١٣٠ : إنّ تكفير المنكرين من خواصّ الأنبياء الذين جاءوا بشريعة جديدة و أحكام ناسخة . و أمّا ما سواهم من الملهمين فلا يكفّر أحد بجحوده و إن بلغ من شرف المكالمة الإلهيّة على أقصى غاياته . فيظهر من هذين النصين أنّه كان يدّعي أنّه صاحب شريعة جديدة ناسخة للتي قبلها و أنّه نبيّ رسول و ليس بنبيّ فقط .

ثم اعلم : أنّ المرزا غلام أحمد المتنبئ كان من رجال الحكومة الإنجليزية في الهند و من جواسيسها . ادّعى النبوة بإشارة الحكومة ، و قوّاه ولاة الحكومة الكافرة و عصموه بكلّ قوّة . ففسر للناس معاني القرآن برأيه الأسخف ليتبوّأ مقعده من النار في الدرك الأسفل في تحريف آيات الله المبينة المطهرة و الأحاديث النبوية المكرّمة عن مواضعها .

فما خاف الله ولا استحيي من الناس مثقال ذرّة . اتخذ دينه لهوًا و لعبًا كلعب الصبيان بالخزف و الحصى . و مركزهم الآن أي سنة ١٣٩٦هـ في باكستان في بلدة ربوة . و من سخافة طائفته و هزئهم بالإسلام أنّهم يسمّون أميرهم بأمير المؤمنين ، و زوجاته بأمّهات المؤمنين ، و أتباعه الأوّلين بالصحابة ، و مقبرتهم المخصوصة بجنّة البقيع . و يقولون : إنّ المدفون فيها من أهل الجنة ألبتّة . اللّهم دمّر ديارهم و خرّب بنيانهم ، و أنزل بهم بأسك الذي لا يزول عن القوم المجرمين .

الباب الثاني والستون
في الجواب الخامس والستين

قيل : هذا التشبيه من قبيل قول رجل لرجل آخر : أعطني مائة درهم كما أعطيت فلانًا مائة درهم . فلا يلاحظ فيه أنّ أحدهما أفضل من الآخر ، ولا أنّ دراهم هذا أعلى قدرًا من دراهم ذاك . كيف و المائة لا تفضل المائة ولا تزيد عليها حبة . و التشبيه في ذلك إنّما هو لكون أحد الطرفين ماضيًا و الآخر مستقبلًا ، و أحدهما واقعًا و الآخر مسؤولًا مطلوبًا ، و أحدهما أي " صلّ على محمد " إنشاءً و الآخر خبرًا .

فحاصل الصلاة الدعاء بأن يحصل لنبينا ﷺ من البركات ما حصل لإبراهيم عليه الصلاة والسلام في الماضي ، و أن يتحقق هذا كما تحقق ذاك . و لعلّه راجع إلى أحد الأجوبة المذكورة في سائر الأبواب .

الباب الثالث والستون
في الجواب السادس والستين

يؤخذ من مكتوبات العارف الشيخ أحمد السرهندي رحمه الله تعالى أنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام موصوف بالخلّة و نبينا عليه الصلاة والسلام بالمحبّة . و المحبّة و إن كانت فردًا كاملاً من الخلّة إلاّ أنّها صارت ممتازة من أفراد الخلّة بحيث صارت كأنّها جنس آخر و نوع مباين .

و لكلّ من الخلّة و المحبّة خواص مازت كلّ واحد منهما . فالخلّة من خواصّها الفرح و الأنس و الاطمينان و الاستراحة حتى في حالة المحنة و المصيبة . و أمّا المحبّة فامتازت بالحزن و الألم . و لذا ورد في الحديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الحزن .

فنبينا صلى الله عليه وسلم طلب الاطمينان و الأنس و نحو ذلك ما هو مقام الخلّة في قوله "كما صلّيت على إبراهيم إلخ " و إن كان هو صلى الله عليه وسلم متّصفًا بالنصيب الأوفر و الحظّ الأزهر من الخلّة لكونه حبيبًا . و المحبة أكمل أفراد الخلّة . و إن حسبت المحبّة نوعًا مباينًا للخلّة فنوعها أفضل و أكمل و أجلى من نوع الخلّة .

قال العارف الأكبر الشيخ أحمد السرهندي رحمه الله تعالى في المكتوب الثامن و الثمانين من المجلد الثالث ، ما تعريب فارسيته : أنّ الخلّة عامّة و المحبّة فردها الكامل . فإنّ إفراط الأنس و الألفة هو المحبة التي هي باعثة على الهيمان و مورثة لعدم القرار و عدم الراحة . و الخلّة بتمامها أنس و ألفة و استراحة . و المحبة هي التي عرضت لها كيفية أخرى . و صارت ممتازة من سائر أفراد الخلّة . و كأنّها صارت جنسًا آخر .

و الخاصية التي امتازت المحبة بها عن سائر أفراد الخلّة هي الحزن و الألم . و الخلّة كلّها عيش في

عيش و فرح في فرح و أنس في أنس . و لعلّه من هذه الحيثية أعطى الله ﷻ خليله على نبينا و عليه الصّلاة والسلام أجر عمله في الدنيا التي هي دار المحن و في الآخرة أيضًا . قال الله تعالى : وَ ءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ .

فإذا كانت المحبة منشأ الألم و الحزن فكلّ فرد تكون المحبة فيه غالبة يكون الألم و الحزن فيه أزيد . و من ههنا قيل : كان رسول الله ﷺ متواصل الحزن . و قال رسول الله ﷺ : ما أوذي نبي مثل ما أوذيت . فإنّ الفرد الكامل من أفراد الإنسان في حصول المحبة كان هو النبي ﷺ و إن كان هو ﷺ محبوبًا ، و لكن لمّا حصلت في البين نسبة المحبة كان المحبوب كالمحبّ والهًا و مشغوفًا . و قد ورد في الحديث القدسيّ : ألا طال شوق الأبرار إلى لقائي و أنا إليهم لأشدّ شوقًا .

و ههنا سؤال مشهور . و هو أنّ الشوق إنّما يكون إلى المفقود . ولا شيء مفقود عن حضرته تعالى . فكيف يكون فيه الشوق ؟ و ما يكون أشدّ الشوق ؟

و الجواب : أنّ مقتضى كمال المحبة هو رفع الاثنينية و اتحاد المحبّ مع المحبوب . و حيث أنّ هذا المعنى مفقود فالشوق موجود . و لمّا كان تمنّي الاتحاد في جانب المحبوب لأنّ المحبّ لعله يقنع بمجرد وصال المحبوب كان أشدّ الشوق في جانب المحبوب بالضرورة . و يكون تواصل الحزن من صفة الحبيب .

فإن قيل : إنّ الحق سبحانه قادر على جميع الأمور . وكلّما يريده ميسر له . فلا يكون شيء مفقودًا في حقه حتى يتحقق الشوق .

أجيب : أنّ تمنّي أمر غير إرادته . و مراده تعالى لا يتخلّف عن إرادته . و لكن يجوز أن يوجد تمنّي أمر ولا توجد الإرادة بحصوله و لإيراد وجوده .

ع و كم في العشق من عجب عجيب

و أحيانًا يكون المطلوب في العشق مجرد الألم . ولا يكون الوصل ملحوظًا أصلاً ، بل يراد الوصل ، و يهرب من اتصال المحبوب . و هذا قسم من أقسام جنون العشق بل من محاسن العشق من لم يذق لم يدر . انتهى بلفظه مع تعريب كلامه الفارسي .

الباب الرابع والستون
في الجواب السابع والستين

الكاف في "كما صلّيت" للربط المحض و التعليق الصرف من غير إرادة حقيقة التشبيه . فلا إشكال . و إن كانت الصورة الصورة . و توضيحه أنّه لو قيل " صلّ على محمد صلّيت على إبراهيم " لم يرتبط الكلام و لم يفد المرام . فجيء بالكاف و قيل : كما صلّيت . فاتسق الكلام و ارتبط طرفاه لتأدية المرام .

ثم لو تصفحت كلام الأدباء و عبارات الأئمة و العلماء لصدّقت ما ادعينا . و عند المخض يبدو الزبد حيث ترى الكاف في مواضع لا يصح فيها معنى التشبيه إلّا بارتكاب المجاز .

ثم علامة كينونة الكاف للربط صحة الكلام بعد حذفها بغير حاجة إلى حرف آخر رابط أو مع حاجة إلى رابط آخر نحو حرف " قد " أو غير ذلك من الحروف الروابط . فعلى هذا معنى هذه الصلاة : اللّهم صلّ على محمد و قد صلّيت على إبراهيم . أي صلّ على محمد بطريق الأولى فإنّه أفضل من إبراهيم عليهما الصلاة والسلام .

و من هذا القبيل قول العلماء في عباراتهم مثلاً : هذا القول كذا كما سيأتي و كما تراه . أي و سيأتي و تراه أو و قد تراه .

و قولهم : هذا الكلام كذا كما رويناه و كما مضى بيانه . أي و قد رويناه و قد مضى بيانه .

ولا يخفى على المتدبّر أنّ أمثال هذا ليست من مواضع تشبيه شيء بشيء . و إنّما يقصد فيها

نفس الإحالة . ألا ترى أنّ ما مضى و ما ترى وما سيأتي و نحو ذلك عين هذا الكلام الذي وقع مشبّهًا لا أنّه مثل هذا الكلام . إذ المثليّة تستدعي التغاير ، و هو منتف ههنا . فجيء بالكاف لارتباط ما بعدها مع ما قبلها لفظًا ، فوقع وضعها أحسن موقع .

و من ذلك قول بعض العارفين :

الشّوقُ وَ الهَوَى صَيّراني كما ترى

لم يرد صيّراني مثل ما ترى ، بل أراد صيّراني عين ما ترى . و الكاف رابطة و زينة زادت في الربط شدّة .

و من ذلك قول صاحب الرؤيا عند ذكرها : كأنّ كذا و كأنّي كذا . و هذا دأب معروف . كما أخرج الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا : رأيت في المنام كأنّ في يديّ سوارَين من ذهب . فهمّني شأنهما . الحديث . الكاف لتقوية الربط ، و إلّا فالكلام يصحّ بدونها . و المعنى : أنّ في يديّ سوارَين .

و أخرج الترمذي أيضًا عن أبي بكرة رضي الله عنه : أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم : من رأى منكم رؤيا . فقال رجل : أنا رأيت كأنّ ميزانًا نزل من السماء . الحديث . أي أنّ ميزانًا نزل . و مثل هذا وقع في الأخبار في غير ما موضع .

و منه الحديث المشهور : من رآني في المقام فكأنّما رآني . فإنّ الشيطان لا يتمثّل بي . معناه : فقد رآني . و لذا صحّ في رواية عبد الله مرفوعًا : من رآني في المنام فقد رآني . أخرجه الترمذي . أي بغير حرف التشبيه .

فحرف التشبيه في هذه المواضع لإيراث القوة في الارتباط ، لا للتشبيه ، ولا يلزم معنى التشبيه حروفه .

و لذا قال الأخفش كما حكى عنه الثعالبي في سرّ العربية : إنّ الكاف في حديث أبي أمامة رضي الله عنه " لم أر كاليوم ولا جلد مخبأة " و في قولهم " ما رأيت كاليوم " للتعجب لا للتشبيه .

و يمكن أن يكون التشبيه في قوله تعالى " وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝ كَمَآ

أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَ يُزَكِّيكُمۡ وَ يُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَ ٱلۡحِكۡمَةَ وَ يُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ۝ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَ ٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ۝ " من هذا الباب . فالكاف لارتباط المضمونين و اجتذاب الكلامين . بها ارتبط ما بعدها بما قبلها و بالعكس . فهي من المحسنات اللفظية . يسهل بها الانتقال من كلام إلى آخر مع وصلة لفظية .

و بما سطرنا يندفع إشكال هذه الآية . فإنّ للعلماء و المفسّرين كلامًا طويلاً مع نقوض و إبرامات في تشبيه هذه الآية و تعيين المشبّه له . و معنى الآية على ما ذكرنا : قد أرسلنا فيكم أو و قد أرسلنا فيكم . فارتبط الكلام و انتظم المرام . ولله الحمد والمنة .

ثم إنّهم عدّوا الآية من المشكلات . فقيل : الكاف للتشبيه . و قيل : للتعليل . و قيل : للمقابلة . و اختلفوا في تعيين المشبّه ، و في أنّه مأخوذ من الكلام المتقدّم أو المتأخر . و هذه نبذة من أقوالهم في ذلك :

القول الأوّل : هو مرتبط بقوله : وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ . أي إتمامًا مثل إتمام إرسال الرسول فيكم . و متعلق الإتمامين مختلف .

القول الثاني : هو مربوط بقوله "تَهۡتَدُونَ" . أي اهتداء مثل إرسالنا . و الطرفان على هذا متباينان ، إلّا أن يقال : إنّ التشبيه في الثبوت . أي ثبت هذا كما ثبت ذلك .

القول الثالث : هو متعلق بقوله بعده "فَٱذۡكُرُونِيٓ" . والكاف للتعليل . أي اذكروني لإرسالنا رسولاً .

القول الرابع : هو متصل بقوله " نِعۡمَتِي " . و الكاف في موضع النصب على الحال من " نِعۡمَتِي ".أي و لأتم نعمتي عليكم مشبّهة إرسالنا فيكم رسولاً أي مشبّهة نعمة الإرسال على حذف المضاف .

القول الخامس : هو منسلك بما بعده . و هو قوله "فَٱذۡكُرُونِيٓ" . و الكاف للتشبيه . و " ما " في "كما " مصدرية .

القول السادس : مثل الخامس ، إلّا أنّ " ما " في "كما " موصولة بمعنى " الذي " .

القول السابع : مثل السادس و الخامس . و الكاف للمقابلة .

القول الثامن : أنّه يتعلق بقوله "وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا" . أي جعلا مثل ما أرسلنا .

قال الآلوسي رحمه الله : "كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ" متصل بما قبله . فالكاف للتشبيه . و هي في موضع نصب على أنّه نعت لمصدر محذوف . أي إتمامًا مثل إتمام إرسال الرسول . و ذكر الإرسال و إرادة الإتمام من إقامة السبب مقام المسبب . و قيل : متصل بما بعده . أي اذكروني ذكرًا مثل ذكري لكم بالإرسال ، أو اذكروني بدل إرسالنا فيكم رسولاً . فالكاف للمقابلة متعلق "باذكروني" . و منها يستفاد التشبيه ، لأنّ المتقابلين متشابهان و متبادلان . انتهى ملخصًا .

و قال الإمام أبوحيان النحوي المفسر رحمه الله في البحر المحيط : "كَمَآ أَرْسَلْنَا" الكاف هنا للتشبيه في موضع نصب على أنّها نعت لمصدر محذوف . و اختلف في تقديره فقيل : التقدير : ولأتم عليكم إتمامًا مثل إتمام إرسال الرسول فيكم . و متعلق الإتمامين مختلف . فالإتمام الأوّل بالثواب في الآخرة ، و الإتمام الثاني بإرسال الرسول إلينا في الدنيا . أو الأوّل بإجابة الدعوة الأولى لإبراهيم في قوله "وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ" . و الثاني بإجابة الدعوة الثانية في قوله "رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ" .

و قيل : التقدير : لعلّكم تهتدون اهتداءً مثل إرسالنا فيكم رسولاً . و يكون تشبيه الهداية بالإرسال في التحقق و الثبوت .

و قيل : متعلق بقوله "وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا" . أي جعلا مثل ما أرسلنا . وهو قول أبي مسلم . و هذا بعيد جدًّا لكثرة الفصل المؤذن بالانقطاع .

و قيل : الكاف في موضع نصب على الحال من "نعمتي" . أي و لأتمّ نعمتي عليكم مشبّهة إرسالنا فيكم رسولاً ، أي مشبّهة نعمة الإرسال . فيكون على حذف مضاف .

و قيل : الكاف منقطعة من الكلام قبلها و متعلقة بما بعدها . و التقدير كما قال الزمخشري : كما ذكرتكم بإرسال الرسول فاذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب . انتهى . و هذا كما تقول : كما أتاك فلان فأته يكرمك . و هذا قول مجاهد و عطاء و الكلبي و مقاتل . و هو اختيار الأخفش و الزجاج و ابن كيسان و الأصم رحمهم الله .

و المعنى : أنّكم كنتم على حالة لا تقرؤون كتابًا ولا تعرفون رسولًا . و محمد ﷺ رجل منكم أتاكم بأعجب الآيات الدالّة على صدقه . فقال : كما أوليتكم هذه النعمة و جعلتها لكم دليلًا فاذكروني بالشكر أذكركم برحمتي . و يحتمل على هذا الوجه بل يظهر و هو إذا علقت بما بعدها أن لا تكون الكاف للتشبيه بل للتعليل . و هو معنى مقول فيها : إنّها ترد له . و حمل عليه قوله تعالى : وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ . و قول الشاعر :

ع　　لا تَشْتُمِ النَّاسَ كما لا تُشْتَمِ

و " ما " في "كما " مصدرية . و أبعد من زعم أنّها موصولة بمعنى "الذي" . و العائد محذوف . و "رسولًا" بدل منه . و التقدير : كالذي أرسلناه رسولًا . إذ يبعد تقرير هذا التقدير مع ما قبله و مع ما بعده . و فيه وقوع " ما " على آحاد من يعقل . و كذلك جعل " ما "كافةً لأنّه لا يذهب إلى ذلك إلّا حيث لا يمكن أن ينسبك منها مع ما بعدها مصدر لولايتها الجمل الاسمية .

و قول من قال : إنّ "كَمَآ أَرْسَلْنَا" متعلق بما بعده ، قد ردّه أبو محمد مكي بن أبي طالب . قال : لأنّ الأمر إذا كان له جواب لم يتعلق به ما قبله لاشتغاله بجوابه . قال : لو قلت "كما أحسنت إليك فأكرمني أكرمك " لم تتعلق الكاف من "كما " "بأكرمني" لأنّ له جوابًا . و لكن تتعلق بشيء آخر أو بمضمر .

و كذلك " فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ " هو أمر له جواب . فلا تتعلق "كما" به . ولا يجوز ذلك إلّا على التشبيه بالشرط الذي يجاوب بجوابين . و هو قولك " إذا أتاك فلان فأته ترضه" . فتكون "كما " و "فَٱذْكُرُونِىٓ" جوابين للأمر . و الأوّل أفصح و أشهر . و تقول "كما أحسنت إليك فأكرمني " يصح أن يجعل الكاف متعلقة "بأكرمني" إذ لا جواب له . انتهى ما قال مكي . و ما ذهب إليه مكي فليس بشيء . انتهى ملخصًا .

الباب الخامس والستون
في الجواب الثامن والستين

التشبيه ثلاثة أنواع :

الأوّل : ما يكون في الأعيان نحو " زيد كالأسد " .

والثاني : ما يكون في الأعراض و الصفات نحو "سواد الحبشيّ كسواد الغراب" . و المشبّه به فيهما يكون غالبًا أقوى و أعلى في وجه الشبه من المشبّه . وقد لا يكون أقوى .

والثالث : في الفعل و الحدث الذي هو معنى مصدري . و المشبّه به فيه لا يكون أقوى و أعلى من المشبّه ، بل لا يمكن إلّا نادرًا . و النادر كالمعدوم .

فيجب التساوي بين الطرفين في تحقق نفس الحدث و المعنى المصدري . و وجه ذلك أنّ الفعل يساوي الفعل ألبتة ، و لايقبل الزيادة والنقصان حتى يزيد فعل فعلًا . لاسيما إذا كان فعلا الطرفين من جنس واحد . و كيف يتصور زيادة الشيء على نفسه .

ولذا قال أهل التحقيق : إنّ الإيمان لا يقبل الزيادة و النقصان ، لأنّه تصديق . و هو فعل غير قابل للزيادة و النقصان . و ليس الإيمان نفس المعرفة و العلم لحصول ذلك لكثير من الكفّار . كما قال الله تعالى : يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ . بل الإيمان إنّما هو التصديق الذي يتضمن فعل التسليم . فثبت أنّ التصديق فعل القلب . و معنى عدم قبول الإيمان للزيادة والنقصان أنّ فعل التصديق لا يزيد على نفس فعل التصديق لما قلنا .

ألا ترى أنّ الضرب لا يخالف الضرب حقيقة . فضرب زيد متحد المغزى والمرمى مع ضرب عمرو . لا تغاير بينهما إلّا باعتبار المحل . فلا يقال : هذا الضرب أشدّ من ذلك الضرب أو أخفّ و أنقص منه بالنظر إلى نفس الضرب من حيث هو هو لفقد التفاوت .

و إنّما التفاوت في ذلك بالنظر إلى أمور خارجة عن نفس الضرب من حيث هو هو كالقوّة المحرّكة و المحل و الآلة . فإنّ الضرب بآلة الحديد أشدّ منه بآلة الخشب ، و بالخشب أشدّ منه باليد ، و بالسيف أفجع من جميع ذلك . و بالنظر إلى الموضع المضروب ، فإنّ الضرب في بعض مواضع البدن أشدّ ألمًا . و باعتبار الضارب لشهرته في ذلك كما في القول الدائر عند النحاة ، و هو " ضربته ضرب الأمير " . فإنّ ضرب الأمير أردع و أشدّ و أعرف ، لكن لا لنفس الضرب من حيث هو هو بل لسعة اختياره و تنوّع ضربه و تكرّره و استمراره ما يكاد يقتل و عدم مبالاته ، حيث يفعل ما يشاء ولا يسأل كما لا يخفى .

و بعد معرفة هذا التمهيد أقول و على الله التكلان : إنّ قولنا "كما صلّيت على إبراهيم" من قبيل النوع الثالث ، حيث وقع التشبيه فيه في نفس المعنى المصدري للصلاة أي تصلية الله . إلّا أنّ التصلية و هو المصدر المنقاس غير مستعمل . و المستعمل فيه لفظ الصلاة . فهو اسم مصدر مثل "سبحان" بمعنى التسبيح . و يأتي لفظ "الصلاة" بمعنى الهيأة الحاصلة بالمصدر أيضًا . فهو على هذا حاصل المصدر . بل صرّح بعض المحققين كالعلامة الحموي في شرح الأشباه و النظائر لابن نجيم رحمه الله تعالى باستعمال التصلية على القياس أيضًا لكنه قليل .

فالهيأة من مقولة الكيف و نحو ذلك . و لذا تقبل التفاوت . و أمّا معنى المصدر فمن مقولة الفعل ، لا يقبل التفاوت من حيث أنّه مصدر و حدث كما تقدم . و التشبيه في "كما صلّيت على إبراهيم" ليس في الصلاة بمعنى الحاصل بالمصدر ، بل في الصلاة بمعنى المصدر ، كما لا يخفى بدليل الأمر . و الأمر يطلب به الفعل المصدري .

فالمقصود بالتشبيه تحقق صلاة الله بالمعنى المصدري على محمد صلى الله عليه وسلم وآله كما تحقق صلاته بهذا المعنى على إبراهيم عليه الصلاة والسلام وآله . و المساواة في الطرفين تحققًا و وجودًا لا يضرّنا .

ولم يقصد المفاضلة حتى تثبت أفضلية المشبّه به لما تقدم أنّ المفاضلة مختصّة بالنوعين الأوّلين للتشبيه .

و كيف يتصور إثبات أفضلية إبراهيم على محمد عليهما الصلاة والسلام من هذا التشبيه . و هل هذا إلّا مصادرة على المطلوب . لأنّ الفعل في الطرفين واحد و هو الصلاة . و الفاعل واحد و هو الله تعالى . فلم يبق إلّا المتعلق و المعمول و هو " على محمد " في المشبّه و " على إبراهيم " في المشبّه به . و بذلك اختلاف الطرفين . و هذا لا يجدي الخصم .

نعم إذا كان فضل معمول المشبّه به على معمول المشبّه مسلّمًا و الاعتناء به معتقدًا قبل التشبيه من غير اختلاف ، دلّ النوع الثالث أيضًا على المفاضلة و المبالغة كما في النوعين الأوّلين .

و هذا كما في الحديث المتّفق عليه على ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه في التشهّد مرفوعًا و هو : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلّمنا التشهد كما يعلّمنا سورة من القرآن . فهذا التشبيه في نفس الفعل الذي هو تعليم . و هو من النوع الثالث . لكنه يفيد المفاضلة و المبالغة بإلحاق الأدنى بالأعلى . لأنّ فضل القرآن أمر متفق عليه و معتقد قبل التشبيه . فأورث التشبيه بتعليمه المفاضلة و المبالغة في تعليم التشهّد . و في مثله صحّ أن يقال : إنّ المشبّه به فيه أعلى و أفضل من المشبّه . لكن هذا الفضل لم يستفده المشبّه به إلّا من متعلقه و معموله و هو السورة . و إلّا فنفس التعليم الذي هو معنى مصدري متحد في الطرفين غير قابل للتفاوت .

هذا بخلاف ما نحن فيه . فإنّ معمول المشبّه به و هو إبراهيم لم تثبت أفضليّته على محمد قبل هذا التشبيه . و إن شئت فقل : بدون اعتباره . و ليس بمعتقد لنا . بل نعتقد أنّ نبينا صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء . فكيف يدلّ قولنا "كما صلّيت على إبراهيم " على أفضليّة المشبّه به .

و كان غاية سلاح خصمنا هذا التشبيه . فألزمنا ما ألزم . و قد عرفت أنّه أوهن من بيت العنكبوت ، حيث لم يفرق بين النوعين الأوّلين و بين النوع الثالث . و لم يعرف أنّه ليس من قبيل الحديث المتقدّم لابن مسعود رضي الله عنه .

فصل

هذه شواهد عديدة جليّة تسفر عن محيا ما ادّعينا أنّ التشبيه في الفعل بالمعنى المصدري لا يقتضي إلّا التساوي في تحقق الحاشيتين . ولا يفيد المفاضلة إلّا إذا كان معمول المشبّه به أعلى مسلّمًا مجده و معتقدًا جدّه قبل التشبيه و مع قطع النظر عنه .

فمنها : ما ورد في الحديث المرفوع : أنّ الله اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا . المقصود التشبيه في نفس فعل الاتخاذ أي اتخاذ الخليل . ولا يصحّ إرادة المفاضلة و المبالغة ههنا كما لا يخفى على المتدبّر .

ومنها : ما أخرج الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال : من قال حين يصبح و حين يمسي "سبحان الله و بحمده" مائة مرّة لم يأت أحدٌ يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلّا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه . فالتشبيه في قولنا " إلّا أحد قال مثل ما قال " في المعنى المصدري أي نفس القول المتعلق بهذا الدعاء . و أريد به التساوي للقولين في التحقق .

ومنها : ما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه مرفوعًا : من كبّر الله مائةً بالغداة و مائة بالعشي لم يأت في ذلك اليوم أحد بأكثر مما أتى إلّا من قال مثل ما قال أو زاد على ما قال . أخرجه الترمذي . فقوله " مثل ما قال " من النوع الثالث .

ومنها : ما روى ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا : أنّ رسول الله ﷺ كان يعلّمهم هذا الدعاء كما يعلّمهم السورة من القرآن "اللّهم إنّي أعوذبك من عذاب جهنّم و من عذاب القبر ، و أعوذبك من فتنة المسيح الدجال ، و أعوذبك من فتنة المحيا و الممات" . أخرجه الترمذي . فقوله "كما يعلّمهم السورة" من النوع الثالث . لكنه أجدى المفاضلة و المبالغة بإلحاق الأدنى بالأعلى لكون معمول المشبّه به و هو السورة أسنى و أعلى كما تقدّم من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ .

ومنها : ما أخرج الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا : إذا أتى أحدكم الصلاة و الإمام على حال فليصنع كما يصنع الإمام .

ومنها : ما أخرج أحمد عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : حرّمت الخمر ثلاث مرّات . و فيه : ثم نزلت آية أغلظ من ذلك " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ " إلى قوله " فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ " . ثم ذكر سؤالهم عمن ماتوا و يشربون الخمر من المسلين إلى أن قال : فأنزل الله " لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَ عَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ " إلى آخر الآية . و قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لو حرّم عليهم لتركوه كما تركتم . فالتشبيه في قوله "كما تركتم " من النوع الثالث كما هو الظاهر .

ومنها : قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : من شرب خمرًا في الدنيا سقاه الله كما شرب منه من حميم جهنم . أخرجه البيهقي في الشعب عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . و يمكن أن تكون الكاف في "كما شرب " للتعليل .

الباب السادس والستون
في الجواب التاسع والستين

هذا الدعاء في صلاة التشبيه من قبيل الدعاء الثابت في سورة الفاتحة ، و هو : ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ . المراد من المنعم عليهم الأنبياء و الصدّيقون و الشهداء و الصالحون .

و نبينا ﷺ كان يقرأ هذه السورة في كلّ ركعة من الصلاة . فكان يسأل الله تعالى أن يمنحه صراط الأنبياء و الصدّيقين و الشهداء و الصالحين ، و أن ينعم عليه كما أنعم عليهم ، مع أنّه كان على ذلك الصراط ، وكان له الحظّ الأوفر من الصراط المستقيم ، وكان أفضل من جميع من أنعم الله عليهم ، وكان أعطي من نعماء الرحمن مالم يعط أحد من العالمين .

ولا فرق بين دعاء صلاة التشبيه و دعاء سورة الفاتحة في المآل و المغزى .

غاية ما يقال : إنّ في دعاء صلاة التشبيه تصريح اسم إبراهيم عليه الصلاة والسلام بخلاف دعاء سورة الفاتحة . لكن هذا أمر لا يعتبر فارقًا لكون المقصود واحدًا و المرمى متحدًا .

فكما لا يشكل دعاء سورة الفاتحة ينبغي أن لا يشكل دعاء صلاة التشبيه ، وهو قولنا : كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم . هذا . والله أعلم .

الباب السابع والستون
في الجواب السبعين

قد يكون المشبّه به محبوبًا عند الناس أشرب في قلوبهم و شغفهم حبًّا . هذا في مقام الترغيب . أو يكون مستكرهًا أو مستقذرًا عندهم . هذا في مقام الترهيب و ذكر المكروهات . فيذكر و يشبّه به نظرًا إلى هذه الجهة ، و إن كان في المرتبة و المقام أدنى من المشبّه . بل قد يكون في المحبوبية أو الكراهة أيضًا أدنى من المشبّه .

و قولنا "كما صلّيت على إبراهيم " من هذا الباب باب ذكر المستحسنات الطيبات . و في هذا النوع لا يجب أن يكون المشبّه به أقوى و أعلى بل يكفي كونه طيّبًا محبوبًا مستحسنًا عند الناس . فإبراهيم عليه الصلاة والسلام و إن لم يكن أفضل من نبينا صلى الله عليه وسلم لكن لا يخفى أنّه كان محبوبًا عند الأنام و مقتدًى و إمامًا عند أصحاب الأديان كلّها . فكل فرقة تدّعي أنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام منهم . فزعمت اليهود أنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان يهوديًّا ، و ادّعت النصارى أنّه كان منهم ، و الصابئة أنّه إمامهم ، و المشركون أنّهم يهتدون بهديه .

و لذا ردّ عليهم الله تعالى في كتابه : أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ . و هذا مقام لم يحصل لنبينا صلى الله عليه وسلم ولا لأحد من الأنبياء سوى إبراهيم عليه الصلاة والسلام . فنبيّنا صلى الله عليه وسلم و إن كان أعلى من جميع الأنبياء مقامًا و أسنى مرتبةً إلّا أنّه أبغض الناس إلى اليهود و النصارى و سائر الكفّار ، و كذا أمّته أبغض إلى كلّ فرقة من سائر الأمم . و الكفر ملّة واحدة .

و لذا قال الله : وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ

أَنفُسِهِمْ . و قال سبحانه : وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ . و قال سبحانه : وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ .

ثم شواهد التشبيه بالأمور المحبوبة و الأشياء المستحسنة كثيرة . نذكر هنا نبذةً لتطمئنّ بها القلوب . قال بعض الشعراء في التأسّف على عصر الشباب و التعلل بالدعاء له و وصف نضارة أيّامه يشبّه الشباب بالروض :

فلا يبعد الله عصر الشباب　　　فأيّامه كالرياض الأنف

و أخذه الشاعر العباسي محمود بن الحسن الوراق فقال :

سقْيًا لأيّامٍ مَضَتْ　　　وكأنَّ أوجُهَها الرِّياضُ
أيّام يجنُبنا الهوى　　　و تقودُنا الحَدَقُ المراضُ

وجه الشبه كون الرياض محبوبة مستحسنة ، لا لكونها أفضل و أعلى من الشباب .

و قال أبو العتاهية يذكر ما نضاه من ملابس شبابه ، و أحسن في تشبيه الحالين وجودًا و عدمًا :

عَرِيتُ مِنَ الشّبابِ وكنتُ غَضًّا　　　كما يَعْرَى مِنَ الوَرَقِ القَضِيْبُ

و كأنّما اجتني من قول الجعدي :

و ما البغيُ إلّا على أهلِهِ　　　و ما النّاسُ إلّا كهذا الشَّجَرْ
ترى الغُصْنَ في عُنْفوانِ الشَّبا　　　بِ يَهتزُّ ذا بهجاتٍ خُضَرْ
زمانًا مِنَ الدّهْرِ ثُمَّ الْتَوى　　　فَعادَ إلى صُفْرَةٍ فَانْكَسَرْ

و قال أبوتمّام :

أَصْبَحتْ رَوْضَةُ الشَّبابِ هَشِيمًا　　　وغَدَتْ رِيحُه البَلِيْلُ عقيمًا
شُعْلَةٌ فِي المَفارِقِ اسْتَودَعَتْني　　　فِي صَمِيم الفُؤَادِ ثُكْلاً صَمِيما

و من هذا الباب تشبيه النساء في حسنهن و غضاضة شبابهن بالرياض . قال بعضهم :

كَأَنَّهَا رَوْضَةٌ منورةٌ تَجْمَعُ طِيْبًا و مَنْظرًا حَسَنًا

وقال الطائي :

غَيْدَاءُ جَادَ وَلِيُّ الحُسْنِ سُنَّتَهَا فَصَاغَهَا بِيَدَيْهِ رَوْضَةً أُنُفَا

و قال النهدي :

جَديدةِ سِربالِ الشّبابِ كأنَّها سَقِيَّةُ بَرْدِيٍّ نَمَتْها غُيُولُها

و من اللطائف مبالغة الهذلي في المعنى بالتتبيع . فأدرك شأو الإحسان بقوله :

تكادُ يَدي تَندي إذا ما لَمَسْتُها ويَنْبُتُ في أَعْطَافِها الوَرَقُ الخُضْرُ

هذا ما ذكرته استطرادًا . و قال العباس بن الأحنف في تشبيه النساء :

و قد مُلِئتْ ماءَ الشَّبابِ كأنَّها قَضِيْبٌ مِنَ الرَّيْحانِ رَيَّانُ أَخْضَرُ

و كنى الآخر عن ذكرهنّ بأحلى عبارة فقال :

أحبّ اللواتي هُنَّ من وَرَق الصبا و فيهنّ عَنْ أَزْواجِهِنَّ طَمَاحُ

هذا لكون الرياض الخضر مستحسنة يودّها الناظرون و إلّا فأين الرياض و حسنها من النساء و شبابهن . و من هذا القبيل تشبيه النساء بالدرر لكون الدرر محبوبة عند العوام و الخواص مطلوبة عندهم . و إلّا فالمرأة من النوع الذي هو أشرف الأنواع . و ما نسبة الدرّة بالإنسان رجلًا كان أو امرأةً .

قال الناجم يرثي جارية ابن مروان :

يا دُرَّةً كانتْ تُضِيْ ءُ لِناظرٍ من كلِّ جانب

و مثل ذلك قول إبراهيم بن العباس بزيادة المشم مع الدرة :

دُرَّةٌ حيثُ ما أُديرتْ أضاءتْ و مَشَمٌّ من حيثُ ما شُمَّ فاحا

و منه تشبيه الثدي بحقاق عاج . قال عبد الله بن أبي السمط بن مروان :

كأنّ الثّدي إذا ما بدتْ وزانَ العقودُ بهنّ النّحورا
حِقاقٌ من العاجِ مكنونةٌ يسعْنَ من الدرّ شيئًا كثيرًا

و قال ابن الرومي :

صُدورٌ فوقَهن حِقاقُ عاجٍ وَ درٌّ زانَهُ حُسْنُ اتِّساقِ
يقولُ القائلونَ إذا رأوه أهذا الدّرّ من هذي الحقاقِ

و منه تشبيه الثغر للمعشوق بالإقاح و خدّ المحبوب بالورد ، لكون الورد و الإقاح مما يطلب و يستحسن ، لا لكونهما أحسن و أعلى و أحبّ من ثغر المعشوق و خدّه . قال ابن المعتز :

بدر و ليل و غصن وجه و شعر و قدّ
خمر و درّ وورد ريق و ثغر و خدّ

و جمع البحتري كلّ ما شبّه به الثغر في بيت فقال :

كأنّما يضحك عن لؤلؤ أو فضة أو برد أو إقاح

ولا يبعد أن يكون من هذا الباب التشبيه في قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ . فإنّ مثل هذه الشجرة مما يستحسنه الناس و يتعلق به القلوب ، لا أنّ هذه الشجرة أفضل و أعلى من الكلمة الطيبة . قيل : المراد من الشجرة " النخلة " . قال أبو حاتم : من فضيلة النخل أنّ الله تعالى لم يجعله في بلاد الكفر . و ما منه شيء إلّا في بلد الإسلام . و ما قد وصل إليه الإسلام . كذا في الجمان في تشبيهات القرآن ص١٠١ لأبي القاسم عبد الله بن محمد المعروف بابن ناقيا البغدادي المتوفّى ٤٨٥هـ .

و من هذا الباب في المكروهات قوله تعالى : وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ . قيل : الشجرة الخبيثة "الحنظل" . و ليست بأخبث من الكلمة الخبيثة

المفضية إلى جهنم ، بل هي مستكرهة نوع استكراه . و هذا القدر يكفي لتشبيه الكلمة الخبيثة بها . قال ابن ناقيا في كتابه الجمان : و العرب تضرب المثل بمرارة الحنظل و خبث طعمه فيقولون : هو أمرّ من الشري . و الشري الحنظل . كما يقولون : أحلى من الأري . و هو العسل . قال الشاعر يصف رجلاً فجمع التشبيه بالمستكره و المستحسن :

وَ لَهُ طَعْمَانِ أَرْيٌ وَ شَرْيٌ   و كِلاَ الطَّعْمَيْنِ قد ذَاقَ كُلُّ

أي قد ذاق كلّ من عرف هذا الرجل من خيره و شرّه . المقصود من ذلك ما ذكرنا و إلاّ فخير الرجل و حسناته أعلى شأنًا من العسل ، و شرّه أقبح و أمرّ من الحنظل . و يقولون : كأنّه صراية . و الصراء الحنظل أيضًا و كذلك الهبيد . قاله أبوعبيد . و قيل : الهبيد حبّ الحنظل . و منه قول الشاعر يذكر الحرب :

و ضَرْبِ الجَمَاجِمِ ضَرْبَ الأَصَمْـــــمِ حَنْظَـلَ رامَةَ يَجني هَبِيدًا

"رامة" موضع ، و " ضرب الأصمّ " الضرب المسلسل ، و المعنى : أنّ أصوات وقع السيوف على جماجم الأعداء كأصوات ثمر الحنظل حين يضرب . نظر في التشبيه إلى كراهية حالة المشبّه به ، لا لكون هذه الحالة أشدّ من حالة وقع السيوف على الجماجم في الحرب .

و من هذا الباب ما قال النبي ﷺ : مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ، طيب طعمها ذكي ريحها . و مثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة ، مرّ طعمها كريه ريحها . أخرجه النسائي و ابن ماجه بألفاظ متقاربة .

و من هذا الباب قوله عزّوجلّ : وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَ سَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا . "المهل "كل شيء أذيب حتى انماع . قاله ابن مسعود رضي الله عنه . و قيل : هو دردي الزيت . قاله ابن عباس رضي الله عنهما . و روى سعيد بن جبير رحمه الله تعالى : هو الذي قد انتهى حره . كما في قوله تعالى : وَ سُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ . فشبّه ماء أهل جهنّم بالمهل لكون المهل مما يستكره شربه و يتعذر تجرّعه . و لذا بيّن ذلك بقوله " يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ " و إن كان ماء أهل جهنم أحرّ و أشدّ إيلامًا .

و منه تشبيه ليلة سوداء بقلب الكافر في الاسوداد لكن لا في نفس السواد ، إذ لم ير أحد سواد

قلب كافر حتى يشبّه به الليلة و يدّعى أنّه أشدّ سوادًا منها . و إنّما ثبت ذلك بإخبار النبي ﷺ ، بل في ذلك مع كونه قبيحًا يتنفر منه . قال الطائي :

في ليلةٍ فيها السماءُ مُلِمّـةٌ سَوْداءُ مُظْلِمَةٌ كَقَلْبِ الكافرِ

و **منه** ما أنشد ابن ناقيا البغدادي في الجمان و لم يسمّ قائلًا :

أَأُمَّ أَبانٍ قُلْتِ أَمْسِ كُلَيْمَةً خِلاسًا كَنَبْتِ الْبَانِ في الشَّبَهانِ

حيث شبه فيه الكلمة بالبان و هو شجر . و وجه الشبه ما ذكرنا ، لا كون البان أعلى من الكلام و الكلمة .

الباب الثامن والستون
في الجواب الحادي والسبعين

هذا ما ذكره كثير من المحدثين . و خلاصته أنّ هذا التشبيه يؤول إلى أنّ نبينا ﷺ أفضل من إبراهيم عليه الصلاة والسلام . لأنه عليه الصلاة والسلام كان حبيبًا من قبل . ثم سأل الله تعالى لنفسه مقام الخلّة الإبراهيمية . و استجاب الله تعالى الدعاء . فصار خليلاً كما كان حبيبًا . و أمّا إبراهيم عليه الصلاة والسلام فلم يكن إلّا خليلاً .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح : إنّ المراد أن يجعله خليلاً كما جعل إبراهيم و أن يجعل له لسان صدق كما جعل لإبراهيم مضافًا إلى ما حصل له من المحبة .

و يرد عليه أنّه لو كان كذلك لغير صفة الصلاة بعد ما حصل له مقام الخلّة . و قربه بعضهم بأنّه مثل رجلين يملك أحدهما ألفًا و يملك الآخر ألفين . فسأل صاحب الألفين أن يعطى ألفًا أخرى نظير الذي أعطيها الأوّل . فيصير المجموع للثاني أضعاف ما للأوّل . انتهى مع زيادة توضيح .

ثم بين هذا الجواب و بين الذي في الباب الأوّل فرق واضح يعلم بأدنى تدبّر و تفكّر . و محصول الفرق أنّ هذا الجواب مبنيّ على الفرق بين المحبّة و الخلّة ، و أنّهما مرتبتان مختلفتان ، و أنّ مرتبة المحبة أعلى من مرتبة الخلّة كما يدلّ عليه مثال الألف و الألفين ، و أنّ مرتبة المحبّة كانت حاصلة له عليه الصلاة والسلام دون مرتبة الخلّة . فسأل النبي عليه الصلاة والسلام مرتبة الخلّة ليحوز المقامين . و لعلّ مرتبة الخلّة لا تقع في طريق السلوك إلى مرتبة المحبة . فلا يرد أنّ حصول مرتبة المحبة التي هي أعلى تستلزم حصول مرتبة الخلّة التي هي أدنى . بخلاف الجواب المذكور في الباب الأوّل حيث لا يبنى على هذا . و الله أعلم .

فصل
في مباحث الخليل و الحبيب

هذه بدائع اللطائف و لطائف البدائع و أسرار مكنونة ألهمنيها ربّي . لن تراها مجموعة في كتاب آخر . فأقول : ههنا بحثان :

الأوّل في مأخذ الخليل . و فيه أقوال :

الأوّل : هو فعيل بمعنى فاعل . و قيل : بمعنى مفاعل ، مشتقّ من الخلّة بضمّ الخاء من الخلال بكسر الخاء . فإنّها مودّة تتخلل النفس و تخالطها مخالطة معنوية ، أو لأنّ كلّ خليل يدخل خليله خلال منزله كأنّه من المحارم . قال الشاعر :

قد تخلَّلْتَ مسلَكَ الرُّوحِ مِنّي ... ولذا سُمِّيَ الخلِيلُ خَلِيلاَ
فإذا ما نطقتُ كنتَ حديثي ... و إذا ما سكتُّ كنتَ الغليلاَ

الثاني : من الخلّة بالضم من الخلل ، لأنّ خليلك يسدّ خللك و يصلحه .

الثالث : من الخلّ بالفتح و هو الطريق في الرمل ، لأنّه يسايرك في طريقك و يوافقك فيه .

الرابع : من الخلّة بالفتح بمعنى الحاجة ، لأنّ كل واحد من الخليلين محتاج إلى وصال الآخر غير مستغن عنه ، و لانقطاع خليل الله إلى ربّه و قصر حاجته عليه . و لذا وصف به إبراهيم عليه الصلاة والسلام حيث قصر حاجته على ربّه حين جاءه جبريل عليه السلام و هو في المنجنيق ليرمى به في النار . فقال له : ألك حاجة ؟ فقال : أمّا إليك فلا .

الخامس : من الخلّة بالفتح بمعنى الخصلة لتوافقهما في الأخلاق . و لذا قيل :

عن المرءِ لا تسأَل و سَلْ عن خليلِه ... فكلُّ خليلٍ بالخليلِ يقاسُ

و روى أبو هريرة رضي الله عنه مرفوعًا : الرجل على دين خليله . فلينظر أحدكم من يخالل . رواه أبوداود و الترمذي . و حسنه الترمذي .

السادس : من الخلّة بكسر الخاء . نبت تستحليه الإبل . و في الأمثال : الخلّة خبز الإبل و الحمض فاكهتها .

السابع : من الخلّة بالفتح و الضم لغة الصداقة كما في المصباح .

ثم في بعض تلك المآخذ كلام . قال الواحدي : إنّ الله خليل محمد ﷺ و محمد ﷺ خليل الله . ولا يجوز أن يقال : الله تعالى خليل محمد ﷺ من الخلّة بالفتح التي هي الحاجة .

فصل

البحث الثاني في الفرق بين الخليل و الحبيب

اعلم : أنّه اختلف هل درجة الحبيب أرفع أو الخليل قولان . و الثالث أنّهما سواء .

و القول الأوّل اختاره كثير من العلماء و الصوفية منهم العارف ابن أبي جمرة في بهجة النفوس و الشيخ أحمد المجدد للألف و كثير من الصوفية .

و تمسّكوا بوجوه :

الأوّل : أخرج الترمذي و ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جلس ناس من أصحاب النبي ﷺ ينتظرونه . فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون . فسمع حديثهم و إذا بعضهم يقول : إنّ الله اتخذ من خلقه خليلاً فإبراهيم خليله . و قال : ماذا بأعجب من أن كلم الله موسى تكليمًا . و قال آخر : فعيسى روح الله و كلمته . و قال آخر : آدم اصطفاه الله تعالى . فخرج عليهم فسلّم فقال : قد سمعت كلامكم و عجبكم أنّ إبراهيم خليل الله ، و هو كذلك ، و موسى كليمه و عيسى روحه و كلمته و آدم اصطفاه الله ، و هو كذلك . ألا و إنّي حبيب الله تعالى ولا فخر . و أنا أوّل شافع و مشفّع ولا فخر . و أنا أوّل من يحرّك حلق الجنة فيفتحها الله تعالى . الحديث .

و الثاني : ما أخرج الترمذي في نوادر الأصول و البيهقي في الشعب و ضعفه و ابن عساكر و الديلمي قال : قال رسول الله ﷺ : اتخذ الله تعالى إبراهيم خليلاً و موسى نجيًّا و اتخذني حبيبًا . ثم

قال : و عزّتي لأوثرنّ حبيبي على خليلي و نجيّ .

و الثالث : ما قال الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره : الظاهر من كلام المحققين أنّ الخلّة مرتبة من مراتب المحبّة ، و أنّ المحبة أوسع دائرة ، و أنّ من مراتبها ما لا تبلغه أمنية الخليل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ . و هي المرتبة الثابتة له عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ . و أنّه قد حصل لنبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مقام الخلّة ما لم يحصل لأبيه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ . و في الفرع ما في الأصل و زيادة .

و الرابع : أنّ التخلق بأخلاق الله الذي هو من آثار الخلّة عند أهل الاختصاص أظهر و أتمّ في نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منه في إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ . فقد صحّ أنّ خلقه القرآن . و عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه قال : بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق . و قال تعالى : إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ . قاله الآلوسي وغيره .

و الخامس : ما قالوا : إنّ الحبيب وصل بلا واسطة بخلاف الخليل . قال تعالى في حق نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ . و قال في حق إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ : وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . و الخليل قال في المحنة : حسبي الله . و الحبيب قيل له : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ . و الخليل قال : وَ ٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ . و الحبيب قيل له : وَ رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ .

و السادس : أنّ مادة الحب تحوي سرًّا لطيفًا لا تبلغه مادة الخلّة . و هو أنّهم وضعوا للحبّ حرفين مناسبين للشيء غاية المناسبة الحاء التي هي من أقصى الحلق و الباء للشفة التي هي نهاية المخارج . فللحاء الابتداء و للباء الانتهاء . و هذا شأن المحبة و تعلقها بالمحبوب . فإنّ ابتداءها منه وانتهاءها إليه . و أيضًا فيه إشارة إلى أنّ المحبّ ابتداءه و انتهاءه و أوّله و آخره يجب أن يكون مملوكًا للحبيب تابعًا له . كذا قال المجد الفيروز آبادي في كتابه بصائر ذوي التمييز .

و فيه : و أعطوا الحُبّ الضم التي هي أشدّ و أقوى مطابقة لشدّة حركة مسمّاه و قوّتها ، و أعطوا الحِبّ و هو المحبوب حركة الكسر لخفّتها عن الضمة . و ذلك لخفة ذكر المحبوب على قلوبهم و ألسنتهم مع إعطائه حكم نظائره كنهد و ذبح للمنهود ، و هو ما تخرجه الرفقة في السفر من النفقة على السوية و المذبوح و حمل للمحمول .

و السابع : مأخذ الحبّ باعتبار معناه قرينة على أنّه أقوى من الخلّة و آخذ بالقلب و أعلق به .

فإنّ الحبيب كما قيل مأخوذ من الحبّة و هي خالص كل شيء . و قيل : من حبب الأسنان و هو صفاء بياضها و نضارتها . فالمحبّة صفاء المودّة . و قيل : من الحباب و عليه فهي غليان القلب و ثورانه عند العطش إلى لقاء المحبوب . انتهى .

قال صاحب القاموس في بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : و هذه المادة تدور في اللغة على خمسة أشياء :

أحدها : الصفاء و البياض . و منه قيل : حبب الأسنان لبياضها و نضارتها .

الثاني : العلو و الظهور . و منه حبب الماء و حبابه و هو ما يعلوه من النفاخات عند المطر و حبب الكأس منه .

الثالث : اللزوم و الثبات . و منه حب البعير و أحب إذا برك فلم يقم .

الرابع : اللباب و الخلوص . و منه حبة القلب للبّه و داخله . و منه الحبة لواحدة الحبوب . إذ هي أصل الشيء و مادّته و قوامه .

الخامس : الحفظ و الإمساك . و منه حب الماء للوعاء الذي يحفظ فيه و يمسكه . و فيه معنى الثبوت أيضًا . ولا ريب أنّ هذه الخمسة من لوازم المحبة . فإنّها صفاء المودّة و هيجان إرادة القلب و علوّها و ظهورها منه لتعلّقها بالمحبوب المراد و ثبوت إرادة القلب للمحبوب و لزومها لزومًا لا تفارق ، و لإعطاء المحب محبوبه لبّه و أشرف ما عنده و هو قلبه ، و لاجتماع عزماته و إراداته و همومه على محبوبه فاجتمعت فيها المعاني الخمسة . انتهى .

و القول الثاني اختاره ابن القيم في كتابه الجواب الكافي وغيره من الكتب و الغزالي في إحياء العلوم و الزركشي و مجد الدين صاحب القاموس وغيرهم .

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في جلاء الأفهام : و الخلّة هي كمال المحبة . و هي مرتبة لا تقبل المشاركة و المزاحمة . و كان أي إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد سأل ربّه أن يهب له ولدًا صالحًا . فوهب له إسماعيل . فأخذ هذا الولد شعبة من قلبه . فغار الخليل على قلب خليله أن يكون فيه مكان لغيره امتحنه بذبحه ليظهر سرّ الخلّة في تقديمه محبة خليله على محبة ولده . فلمّا استسلم لأمر ربّه و عزم على فعله و ظهر سلطان الخلّة في

الإقدام على ذبح الولد إيثارًا لمحبة خليله على محبته فسخ الله ذلك عنه و فداه بذبح عظيم . لأنّ المصلحة في الذبح كانت ناشئة من العزم و توطين النفس على ما أمر به . فلمّا حصلت هذه المصلحة عاد الذبح نفسه مشقة . فنسخ في حقه . فصارت الذبائح و القرابين من الهدايا و الضحايا سنة في أتباعه إلى يوم القيامة . انتهى بلفظه .

و قال في كتابه الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي عند بيان مراتب المحبة : ثم الخلّة و هي تتضمن كال المحبة و نهايتها بحيث لا يبقى في القلب سعة لغير محبوبه . و هي منصب لا يقبل المشاركة بوجه . و هذا المنصب خاصّة للخليلين عليهما الصلاة والسلام إبراهيم و محمد . كما قال عليه الصلاة والسلام : إنّ الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً .

وفي الصحيح عنه : لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً و لكن صاحبكم خليل الله .

و في حديث آخر : أنّي أبرأ إلى كلّ خليل من خلّته . و لمّا سأل إبراهيم عليه الصلاة والسلام الولد فأعطيه . فتعلق حبه بقلبه غار الله فأمره بذبحه . و كان الأمر في المنام ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاءً و امتحانًا . انتهى بحذف .

ثم قال : و أمّا ما يظنه بعض الظانّين أنّ المحبة أكمل من الخلّة و أنّ إبراهيم خليل و محمد حبيب الله فمن جهله أتى . فإنّ المحبة عامة و الخلّة خاصة . و الخلّة نهاية المحبة . و قد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم : أنّ الله اتخذه خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً . و نفى أن يكون له خليل غير ربّه مع إخباره بحبّه لعائشة و لأبيها و لعمر بن الخطاب و غيرهم رضي الله عنهم . و أيضًا فإنّ الله سبحانه يحب التوّابين و يحب المتطهّرين و يحب الصابرين و يحب المحسنين و يحب المتّقين و يحب المقسطين . و الخلّة خاصة بالخليلين عليهما الصلاة والسلام . و الشاب التائب حبيب الله . و إنّما هذا من قلّة العلم و الفهم عن الله و رسوله صلى الله عليه وسلم . انتهى بحروفه .

و قال الغزالي رحمه الله تعالى في الجزء الثاني من إحياء العلوم : و كذلك الصداقة تتفاوت . فإنّها إذا قويت صارت أخوة . فإن ازدادت صارت محبة . فإن ازدادت صارت خلّة . و الخليل أقرب من الحبيب . فالمحبة ما تتمكن من حبة القلب . و الخلّة ما تتخلل سرّ القلب . فكلّ خليل حبيب و ليس

كلّ حبيب خليلاً . و تفاوت درجات الصداقة لا تخفى بحكم المشاهدة و التجربة .

فأمّا كون الخلّة فوق الأخوّة فمعناه أنّ لفظ الخلّة عبارة عن حالة هي أتمّ من الأخوّة . و تعرفه من قوله عليه الصلاة و التسليم : لو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً و لكن صاحبكم خليل الله . متّفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . إذ الخليل هو الذي يتخلل الحبّ جميع أجزاء قلبه ظاهرًا و باطنًا و يستوعبه .

و لم يستوعب قلبه عليه الصلاة والسلام سوى حبّ الله . و قد منعته الخلّة عن الاشتراك فيه . مع أنّه اتخذ عليًّا رضي الله عنه أخًا فقال : عليّ مني بمنزلة هارون من موسى إلّا النبوة . فعدل بعليّ عن النبوة كما عدل بابي بكر عن الخلّة . فشارك أبو بكر عليًّا رضي الله عنهما في الأخوّة . و زاد عليه بمقاربة الخلّة و أهليته لها . لو كان للشركة في الخلّة مجال فإنّه نبه عليه بقوله : لاتخذت أبابكر خليلاً . و كان صلى الله عليه وسلم حبيب الله و خليله .

و قد روي أنّه صعد المنبر يومًا مستبشرًا فرحًا فقال : إنّ الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً . فأنا حبيب الله و أنا خليل الله . رواه الطبراني من حديث أبي أمامة رضي الله عنه بسند ضعيف دون قوله "فأنا حبيب الله و أنا خليل الله" . فإذا ليس قبل المعرفة رابطة ولا بعد الخلّة درجة و ما سواهما من الدرجات بينهما . و قد ذكرنا حق الصحبة و الأخوة . و يدخل فيهما ما وراءهما من المحبة و الخلّة . و إنّما تتفاوت الرتب في تلك الحقوق كما سبق بحسب تفاوت المحبة و الأخوة حتى ينتهي أقصاها إلى أن يوجب الإيثار بالنفس و المال كما آثر أبو بكر رضي الله عنه نبينا صلى الله عليه وسلم . انتهى بزيادة تخريج الحديثين من العراقيّ رحمه الله تعالى .

فصل

قال العبد الضعيف الروحاني البازي : القول الحق عندي أنّ الخلّة و إن كانت قسما من أقسام المحبة عاليًا لكنها لغةً أمر وسيع للمشاركة فيه مجال . و أمّا عدم سعتها و ضيق دائرتها فهو أمر شرعيّ باعتبار أخذ منتهى الخلّة و إرادة غايتها . و كلّ شيء وسيع إذا أخذ باعتبار منتهاه و غايته ضاق أمره بحيث لا يتحقق فيه مجال الاشتراك .

فقوله عليه الصلاة والسلام " لو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً و لكن صاحبكم خليل الله " متفق عليه ، مبنيّ عندي و الله أعلم بإرادة الخليل الأكبر و أخذ منتهى الخلّة بوجوه :

منها : إضافته إلى الله تعالى حيث قال "لكن صاحبكم خليل الله" . إذ الأنسب الأليق بشأن الله أكمل الخلّة و أسنى المحبة .

ومنها : تنكير قوله " خليلاً " في قوله " لو كنت متخذًا خليلاً " الدال على غاية التعظيم .

ومنها : أنّ قوله " خليلاً " و كذا قوله " خليل الله " مطلق . و قد ثبت في كتب الأصول أنّ المطلق إذا أطلق يراد به الفرد الكامل . فالمقصود هنا الفرد الأكمل للخلّة و المسمّى الأفضل للخليل .

ومنها : أنّ قوله " لو كنت متخذًا خليلاً إلخ " يدلّ على أنّ المنفيّ عن غير الله تعالى إنّما هو اتخاذ الخلّة لا نفس الخلّة . و فرق بين اتخاذ الشيء و بين الشيء نفسه .

ألا ترى أنّ الصلاة خلف إمام فاجر جائزة إذا اتفقت لك في بعض الأوقات . و أمّا اتخاذ الفاسق إمامًا و تقريره مستقلاًّ على هذا المنصب الجليل فلا يجوز ولا يناسب .

و ألا ترى أنّ المؤذن الذي يأخذ على أذانه أجرة إذا أذّن صحّ أذانه ولا يجوز اتخاذ مثل هذا الرجل مؤذّنًا لما روى عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه قال : إنّ آخر ما عهِد إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن اتخذْ مؤذنًا لا يأخذ على أذانه أجرًا . أخرجه الترمذي و حسنه .

و ألا ترى إلى ما روى ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا : صلوا في بيوتكم ولا تتخذوها قبورًا . أخرجه الترمذي و قال : حسن صحيح . فنهى عليه الصلاة والسلام عن اتخاذ البيوت قبورًا و دفن الموتى فيها على ما هو أحد القولين في معنى الحديث ، لا عن نفس القبور . فلا يجب نبش قبر كان في البيت .

و هكذا حكم الخليل فهو و إن قبل الاشتراك و الكثرة لغةً لكن لا ينبغي للمؤمن الكامل أن يتخذ خليلاً و حبيبًا غير الله .

ومنها : أنّ هذا حديث مرض وفاته صلى الله عليه وسلم . قاله في آخر خطبة خطبها . و المؤمن الكامل في أمثال هذه المواطن مواطن سياقة الموت و سفر لقاء الله يليق بشأنه أن يتبرّأ عن خلّة كلّ خليل غير الله

و يستخلص قلبه عن علاقة كلّ حبيب غيره تعالى ، و أن يظهر إخلاصه بتفريد المحبة و الخلّة له تعالى .
هذا ما هو الأليق بشأن عامة المؤمنين من الأمّة ، فما ظنّك بسيّد الأنبياء و هو في مرض موته .

فهذا الحديث يتضمن تعليم الأمّة و ترغيبهم في خلّة الله و محبته بغير مشاركة في مواطن الموت . فانتفاء مجال المشاركة في الخليل إنّما هو بهذا المعنى . و هو أمر شرعي و حكم إلهي من قبيل الترغيب في أمور الآخرة و الزهد في أمور الدنيا و محبة المخلوق ، و من باب إظهار الإخلاص في محبة الله ، لاسيما في سياقة الموت و أخذ غاية الخلّة . لكن لا يختصّ هذا الحكم بالخليل ، بل الحبيب أيضًا بهذا المعنى لا يحتمل الاشتراك .

و يؤيده ما قال الإمام الغزالي في الباب الثامن من كتاب ذكر الموت من كتب الإحياء : إنّ النبي ﷺ لم يخلف دينارًا ولا درهمًا ، ولم يتخذ حبيبًا ولا خليلاً . نعم ، قال : لو كنت متخذًا لاتخذت أبابكر خليلاً ، و لكن صاحبكم خليل الرحمن . فبيّن أنّ خلة الله تخللت باطن قلبه وأنّ حبّه تمكن من حبة قلبه . فلم يترك فيه متسعًا لخليل ولا حبيب . انتهى كلامه . فقوله " ولا حبيب " وقوله " و لم يتخذ حبيبًا " يدلّ على أنّ الحبيب مثل الخليل في هذا الاعتبار .

فقوله عليه الصلاة والسلام " لو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً و لكن صاحبكم خليل الله " بمعنى : لو كنت متخذًا حبيبًا لاتخذت أبا بكر حبيبًا و لكن صاحبكم حبيب الله . فكلا القولين يؤدي مؤدى واحدًا .

و إنّما خص الخليل بالذكر في هذا الحديث دون الحبيب إظهارًا لكمال الإخلاص ، و إشارةً إلى ما هو القسم الكامل من أنواع المحبة ، لما تقدم أنّ الخلّة درجة عالية من درجات المحبة و إن كانت هذه الدرجة ذات سعة في أصل اللغة ، و حفظًا لآلاف أحاديثه التي حدثها منذ نبئ إلى مرض الوفاة حيث أخبر فيها بحبّ الخلفاء الأربعة و بحبّ أزواجه و بحبّ زيد و أسامة و بحبّ الأنصار و المهاجرين و جميع الصحابة و غيرهم .كما لا يخفى على المتفحص للأحاديث . و حبّ كلّ هؤلاء حق شرعًا ثابت إلى حين وفاته و إلى يوم القيامة و ما بعده .

فلو تبرّأ عن حبّ كلّ حبيب و قال " لو كنت متخذًا حبيبًا إلخ " لأورث الشبهة . إذ هذا و إن

كان حقًّا باعتبار أخذ منتهى المحبة كما تقدّم لكنه نظرًا إلى ظاهر لفظ الحبيب أوهم نقض جميع أحاديثه و فسخ كلّ عزائمه الكثيرة منذ زمن النبوة و إخراج الصحابة عن آخرهم من دائرة محبة النبي ﷺ ، مع كون هذا خلاف مراده عليه الصلاة والسلام .

و أيضًا لو ذكر الحبيب بدل الخليل لتطرق به الروافض إلى مزعوماتهم من سبّ الصحابة رضي الله عنهم ، و لزعموا أنّ الصحابة و إن كانوا أحبة النبي ﷺ لكنّهم أخرجوا في آخر الوقت من بين دائرة المحبة متمسكين بهذا الحديث حديث مرض الوفات .

فلهذا لم يقل عليه الصلاة والسلام " لو كنت متخذًا حبيبًا لاتخذت أبا بكر حبيبًا إلخ " و إن كان مآل لفظ الحبيب و الخليل واحدًا . و لم يكثر استعمال لفظ الخلّة و مشتقاته في الصحابة كثرة استعمال لفظ المحبة و مشتقاته حتى يوهم خلاف المراد و نقض الأحاديث الماضية .

ومنها : أنّه عليه الصلاة والسلام قال " لكن صاحبكم خليل الله " و لم يقل " لكن خليلي الله " مع أنّ القول الثاني هو الأنسب الأربط بالجملة السابقة وهي " لو كنت متخذًا خليلاً " كما لا يخفى على من ألقى السمع و هو شهيد ، إشارة إلى علّة أخرى للتبرّي عن كل خليل في المخلوق .

حاصل العلة أنّه لما أنّ الله اتخذني خليلاً و خصّصني بذلك حيث لم يتخذ أحدًا غيري خليلاً في زماني و حياتي حق لي أيضًا أن أخصّصه تعالى بالخلّة القصوى و المحبة العُليا كفاء لمنّه و شكرًا لإنعامه ، و أن لا اتخذ غيره تعالى خليلاً كامل الخلّة . ولو كنت متخذًا غيره خليلاً لكان أبا بكر رضي الله عنه .

و بعيد عن شأن المؤمن الكامل لاسيما سيّد الرسل عليهم الصلاة والسلام أن يفرده الله سبحانه بالخلّة الكاملة و المحبة العالية و هو لا يفرده تعالى بالمحبة التامّة و بالخلّة العالية ، بل يحبّ أحدًا غير الله تعالى كحبه لله تعالى .

ومنها : أنّه جاء الحديث في بعض الروايات هكذا : ألا إنّي أبرأ إلى كل خليل من خلّته . أخرجه ابن ماجه وغيره . فقوله " كلّ خليل " دليل بيّن على إثبات كثرة الأخلاء له ﷺ . ثم نفى خلّتهم بقوله " أبرأ " إشارة إلى إرادة الخلّة الكاملة التامّة الواصلة إلى الغاية أي باعتبار منتهاها . فالنفي و الإثبات كلاهما صحيحان . فالخلّة باعتبار المنتهى منفية عن جميع الناس و مختصة به تعالى و تبارك . و أمّا نفس الخلة

فثابتة لغير الله تعالى أيضًا . وله عليه الصلاة والسلام بهذا الاعتبار أخلاء كثيرون كما أشار إلى ذلك بقوله "كلّ خليل " . و لو كانت الخلّة مطلقًا مختصةً به تعالى لقال عليه الصلاة والسلام " ألا إنّي أبرأ إلى كلّ رجل إلخ " بدل "كلّ خليل " .

فإن قيل : إنّه عليه الصلاة والسلام إنّما علم في هذا الوقت وقت مرض الوفات أنّ الخلّة مطلقًا مختصة بالله تعالى ، فلذا تبرأ بعد العلم عن خلّة كلّ خليل . و أمّا قبل هذا فقد اتخذ من الناس أخلاء .

قلت أوّلاً : هذا بعيد كلّ البعد . ولا يناسب شأنه الفخيم أن لا يعلم سائر عمره هذا الحكم .

و ثانيًا : أنّ دعوانا على التسليم أيضًا ثابتة و هي أنّ الخليل لغةً يحتمل التعدد . لأنّ قوله عليه الصلاة والسلام "كلّ خليل " بلفظ "كلّ " الدال على الكثرة قرينة بيّنة على ثبوت تعدّد الأخلاء له عليه الصلاة والسلام في الناس .

فإن قلت : فعلى هذا يقع التدافع بين كلامي رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث واحد . فإنّ قوله عليه الصلاة والسلام " ألا إنّي أبرأ إلى كلّ خليل إلخ " دلّ على تكثير الأخلاء . و قوله " لو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبابكر " دلّ على توحيد الخليل و هو أبو بكر رضي الله عنه .

قلت : نعم ، و هذه معضلة ولا أبا حسن لها . لا تدفع إلّا بما ادّعينا . وهو أنّ نفس الخلّة و مطلقها تطلق لغةً على الكثيرين لسعة دائرة معناها . و على هذا الاعتبار ينبني قوله "إنّي أبرأ إلى كلّ خليل" بذكر لفظ "كل " . و أمّا باعتبار إرادة غايتها و منتهاها فهي تقتضي التوحيد . ولا يكون على هذا لرجل واحد إلاّ خليل واحد . و صرّح النبي عليه الصلاة والسلام : أنّ ذلك الفرد الكامل فيما سوى الله هو أبو بكر رضي الله عنه .

فالفرد الأكمل مطلقًا هو الله تعالى . و الفرد الأكمل في الأمّة هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه . فاندفع التعارض و انحلت المعضلة . ولله الحمد و المنّة .

هذه وجوه سبعة تؤيد ما نمقنا من قبل أنّه عليه الصلاة والسلام حاول في حديث مرض وفاته بالنفي و الإثبات و توحيد الخليل الخلّة الكبرى و الغاية العليا . ولا مجال فيها للاشتراك لا مطلق الخليل كما ظنّ بعض العلماء المدققين . ثم فرّع على ظنّه أنّ مطلق الخلّة اسم للحال التي لا مجال للمشاركة فيها . ثم بنى على هذا الظن و التفريع أنّ الخليل أعلى كعبًا من الحبيب و الخلّة أسنى من المحبة . فإنّ المحبة عامّة و الخلّة

خاصّة و نهاية للمحبة .

فقوله " إنّ الخلّة نهاية المحبة " مسلّم ، و أمّا دعواه أنّها لا تحتمل الاشتراك فلا تصح ، لأنّ الخلّة نهاية نوعية و وحدتها وحدة نوعية . لها عرض عريض و شأن وسيع يصدق على كثيرين صدق الكلّيّ على أفراده .

فقصر النبي عليه الصلاة والسلام للخليل على فرد واحد كأنّه من قبيل قصر البيت على بيت الله و المدينة على مدينة رسول الله و الحديث على حديث النبي عليه الصلاة والسلام . و كلّ واحد من البيت و المدينة و الحديث جنس كلّيّ له أفراد كثيرة . و النحاة يسمّون هذا علمًا بالغلبة . و يقابله العلم بالوضع . فالعلم بالغلبة ، و يسمّى العلم بالاتفاق أيضًا ، أن يختص الجنس في الاستعمال ببعض أفراده تبجيلاً أو لخاصية يمتاز بها عن جميع الأفراد . و منه ابن عباس لواحد من أبناء عباس رضي الله عنه و هو عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، و منه ابن مسعود رضي الله عنه و النجم و أسماء أيام الأسبوع .كما صرّح به الرضي في بحث المنادى من شرح الكافية .

ففي الحديث إشارة إلى أنّ الخليل و إن كان جنسًا لكن الله هو الأليق بأن يكون خليلي و الأحرى بأن يسمّى لي خليلاً . لأنّه هو الخالق المنعم .

و إن شئت فقل : إنّ قصر الخليل على فرد واحد من قبيل : لا سيف إلّا ذو الفقار ، ولا فتًى إلّا علي (رضي الله عنه) .

و إن شئت فقل : إنّ الخليل و الحبيب مثل الإسلام و الإيمان ، و الفقير و المسكين . إذا اجتمعا افترقا و إذا افترقا اجتمعا .

و إن شئت فقل : إنّ إنكاره عليه الصلاة والسلام من تسمية غير الله خليلاً من باب نهيه عليه الصلاة والسلام عن تسمية العنب كرمًا . فإنّ الكرم قلب المؤمن . روى أبو هريرة رضي الله عنه مرفوعًا : لا يقولنّ أحدكم الكرم . إنّما الكرم قلب المؤمن . و في رواية : لا يقولنّ أحدكم للعنب الكرم . إنّما الكرم الرجل المسلم . رواه مسلم . فالمقصود منه التنبيه على أنّ قلب المؤمن هو الأحرى بإطلاق الكرم لا التحريم . إذ تسمية العنب كرمًا جائزة بالاتفاق .

و من باب نهيه عن تسمية المدينة بيثرب و نهيه عن التسمية بالعبد و الأمة و الربّ . بل

يقول : فتى و فتاة و سيدا . كما أخرج مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا : لا يقولنّ أحدكم عبدي و أمتي كلّكم عبيد الله وكلّ نسائكم إماء الله ، ولكن ليقل غلامي وجاريتي و فتاي و فتاتي . و في رواية زيادة : ولا يقل العبد "ربّي" و لكن ليقل "سيدي" . لم يرد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تحريم تسمية العبد و الأمة و السيد بالعبد و الأمة و الرب لجواز ذلك عند عامّة الأئمة بل أراد أنّ الأليق تسميتهم بالفتى و الفتاة و السيد . و التنبيه على أنّ إطلاق العبد و الأمة و الربّ على هؤلاء ليس بالمعنى الذي يقال فيه : عبد الله ، و أمة الله ، و ربي الله . و الإشارة إلى الفرد الكامل و المصداق الأعلى لكلّ واحد من هذه الأسماء الثلاثة .

فالخليل جنس له أفراد لكن الله هو الخليل الأكبر . فخص به مطلق الخليل إيماءً إلى أنّه لا ينبغي أن يسمّى غيره خليلاً ، كما أنّ البيت جنس لكلّ بيت لكن الكعبة هي البيت الأسنى لا يجاريها بيت ولا يماثلها . فأطلق عليها مطلق البيت و صار لها علما بالغلبة تبجيلاً و تكريمًا . و نظير هذا ما روى الشيخان و غيرهما عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات في بيتي وفي يومي و بين سحري و نحري . و فيه : ثم نصب يده يقول : الرفيق الأعلى ، الرفيق الأعلى . فقلت : إذا والله لا يختارنا . فأظهر البراءة من رفاقة كلّ رفيق ، و اختار الله رفيقًا بإرادة الفرد الأكمل للرفيق . و لذا قيّده بالأعلى . و هكذا المراد في قوله " لو كنت متخذًا خليلاً إلخ " إنّما هو الخليل الأكبر الأعلى بتقدير قيد الأعلى . و القيود تذكر تارة و تقدّر أخرى .

و ههنا نكتة أخرى . و هي أنّ الرفيق لمّا كثر استعماله في الأحاديث النبوية و أطلق على كثير من الصحابة رفيق نبي الله ناسب التصريح بقيد الأعلى دفعًا للشبهات . و لهذا قال : الرفيق الأعلى . ولم يكثر استعمال الخليل و إطلاقه على الصحابة في الأحاديث حتى يحتاج إلى ذكر القيد لدفع الشبهات . فاكتفى فيه بالتقدير . والأمر سهل .

فهذان الخبران عندي متحدان معنًى و مغزًى ، و متوافقان إشارةً و مآلاً . فليس له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رفيق ولا خليل إلاّ الله . ولو كان له رفيق كامل الرفاقة و خليل تامّ الخلّة في المخلوق لكان أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

و في حديث التخيير " أنّ الله خيّر عبدًا فاختار ما عند الله " أراد نفسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فيه التصريح بترك جميع الأمور و فراقها و اختيار ما عند الله . ولا يستلزم ذلك أن لا يكون في اختيار المؤمن أو في

مختاره مجال المشاركة . لكن معناه أنّ الأنسب بحال المؤمن لاسيما عند الموت أن يهجر كلّ ما سوى الله و يقلع عن قلبه علاقة كلّ مخلوق خاشعًا منيبًا مختارًا لما عند الله . فهذا هو الاختيار الأكمل الذي لا يماثله اختيار ، و المختار الأفضل الذي لا يضاهيه مختار . و هذا حال عامّة المؤمنين ، فما ظنّك برسول الله حبيب ربّ العالمين .

فالخليل لرسول الله ﷺ على كثرة أفراده لا ينبغي أن يكون غير الله . ولو كان لكان أبابكر رضي الله عنه . و هكذا حال حبيب رسول الله . فحبيبه و خليله في هذا المرام متوافقان كلاهما إذا أخذ باعتبار المنتهى . فهو مقصور على الله تعالى . و الخليل نوع من الحبيب عال ذو سعة في نفس الأمر .

فائدة شريفة

اعلم : أنّا قد سلّمنا في البيان المتقدّم أنّ الخلّة أعلى أنواع المحبة . و هنا فائدة لطيفة أطلعك عليها . فأقول بفضل الله و توفيقه : يخطر بالبال والله أعلم بحقائق الأقوال أنّه لا يبعد أن يكون لمحبة الله مرتبة أو مراتب هي أعلى من مرتبة الخلّة .

و من ذا الذي أحاط بمراتب قرب الله الغير المتناهية ، و من ذا الذي يدعي في مرتبة معينة بالشخص أنّه لا مرتبة للقرب من الله فوقها ، و من يقدر أن يحصي فيدّعي في مقام معيّن شخصيّ أنّه لا مقام لمحبة الله أعلى منه . كما أنّه لا يستطيع أحد أن يحصي و يدّعي في مرتبة مخصوصة شخصيّة من مراتب علم المخلوق أنّها فوق جميع المراتب العلمية ، لا مرتبة أعلى منها . ففوق كلّ ذي علم عليم . و قال الله سبحانه لأعلم مخلوقاته : وَ قُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمًا .

ثم هذا التعذر و التعسر إنّما هو في تعيين المرتبة الشخصية . و أمّا تعيين نوع مرتبة بحيث يكون هو أعلى المراتب نوعًا فلعله غير عسير . كما نعتقد أنّ رتبة نبينا ﷺ أعلى أنواع رتب القرب و المحبة لكن النوع يحتوي على آلاف آلاف مراتب بعضها فوق بعض . يترقّى فيها صاحبها كما يشاء الله و يحبه . و لذا صرّح العلماء المحققون أنّ نبينا ﷺ يترقّى في كلّ يوم و يرتفع في كلّ ساعة إلى مقام فوق مقامه الأوّل و إلى وراء ذلك و وراء الوراء إلى ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى . ولا ندري تلك المقامات كم هي و كيف هي

و أين ينتهي سيره و حتى متى هذا الصعود .

و هنا يبكم العارف و تحوي العقول و تخر القلوب دون الوصول إلى الحقيقة على وجوهها و تكبو الأفكار و تكل الألسنة عن البيان . و ينبغي لنا السكوت و عدم الخوض في تعيين تلك المراتب و عددها . اللّهم آت نبينا مراتب لا تحصى و امنحه مقامات محبة و رفعة لا تنتهي حتى لا يبقى منها مرتبة ولا مقام للمخلوق أعلى من مقامه كما تحب و ترضى . و صلى الله على خير خلقه و على جميع الأنبياء وسلم .

وقد روينا من قبل حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال : جلس ناس من أصحاب النبي ﷺ . و فيه ذكر إبراهيم خليل الله و موسى كليم الله و عيسى روح الله و كلمته عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . و فيه : ألا و إنّي حبيب الله ولا فخر . و أنا أوّل شافع و أوّل مشفّع ولا فخر . و أنا أوّل من يحرّك حلق الجنة فيفتحها الله فيدخلنيها ، و معي فقراء المؤمنين ولا فخر . و أنا أكرم الأوّلين و الآخرين يوم القيامة ولا فخر . أخرجه الترمذي و ابن مردويه .

و يمكن أن يقال : إنّ في هذا الحديث إشارة إلى هذه المرتبة السنية للمحبة التي هي أعلى من مرتبة الخلّة . و قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ " أنا أوّل شافع إلخ " تفصيل نبذة من ثمرات تلك المرتبة . فمن هو حبيب فخليل . فحبيب يشفع و يشفع يوم القيامة . و إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الذي هو حبيب فخليل فقط ، و لم يؤت مرتبة المحبة التي هي فوق الخلّة و إن أوتي مرتبتها التي تنتهي بالخلّة . يقول يوم القيامة : نفسي نفسي . هذا . و العلم عند الله تعالى .

و مثل هذا الحديث قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : اتخذ الله إبراهيم خليلاً و موسى نجيًّا و اتخذني حبيبًا . ثم قال : و عزّتي لأوثرنّ حبيبي على خليلي و نجيّي (عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) . أخرجه ابن عساكر و الديلمي .

أقول نظرًا إلى هذا التحقيق : ليس المراد من الحبيب في هذين الخبرين المقابل للخليل كما هو المتبادر ، بل المراد منه المعنى العام الشامل للمراتب الثلاث الخلّة و التي تحتها و التي فوقها . و الخليل لا يشمل المرتبة التي هي فوق الخلّة . فالحبيب أعمّ مطلقًا من الخليل . و الخليل أخصّ .

إن قيل : الظاهر من الحديث التقسيم المشتمل على الأقسام الثلاثة . فالحبيب قسيم الخليل . و القسيمان متباينان . فكيف يكون أحدهما أعم من الآخر ؟

قلتُ اوّلاً : هب ، إلاّ أنّ لكلّ واحد منهما مصداقاً و مفهومًا . و الحبيب بحسب المصداق أعمّ من الخليل بحسب المصداق . و أمّا مفهوماهما فمتباينان .

إن قيل : هل لذلك شاهد من أقوال المحققين ؟

قلت : نعم ، له شواهد . منها ما قال علماء المعقولات : القضية إن اشتملت على ذكر الجهة تسمّى موجّهة و إلاّ فمطلقة . و قالوا : إنّها أعمّ من المَوَجّهة لعموم المطلق من المقيد .

قال المحقق حمد الله في شرح تصديقات سلّم العلوم لمحب الله البهاري : إنّ توهّم أنّهما قسمان فيكونان متباينين فكيف يكون إحداهما أعمّ من الأخرى . فيقال لكلّ منهما مفهوم و مصداق . و المطلقة بحسب المصداق أعمّ من الموجّهة بحسب المصداق . و التباين إنّما هو بين مفهوميهما . انتهى .

و ثانيًا : ليس هذا تقسيمًا حقيقيًّا لعدم تحقق التقابل و التباين بين الأقسام المذكورة فيه لإجماع الأمّة على اجتماع البعض مع البعض . فقد أجمعوا على أنّ نبينا ﷺ كليم الله و حبيب الله و خليل الله ، و أنّ إبراهيم حبيبه و خليله و موسى حبيبه و كليمه و عيسى روحه و حبيبه عليهم الصلاة والسلام . بل كلّ نبي حبيب الله حقًّا ، إلاّ أنّ الفائز على جميع مراتب المحبة ليس إلاّ نبينا ﷺ .

فائدة

في حديث الشفاعة الكبرى على ما رواه حذيفة رضي الله عنه : أنّ الخليل أي إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال : لست بصاحب ذلك . إنّما كنت خليلاً من وراء وراء .

فهذا الحديث يحتمل معاني :

الأوّل : أنّ فيه إشارة إلى المراتب المتعددة في الخلّة . أي لم أكن في مدارج الخلّة و الإدلال بمنزلة خلّة محمد ﷺ . و إنّما كنت خليلاً من وراء وراء الخليل محمد عليه الصلاة والسلام . و أنّ خلّة محمد مرتفعة عن خلّتي بمرتبتين أو بمراتب . فعلى هذا المعنى الحديث دليل على أنّ الخلّة أمر وسيع ذو مراتب . و لكلّ خليل لله تعالى مرتبة .

و الثاني : أنّ مرتبة الخليل وراء وراء مقام الشفاعة الكبرى و أدنى مما هو أدنى من مقام

الشفاعة ، و أنّ اللائق بهذه الشفاعة صاحب مقام هو أعلى من مقام الخليل . فهذا المعنى دليل على تحقق مرتبة فوق مرتبة الخلّة . و هي أعلى مراتب المحبة .

و بالجملة : مقامات القرب إلى الله لا تحصى و مواهب المعارف لا تتناهى . فلا بعد فيما ادّعينا من تحقّق مراتب الحبّ فوق الخلّة . و يدلّك على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في حديث الشفاعة الكبرى على ما رواه أنس رضي الله عنه : فأستاذن على ربّي فيؤذن لي . فأقوم بين يديه فأحمده بمحامد لا أقدر عليه إلّا أن يلهمنيه الله عزّ وجلّ . و في رواية أبي هريرة رضي الله عنه : فآتي تحت العرش فأقع ساجدًا لربّي . ثم يفتح الله عليّ من محامده و حسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد قبلي .

قال في لطائف المنن في مناقب أبي العباس رحمه الله و شيخه أبي الحسن الشاذلي رحمه الله و فيه : من الفوائد أنّ المعارف لا تتناهى لقوله عليه الصلاة والسلام : لا أقدر عليه . الحديث . و يشهد له قوله عليه الصلاة والسلام : لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك . و يشهد له قوله تعالى : وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا . انتهى .

و قال العارف بالله الإمام السهروردي رحمه الله في عوارف المعارف : و مقدورات الحق تعالى غير متناهية و مواهبه غير متناهية . و لهذا قال بعضهم : لو أعطيت روحانية عيسى و مكالمة موسى و خلّة إبراهيم عليهم الصلاة والسلام لطلبت ما وراء ذلك لأنّ مواهب الله لا تنحصر . و هذه أحوال الأنبياء و لا تعطى الأولياء .

و لكن هذه إشارة من القائل إلى دوام تطلع العبد و تطلبه و عدم قناعته بما هو فيه من أمر الحق تعالى . لأنّ سيّد الرسل صلوات الله و سلامه عليه نبّه على عدم القناعة و قرع باب الطلب و استنزال بركة المزيد بقوله عليه الصلاة والسلام : كلّ يوم لم أزدد فيه علمًا فلا بورك لي في صبيحة ذلك اليوم . و في دعائه عليه الصلاة والسلام : اللّهم ما قصر عنه رأيي و ضعف فيه عملي و لم تبلغه نيّتي و أمنيّتي من خير وعدته أحدًا من عبادك أو خير أنت معطيه أحدًا من خلقك فأنا أرغب إليك و أسألك إيّاه .

فاعلم : أنّ مواهب الله لا تنحصر . و الأحوال مواهب . و هي متصلة بكلمات الله التي ينفد البحر دون نفادها و تنفد أعداد الرمال دون أعدادها . انتهى كلامه .

فصل

قد بان لك من البيان السابق أنّ قول من ادّعى "أنّ الخلّة لا يحتمل الاشتراك" ليس بحقّ . و الحق عندنا أنّها لغة نوع من المحبة ذو سعة قابل للاشتراك . و الآن أزف إلى الإخوان نبذةً من وجوه تؤيّد ما ادّعينا و تسفر عن محيا ما ارتأينا .

فأقول بفضله و توفيقه تعالى : يدلّ على سعة معنى الخلّة لغةً وجوه :

الأوّل : كون نبيّنا و إبراهيم عليهما الصلاة والسلام كليهما خليلين لربّ العالمين . ولو لم يتسع معنى الخليل لغةً لكان أحدهما خليلاً بالمعنى المجازيّ . و ذلك بعيد كلّ البعد . روى الطبراني بسند ضعيف عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعًا : أنّ الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً (عليهما الصلاة والسلام) . و زاد الغزالي في إحياء العلوم : فأنا حبيب الله و أنا خليل الله .

و قال ابن كثير : جاء من طريق جندب بن عبد الله البجلي و عبد الله بن عمرو و عبد الله بن مسعود رضي الله عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إنّ الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً .

و أخرج الحاكم و صحّحه عن جندب رضي الله عنه : أنّه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول قبل أن يتوفّى : إنّ الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً .

و أخرج الطبراني و ابن عساكر عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : إنّ الله اتخذ إبراهيم خليلاً و إنّ صاحبكم خليل الله ، و إنّ محمدًا سيّد بني آدم يوم القيامة . ثم قرأ : عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا .

و الثاني : ثبت في الحديث المرفوع خلّة نبينا صلى الله عليه وسلم لإبراهيم و خلّة إبراهيم له عليهما الصلاة والسلام . كما أخرج الطبراني عن سمرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنّ الأنبياء يوم القيامة كلّ اثنين منهم خليلان دون سائرهم . قال : فخليلي منهم يومئذ خليل الله إبراهيم . ذكره السيوطي رحمه الله تعالى في الدر المنثور .

و الثالث : قد استبان من هذا الحديث وجه ثالث . و هو كون بعض الأنبياء خليلاً لبعض حيث قال : كلّ اثنين منهم خليلان . و معلوم أنّ الله تعالى أيضًا خليل كلّ نبي كما يقتضيه شأنهم الأعلى و مقامهم الأسنى . و هذا يدلّ على سعة مجال الخلّة لغةً .

و الرابع : أطلق رسول الله ﷺ على جبريل في بعض أحاديثه أنّه خليله عليه الصلاة والسلام . فبان منه أنّ الخلّة ذات سعة لغةً . كما أخرج الحاكم و صححه أنّه عليه الصلاة والسلام قال : خرج من عندي خليلي جبريل عليه السلام آنفًا فقال : يا محمد ! و الذي بعثك بالحق أنّ لله تعالى عبدًا من عباده عبد الله عز وجل خمسمائة سنة على رأس جبل في البحر ، عرضه و طوله ثلاثون ذراعًا في ثلاثين ذراعًا . و فيه : فسأل ربّه عند وقت الأجل أن يقبضه ساجدًا . قال : ففعل . فنحن نمرّ عليه إذا هبطنا و إذا عرجنا . الحديث .

و الخامس : ورد في بعض الروايات أنّه عليه الصلاة والسلام قال في آخر خطبة خطبها : أبو بكر صاحبي و مؤنسي في الغار . سدّوا كلّ خوخة في المسجد غير خوخة أبي بكر (رضي الله عنه) . و في لفظ : لا تؤذوني في صاحبي . و لولا أنّ الله سمّاه صاحبًا لاتخذته خليلاً . ألا فسدّوا كلّ خوخة إلّا خوخة ابن أبي قحافة (رضي الله عنه) . ذكره علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي في سيرة النبي .

حاصل المعنى أنّه لولا المانع و هو تسمية الله إيّاه صاحبًا لي لاتخذته خليلاً . و هذا يدلّ على أنّ تكثّر الخليل لشخص واحد لا يمتنع لغةً وإلّا لم يمكن وجه لاتخاذه خليلاً سمّاه الله صاحبًا أو لم يسمّه لتحقّق الخليل الواحد له عليه الصلاة والسلام من قبل و هو الله تعالى .

و السادس : جاء في الحديث كما في السيرة الحلبية وغيرها : لكلّ نبيّ خليل من أمّته و أنّ خليلي أبوبكر ، و أنّ الله اتخذ صاحبكم خليلاً .

و في أسباب النزول للثعالبي رحمه الله تعالى عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إنّ الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) خليلاً ، و أنّه لم يكن نبي إلّا وله خليل . ألا و إنّ خليلي أبوبكر (رضي الله عنه) .

و في رواية الجامع الصغير : أنّ الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) خليلاً ، و أنّ خليلي أبوبكر (رضي الله عنه) .

و في كنز العمّال أخرجه (طب) عن أبي أمامة رضي الله عنه و أخرج أبو نعيم عن أبي هريرة رضي الله عنه : لكلّ نبيّ خليل في أمّته و إنّ خليلي أبوبكر و خليل صاحبكم الرحمن . كذا في كنز العمّال . فجمع فيه بين خلّة أبي بكر و خلّة الله تعالى .

و في كنز العمال أيضًا : ولو كنت متخذًا من الناس خليلاً لاتخذت أبابكر خليلاً و لكن خلّة الإسلام أفضل . سدّوا عنّي كلّ خوخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر . (حم) عن ابن عباس رضي الله عنهما . فأثبت فيه له خلّة الإسلام . فعلم أنّ المنفي عن أبي بكر الخلّة الكبرى باعتبار أخذ غاية الخلّة . والله أعلم .

و السابع : جاء في بعض روايات إغلاق الأبواب زيادة لفظ و هي : قال الناس : أغلق أبوابنا و ترك باب خليله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قد بلغني الذي قلتم في باب أبي بكر . و إنّي أرى على باب أبي بكر نورًا و أرى على أبوابكم ظلمةً . الحديث . فسمّى الناس أبا بكر خليلاً بعد إخباره صلى الله عليه وسلم : لو كنت متخذًا خليلاً إلخ .

و فيه دليل على معرفة الصحابة بأنّ تكثّر الخليل لغةً لا بأس فيه . و بأنّ مراده عليه الصلاة والسلام بالبراءة عن كلّ خليل سوى الله سبحانه البراءة من الخليل كامل الخلّة .

و الثامن : في بعض الأحاديث : و أنّ خليلي عثمان بن عفان . و جاء : لكلّ نبيّ خليل و خليلي سعد بن معاذ . و في رواية الجامع الصغير : خليلي من هذه الأمّة أويس القرني . و في كنز العمّال : أنّ ابن سعد أخرجه عن رجل مرسلاً و أخرج الرافعي عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعًا : لكلّ نبيّ خليل و إنّ خليلي و أخي عليّ (رضي الله عنه) . و لكلّ نبيّ وزير و وزيراي أبو بكر و عمر (رضي الله عنهما) . كذا في كنز العمال .

إن قلت : هذه الأخبار متعارضة . فكيف دفع التعارض ؟

قلت : التقرير الذي نحن بصدد إثباته و توضيحه يدفع التعارض رأسًا . فإنّ مطلق الخليل كالحبيب عامّ لغةً . فأطلق على ما أطلق عليه . و أمّا الخليل الكامل التامّ الخلّة بإرادة منتهى الخلّة و غايتها فليس إلّا الله سبحانه . و هذا تقرير حسن إلى غاية لدفع التعارض .

قال علي بن برهان الدين الحلبي رحمه الله تعالى : و جمع بأنّ الأوّل أي إثبات الخلّة لغير الله محمول على نوع منها ، و نفيها عن غير الله محمول على كمالها . انتهى .

و قال بعض العلماء لدفع التعارض : لعلّ هذا أي إثبات الخلّة لغير الله كان قبل أن يقول صلى الله عليه وسلم في مرض موته قبل موته بخمسة أيّام : إنّي أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل . فإنّ الله قد اتخذني

خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً . ولو كنت متخذًا خليلاً من أمّتي لاتخذت أبا بكر خليلاً .

قلت : لا يخفى ركاكة هذا الجواب .

و التاسع : قول عدة من الصحابة كأبي ذرّ و أبي هريرة رضي الله عنهما عند التحديث "سمعت خليلي" و "أمرني خليلي" و نحو ذلك . و هذا يدلّ على أنّ تكثّر الخليل لغةً كان أمرًا معروفًا عندهم ، و على أنّ مراده عليه الصلاة والسلام بالحصر في قوله " و لكن صاحبكم خليل الله " حصر الخليل الكامل و الحبيب الأعلى تام المحبة . وليس هو إلاّ الله تعالى . ولو لم يكن معنى الخليل وسيعًا لغةً لم يقولوا " سمعت خليلي " مع إشارة النبي صلى الله عليه وسلم بقوله " لو كنت متخذًا إلخ " إلى " أن ليس له خليل في الأمّة " و بقوله " و لكن صاحبكم خليل الله " إلى " أنّه ليس خليلاً لغير الله " بل صرح بالبراءة كما أخرج مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا : ألا إنّي أبرأ إلى كلّ خلّ من خلّه . ولو كنت متخذًا خليلاً إلخ .

أخرج الترمذي عن عديسة بنت أهبان بن صيفي الغفاري رضي الله عنه قالت : جاء علي بن أبي طالب إلى أبي فدعاه إلى الخروج معه . فقال له أبي : إنّ خليلي و ابن عمّك عهد إليّ إذا اختلف الناس أن اتخذ سيفًا من خشب . فقد اتخذته .

و أخرج مسلم بسنده قال أبوذرّ رضي الله عنه : أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم : إذا طبخت فأكثر المرق ثم انظر بعض أهل بيت من جيرانك فاغرف لهم منها .

و في حديث آخر : قال أبوذر رضي الله عنه : أوصاني خليلي عليه الصلاة والسلام بصلة الرحم و إن أدبرت ، و أمرني أن أقول الحق و إن كان مرًّا . أخرجه أحمد و ابن حبان و صححه .

و أخرج أبو نعيم في الحلية بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول : أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم بصوم ثلاثة أيام من كلّ شهر و أن أوتر قبل النوم و بصلاة الضحى فإنّها صلاة الأوّابين .

و أخرج أيضًا أبو نعيم فيها عن أبي هريرة رضي الله عنه : أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم بثلاث : الوتر قبل النوم ، و الغسل يوم الجمعة ، و صوم ثلاثة أيّام من كلّ شهر .

و في الجمان في تشبيهات القرآن : و في الحديث : أنّ رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله سيفًا . فقال

له : لعلّك إن أعطيتك سيفًا أن تقوم في الكيول . فقال : لا والله . فأعطاه سيفًا فجعل يقاتل و يرتجز :

إِنِّي امْرُؤٌ عاهَدَنِي خَلِيلي ‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌ أَنْ لا أَقُومَ الدّهْرَ في الكَيُّولِ

و "الكيول" مؤخر الصفوف . انتهى .

قلت : و في إصابة الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى : أنّ اسم هذا الصحابي هنيدة بن خالد الخزاعي رضي الله عنه . و قال أبو إسحاق : كانت أمّه تحت عمر بن الخطاب رضي الله عنه . و أخرج أبو نعيم من طريق شعبة عن أبي إسحاق : سمعت هنيدة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يأخذ هذا السيف بحقه . فأخذه رجل من القوم فقال :

ع ‌‌‌‌‌‌ أنا الذي عاهدني خليلي

و قاتل به حتى قتل . و قصته تشبه قصة أبي دجانة رضي الله عنه لكن أبا دجانة رضي الله عنه لم يقتل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

و أخرج أبو نعيم في الحلية ج١ ص١٨٥ : أنّ سلمان الفارسي رضي الله عنه لما تزوّج امرأة من كندة . و فيه : فلمّا دخل رأى متاعًا كثيرًا فقال : لمن هذا المتاع ؟ قالوا : متاعك و متاع امرأتك . قال : ما بهذا أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم . أوصاني خليلي أن لا يكون متاعي من الدنيا إلّا كزاد الراكب . الحديث .

و العاشر : لو امتنع الاشتراك في الخليل لوجب على كلّ مؤمن لاسيما الصحابة كاملي الإيمان أن لا يتخذوا من الناس خليلاً غير النبي صلى الله عليه وسلم كما هو مقتضى الإيمان الكامل و مقتضى أمره عليه الصلاة والسلام أن يكون هو أحبّ الناس إليهم ، و لوجب أن لا يطلقوا على غير النبي عليه الصلاة والسلام خليلاً . و قالوا بتحريم ذلك . ولا أقلّ من الكراهة و كونه خلاف الندبة ، و لوجب نقل إنكار السلف نقلاً متواترًا على مرتكبي هذا الأمر الحرام أو المكروه .

و الحال أنّه لم يقل أحد بوجوب ذلك . بل سوغوا عموم إطلاقه على كلّ حبيب و على الزوج و نحو ذلك . و لم ينقل منهم الكراهة و التنزه عن عموم دائرة الخلّة .

و هذه شواهد أطلق فيها السلف الخليل و أرادوا به غير الله تعالى .

أخرج مالك عن عبد الله بن دينار قال : خرج عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الليل فسمع امرأة تقول :

تَطاوَلَ هذا الليلُ و أسودّ جانبُه ... و أرقَني أنْ لا خليل أُلَاعِبُه
فواللّهِ لولا اللّهُ أنّي أراقبُه ... لحُرّكَ مِنْ هذا السريرِ جَوَانِبُه

فسأل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابنته حفصة : كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها ؟ فقالت : ستة أشهر أو أربعة أشهر . فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لا أحبس أحدًا من الجيوش أكثر من ذلك . فهذه المرأة أرادت بالخليل زوجها .

و أخرج أبو نعيم بسنده عن إبراهيم بن أدهم عن بحر السقا البصري حدّثني بعض الفقهاء قال : الحياء خليل المؤمن ، و الحلم وزيره ، و العلم دليله ، و العمل فقهه ، و الصبر أمير جنوده ، و الرفق والده ، و البرّ أخوه . و صوابه العقل قيمته بدل العمل فقهه . انتهى . فأطلق الخليل على الحياء . حليه ج٨ ص٥١ .

و أخرج أبو نعيم في المجلد السادس من الحلية ص٣٢٨ بسنده عن مالك قال : حدّثني من أرضى أنّ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أوصى رجلًا فقال : لا تعترض فيما لا يعنيك ، و اجتنب عدوك ، و احذر خليلك ، ولا أمير من القوم إلّا من خشي الله ، و الأمين من القوم لا تعدل به شيئًا . ولا تصحبن فاجرًا كي تعلم من فجوره . ولا تفش إليه سرّك . و استشر في أمرك الذين يخشون الله .

و الحادي عشر : ما قال جرير يعير بني مجاشع بخذلانهم الزبير بن العوام في كلمة يقول فيها :

إنّي تُذَكِّرُنِي الزُّبيرَ حَمامَةٌ ... تَدْعُوْ بأعْلَى الأيْكَتَيْنِ هَدِيْلَا
قالتْ قريشٌ ما أَذَلَّ مُجاشِعًا ... جارًا و أكرمَ ذا القَتيلَ قَتِيلَا
أفَبَعْدَ متركِكم خليلَ محمّدٍ ... ترجو القُيُونُ مَع الرسولِ سبيلَا

فسمّى هذا الشاعر الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بخليل محمد .

و الثاني عشر : الخليل يجمع على أخلاء و خلّان . و يقولون : هم أخلّائي و خُلّاني . و هذا

يستدعي سعة دائرة الخليل . و لو لم يكن في معناه مجال الاشتراك لم يوجد لجمعه وجه ولا لإضافة جمعه إلى شخص سبيل . إذ الجمع يدلّ على المشاركة و التعدد .

قال إمام اللغة و النحو عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني المتوفّى سنة ٣٢٠هـ في كتابه الألفاظ الكتابية : يقال : القوم أودّاء و أحبّاء و أخلاّء و أصفياء و خُلاّن و أخدان . انتهى . فسوّى بين الأحبّاء و الأصفياء و الأخلاّء .

و قال عبد الله بن محمد المعروف بابن ناقيا البغدادي اللغوي الأديب المشهور المتوفّى ٤٨٥هـ :

أخِلاَّي ، ما صاحبتُ في العيش لذة ‏ ‏ ‏ ولا زالَ عَنْ قلبي حنينُ التذكّرِ
ولا طابَ لي طعمُ الرُّقاد ولا اجتنت ‏ ‏ ‏ لحاظيَ مُذ فارقتكم حُسْنَ منظرِ

و الثالث عشر : الخطاب مع الخليلين و نداؤهما ذائع في أشعار القدماء و المحدثين . و هذه عادة لهم مستمرّة أشهر من "قفا نبك" و من الشمس في رابعة النهار ، و نصّ على أنّ الخلّة ليست اسمًا لمنصب لا يقبل المشاركة بوجه .

و الشعراء أصحاب اللسان و أعرف الناس بمواقع الألفاظ و معانيها . فلو لم يسغ لرجل أن يتخذ خليلين كان قولهم "يا خليليّ" بالمثنى كالخطاب مع العنقاء و مع الأشياء المفروضة المعدومة . ولم يقل بذلك أحد من الأدباء .

ثم إنّ أئمة اللغة و فرسان أسرار العربية بحثوا على هذه التثنية بحثًا مطنبًا و بيّنوا أسرارها و وجوهها . و لم يصرّح أحد منهم بامتناع خليلين لشخص واحد .

فمن ذلك ما قال أشجع بن عمرو من بني سليم و كان متّصلاً بالبرامكة . له ترجمة في الأغاني و تاريخ بغداد و الموشح و الشعر و الشعراء لابن قتيبة يرثي أخاه .

خَلِيلَيَّ لا تَسْتَبْعِدَا ما انْتظَرْتُما ‏ ‏ ‏ فإنّ قريبًا كُلُّ ما كان آتِيا
أَلَا تَرياِنِ اللَّيْلَ يَطْوِي نَهارَهُ ‏ ‏ ‏ و ضَوْءَ النَّهار كَيْفَ يَطْوِي اللَّيَالِيَا

و قال الشاعر المشهور كثير :

خَلِيلَيَّ هــذا رَبْعُ عَزَّة فاعْقِلا قَلُوصَيْكُما ثُمَّ ابْكِيا حَيْثُ حَلَّتِ

و لهذا الشعر قصّة غريبة مذكورة في كتاب الشعر و الشعراء لابن قتيبة .

و قال امرؤ القيس الكندي الشاعر الضليل :

خَلِيلَيَّ ما في اليومِ مَصْحًى لِشاربٍ ولا في غَدٍ إِذْ كان ما كان مَشْرَبُ

و قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى :

خَلِيلَيَّ وَلَّى العمرُ منّا و لم نتبْ و ننوي فِعَالَ الصالحاتِ و لكنّا

فحتّى متى نبني البيوتَ مشيدةً و أعمارُنا منّا تُهَدُّ و ما تُبْنَى

و في ذيل الأمالي و النوادر لأبي علي إسماعيل بن القاسم البغدادي ص١١٣ : عن وهب بن مسلم عن أبيه قال : دخلت مسجد النبي ﷺ مع نوفل بن مساحق فمررنا بسعيد بن المسيّب الإمام التابعي الشهير . فسلّمنا عليه فردّ . ثم قال سعيد رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : يا أبا سعيد ! من أشعر ، أصاحبنا أم صاحبكم ؟ يريد عمر بن أبي ربيعة و ابن قيس الرقيات . فقال ابن مساحق : حين يقولان ماذا ؟ قال سعيد بن المسيّب : حين يقول صاحبنا :

خليلَيَّ ما بالُ المَطايا كأنّنا نراها على الأدبار بالقوم تَنْكُصُ

و قد أتعب الحادي سُرَاهُنَّ و انتحى بِهِنّ فما يألُو عَجُول مقلّصُ

يَزِدْنَ بنا قُرْبًا فيزدادُ شَوْقنا إذا زاد قربُ الدار و البعدُ ينقصُ

و قد قُطِعَتْ أعناقُهنّ صَبابةً فأنفُسُها مما تكلّفُ شُخَّصُ

يقول صاحبكم ما شاء . فقال له نوفل : صاحبكم أشعر بالغزل ، و صاحبنا أكثر أفانين شعر . فلما انقضى ما بينهما استغفر الله تعالى سعيد مائة مرة يعد بالخَمس . انتهى .

و الرابع عشر : وقع في قصيدة النابغة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ المشهورة " خليليّ " بالمثنى . وقد أنشدها بين يدي النبي ﷺ . و في الاستيعاب لابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : و ما أظن النابغة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلّا و قد أنشد الشعر

كلّه لرسول الله ﷺ . و هو قصيد مطول نحو مائتي بيت . أوّله :

خَلِيْلَيَّ غُضّا ساعةً و تهجّرا ولُوما علَى ما أحدثَ الدهرُ أو ذَرَا

و لما قال النابغة :

بلغنا السماءَ مجدُنا و جدودُنا وإنّا لنرجو فوقَ ذلك مَظهَرا

فقال النبي ﷺ : إلى أين يا أبا ليلى ؟ قال : فقلت : إلى الجنة . قال نعم ، إن شاء الله تعالى . قال : فلما أنشدته :

ولا خيرَ في حِلْمٍ إذا لم يكنْ لَهُ بَوادِرُ تَحْمي صَفْوَهُ أنْ يُكَدَّرا
ولا خيرَ في جَهْلٍ إذا لم يكنْ له حليمٌ إذا ما أوْرَدَ الأمر أصدرا

فقال رسول الله ﷺ : لا يفضض الله فاك هذا .

فلو لم يكن في الخليل مجال الاشتراك لغةً لأرشده النبي عليه الصلاة والسلام أن يرجع عن الأخلاّء المتعددة و يتخذ خليلاً واحدًا . و هو الله و رسوله . و خلّة الله و خلّة رسوله متحدة لكون إحداهما مندمجة في الأخرى . إذ الخليل على هذا لا يطلق إلاّ على المحبوب الذي هو أعلى من جميع الأحبّة . و يجب على المسلم أن لا يكون محبوبه الأعلى إلاّ الله و رسوله ، لقوله عليه الصلاة والسلام : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من والده و ولده و الناس أجمعين .

و إذ سكت رسول الله ﷺ ولم يرشده إلى ذلك دلّ هذا على أنّ شأن الخليل مثل شأن الحبيب فسيح الرحب غير ضيق ، و على أنّه لا وصمة في أن يكون لمسلم مؤمن أحبّاء و أخلاّء غير الله و غير رسوله . و إنّما الوصمة في أن يصير غير الله و رسوله أحبّ الأشياء إليه . هذا . والله أعلم .

و الخامس عشر : في حديث عائشة رضي الله عنها : ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة (رضي الله عنها) لكثرة ذكر رسول الله ﷺ إيّاها . و إن كان ليذبح الشاة فيفرقها في خلائلها . و في حديث آخر : فيهديها في خلّتها . أي أهل ودّها و صداقتها . و روى أحمد في مسنده ج٦ ص٢٠٢ : و إن كان ليذبح الشاة ثم يهدي في خلائلها منها .

فقول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا و كانت أفصح الناس و أعلمهم باللسان " خلائلها " شاهد صدق على أنّه لا حرج في تحقّق الاشتراك في معنى الخليل ، و على أنّ تعدد الأخلّاء أمر معروف لغةً و استعمالاً سائغ بلا نكير كما أنّ كثرة الأصدقاء و الأحبّة مما لا حرج فيها . "فالخلائل" في الحديث جمع خليلة بمعنى الأصدقاء . و يؤيده رواية أخرى و لفظها : فيتتبع بذلك صدائق خديجة (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) . و في أخرى : أصدقاء خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا . هذا . والله أعلم .

و السادس عشر : أخرج البزار و الطبراني و الحاكم عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لكلّ إنسان ثلاثة أخلّاء : أمّا خليل فيقول له : ما انفقت فلك و ما أمسكت فليس لك . فذاك ماله . و أمّا خليل فيقول : أنا معك فإذا أتيت باب الملك تركتك و رجعت . فذاك أهله و حشمه . و أمّا خليل فيقول : أنا معك حيث دخلت و حيث خرجت . فذاك عمله . فيقول : إن كنت لأهون الثلاثة عليّ . ذكره السيوطي في شرح الصدور .

و السابع عشر : أخرج أحمد في مسنده ج٥ ص١٤٧ عن أبي العالية قال : أخّر عبيد الله ابن زياد الصلاة . فسألت عبد الله بن الصامت . فضرب فخذي و قال : سألت خليلي أباذرّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . فضرب فخذي و قال : سألت خليلي يعني النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فقال : صلّ الصلاة لميقاتها . فإن أدركت فصلّ معهم ، ولا تقولنّ : إنّي قد صلّيت فلا أصلّي .

ففي قوله "سألت خليلي أباذرّ" إيماء إلى أنّ الخليل لغةً يحتمل التعدد . إذ محال أن لا يعد ابن الصامت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خليلاً لنفسه . فلابدّ أن يكون هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خليلاً لابن الصامت كما كان أبوذرّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خليلاً له ؟ فلابن الصامت خليلان : النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و أبوذرّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . فثبت التعدد في الخلّة .

و الثامن عشر : أخرج ابن ماجه عن عبد الله قال : قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ألا إنّي أبرأ إلى كلّ خليل من خلّته . ولو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً . إنّ صاحبكم خليل الله .

فقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ "كلّ خليل " دلّ على تعدّد أخلّائه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . ثم أنّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ برأ عن خلّة كلّ خليل رومًا للخليل الأكبر الأكمل . فاستبان من هذا الحديث أمور ثلاثة : الأوّل سعة دائرة الخلّة لغةً و تعدّد خُلّانه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . و الثاني أنّ الأكمل مطلقًا باعتبار الخلّة هو الله تعالى . و الثالث أنّ الأكمل

خلّة في الأمّة هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه . راجع الوجه السابع في الفصل الذي تقدّم . فإنّ فيه تفصيلاً يتعلق بهذا الموضع .

و التاسع عشر : استعمال فصحاء العرب و شعراءهم للخليل في معنى الصديق الأقرب أو القريب استعمال مترادف في معنى مترادف آخر يهدينا أنّ معناه مثل معنى الصديق قابل للمشاركة . فمن ذلك ما قال طرفة بن العبد الشاعر الجاهلي :

كلُّ خليلٍ كنتُ خالَلْتُه　　　لا ترك اللهُ له واضحَهْ
كلُّهُمْ أروغُ مِن ثعلبٍ　　　ما أشْبَهَ اللَّيْلَةَ بالبارحَهْ

فالظاهر من كلام طرفة أنّ الخليل بمعنى الصديق ، و أنّ معناه عامّ مثل معنى الصديق . و لذا أدخل عليه لفظة "كلّ" الدالة على كثرة الأفراد . و لعمومه قال في البيت الثاني "كلّهم" بضمير الجمع . فالخليل كلّيّ ، و إلّا لم يصحّ دخول الكلّ الأفراديّ عليه .

و منه ما في ذيل الأمالي و النوادر لأبي علي القالي ص١١٨ ، عن بعض الأئمة ، قال : و أنشدنا الرياشي :

إذا ما خليلي ساءني سوء فعلِه　　　ولم يكُ عمّا ساءني بمُفيقِ
صبرتُ على ما كان من سوء فعلِه　　　مخافةَ أن أبقى بغير صديقِ

فقوله " خليلي " بمعنى رفيقي و صديقي . و لذا عبّر عنه في البيت الثاني بالصديق في قوله " بغير صديق " .

و العشرون : هذا البيان المتقدّم قد ماشيت فيه العلامة ابن القيم و من قال بمثل قوله ، و وافقتهم في أنّ مرتبة الخلّة لغةً أعلى مراتب الحبّ إرخاءً للعنان . نعم ، حقّقت أنّ هذه المرتبة الفائقة تقبل الاشتراك و العموم .

و ههنا تحقيق آخر لنا ، لا يبعد أن يكون حقًّا ، أردنا أن أطلعك عليه . فاعلم : أنّ كينونة الخلّة أعلى مراتب الحبّ أمر يريب عارف اللغة . لا يؤيده كلام أئمة الأدب و اللغة . لأنّهم فصّلوا مراتب الحبّ ،

و لم يذكروا فيها مرتبة الخلّة فضلاً عن كونها أعلى المراتب . و يعلم من عدم الذكر أنّ الخلّة مثل الحبّ أمر عامّ لجميع المراتب .

نعم ، الشارع عليه الصلاة والسلام خصّه بأعلى مراتب المودّة بإرادة المنتهى و الغاية كما تقدّم . و لذا قال عليه الصلاة والسلام : لو كنت متخذًا خليلاً . الحديث . فالاستدلال من هذا الحديث على ضيق مجال الخلّة لغةً بعيد و خوض في غير مجاله . كيف و لم يبعث هو صلى الله عليه وسلم لبيان المعاني اللغوية .

و نظير ذلك الزكاة . فإنّه لفظ معناه عام لغةً و هو النماء و البركة . لكن الشرع وضعه للفرض الماليّ الذي هو من أعلى أنواع البركة و النماء . فإذا ذكر مطلقًا يراد به هذا المعنى مع بقائه على معناه اللغويّ أيضًا حيث يجوز إطلاقه على الصدقات النفلية . و جاز أن يقال "زكا الشيء" إذا نما ، و "زكا الأمر" إذا بورك فيه . فلم يمنع تخصيص الشرع إيّاه بأعلى أنواع الزكاة استعماله في معناه اللغويّ العام .

و هكذا حال الخليل ، أخذ منه في الحديث المتقدّم ذكره معنى مخصوص أعني أعلى مراتب الودّ بإرادة الغاية مع جواز استعماله في معناه اللغويّ العام .

و قد صرّح ابن القيم نفسه رحمه الله تعالى بأنّ أعلى مراتب الحبّ التتيم . حيث قال في كتابه الجواب الكافي : إنّ خاصيّة التعبد الحبّ مع الخضوع و الذلّ للمحبوب . بل التعبد آخر مراتب الحبّ . و يقال له "التتيم" أيضًا . فإنّ أوّل مراتبه "العلاقة" . سمّيت علاقة لتعلق القلب بالمحبوب . قال الشاعر :

و علقت ليلى و هي ذات تمائم — لم يَبْدُ للأَتْرابِ مِنْ ثَدْيِها ضخمُ

ثم بعدها "الصبابة" لانصباب القلب إلى المحبوب . قال الشاعر :

يشكي المُحِبُّونَ الصَّبابةَ ليتَني — تحمَّلْتُ ما يَلْقَوْنَ من بينهم وَحْدِي

ثم "الغرام" . و هو لزوم الحبّ للقلب لزومًا لا ينفكّ عنه . و منه سمّي الغريم غريمًا لملازمته صاحبه . و قد أولع المتأخرون باستعمال هذا اللفظ في الحبّ . و قلّ أن تجده في أشعار العرب .

ثم "العشق" . و هو إفراط المحبة . و لهذا لا يوصف به الربّ تعالى . انتهى بحاصله .

قلت : و لم يتكلّم النبي عليه الصلاة والسلام بلفظ العشق في أحاديثه . و ما روى سويد بن سعيد عن علي

ابن مسهر عن أبي يحيى القتاب عن مجاهد عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يرفعه " من عشق و عف و كتم فمات فهو شهيد " . و رواه سويد أيضًا عن ابن مسهر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مرفوعًا . و رواه الخطيب عن الأزهريّ عن المعافي بن زكريا عن عطية عن ابن الفضل عن أحمد بن مسروق عنه . و رواه الزبير بن بكار عن عبد العزيز بن الماجشون عن عبد العزيز بن أبي حاتم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا .

فهذا الحديث و إن حسّنه ابن القيم في كتابه الجواب الكافي ص٢٦٣ لكنه ضعيف أشدّ الضعف عند المحدثين . و قد ردّه ابن القيم نفسه في زاد المعاد . و صرّح البعض بأنّه موضوع رفعًا . و قال البعض : إنّه قول ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا . فهو موقوف .

ثم قال ابن القيم : و المرتبة الخامسة للحبّ "التتيم" . و هو آخر مراتب الحبّ . و هو تعبّد المحب لمحبوبه . يقال : تيمه الحبّ ، إذا عبده . و منه : تيم الله ، أي عبد الله . هذا كلامه باختصار .

فقد صرّح ابن القيم بأنّ آخر المراتب التتيم . ثم زاد من عند نفسه بعد تصريحه بآخر المراتب مرتبة أخرى فقال بعد عدة صفحات : ثم "الخلّة" و هي تتضمن كمال المحبة و نهايتها بحيث لايبقى في القلب سعة لغير محبوبه . و هي منصب لا يقبل المشاركة بوجه . و هذا المنصب خاصّة الخليلين إبراهيم و محمد عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . انتهى .

فوقع في كلامه تعارض و خروج عن الموضوع ، أعني اللغة إلى الشرع . و عرفه حيث قال : و هذا المنصب خاصّة الخليلين . فإنّ خصوصية الخليلين أمر شرعي علم بعد قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في آخر خطبة خطبها : لو كنت متخذًا خليلًا . الحديث . و هذا اللفظ كان مستعملاً قبل هذا في لغة العرب . بل ثبت بعده أيضًا إطلاق كلّ رجل على حبيبه أنّه خليله من غير نكير كما تقدّم منا بيانه . و هذا أمر لا يخفى على عارف اللغة .

و بعد اللتيا و التي قول أئمة اللغة و الأدب أقضى و أملك . و هم لم يذكروا عند بيان مراتب الحبّ مرتبة الخلّة لا في أدناها ولا في أعلاها كما لم يذكروا فيها مرتبة الحبّ رأسًا لشمول الحبّ لجميع هذه المراتب . فشأن الخلّة بمنزلة شأن الحبّ .

قال الإمام أبو منصور الثعالبي المتوفّى سنة ٤٣٠هـ في كتابه فقه اللغة عند بيان مراتب الحبّ : أوّل مراتب الحبّ الهوى . ثم العلاقة ، و هي الحبّ اللازم للقلب . ثم الكلف ، و هو شدة الحبّ . ثم العشق ، و هو اسم لما فضل عن المقدار الذي اسمه الحبّ . ثم الشعف بالمهملة ، و هو إحراق الحبّ القلب مع لذّة يجدها . و كذلك اللوعة و اللاعج . فإنّ تلك حرقة الهوى . و هذا هو الهوى المحرق . ثم الشغف بالمعجمة ، و هو أن يبلغ الحبّ شغاف القلب . و هي جلدة دونه . و قد قرئتا جميعًا "شغفها حبًّا" و "شعفها" . ثم الجوى ، و هو الهوى الباطن . ثم التيم ، و هو أن يستعبده الحبّ . و منه سمّي تيم الله أي عبد الله . و منه رجل متيم . ثم التبل ، و هو أن يسقمه الهوى . و منه رجل متبول . ثم التدليه ، و هو ذهاب العقل من الهوى . و منه رجل مدله . ثم الهيوم ، و هو أن يذهب على وجهه لغلبة الهوى عليه . و منه رجل هائم . انتهى .

هذا كلام الإمام الثعالبي . و أنت ترى أنّه لم يذكر "الخلّة" كما لم يذكر للحب مرتبة على حدة ولا للمودّة .

فإن قلت : ذكر المجد الفيروز آبادي رحمه الله في بصائر ذوي التمييز مراتب المحبة العشر . ثم جعل الخلّة أعلى المراتب ، حيث قال في بيان هذه المراتب : الأوّل العلاقة والإرادة و الصبابة و الغرام ثم الودّ و هو صفو المحبة و خالصها و لبّها ثم الشغف ثم العشق و هو الحبّ المفرط الذي يخاف على صاحبه منه . و به فسّر " وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ " . ثم التتيم و هو التذلل . تيمه الحبّ أي عبده و ذلّله ، و تيم الله عبده . ثم التعبد و هو فوق التتيم . فإنّ العبد الذي ملك المحبوب رقه فلم يبق له شيء من نفسه ألبتة ، بل كلّه لمحبوبه ظاهرًا و باطنًا . العاشر مرتبة الخلّة التي انفرد بها الخليلان إبراهيم و محمد عليهما الصلاة والسلام . و الخلّة هي المحبة التي تخللت روح المحب و قلبه حتى لم يبق فيه موضع لغير محبوبه . انتهى بحاصله .

قلت : قد ذكرنا في أوّل البحث الثاني أن المجد الفيروز آبادي يرتأى أنّ الخلّة أعلى المقامات . كما يقول الإمام الغزالي و ابن القيم رحمهما الله . ثم إنّ المجد في هذا الكتاب كما هو موضوعه يبحث عن معاني كلمات القرآن و ما يراد بها . و يخلط بين المعاني اللغوية و الشرعية أي ما يراد منها شرعًا كما لا يخفى على من طالعه .

و يدلّ على ذلك أوّلاً قوله : إنّ الخلّة انفرد بها إبراهيم و محمد عليهما الصلاة والسلام . و معلوم أن المختصّ بهما عليهما الصلاة والسلام إطلاق خليل الله . و هذا أمر شرعي لا لغويّ لأنّ لفظ الخلّة لم يوضع في اللغة لهما عليهما الصلاة والسلام . و نحن نسلّم أنّ الخليل الأكبر باعتبار أخذ منتهى الخلّة و غايتها لا مجال فيه للمشاركة . و لذا قال عليه الصلاة والسلام : لو كنت متخذًا خليلاً من الناس إلخ .

و ثانيًا قول المجد بعد هذه العبارة متصلاً : و الأسباب الجالبة للمحبّة عشرة : الأوّل قراءة القرآن بالتدبر . الثانى التقرّب إليه بالنوافل . الثالث دوام ذكره باللسان و القلب و العمل و الحال . الرابع إيثار محابه على محابك عند غلبة الهوى . الخامس مطالعة القلب لأسمائه و صفاته و مشاهدتها . السادس مشاهدة برّه و إحسانه و نعمه الظاهرة و الباطنة . السابع و هو من أعجبها انكسار القلب بكلّيّته بين يديه . الثامن الخلوة به وقت النزول الإلهيّ لمناجاته و تلاوة كلامه . التاسع مجالسة المحبّين و الصادقين و التقاط أطايب ثمرات كلامهم . العاشر مباعدة كلّ سبب يحول بين القلب و بين الله تعالى . هذا خلاصة كلامه .

أقول : يتضح من كلامه هذا أنّه ليس بصدد بيان معاني المحبّة اللغوية . إذ هذه الأمور العشرة إنّما هي أسباب لمحبة مخصوصة . و هي محبة العبد لمعبوده . هذا . والله أعلم .

الباب التاسع والستون
في الجواب الثاني والسبعين

ألهمني ربي أنّ الأنبياء كلّهم دخلوا في آل إبراهيم كما صرّح به العلماء . قال النووي في شرح مسلم : إنّ المختار في معنى آل إبراهيم كما قدّمنا أنّهم جميع الأتباع . و يدخل في آل إبراهيم خلائق لا يحصون من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . انتهى .

فنبينا ﷺ داخل في جملة المشبّه به بل هو أولى بذلك . ثم شبّه صلاته بصلاة سائر الأنبياء الذين هو فرد منهم تشبيه الجزء بالكلّ و صفته بصفته . و إن شئت فقل : تشبيه فرد طائفة بمجموع أفراد الطائفة .

وجملة الكلام : أنّ مجموع المشبّه به أفضل . ولا وصمة فيه لدخول المشبّه في المشبّه به و أفضليّة المشبّه به ، لأجل كينونة المشبّه جزءً أو فردًا منه . فالمشبّه هو الذي يرجع إليه الفضل و يؤول إليه المجد .

و لكون الجزء غير الكلّ و الفرد مغايرًا للمجموع لا يرد أنّه تشبيه شيء بنفسه . و نظير ذلك قول الفقهاء في أبواب الطلاق : رأس المرأة أي الزوجة كالزوجة نفسها . و إضافة الطلاق إلى رأسها كإضافته إليها . أرأيت كيف شبّهوا في هذا القول الجزء بالكلّ و وصفه و جعلوه متصفًا بوصف الكلّ . و في باب الكفالة من الهداية الحنفية : إذا قال : تكفّلت بنفس فلان أو برقبته ، إلى أن قال : و كذا إذا قال بنصفه و بثلثه إلخ . أي تنعقد الكفالة بذلك . ثم قال : فكان ذكر بعضها شائعًا كذكر كلّها . انتهى .

إن قلت : فما فائدة التشبيه على هذا ؟

قلت : التخصيص و التنويه بشأنه الفخيم ، حيث جعل له ﷺ وحده ما جعل للمجموع من المناقب و المزايا . والله أعلم .

فائدة

لا يبعد أن يستدلّ بهذا التشبيه بالنظر إلى ما قررنا على أن نبينا ﷺ أفضل الأنبياء كلّهم ، حيث ثبت له عليه الصلاة والسلام وحده جملة ما انقسم على الأنبياء كلّهم .

قال العبد الضعيف الروحاني البازي : بعد ما فرغت عن تحرير هذا الجواب الأنيق رأيت بعض الأئمة ذكر هذا الجواب و حسّنه . ففرحت فرحًا لا تسأل عنه ، إذ وافق ما نبع من ذهني القاصر ما ذكره الحفاظ المتقنون .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في جلاء الأفهام بعد ما زيف أكثر الأجوبة : و أحسن منه أن يقال : محمد ﷺ هو من آل إبراهيم عليه الصلاة والسلام بل هو خير آل إبراهيم . كما روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى " إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَ نُوحًا وَ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَ ءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ " ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : محمد من آل إبراهيم (عليهما الصلاة والسلام) .

و هذا نصّ إذ دخل غيره من الأنبياء الذين هم من ذرّيّة إبراهيم في آله . فدخول رسول الله ﷺ أولى . فيكون قولنا "كما صلّيت على آل إبراهيم " متناولاً للصلاة عليه و على سائر النبيّين من ذرّيّة إبراهيم عليهم الصلاة والسلام . ثم قد أمرنا الله أن نصلي عليه و على آله خصوصًا بقدر ما صلّينا عليه مع سائر آل إبراهيم عمومًا و هو فيهم . و يحصل لآله من ذلك ما يليق بهم و يبقى الباقي كلّه له ﷺ .

و تقرير هذا أنّه يكون قد صلى عليه خصوصًا و طلب له من الصلاة ما لآل إبراهيم و هو داخل معهم . ولا ريب أنّ الصلاة الحاصلة لآل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، و رسول الله ﷺ معهم ، أكمل من الصلاة الحاصلة له دونهم . فيطلب له من الصلاة هذا الأمر العظيم الذي هو أفضل مما لإبراهيم قطعًا .

و يظهر حينئذ فائدة التشبيه و جريه على أصله ، و أنّ المطلوب له من الصلاة بهذا اللفظ أعظم من المطلوب له بغيره . فإنّه إذا كان المطلوب بالدعاء إنّما هو مثل المشبّه به و له أوفر نصيب منه صار

له من المشبّه المطلوب أكثر مما لإبراهيم وغيره . و انضاف إلى ذلك ما له من المشبّه به من الحصة التي لم تحصل لغيره .

فظهر بهذا من فضله و شرفه على إبراهيم عليه الصلاة والسلام و على كلّ من آله و فيهم النبيون ما هو اللائق به . و صارت هذه الصلاة دالة على هذا التفضيل و تابعة له . و هي من موجباته و مقتضياته . انتهى بلفظه .

قلت : و سبقه الإمام الكبير ابن تيمية رحمه الله تعالى حيث قال في المجلد الرابع من منهاج السنّة : و في الصحيح أنّ النبي صلى الله عليه وسلم سئل : أيّ الناس أكرم ؟ فقال : أتقاهم . فقالوا : ليس عن هذا نسألك . فقال : يوسف نبي الله ابن يعقوب نبي الله ابن إسحاق نبي الله ابن إبراهيم خليل الله (عليهم الصلاة والسلام) . و آل إبراهيم الذين أمرنا أن نسأل لمحمد و أهل بيته من الصلاة مثل ما صلّى الله عليهم . و نحن و كلّ مسلم نعلم أنّ آل إبراهيم أفضل من آل علي لكن محمد أفضل من إبراهيم عليهما الصلاة والسلام .

و لهذا ورد هنا سؤال مشهور . و هو أنّه إذا كان محمد صلى الله عليه وسلم أفضل فلم قيل "كما صلّيت على إبراهيم" و المشبّه دون المشبّه به ؟

و قد أجيب عن ذلك بأجوبة . منها أن يقال : إنّ آل إبراهيم فيهم الأنبياء و محمد فيهم . قال ابن عباس رضي الله عنهما : محمد من آل إبراهيم . فمجموع آل إبراهيم بمحمد أفضل من آل محمد . و محمد قد دخل في الصلاة على آل إبراهيم . ثم طلبنا له من الله و لأهل بيته مثل ما صلّى على آل إبراهيم . فيأخذ أهل بيته ما يليق بهم . و يبقى سائر ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم . فيكون قد طلب له من الصلاة ما جعل للأنبياء من آل إبراهيم عليهم الصلاة والسلام . و الذي يأخذه الفاضل من أهل بيته دونه لا يكون مثل ما يحصل لنبي . فتعظم الصلاة عليه بهذا الاعتبار . و قيل : إنّ التشبيه في الأصل لا في القدر . انتهى كلام ابن تيمية بحروفه .

فصل

يرد على هذا الجواب ما ثبت في بعض الروايات الصحيحة "كما صلّيت على إبراهيم" و "كما باركت على إبراهيم" بدون ذكر آل إبراهيم ، كما رواه البخاري و مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

فعلى هذا لا يدخل نبينا ﷺ في المشبّه به لعدم ذكر الآل . و يعود الإشكال .

قلت : الجواب من وجوه :

الأوّل : إنّ آل إبراهيم عليه الصلاة والسلام مذكور في عدة روايات صحيحة . و عليها بناء هذا الجواب . و هذا القدر يكفي لحلّ الإشكال .

و الثاني : إنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام أصل و آله فرع له . فذكر المتبوع ذكر ضمنًا لتابعه أيضًا . قال ابن القيم رحمه الله : عامّة الأحاديث في الصحاح و السنن بالاقتصار على الآل أو إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الموضعين ، أو الآل في أحدهما و إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الآخر . فحيث جاء ذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام وحده في الموضعين فلأنّه الأصل في الصلاة المخبر بها ، و آله تبع له فيها . فدلّ ذكر المتبوع على التابع و اندرج فيه و أغنى عن ذكره . انتهى .

فإن قلت : كيف وردت عامّة الروايات في هذا الباب ؟

قلت : وردت عامّة الروايات على ستة أقسام . و للدعاء ههنا موضعان : الأوّل دعاء الصلاة . و الثاني دعاء البركة .

القسم الأوّل : "كما صلّيت على إبراهيم " في دعاء الأوّل ، و "كما باركت على إبراهيم " في الدعاء الثاني بدون ذكر آله في الموضعين . أخرجه البخاري و مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

القسم الثاني : "كما صلّيت على آل إبراهيم " في الأوّل و "كما باركت على آل إبراهيم " في الثاني بغير ذكر إبراهيم فيهما . رواه البخاري و مسلم و أبو داود و الترمذي و النسائي و ابن ماجه عن عبدالرحمن بن أبي ليلى عن كعب بن عجرة رضي الله عنه . و في الصحيحين أيضًا عن أبي حميد الساعدي .

القسم الثالث : "كما صلّيت على آل إبراهيم" في الأول بغير ذكر "على إبراهيم" و "كما باركت على إبراهيم " في الثاني بدون ذكر الآل . أخرجه مالك و النسائي .

القسم الرابع : بعكس الثالث . أخرجه مسلم .

القسم الخامس : ما جمع فيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام و آله في الموضعين . رواه البيهقي عن ابن مسعود

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا و رواه أيضًا الدار قطني و ابن ماجه عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ و النسائي عن موسى بن طلحة عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

و القسم السادس : جمع في عامّة الروايات بين محمد ﷺ و آله أو نحو الآل كالذرّيّة و الأزواج في جانب المشبّه . و جاء في بعض الروايات الضعيفة الاقتصار على محمد ﷺ في موضع و على آل محمد ﷺ في موضع آخر . فعند إسماعيل القاضي في فضل الصلاة له عن عبدالرحمن بن بشير بن مسعود مرسلاً قال : قيل : يا رسول الله ! أمرنا الله أن نسلّم عليك و أن نصلّي عليك . فقد علمنا كيف نسلّم عليك ، فكيف نصلّي عليك ؟ قال : تقولون : اللّهم صلّ على آل محمد كما صلّيت على آل إبراهيم . اللّهم بارك على محمد كما باركت على آل إبراهيم .

و عند إسماعيل القاضي أيضًا عن الحسن مرسلاً و فيه : قال رسول الله ﷺ : تقولون : اللّهم اجعل صلواتك و بركاتك على محمد كما جعلتها على إبراهيم إنّك حميد مجيد .

و أخرج أحمد و الطبري عن موسى بن طلحة بن عبيد الله التيمي عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ و فيه قال : قولوا : اللّهم صلّ على محمد كما صلّيت على إبراهيم إنّك حميد مجيد . و بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم إنّك حميد مجيد .

فائدة شريفة

قد جمع ألفاظ هذه الصلاة و كلماتها المأثورة في الأحاديث بدون ذكر الأسانيد و حوالة المخرجين الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن علي بن عبد الرحمن النميري في كتاب " الأعلام بفضل الصلاة على النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ " كما نقلها عنه الإمام السبكي في آخر الشفاء . أذكرها ههنا تبصرةً للناظرين و تكميلاً للإفادة . و هي هذه :

اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّهم بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم إنّك حميد مجيد . و بارك على محمد و على آل

محمد كما باركت على إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم صلّ على محمد و آل محمد كما صلّيت على إبراهيم إنّك حميد مجيد . و بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و آل إبراهيم إنّك حميد مجيد . و بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم و آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم . و بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم و على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد . والسلام عليك أيّها النبي و رحمة اللّٰه و بركاته .

اللّٰهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم و آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم و على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم اجعل صلواتك و بركاتك على محمد و على آل محمد كما جعلتها على إبراهيم و آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم صلّ على محمد و على أزواجه و ذرّيّته كما صلّيت على إبراهيم . و بارك على محمد و أزواجه و ذرّيّته كما باركت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم صلّ على محمد عبدك و رسولك كما صلّيت على آل إبراهيم . و بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم .

اللّٰهم صلّ على محمد عبدك و رسولك كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم . و بارك على محمد كما باركت على إبراهيم و على آل إبراهيم .

اللّٰهم صلّ على محمد عبدك و رسولك كما صلّيت على إبراهيم . و بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم .

اللّٰهم صلّ على محمد عبدك و رسولك كما صلّيت على إبراهيم . و بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم و على آل إبراهيم .

اللّٰهم صلّ على محمد عبدك و رسولك كما صلّيت على إبراهيم . و بارك على محمد و آل محمد كما باركت على إبراهيم و على آل إبراهيم .

اللّٰهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على آل إبراهيم . و بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على آل إبراهيم . و بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد . و بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على آل إبراهيم . و بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم صلّ على محمد النبيّ الأمّيّ و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و آل إبراهيم . و بارك على محمد النبيّ الأمّيّ و على آل محمد كما باركت على إبراهيم و على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم صلّ على محمد النبي الأمّيّ و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم . و بارك على محمد النبيّ الأمّيّ كما باركت على إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم صلّ على محمد النبيّ الأمّيّ و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم . و بارك على

محمد النبي الأمّيّ و على آل محمد كما باركت على إبراهيم و على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد . و في رواية "و آل إبراهيم" في الموضعين .

اللّٰهم صلّ على محمد كما صلّيت على آل إبراهيم .

اللّٰهم بارك على محمد كما باركت على آل إبراهيم .

اللّٰهم صلّ على محمد كما صلّيت على إبراهيم إنّك حميد مجيد . و بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و آل إبراهيم إنّك حميد مجيد . و بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم و آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم صلّ على محمد كما صلّيت على إبراهيم و آل إبراهيم إنّك حميد مجيد . و بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم و آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم صلّ على محمد كما صلّيت على إبراهيم إنّك حميد مجيد . و بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم صلّ على محمد كما صلّيت على إبراهيم إنّك حميد مجيد . و بارك على محمد كما باركت على إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على آل إبراهيم . و بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت و باركت على إبراهيم و على آل إبراهيم . و بارك على محمد إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم صلّ على محمد النبي و أزواجه أمّهات المؤمنين و ذرّيّته و أهل بيته كما صلّيت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم صلّ على محمد و على آل محمد و بارك على محمد و على آل محمد كما صلّيت و باركت على إبراهيم و آل

إبراهيم في العالمين إنّك حميد مجيد .

اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و آل إبراهيم . و بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم و آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّهم اجعل صلواتك و رحمتك و بركاتك على محمد و على آل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد و بارك على محمد و على آل محمد كما صلّيت و باركت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

و ارحم محمدًا و آل محمد كما رحمت آل إبراهيم إنّك حميد مجيد . و بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّهم صلّ على محمد و على آل بيته كما صلّيت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد . اللّهم صلّ علينا معهم .

اللّهم بارك على محمد و على أهل بيته كما باركت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد . اللّهم بارك علينا معهم ، صلاة الله و صلوات المؤمنين على محمد النبيّ الأمّيّ ، السلام عليكم و رحمة الله و بركاته .

ذكر ذلك في آخر التشهد من جهة الدار قطني بسند فيه ضعف تفرد به .

اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّهم بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم و على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّهم و تحنن على محمد و على آل محمد كما تحننت على إبراهيم و على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّهم اجعل صلواتك و بركاتك على محمد النبيّ و أزواجه أمهات المؤمنين و ذرّيّته و أهل بيته كما صلّيت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّهم اجعل صلواتك و رحمتك على محمد و أزواجه و ذرّيّته و أمهات المؤمنين كما صلّيت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم صلّ على محمد و على أزواجه أمهات المؤمنين و ذرّيّته و أهل بيته كما صلّيت على إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم صلّ على محمد و على آل محمد و بارك على محمد و على آل محمد كما صلّيت و باركت على إبراهيم و آل إبراهيم في العالمين إنّك حميد مجيد .

اللّٰهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم إنّك حميد مجيد . و بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم و آل إبراهيم . و في رواية : كما باركت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

هذا كلّه مروي عن النبي ﷺ بأسانيد ، منها صحيح و منها غير ذلك .

بعض ما حفظ عن الصحابة رضي الله عنهم و من بعدهم

عن علي رضي الله عنه : اللّٰهم داحي المدحوات و بارئ المسموكات و باني المبنيات و مرسي المرسيات و جبار القلوب على فطرتها شقيها و سعيدها و باسط الرحمة للمتقين ! اجعل شرائف صلواتك و نوامي زكواتك و رأفة تحنّنك على محمد عبدك و رسولك الخاتم لما سبق و الفاتح لما أغلق و المعلن للحق بالحق و الدامغ جيشات الأباطيل كما حمل فاضطلع بأمرك لطاعتك مستوفزًا في مرضاتك بغير نكل في قدم ولا وهي في عزم واعيًا لوحيك حافظًا لعهدك ماضيًا على نفاذ أمرك حتى أورى قبسًا لقابس و آلاء اللّٰه تصل بأهله أسبابه به هديت القلوب بعد خوضات الفتن و الإثم موضحات الأعلام و منيرات الإسلام و دائرات الأحكام .

فهو أمينك المأمون و خزان علمك المخزون و شهيدك يوم الدين و بعيثك نعمة و رسولك بالحق رحمة . اللّٰهم أفسح له مفتسحًا في عدنك و أجزه مضاعفات الخير من فضلك له مهنّئات غير مكدرات من فوز ثوابك المضنون و جزيل عطائك المحلول .

اللّٰهم صلّ على بناء البنائين بناؤه و إكرام مثواه لديك و نزله و أتمم له نوره و أجزه من ابتغائك له مقبول الشهادة مرضي المقالة ذا منطق عدل و خطة فصل و حجة و برهان عظيم . اللّٰهم اجعلنا سامعين

مطيعين و أولياء مخلصين و رفقاء مصاحبين .

اللّهم أبلغه منّا السلام و اردد علينا منه السلام .

عن ابن مسعود رضي الله عنه : اللّهم اجعل صلواتك و بركاتك و رحمتك على سيّد المرسلين و إمام المتقين محمد عبدك و رسولك إمام الخير و قائد الخير و رسول الرحمة .

اللّهم ابعثه مقامًا محمودًا يغبطه به الأوّلون و الآخرون .

اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد . و بارك على محمد و آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

عن ابن عمر رضي الله عنهما : اللّهم اجعل صلواتك و بركاتك و رحمتك على سيّد المرسلين و إمام المتّقين و خاتم النبيّين عبدك و رسولك إمام الخير و قائد الخير . اللّهم ابعثه يوم القيامة مقامًا محمودًا يغبطه الأوّلون و الآخرون . و صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

عن الحسن البصري رحمه الله تعالى : اللّهم اجعل صلواتك و بركاتك على أحمد كما جعلتها على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

اللّهم اجعل صلواتك و بركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد . السلام عليك أيّها النبيّ و رحمة الله و بركاته و مغفرة الله تعالى و رضوان الله .

اللّهم اجعل محمدًا أكرم عبادك عليك و أرفعهم عندك درجةً و أعظمهم خطرًا و أمكنهم عندك شفاعة .

اللّهم أتبعه من أمّته و ذرّيّته ما تقرّ به عينه و أجزه عنّا خير ما جزيت نبيًّا عن أمّته و أجز الأنبياء كلّهم خيرًا . السلام على المرسلين و الحمد لله رب العالمين .

اللّهم صلّ على محمد و على آله و أصحابه و أولاده و أهل بيته و ذرّيّته و محبّيه و أتباعه و أشياعه و علينا معهم أجمعين يا أرحم الراحمين .

فصل

إن قلت : فلم جاء ذكر محمد و آل محمد بالاقتران دون الاقتصار على أحدهما في عامّة الأحاديث ،و جاء الاقتصار على إبراهيم أو آل إبراهيم في عامّتها ؟

قلت : يخطر ببالي وجوه في الجواب لا تبعد أن تكون صوابًا :

الأوّل : هذا دعاء . فزيادة آل محمد لنكتة . و هي أن يدخل المصلّي الداعي نفسه في المصلّى عليه بإذن الشارع عليه الصلاة والسلام ، كي لا يحرم من بركات الصلاة . فإنّ آله صلى الله عليه وسلم أتباعه إلى يوم القيامة . كما حكاه ابن عبد البر عن بعض أهل العلم و البيهقي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه . و اختاره الأزهري و رجّحه النووي في شرح مسلم . و قيل : آله عليه الصلاة والسلام الأتقياء من أمّته . حكاه القاضي حسين و الراغب و جماعة كما في جلاء الأفهام .

و الثاني : أنّ الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم امتثال لأمر الله تعالى في قوله "يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ" . فزيد لفظ " آل محمد " بحكم الله و رسوله ليكون أدعى إلى الامتثال و أبعث على مداومة الصلاة و أسرع إجابة و أدفع لدفع الكسل عن المصلّي . لأنّ كلّ عاقل يجيب سريعًا إلى ما فيه نفعه صراحةً . فالمصلّي على النبي عليه الصلاة والسلام كأنّه يصلّي مع ذلك على نفسه أيضًا و يدعو لذاته أيضًا حيث دخل في آل محمد .

و الثالث : أنّ النبي عليه الصلاة والسلام كان يهمه أمر الأمّة و كان يبكي لذلك . و صحّ أنّ جبريل عليه الصلاة والسلام نزل و قال له : إنّ الله سيرضيك في أمّتك . فأمره الله أن يزيد لزومًا في كلمات الصلاة لفظ " آل محمد " تطييبًا لقلب حبيبه و إرضاءً له و قبولاً لدعائه .

و الرابع : مثل الثالث إلاّ أنّ المراد من الآل أهل بيته و ذرّيّته و أزواجه عليه الصلاة والسلام . فالتزم ذكرهم إشارة إلى فضلهم و كثرة حقوقهم .

و الخامس : إشارة إلى أنّ " آل محمد " هو المشبّه . فلابدّ من ذكره عند التشبيه . و هذا يؤيد ما قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى . و إن شئت فقل : يؤيّده ما قال الإمام في حلّ الإشكال . و هو أنّ المشبّه إنّما هو آل محمد و صلاتهم ، لا محمد و صلاته حتى يرد ما ورد كما تقدّم . فلزم ذكر لفظ آل محمد ، و إلاّ لتوهّم

أنّ المشبّه هو محمد عليه الصلاة والسلام .

و السادس : نصّ كثير من المحققين أنّ ما أضيف إليه لفظ " آل " داخل في حكم المضاف . فذكر " آل محمد " إنّما هو لتتكرر الصلاة عليه ﷺ أوّلاً في قولنا " على محمد " ، و ثانيًا في قولنا " على آل محمد ". ثم لم يقتصر على آل محمد و إن دخل محمد ﷺ في الصلاة على آله ضمنًا لأنّ الله أمرنا بالصلاة عليه بالإصالة في القرآن .

فلا ينبغي الاكتفاء بالصلاة الضمنية . و ليست الصلاة على إبراهيم و على آله من الأنبياء بهذه المثابة . فلذا وقع الاقتصار على ذكر أحدهما .

و السابع : ما ذكره ابن القيم رحمه الله ، حاصله : أنّ المشبّه جملة إنشائية وقعت موقع الدعاء و السؤال ، و المشبّه به جملة خبرية . و الدعاء يستدعي البسط و التطويل و التكرار و الإعادة . والله يحبّ الملحين في الدعاء . و لهذا تجد كثيرًا من أدعية النبي ﷺ فيها بسط من الألفاظ و ذكر كلّ بصريح لفظه دون الاكتفاء بدلالة اللفظ الآخر عليه ، كقوله في حديث عليّ رضي الله عنه الذي رواه مسلم : اللّهم اغفر لي ما قدّمت و ما أخّرت وما أسررت و ما أعلنت وما أنت أعلم به منّي . أنت المقدّم و أنت المؤخّر لا إله إلاّ أنت .

و معلوم أنّه لو قيل " اغفر لي كلّ ما صنعت "كان أوجز . لكن الحديث في مقام الدعاء و التضرع . و التفصيل أحسن فيه من الإيجاز . و أمّا الخبر فهو خبر عن أمر قد وقع و انقضى ، لا يحتمل الزيادة و النقصان . فلم يكن في زيادة اللفظ فيه كبير فائدة . فكان الإيجاز فيه أكمل و أحسن .

فلهذا جاء فيه بلفظ " إبراهيم " تارةً و بلفظ " آله " أخرى . لأنّ كلا اللفظين يدلّ على ما يدلّ عليه الآخر من الوجه الذي قدّمنا . و أمّا في الطلب فلو قيل " صلّ على محمد " لم يكن في هذا ما يدلّ على الصلاة على آله . إذ هو طلب و دعاء .

ولو قيل " صلّ على آل محمد " لكان النبيّ ﷺ إنّما يصلّى عليه في العموم . فقيل " على محمد و على آل محمد " . فإنّه يحصل له بذلك الصلاة عليه بخصوصه و الصلاة عليه بدخوله في آله . انتهى بحاصله . هذا . والله أعلم بالصواب .

الباب السبعون
في الجواب الثالث والسبعين

التشبيه قسمان :

الأوّل : ما يكون المطلوب فيه ترغيب الناس في المشبّه به مثل رغبتهم في المشبّه و صرف وجوههم إليه كما صرفوها نحو المشبّه . هذا في المرغوبات . أو ترهيبهم من المشبّه به مثل رهبتهم من المشبّه في المخوفات و المرهوبات .

و من المرغوبات ما في الحديث : فضل عائشة (رضي الله عنها) على سائر نساء العالمين كفضل الثريد على الطعام . فالمقصود الأعلى فيه عندي ترغيب الناس في الثريد لكونه أسرع انهضامًا . نعم ، فيه إشارة إلى فضل عائشة رضي الله عنها أيضًا تبعًا لا قصدًا . إذ يكفي لإثبات فضلها أن يقال : هي أفضل من نساء العالمين . هذا . والله أعلم بالمراد .

و من هذا القبيل حديث تشبيه الصلاة . فالغرض الأقصى و المطلب الأعلى منه ترغيب الناس في الصلاة على إبراهيم عليه الصلاة والسلام و على آل إبراهيم كما رغبوا في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم . حيث قالوا : قد علمنا يا رسول الله ! السلام عليك فكيف نصلّي عليك ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : قولوا : اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت إلخ . فهذا الحديث يدلّ صريحًا على أنّهم رغبوا في الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم . فسألوا عن طريقها و كيفيّتها . فأرشدهم النبي صلى الله عليه وسلم و ضمّ مع اسمه اسم إبراهيم ترغيبًا لهم في الصلاة على إبراهيم عليه الصلاة والسلام كما رغبوا في الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم .

و القسم الثاني : ما لا يكون المطلوب فيه ذلك نحو " زيد كالأسد " و " ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٌ " . و الأغلب في الثاني أن يكون المشبّه به أجلّ من المشبّه ، و الأكثر في الأوّل و الأعلق بالقلب كينونة المشبّه أفضل أو أشهر و أظهر ليصح قياس صرفهم إلى المشبّه به على صرفهم إلى المشبّه . والله أعلم بالصواب .

قلت : و من القسم الأوّل عندي بعض تشبيهات تقع في التخلص و الانتقال من التشبيب إلى مدح الممدوح . و من أحسن ما فيه قول القائد أبي عبد الله السنبسي يمدح سيف الدين صدقة بن منصور بن دبيس :

وَ نَرْجِسٍ خَضِلٍ تحكي أزاهرهُ ... أحداقَ تبرٍ على أجْفَانِ كَافُوْرِ
كأنّما نشرهُ في كُلِّ باكِرةٍ ... مِسْكٌ تَضَوَّعَ أو ذِكْرُ ابْنِ مَنْصُوْرِ

فشبّه نفح رائحة النرجس بذكر ابن منصور . و الظاهر أنّ المطلوب ترغيب الناس في المشبّه به كما رغبوا في المشبّه و هو النرجس . و عرفه الطيب لكون المقام مقام مدح المشبّه به و تفصيل أحواله . و ليس المطلوب تفصيل أحوال المشبّه كما في نحو : زيد كالأسد .

و من حسن التخلص قول ابن المعتز في مدح الخليفة المكتفي :

وَاللهِ لاَ كَلَّمْتُهَا وَ لَوْ أَنّهَا ... كَالْبَدْرِ أوْ كَالشَّمْسِ أو كالمُكْتَفِي

و منه ما قال ابن سناء الملك :

و مليحةٍ بالحُسن يسخرُ وجهُها ... بالبدر يهزأ ريقُها بالقَرقفِ
لا أرتضي بالشَّمْسِ تشبيهًا لها ... و البدر بل لا أكتفي بالمكتفي

و قال ابن حجاج في ابن العميد لكنه هزر في البيت الأوّل سخفًا ، إذ رفع إلى المديح سجفًا و وصل مديحه بمجونه مثل اتصال الزهر بغصونه . و هكذا كان ديدنه كما صرح به الصلاح الصفدي :

وقد بادلتُها فَمَبَالُها لي ... بمَشوَرةِ استِها و لها قَذَالي

كما لابنِ العميد جميعُ مدْحي و دنيا ابن العميد جميعُها لِي

و من حسن التخلص مع النوع الأوّل من التشبيه قول أبي الطيب المتنبّي :

نُوَدِّعُهُمْ و البَيْنُ فينا كأنّهُ قَنَا ابْنِ أبي الهَيجاء في قلبِ فَيْلَقِ

فالمقصود ترهيب الناس من قنا الممدوح ، و أنّه موبق للأعداء . يدلّك على ذلك قول علي بن الجهم يمدح ممدوحه داود :

وليلةٍ كحّلَتْ بالنِّقْس مُقْلتَها ألقَتْ قِنَاعَ الدُّجى في كلِّ أُخْدُوْدِ
قد كادَ يُغْرِقُني أمواجُ ظُلْمَتها لولا اقتباسي سنًى من وَجْهِ داوُدِ

حيث تخلّص في قوله "لولا إلخ" إلى مدح الممدوح تخلّصًا لطيفًا . فذكر أنّ ضياء وجهه كشف ظلمة الليالي .

و من ذلك قول ابن جهم يذكر سحابة و انصراف عبيد الله بن خاقان عن الجعفري إلى سر من رأى عند قتل المتوكّل :

أَتَتْنَا بِهَا رِيْحُ الصَّبَا فكأنَّهَا فَتَاةٌ تُزَجِّيْهَا عَجُوْزٌ تَقُوْدُهَا
فَمَا بَرِحَتْ بَغْدَادُ حَتّى تَفَجَّرَتْ بِأَوْدِيَةٍ مَا تَسْتَفِيْقُ مُدُوْدُهَا
فَلَمّا قَضَتْ حَقَّ الْعِرَاقِ و أَهْلِهِ أَتاهَا مِنَ الرِّيْحِ الشَّمَال بَرِيْدُهَا
فَمَرَّتْ تَفُوْتُ الطَّرْفَ سَعْيًا كأنَّهَا جُنُوْدُ عُبَيْدِ اللهِ وَلَّتْ بُنُوْدُهَا

و قال ديك الجن يمدح :

و عزيز يَقْضِي بحكمينِ في الرا حِ بجور و في الهَوَى بمحالِ
لِلنّقا رِدْفُه و للخُوطِ ما حُمْـــمِلَ لِيْنًا و جيدُه للغَزالِ
فَعَلَتْ مقلتاهُ بالصَّبِّ ما تفـــعلُ جدوى يديك بالأمْوَالِ

أراد مثل ما تفعل جدوى إلخ مدحًا و ترغيبًا و تعظيمًا .

و قال البحتري في تشبيه المخلص :

كأنّ سناها بالعشيّ و صبحها تَبسُّمُ عيسى حينَ يَلْفظ بالوَعْدِ

وقال محمد بن هاني المغربي في مدح جعفر :

كأَنَّ لواءَ الشَّمْسِ غُرَّةُ جعفرٍ رأى القِرْنَ فازْدادَتْ طلاقتُهُ ضِعْفًا

وقال ابن الساعاتي :

كم وَقَفنا فيها مع الغيثِ مثلَيْـــــنِ جفونًا و كافّةً و غَمامًا
أثخنتهُ ظُبا البروق جِراحًا منهراتٍ سالتْ عليه رِكامًا
فكأنّ الغمامَ نقعٌ وقد جـــــرّد فيه المَلْكُ المعزُّ حُسامًا

وقال أيضًا في صلاح الدين :

مُنِعَتْ ظِبَاءُ المُنْحنى بأُسودهِ و أشدَّ ما أشكوه فَتْكَ ظِبائهِ
فَعَلَتْ بنا وهي الصَّديق لحاظُها كظُبَى صلاح الدين في أعدائهِ

و أيضًا قال في العزيز :

أبكي العقيق بمثله و تهب أنــــفاس الغضا بضرامه المتسعّرِ
وجدي و إن كنت الذليل ببيضهِ وجــد العزيز بكلّ لدنٍ أسمرِ

و قال ابن سناء الملك :

لا يرجعُ الكلِفُ الذليل عن الهوَى أو يرجعَ الملكُ العزيزُ عن النَّدى

أي لا يرجع هذا عن الهوى كما لا يرجع الملك عن الندى يمدح استمرار نداه .

و قال أيضًا في مدح الظاهر الملك :

فالوجدُ لي وحديَ دونَ الورى　　　　و الملكُ للهِ و للظاهرِ

فالمطلوب في تشبيه المخلّص مدح الممدوح المشبّه به قياسًا له على المشبّه لا بالعكس . لا محض المدح بل مدحًا يكون روحًا للكلام بعده دالًّا على ارتقاء الخاطر و دقة التخيّل . يدلّك على ذلك نظائر من التخلصات التي لا تشبيه فيها . كما قال أبو الحسين الجزار يمدح فخر القضاة نصر الله بن بطاقة :

و كم ليلةٍ قد بتُّها مُعْسِرًا ولي　　　　بزُخْرفِ آمالي كنوزٌ مِنَ اليُسرِ

أقولُ لقلبي كُلّما اشتقتُ للغِنَى　　　　إذا جاءَ نصر الله تبّتْ يدَا الفقرِ

انظر إلى هذا الشاعر كيف تخلّص و وثب إلى المدح و ما تربّص . و صدق نظمه في الحسن فاحذ على مثاله إن كنت تحذو و اغذ بلبان بيانه إن كنت تغذو . و كما قال أيضًا يمدح جمال الدين موسى ابن يعمور :

جسرت على لثمِ الشقيق بخدِّها　　　　و رشف رضابٍ لم أزل منهُ في سكرِ

و لست أخاف السحر من لحَظَاتها　　　　لأنّي بموسى قد آمنت منَ السحرِ

و كما قال شرف الدين شيخ الشيوخ بحماة يمدح سيدنا رسول الله ﷺ :

غصنُ نَقَا حلَّ عقدَ صبري　　　　بلينِ خصرٍ يكادُ يعقدُ

فمن رأى ذلك الوشاحَ الصـ　　　　ـائمَ صلَّى على محمد

انظر إلى حسن دقّة هذا المخلص و لطفه و جنى البيان و قطفه مع ما فيه من التورية الحسنة و البلاغة التي تبيت لها الجفون و سنة .

و ما أحسن قول جمال الدين محمد بن نباتة في تشبيه المخلص يمدح الملك المؤيد صاحب حماة :

كيف الخلاصُ لمطويّ على شجنٍ　　　　و قد تمالتْ عليه أعين سحرهْ

تغزُو لَوَاحظهُ في المسلمين كما　　　　تغزُو سيوف عماد الدين في الكَفَره

و قال النفيس القطرسي يمدح شجاع الدين جلدك :

يا قلبَ مَنْ لانَتْ مَعَا   طِفُهُ عَلَيْنا ما أشدَّكْ
أتظنّني جَلْدَ الهوى   أو أنّ لي عَزَماتِ جَلْدَكْ

أي عزمات كعزمات شجاع الدين جلدك . هذا . والله أعلم .

الباب الحادي والسبعون
في الجواب الرابع والسبعين

التشبيه على أنواع :

الأوّل : ما لا يكون من قبيل الدعاء نحو : زيد مثل الأسد . و هذا النوع لا يورث تكراره على اللسان و إعادته في البيان فائدة جديدة سوى التاكيد . و التكرار لا يستحسن في هذا النوع ، بل يقبح عند عدم الحاجة إليه .

والثاني : ما يكون دعاء لكن لا يتيقن قبوله عند الله كدعاء غير الأنبياء و نحو ذلك . و هذا النوع كالنوع الأوّل . لا فرق بين تكراره و عدمه لأنّ الإعادة ليست إلّا للتاكيد و لعدم تيقن قبولية الدعاء الأوّل لا لطلب الزيادة على ما حصل بالدعاء الأوّل كما لا يخفى . و التاكيد و إن كان آلاف مرّات مستحسن في هذا النوع رجاءَ أن يتقبل الله قولاً واحدًا من تلك الأقوال المكررة ، و أن يوافق الدعاء ساعة من الساعات المباركة . و في الحديث : إنّ لربّكم في دهركم نفحات . ألا فتعرضوا لها . فقول الرجل " أستغفر الله ، أستغفر الله " مكرّرًا آلاف آلاف مرّة إنّما هو لطلب المغفرة المطلوبة بالدعاء الأوّل .

نعم ، إن قبل دعاؤه و غفره الله في أوّل وهلة كان تكراره تأسيسًا منجدًا في كلّ مرّة فائدة جديدة ، و محصّلاً له في كلّ لحظة مرتبة سعيدة و منقبة شماء و كرامة ذات بقاء . لكن هذا مقام غائب عن الأبصار و البصائر . ولا يعلم الغيب إلّا الله مالك الظواهر و الضمائر .

والثالث : ما يكون دعاء . و يكون الدعاء والتحيات مقبولة في كلّ مرّة . والصلوات الطيّبات إلى الله صاعدة في كلّ لحظة . يرفع الله تعالى بها قدر التالي ، و يشرح منها صدر التالي .

و التكرار في هذا النوع كلّما كثر زاد تأنيسًا و أفاد تأسيسًا . و ما أحسن قول قائل :

أَعِدْ ذكرَ نعمانٍ لنا إنَّ ذِكْرَهُ   هُوَ المِسْكُ ما كرَّرْتَهُ يتضوَّعُ

و بالإعادة في هذا النوع يفضل المشبّه على المشبّه به أضعافًا مضاعفة . و ينال أمثال ما ناله المشبّه به بعد ما سالفه مسالفة . و يغترف عند الله بكلّ دعاء غرفة جديدة من بحار رحمته تعالى . و يقتطف بعد كلّ نداء حظًّا وافرًا من ثماره .

و معلوم أنّ الصلاة على النبي ﷺ متقبلة ، لاسيما صلاة النبي على نفسه . و قد صرّح كثير من العلماء أنّ في كلّ عبادة و ذكر مقبولاً و مردودًا ، و أمّا الصلاة على النبي ﷺ فلا تكون إلّا مقبولة . بل بها يرجى قبول ما سواها من الأدعية و العبادات و الأذكار . و لذا تستحب الصلاة على النبي ﷺ قبل الدعاء و بعدها رجاءَ أن يقبل الله الدعاء .

أخرج الأصبهاني عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ما من دعاء إلّا بينه و بين السماء حجاب حتى يصلى على النبي ﷺ و على آل محمد . فإذا فعل ذلك انخرق الحجاب و دخل الدعاء . و إن لم يفعل ذلك رجع الدعاء .

و أخرج الترمذي عن عمر رضي الله عنه قال : الدعاء موقوف بين السماء والأرض . لا يصعد منه شيء حتى تصلي على نبيك .

قال العارف الأكبر الشيخ أحمد المجدّد رحمه الله تعالى في المكتوب الثامن و العشرين من المجلّد الثالث من مكتوباته : قد قال العلماء : إنّ الصلاة على النبي ﷺ مقبولة ولو صدرت رياءً و سمعةً . و هي واصلة إلى النبي ﷺ و إن لم يحصل منها ثواب إلى المصلّي . فإنّ حصول الثواب من الأعمال مربوط بتصحيح النيّة . و أمّا وصولها إلى النبي ﷺ الذي هو محبوب ربّ العالمين و كونها مقبولةً في حقه عليه الصلاة والسلام فتكفيه أدنى علة . و قوله تعالى " وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا " نازل في حقه صلى الله عليه و على آله و على جميع إخوانه الكرام من الأنبياء و الملائكة العظام إلى يوم القيام . انتهى كلام الشيخ بتعريب ج٣ ص٤٣ .

ثم لمّا ثبت أنّ الصلاة على النبي ﷺ مقبولة كان تكرارها تأسيسًا . و إعادتها في كلّ لحظة إنّما هي لطلب الزيادة و تحصيل جديد الفائدة . فهي المسك الأذفر . كلّما حركّته كان أضوع و أفوح ،

و السراج الأنور متى ما زدته سليطًا كان أضوء و أصبح .

فنظير قولنا " اللّهم صلّ على محمد كما صلّيت على إبراهيم " أن تقول لمن أعطى زيدًا عشرة دراهم : أعطني مثل ما أعطيت زيدًا . فأعطاك عشرة . ثم تقول : أعطني مثل ذلك . فأعطاك عشرة مرّة ثانية . ثم تقول : أعطني . فأعطاك . وهلمّ جرًّا . فلزيد عشرة دراهم . و لك أضعاف ذلك بقدر إعادتك السؤال و تكرار له . فما النسبة بين ما لزيد من عشرة دراهم و بين ما لك من آلاف آلاف الدراهم .

ثم إنّ صلاة الأمّة على النبي ﷺ لا تزال تترى ما كرّ الملوان . و كذلك صلاة الله و الملائكة مستمرّة ما لألأ الفرقدان و تنعم الثقلان في نعيم الرضوان و جنة الرحمن . و تصل إليه ﷺ في كلّ لحظة أضعاف ما يصل إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

حديثي قديمٌ في هَوَاهَا و ما لَهُ　　كما علِمتْ بَعْدٌ و ليسَ لَه قَبْلُ

فكما أنّ تلك الصلوات لا يحصي عددها إلّا الله كذلك شأن النبي و قدر فضله على الأنبياء لايدريه إلّا هو . هذا . ولله الحمد و المنة . (صباح يوم الجمعة ، ٤ شوال ١٣٩٠هـ . ملتان) .

ألقى الله في روعي هذا التوجيه اللطيف و الجواب القوي المنيف عند مطالعة تفسير الإمام الرازي المشهور بالكبير .

و لكون كلام الإمام الذي ألهمني الله عند النظر فيه أمسّ بالمرام و أمدّ للمقام ينبغي ذكره تنبيهًا و تأييدًا . ولا أقول : إنّه هو . وهو هذا ، قال في تفسير قوله تعالى " ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ " :

المراد منه صراط الأوّلين في تحمّل المشاقّ العظيمة لأجل مرضاة الله . يحكى أنّ نوحًا عليه الصلاة والسلام كان يضرب في كلّ يوم كذا مرّات بحيث يغشى عليه . و كان يقول في كلّ مرّة : اللّهم اهد قومي فإنّهم لايعلمون . فإن قيل : إنّ رسولنا عليه الصلاة والسلام ما قال ذلك إلّا مرّة واحدة (أي في واقعة الطائف) و هو كان يقول كلّ يوم مرّات . فلزم أن يقال : إنّ نوحًا عليه الصلاة والسلام كان أفضل منه . و الجواب : لمّا كان المراد من قوله " ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ " طلب تلك الأخلاق الفاضلة من الله تعالى ، و الرسول عليه الصلاة والسلام كان يقرأ الفاتحة في كلّ يوم كذا مرّة ، كأنّ تكلّم الرسول ﷺ بهذه الكلمة أكثر من تكلّم نوح عليه الصلاة والسلام بها . انتهى بلفظه . كبير ج١ ص١٣٨ .

فصل

هذه أقوال الأئمة في أنّ الصلاة على النبي ﷺ لا تردّ عند الجمهور . إيضاح المرام أنّ في المسألة قولين :

القول الأوّل : إنّها قد تردّ مثل سائر الطاعات . و في الدر المختار : و حرّر أنّها تردّ ككلمة التوحيد مع أنّها أعظم منها و أفضل لحديث الأصبهاني وغيره عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من صلّى عليّ مرّة واحدة فتقبّلت منه محا الله عنه ذنوب ثمانين سنةً . فقيّد المأمول بالمقبول . انتهى .

قلت : و عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا : من صلّى عليّ في كلّ يوم جمعة أربعين مرّة محا الله عنه ذنوب أربعين سنة . و من صلى عليّ مرّة واحدة فتقبّلت منه محا الله عنه ذنوب ثمانين سنة . و من قرأ قل هو الله أحد حتى ختم السورة بنى الله له منارًا في جمر جهنم حتى يجاوز الجمر . أخرجه التيمي في ترغيبه و أبو الشيخ ابن حبان في بعض أجزائه و الديلمي في مسنده من طريقه . و سنده ضعيف . ذكره السخاوي في القول البديع .

و في الفتاوى الولوالجية : أنّ الصلاة قد تردّ . و المراد نفي الثواب لأنّ القبول له شرط صعب . قال الله : إنّما يتقبّل الله من المتّقين أي فيتوقف على صدق العزيمة . و بعد ذلك يتفضل المولى تعالى بالثواب على من يشاء بمحض فضله لا بإيجاب عليه تعالى . لأنّ العبد إنّما يعمل لنفسه ، والله غنيٌّ عن العالمين . نعم ، حيث وعد سبحانه بالثواب على الطاعة و نحو الألم حتى الشوكة يشتاكها بمحض فضله تعالى لابدّ من وجوده لوعده الصادق . قال تعالى : أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُمْ .

و على هذا فعدم القبول لبعض الأعمال إنّما هو لعدم استيفاء شروط القبول كعدم الخشوع في نحو الصلاة أو عدم حفظ الجوارح في الصوم أو عدم طيب المال في الزكاة و الحجّ أو عدم الإخلاص مطلقًا و نحو ذلك من العوارض . و على هذا فمعنى " أنّ الصلاة على النبي ﷺ قد تردّ " عدم إثابة العبد عليها لعارض كاستعمالها على محرم كما مرّ ، أو لإتيانه بها من قلب غافل أو لرياء و سمعة . كما أنّ كلمة التوحيد التي هي أفضل منها لو أتي بها نفاقًا أو رياءً لا تقبل . و أمّا إذا خلت عن هذه العوارض و نحوها

فالظاهر القبول حتمًا إنجازًا للوعد الصادق كغيرها من الطاعات . و كلّ ذلك بفضل الله تعالى . انتهى .

و القول الثاني : أنّها لا تردّ ، و أنّها مقبولة على كلّ حال . و رأيت في كلام العارف بالله الشيخ عبد القادر الجيلي كما في الفتح المبين حديثًا و هو : أنّه عليه الصلاة والسلام قال : تعرض عليّ أعمال أمتي فأرى منها المقبول من المردود إلّا الصلاة عليّ فإنّها مقبولة غير مردودة . هذا . و الله أعلم . ولم أر من خرّجه من المحدثين .

و لهذا تقدّم على الدعاء رجاء أن يقبل . قال بعضهم : إنّ تقديم الصلاة عليه ﷺ على الدعاء أقرب إلى الإجابة لما بعدها من الدعاء . فإنّ الكريم لا يستجيب بعض الدعاء و يردّ بعضه . انتهى .

و قال الفاسي في شرح الدلائل : قال الشاطبي في شرح الألفية : الصلاة على رسول الله ﷺ مجابة على القطع . فإذا اقترن بها السؤال شفعت بفضل الله فيه فقبل . و هذا المعنى مذكور عن بعض السلف الصالح . و استشكل كلامه السنوسي وغيره . و لم يجدوا له مستندًا و قالوا : إن لم يكن له قطع فلا مرية في غلبة الظن و قوّة الرجاء . انتهى .

و في الفصل الأوّل من دلائل الخيرات : قال أبو سليمان الداراني : من أراد أن يسأل الله حاجته فليكثر الصلاة على النبي ﷺ ، ثم يسأل الله حاجته ، و ليختم بالصلاة على النبي ﷺ . فإنّ الله يقبل الصلاتين . و هو أكرم أن يدع ما بينهما . انتهى .

قال الفاسي في شرحه : و من تمام كلام أبي سليمان : و كلّ الأعمال فيها المقبول و المردود ، إلّا الصلاة على النبي ﷺ فإنّها مقبولة غير مردودة .

و روى الباجي عن ابن عباس رضي الله عنهما : إذا دعوت الله عزّ وجلّ فاجعل في دعائك الصلاة على النبي ﷺ ، فإنّ الصلاة عليه مقبولة . والله أكرم من أن يقبل بعضًا و يردّ بعضًا . ثم ذكر نحوه عن الشيخ أبي طالب المكّي و الغزالي . و قال العراقي : لم أجده مرفوعًا . و إنّما هو موقوف على أبي الدرداء رضي الله عنه . انتهى .

و صرّح به العارف بالله السيد عبد الرحمن العيدروس رحمه الله تعالى المتوفّى سنة ١١٩٢هـ . و هو من أجلّ مشائخ الزبيدي رحمه الله تعالى شارح الإحياء . حيث قال في شرح صلاة السيد أحمد البدوي رحمه الله تعالى :

و حسبك أنّه اتفق العلماء على أنّ جميع الأعمال منها المقبول و المردود إلّا الصلاة على النبي ﷺ فإنّها مقطوع بقبولها إكرامًا له ﷺ .

الباب الثاني والسبعون
في الجواب الخامس والسبعين

يمكن أن يقال : إنّ قولنا " كما " بمعنى كذا ، و " صلّيت " بمعنى الأمر ، أي صلّ . و معنى الكلام : صلّ على محمد كذا صلّ على إبراهيم .

فكلمة " ما " معرفة بمعنى " ذا " و نحو ذلك . وهي تأتي لمعانٍ كثيرة و على وجوه عديدة . فحدّث عن البحر ولا حرج . تأتي معرفة و نكرة ، موصوفة و موصولة ، مفيدة و زائدة ، زمانية و غير زمانية ، مصدرية و نافية و كافّة ، شرطية و استفهامية ، حرفية و اسمية .

قال ابن عصفور : إنّ " لما " خمسة و ثلاثين موضعًا . راجع الأشباه و النظائر النحوية للسيوطي رحمه الله تعالى ج٢ ص١١٦ .

و قال الشيخ الفقيه سليمان بن موسى بن بهرام السمهودي في معاني " ما " كما في طبقات السبكي ج٦ ص١٠٦ :

لِما في كلامِ العربِ تسعةُ أوجهٍ　　تعجّبْ وصِفْ منكورةً و انْفِ و اشْرُطِ
و صِلْها و زِدْ و استُعمِلتْ مصدريّةً　　و جاءتْ لِلاستفهامِ و الكفّ فاضبطِ

و يمكن أن يقال : إنّ معناه " و كذا صلّ على إبراهيم " بتقدير حرف العطف . و تقدير حرف العطف منفردًا ، بل مع المعطوف أيضًا كثير في كلام العرب ، بل وقع في القرآن و الحديث الصحيح . و إذا ثبت في كلام الله و أيّد بما هو معجز فبأيّ حديث بعده يؤمنون .

و كذا كثر وقوع الخبر كالماضي و المضارع بمعنى الأمر في الدعاء وغيره .

فمنه ما روى البخاري عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : إذا وسع الله عليكم فأوسعوا . صلى رجل في إزار و رداء ، في إزار و قميص ، في إزار و قباء .

قال ابن مالك في شواهد التوضيح و التصحيح لمشكلات الجامع الصحيح للبخاري ص٤١ : قلت : تضمّن هذا الحديث فائدتين :

إحداهما ورود الخبر . و هو الفعل الماضي بمعنى الأمر . و هو "صلى رجل" و المعنى : ليصل رجل . و مثله من كلام العرب : اتقى الله امرؤ فعل خيرًا يثب عليه . و المعنى : ليتق و ليفعل . و لكونه بمعنى الأمر جيء بعده بجواب مجزوم كما يجاء بعد الأمر الصريح . و أكثر مجيء الماضي بمعنى الطلب في الدعاء نحو : نصر الله من والاك و خذل من عاداك .

والفائدة الثانية حذف حرف العطف . فإنّ الأصل : صلّى رجل في إزار و رداء أو في إزار و قميص أو في إزار و قباء . فحذف حرف العطف مرّتين لصحة المعنى بحذفه .

و نظير هذا الحديث في تضمن الفائدتين قول النبي ﷺ : تصدّق امرؤ من ديناره من درهمه من صاع برّه من صاع تمره . انتهى .

و قال ابن مالك أيضًا في الشواهد ص١٢٩ في قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ " من أجل التماثيل التي فيها الصور " : و يجوز جعل المجرور و هو "الصور" معطوفًا بواو محذوفة ، كما حذفت "أو" في قول عمر : صلى رجل إلخ . ولا إشكال في رواية من أثبت الواو قبل "الصور" . انتهى .

ثم وقوع لفظ الأمر بمعنى الخبر و بالعكس كثير في كلام العرب ثابت عند علماء الأدب .

قال الحافظ السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ في الأشباه النحوية : فأمّا "أف" و "هيهات" و بابهما مما هو اسم للفعل الماضي وغيره في الخبر لا في الإنشاء فمحمول في ذلك على أفعال الأمر أي الإنشاء . وكان الموضوع في ذلك إنّما هو "لصه" و "مه" و "رويد" و نحو ذلك . ثم حمل عليه باب "أف" و "شتان" و "وشكان" ، من حيث كان اسمًا سمّي به الفعل . فقد تجد لفظ الأمر في معنى الخبر نحو قوله تعالى : أسمع بهم و أبصر . و قوله تعالى : قُلْ مَنْ كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا . أي فليمدن . و وقع أيضًا لفظ الخبر في

معنى الأمر نحو قوله تعالى : لَا تُضَآرَّ وَالِدَةُۢ بِوَلَدِهَا . و قولهم : هذا الهلال . معناه : انظر إليه . و نظائره كثيرة . انتهى . و المراد : الحمل على "صه" في البناء . أشباه ج١ ص١١٦ .

و من مجيء الخبر بمعنى الإنشاء الحديث المشكل و هو ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا : لايزني الزاني حين يزني و هو مؤمن . ولا يسرق السارق حين يسرق و هو مؤمن . رواه مسلم . حيث أخرج الطبري من طريق محمد بن زيد بن واقد بن عبدالله بن عمر : أنّه خبر بمعنى النهي . و المعنى : لا يزنين مؤمن ولا يسرقن مؤمن . كذا في فتح الملهم ج١ ص٢٣٢ .

ومنه الحديث المرفوع عن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : تسمعون و يسمع منكم و يسمع ممن يسمع منكم . رواه أبوداود في باب فضل نشر العلم ، من كتاب العلم . بذل المجهود ج٤ ص٣٢٦ . و المعنى : اسمعوا العلم مني و ليسمع منكم من بعدكم وليسمع ممن بعدكم من بعده . وهلُمّ جرًّا .

و من باب كون الأمر بمعنى الخبر قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : إذا لم تستحي فاصنع ما شئت . رواه البخاري عن أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في شرح الأربعين للنووي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ص١٧٤ : إنّه أمر ، و معناه الخبر . و المعنى : أنّ من لم يستحي صنع ما شاء . على حد قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : من كذب عليّ متعمّدًا فليتبوّأ مقعده من النار . أي يتبوأ مقعده من النار . و هذا اختيار أبي عبيد و القاسم ابن سلام و ابن قتيبة .

و من باب كون الخبر بمعنى الأمر قوله تعالى : وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ . قاله المفسرون .

الباب الثالث والسبعون
في الجواب السادس والسبعين

ملخّصه أنّ لإبراهيم عليه الصلاة والسلام عند الله مقامًا عاليًا مجيدًا ، و لنبيّنا صلى الله عليه وسلم مقام فوق ذلك أعلى و أسنى من مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام . و مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام واقع في وسط الطريق الموصل إلى مقام محمديّ . و الوصول إلى المقام المحمديّ يتوقف على قطع المقام الإبراهيميّ و طيّ المرحلة الخليليّة التي هي دون المقام المحمديّ .

فالمطلوب في قوله عليه الصلاة والسلام " اللّهم صلّ على محمد كما صلّيت على إبراهيم " أن يوصله الله تعالى إلى الولاية الإبراهيميّة ليسهل منها الترقي إلى ما فوقها ، و يتيسّر الفوز بالولاية المحمديّة ، و أن ييسّر له الله تعالى طي العقبة الخليليّة ليظفر بالوصول إلى ما وراء هذه العقبة و وراء الوراء إلى ما لا يتناهى .

و لعلّ لدعاء أمّته عليه الصلاة والسلام تأثيرًا ما في ذلك . والله أعلم بحقيقة ذلك . و لذلك أمر صلى الله عليه وسلم أمّته بكثرة هذه الصلاة . فعلى هذا البيان لا يلزم كون إبراهيم عليه الصلاة والسلام أفضل من نبيّنا عليه الصلاة والسلام مع صحة التشبيه كما لايخفى . بل هذا التشبيه دليل على أنّه عليه الصلاة والسلام أفضل من إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، و مقامه فوق مقامه عليهما الصلاة والسلام .

مثل ذلك كمثل من بنى قصرًا ، في أسفله بيوت الخدام ، و فوقه منزل الوزير ، و فوق منزل الوزير منزل الملك ، فيه سريره . لكن لما يسكن الملك في منزله و لم يتمكن على سريره الملكي بعد فرام السلطان الملك الوصول إلى منزله و الجلوس على سريره . فأمر خدّامه بأن يعاونوه و يظاهروه بوضع المرقاة أو نحو ذلك ، و أن يوصلوه إلى المنزل الفوقاني منزل الوزير ليتبختر من ذلك إلى منزله و يسير إلى سريره فوق منزل الوزير .

ولا يلزم من ذلك كون الوزير أفضل من السلطان . لأنّ السلطان إنّما طلب الوصول إلى منزله لا ليسكنه و يقنع بمنزل الوزير بل ليكون ذريعة إلى ما فوق و إلى سريره . فإذا وصل إلى ما فوق و إلى سريره هناك يبدو للكلّ أنّ السلطان في أعلى المقامات ، و الخدّام المعاونون في أسفلها ، و الوزير في أوسطها . و أنّ الوصول إلى منزل السلطان لا يمكن إلّا بعد قطع المنزل الوسطاني الواقع في الطريق و هو منزل الوزير . فالوزير و السلطان و الخدّام على الترتيب مثال لإبراهيم و نبينا و أمّته خير الأمم عليهما الصلاة والسلام ، و منازلهم منازلهم مرتبة .

فنبينا ﷺ له مركز دائرة الولاية ، و لإبراهيم دائرة الولاية نفسها . و الخط الخارج من نقطة خارجة من الدائرة إلى مركزها يقطع الدائرة أوّلًا ثم يصل إلى مركزها ثانيًا . و ظلّ هذه الدائرة الصباحة من حسن الخدّ و جمال الخال و رشاقة القدّ و غير ذلك مما يتعلق بالعين في عالم المجاز . و ظلّ مركزها الملاحة التي هي وراء حسن العين . و إنّما هو أمر ذوقيّ لا يدركه إلّا صاحب ذوق . و الملاحة أعلى شأنًا و أسنى برهانًا و أعلق بالقلب من الصباحة . و الوصول إلى الملاحة إنّما يمكن بعد طيّ منازل الصباحة .

فالمطلوب في الصلاة المأثورة "كما صلّيت على إبراهيم " هو الوصول إلى هذه الدائرة و إلى منزلة هذه الصباحة أوّلًا ليتيسّر الوصول ثانيًا إلى ما فوق ذلك من الولاية المحمديّة و المراتب الأحمديّة .

و لهذا السرّ أمر نبينا ﷺ مع كونه أفضل المخلوقات بمتابعة إبراهيم عليه الصلاة والسلام . فهو ﷺ بواسطة هذه المتابعة وصل إلى ولايته العليا .

قال العبد الضعيف الروحاني البازي : قد استخرجت هذا الجواب اللطيف من فحوى كلام بعض الأولياء العارفين و الصوفية الصافية .

و يدلّ عليه صريحًا كلام العارف الأكبر الشيخ أحمد السرهندي المجدّد للألف الثانية حيث قال في المكتوب الرابع و التسعين إلى حضرة المخدوم زاده الخواجه محمد معصوم من المجلد الثالث من مكتوباته : إنّ الله تعالى جميل في ذاته . و جماله الذاتي ثابت له . ولا ندرك حقيقة ذلك الجمال و كيفيته . و مع ذلك في تلك الحضرة مرتبة مقدسة لا يمكن الوصول إليها من غاية عظمتها ، ولا يمكن توصيفها بالحسن و الجمال .

و التعين الأوّل الوجودي يعيّن ذلك الكمال و الجمال الذاتيّين و هو ظلّهما الأوّل . و تلك المرتبة المقدّسة كما أنّها لا مجال فيها للحسن و الجمال ليس فيها تعيّن أصلاً . فإنّها من غاية كبريائها لا تكون متعينة أصلاً (ع) في أيّ مرآة يكون مصوّرًا . و مع ذلك أودع في مركز دائرة التعين سرّ و كيفية من تلك المرتبة المقدّسة . فكما أنّ التعيّن الأوّل منشأ الولاية الخليليّة كذلك ذلك السرّ و الكيفية في مركز الدائرة منشأ للولاية المحمديّة على صاحبها الصلاة والسلام .

و لذينك الحسن و الجمال الذاتيّين اللذين التعين الأوّل ظلّهما شباهة بالصباحة التي هي في عالم المجاز من قبيل حسن الخدّ و جمال الخال . و لذلك السرّ و الكيفية المودعين في المركز مناسبة بالملاحة التي هي وراء رشاقة القدّ و صباحة الخدّ و وراء حسن العين و جمال الخال . و إنّما هو أمر ذوقيّ ، من لم يعط ذوقًا لا يدركه . قال الشاعر :

لِيْ ظَبْيَةٌ فيها الملاحَةُ كُلّها مَنْ لي بوصفِ جَمَالها و دَلَالها

فاعرف التفاوت بين هاتين الولايتين من هذا البيان . و إن كان كلتاهما ناشئتين من قرب الذات تعالت و تقدست . و لكن مرجع أحدهما كمالات الذات و معاد الأخرى صرف الذات تعالت . فإذا كانت الملاحة فوق الصباحة فالوصول إلى الملاحة إنّما يتصور بعد طيّ جميع مراتب الصباحة . و ما لم يتيسر الوصول إلى جميع مراتب الولاية الإبراهيمية لا يتيسر الوصول إلى حقيقة هذه الولاية التي هو ذروة الولاية المحمديّة العليا على صاحبهما الصلاة والسلام . و يمكن أن يكون كون نبينا مأمورًا بمتابعة ملّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأن يصل بواسطة تلك المتابعة إلى حقيقة ولايته .

ثم يترقى منهما إلى حقيقة ولاية نفسه التي وقع التعبير عنها بالملاحة و يتحقق بها . و حيث كان لنبيّنا ﷺ مناسبة ذاتية بمركز ولاية الخلّة التي هي أقرب إلى حضرة إجمال الذات و مناسبته بمحيط الدائرة أقلّ لكون وجهها إلى تفصيل كمالات الذات . فما لم يتحقق بكمالات محيط تلك الدائرة أيضًا لا تتم ولاية الخلّة .

و من ههنا ورد في الصلاة المأثورة "كما صلّيت على إبراهيم " ليتيسّر له كمالات ولاية الخلّة بالتمام كما كانت ميسرة لصاحب تلك الولاية على نبينا و عليه الصّلاة والسلام . انتهى كلامه بتعريب و تلخيص مكتوبات المجدد ج٣ ص١٢٦.

الباب الرابع والسبعون
محتو على جوابين

يستحيل إرادة المعنى الحقيقي من قولنا " صلى الله على محمد " إذ معناه طلب الصلاة من الله على النبي ﷺ بأن يقول الله مثلا : الصلاة على محمد . كما قال الله في التسليم : سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ . سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ . سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ . سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ . سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَ هَٰرُونَ .

ثم قوله تعالى " الصلاة على محمد " أو "الصلاة عليك أيها النبي " دعاء منه تعالى . و دعاء الله من نفسه و ذاته في الظاهر لا يعقل ، إذ هو يستدعي داعيًا و مدعوًّا منه و مدعوًّا له . و هي أمور يجب تغايرها . و التغاير ههنا منتف بين الداعي و المدعو منه . إذ الشيء لايغاير ذاته . فثبت أنّ إرادة المعنى الحقيقي في الصلاة غير مراد .

فنقول : لنا ههنا تقريران . كلّ تقرير جواب على حدة .

التقرير الأوّل : أنّه لما استحال المعنى الحقيقي من الصلاة و انتفى انتفى المعنى الحقيقي للتشبيه أيضًا . لأنّ المحال يستلزم المحال كما صرّح به المحققون . و الجنس يميل إلى الجنس . و إشكال أفضلية إبراهيم إنّما يرد إذا أريد من التشبيه المعنى الحقيقي و إذ لا فلا . لأنّ دائرة المجاز أوسع من دائرة معدل النهار و أكبر من دائرة نصف النهار . و هذا أمر أشهر من الشمس .

التقرير الثاني : أنّ المراد من قولنا " صلى الله على محمد " إرادة الله للصلاة على نبينا ﷺ . و إذا أراد الله شيئًا قال له : كن فيكون . و الإرادة صفة الله متوحدة بسيطة لا تقبل التعدد و الكثرة

ولا يتصور فيها التفاضل و التغاير . و التفاضل و التعدد إنّما يتحقق في مرادات الله لا في الإرادة كما يتأتى ذلك في مقدورات الله تعالى لا في قدرته .

و هكذا شأن جميع صفات الله كالعلم و الكلام . فإنّها عين ذات الله كما ذهب إليه المعتزلة ، و اختاره كثير من الصوفية ، منهم العارف الكبير الشيخ أحمد الفاروقي السرهندي مجدّد الألف الثانية . أو لا عينه ولا غيره كما هو مسلك المتكلّمين من أسلافنا . وكذا حال صفاتنا . فإنّ قوّتنا الإرادية وكذا قدرتنا أمران بسيطان و ملكتان راسختان فينا . لا تكثّر في كلّ واحد منهما بالفعل إلّا باعتبار المرادات و المقدورات و التعلّقات . و المرء يعدّ قادرًا و إن لم يعمل .

ولذا يعاقب من لا يأتي بما وجب عليه . و الكافر يعذّب بإنكاره من الإيمان لتأتي قدرته بالإيمان وكونه مكلّفًا به . و هذا القدر من القدرة ضروريّ ثابت للعبد عرفًا . و أمّا كون الاستطاعة مع الفعل فبحث آخر مبنيّ على التدقيق دون العرف .

ثم لما ثبت أنّ المقصود في الصلاة الإرادة و التشبيه إنّما هو بين الإرادتين أي طلب تحقق إرادة الله للصلاة على محمد كما تحققت إرادته للصلاة على إبراهيم انتفى التفاضل بل تعذر و استحال . و لما انتفى التفاضل بين طرفي التشبيه انتفى الاعتراض على أفضليّة نبينا ﷺ . هذا . والله أعلم .

و نظير ما سطرنا و حقّقنا ما قال كثير من المحققين و المفسرين في مبحث تسليم الله على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، تحت قوله تعالى " صَلُّوا۟ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسۡلِيمًا " : إنّ معنى الجملة الدعاء بالسلامة و طلبها منه تعالى لنبيه ﷺ . و استشكل ذلك فيما إذا قال الله تعالى " السلام عليك أيّها النبي " أو نحوه ، بأنّ الدعاء لا يتصور منه عزّ وجلّ . لأنّه طلب وهو يتضمّن طالبًا و مطلوبًا و مطلوبًا منه . و هي أمور متغايرة . فإن كان طلبه سبحانه السلامة لنبيه عليه الصلاة والسلام من غيره تعالى فمحاليته من أجلى البديهيات . و إن كان من ذاته عزّ وجلّ لزم أن يغاير ذاته . و الشيء لا يغاير ذاته ضرورةً .

و هذا منشأ قول بعضهم : إنّ في السلام منه تعالى إشكالاً . له شأن فينبغي الاعتناء به و عدم إهمال أمره . فقلّ من يدرك سرّه .

و أجيب بأنّ الطلب من باب الإرادات . و المريد كما يريد من غيره أن يفعل شيئًا فكذلك يريد

من نفسه أن يفعله هو . و الطلب النفسيّ و إن لم يكن الإرادة فهو أخصّ منها . و هي كالجنس له . فكما يعقل أنّ المريد يريد من نفسه فكذلك يطلب منها . إذ لا فرق بين الطلب و الإرادة .

و الحاصل : أنّ طلب الحقّ جلّ وعلا من ذاته أمر معقول يعلمه كلّ إنسان من نفسه بدليل أنّه يأمرها و ينهاها . قال سبحانه : إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ . وَ أَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَ نَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ . و الأمر و النهي قسمان من الطلب . و قد تصوّرا من الإنسان لنفسه بالنصّ كما في هاتين الآيتين المذكورتين . فكذا بقية أقسام الطلب و أنواعه .

و أوضح من هذا أنّ الطلب منه تعالى بمعنى الإرادة . و تعقل إراداة الشخص من ذاته شيئًا بناءً على التغاير الاعتباري . و مثله يكفي في هذا المقام . و معنى "اللّٰهم سلّم على النبي" : اللّٰهم قل السلام على النبي ، على ما قيل . كذا قال الآلوسي في روح المعاني ج٢٢ ص٨٠ .

الباب الخامس والسبعون
وهو محتو على جوابين

التشبيه خمسة أقسام :

الأوّل : ما يكون لتعريف المشبّه و رسمه لا للتشبيه من حيث أنّه تشبيه . أي يكون ذكر المشبّه به بعد المشبّه كذكر المعرّف و الحدّ بعد المعرّف و المحدود . و هذا كما يقال : الرباعي كجعفر ، و الثلاثي كزيد ، و الحرف كمن و إلى ، و الاسم كرجل و فرس ، و الفعل كضرب و دحرج ، و النوع كالإنسان ، و الجنس كالحيوان ، و الشجر كالسدرة ، و الفاعل كزيد في ضرب زيد ، و الفقيه كأبي حنيفة ، و الفرض كالزكوة ، و السنّة كالسواك .

و اشتهر هذا بالتمثيل و التنظير . إذ هذا المثال قد يكون جزئيًّا لمعرّفه كقولك : الاسم كزيد . وهو التمثيل . وقد لا يكون جزئيًّا له كقولك : العلم كالنور و الجهل كالظلمة . و هو التنظير . و يطلق عليهما التمثيل أيضًا . و المقصود من كليهما الرسم .

و لذا اختلّ به حصرهم التعريف الحقيقي في الأربعة . و هي الحدّ التام و الناقص و الرسم التام و الناقص . و وجه الاختلال على ما قالوا : إنّ ههنا نوعًا آخر من التعريف الحقيقيّ و هو التعريف بالمثال . و بعض أهل المعقول قرّر السؤال بنحو آخر ، و هو أنّه كثيرًا ما يعرّف الشيء بالمثال . وهو قد يكون أخص كقول النحاة : الاسم كزيد . فكيف يصحّ قولهم : إنّ التعريف بالأخصّ لا يجوز .

و أجيب عنه كما في سلّم العلوم لمحب الله البهاري : أنّ التعريف بالمثال تعريف بالمشابهة المختصة . انتهى . تحرير الجواب : أنّ التعريف بالمثال ليس تعريفًا بالأخص ، ولا هو خارج من الأقسام

الأربعة . إذ ليس المراد منه التعريف بنفس المثال ، بل المراد تعريف ذلك الشيء بخاصّة مختصّة له باعتبار المقايسة . و هي المشابهة المختصّة بالمثال . فصار تعريفًا بالخاصّة . و هو رسم و محمول عليه و مساوٍ له في الصدق لا أخصّ .

و لهذا القسم علامات :

الأولى : صحة الحمل حملًا حقيقيًّا لا مجازيًّا في صورة القضيّة المهملة للمتأخرين ، أو القضية الشخصية غالبًا في طرف ، و في صورة الجزئيّة غالبًا في طرف آخر . فيقال في قولنا " الحرف كمن " : " من " حرف . فهي مهملة إن عدت " من " نوعًا . فالحكم على أفرادها المتحققة في عبارات شتّى . و هي في حكم محصورة كلّيّة ههنا . أي كلّ " من " حرف . أو هي شخصية إن عدت كلمة " من " شخصًا ، و بعض الحرف " من " . و هي محصورة جزئية . و في قولنا " الفاعل كزيد " في " ضرب زيد " ، " زيد " فاعل . و هي شخصية . و بعض الفاعل " زيد " . و هي محصورة جزئية .

والعلامة الثانية : يكون أحد الطرفين كلّيًّا و الآخر فردًا و حصة منه . فالحرف كلّيّ و " من " فرد منه شخصيّ أو نوعيّ .

والعلامة الثالثة : يكون الطرفان مفردين لفظًا و حكمًا و معنًى أو حكمًا فقط . لأنّ الكلّيّة و الجزئيّة من أوصاف المفردات كما فصل في كتب المعقولات . ففي قولنا " الفاعل كزيد " كلاهما مفرد مطلقًا . و في قولنا الجملة "كزيد قائم " هما مفردان حكمًا . إذ لم يرد من "زيد قائم" الإخبار الذي هو معنى الجملة و المركب . و هذه العلامة مشتركة قد تتحقق في القسم الثاني أيضًا بغير لزوم . و أمّا في القسم الأوّل فهي لازمة له .

والعلامة الرابعة : امتناع إيراد فعل التشبيه . فلا يصح أن يقال في " الفاعل كزيد " : إنّ زيدًا يشبه الفاعل ، ولا بالعكس . كما لا يخفى .

والعلامة الخامسة : لا يكون المشبّه به فيه أقوى و أعلى من المشبّه بل يمتنع . و كيف يسوغ لأحد أن يدعي و يقول : إنّ " من " أعلى و أقوى من الحرف ، و إنّ " زيدًا " أعلى من الفاعل . و هذا جليّ . ثم إنّي ذكرت هذه الخامسة في العلامات تسهيلًا للبيان . و إنّما هي في الحقيقة حكم هذا القسم من

التشبيه . فتنبّه . فالعلامات في الحقيقة أربع . فليتذكّر .

القسم الثاني : ما يرام فيه التشبيه المحض نحو " زيد كالأسد " ، حيث ريم فيه معرفة حال زيد بأنّه شجاع ، لا رسم زيد ولا حدّه .

و الفرق بين هذين القسمين جليّ بديهيّ ، يستبين لك بأدنى تدبّر في هذين المثالين " الحرف كمن " و " زيد كالأسد " و الجواد عينه فراره . فإنّ الأوّل من قبيل التمثيل ، و الثاني من باب التشبيه .

فلا يتحقق في هذا القسم شيء من العلامات الأربع المتقدّمة ما سوى الثالثة . و قد ذكرنا أنّها مشتركة بين القسمين ، فلا يصح الحمل بين زيد و أسد إلّا مجازًا للتباين بينهما . و ليس أحدهما فردًا من الآخر لذلك . ولا يمتنع فعل التشبيه . فيصحّ أن يقال : زيد يشبه الأسد .

و من علامات هذا القسم و أحكامه كينونة المشبّه به أقوى غالبًا و أعرف و أجلّ من المشبّه في وجه الشبه .

و من علاماته أيضًا تحقق الاستعارات بأنواعها فيه . و بهذا القسم يتعلق أبحاث علماء البيان . جزاهم الله خيرًا . و هذان القسمان أمرهما أشهر و أظهر . فنجعلهما أساسًا .

و القسم الثالث : التشبيه في الأفعال بأن يتحد في الطرفين الفعل و الفاعل دون القيود و المتعلقات . و منه " اللّهم صلّ على محمد كما صلّيت على إبراهيم " . فالفعل في الطرفين واحد و هو الصلاة . وكذا الفاعل و هو الله تعالى ، دون المتعلق و هو " على محمد " في المشبّه و " على إبراهيم " في المشبّه به . و منه : أحسن إلى والدك كما أحسنت إلى صديقك . و قوله تعالى : إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ .

ثم هذا القسم أقرب إلى القسم الأوّل منه إلى القسم الثاني لتحقق العلامات فيه و لو بأدنى تصرف .

ثم هنا نظران : جليّ و دقيق . فالجليّ أنّ الصلاة إذا لوحظت مع الفاعل فقط و عزل النظر في الطرفين عن القيدين ، لأنّ أركان الكلام الفعل و الفاعل فقط . و هما المسند و المسند إليه . و الباقي من الفضلات . صحّ الحمل حملاً أوّليًا . فيقال " صلاة الله هي صلاة الله " وكذا " صلاة الله على محمد هي

صلاة الله " و كذا " صلاة الله على إبراهيم هي صلاة الله " ، بأن يقطع النظر عن قيد أحد الطرفين . ولايصح أن يقال : صلاة الله تشبه صلاة الله . لعدم التغاير بين الطرفين .

و علامة الكلّيّة و الجزئيّة أيضًا متحققة إذا قطع النظر عن قيد أحد الجانبين فقط . فإنّ صلاة الله على محمد فرد من مطلق صلاة الله . و كذا صلاة الله على إبراهيم فرد من صلاة الله المطلقة .

و كذا إذا لوحظ فعل الصلاة فقط بدون لحاظ الفاعل و القيد الزائد . و البيان البيان .

فهذا القسم يشبه القسم الأوّل بوجوه متعددة . و يشبه القسم الثاني باعتبار واحد فقط . و هو اعتبار الفعل مع الفاعل ، و القيد في الطرفين بأن يعتبر هنا صلاة الله على محمد ، و هناك صلاة الله على إبراهيم حيث يصحّ أن يقال : هذه الصلاة المقيّدة تشبه تلك الصلاة المقيّدة .كما يقال : زيد يشبه الأسد . و هذه علامة القسم الثاني . ولا يصحّ الحمل بينهما ولا القول بأنّ إحداهما فرد من الأخرى . و لمشابهته القسم الثاني من وجه وجب في المشبّه به فيه نوع فضل و نوع قوّة كالتحقق و المعروفية و نحو ذلك . هذا تقرير اعتبار الصلاة الغير المقيّدة . و عليه بناء هذا الجواب .

ثم ههنا جواب آخر مبني على نظر دقيق تصير به الصلاة المقيدة أيضًا من قبيل القسم الأوّل . و هو أنّ نبينا ﷺ نبي الأنبياء . و كلّ الأنبياء من أمّة نبينا ﷺ . ولا يخفى على العلماء أنّ كمالات الأمّة بعض كمالات نبيهم .كما قال أهل السنّة : إنّ كرامات الأولياء في الأصل معجزات نبيّهم عليه الصلاة والسلام .

فعلى هذا النظر معجزات الأنبياء كلّهم معجزات نبينا عليه الصلاة والسلام ، و مواهب الله عليهم و مناقبهم في الحقيقة بعض مواهب الله على نبينا و بعض مناقبه عليه الصلاة والسلام . و الصلاة منقبة عظيمة . فصلاة الله على إبراهيم و كذا على آله الأنبياء بعض صلوات الله على محمد عليه الصلاة والسلام .

و بعد تمهيد هذا أقول بفضل الله و توفيقه : الصلاة المقيّدة في الطرفين من قبيل قولنا " الحرف كمن " . فإنّ صلاة الله على إبراهيم بعض من صلاة الله على محمد كما أنّ " من " بعض الحرف . و صحّ الحمل بأن يقال : صلاة الله على إبراهيم هي صلاة الله على محمد . و أن يقال : بعض صلاة الله على محمد هي صلاة الله على إبراهيم . و يمتنع أن يقال بالنظر إلى ما في التمهيد : إنّ صلاة محمد تشبه صلاة إبراهيم . لعدم تحقق التغاير بناءً على النظر الدقيق ،كما يمتنع أن يقال " الحرف يشبه من " و بالعكس .

و إذ قد عنّ لك أنّ التشبيه في الصلاة الإبراهيمية من أفراد القسم الثالث و أنّ فيه نظرين جليًّا و دقيقًا و أنّه على كلا النظرين بمنزلة القسم الأوّل حكمًا الذي لا يكون المشبّه به فيه أجلّ و أقوى من المشبّه استيقنت أنّه لا يثبت من هذه الصلاة أفضلية إبراهيم و صلاته على محمد و صلاته . بل يثبت أنّ محمدًا و صلاته أجلّ من إبراهيم و صلاته عليهما الصلاة والسلام . لكون صلاة إبراهيم بعض صلاته صلى الله عليه وسلم .كما لا يثبت من قولنا "الحرف كمن " أنّ " من " أفضل من الحرف .

و القسم الرابع : التشبيه في الأفعال بأن يتحد الفعل دون الفاعل و المتعلقات نحو : أحسن إليّ كما أحسنت إليك .

و القسم الخامس : في الأفعال المتخالفة ، سواء تخالف الفاعلان و المتعلقات أو لا . و منه قوله تعالى : كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ .

و هذا القسم الخامس أقرب إلى القسم الثاني منه إلى القسم الأوّل . فلابدّ فيه من أن يكون المشبّه به فيه أعلى و أقوى أو أظهر من المشبّه في وجه الشبه في الواقع أو في عرف الناس . و مع هذا يكون كثيرًا ما دليلاً على المشبّه و تحقّقه .

ألا ترى أنّ البدء في المثال المذكور ليس بأهون من العود ، بل هو أشدّ و أصعب . هذا عرف الناس في مصنوعاتهم ، و إلاّ فالبدء و العود متساويان عند الله عزّ وجلّ .

و القسم الرابع أيضًا كذلك غالبًا في بعض الأمور . و هنا أقسام أخر تركناها . و فيما ذكرنا كفاية . هذا . ولله الحمد و المنّة .

الباب السادس و السبعون
وهو مشتمل على خمس جوابات

لا يبعد أن يقال : إنّ كلمة " على " بمعنى " عن " التعليلية ، و متعلق الفعل مقدر و هو نحو "علينا و على المسلمين" و نحو ذلك . و كذا لا يبعد أن يقال : إنّ " على " بمعنى " مع " أو بمعنى اللام التعليلية أو بمعنى "عند " أو الباء . و البيان البيان .

فعلى هذه الاحتمالات الخمس معناه : اللّهم أنزل الصلوات و البركات علينا أو على عبادك الصالحين لأجل محمد ﷺ و أهل بيته الطاهرين . و ببركة نبينا و آله أي كما طهرت محمدًا ﷺ و عظمته و أهل بيته . و قلت : إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت . فطهّرنا ببركتهم ، و لأجل ما قفونا أسوتهم و اتبعنا سنتهم كرّمنا كما كرّمتهم ، كما أنزلت بركاتك و صلواتك على الأمم السابقة و على أنبياء بني إسرائيل لأجل إبراهيم و ذرّيّته و خواصّ أهل بيته من إسماعيل و إسحاق و يعقوب ، و طهّرتهم و فضّلتهم ببركة إبراهيم عليهم الصلاة والسلام و آله .

إن قلت : هل صرّح أحد من أئمة العربية على مجيء " على " بمعنى " عند " و الباء ؟

قلت : نعم ، بل قالوا بذلك في تفسير عدة مواضع من القرآن . قال الإمام ابن الأنباري في تفسير قوله تعالى حكاية " أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى " : إنّ " على " ههنا بمعنى " عند " أو بمعنى الباء . كذا في روح المعاني ج١٦ ص١٦٦ .

و منه ما روى المغيرة بن شعبة رضي الله عنه في حال الدجال : قلت : إنّهم يقولون : إنّ معه جبل خبز و نهر ماء . قال : إنّه أهون على الله من ذلك . رواه البخاري ج٢ ص١٠٥٥ . و المعنى : أهون عند

الله . و منه قوله تعالى : وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّوْنَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِيْنَ . أي بهم . بدليل قولهم : مررت بزيد .

و منه قوله :

ع و لقد أمر على اللئيم يسبّني

و قد جاء الباء بمعنى " على " على عكس ما قلنا ، كما قال ابن هشام في معاني الباء : العاشر الاستعلاء نحو " مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ " الآية ، بدليل " هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيْهِ مِنْ قَبْلُ " . انتهى . مغني اللبيب ج١ ص٩٨ .

ثم إنّ ورود حرف " على " بمعنى " عن " ثابت في الكلام البليغ و الفصيح . خرّج عليه بعض العلماء المحقّقين و الأئمة السابقين عدة آيات القرآن . فلمّا ساغ حمل القرآن على ذلك و تأويله به ساغ حمل ما ليس بقرآن عليه و تأويله به بالطريق الأولى . فمن ذلك ما نقل الآلوسي رحمه الله تعالى في تفسيره روح المعاني ج١٤ ص١٢٥ تحت قوله تعالى " فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ " : عن بعض العلماء : أنّ " على " في الآية بمعنى " عن " . و هي للتعليل . و الكلام على تقدير مضاف . أي خرّ من أجل كفرهم السقف . انتهى .

قال العبد الضعيف الروحاني البازي : و من هذا القبيل عندي الحديث الذي استعجم معناه على كثير من الطلبة . و هي قوله عليه الصلاة والسلام لحكيم بن حزام رضي الله عنه : أسلمت على ما سلف من خير . و في رواية : على ما أسلفت من خير . سأله حكيم بن حزام و قال : يا رسول الله ! أرأيت أمورًا كنت أتحنّث بها في الجاهلية من صلة و عتاقة و صدقة . هل لي فيها من أجر . رواه البخاري ج٢ ص٨٨٦ و مسلم . أي أسلمت لأجل ما فعلت من الخيرات و ببركة ما أتيت من الحسنات . فإنّ الحسنة تجرّ إلى الحسنة . " فعلى " فيه للتعليل بمعنى " عن " أو اللام .

و من هذا القبيل ما رأيت في بعض الأدعية المأثورة : بسم الله على ما أعطاني . أي لأجله . و منه قولهم : المحمود عليه . " فعلى " فيه للتعليل . أي المحمود لأجله . فإنّ تعريفهم المحمود عليه بالباعث للحمد و العلّة له يدلّ صريحًا على ما ادّعيت .

و منه ما في حديث أنس رضي الله عنه : أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قتل يهوديًّا بجاريةٍ قتلها على أوضاح لها (أي الحلي) . انتهى . رواه البخاري ج٢ ص١٠١٧ . أي لأجل الأوضاح و الحلي و أخذها منها .

و منه حديث : ربّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرّه . و المعنى : لله و لأجل أن يبرّه الله معتمدًا على ذلك . و ليس معناه : على خلاف الله و خلاف إرادته . و هو من الأحاديث المشكلة . فاندفع الإشكال . ولله الحمد .

و منه حديث ربيع بنت معوذ بن عفراء رضي الله عنه : نصوم صبياننا الصغار منهم إن شاء الله و نذهب إلى المسجد فنجعل لهم اللعبة من العهن . فإذا بكى أحدهم على طعام أعطيناها إيّاها . رواه مسلم في الصوم .

فإن قلت : هل تجيء كلمة " عن " للتعليل .

قلت : نعم ،كما في قوله تعالى : وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ . أي لأجله . و قوله تعالى : وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ . أي لأجلها . و قوله تعالى : فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا . إن كان الضمير للشجرة فالمعنى كما قال الزمخشري : بسببها و لأجلها . صرّح ابن هشام في المغني ج١ ص١٢٩ و في التوضيح ج٢ ص١٦ .

فإن قلت : ما حجّة ما ذكرت من مجيء " على " بمعنى " عن " و اللام للتعليل و " مع " للمصاحبة .

قلت : أمّا كونها بمعنى " عن " التعليليّة فاقتفيت فيه أثر بعض المفسرين كما نقلت آنفًا عن الآلوسي رحمه الله تعالى .

و أمّا مجيئها بمعنى اللام للتعليل و " مع " فقد ذكره النحاة . قال السيوطي في الهمع و الجمع عند بيان معانيها : و بمعنى اللام أي التعليل نحو : وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ . أي و لأجل هدايته إيّاكم أيضًا . قال السيوطي فيه : قال الكوفية و العتبي و ابن مالك : و بمعنى " مع " أي المصاحبة نحو : وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ . أي مع حبه . وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ . أي مع ظلمهم . انتهى . جمع الجوامع و شرحه همع الهوامع ج٢ ص٢٨ . و راجع المغني ج١ ص١٢٦ و التصريح للأزهري شرح التوضيح ج٢ ص١٥ .

و من المواضع التي فيها جاءت " على " مجيء كلمة " مع " قوله تعالى : ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ

دَلِيلًا . أي ثم جعلنا الشمس مع الظلّ دليلاً على وحدانيتنا .كذا في روح المعاني ج١٩ ص٢٨ .

و من باب إفادة " على " معنى التعليل قول أحمد بن عمر بن سريج القاضي أبي العباس البغدادي إمام الشافعيّة المتوفّى سنة ٣٠٣ﻫ ، قال الذهبي : هو مجدّد في الفقه على رأس الثلاثمائة : "ما آسى إلّا على تراب أكل لسان محمد بن داود" . و المعنى : لأجل تراب أكل لسان هذا الإمام محمد بن داود .

قال التاج السبكي في الطبقات ج٢ ص٨٨ : قد ناظر أبو العباس الإمام داود الظاهري . و أمّا ابنه محمد بن داود الظاهري فلأبي العباس معه المناظرات المشهورة و المجالس المروية . و مات محمد بن داود قبله . فجلس أبو العباس للتعزية عند موته و قال : ما آسى إلّا على تراب أكل لسان محمد بن داود . قلت : كذا لفظ الحكاية . و لعلّه من المقلوب . و المعنى : إلّا على لسان محمد بن داود كيف يأكله التراب . و قد جوزت النحاة رفع المفعول به و نصب الفاعل عند أمن اللبس . و أنشدوا عليه :

مِثْلُ القَنافِذِ هَدَّاجُونَ قَدْ بَلَغَتْ نَجْرانَ أو بَلَغَتْ سَوْآتِهِمْ هَجَرُ

رفع المفعول و هو هجر لأنّها المبلوغة ، و نصب الفاعل و هو السوآت لأنّها البالغة لأمن اللبس . و من هذا قول الشاعر أيضًا :

إنَّ سِرَاجًا لَكَرِيْمٌ مَفْخَرُهْ تُجْلَى بِهِ الْعَيْنُ إذا ما تَهْجُرُهْ

أي تجلى العين به . قالوا : و عليه قوله تعالى : مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ . و قول العرب : خرق الثوب المسمار . و يحتمل أن تكون "على" في الحكاية حرف تعليل . و المعنى : بسبب تراب أكل لسان ابن داود . على حدّ قول الشاعر :

عَلَامَ تَقُوْلُ الرُّمْحُ يُثْقِلُ عَاتِقِي إِذَا أنا لم أَطْعُنْ إذا الْخَيلُ كَرَّتِ

و عليه قوله تعالى : وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ . أي لهدايته إيّاكم . انتهى بحروفه .

فإن قلت : ما معنى الصلاة إذا كانت " على " بمعنى " مع " و " عند " ؟

قلت : معناها : أنزل الصلوات علينا و على عبادك الصالحين مع محمد و آله ، و أنزلها علينا

و على عبادك الصالحين عند إنزالك إيّاها عليه ﷺ و على آله ، ولا تجعلنا محرومين عن هذه الفضيلة و الكرامة . و باقي البيان مثل البيان السابق .

فإن قلت : معنى " عن " و اللام واحد و هو التعليل . فما الفائدة في عدهما وجهين ؟

قلت : لك أن تعدّهما وجهًا واحدًا . و إنّما حسبناهما وجهين نظرًا إلى الظاهر و اقتفاءً لبعض المفسرين و النحاة . و لكلّ وجهة هو مولّيها .

ثم أقول : على هذا التقرير و التقدير يتطابق كيفية السلام والصلاة ، و يتوارد صيغهما ، و يتوافق السؤال و الجواب . حيث قالوا : قد علمنا كيف نسلّم عليك فكيف نصلّي عليك . فلمّا كانت عبارة السلام ما تعلمه و هي " السلام عليك أيها النبي " أي قوله " السلام علينا و على عباد الله الصالحين " ناسب أن تكون عبارة الصلاة أيضًا كذلك أو قريبًا منها . ولا يخفى قرب قولنا " أنزل الصلاة علينا و على عباد الله الصالحين إلخ " من عبارة السلام المأثورة .

فإن قلت : على هذا آل محمد مَن هم ؟

قلت : أهل بيته و أزواجه و ذرّيّته ، لا عامة المسلمين الصالحين . ليصحّ الكلام .كما روى زيد ابن أرقم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا كما في رواية مسلم ج٢ ص٢٧٩ : أنا تارك فيكم ثقلين . أوّلهما كتاب فيه الهدى و النور . فخذوا بكتاب الله و استمسكوا به . فحثّ على كتاب الله و رغب فيه ثم قال : و أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي ثلاثًا . الحديث . و أخرج أبو يعلى و البزار و الحاكم عن أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : سمعت النبي ﷺ يقول : ألا إنّ مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح . من ركبها نجا و من تخلّف عنها غرق . خصائص للسيوطي ص٣٦٤ .

و أخرج الحاكم عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا : النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق ، و أهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف . فإذا خالفهما قبيلة اختلفوا ، فصاروا حزب إبليس .

و أخرج الحاكم و صحّحه عن أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : لا يبغضنا أهل البيت أحدٌ إلّا أدخله الله النار . خصائص ص٣٦٤ .

و كذا المراد من آل إبراهيم خاصّة أهل بيته و أزواجه و ذرّيّته القريبة كإسماعيل و إسحاق

ويعقوب عليه الصلاة والسلام ، أو المراد من آل إبراهيم مَن دعا لهم إبراهيم كما في قوله تعالى حكاية عنه عليه الصلاة والسلام : و اجنبني و بنيّ أن نعبد الأصنام . أخرج ابن جرير عن مجاهد قال : استجاب الله دعوة سيدنا إبراهيم في ولده . فلم يعبد أحد منهم صنمًا بعد دعوته . و جعل من ذرّيّته من يقيم الصلاة .

قال السيوطي رحمه الله تعالى : و هذه الأوصاف كانت لأجداد نبينا صلى الله عليه وسلم خاصة دون سائر ذرّيّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام . و كلّ ما ذكر عن ذرّيّة سيدنا إبراهيم من المحاسن فإنّ أولى الناس به سلسلة الأجداد الشريفة الذين خصّوا بالاصطفاء و انتقل إليهم نور النبوة واحدًا بعد واحد . و لم يدخل ولد إسحاق عليه الصلاة والسلام و بقية ذرّيّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأنّه دعا لأهل هذه البلدة . ألا تراه قال : رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَـٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنًا . و عقبه بقوله : وَ ٱجۡنُبۡنِي وَ بَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ . فلم تزل ناس من ذرّيّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام على الفطرة يعبدون الله . و يدلّ عليه قوله تعالى : وَ جَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ . فإنّ الكلمة الباقية هو التوحيد . و عقب إبراهيم عليه الصلاة والسلام سيدنا محمد و نسله و آباؤه الكرام . انتهى .

و يؤيد ما ذكرنا بعض الروايات حيث روي فيه الأزواج و الذرّيّة بدل الآل . روى البخاري ج٢ ص٩٤١ : أنّهم قالوا : كيف نصلّي عليك ؟ قال : قولوا : اللّهم صلّ على محمد و أزواجه و ذرّيّته كما صلّيت على آل إبراهيم . و بارك على محمد و أزواجه و ذرّيّته كما باركت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

و روى أبو هريرة رضي الله عنه مرفوعًا : من سرّه أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلّى علينا فليقل : اللّهم صلّ على محمد النبي و أزواجه أمهات المؤمنين و ذرّيّته و أهل بيته كما صلّيت على إبراهيم . الحديث .

و روى الطحاوي رحمه الله تعالى في مشكل الآثار ج٣ ص٧٤ عن أبي حميد الساعدي : أنّهم قالوا : يا رسول الله ! قد علمنا كيف نسلّم عليك فكيف نصلّي عليك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قولوا : اللّهم صلّ على محمد و على أزواجه و ذرّيّته كما صلّيت . الحديث .

ثم قال أبو جعفر : فلم نجد في حديث مما ذكرناه في هذا الباب ذكر الصلاة على النبي و على أزواجه و ذرّيّته غير هذا الحديث . و إنّما مداره على عبد الله بن أبي بكر . فطلبنا هل نجد له موافقًا . فوجدنا عبد الله بن طاووس وافق عبد الله بن أبي بكر في أخذ هذا الحديث عن أبي بكر بن محمد حيث روى بسنده عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : اللّهم صلّ على محمد و على

أهل بيته و أزواجه و ذرّيّته إنّك حميد مجيد . فزاد : و أهل بيته . انتهى بتصرف .

قال ابن حجر رحمه الله تعالى بعد ذكر حديث البخاري المتقدّم ذكره في الفتح ج١٣ ص٤٢٥ : و استدل به على أنّ المراد بآل محمد أزواجه و ذرّيّته . انتهى .

ثم ما ذكرناه يؤيده ما في بعض الروايات "كما صلّيت على إبراهيم" بدون "آل إبراهيم" كما في الرواية المذكورة . و روى كعب بن عجرة رضي الله عنه قال : قلنا : يا رسول الله ! هذا السلام عليك قد علمنا فكيف الصلاة عليك ؟ قال : قولوا : اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم إنّك حميد مجيد . و بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم إنّك حميد مجيد . أخرجه الترمذي و قال : حسن صحيح . الترمذي ج١ ص٨٩ .

و هذه الرواية أسهل أمرًا و أوفق بالكلام و أمسّ بالمرام . فيقدر فيها قولنا " على آل إبراهيم و أتباعه " و نحو ذلك قبل قولنا " على إبراهيم " . و يصير تقدير الكلام هكذا : كما صلّيت على آل إبراهيم و أتباع أسوته . و أنزلت عليهم البركات ببركة إبراهيم على نبينا و عليه الصّلاة والسلام .

إن قلت : نحن نطلب نصًّا أوضح يؤيد ما ذكرت من معنى الحديث في هذا الباب .

قلت : مآل ما ذكرنا في معناه أن يصلّي الله علينا أو على عباد الله الصالحين مع محمد و آله عليه الصّلاة والسلام .

وله مؤيدات :

منها : ما تقدم من الموافقة لألفاظ السلام و الاتحاد مآلاً .

ومنها : أنّ الصلاة على هذا التقدير تشتمل على فائدة زائدة . و هي الدعاء للمصلّي نفسه و لعباد الله مع الصلاة على النبي و آله عليه الصّلاة والسلام .

ومنها : أنّه ثبت في بعض الروايات زيادة لفظ "و علينا معهم" . و هذا كأنّه نصّ فيما ادّعينا في معناه .

فروى الترمذي بسنده عن عبدالرحمن بن أبي ليلى عن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال : قلنا : يا

رسول الله ! هذا السلام عليك قد علمنا فكيف الصلاة عليك ؟ قال : قولوا : اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم إنّك حميد مجيد . و بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم إنّك حميد مجيد .

ثم ذكر من طريق أبي أسامة عن زائدة عن الأعمش عن الحكم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى نحو حديث الباب . قال في آخره : قال عبد الرحمن : و نحن نقول "و علينا معهم" .

إن قلت : قد ردّ عليه ابن العربي أوّلاً بانفراد زائدة بهذه الزيادة . فلا يعوّل عليه . و ثانيًا بأنّ معنى الآل أمّته . فلا يبقى للتكرار فائدة . و ثالثًا بأنّ جواز الصلاة على غير الأنبياء مختلف فيه .

قلنا : أمّا الجواب عمّا قال أوّلاً فزائدة من الأثبات و الثقات . فانفراده لو انفرد لا يضرّ مع كونه لم ينفرد . فقد أخرجها إسماعيل القاضي في كتاب فضل الصلاة من طريقين عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى و يزيد استشهد به مسلم . و عند البيهقي في الشعب من حديث جابر نحو حديث الباب .

و عند الدار قطني من حديث عبد الوهاب بن مجاهد . حدّثني مجاهد حدّثني ابن أبي ليلى أو أبو معمر قال : علّمني ابن مسعود رضي الله عنه التشهد و قال : علّمنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان يعلّمنا السورة من القرآن : التحيات لله و الصلوات و الطيبات . السلام عليك أيها النبي و رحمة الله و بركاته . السلام علينا و على عباد الله الصالحين . أشهد أنّ لا إله إلاّ الله و أشهد أنّ محمدًا عبده و رسوله . اللّهم صلّ على محمد و على أهل بيت محمد كما صلّيت على إبراهيم إنّك حميد مجيد . اللّهم صلّ علينا معهم . اللّهم بارك على محمد و على أهل بيته كما باركت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد . اللّهم بارك علينا معهم . صلوات الله و صلوات المؤمنين على محمد النبي الأمّيّ . السلام عليكم و رحمة الله و بركاته .

و أمّا الجواب عما قال ثانيًا فقد ذكرنا من قبل أنّ المراد من الآل أهل البيت و الذرّيّة خاصّة ، لا الأمّة كلّهم .

و على التسليم ففي التكرار فائدة التنصيص و التصريح على من دخل في الإجمال . فلا امتناع في أن يعطف الخاصّ على العام . ولا سيما في الدعاء .

و **أمّا الجواب** عما قال ثالثًا فإنّا لا نعلم من منع الصلاة على غير الأنبياء تبعًا . و إنّما الخلاف في الصلاة على غيرهم استقلالاً . هذا . والله أعلم بالصواب .

الباب السابع والسبعون
في الجواب السادس والثمانين

هذه الصلاة من قبيل قوله تعالى حكاية عن سليمان على نبينا وعليه الصّلاة والسلام : وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ . إذ لا يلزم من دعاء سليمان عليه الصلاة والسلام أن لا يكون هو حين الدعاء صالحًا ولا أن يكون هو أدنى منهم . كيف و هو نبي عظيم المقام أفضل الصالحين .

كما قال الله في يحيى عليه الصلاة والسلام : نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . وقال في نبيه عيسى عليه الصلاة والسلام : وَكَهْلًا وَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . و قال في إبراهيم عليه الصلاة والسلام : وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ .

و قال في نبينا صلى الله عليه وسلم : إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ .

فنبينا صلى الله عليه وسلم سأل الله تعالى أن يصلّي عليه و يدخله في زمرة المصلّى عليهم الذين لهم الحظّ الأوفر من صلاة الله . و هم زمرة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، و إن كان هو صلى الله عليه وسلم أفضل هؤلاء كلهم .

و كما لا يلزم من دعاء سليمان عليه الصلاة والسلام " أَدْخِلْنِي ألخ " عدم دخوله عليه الصلاة والسلام وقت الدعاء في الصالحين ولا كونه عليه الصلاة والسلام أدنى فرد تلك الطائفة . كذلك لا يلزم من دعاء نبينا عليه الصلاة والسلام " اللّهم صلّ على محمد كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم " أي أدخلني في طائفة المصلى عليهم إبراهيم و آله من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، عدم دخوله عليه الصلاة والسلام في جملة المصلى عليهم ولا كونه عليه الصلاة والسلام أدنى منهم و كونهم أفضل منه عليه الصلاة والسلام .

و ليست وصمة خروج سليمان عليه الصلاة والسلام من عداد الصالحين و كونه غير صالح ، العياذ بالله

سبحانه ، بأسهل و أدنى من وصمة ما نحن بصدد حلّه و توجيهه . فكما لا إشكال ههنا لا إشكال هنالك . هذا . والله أعلم .

فائده في إيضاح معنى الصلاح

قال إمام التاريخ العلامة شمس الدين محمد بن يوسف رحمه الله تعالى الدمشقي المتوفّى سنة ٩٤٢هـ ، و هو تلميذ السيوطي رحمه الله تعالى ، في الباب الخامس عشر من السيرة الشامية ، في قول آدم عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج " مرحبًا بالابن الصالح و النبي الصالح " : ثناء جميل حفيل للنبي صلى الله عليه وسلم و وصفه بالصلاح مكرّرًا مع النبوّة و البنوّة أي صالح في المعنيين جميعًا . و فيه تنويه بفضل الصلاح و علوّ درجته . و لهذا وصف به النبي صلى الله عليه وسلم .

قال بعضهم : و صلاح الأنبياء صلاح خاصّ لا يتناول عموم الصالحين . و احتجّ على ذلك بأنّه قد تمنّى كثير من الأنبياء أن يلحق بالصالحين ، ولا يتمنّى الأعلى أن يلحق بالأدنى ، ولا خلاف أنّ النبوّة أعلى من صلاح الصالحين من الأمم . فهذا يحقّق أنّ الصلاح المضاف إلى الأنبياء غير الصلاح المضاف إلى الأمم ، و صلاح الأنبياء صلاح كامل . لأنّهم يزول بهم كلّ فساد . فلهم كلّ صلاح و من دونهم الأمثل فالأمثل .

فكلّ واحد يستحق اسم الصلاح على قدر ما زال به أو منه الفساد . و اقتصر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على وصفه صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج بالصلاح و تواردوا عليه لأنّ الصلاح يشمل خلال الخير . و لذلك كرره كلّ منهم عند وصفه به . و الصالح هو الذي يقول بما يلزمه من حقوق الله تعالى و حقوق العباد . فمن ثم كانت كلمته جامعة مانعة شاملة لسائر الخلال المحمودة . و لم يقل أحد منهم " مرحبًا بالنبيّ الصادق " ولا " بالنبي الأمين " لما ذكرنا أنّ الصلاح شامل لسائر أنواع الخير . انتهى .

الباب الثامن والسبعون
في الجواب السابع والثمانين

في البدر الساري حاشية فيض الباري للأستاذ العارف بالله الشيخ محمد بدر عالم رحمه الله تعالى قال : وسمعت من حضرة الشيخ رحمه الله تعالى نكتة أخرى . وهي أنّها جواب عن سلامه الذي أرسل إلينا بالنبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج و أنّ الجنة قيعان ، و غراسها "سبحان الله" . فنصلّي عليه لذلك . انتهى . بدر الساري ج٤ ص٢٢٢ . و المراد من الشيخ الشيخ الأنور رحمه الله تعالى صاحب فيض الباري على صحيح البخاري .

مآله أنّ التشبيه غير مقصود و أنّ قولنا " صلّ على محمد و على آله كما صلّيت إلخ " في قوة قولنا " صلّ على محمد و آله و على إبراهيم و آله " أو من قبيل قولنا " على نبينا و على آله و على إبراهيم وآله الصلاة والسلام " مثل قولنا في جواب من بلّغنا سلام زيد "عليك و على زيد السلام" .

و إنّما جيء بكاف التشبيه تعظيمًا لإبراهيم و قصدًا للصلاة عليه على حدة في اللفظ و المعنى و الظاهر و الباطن . لأنّ العطف يقتضي التبعية و يناقض الاستقلال .

و من البيان المذكور حصحص لك أنّ المقصود في قولنا " صل على محمد كما صلّيت على إبراهيم " الدعاء و طلب الصلاة عليهما . فكما أنّ فيه تعظيم إبراهيم عليه الصلاة والسلام و تفخيم شأنه لتحقق الصلاة عليه استقلالاً و لوقوعه مشبهًا به ، كذلك فيه تلميح إلى أفضليّة نبينا صلى الله عليه وسلم على إبراهيم عند الداعي و المصلّي . حيث صلّى عليه بطريق الطلب و الإنشاء و الدعاء و اكتفى في صلاة إبراهيم بالإخبار فقط .

مع أنّ المقام مقام الطلب و الدعاء لكونه كما سبق في قوّة " صلّ على محمد و على آله وعلى إبراهيم

وعلى آله " جوابًا عن سلام إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . فقد روى الترمذي أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : لقيت إبراهيم ليلة أسري بي . فقال : يا محمد ! اقرأ أمّتك منّي السلام و أخبرهم أنّ الجنة طيبة التربة عذبة الماء و أنّها قيعان و أنّ غراسها "سبحان الله" و "الحمد لله" و "لا إله إلّا الله" و "الله أكبر" . فالصلاة الإبراهيميّة جواب هذا السلام لإبراهيم على أمّة محمد عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . هذا . والله أعلم .

الباب التاسع والسبعون
في الجواب الثامن والثمانين

إنّما وقع تشبيه صلاة نبينا ﷺ بصلاة إبراهيم و تفضيل مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام على مقام نبينا ﷺ في الظاهر و ترفيع شأنه على شأن نبينا ﷺ في العبارة حيث جعل مشبّهًا به جبرًا لقلوب من أسلموا من أتباع إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، و تأليفًا لقلوب متبعيه ، و استمالةً لمحبيه إلى الإسلام ، و ترغيبًا لأهل الكتاب و من نحا نحوهم في دعوى ملّة إبراهيم كالصابئين بل المجوس أيضًا إلى الدخول في دين الله ، و تحريكًا لأفكارهم إلى الإيمان بنبينا ﷺ .

لأنّ تبجيل سيّد قوم و تكريم قدوتهم أدعى إلى تبجيل المبجِل بكسر الجيم ، و أقرب إلى انقيادهم لدعوة المكرِم بكسر الراء ، و أدفع لمعاندتهم ، و أنزع لحقد قلوبهم ، و أدخل في تأثير التبليغ . و لذا ورد في الحديث : ارحموا عزيز قوم ذلّ . و كان ﷺ بعد ما يصالح قومًا يؤمر عليهم سيدهم و من كان أميرهم من قبل .

ولا ريب أنّ لإبراهيم لسان صدق في الآخرين و السالفين . ولم يزل ولا يزال كلّ حزب و أمّة كالنصارى و اليهود و الصابئين بل المجوس أصحاب النار و عبادها و المشركين يزعمون اتباعه و التديّن بملّته عليه الصلاة والسلام و إن كانوا بمراحل عن ذلك . هذا . والله أعلم .

الباب الثمانون
في الجواب التاسع والثمانين

الكاف في قولنا "كما صليت" ليست للتشبيه حتى يرد ما يرد، بل للمبادرة كما صرّح به كثير من النحاة المحققين كابن خباز و أبي سعيد السيرافي شارح كتاب سيبويه . و استعملت للمبادرة في غير ما موضع في الهداية الفقهية الحنفيّة للمرغيناني رَحِمَهُ اللهُ وغيرها من الكتب المتداولة للأئمة .

قال ابن هشام في المغني ج١ ص١٥٣ في معاني الكاف : المعنى الرابع : المبادرة . و ذلك إذا اتصلت "بما" في نحو "سلّم كما تدخل" و "صلّ كما يدخل الوقت" . ذكره ابن خباز في النهاية و أبو سعيد السيرافي و غيرهما . و هو غريب جدّا . انتهى . راجع همع الهوامع و جمع الجوامع للسيوطي ج٢ ص٣٠ و التصريح للعلامة خالد الأزهري شرح التوضيح لابن هشام ج٢ ص١٧ .

و في حديث تحويل القبلة : فمرّ رجل من بني سلمة و هم ركوع في صلاة الفجر و قد صلّوا ركعة فنادى : ألا إنّ القبلة قد حوّلت . فمالوا كما هم نحو القبلة . قالوا : إنّ "ما" في "كما" موصولة ، و الكاف للمبادرة . انتهى . فتح الملهم ج٢ ص١٢١ . و منه ما روته عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت : كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمرّ بالمريض و هو معتكف . فيمرّ كما هو ولا يعرج يسأل عنه . رواه أبو داود في كتاب الصوم . بذل ج٣ ص١٩٠ .

و حاصل الصلاة على هذا : طلب مسارعة الله تعالى و مبادرته إلى الصلاة على نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلّما صلّى على إبراهيم . إذ هو أحقّ بها من إبراهيم . و هذه الكاف تتضمن معنى الوقت . فالله صلّى على محمد في وقت ، و على إبراهيم في وقت آخر ، و على آل إبراهيم كموسى و عيسى و داود و سليمان و إسماعيل و إسحاق عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في وقت آخر .

فنبينا ﷺ قد اختص بصلاته في وقته و حاز أجرها . و هذا ما لا يخفى . فقصد أن يشارك إبراهيم وآله في صلواتهم في أوقاتهم ، و أن يحوز أجر بركاتهم في حياتهم و بعد مماتهم ، و أن لا يمضي وقت من الأوقات و ساعة من الساعات ماضية كانت أو مستقبلة إلاّ ولله تعالى عليه ﷺ عوائد الصلوات و فواضل البركات و لطائف الكرامات . فأمر النبي ﷺ أمّته أن يسألوا في ذلك له من الله تعالى بطريق المسارعة و المبادرة .

و حصحص من هذا فضل نبينا ﷺ على جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيث أحرز فضل صلاة الله عليهم في أوقاتهم و فاقهم و فضلهم بصلاة انفرد و امتاز بها في وقته و زمان حياته و نبوّته ، مع ما في المبادرة من الإشارة إلى فضله و علوّ كعبه المستوجب التبادر إليه .

ثم اعلم : أنّ "صلّيت" الماضي على هذا التقرير بمعناه . و يمكن أن يكون من قبيل " أتى أمر الله " أي يأتي . هذا . والله أعلم .

و منه قوله عليه الصلاة والسلام على ما رواه البخاري " فأقول كما قال العبد الصالح عيسى (عليه الصلاة والسلام) : وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدًا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡ " . أي فأقول كما يقول العبد الصالح . إذ هذا القول يصدر عن عيسى عليه الصلاة والسلام في المحشر ، بدليل قوله : فلما توفيتني . فهو الآن حيّ في السماء ينزل حكمًا مقسطًا . فبعد الوفات و حشر الناس يقول عليه الصلاة والسلام ذلك . وقد ضلّ المتنبي القادياني حيث استدلّ على وفاة عيسى عليه الصلاة والسلام بصيغة الماضي في هذا الحديث . وهو "كما قال العبد الصالح " ، على أنّ التشبيه في القول لا يستلزم التشبيه في التوفي .

قال الشيخ الأنور الكشميري رحمه الله تعالى في شرح البخاري ج٤ ص٣٠ تحت هذا الحديث : و اعلم : أنّه لا تمسك فيه للمتنبي الكاذب اللعين على وفاة عيسى عليه الصلاة والسلام . فإنّ هذا القول يصدر منه في المحشر . وقد حكى الله هذا القول عن عيسى عليه الصلاة والسلام في القرآن . فهذه الحكاية ماضية بالنسبة إلى قول النبي ﷺ في المحشر لا محالة . و لذا قال " كما قال العبد الصالح " بصيغة الماضي . انتهى .

قال الآلوسي وغيره : و تنزيل المتوقع منزلة الواقع له موقع جليل من الإعجاز . لكن إذا صادف مقامًا يقتضيه كما في قوله تعالى : إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحًا مُّبِينًا . انتهى .

و منه قوله تعالى : كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ . "فأنزلنا" بمعنى ننزل . لأنّ الآية مكّيّة . و المراد إنزال العذاب على يهود المدينة من قريظة و النضير . انتهى . كذا في روح المعاني ج١٤ ص٨١ .

و منه ماروى عبادة بن الصامت رضي الله عنه : أنّ النبي ﷺ قال : إنّ الله رفعني يوم القيامة في أعلى غرفة من جنّات النعيم ، ليس فوقي إلّا حملة العرش . أخرجه عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب الردّ على الجهمية . خصائص ج٣ ص٢٤٣ . لا يخفى أنّ قوله " رفعني " بمعنى " يرفعني " .

و منه ما روى أنس رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : إنّي لقائم أنتظر متى يعبر الصراط إذ "جاءنى" عيسى "فقال" : هذه الأنبياء قد جاءتك يا محمد ! يسألون و يدعون الله أن يفرق بين جميع الأمم إلى حيث يشاء الله لغمّ ما هم فيه . فالخلق ملجمعون بالعرق . فأمّا المؤمن فهو عليه كالزكمة .

وأمّا الكافر فيغشاه الموت . "فقال" : انتظر حتى أرجع إليك . "فذهب" نبي الله ﷺ "فقام" تحت العرش . "فلقي" ما لم يلق ملك مصطفى ولا نبيّ مرسل . "فأوحى" الله إلى جبريل أن اذهب إلى محمد و قل له : ارفع رأسك ، سل تعطه ، و اشفع تشفّع . "فشفعت" في أمتي أن أخرج من كلّ تسعة و تسعين إنسانًا واحدًا . "فما زلت" أتردد إلى ربّي فلا أقوم منه مقامًا إلّا "شفعت" حتى "أعطاني" الله من ذلك أن "قال" يا محمد ! أدخل من أمتك من خلق الله من شهد أن لا إله إلّا الله يومًا واحدًا مخلصًا و مات على ذلك . أخرجه أحمد بسند صحيح . خصائص ج٣ ص٢٢٨ . فقوله " جاءني عيسى " و " فقال " في الموضعين و " فذهب " و " فقام " و " فلقي " و " فأوحى " و " فشفعت " و " فما زلت " و " شفعت " و " أعطاني " و " أن قال " كلّ ذلك بمعنى المضارع .

الباب الحادي والثمانون
في الجواب التسعين

التشبيه ضربان :

الأوّل : ما لا يكون من قبيل الدعاء نحو : زيد كالأسد . وهو قسمان : تشبيه مفرد بمفرد ، و مركّب بمركّب . و أكثر ما يكون المشبّه به فيه أجلّ أو أقوى .

والضرب الثاني : ما يكون من قبيل الدعاء كما فيما نحن فيه . ولا يعتبر فيه أفضليّة المشبّه به ، لأنّ الدعاء كثيرًا ما يخرج الأشياء عن حقائقها ، مثل إخراج الأمر عن مقتضاه و هو الاستعلاء نحو "ربّ اغفرلي" ، و إخراج الماضي عن معناه إلى معنى المضارع ، و إخراج الخبر إلى الإنشاء نحو "غفر الله له" "رحمه الله" . فأفضليّة المشبّه به مسلّمة فيما سوى الدعاء . و أمّا في الدعاء فلا .

لاسيّما فيما تصدّينا لبيانه ، حيث اجتمع فيه أمران يخالفان أصل الوضع . الأوّل خطاب الأدنى مع الأعلى في قولنا " صلّ " بصيغة الأمر المقتضية للاستعلاء أو الفوقيّة . و ذلك منتف ههنا .

و الثاني دعاء الأدنى أي الأمّة للأعلى أي النبي ﷺ ، مع أنّ مقتضى أصل وضع الدعاء بالعكس .

فبعد تحقّقهما يسهل تحقّق تغيير ثالث . إذ التغيير يأنس التغيير و الجنس يدعو الجنس . هذا . والله أعلم بالصواب .

الباب الثاني والثمانون
في الجواب الحادي والتسعين

تفصيل ذلك أنّه ليس المطلوب التشبيه المحض حتى يتوجّه عليه ما يتوجّه . بل المقصود من هذه الصلاة طلب الفعل من الله تعالى و الوفاء منه حسب ما وعد في الماضي . إذ الصلاة على إبراهيم و آله تتضمن وعد الصلاة على محمد و آله عليهما الصلاة والسلام . فالداعي يسأل الله تعالى إيفاء ذلك الوعد .

توضيح المرام و شرح الكلام أنّ الله كان صلّى على إبراهيم و آله في حياة إبراهيم عليه الصلاة والسلام . و نبينا صلى الله عليه وسلم داخل في جملة آل إبراهيم ، بل هو أعظم أفراد آله عليه الصلاة والسلام . ولم يكن نبينا صلى الله عليه وسلم موجودًا عند ذاك ، وكذا كثير من آل إبراهيم ولدوا بعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام . ولا معنى للصلاة على المعدومين ، ولا يتصور ظهور الصفة حقيقة بدون الموصوف ، ولا قيام الحال بغير المحل .

فكأنّ الصلاة على آل إبراهيم عليه الصلاة والسلام إذ ذاك مستعملة في الوعد مجازًا ، فكأنّ الله تعالى وعد أنّه سيصلّي على آله إذا وجدوا في الغابر . فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أمّته أن يدعوا له بالصلاة الموعودة في ضمن الصلاة على إبراهيم عليه الصلاة والسلام و آله و قال : قولوا : اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم . أي أوف في الحال ما وعدته في الماضي .

و إنّما أمر أمّته بأن يسألوا له ذلك تأكيدًا و تحصيلاً لاطمينان القلب . إذ وفاء الوعد كما هو مسلك أهل السنّة و الجماعة غير واجب على الله تعالى حيث ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ . إلّا أنّه يورث المجد و يوجب الحمد . و هو تعالى حميد مجيد . و الكريم إذا وعد وفى .

فالصلاة في المشبّه و المشبّه به كأنّها واحدة إلّا أنّ المراد منها في المشبّه به الوعد . و المطلوب

منها في المشبّه العمل بها و الوفاء حسب الوعد . فلا يرد أنّ تشبيه الشيء بنفسه لا ينجد و أنّه لا طائل تحته .

و نظير هذا قوله تعالى " فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ " . فالمشبّه به أمر الله تعالى ، و المشبّه أيضًا من جملة أوامر الله تعالى . و إنّما صحّ التشبيه لأنّ المقصود من المشبّه العمل و الامتثال على وفق أوامره تعالى التي هي من قبيل الألفاظ . كما أنّ الوعد من باب الألفاظ و الحكاية . نعم ، الحكاية تقتضي المحكي عنه . فقوله تعالى "و صلّ" و "زكّ" و "حجّ" و "اركع" و "اسجد" و "اتّق" و "أحسن" و "بلّغ" و "نبّأ" و غير ذلك مما هو من جنس الأقوال و الكلمات أوامر أمر بها نبينا ﷺ . ففي قوله تعالى " فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ " لفت الله نظره ﷺ إلى امتثال تلك الأوامر تأكيدًا . و وجهه إليها بأن يعمل على وفقها مجتهدًا .

و مثل ذلك قولنا : افعل كما وعدت . بفتح التاء .

و من ههنا سنح لك أنّه لا حاجة إلى ما قال البعض في تصحيح هذا التشبيه في الآية على ما في روح المعاني ج١٢ ص١٣٧ : إنّ الكاف للتشبيه حسبما هو الظاهر منها . إلاّ أنّه قال : إنّها في حكم "مثل" في قولهم : مثلك لا يبخل . فكأنّه قيل : استقم الاستقامة التي أمرت بها . انتهى .

وقال الإمام أبو حيان في دفع إشكال تشبيه الشيء بنفسه : إن قلت : كيف جاء هذا التشبيه للاستقامة بالأمر ؟ قلت : هو على حذف مضاف . تقديره مثل مطلوب الأمر . أي مدلوله . فإن قلت : الاستقامة المأمور بها هي مطلوب الأمر فكيف يكون مثلاً لها ؟ قلت : مطلوب الأمر كلّيّ ، و المأمور جزئيّ . فحصلت المغايرة و صح التشبيه . كقولك : صلّ ركعتين كما أمرت . انتهى .

حاصل الكلام : إنّ للصلاة و كذا لسائر الكلمات الربانيّة و الأقوال الرحمانيّة وغيرها من الألفاظ وجودات متعددة :

الأوّل في النقش و الخط . و يسمّى هذا الوجود الخطّيّ .

والثاني في اللسان و اللفظ . و يدعى هذا الوجود اللسانيّ .

والثالث في الخارج المطابق لما في اللفظ .

والرابع ما يكون في نفس المتكلم إنسانًا كان أو غيره . وهو الذي يعبّر عنه بالكلام النفسيّ .

والخامس في الذهن . و مداره التعقل و العلم الذي هو عبارة عن الصور القأئمة بالذهن .

لا يقال : الوجود الذهنيّ و الكلام النفسيّ شيء واحد . إذ الوجود الذهنيّ مما اختلف في ثبوته . فأنكره المتكلمون . بخلاف الكلام النفسيّ فإنّهم قالوا به و جعلوه مناطًا لقدم القرآن . و أمّا المعتزلة فجحدوا الكلام النفسيّ و قالوا : لا يكون الكلام إلّا لفظيًّا .

قال التفتازاني في الفرق بين العلم و الكلام النفسيّ في شرح العقائد : و الكلام النفسيّ غير العلم . إذ قد يخبر الإنسان بما لا يعلمه . بل يعلم خلافه كسائر الأخبار الكاذبة .

و ردّه مولازاده حيث قال : إنّه مغاير للعلم التصديقيّ اليقينيّ ، لا لمطلق العلم الشامل للتصور و التصديق . فإنّ كلّ عاقل بصدد الإخبار صادقًا كان أو كاذبًا يحصل في ذهنه صورة ما أخبر به بالضرورة . و هذه الصورة كلامه النفسيّ . هذا .

و في النبراس شرح شرح العقائد ص٢١٤ نقلًا عن صاحب الصحائف : أنّ الفرق البيّن بين النفسيّ و العلم أنّ النفسيّ لابدّ أن يكون مع قصد الخطاب مع نفسه أو مع غيره ، بخلاف العلم فإنّه خال عن هذا القصد ، وهو من خواصّ أفكارنا . انتهى .

والسادس الوجود التلفزيوني . وهو من الاكتشافات العصرية ، كشفه أصحاب الفلسفة الجديدة بإيجاد آلة تسمّى تلفزيون . و اشتهرت في هذا العصر لاكاشتهار الشمس في رابعة النهار . و يحفظ في التلفزيون الصوت مع صورة المتكلم و حركاته و سكناته .

والسابع الوجود المسجّليّ . يحفظ في المسجّل الصوت فقط بدون صورة المتكلم .

والثامن الوجود الخلائيّ . حيث زعم أصحاب الفلسفة الجديدة أنّ ألفاظ المتكلمين و أقوالهم متحقّقة في هذا الفضاء الوسيع و الخلاء البسيط سائرة جارية مذ زمن قديم إلى الأبد في الفراغ المديد فوق كرة الهواء . وهم يبذلون الجهد و يفرغون الوسع في أسر تلك الأصوات و الكلمات . و يرجون أن تسهل لهم هذه المعضلة و أن يفوزوا بحلّ هذه القضية . و يزعمون أنّهم سيسمعون كلام الذين سلفوا و ماتوا و يفهمونه .

والتاسع الوجود الهوائيّ. إذ قد اكتشفت الفلسفة الجديدة أنّ الصوت زمانيّ لا آنيّ. فيصل من موضع إلى موضع آخر في زمان لا في آنٍ، كما زعم أصحاب الفلسفة القديمة. قال أصحاب الفلسفة الجديدة: سرعة الصوت نحو ميل واحد في خمس ثوان، و نحو اثني عشر ميلاً في دقيقة واحدة، و سبع مائة و عشرين ميلاً في ساعة. فللصوت البعيد قبل وصوله إليك و بعد صدوره وجود في الهواء في صورة الموجات الصوتيّة. هذا. و تفصيل هذه المباحث في تصانيفي في الهيئة القديمة و الجديدة.

والعاشر الكلام النفسيّ ما هو صفة لله تعالى حقيقيّة قديمة.

فالله تعالى لما صلّى على إبراهيم و آله تضمّن ذلك وعده تعالى بالصلاة على محمد الذي هو مندرج في آل إبراهيم عليهما الصلاة والسلام. فالصلاة وجدت إذ ذاك وعدًا. و المصلّي يسأل الله تعالى إيفاء ذلك الوعد و تحقّق وجود آخر للصلاة و هو الوجود الخارجيّ. فالمشبّه ناظر إلى وجود، و المشبّه به ناظر إلى وجود آخر. و الثاني قد حصل، و الأوّل مطلوب ليتحقّق كما تحقّق الثاني. هذا. والله أعلم بالحقائق و علمه أتمّ.

الباب الثالث والثمانون
وهو يشتمل على خمسة من الأجوبة

إيضاح ذلك أنّ الكاف ههنا بمعنى " إذ " . و " إذ " للوقت مع التعليل أو بدونه كما فصّل في المغني . أو الكاف للقسم كما حكي في مثل هذا الموضع عن الإمام أبي عبيد . وكلام الملوك ملك الكلام . أو بمعنى " على " . فهذه ثلاثة احتمالات . و على الأخيرين كلمة " ما " إمّا موصولة و إمّا مصدريّة . فمجموع الاحتمالات خمسة .

و نظير ما قلنا ما ذكره المفسرون في الآية المشكلة . و هي : كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ . كما فصّله العلامة الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره ج٩ ص١٦٩ . حيث قال : و قيل : الكاف بمعنى " إذ " أي و اذكر إذ أخرجك . و قيل : الكاف للقسم . و لم يثبت و إن نقل عن أبي عبيد . و جعل "يُجَٰدِلُونَكَ" بعده الجواب مع خلوّه عن اللام و التأكيد . و " ما " حينئذ موصولة . أي و الذي أخرجك . و قيل : إنّها بمعنى " على " ، و " ما " موصولة أيضًا . أي امض على الذي أخرجك ربّك له من بيتك فإنّه حق . انتهى بتصرف .

ثم على تقدير القسم "ما " مصدريّة . و هو الأحسن . أي "و صلاتك على إبراهيم و على آل إبراهيم" . و جوابه قولنا " إنّك حميد مجيد " أو قولنا " صلّ على محمد " المتقدّم جوابه المقدم . أو دالّ على الجواب بناء على الاختلاف المشهور . و يحتمل أن تكون " ما " موصولة ، و وضع ضمير المخاطب في " صلّيت " موضع الغائب وفاقًا للخطاب السابق . فالكلام من قبيل قول علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ :

ع أنا الذي سمتني أمّي حيدرًا

و على تقدير كينونة الكاف بمعنى " على " معناه : امض على الذي صلّيته و أنزلته من البركات على إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بتضمين الفعل معنى الإنزال و نحوه . و جعل " ما " موصولة . ولا يبعد كونها مصدرية . أي : امض على صلاتك على إبراهيم . و المطلوب استمرار العادة السابقة الإلهية في الصلاة .

ثم اعلم : أنّه قد مرّ في الباب الثاني و الأربعين جواب آخر مبني على أنّ الكاف بمعنى " على " ، إلّا أنّهما متغايران بيانًا و تقريرًا و تقديرًا ، إذ المقدّر ههنا نحو " امض " و هناك نحو " بناء " . ألا ترى أنّه لا يصحّ تقدير " امض " في قولنا " روى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما في البخاري " أي بناءً على ما في البخاري ، كما لا يخفى على صاحب الذوق . و لك أن تعدّهما جوابًا واحدًا . ولكلّ وجهة هو مولّيها .

تنبيه

هذه الوجوه و إن كان فيها نوع بعد لكن لما ساغت عند المحققين و الأئمة أمثال أبي عبيد في كلام الله المعجز ففي ما سواه بالطريق الأولى . لاسيّما في الكاف . إذ هي من عجائب الحروف . ولا زالت عادة العلماء الأعلام عند إرادة استقصاء الوجوه يذكرون الوجوه الضعيفة كما يذكرون الوجوه القويّة .

فائدة

إنما قلنا : إنّ الكاف من عجائب الحروف ، لاختصاصها بأحكام من بين الحروف الجارّة .

منها أنّها لا تقتضي المتعلق عند الأخفش و ابن عصفور ، مع أنّ عامة الحروف الجارة لابدّ لها من متعلق .

قال السيوطي في الأشباه ج١ ص٢٣٦ : يستثنى من قولنا " لابدّ لحرف الجرّ من متعلق " ستة أمور :

أحدها الحرف الزائد كالباء و " من " في " وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا " و " هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ " . و ذلك لأنّ معنى التعلّق الارتباط المعنويّ . و الأصل أنّ أفعالًا قصرت عن الوصول إلى الأسماء . فأعينت على ذلك بحروف الجرّ . و الزائد إنّما دخل في الكلام تقوية و توكيدًا ، ولم يدخل للربط . الثاني

والثالث " لعلّ " و " لو " عند من جرّ بهما . و الرابع " رُبّ " في قول الرماني و ابن طاهر . الخامس كاف التشبيه عند الأخفش و ابن عصفور . السادس حروف الاستثناء ، و هو " خلا " و " عدا " و "حاشا " إذا خفضن . فإنّهنّ لتنحية الفعل عما دخلن عليه كما أنّ " إلاّ " كذلك . و ذلك عكس معنى التعدية الذي هو إيصال معنى الفعل إلى الاسم . انتهى .

ومنها : دخولها على " أنّ " حتى صارت معها بمنزلة كلمة واحدة . فيقال "كأنّ " ، و هي حرف ناصب .

ومنها : وجوب حذف خبرها عند الزجاج . و التفصيل : أنّ كلمة "كأنّ " فيها مذاهب . فعند الأكثر حرف مركب . و الأصل في "كأنّ زيدًا أسد " إنّ زيدًا كأسد . ثم قدم حرف التشبيه اهتمامًا به . ففتحت همزة " إنّ " لدخول الجار عليها .

ثم اختلفوا فقال ابن جنّي : ما بعد الكاف جرّ بها . و هي حرف لا يتعلق بشيء لمفارقتها الموضع الأصليّ . و ليست بزائدة لإفادتها التشبيه . قال ابن هشام : و ليس قوله بأبعد من قول أبي الحسن من أنّ كاف التشبيه لا تتعلق دائمًا .

و قال الزجاج : ما بعد الكاف مجرور . و هي اسم بمنزلة " مثل " ، مبتدأ خبره مقدّر ، لم ينطق به قط . فمعنى "كأنّ زيدًا أخوك " مثل إخوة زيد إياك كائن .

و قال الأكثرون : لا موضع " لأنّ " و ما بعدها . لأنّ الكاف و " أنّ " صارتا بالتركيب كلمة واحدة . و قال البعض : إنّها بسيطة ناصبة غير مركبة . هذا . والله أعلم .

الباب الرابع والثمانون
في الجواب السابع والتسعين

التشبيه نوعان :

الأوّل ما يكون المشبّه و المشبّه به فيه اسمين مفردين نحو "زيد كالأسد" . و فيه يراد غالبًا التشبيه فيما سوى الوجود من الصفات و اللوازم . و يتحقق فيه القضيّة الهليّة المركّبة نحو : زيد عالم ، قائم . و الأغلب في هذا النوع أن يكون المشبّه به أعلى و أعرف من المشبّه .

والثاني ما يكون الطرفان فيه فعلين نحو : ادخل كما يسلّم الإمام . و المقصود فيه قران الفعلين في الوجود ليس إلّا . و هذا كما يراد في الهليّة البسيطة نسبة الوجود فقط نحو : زيد موجود . و علامة هذا القسم أن تلحق الكاف " ما " الكافة .

و التشبيه في الصلاة من هذا الوادي . فلا يشترط فيه إلّا قران صلاة محمد و صلاة إبراهيم عليهما الصلاة والسلام في الوجود ، مع قطع النظر عن المشاركة فيما سوى الوجود من الصفات والكيفيات واللوازم ، و مع قطع النظر عن كون المشبّه به أجلّ و أمثل من المشبه أو بالعكس . بل وجه الشبه الوجود . و الوجود كلّيّ متواط ، لا يمكن تفاوت الممكنات فيه .

و قد صرّح المتكلّمون و المنطقيّون و غيرهم أنّ حقيقة الوجود لا تتحمل التفاضل و الاختلاف . فلا فرق بين وجود الأقوى و الأضعف ، و بين تحقّق الأخس و الأشرف ، و بين ثبوت الأجلد و الأعرج ، و بين كينونة الغنيّ و الأحوج . فلا يمكن أن يستزاد شيء من الوجود على وجود الأضعف

المزمن ، أو ينقص شيء من وجود الأجلد . فزيادة ذرة من الوجود على وجود هذا فناء ، و نقصان حبة خردل من وجود ذاك فساد و هلاك .

ولذا قال بعض أهل المعقول : إنّ وجود الممكن و الواجب تعالى مختلفان بالحقيقة دفعًا لما ورد عليهم أنّ وجود الممكن ممكن و وجود الواجب واجب . فهما متفاوتان وجوبًا و إمكانًا . وقد قلتم بنفي التفاوت . و وجه الدفع أنّ وجود الممكن يخالف وجود الواجب حقيقة . فلم يثبت التفاوت في حقيقة واحدة و نوع واحد .

و بهذا احتجّ شيخ شيوخنا مولانا محمد قاسم النانوتوي رحمه الله مؤسس دار العلوم الديوبندية لإثبات توحيد الله و نفي الآلهة في مباحثة شاه جهان پور . حيث قال في أثناء خطابه : و بيان قوله تعالى " لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا " كما أنّ اختلاف الآلهة في إيجاد العالم يوجب الفساد كذلك اتفاقها يوجب ذلك . إذ في صورة اتفاقها على إيجاد موجود يعطيه كلّ إله وجودًا ، و إلّا لزم تعطّل إله . فيلزم لشيء واحد وجودات متعددة . و ذلك يوجب الفساد . إذ يستحيل عند الأئمة المتكلّمين وغيرهم أن يكون لشيء واحد وجودان ، فضلاً عن وجودات . فكلّ موجود لا يتحمل إلّا وجودًا واحدًا . و هذا كظرف لا يسع إلا منًّا واحدًا . فإنّه يستهلك و يتفطر بإدخال منَّين فيه . و هذا ظاهر .

و سرّ ذلك أنّ الوجود و الحياة نوع واحد . و كذلك ضدّهما العدم و الموت حقيقة واحدة . لا واسطة بين الوجود و العدم ولا بين الحياة و الموت . و في الأمثال التي سار بها العلماء و الأدباء : بضدّها تتبيّن الأشياء . فالشيء ينعدم و يخرج من الأيس إلى الليس بطريان ضده . و يوجد و يخرج عن بقعة ظلمات العدم إلى بقعة نور الوجود بتأتّي ندّه . سواء كان ذلك الضد قويًّا أو ضعيفًا ، قليلاً أو كثيرًا . هذا . و قد قلنا هذا إرخاءً للعنان ، وإن لم يكن ههنا ما يتصف بالقوة و الضعف و القلّة و الكثرة .

فالأسباب متعددة و الشيء واحد . و العلل شتّى و المعلول نوع مفرد .

عباراتُنا شتّى و حسنُك واحدٌ ... وكلٌّ إلى ذاك الجمالِ يُشِيرُ

وما أحسن ما قال قائل :

وَمَنْ لَمْ يَمُتْ بِالسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْرِهِ تَعَدَّدَتِ الْأَسْبَابُ وَ الْمَوْتُ وَاحِدُ

و من ثم قال النحاة و الأدباء : إنّ مصدر الوجود و العدم و الإماتة و نحو ذلك لا يسوغ أن يكون لبيان النوع عند وقوع ذلك مفعولاً مطلقًا إلّا مجازًا . و المجاز باب أوسع من فلك البروج . و هو يمشي الفيسحي في هذه الفسحة ممشى الانحطاط و العروج لعدم التنوّع و فقد التفاضل و التوسع .

قال العلامة الآلوسي رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى " فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ " ، سورة مريم ، ج١٦ ص٢٣٥ : إنّ العاصي إذا دخل جهنّم لا يكون حاله كحال المجرم الكافر إذا دخلها . بل قيل : إنّه يموت . احتجاجًا بما أخرج مسلم و أحمد و ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطب فأتى على هذه الآية " مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ " الآية ، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : أمّا أهلها يعني جهنم الذين هم أهلها فإنّهم لا يموتون فيها ولا يحيون . و أمّا الذين ليسوا بأهلها فإنّ النار تميتهم إماتة ثم يقوم الشفعاء . الحديث .

و حمل ذلك القائل " تميتهم " في الحديث على الحقيقة . و جعل المصدر تأكيدًا لدفع توهّم المجاز . و قال بعضهم : إنّ " تميتهم " مجاز . و المراد : أنّها تجعل حالهم قريبة من حال الموتى بأن لا يكون لهم شعور تام بالعذاب . ولا يسلّم أنّ ذكر المصدر ينافي التجوز . فيجوز أن يقال : قتلت زيدًا بالعصا قتلاً . و المراد ضربته ضربًا شديدًا . ولا يصحّ أن يقال : المصدر في الحديث لبيان النوع . أي تميتهم نوعًا من الإماتة ، لأنّ الإماتة لا أنواع لها . بل نوع واحد وهو إزهاق الروح . ولهذا قيل :

وَمَنْ لَمْ يَمُتْ بِالسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْرِهِ تَعَدَّدَتِ الْأَسْبَابُ وَ الْمَوْتُ وَاحِدُ

فائدة

ثم ههنا كلام شريف للرضي ، لابدّ من ذكره لتفصيل كلمة هي محور هذا الكتاب و مورد هذه الأبحاث و مصدرها . و هي كلمة "كما" . قال الرضي : و تجيء " ما "الكافة بعد الكاف . فيكون " لكما " ثلاثة معان :

أحدها : تشبيه مضمون جملة بمضمون جملة أخرى كما كانت قبل كفّها لتشبيه المفرد بالمفرد .

قال تعالى : ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ . فلا يقتضي الكاف ما يتعلق به . لأنّ الجار إنّما كان يطلب ذلك لكون المجرور مفعولاً . و ذلك لأنّ حروف الجر للإفضاء بالفعل القاصر عن المفعول به إليه . و المفعول به لابدّ له من فعل أو معناه . فإذا لم يجر فلا مفعول هناك حتى يطلب فعلاً . و معنى "كن كما أنت" : كن في المستقبل كما أنت كائن الآن . " فأنت " مبتدأ محذوف الخبر . " فأنت " تشبه الكون المطلوب منه بالكون الحاصل له الآن . و منه : كما تكونون يولّى عليكم . شبّه التولية المكروهة بكونهم المكروه . أعني بحالتهم المكروهة .

و ثانيها : أن يكون "كما" بمعنى "لعل" . حكى سيبويه عن العرب : انتظرني كما آتيك . أي لعلّما آتيك . ولا منع من تغيير معنى الكلمة بالتركيب . ألا ترى أنّ " ما " يجيء بمعنى " ربما " . قال :

و إِنِّي لَمِمَّا أَضْرِبُ الْكَبْشَ ضَرْبَةً   على رَأْسِه تُلْقِي اللِّسَانَ مِنَ الْفَمِ

أي ربما . و "الكبش" السيد . و نقول : إنّي لِمَّا أفعل . أي لربما . قال بعضهم : إنّ " بما " يجيء أيضًا بمعنى " ربما " نحو : إنّي بما أفعل . أي ربما .

و ثالثها : أن يكون بمعنى قران الفعلين في الوجود نحو : ادخل كما يسلّم الإمام ، و كما قام زيد قعد عمرو . و جوّز الكوفيون نصب المضارع بعد "كما" بمعنى "كيما" على أن يكون أصله "كيما" . فحذف الياء تخفيفًا . و قد يكون ما بعد الكاف أيضًا مصدريّة نحو : كما تدين تدان ، و افعل كما أفعل . و يجوز أن يكون القسم الأوّل أعني "كن كما أنت" و "كما تكونون يولّى عليكم" من هذا النوع كما يجوز أن يكون هذا النوع أعني "كما تدين تدان" من القسم الأوّل . أي تكون " ما " كافة . انتهى باختصار . رضي ج٢ ص٢٨٩ ، بحث بيان الحروف المشبّهة . هذا . والله أعلم بالصواب .

الباب الخامس والثمانون
في الجواب الثامن والتسعين

المراد من آل إبراهيم مجموع آلاف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين هم أولاد إبراهيم عليه الصلاة والسلام . و هذا المجموع هو المشبّه به . ثم قيل : ولا يلزم من كون نبينا صلى الله عليه وسلم أفضل من كلّ واحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كونه أفضل من مجموعهم .

و نظير ذلك ما قالوا في تفسير قوله تعالى " لَن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ " . و هو : أنّ مذهب الجمهور من الأئمة أنّ الأنبياءأفضل من الملائكة . لكن مقتضى الآية أفضلية الملائكة على الأنبياء ، حيث قدم ذكر المسيح على ذكر الملائكة . و قاعدة كلام العرب في مثل هذه المواضع الترقي من الأدنى إلى الفاضل ، و من الفاضل إلى الأفضل . فيكون المعنى : لا يستنكف المسيح ولا من هو فوقه . كما يقال : لا يستنكف من هذا الأمر الوزير ولا السلطان دون العكس .

فأجاب الجمهور كما في روح المعاني للآلوسي رحمه الله تعالى ج٦ ص٣٨ بأنّ الملائكة المقرّبون صيغة جمع تتناول مجموع الملائكة . فهذا العطف يقتضي كون مجموع الملائكة أفضل من المسيح . ولا يلزم أن يكون كلّ واحد منهم أفضل من المسيح . انتهى كلام الآلوسي رحمه الله تعالى .

قال العبد الضعيف الروحاني البازي : ذكرت هذا الجواب لبنائه على الخلاف الواقع بين بعض الناس . فناسب ذكره في أثناء الأجوبة الأخرى وإن كان الحق الحقيق بالقبول عندي و عند الجمهور بل عند الكلّ أفضليّة نبينا صلى الله عليه وسلم على الجميع و كذا على المجموع .

و صرّح العلامة الآلوسي رحمه الله تعالى بأنّه شاع الخلاف بين الحنفية و الشافعية في أنّ النبي صلى الله عليه وسلم هل هو أفضل من المجموع كما أنّه أفضل من الجميع ، أي كلّ واحد واحد أم أنّه أفضل من الجميع فقط دون المجموع . انتهى .

و في الدر المنضود لابن حجر رحمه الله تعالى : أنّ التشبيه للمجموع بالمجموع ، فإن الأنبياء من آل إبراهيم كثيرون . فإذا قبلت تلك الذوات الكثيرة من إبراهيم عليه الصلاة والسلام و آله بالصفات الكثيرة التي لمحمد صلى الله عليه وسلم أمكن انتفاء التفاضل . انتهى . قاله الخفاجي في شرح الشفاء ج٣ ص٥٢٣ .

فصل

قد ذكرت أن المختار عند المحققين من المحدثين و العارفين تفضيله عليه الصلاة والسلام على مجموع الأنبياء كما أنّه أفضل من كلّ واحد منهم . ولا ينبغي لأحد أن يرتاب فيه . فلو جمعت مراتبهم كلّها في جنب مرتبة نبينا صلى الله عليه وسلم فاقتها مرتبة نبينا و علتها .

قال الشيخ الأكبر في الباب الثالث و السبعين من الفتوحات ج٢ ص٨٧ : السؤال الخامس و السبعون : كم بين حظ محمد صلى الله عليه وسلم و حظوظ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؟ الجواب : أمّا بينه و بين الجميع فحظ واحد وهو عين الجمعية لما تفرّق فيهم . وأمّا بينه و بين كلّ واحد منهم فثمانية و سبعون حظًّا و مقامًا إلّا آدم ، فإنّه ما بينه و بين رسول الله صلّى الله وسلّم عليهما إلّا ما بين الظاهر والباطن ، فكان في الدنيا محمد صلى الله عليه وسلم باطن آدم عليه الصلاة والسلام ، و آدم عليه الصلاة والسلام ظاهر محمد صلى الله عليه وسلم ، و بهما كان الظاهر و الباطن ، و هو في الآخرة آدم عليه الصلاة والسلام باطن محمد صلى الله عليه وسلم ، و محمد صلى الله عليه وسلم ظاهر آدم عليه الصلاة والسلام ، و بهما يكون الظاهر و الباطن في الآخرة . فهذا ما بين حظ محمد صلى الله عليه وسلم و بين حظوظ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

و في هذا الفصل تفصيل عظيم تبلغ فصول التفصيل فيه إلى مائة ألف تفصيل و أربعة و عشرين ألف تفصيل بعدد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . لأنّه يحتاج إلى تعيين كلّ نبي و معرفة ما بين حظ محمد صلى الله عليه وسلم و بين ذلك النبي . و الحظوظ محصورة من حيث الأعمال في تسعة و سبعين . وقد يكون للنبي من ذلك أمر واحد ، و لآخر أمران ، و لآخر عشر العدد و تسعه و ثمنه و أقلّ من ذلك و أكثر . و المجموع

لا يكون إلّا لرسول الله ﷺ . و لهذا لم يبعث بعثًا عامًّا سوى محمد ﷺ . و ما سواه فبعثه خاصّ ، " لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً " . انتهى .

قال ابن الجزار نور الدين علي بن زين الدين في رسالته القول الحق : وقد أغرب العز ابن عبدالسلام في بعض مقالاته حيث زعم أنّه ﷺ إذا قوبل بواحد من الأنبياء كائنًا من كان ، كان نبينا ﷺ أفضل منه . ولا يقال أفضل من جميعهم . و في بعض مقالاته ما يقتضي تفضيله على جميعهم انفردوا أو اجتمعوا . و هذه المقالة مردودة و ليست من مقالات الصواب معدودة . فالذي عليه العلماء و الشافعي و ناهيك به عظمًا و تقديمًا أنّه عليه الصلاة والسلام مفضّل على جميع العالمين . انتهى .

و قال الشهاب الخفاجي رحمه الله تعالى في نسيم الرياض شرح الشفاء ج١ ص٣١٦ : و يحكى أنّ هذه المسألة وقعت في زمن عز بن عبد السلام فأفتى فيها بأنّه ﷺ كان أفضل من كلّ واحد من الأنبياء ، لا أنّه أفضل من جميعهم . فتمالأ جماعة من علماء عصره على تكفيره . فعصمه الله عزّ وجلّ . أقول : نحن لا نشكّ في أنّه ﷺ أفضل من كلّ واحد منهم و من الجميع أيضًا . انتهى كلام الشهاب .

قلت : و رأيت أنا لسلطان العلماء عز بن عبدالسلام المتوفّى سنة ٦٦٠هـ رسالة صغيرة حقق فيها تفضيله عليه الصلاة والسلام على الأنبياء و الملائكة . ولم يذكر فيها أنّه عليه الصلاة والسلام ليس بأفضل من مجموع الأنبياء لا صراحةً ولا إشارةً . بل لإطلاق ظاهر عبارته في التفضيل يؤخذ منه أنّه عليه الصلاة والسلام عنده أفضل من مجموع الأنبياء أيضًا ، كما أنّه أفضل من كلّ واحد منهم . و رأيت أن أضع هذه الرسالة ههنا لزيادة الإفادة وكونها عزيزة الوجود في ديارنا . و مع ذلك مؤيدة لغرضنا في هذا التأليف البديع . إذ غرضنا الأقصى فيه إثبات أنّه عليه الصلاة والسلام أفضل خلق الله على الإطلاق .

هـذه رسالة عز بن عبد السلام رحمه الله تعالى المسماة بداية السؤل في تفضيل الرسول . قال بعد البسملة و الحمد :

قال الله تعالى لنبينا محمد صلوات الله عليه و سلامه ممتنًا عليه معرفًا لقدره لديه : " وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا " و " وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ " و " تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ " .

الفضل الأوّل مدح في أصل المفاضلة . و الثاني في تضعيف المفاضلة بدرجات . و نكّرها تنكير التعظيم بمعنى درجات عظيمة . و قد فضّل الله تعالى نبينا محمدًا ﷺ من وجوه :

أوّلها : أنّه ساد الكلّ . فقال ﷺ : أنا سيّد ولد آدم ولا فخر . و السيّد من اتصف بالصفات العليّة و الأخلاق السنيّة . و هذا مشعر بأنّه أفضل منهم في الدارين . أمّا في الدنيا فلما اتصف به من الأخلاق المذكورة . و أمّا في الآخرة فلأنّ جزاء الآخرة مرتّب على الأوصاف و الأخلاق . فإذا فضّلهم في الدنيا في المناقب و الصفات فضّلهم في الآخرة في المراتب و الدرجات . و إنّما قال ﷺ " أنا سيّد ولد آدم ولا فخر " ليعرف أمّته منزلته عند ربّه عَزَّوَجَلَّ . ولما كان من ذكر مناقب نفسه إنّما يذكرها افتخارًا في الغالب أراد ﷺ أن يقطع وهم من يتوهّم من الجهلة أنّه ذكر ذلك افتخارًا فقال : ولا فخر .

ومنها : قوله ﷺ : وبيدي لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر .

ومنها : قوله ﷺ : آدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيامة ولا فخر . و هذه الخصائص تدلّ على علوّ مرتبته على آدم وغيره . ولا معنى للتفضيل إلّا التخصيص بالمناقب و المراتب .

ومنها : أنّ الله أخبره ﷺ بأنّه غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر . و لم ينقل أنّه أخبر أحدًا من الأنبياء بمثل ذلك . بل الظاهر أنّه لم يخبرهم . لأنّ كلّ واحد منهم إذا طلب منه الشفاعة في الموقف ذكر خطيئته التي أصاب و قال : نفسي نفسي . ولو علم كلّ واحد منهم بغفران خطيئته لم يوجل منها في ذلك المقام . و إذا استشفعت الخلائق بالنبي ﷺ في ذلك المقام قال : أنا لها .

ومنها : أنّه ﷺ أوّل شافع و أوّل مشفّع . و هذا يدلّ على تخصيصه و تفضيله ﷺ .

ومنها : إيثاره ﷺ على نفسه بدعوته . إذ جعل الله لكلّ نبي دعوة مستجابة . فكلّ منهم تعجّل دعوته في الدنيا . و اختبأ هو ﷺ دعوته شفاعة لأمّته .

ومنها : أنّ الله تعالى أقسم بحياته ﷺ في قوله تعالى : " لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ " . و الإقسام بحياته يدلّ على شرف حياته و عزتها عند المقسم بها ، و أنّ حياته ﷺ لجديرة أن يقسم بها لما كان فيها من البركة العامة و الخاصة . ولم يثبت هذا لغيره .

ومنها : أنّ الله تعالى وقّره في ندائه . فناداه بأحبّ أسمائه و أسنى أوصافه ﷺ . قال : يَٰٓأَيُّهَا

ٱلنَّبِيُّ ، يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ . و هذه الخصيصة لم تثبت لغيره . بل إنّ كلًّا منهم نودي باسمه . فقال الله تعالى : " يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ " و " يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ " و " يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ " و " يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٍ " و " يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ " و " يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ " .

ولا يخفى على أحد أنّ السيد إذا دعا أحد عبيده بأفضل ما وجد فيهم من الأوصاف العليّة و الأخلاق السنيّة و دعا الآخرين بأسمائهم الأعلام التي لا تشعر بوصف من الأوصاف ولا بخلق من الأخلاق أنّ منزلة من دعاه بأفضل الأسماء والأوصاف أعزّ عليه و أقرب إليه ممن دعاه باسمه العلم . و هذا معلوم بالعرف أنّ من دعي بأفضل أسمائه و أخلاقه و أوصافه كان ذلك مبالغة في تعظيمه و احترامه . حتى قال القائل :

لا تَدْعُني إلاّ بِيَا عَبْدَها فإنّه أشْرَفُ أسْمائِي

ومنها : أنّ معجزة كلّ نبي تصرمت و انقضت . و معجزة سيّد الأوّلين و الآخرين ﷺ و هي القرآن العظيم باقية إلى يوم الدين .

ومنها : تسليم الحجر عليه و حنين الجذع إليه ﷺ . و لم يثبت لواحد من الأنبياء مثل ذلك .

ومنها : أنّه وجد في معجزاته ﷺ ما هو أظهر في الإعجاز من معجزات غيره كتفجر الماء من بين أصابعه . فإنّه أبلغ في خرق العادة من تفجّره من الحجر . لأنّ جنس الأحجار مما يتفجّر منه الماء . فكانت معجزاته ﷺ بانفجار الماء من بين أصابعه أبلغ من انفجار الحجر لموسى عليه الصلاة والسلام .

ومنها : أنّ عيسى عليه الصلاة والسلام أبرأ الأكمه مع بقاء عينه في مقرّها . و رسول الله ﷺ ردّ العين بعد أن سالت على الخد . ففيه معجزة من وجهين : أحدهما التئامها بعد سيلانها ، و الآخر ردّ البصر إليها بعد فقده منها .

ومنها : أنّ الأموات الذين أحياهم ﷺ من الكفر بالإيمان أكثر عددًا ممن أحياهم عيسى عليه الصلاة والسلام بحياة الأبدان . و شتّان بين حياة الإيمان و حياة الأبدان .

ومنها : أنّ الله يكتب لكلّ نبيّ من الأنبياء من الأجر بقدر أعمال أمّته و أحوالها و أقوالها .

و أمّته ﷺ شطر أهل الجنة . وقد أخبر الله تعالى أنّهم " خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ " . و إنّما كانوا خير الأمم لما اتصفوا به من المعارف و الأحوال و الأقوال و الأعمال . فما من معرفة ولا حالة ولا عبادة ولا مقالة ولا شيء يتقرب به إلى الله عَزَّوَجَلَّ مما دلّ رسول الله ﷺ و دعا إليه إلاّ و له أجر من عمل به إلى يوم القيامة . لقوله ﷺ : من دعا إلى هدى كان له أجره و أجر من عمل به إلى يوم القيامة . ولا يبلغ أحد من الأنبياء إلى هذه المرتبة . وقد جاء في الحديث : الخلق عيال الله . و أحبّهم إليه أنفعهم لعياله .

فإذا كان ﷺ قد نفع شطر أهل الجنة ، وغيره من الأنبياء إنّما نفع جزء الشطر ، كانت منزلته ﷺ في القرب على قدر منزلته في النفع . فما من عارف من أمّته إلاّ وله ﷺ مثل أجر معرفته مضافًا إلى معارفه . وما من ذي حال من أمّته إلاّ و له ﷺ مثل أجره على حاله مضمومًا إلى أحواله ﷺ . و ما من ذي مقال يتقرب به إلى الله تعالى إلاّ و له ﷺ مثل أجر ذلك القول مضمومًا إلى مقالته و تبليغ رسالته .

و ما من عمل من الأعمال المقرّبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ من صلاة و زكاة و عتق و جهاد و برّ و معروف و ذكر و صبر و عفو و صفح إلاّ و له ﷺ مثل أجر عامله مضمومًا إلى أجره على أعماله . و ما من درجة علية و مرتبة سنية نالها أحد من أمّته بإرشاده و دلالته إلاّ و له ﷺ مثل أجرها مضمومًا إلى درجته ﷺ و مرتبته . و يتضاعف ذلك بأنّ من دعا من أمّته إلى هدى أو سنّ سنة حسنة كان له أجر من عمل بذلك على عدد العاملين . ثم يكون هذا المضاعف لنبينا ﷺ ، لأنّه دلّ عليه و أرسل إليه .

و لأجل هذا بكى موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ليلة الإسراء بكاءً غبطةً غبط بها النبي ﷺ . إذ يدخل من أمّته الجنة أكثر مما يدخل من أمّة موسى . ولم يبك حسدًا كما يتوهّمه بعض الجهلة . و إنّما بكى أسفًا على ما فاته من مرتبته .

ومنها : أنّ الله عَزَّوَجَلَّ أرسل كلّ نبي إلى قومه خاصّة ، و أرسل نبينا ﷺ إلى الجنّ و الإنس . فلكلّ نبي من الأنبياء ثواب تبليغه إلى أمّته ، و لنبينا ﷺ ثواب التبليغ إلى كلّ من أرسل إليه تارةً بمباشرة الإبلاغ و تارةً بالسبب إليه . و لذلك تمنن الله عليه فقال : وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا . و وجه التمنن أنّه لو بعث في كلّ قرية نذيرًا لما حصل لرسول الله ﷺ إلاّ أجر إنذاره لأهل قريته .

ومنها : أنّ الله تعالى كلّم موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالطور و بالوادي المقدّس . وكلّم نبينا ﷺ فوق سدرة

المنتهى و في المقام الأعلى .

ومنها : أنّه ﷺ قال : نحن الآخرون من أهل الدنيا و الأوّلون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلائق . و نحن أوّل من يدخل الجنة .

ومنها : أنّه كما ذكر السؤدد مطلقًا فقد قيّده بيوم القيامة فقال : أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة و أوّل من ينشقّ عنه القبر و أوّل شافع و أوّل مشفّع .

ومنها : أنّه ﷺ أخبر أنّه يرغب إليه الخلق كلّهم يوم القيامة حتى إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

ومنها : أنّه قال ﷺ : الوسيلة منزلة في الجنة لا تنبغي أن تكون إلاّ لعبد من عباد الله . و أرجو أن أكون أنا هو . فمن سأل لي الوسيلة حلّت عليه الشفاعة .

ومنها : أنّه يدخل من أمّته الجنة سبعون ألفًا بغير حساب ولم يثبت ذلك لغيره .

ومنها : الكوثر الذي أعطيه ﷺ في الجنة و الحوض الذي أعطيه في الموقف .

ومنها : قوله ﷺ : نحن الآخرون السابقون . أي الآخرون زمانًا السابقون بالمناقب و الفضائل .

ومنها : أنّه ﷺ أحلّت له الغنائم . ولم تحلّ لأحد قبله . و جعلت صفوف أمّته كصفوف الملائكة . و جعلت له الأرض مسجدًا ، و ترابها طهورًا . و هذه الخصائص تدلّ على علوّ مرتبته .

ومنها : أنّ الله تعالى أثنى على خُلُقه ﷺ فقال : وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ . و استعظام العظماء لشيء يدلّ على إيغاله في العظمة . فما الظن باستعظام أعظم العظماء .

ومنها : أنّ الله تعالى كلّمه ﷺ بأنواع الوحي . و هي ثلاثة : أحدها الرؤيا الصالحة . و الثاني الكلام من غير واسطة . و الثالث مع جبريل عليه السلام .

ومنها : أنّ كتابه ﷺ مشتمل على جميع ما اشتملت عليه التوراة و الإنجيل و الزبور ، و فضل بالمفصل .

ومنها : أنّ أمّته ﷺ أقلّ عملاً ممن قبلهم و أكثر أجرًا كما جاء في الحديث .

و منها : أنّ الله عزّ وجلّ عرض عليه ﷺ مفاتيح كنوز الأرض ، و خيّره بين أن يكون نبيًّا ملكًا

أو نبيًّا عبدا . فاستشار جبريل . فأشار إليه أن تواضع . فقال : بل نبيًّا عبدًا ، أجوع يومًا و أشبع يومًا . فإذا جعت دعوت الله ، و إذا شبعت شكرت الله . فقد اختار ﷺ أن يكون مشغولاً بالله في طورَي الشدة و الرخاء و النعمة و البلاء .

ومنها : أنّ الله أرسله ﷺ رحمة للعالمين . فأمهل عصاة أمّته ولم يعاجلهم إبقاءً عليهم . بخلاف من تقدّمه من أمم الأنبياء . فإنّهم لمّا كذبوا عوجل مكذّبوهم . و أمّا أخلاقه ﷺ في حمله و عفوه و صبره و صفحه و شكره و لينه فإنّه لم يغضب لنفسه ، و إنّه جاء بإتمام مكارم الأخلاق .

و ما نقل من خشوعه و خضوعه و تبذله و تواضعه في مأكله و ملبسه و مشربه و مسكنه و جميل عشرته و حسن شيمته و نصحه لأمّته و حرصه على إيمان عشيرته و قيامه بأعباء رسالته و رأفته بالمؤمنين و رحمته و غلظته على الكافرين و شدته و مجاهدته في نصرة دين الله و إعلاء كلمته و ما لقيه من أذى قومه و غيرهم في وطنه و غربته .

فبعض هذه المناقب موجود في كتاب الله ، و بعضها موجود في شمائله و سيرته . أمّا لينه ﷺ ففي قوله تعالى : فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ . و أمّا شدته ﷺ على الكفار و رحمته للمؤمنين ففي قوله تعالى : مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ . و أمّا حرصه ﷺ على إيمان أمّته ففي قوله تعالى : لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ . و أمّا نصحه ﷺ في أداء رسالته ففي قوله تعالى : فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ . ولو قصر لتوجه إليه اللوم .

ومنها : أنّ الله تعالى أنزل أمّته ﷺ منزلة العدول من الحكام . فإنّ الله إذا حكم العباد و جحد الأمم تبليغ الرسالة أحضر أمّة محمد ﷺ . فيشهدون على الناس أنّ رسلهم أبلغتهم . و هذه الخصيصة لم تثبت لأحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

ومنها : عصمة أمّته ﷺ بأنّها لا تجتمع على ضلالة في فرع ولا أصل .

ومنها : حفظ كتابه ﷺ . فلو اجتمع الأوّلون و الآخرون على أن يزيدوا فيه كلمة أو ينقصوا كلمة لعجزوا عن ذلك . ولا يخفى ما وقع من التبديل في التوراة و الإنجيل .

ومنها : أنّ الله ستر على من لم يتقبل عمله من أمّته ﷺ . و كان من قبلهم يقربون القرابين

فتأكل النار ما تقبل منها و تدع ما لم يتقبل . فيصبح صاحبه مفتضحًا . و لمثل ذلك قال الله تعالى : وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ . قال ﷺ : أنا رحمة مهداة . أنا نبي الرحمة .

ومنها : أنّه بعث ﷺ بجوامع الكلم و اختصر له الحديث اختصارًا . و فاق العرب في فصاحته و بلاغته . و كما فضّله الله على أنبيائه و رسله من البشر كذلك فضّله على من اصطفاه من رسله من أهل السماء و ملائكته . لأنّ أفاضل البشر أفضل من الملائكة لقوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ . و الملائكة من جملة البريّة . لأنّ البريّة الخليقة مأخوذة من " برأ الله الخلق " أي اخترعه و أوجده . ولا تدخل الملائكة في قوله " إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ " مع أنّهم قد آمنوا و عملوا الصالحات . لأنّ هذا اللفظ مختص بعرف اللغة في من آمن من البشر بدليل أنّه هو المتبادر إلى الأفهام عند الإطلاق .

فإن قيل : البريّة مأخوذة من البرا و هو التراب . فكأنّه قال : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ . أي خير البشر .

فالجواب من وجهين : أحدهما أنّ أئمة اللغة قد عدّوا البريّة من جملة ما تركت العرب همزه . و الوجه الثاني و هو الأظهر أنّ نافعًا قرأ بالهمز . و كلا القراءتين كلام الله . فإن كانت إحداهما قد فضلت الذين آمنوا و عملوا الصالحات على سائر البشر ، فقد فضّلتهم القراءة الأخرى على سائر الخلق .

و إذا ثبت أنّ أفاضل البشر أفضل من الملائكة فالأنبياء صلوات الله عليهم و سلامه أفضل الذين آمنوا و عملوا الصّالحات بدليل قوله تعالى بعد ذكر جماعة من الأنبياء : وَكُلًّا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ .

فدلّت هذه الآية على أنّهم أفضل البشر و أفضل من الملائكة ، لأنّ الملائكة من العالمين ، سواء كان مشتقًّا من العلم أو العلامة . و إذا كان الأنبياء أفضل من الملائكة و رسول الله ﷺ أفضل من الأنبياء فقد ساد سادات الملائكة فصار أفضل من الملائكة بدرجتين و أعلى منهم برتبتين . لا يعلم قدر تينك الرتبتين و شرف تينك الدرجتين إلّا من فضل خاتم الأنبياء و سيّد المرسلين على جميع العالمين .

و هذه لمع و إشارات يكتفي العاقل الفطن بمثلها بل ببعضها . و نحن نسأل الله بمنّه و كرمه أن يوفّقنا لاتباع رسوله في سنته و طريقته و جميع أخلاقه الظاهرة و الباطنة ، وأن يجعلنا من أحزابه

و أنصاره . والحمد لله وحده و صلواته على خير خلقه محمد وآله و صحبه . و حسبنا الله و نعم الوكيل . ولاحول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم .

انتهت رسالة العز بن عبدالسلام بحروفها .

الباب السادس والثمانون
في الجواب التاسع والتسعين

من التوجيهات المشهورة أنّ كون المشبّه به أقوى و أعلى غير لازم فلا إشكال .

قال المحقق القسطلاني رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ في المواهب : و منها رفع المقدمة المذكورة أوّلًا و هي : أنّ المشبّه به يكون أرفع من المشبّه و أنّ ذلك ليس مطردًا . بل قد يكون التشبيه بالمثل ، بل بالدون ، كما في قوله تعالى : مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ . و أين يقع نور المشكاة من نوره تعالى ؟ و لكن لمّا كان المراد من المشبّه به أن يكون شيئًا ظاهرًا واضحًا للسامع حسن تشبيه النور بالمشكاة .

و كذا هنا لما كان تعظيم إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ و آل إبراهيم بالصلاة عليهم مشهورًا واضحًا عند جميع الطوائف حسن أن يطلب لمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و آل محمد بالصلاة عليهم مثل ما حصل لإبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ و آل إبراهيم . و يؤيد ذلك ختم الطلب المذكور بقوله "في العالمين" . أي كما أظهرت الصلاة على إبراهيم و على آل إبراهيم في العالمين . و لهذا لم يقع "في العالمين" إلّا في ذكر إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دون ذكر آل محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما وقع في الحديث الذي وردت فيه ، و هو حديث أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي ذكرته . انتهى .

و قال في رد المحتار : هذا من غير الغالب . فإنّ المشبّه به قد يكون مساويًا للمشبّه أو أدنى منه . لكنّه يكون أوضح لكونه حسيًّا مشاهدًا ، أو لكونه مشهورًا في وجه الشبه . فالأوّل نحو : مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ . و أين يقع نور المشكاة من نوره تعالى ؟ و الثاني كما هنا . فإنّ تعظيم إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وآله بالصلاة عليهم واضح بين أهل الملل . فحسن التشبيه لذلك . و يؤيده ختم هذا الطلب بقوله "في العالمين" . و تمامه في الحلية . انتهى .

حكي أنّ أبا تمام الشاعر المعروف كان سريع الخاطر ذكيّ الفؤاد قويّ التخييل ، و أنّه لمّا مدح أحمد بن المعتصم بسينيته المشهورة التي أولها :

ما في وُقُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَأسِ   نَقْضِي ذِمَامَ الأربُعِ الأَدْرَاسِ

و سمع الكنديّ قوله فيها و كان حاضرًا في ذلك المجلس :

إِقْدَامُ عَمْرٍو في سَماحَةِ حَاتِمٍ   في حِلْمِ أَحْنَفَ فِي ذَكَاءِ إِيَاسِ

قال له الكندي : الأمير فوق من وصفت . فأطرق أبو تمام مليًّا ثم قال :

لا تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُوْنَهُ   مَثَلاً شَرُوْدًا في النَّدَى وَالْبَأسِ
فَاللهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقَلَّ لِنُوْرِهِ   مثلاً من المِشْكاةِ و النِّبْرَاسِ

و لمّا أخذت القصيدة من يده لم يجدوا فيها هذين البيتين .

و **من قبيل التشبيه** بالأدنى قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ .

المراد من "الكلمة الطيّبة" شهادة أن لا إله إلّا الله . كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما . و أين تقع الشجرة من كلمة التوحيد .

و **منه** قوله تعالى " وَحُورٌ عِينٌ . كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ " . أين اللؤلؤ و صفاؤه من حسن الحور اللاتي لو بدت أصبع لهن في الدنيا طمست ضوء الشمس كما ورد في الحديث .

حَسِبْتُ جَمَالَهُ بَدْرًا مُضِيْئًا   وَ أَيْنَ الْبَدْرُ مِنْ ذَاكَ الْجَمَالِ

و **منه** قوله تعالى : وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ . كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ .

و **منه** قول الشاعر :

أتينا بليل و النجوم كأنّها   قلائد درّ حلّ عنها نظامها

شبّه النجوم بقلائد الدر . ولا نسبة للدر معها . وقال أبو العتاهية :

أما ترونَ الثريّا كأنّها عقـدُ ريّا

و منه قوله عليه الصلاة والسلام : مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة . الحديث . و أنّى للأترجة أن تصل إلى مقام المؤمن .

و منه ما أخرج البخاري و مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من تصدق بعدل تمرة من كسب طيّب ولا يقبل الله إلّا طيّبًا فإنّ الله تعالى يقبلها بيمينه . ثم يربّيها لصاحبها كما يربّي أحدكم فلوّه . والله أعلم بالصواب .

الباب السابع والثمانون
مشتمل على أربعة أجوبة

لنا في هذا الباب أربعة تقريرات . وكلّ تقرير جواب برأسه .

و مآل معنى الصلاة على هذا : اللّهم صلّ على محمد و على آله ثانيًا و تفصيلاً كما صلّيت عليهم أوّلاً إجمالاً في الصلاة على إبراهيم و على آل إبراهيم (على نبينا وعليه الصّلاة والسلام) . فإنّ نبينا عليه الصّلاة والسّلام وكذا آله سواء كانوا ذرّيّته أو سائر الصالحين من أمّته مندرجون في آل إبراهيم و مندمجون في ذرّيّته و متبعيه عليه الصّلاة والسّلام .

هذا . و إن شئت التفصيل بعد ذلك التصريح فألق سمعك شهيدًا لما أقول قولاً سديدًا . وهو أنّ المطلوب من الصلاة الإبراهيميّة يؤول إلى قولنا :

اللّهم صلّ على محمد ثانيًا و استقلالاً و تفصيلاً كما صلّيت عليه أوّلاً تبعًا و إجمالاً حين صلّيت على إبراهيم . فإنّ نبينا صلّى الله عليه وسلّم كان إذ ذاك مندرجًا في صلب إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام اندراج الحلاوة في الأثمار و الطيب في الأزهار ، و نوره المشرق كان مندمجًا في ظهر الخليل عليه الصّلاة والسّلام اندماج الأثمار و الأزهار في الحبّة قبل الانفلاق . فالصلاة على إبراهيم صلاة على نبينا أيضًا . و تبجيل قدر الخليل تبجيل قدر نبيّنا أيضًا عليهما الصّلاة والسّلام . و صلّ على آل محمد ثانيًا و تفصيلاً كما صلّيت عليهم أوّلاً إجمالاً و تبعًا عند الصلاة على آل إبراهيم (عليهما الصّلاة والسّلام) .

إذ آل محمد صلّى الله عليه وسلّم آل إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام و ذرّيّته ذرّيّته و أمّته أمّته . فنحن نقتفي ملّة نبينا صلّى الله عليه وسلّم المقتفي

ملّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأمر الله سبحانه ،كما ثبت في القرآن العزيز .

ثم بعد هذا الكلام و إيضاح ما هو المرام أقول : ههنا تقريرات أربع :

التقرير الأوّل : أنّ نبينا صلى الله عليه وسلم توجهت إليه الصلاة مرتين ، وكذا إلى آله أوّلاً في المشبّه صراحة و ثانيًا في المشبّه به ضمنًا ، بدون التصريح باسم محمد و اسم آله صلى الله عليه وسلم ، و أنّ المشبّه و المشبّه به متغايران ظاهرًا و متباينان مصداقًا ، و أنّ المشبّه هو الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم و آله و المشبّه به الصلاة على إبراهيم عليه الصلاة والسلام و آله ، و أنّ المشبّه و إن سلّم كونه أدنى ظاهرًا و في العبارة دون الواقع والحقيقة لكن لا وصمة فيه لكونه داخلاً في المشبّه به دخول الأجزاء في الكلّ ، بل مندمجًا فيه اندماج الكلّيّ في الجزئيات . ففضل المشبّه به راجع على المشبّه أيضًا بحسب استعداد المشبّه .

فصل

في التقرير الثاني

ملخصه أنّ طرفي التشبيه متغايران لفظًا و اعتبارًا ، ومتحدان معنى و حقيقة . فالمشبّه هو الصلاة على نبينا و آله ، و المشبّه به أيضًا ذلك . أي الصلاة على محمد وآله عليه الصلاة والسلام المتحققة في ضمن الصلاة على إبراهيم وآله عليه الصلاة والسلام .

و ليس المشبّه به الصلاة على إبراهيم و على آله بدون اعتبار ما تضمنته كما هو الظاهر حتى يرد ما ورد . فالمعتبر في المشبّه به المتضمن (بفتح الميم) دون المتضمن فقط (بالكسر) .

إن قلت : التشبيه يستدعي تغاير الطرفين . و هو على ما قلت منتف . فما وجه التشبيه ؟

قلت : التغاير الاعتباري يكفي . و هو متحقق ههنا من وجوه :

الوجه الأوّل : أنّ الصلاة على محمد وآله عليه الصلاة والسلام ذكرت في الطرف الأوّل أي المشبّه على حدة و تحقّقت استقلالاً ، و في الطرف الثاني ذكرت و تحقّقت تبعًا .

و الوجه الثاني : المشبّه من قبيل الملفوظ ، و المشبّه به من وادي المفهوم الغير الملفوظ .

و **الوجه الثالث** : هذه الصلاة في الأوّل مدلول عليها مطابقةً ، و في الثاني تضمّنًا .

و **الوجه الرابع** : الأوّل صريح ، و الثاني أي المشبّه غير صريح .

و **الوجه الخامس** : في الطرف الأوّل تفصيل ، و في الثاني إجمال .

و **الوجه السادس** : في الطرف الأوّل طلب و إنشاء ، و في الثاني إخبار .

و **الوجه السابع** : الأوّل مستقبل ، و الثاني ماض .

ثم المشبّه في هذا التقرير أفضل و أقوى من المشبّه به ، إذ لا يخفى أنّ الصريح أعلى من غير الصريح ، و الدلالة مطابقةً أقوى من الدلالة تضمّنًا ، و المستقلّ أعلى من التابع ، و الملفوظ أظهر من غير الملفوظ . هذا بالنظر إلى التغاير الاعتباريّ . و إلاّ فقد علمت مما تقدّم أنّ الطرفين على هذا التقرير متحدان حقيقة . هذا . والله أعلم بالصواب وإليه المآب .

فصل
في التقرير الثالث

هذا التقرير ينبني على أنّ نبينا ﷺ داخل في آل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، لأنّه الفرد الأكمل و النجل الأبجل لإبراهيم عليهما الصلاة والسلام .

ملخّص الكلام أنّ الصلاة توجهت إلى نبينا ﷺ في هذه الصلاة الإبراهيمية ثلاث مرات : الأولى في المشبّه صريحًا . و الثانية في ضمن الصلاة على إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، لأنّه جده . وكان نوره عليه الصلاة والسلام منبسطًا في ظهر إبراهيم عليه الصلاة والسلام انبساط الطيب في نورة فائحة زاهرة ، و النور في حدقة زاكية طاهرة . فالصلاة على إبراهيم صلاة على نبينا أيضًا عليهما الصلاة والسلام . و الثالثة في الصلاة على آل إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

و توجّهت الصلاة إلى آله عليه الصلاة والسلام مرّتين : أوّلاً في المشبّه صراحةً ، و ثانيًا في ضمن الصلاة على آل إبراهيم عليه الصلاة والسلام . لأنّ آل محمد آل إبراهيم عليهما الصلاة والسلام أيضًا و ذرّيّته ذرّيّته أيضًا . فالمشبّه به منطو على جزئي المشبّه كليهما محمد وآله .

و اندفع الإشكال . و إن سلّمت ضابطة أفضليّة المشبّه به إن شاء الله تعالى لدخول المشبّه في المشبّه به ، فحصل للمشبّه نصيب وافر من أفضليّة المشبّه به . بل هو ملاك الأفضليّة . فالمشبّه هو الفاضل وهو الأفضل وهو الكامل وهو الأكمل وهو العالي وهو الأعلى . وكلّ كمال اتصف به المشبّه به اتصف به المشبّه ، ولا عكس .

فصل
في التقرير الرابع

هو مثل التقرير الثالث إلّا أنّ الثالث كان متفرعًا على النظر الجليّ حيث سلّمنا في خاتمته ضابطة أفضلية المشبّه به . و أوّلنا هناك ما أوّلنا في دفع الإشكال . و الرابع متفرع على النظر الدقيق . و هو أنّ المشبّه في هذه الصلاة أفضل و أعلى من المشبّه به .

فإنّك لو جردت طبعك عن الملل و الكدر و كررت في أوائل التقرير الثالث النظر لاستيقنت أنّ هذه الصلاة تدل على أنّ المشبّه وهو محمد وآله أفضل من المشبّه به وهو إبراهيم وآله عليهما الصلاة والسلام ، و لعلمت أنّ هذا التشبيه يهدي إلى أنّ آله عليه الصلاة والسلام أفضل من آل إبراهيم عليه الصلاة والسلام إن كان المراد من آل إبراهيم غير الأنبياء و إلّا فلا ، و أنّ ذاته صلى الله عليه وسلم أعلى و أكمل من ذات إبراهيم عليه الصلاة والسلام . كيف لا ، و هذه الصلاة تستلزم الصلاة على إبراهيم مرّة ، و كذا على آله مرّة ، و تقتضي الصلاة على آل محمد مرّتين وعلى محمد ثلاث مرات .

و الصلاة درجة رفيعة و لنيل المقامات ذريعة . و المصلّي يسأل الله تعالى هذه الدرجات العلى بهذه الصلاة للمصلّى عليه .

فكأنّ المصلّي بهذه الصلاة يدعو و يقول : اللّهم كما صلّيت على إبراهيم و آتيته خصائص الخلّة و لطائف مكارم النبوّة صلّ على محمد و آته ثلاثة أضعاف ذلك . و قس عليه الصلاة على الآل .

و انما قلنا " إنّ هذه الصلاة تتضمن الصلاة على آل محمد مرتين و على محمد ثلاث مرات " لما تقدّم في التقرير الثالث فراجعه .

ولك أن تزيد هنا و تقول : إنّها تتضمن الصلاة على محمد ﷺ أربع مرات . و الرابعة الصلاة عليه ﷺ في ضمن الصلاة على آل محمد . فإنّ الصلاة تبجيل و تعظيم . ولا يخفى إنّك إذا كرمت آل رجل فقد كرمت في الحقيقة ذلك الرجل أيضًا . ولذا يفرح بتكريمهم فرحه بتكريمه . فتعظيم آل محمد بالصلاة عليهم تعظيم لمحمد أيضًا ﷺ . إذ الباعث على ذلك حبّه عليه الصلاة والسلام و اتباع أسوته . فاستبان من هذا البيان أنّ الصلاة على آل محمد تتضمّن الصلاة على محمد ﷺ أيضًا .

ثم لا يخفى أنّ الداعي إذا دعا لرجلين وكرر الدعاء لأحدهما دون الآخر دلّ صنيعه على أنّ المكرّر له الدعاء أحبّ عنده و أفضل من الآخر . وكذا إذا أمرك السلطان بالدعاء لشخصين ثم أكّد أمر الدعاء في أحدهما مكرّرًا دون الآخر هدى أمره هذا إلى أنّ الذي أكّد الأمر في حقه أفضل عنده و أحبّ إليه من الآخر .

والداعي ههنا هو المؤمن المصلّي بهذه الصلاة الإبراهيمية . و الآمر بهذه الصلاة ظاهرًا نبينا ﷺ حيث قال للسائل : قولوا : اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد إلخ . و حقيقة هو الله تعالى سبحانه . إذ لا يأمر النبي ولا ينهى إلّا بوحي الله تعالى " مَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ " .

فهذه الصلاة الإبراهيمية يدلّنا على أنّ محمدًا ﷺ أفضل من إبراهيم عند الداعي ، وكذا عند الأمرين بهذه الصلاة . فالمشبّه أعلق بقلب المصلّي و أفضل عنده من المشبّه به و أحبّ إليه منه .

و إن شئت الإيضاح فقل : هذه الصلاة قرينة على أمور :

الأوّل : أنّ المشبّه أي محمدًا ﷺ وآله أفضل عند الداعي من المشبّه به أي إبراهيم عليه الصلاة والسلام و آله حيث دعا للمشبّه مكررًا .

و الأمر الثاني : أنّ النبي ﷺ أشار بهذه الصلاة إشارة خفيّة لا يدركها إلّا الراسخون في العلم . حيث أمر أمّته بها إلى أنّه أفضل من جميع الأنبياء من إبراهيم وآله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لأنّه أثبت لذاته الكريمة الصلاة فيها أربع مرات دون إبراهيم عليه الصلاة والسلام . ولا يلزم منه أفضليّة الآل ، لأنّ الصلاة عليهم ثبتت تبعًا لا قصدًا ، و على إبراهيم قصدًا . و التبع و إن كرر لا يعلو الأصل و المقصود .

و الأمر الثالث : قد تقدّم أنّ الآمر بهذه الصلاة حقيقةً هو الله سبحانه . فنقول : هذه

الصلاة دليل من الله تعالى على أنّ محمدًا ﷺ أفضل من إبراهيم عليه الصلاة والسلام وآله الذين هم أنبياء بني إسرائيل ، و إرشاده لعباده إرشادًا خفيًّا إلى أنّه عليه الصلاة والسلام أحبّ الخلق إليه حتى من إبراهيم عليه الصلاة والسلام أيضًا ، حيث أمر بالدعاء لهما ، ثم أكد و كرّر الدعاء لمحمد ﷺ ثلاث مرات أو أربع مرات ، كما تقدّم من مثال أمر السلطان بالدعاء لرجلين ، ثم أمره بالتأكيد لأحدهما .

و **الأمر الرابع :** أنّ الصلاة المطلوبة لنبينا عليه الصلاة والسلام في هذه الصلاة ضعف الصلاة المسؤولة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ثلاث مرات ، بل أربع مرات .

و **الأمر الخامس :** قد صرّح العلماء أنّ الصلاة على النبي ﷺ مقبولة لا محالة كما تقدّم . فإذا تقبل الله سبحانه صلاتنا هذه حصلت لنبينا ﷺ أضعاف ما حصل لإبراهيم عليه الصلاة والسلام من الدرجات العالية . و الشجرة تنبئ عن الثمرة .

ألا ترى إلى قولنا " زيد كالأسد " فإنّه يقتضي كون الأسد أشجع منه ، و إلى قولنا " زيد كالأسد " و مثله أربع مرات في الشجاعة ، حيث يستدعي أن يكون زيد أشجع و أقوى من الأسد أضعافًا ، و أن يكون مساويًا في القوّة و الحماسة أربعة أسود . هذا . والله أعلم بالصواب .

الباب الثامن والثمانون
في الجواب الرابع ومائة

الصلاة من مقولة الكيف أو من مقولة الفعل ، كما أنّ الإيمان كيفٌ و علمٌ أو فعلٌ ، كما فصّله كثير من العلماء . فلا تقبل الصلاة الزيادة والنقصان في ذاتها ، ولا يتطرق التفاوت والاختلاف إلى ماهيتها . لاسيما صلاة الله على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، كما أن الإيمان لا يقبل ذلك على ما هو مذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى و المتكلمين ، كما هو موضح في كتب الكلام و الحديث .

وقد صرح القوم أن التفاوت في إيمان المؤمنين إنّما هو باعتبار الصفات الطارئة على حقيقته و الأمور الخارجة عن ماهيته كالإخلاص و كثرة ثماره من العمل و الاستحضار ونحو ذلك ، أو باعتبار القوة والضعف بأن يكون إيمان رجل قويًّا لا يزول بتشكيك الكفرة و إغواء الفجرة ، و إيمان آخر ضعيفًا يزول بأدنى تشكيك . ولا يخفى على المتفكر المتدرب أن الصلاة لا توصف بالتفاوت قوةً و ضعفًا . فالصلاة من الكلّيّات المتواطية .

و بعد تمهيد هذا أقول : قد صّرح بعض المحققين أنّ التشبيه بالكاف الجارة ربما لا يلاحظ فيه في بعض الأحيان إلّا ذاتا الطرفين . بخلاف التشبيه بكلمة " مثل " حيث يجب أن ينظر فيه بعض صفات الطرفين أيضًا مع ذاتيهما .

ولذا قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى : إيماني كإيمان جبريل ولا أقول إيماني مثل إيمان جبريل .

فالكاف و كلمة " مثل " كالضمير و حرف الإشارة ، حيث يراد من الضمير ذات المرجع بدون أوصافها ، و يراد من حرف الإشارة المشار إليه مع بعض صفاته و أحواله . صرّح به الزمخشري وغيره .

ولهذه النكتة قال الله تعالى : أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ . ولم يقل : هم على هدى .

و التشبيه في هذه الصلاة من هذا القبيل . فلا يصح فيه التفاوت و التفاضل . ولا يسوغ القول بأنّه استلزم أفضليّة المشبّه به من المشبّه ، إذ استلزام ذلك إنّما هو في التشبيه بكلمة " مثل " أو بكلمة الكاف فيما أريد التشبيه بين الطرفين مع أوصافهما و أحوالهما . وإذ لا فلا .

ولذا قال تعالى : فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ . ولم يقل : بسورة كالقرآن . لأنّ الكاف للتشبيه في نفس الطرفين بدون لحاظ الأوصاف لهما . و القرآن لم يعجز الناس عن إتيان نفس الكلام الذي يتكلم به و يقرأ كما يتكلم بالقرآن و يقرأ . بل إنّما أعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن ، أي ما يكون موصوفاً بأوصاف القرآن من الإعجاز و الإخبار عن المغيبات و التأثير في القلوب و الفصاحة القصوى و البلاغة العليا ونحو ذلك .

فصل

قد ذكرنا في هذا الباب الفرق بين التشبيه بالكاف وكلمة " مثل " . و هذا الفرق مسلّم باعتبار الأصل . و أمّا الاستعمال فقد يتوسع فيه . فيستعمل كلّ واحد منهما في مقام الآخر . و هكذا حال كثير من الكلمات حيث يذكرون بينها فروقاً باعتبار أصل الوضع . و يستعمل كلّ في معنى الآخر كالجلوس و القعود و التكميل و التتميم .

و كما قالوا : ما دام الرجل بين الثلاثين و الأربعين فهو شاب . و قبل هذا يسمّى مجتمعًا إذا اجتمعت لحيته . و قبل هذا اسمه فتى و شارخ . و قبل هذا اسمه غلام . ذكره الإمام الثعالبي في فقه اللغة . هذا حال هذه الكلمات باعتبار الأصل . و أمّا الاستعمال فأنت خبير بأنّ الشابّ يطلق على المجتمع و الفتى و نحو ذلك . وكذا الفتى على الشاب وغيره .

و كما قالوا : إنّ أوّل الحب الهَوَى ثم العَلاَقَةُ ثم الكَلَفُ ثم العِشْقُ ثم الشَّعَفُ ثم الشَّغَفُ ثم الجَوَى ثم التَّيَمُ ثم التَّبَلُ ثم التَّدْلِيْهُ ثم الهُيُوْمُ . هذا . لكن الاستعمال خلاف هذا ، حيث يستعمل الهوى في جميع المراتب للحبّ ، وكذا الجوى . ولذلك نظائر لا تعدّ . فقس على ذلك ما سطرنا من الفرق

بين الكاف و " مثل " . و هو مؤيد بشواهد .

و فرع عليه الفقهاء عدة أحكام الحلال و الحرام . ففي الدر المختار من باب الطلاق الصريح : لو قال " أنت طالق هكذا " مشيرًا بالأصابع المنشورة ، وقع بعدده . بخلاف ما لو قال " أنت طالق مثل هذا " و أشار بأصابعه الثلاث ، فإنّه إن نوى ثلاثًا وقعن ، و إلّا فواحدة ، لأنّ الكاف أي في " هكذا " للتشبيه في الذات ، و " مثل " للتشبيه في الصفات .

ولذا قال أبوحنيفة رحمه الله تعالى : إيماني كإيمان جبريل ، لا مثل إيمان جبريل . فإنّ الحقيقة في الفردين واحدة ، و هي التصديق الجازم . فصحّ قولنا : كإيمان جبريل . ولا يصح قولنا : مثل إيمان جبريل ، لزيادته في الصفة من كونه عن مشاهدة . فيحصل به زيادة الاطمينان ، كما أشير إليه في قوله تعالى " قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ " الآية . و به يحصل زيادة القرب و رفع المنزلة . انتهى بتصرف و زيادة من شرحه للشامي رحمه الله تعالى .

ثم اعلم : أنّه اختلف فى هذا النقل عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى . فصحّحه البعض و أنكره آخرون . و ذكر البخاري في باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله من صحيحه تعليقًا عن ابن أبي مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، كلّهم يخاف النفاق على نفسه . ما منهم أحد يقول : إنّه على إيمان جبريل و ميكائيل .

قال الشيخ أنور رحمه الله تعالى في أماليه فيض الباري في شرح هذا الكلام : و في هذا إشارة إلى أنّ المذكورين كانوا قائلين بتفاوت درجات المؤمنين في الإيمان . انتهى .

و قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في الفتح تحت قول البخاري " ما منهم أحد يقول إنّه على إيمان جبريل و ميكائيل " : أي لا يجزم أحد منهم بعدم عروض النفاق لهم كما يجزم بذلك في إيمان جبريل . و في هذا إشارة إلى أنّ المذكورين كانوا قائلين بتفاوت درجات المؤمنين في الإيمان ، خلافًا للمرجئة بأنّ إيمان الصديقين وغيرهم بمنزلة واحدة . وقد روي في معنى أثر ابن أبي مليكة حديث عن عائشة رضوان الله عليها مرفوع . رواه الطبراني في الأوسط . لكن إسناده ضعيف . انتهى .

قلت : قوله هذا يدلّ على أنّ الفرق إنّما هو باعتبار المآل و الجزم بعدم عروض النفاق في إيمان

جبريل و عدم جزم ذلك في إيمان آحاد الأمّة . و هذا تسليم أنّ الإيمانين سواء في نفس الحقيقة . و هي التصديق الجازم .

و في الإحياء عند البحث على إطلاقات الإيمان : الإطلاق الثالث أن يراد به التصديق اليقيني على سبيل الكشف و انشراح الصدر . و هذا أبعد الأقسام عن قبول الزيادة . لكن تختلف طمانينة النفس إليه . فليس طمانينة النفس إلى أنّ الاثنين أكثر من الواحد كطمانينتها إلى أنّ العالم حادث . و إن كان لا شكّ في واحد منهما . فإنّ اليقينيّات تختلف في درجات الإيضاح . انتهى .

قال العلامة الزبيدي الحنفي في شرح الإحياء : و منع الحنفية هذا و قالوا : هو تفاوت بأمور زائدة على نفس اليقين . و عليه روي قول أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ أنّه قال : أقول إيماني كإيمان جبريل و لا أقول مثل إيمان جبريل . لأنّ المثليّة تقتضي المساوات في كلّ الصفات ، و التشبيه لا يقتضيه . فلا أحد يسوي بين إيمان آحاد الناس و إيمان الملائكة و الأنبياء ، بل يتفاوت بأمور زائدة . و قالوا : ما يظن من أن القطع (اليقين) يتفاوت قوّة ، إنما هو راجع إلى جلائه و ظهوره و انكشافه . و بعد ترتيب المقدمات كان الجزم الكائن في حدوث العالم كالجزم في حكمنا الواحد نصف الاثنين . و إنما تفاوتهما باعتبار أن سرعة الجزم فيه ليست كالسرعة التي في الآخر و هو الواحد نصف الاثنين . انتهى بحذف .

قال الشيخ محمد أنور الكشميري رَحِمَهُ اللهُ في أماليه فيض الباري : و عن أبي يوسف رَحِمَهُ اللهُ في تذكرة الحفاظ بإسناد صحيح : لا أقول إيماني كإيمان جبريل . و نسب ابن عابدين الشامي إلى الإمام الأعظم رَحِمَهُ اللهُ عدم جواز الكاف و المثل كليهما في تلك العبارة . و في الدر المختار عن أبي حنيفة و محمد رَحِمَهُمَا اللهُ جواز الكاف دون المثل في رواية . و في رواية أخرى الجواز مطلقًا .

و جمعهما ابن عابدين أنّ جواز الكاف دون المثل لمن كان عالم العربية ، و عدم جوازهما فيما إذا لم يكن المخاطب صحيح الفهم ، و جوازهما باعتبار نفسهما . قلت : و في خلاصة الفتاوى وجدت نقلًا عن محمد رَحِمَهُ اللهُ فقط . و على هذا لم تجيء في هذا الباب رواية عن الإمام رَحِمَهُ اللهُ ، و ثبت النفي عن الصاحبين . انتهى .

و في رد المحتار : لكن ما نقل عن الإمام هنا يخالفه ما في الخلاصة من قوله : قال أبو حنيفة

رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : أكره أن يقول الرجل : إيماني كإيمان جبريل . و لكن يقول : آمنت بما آمن به جبريل . انتهى . وكذا ما قاله أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في كتاب العالم و المتعلم : إنّ إيماننا مثل إيمان الملائكة . لأنّا آمنّا بوحدانية الله و ربوبيته و قدرته . وما جاء من عند الله بمثل ما أقرت به الملائكة و صدقت به الأنبياء و الرسل . فمن ههنا إيماننا مثل إيمانهم . لأنّا آمنّا بكلّ شيء آمنت به الملائكة مما عاينته من عجائب الله تعالى ولم نعاينه نحن . ولهم بعد ذلك علينا فضائل في الثواب على الإيمان و جميع العبادات إلخ .

ولا يخفى أنّ بين هذه العبارات تخالفًا بحسب الظاهر . و يمكن التوفيق بحمل الأولى على العالم . لأنّه قال : أقول إيماني كإيمان جبريل ولا أقول مثل إيمان جبريل . و الثانية على غيره لقوله : أكره أن يقول الرجل . و الثالثة على ما إذا فصّل و صرّح بالمؤمن به و إن كان بلفظ المثلية لعدم الإيهام بعد التصريح . فيجوز للعالم و الجاهل . و للعلامة ابن كمال باشا رسالة في هذه المسألة . هذا خلاصة ما فيها . انتهى كلام ابن عابدين رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى .

و في شرح الفقه الأكبر لملاّ عليّ القاري رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : قال الإمام محمد رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى على ما ذكره في الخلاصة عنه : أكره أن يقول : إيماني كإيمان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ . ولكن يقول : آمنت بما آمن به جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ . انتهى . و ذلك أنّ الأوّل يوهم أنّ إيمانه كإيمان جبريل من جميع الوجوه . و ليس الأمر كذلك . لما هو الفرق البيّن بينهما هنالك . انتهى . هذا . والله أعلم بالحقائق و علمه أتمّ .

الباب التاسع والثمانون
في الجواب الخامس ومائة

قال المفتي سعد الله رحمه الله تعالى في رسالته الفارسية ، ما تعريبه : أنّ المقصود تشبيه المجموع بالمجموع . و أفضليّة مجموع المشبّه به إنّما هي باعتبار أفضليّة آل إبراهيم الذين هم جمّ غفير من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . و أمّا نبينا نفسه صلى الله عليه وسلم فهو أفضل من إبراهيم عليه الصلاة والسلام . انتهى .

و مآله أنّ محمدًا صلى الله عليه وسلم و إن كان أفضل من إبراهيم عليه الصلاة والسلام لكن آل محمد ليسوا بأفضل من آل إبراهيم الذين هم جمّ غفير من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فحصلت أفضلية المشبّه به باعتبار جزئه على جزء المشبّه .

فالمعتبر التفاضل بالنظر إلى أحد الجزئين في كلا الطرفين . هذا . و الله أعلم بالصواب .

الباب التسعون

في الجواب السادس ومائة

إنّ الكاف في قولنا "كما صلّيت على إبراهيم" و قولنا "كما باركت" مقحمة بين الفعل و هو "صلّ" و "بارك" و مفعوله وهو "ما" مع صلتها . و الفعل متضمن لمعنى الإيتاء و الإعطاء أو الجعل أو الإنزال وما يحذو حذو ذلك . فلا يرد أن "صلّى" لا يتعدى و كذا "بارك".

و التضمين باب أوسع من معدل النهار حتى قال ابن جني كما حكاه چلپي في حاشية التلويح : لو جمعت تضمينات العرب لبلغت مجلدات . و ثبت في كثير من الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية عمل التضمين .

ثم إقحام الكاف و "مثل" و الحروف الجارّة كثير .

فمنه قوله تعالى : لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ .

و قوله تعالى : فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ . أي بما آمنتم به . صرّح به المفسرون .

و قوله تعالى : أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا . عطفًا على "الذي" في قوله : أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ . قال الأخفش : الكاف زائدة لعدم جواز دخول "إلى" على الكاف . كذا في روح المعاني ج٣ ص٢٠ .

و قوله تعالى : إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ . عند من جعل "مَثَل" بفتح الميم مع فتح الثاء بمعنى "مِثْل" بكسر فسكون . ههنا قال أبو حيان الإمام في البحر ج٢ ص٣٧٧ : و من جعل "المَثَلَ"

هنا مرادفًا " للمِثْلِ "كالشِّبْهِ و الشَّبَهِ قال : جمع بين أداتي التشبيه على طريق التاكيد للشبه و التنبيه على عظم خطره و قدره . و قال بعض هؤلاء : الكاف زائدة . و قال بعضهم : " مثل " زائدة . انتهى .

فائدة

قال الإمام ابن جني في كتابه الخصائص ج٢ ص٣١٠ عند البحث على التضمين : و وجدت في اللغة من هذا الفن شيئًا كثيرًا لا يكاد يحاط به . و لعلّه لو جمع أكثره لا جميعه لجاء كتابًا ضخمًا . و قد عرفت طريقه . فإذا مرّ بك شيء منه فتقبله و أنس به . فإنّه فصل من العربية لطيف حسن يدعو إلى الأنس بها و الفقاهة فيها . و فيه أيضًا موضع يشهد على من أنكر أن يكون في اللغة لفظان بمعنى واحد . حتى تكلف لذلك أن يوجد فرقًا بين قعد و جلس و بين ذراع و ساعد .

و قال ابن جني أيضًا : اعلم :أنّ الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر و كان أحدهما يتعدى بحرف و الآخر بآخر ، فإنّ العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيذانًا بأنّ هذا الفعل في معنى ذلك الآخر . فلذلك جيء معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه . ثم ذكر لذلك ابن جنّي أمثلة كثيرة . قال : و ذلك كقول الله عز اسمه : أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡ . و أنت لا تقول : رفثت إلى المرأة . و إنّما تقول : رفثت بها أو معها . فالرفث هنا بمعنى الإفضاء . و منه قوله تعالى : هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ . و أنت إنّما تقول : هل لك في كذا . لكنه لما كان على هذا دعاء منه ﷺ صار تقديره : أدعوك و أرشدك إلى أن تزكى . هذا . والله أعلم .

الباب الحادي والتسعون
في الجواب السابع ومائة

أجاب الشيخ أنور الكشميري رحمه الله تعالى عن هذا الإشكال في تشبيه "كما صلّيت على إبراهيم" بما حاصله : أنّ التشبيه غير مقصود في الصلاة . فلا يقتضي أفضليّة المشبّه به .

و إنّما المقصود ههنا الاقتباس من قوله تعالى : رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ . و ذكر حرف التشبيه لربط المقتبس بما اقتبس له . و الاقتباس من القرآن و السنة سائغ و جائز . وهو باب أوسع من منطقة البروج . هذا . والله أعلم بالصواب .

الباب الثاني والتسعون
في الجواب الثامن ومائة

يمكن أن يقال أخذًا من فحوى كلام البلغاء و سياق محاورات العرب العرباء و مناط عبارات الفصحاء : إنّ الكاف ليست للتشبيه حتى يرد ما يرد . بل هي لإفادة الاستمرار و الدوام .

و المعنى : صلّ يا ربّنا مستمرًّا فيما يستقبل على إبراهيم و على آل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، و أدم ما صلّيت على إبراهيم أبد الآبدين و دهر الداهرين . و " ما " مصدرية . أي أدم صلاتك على الخليل صلى الله عليه وسلم . و الكلام مشتمل على جملتين . انتهت الأولى عند قولنا : و على آل محمد . و من قولنا "كما صلّيت "كلام مستقلّ بتقدير فعل الأمر .

و هذا كقوله عليه الصلاة والسلام في واقعة نسيان غسل الجنابة "كما أنتم " ، حيث أراد صلى الله عليه وسلم استمرارهم على الهيئة الموجودة ، و هي القيام ، و بقاءهم على ذلك إلى أن يعود صلى الله عليه وسلم إليهم . روى أبو هريرة رضي الله عنه : فلمّا قام صلى الله عليه وسلم في مصلاه و انتظرنا أن يكبر ، انصرف ثم قال : كما أنتم . فذهب فاغتسل . خرّجه أبو داود في السنن ج١ ص٣١ .

و أخرج أحمد في مسنده ج٦ ص٦٣ : عن وكيع حدّثنا سفيان عن يحيي بن سعيد عن عمرة عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان الناس عمّال أنفسهم . فكانوا يروحون كهيئتهم . فقيل لهم : لو اغتسلتم . و المعنى : مستمرّين على هيئتهم في العمل . والله أعلم بالصواب .

الباب الثالث والتسعون
وهو مشتمل على جوابين

إنّ إبراهيم و آله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أهل بيت النبوّة . أوتوا بركات و كرامات لا يماثلهم فيها أهل بيت آخر . إلّا أنّ ذلك فضل جزئيّ . و لنبينا فضل كلّيّ . فإنّ مجموعة تلك الفضائل كما سنفصلها عدة قطرات بالنسبة إلى بحر آلاف فضائل نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . و الفضل الجزئيّ لاينافي أفضليّة نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على جميع الأنبياء عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

ألا ترى أنّ أفضل الأمّة بل جميع الأمم على الإطلاق أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . و قد ثبت الفضل الجزئيّ لبعض الصحابة كما ورد أنّ أبا عبيدة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أمين هذه الأمّة ، و أنّ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أشدّهم في أمر الله و يخافه الشيطان ، و أنّ عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أحياهم و أنّه ذو النورين و جامع المصحف ، و أنّ عليًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أقضاهم ، و أنّ أباذرّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أصدقهم لهجة ، و أنّ خالدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سيف الله ، و أنّ أسامة و أباه زيدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أحبّ الناس إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، و أنّ حمزة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سيّد الشهداء ، و أنّ أبيًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أقرؤهم ، و أنّ العرش اهتزّ لموت سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

ثم هنا جواب آخر يبني على تقرير آخر على طبق ما تقدّم في الباب التاسع و العاشر من كلام العلامة مؤلف كشّاف الاصطلاحات . و محصوله : أنّ نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذو فضائل لا تتناهى ، و كذا إبراهيم بعد نبينا صلى الله عليهما وسلم . فلهذه المناسبة جمع بينهما في الصلاة أداءً لحقّ فضيلته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع أداء حق فضيلة نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

و هذا التقرير لا يبني على اعتبار الفضل للمشبّه به ولو جزئيًّا . بخلاف التقرير الأوّل فإنّ فيه

اعتبار الفضل الجزئيّ للمشبّه به .

ثم إنّ تلك الفضائل التي حصلت لأهل بيت إبراهيم فصّلها ابن القيم الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جلاء الأفهام حيث قال : ولمّا كان هذا البيت المبارك المطهّر أشرف بيوت العالم على الإطلاق خصّهم الله تعالى منه بخصائص :

منها : أنّه جعل فيهم النبوّة و الكتاب . فلم يأت بعد إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نبي إلاّ من أهل بيته .

ومنها : أنّه سبحانه جعلهم أئمة يهدون بأمره إلى يوم القيامة . فكلّ من دخل الجنّة من أولياء الله بعدهم فإنّما دخل من طريقهم و بدعوتهم .

ومنها : أنّه سبحانه اتخذ منهم الخليلين : إبراهيم و محمدًا عَلَيْهِمَا ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ . قال تعالى : وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا . وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنّ الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً . و هذا من خواصّ هذا البيت .

ومنها : أنّه سبحانه جعل صاحب هذا البيت إمامًا للعالمين . كما قال تعالى : قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .

ومنها : أنّه أجرى على يديه بناء بيته الذي جعله قيامًا للناس و قبلةً لهم وحجًّا . فكان ظهور هذا البيت من أهل هذا البيت الأكرمين .

ومنها : أنّه أمر عباده بأن يصلّوا على أهل هذا البيت كما صلّى على أهل بيتهم و سلفهم . و هم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ و آله . و هذه خاصية لهم .

ومنها : أنّه أخرج منهم الأمّتين المعظّمتين اللتين لم يخرج مثلهما من أهل بيت غيرهم . و هو أمّة موسى و أمّة محمد عَلَيْهِمَا ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ .

ومنها : أنّ الله أبقى عليهم لسان صدق و ثناءً حسنًا في العالم . فلا يذكرون إلاّ بالثناء عليهم والصلاة والسلام عليهم . قال الله تعالى : وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ . سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ . كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ .

ومنها : جعل أهل هذا البيت فرقانًا بين الناس . فالسعداء أتباعهم و محبوهم و من تولاّهم .

و الأشقياء من أبغضهم و أعرض عنهم و عاداهم . فالجنة لهم و لأتباعهم و النار لأعدائهم .

ومنها : أنّه تعالى جعل ذكرهم مقرونًا بذكره فيقال : إبراهيم خليل الله و رسوله و نبيّه و محمد رسول الله و خليله و نبيّه و موسى كليم الله و رسوله و نبيّه عليهم الصلاة والسلام . قال تعالى لنبيّه : وَ رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ . قال ابن عباس رضي الله عنهما : إذا ذكرت ذكرت معي .

ومنها : أنّه سبحانه جعل خلاص خلقه من شقاء الدنيا و الآخرة على أيدي أهل هذا البيت . فلهم على الناس من النعم ما لا يمكن إحصاؤها ولا جزاؤها .

ومنها : أنّ كلّ ضرر و نفع و عمل صالح و طاعة لله تعالى حصلت في العالم فلهم من الأجر مثل أجور عامليها . فسبحان من يختص بفضله من يشاء من عباده .

ومنها : أنّه سبحانه سدّ جميع الطرق بينه و بين العالمين و أغلق دونهم الأبواب . فلم يفتح لأحد قط إلّا من طريقهم و بابهم . قال الجنيد رحمه الله تعالى : يقول الله عزّ وجلّ لرسوله : و عزّتي و جلالي لو أتوني من كلّ طريق أو استفتحوا من كلّ باب لما فتحت لهم حتى يدخلوا خلفك .

ومنها : أنّه تعالى خصّهم من العلم بما لم يخصّ به أهل بيت سواهم من العالمين . فلم يطرق العالم أهل بيت أعلم بالله و أسمائه و صفاته و أحكامه و أفعاله و ثوابه و عقابه و شرعه و مواقع رضاه و غضبه و ملائكته و مخلوقاته منهم . فسبحان من جمع لهم علم الأوّلين و الآخرين .

ومنها : أنّه تعالى خصّهم من توحيده و محبته و قربه و الاختصاص به بما لم يخصّ به أهل بيت سواهم .

ومنها : أنّه تعالى مكّن لهم في الأرض و استخلفهم فيها و أطاع لهم أهل الأرض ما لم يحصل لغيرهم .

ومنها : أنّه سبحانه أيّدهم و نصرهم و أظفرهم بأعدائهم و بأعدائه بما لم يؤيد غيرهم .

ومنها : أنّه سبحانه محا بهم من آثار أهل الضلال و الشرك و من الآثار التي يبغضها و يمقتها ما لم يمحه بسواهم .

ومنها : أنّه سبحانه غرس لهم من المحبة و الإجلال و التعظيم في قلوب العالمين ما لم يغرسه لغيرهم .

ومنها : أنّه سبحانه جعل آثارهم في الأرض سببًا لبقاء العالم و حفظه . فلا يزال العالم باقيًا ما بقيت آثارهم . فإذا ذهبت آثارهم من الأرض فذاك أوان خراب العالم . قال الله تعالى : جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ .

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسيرها : لو ترك الناس كلّهم الحجّ لوقعت السماء على الأرض . و قال : لو ترك الناس كلّهم الحجّ لما نظروا . و أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّ في آخر الزمان يرفع الله بيته من الأرض و كلامه من المصاحف و صدور الرجال . فلا يبقى له في الأرض بيت يحجّ ولا كلام يتلى . فحينئذ يقرب خراب العالم . و هذه الخصائص و أضعاف أضعافها من آثار رحمة الله تعالى و بركاته على أهل هذا البيت .

ومنها : أنّه سبحانه أظهر على أيديهم من بركات الدنيا و الآخرة ما لم يظهره على أيدي أهل بيت سواهم .

ومنها : أنّ الله أعطاهم من خصائص ما لم يعط غيرهم . فمنهم من اتخذه خليلاً ، و منهم الذبيح ، و منهم من كلّمه الله تكليمًا ، و منهم من آتاه شطر الحسن و جعله من أكرم الناس عليه ، و منهم من آتاه مُلكًا لم يؤته أحدًا غيره ، و منهم من رفعه مكانًا عليًّا .

ومنها : أنّه تعالى لما ذكر هذا البيت و ذرّيّتهم أخبر أنّ كلّهم فضّله على العالمين .

ومنها : أنّ الله رفع العذاب العامّ عن أهل الأرض بهم و ببعثتهم . و كانت عادته سبحانه في أمم الأنبياء قبلهم أنّهم إذا كذّبوا أنبياءهم و رسلهم أهلكهم بعذاب يعمّهم . كما فعل بقوم نوح و قوم هود و قوم صالح وقوم لوط عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . فلمّا أنزل الله التوراة و الإنجيل و القرآن رفع بها العذاب العامّ عن أهل الأرض و أمر بجهاد من كذّبهم و خالفهم . فكان بذلك نصرة لهم بأيديهم و شفاء لصدورهم و اتخاذ الشهداء منهم و إهلاك عدوّهم بأيديهم لتحصيل محابه تعالى على أيديهم .

و حقّ لأهل بيت هذا بعض فضائلهم و خصائصهم أن لا تزال الألسن رطبةً بالصلاة عليهم و السلام و الثناء و التعظيم ، و القلوب ممتلئةً من تعظيمهم و محبّتهم و إجلالهم ، و أن يعرف المصلّي عليهم أنّه لو أنفق أنفاسه كلّها في الصلاة عليهم ما وفى القليل من حقّهم . فجزاهم الله عن بريّته أفضل الجزاء . انتهى كلام ابن القيم بحذف شيء يسير .

الباب الرابع والتسعون
في الجواب الحادي عشر ومائة

ألهمت بين النوم و اليقظة ليلة الخميس بعد صلاة العشاء و التراويح ثامن شهر رمضان سنة تسعين و ثلاثمائة بعد الألف ١٣٩٠هـ : أنّ مجموع المشبّه أي مع اعتبار كلّ جزء له ليس بأفضل من مجموع إبراهيم و آله أي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . نعم ، محمد وحده ﷺ أفضل من إبراهيم عليه الصلاة والسلام و آله .

إيضاح المرام : أنّه إذا فضل مجموع على مجموع كما فيما نحن فيه فلذلك ثلاث طرق . و هذا التقسيم إلى هذه الطرق الثلاث بهذا المنهج قد اخترعته . ولم أر من فصّل هذا التفصيل . ولله الحمد و المنّة .

الطريقة الأولى : أن يراد المجموع من حيث أنّه مجموع مع قطع النظر عن نسبة أجزاء هذا المجموع إلى ذلك المجموع أو أجزائه . و هذا معنى الكلّ المجموعيّ نحو : كلّ الناس لا تسعهم هذه الدار . أي المجموع من حيث المجموع . و إلاّ فالدار تسع كلّ واحد واحد على الانفراد . و معنى العدد المجموعيّ نحو : سبعون رجلاً حاملون لهذه الأحجار السبعة . حيث لا يقدر كلّ واحد منهم منفردًا أن يحمل هذه الأحجار كلّها أو حجرًا منها .

و هذا النوع من التفضيل هو المراد في قولهم : العرب أحبّ الناس إلى الله و أفضلهم عنده . روى أنس رضي الله عنه مرفوعًا : حبّ العرب إيمان و بغض العرب كفر . فمن أحبّ العرب فقد أحبّني و من أبغض العرب فقد أبغضني . رواه أبو نعيم في الحلية ج١ ص٣٣٣ .

و قولهم : بنو هاشم أفضل من قريش . كما ورد في الحديث : إنّ الله اصطفى بني هاشم من قريش .

حيث قصد فضل مجموع هذا على مجموع ذاك . و هذا صحيح بلا ريب . ولا يجوز أن يراد ههنا النسبة بين الأفراد ، و إلّا لما صحّ هذا الحكم . إذ في العرب من هو كافر و أبغض الناس إلى الله كأبي جهل فرعون هذه الأمّة ، و في العجم أولياء و أتقياء . فكيف يفضّل كلّ فرد من العرب كلّ فرد من العجم . و كذا في بني هاشم مثل أبي لهب تبت يداه ، وفي قريش أمثال أبي بكر الصديق وعمر الفاروق وعثمان ذي النورين رضي الله عنهم . فأنّى لكلّ فرد بني هاشم أن يفوق كلّ فرد قريش . و من هذا القبيل خيريّة هذه الأمّة من الأمم الخالية : خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ . الآية .

فائدة عظيمة

ذكر الإمام الهمام ابن تيمية رحمه الله في منهاج السنّة ج٤ ص٦٥ : فائدة نذكرها ههنا لأنّها تناسب المقام شرحًا و بسطًا و تأييدًا . اعلم : أنّ بعض الروافض استدلّ على أنّ عليًّا رضي الله عنه أفضل الناس و أولى بالإمامة بحديث مرفوع . و فيه : قولوا : اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم . حيث قال : ولا شك أنّ عليًّا رضي الله عنه أفضل آل محمد . فيكون أولى بالإمامة .

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله : و الجواب أنّه لا ريب أنّ هذا الحديث صحيح متفق عليه ، و أنّ عليًّا رضي الله عنه من آل محمد الداخلين في قوله : اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد . ولكن ليس هذا من خصائصه . فإنّ جميع بني هاشم داخلون في هذا ، كالعباس و ولده و الحارث بن عبدالمطلب ، و كبنات النبي صلى الله عليه وسلم زوجتي عثمان رضي الله عنه رقيّة و أمّ كلثوم و بنته فاطمة رضي الله عنهن . و كذلك أزواجه رضي الله عنهن كما في الصحيحين عنه : قولوا : اللّهم صلّ على محمد و على أزواجه و ذريته .

بل يدخل فيه سائر أهل بيته إلى يوم القيامة . و يدخل فيه إخوة علي كجعفر و عقيل رضي الله عنهم . و معلوم أنّ دخول كلّ هؤلاء في الصلاة و التسليم لا يدلّ على أنّه أفضل من كلّ من لم يدخل في ذلك ، ولا أنّه يصلح بذلك للإمامة فضلاً عن أن يكون مختصًّا بها .

ألا ترى أنّ عمّارًا و المقداد و أباذرّ رضي الله عنهم و غيرهم ممن اتفق أهل السنّة و الشيعة على فضلهم لا يدخلون في الصلاة على الآل . و يدخل فيه عقيل و العباس و بنوه رضي الله عنهم . و أولئك أفضل من هؤلاء باتفاق أهل السنّة و الشيعة . و كذلك تدخل فيها عائشة و غيرها من أزواجه رضي الله عنهن . ولا تصلح

امرأة للإمامة و ليست أفضل الناس باتفاق أهل السنّة و الشيعة .

فهذه فضيلة مشتركة بينه و بين غيره . و ليس كلّ من اتصف بها أفضل ممن لم يتصف بها . و في الصحيحين عن النبي ﷺ أنّه قال : خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم . فالتابعون أفضل من القرن الثالث . و تفضيل الجملة على الجملة لا يستلزم تفضيل الأفراد على كلّ فرد . فإنّ القرن الثالث و الرابع فيهم من هو أفضل من كثير ممن أدرك الصحابة كالأشتر النخعي و أمثاله من رجال الفتن ، و كالمختار بن عبيد و أمثاله من الكذّابين و المفترين ، و الحجاج بن يوسف و أمثاله من أهل الظلم و الشرّ . و ليس علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أفضل أهل البيت ، بل أفضل أهل البيت رسولُ الله ﷺ فإنّه داخل في أهل البيت .

كما قال للحسن : أما علمت أنّا أهل بيت لا نأكل الصدقة . و هذا الكلام يتناول المتكلم و من معه .

و كما قالت الملائكة : رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ . و إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيهم .

و كما قال : اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم . و إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ داخل فيهم .

و كما في قوله تعالى : إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَـٰهُم . فإنّ لوطًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ داخل فيهم . و كذلك قوله : إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَ نُوحًا وَ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَ ءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ . فقد دخل إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الاصطفائية .

و كذلك قوله : سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ . فقد دخل ياسين عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في السلام . و كذلك قول النبي ﷺ : اللّهم صلّ على آل أبي أوفى . دخل في ذلك أبو أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . و كذلك قوله : لقد أوتي هذا مزمارًا من مزامير آل داود (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) .

و ليس إذا كان علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أفضل أهل البيت بعد رسول الله ﷺ يجب أن يكون أفضل الناس بعده ، لأنّ بني هاشم أفضل من غيرهم . فإنّ رسول الله ﷺ منهم . و أمّا إذا أخرج منهم فلا يجب أن يكون أفضلهم بعده أفضل ممن سواهم . كما أنّ التابعين إذا كانوا أفضل من تابعي التابعين و كان فيهم واحد أفضل لم يجب أن يكون الثاني أفضل من أفضل تابعي التابعين .

بل الجملة إذا فضلت على الجملة فكان أفضلها أفضل من الجملة الأخرى ، حصل مقصود

التفضيل . و أمّا بعد ذلك فموقوف على الدليل .

بل قد يقال : لا يلزم أن يكون أفضلها أفضل من فاضل الأخرى إلّا بدليل . و في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنّه قال : إنّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل و اصطفى قريشًا من كنانة ، و اصطفى من قريش بني هاشم ، و اصطفاني من بني هاشم . فإذا كان جملة قريش أفضل من غيرها لم يلزم أن يكون كلّ منهم أفضل من غيرهم . بل في سائر العرب وغيرهم من المؤمنين من هو أفضل من أكثر قريش .

و السابقون الأوّلون من قريش معدودون . و غالبهم إنّما أسلموا عام الفتح و هم الطلقاء . و ليس كلّ المهاجرين من قريش ، بل المهاجرون من قريش و غيرهم كأبي مسعود الهذلي و عمران بن حصين الخزاعي و المقداد بن الأسود الكندي رضي الله عنهم ، و هؤلاء و غيرهم من البدريّين أفضل من أكثر بني هاشم . فالسابقون من بني هاشم حمزة و علي و جعفر و عبيدة بن الحارث رضي الله عنهم أربعة أنفس . و أهل بدر ثلاثمائة و ثلاثة عشر . فمنهم من بني هاشم ثلاثة . و سائرهم أفضل من سائر بني هاشم .

و هذا كله بناء على أنّ الصلاة والسلام على آل محمد و أهل بيته تقتضي أن يكونوا أفضل من سائر أهل البيوت . و هذا مذهب أهل السنّة و الجماعة الذين يقولون : بنو هاشم أفضل قريش ، و قريش أفضل العرب ، و العرب أفضل بني آدم . و هذا هو المنقول عن أئمة السنّة كما ذكره حرب الكرماني عمن لقيهم مثل أحمد و إسحق و سعيد بن منصور و عبد الله بن الزبير الحميدي وغيرهم .

و ذهبت طائفة إلى منع التفضيل بذلك ، كما ذكره القاضي أبو بكر و القاضي أبو يعلى في المعتمد وغيرهما . و الأوّل أصحّ . فإنّه قد ثبت عن النبي ﷺ أنّه قال : إنّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، و اصطفى هاشمًا من بني كنانة ، و اصطفاني من بني هاشم . و روي : أنّ الله اصطفى بني إسماعيل . و هذا مبسوط في غير هذا الموضع . انتهى كلام الشيخ ابن تيمية رحمه الله .

أقول : من باب هذه الطريقة رويت أحاديث كثيرة :

فمنه ما أخرجه ابن سعد في الطبقات ج١ ص٢٠ قال : أخبرنا محمد بن مصعب أخبرنا الأوزاعي عن شداد أبي عمار عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إنّ الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، و اصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة ، و اصطفى من بني كنانة قريشًا ، و اصطفى من

قريش بني هاشم ، و اصطفاني من بني هاشم .

فالمقصود اصطفاء مجموع بني كنانة من سائر ولد إسماعيل ، و مجموع قريش ممن سواهم من بني كنانة ، و مجموع بني هاشم من بين قريش على ما هو معنى الكلّ المجموعيّ . فلا يلزم فضل كلّ فرد من هذه الطائفة على كلّ فرد من الطائفة الثانية .

و منه ما أخرجه ابن سعد في الطبقات بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : قسم الله الأرض نصفين فجعلني في خيرهما . ثم قسم النصف على ثلاثة فكنت في خير ثلث منها . ثم اختار العرب من الناس . ثم اختار قريشًا من العرب . ثم اختار بني هاشم من قريش . ثم اختار بني عبدالمطلب من بني هاشم . ثم اختارني من بني عبد المطلب .

فقوله " ثم اختارني " مستثنى . إذ ليس مما نحن بصدد تفصيله . و هو أن تتحقق في الجانبين طائفتان ، و توخى فضل إحداهما على الأخرى . و في قوله عليه الصلاة والسلام " ثم اختارني " و كذا في قوله " و اصطفاني " في الحديث المتقدّم قصد إظهار فضل فرد واحد من بين أفراد طائفة ، و الباقي من باب فضل المجموع على المجموع .

و منه ما أخرجه أيضًا ابن سعد بسنده عن عبد الله بن عبيد الله بن عمير رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ الله اختار العرب ، فاختار كنانة من العرب ، و اختار قريشًا من كنانة ، و اختار بني هاشم من قريش ، و اختارني من بني هاشم .

الطريقة الثانية : أن يكون المراد المجموع و الأفراد كليهما على ما هو معنى الكلّ الإفراديّ نحو : كلّ إنسان ناطق . و معنى العدد الإفراديّ نحو : سبعون رجلاً جاءوني . أي كلّ واحد جاءني . كقولك : الخلفاء الراشدون أفضل الناس عند الله . و قولك : الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أفضل عند الله من غيرهم . أي كلّ واحد من هذا المجموع أفضل من كلّ واحد من ذلك المجموع .

أخرج ابن جرير في كتاب السنّة عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ الله اختار أصحابي على جميع العالمين سوى النبيين و المرسلين . و اختار من أصحابي أربعة : أبابكر و عمر و عثمان و عليًّا (رضي الله عنهم) فجعلهم خير أصحابي . و في أصحابي كلهم خير . و اختار أمتي على سائر الأمم . و اختار

من أمّتي أربعة قرون : القرن الأوّل و الثاني و الثالث تترى ، و القرن الرابع فردًا . قال الجمهور : كلّ من الصحابة أفضل من كلّ من بعده و إن رقى في العلم و العمل . خصائص للسيوطي ج٣ ص١٧٩ .

قلت : فيه عبد الله كاتب الليث متكلم فيه كما قاله ابن طاهر في التذكرة .

فائدة شريفة

اعلم : أنّ مذهب جمهور العلماء و هو الذي أعتقده أنا أنّ فضل الصحابة على غيرهم من باب الطريقة الثانية . وهو أنّ كلّ فرد منهم يفضل غير الصحابة كما بيّنا . و ههنا قول آخر شاذّ . وهو أنّ فضلهم من قبيل الطريقة الأولى . و قال أصحاب هذا القول : إنّه جاز أن يفضل غير الصحابي صحابيًّا .

قال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في المنهاج ج٣ ص١٨٣ : و قد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنّه قال : لا تسبّوا أصحابي . فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه . قال أبوبكر بن عياش رَحِمَهُ اللَّهُ : ما سبقهم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشيء وقر في قلبه . و هكذا سائر الصحابة . حصل لهم بصحبتهم للرسول مؤمنين به مجاهدين معه إيمان و يقين لم يشركهم فيه من بعدهم .

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ : أنّه رفع رأسه إلى السماء و كان كثيرًا ما يرفع رأسه إلى السماء . فقال : النجوم أمنة للسماء . فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد . و أنا أمنة لأصحابي . فإذا ذهب أتى أصحابي ما يوعدون . و أصحابي أمنة لأمّتي . فإذا ذهبت أصحابي أتى أمتي ما يوعدون .

و في الصحيح عنه ﷺ أنّه قال : ليأتينّ على الناس زمان يغزو فيه فئام من الناس فيقال : هل فيكم مَن صحب رسول الله ﷺ . فيقال : نعم . فيفتح لهم . و في لفظ : هل فيكم من رأى رسول الله ﷺ . فيقولون : نعم . فيفتح لهم . ثم يأتي على الناس زمان يغزو فيه فئام من الناس . فيقال : هل فيكم من رأى من رأى أصحاب رسول الله ﷺ . فيقولون : نعم . فيفتح لهم . هذا لفظ بعض الطرق . هذا ملخص ما في المنهاج .

قلت : الحديث الأخير لفظ في صحيح مسلم هكذا : يأتي على الناس زمان يبعث منهم البعث فيقولون : انظروا هل تجدون أحدًا من أصحاب النبي ﷺ . فيوجد الرجل . فيفتح لهم به . ثم يبعث البعث الثاني . إلى أن قال : ثم يبعث البعث الثالث فيقال : انظروا هل ترون فيهم من رأى من رأى أصحاب النبي ﷺ . إلى أن قال : ثم يبعث البعث الرابع فيقال إلخ . ففيه ذكر الطبقة الرابعة أيضًا .

ثم قال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في المنهاج : و الثلاث الطبقات متّفق عليها في جميع الطرق . و أمّا الطبقة الرابعة فهي مذكورة في بعضها . و قد ثبت ثناء النبي ﷺ على القرون الثلاثة فى عدة أحاديث صحيحة من حديث ابن مسعود و عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا . يقول فيها : خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم . و يشكّ بعض الرُواة هل ذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة . و المقصود أنّ فضل الأعمال و ثوابها ليس لمجرد صورها الظاهرة بل لحقائقها التي في القلوب . و الناس يتفاضلون في ذلك تفاضلًا عظيما .

و هذا ما يحتجّ به من رجح كلّ واحد من الصحابة على كلّ واحد ممن بعدهم . فإنّ العلماء متفقون على أنّ جملة الصحابة أفضل من جملة التابعين . لكن هل يفضل كلّ واحد من الصحابة على كلّ واحد ممن بعدهم ، و يفضل معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ على عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ ، ذكر القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وغيره في ذلك قولين . و إنّ الأكثرين يفضّلون كلّ واحد من الصحابة . و هذا مأثور عن ابن المبارك و أحمد بن حنبل رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وغيرهما .

و من حجّة هؤلاء أنّ أعمال التابعين و إن كانت أكثر ، و عدل عمر بن عبد العزيز أظهر من عدل معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، وهو أزهد من معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لكن الفضائل عند الله بحقائق الإيمان الذي في القلوب . و قد قال النبي ﷺ : لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهبًا ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه .

قالوا : فنحن قد نعلم أنّ أعمال بعض من بعدهم أكثر من أعمال بعضهم لكن من أين نعلم أنّ ما في قلبه من الإيمان أعظم مما في قلب ذلك . و النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يخبر أنّ جبل ذهب من التابعين و الذين أسلموا بعد الحديبية لا يساوي نصف مدّ من السابقين .

و معلوم فضل النفع المتعدي بعمر بن عبد العزيز أعطى النّاس حقوقهم و عدل فيهم . فلو قدر

أنّ الذي أعطاهم ملكه وقد تصدّق به عليهم لم يعدل ذلك مما أنفقه السابقون إلّا شيئًا يسيرًا . و أين مثل جبل أحد ذهبًا حتى ينفقه الإنسان ، وهو لا يصير مثل نصف مدّ . و لهذا يقول من يقول من السلف : غبار دخل في أنف معاوية رضي الله عنه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من عمل عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى . و هذه المسألة تحتاج إلى بسط و تحقيق . انتهى ما في المنهاج بحروفه .

الطريقة الثالثة : أن يكون المقصود أنّ هذا المجموع باعتبار بعض الأفراد أفضل من ذلك المجموع . كما تقول : قبيلة زيد وزير السلطان أفضل من قبيلة عمرو . إذا كانت قبيلة عمرو مشتملة على عقلاء و فضلاء و بلغاء و فصحاء ، و كانت قبيلة زيد الوزير محتوية غالبًا على العوام و الجهلاء .

ففضل قبيلة الوزير باعتبار فرد واحد ليس إلّا . ولو لا الوزير لكانت قبيلة عمرو أفضل مقامًا و أعلى كعبًا من قبيلة زيد الوزير مطلقًا . أي باعتبار مجموع الأفراد و جميعها .

فهذه طرق ثلاث . و الطريق الثاني أكثر استعمالاً من الأوّل . و الطريق الثالث نادر .

ولا يخفى أنّ الفضل الحاصل من تشبيه الصلاة من قبيل الطريق الثاني . لأنّ الصلاة بمعنى التبجيل و الرحمة أو مآلها ذلك . فالمقصود من الصلاة على آله أن يكرم الله كلّ واحد من صالحي أمّته بالمقامات الرفيعة و المنازل المنيفة البديعة .

فما منّا صالح إلّا وله مقام معلوم و منزل فى الجنّة مكتوم . لا دخل لأحد في منزلة الآخر . لكلّ حور مقصورات في الخيام . قاصرات الطرف لم يطمثهن أنس قبله ولا جانّ من الأنام . لكلّ وجهة هو مولّيها . و كلّ يعمل على شاكلته . و هو مسوّيها . لا يغني أحدًا يوم القيامة تعظيم غيره . ولا يفيد رجلاً ما أعطي رجل آخر من الرحمة السنيّة والنعمة البهيّة .

فالمطلوب في قولنا " اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت إلخ " الدعاء بأن يخصص الله سبحانه كلّ فرد من أفراد المشبّه يوم القيامة بمقام رفيع و منزل في الجنة بديع كما خصص كلّ فرد من أفراد المشبّه به أي إبراهيم و آله الذين هم أنبياء عليهم الصلاة والسلام بذلك .

و معلوم أنّ مقامات أفراد مجموع المشبّه به لكونهم أنبياء أجلّ و أعلى و أرفع و أسنى من مقامات فرد فرد من مجموع المشبّه ما عدا النبي صلى الله عليه وسلم لكونهم غير أنبياء . نعم ، مقام نبينا صلى الله عليه وسلم أجلّ من

أن يحيط به إنسان ، لكنه فرد واحد .

و التشبيه في الصلاة من قبيل النوع الثاني الملحوظ فيه الأفراد كلّها أو أكثرها . إذ للأكثر حكم الكل ، لا النوع الثالث الملحوظ فيه بعض الأفراد ولو كان فردًا واحدًا . هذا . ولله الحمد والمنّة . والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب .

الباب الخامس والتسعون
في الجواب الثاني عشر ومائة

هذا من قبيل "كن كما أنت " أي الذي فيه تشبيه الشيء بنفسه باعتبار الزمانين : الماضي و المستقبل ، أو الماضي و الحال .

و الكلام يحتوي على جملتين . الجملة الأولى انتهت بقوله " على آل محمد " . و قولنا "كما صلّيت على إبراهيم " جملة على حدة . و تقدير الكلام : صلّ على إبراهيم كما صلّيت على إبراهيم إلخ . أي صلّ عليه في الحال و المستقبل كما صلّيت عليه في الماضي .

قال العلامة خالد الأزهري في شرح التوضيح في معنى "كن كما أنت " : إنّ "ما " زائدة ، و الكاف جارة ، و " أنت " ضمير مرفوع أنيب عن المجرور . و المعنى : كن فيما يستقبل مماثلاً لنفسك فيما مضى . انتهى . تصريح ج٢ ص١٦ .

و تشبيه الشيء بنفسه كما قال الشاعر :

أَقَامَ يُعْمِلُ أيّامًا رَوِيَّتَهُ   وَ شَبَّهَ الماءَ بَعْدَ الجَهْدِ بِالماءِ

و حمل عليه الزمخشري قوله تعالى كما صرح به أبوحيان " وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۢ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَ وَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ " .

قال أبوحيان : و أمّا قول الزمخشري فإنّه وإن جعل الضمائر للظمآن لكنه جعل الظمآن هو الكافر و هو تشبيه الشيء بنفسه كما قال :

ع　　　　و شبه الماء بعد الجهد بالماء

(البحر المحيط ج٦ ص٤٦١)

و منه قوله عليه الصلاة والسلام : إنّ مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس . ولا يحلّ لامرء يؤمن بالله و اليوم الآخر أن يسفك بها دمًا أو يعضد بها شجرة . فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له : إنّ الله أذن لرسوله ﷺ ولم يأذن لك . و إنّما أذن لي فيها ساعة من نهار . وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس . أخرجه الترمذي . فقوله " كحرمتها بالأمس " من باب تشبيه الشيء بنفسه باعتبار الزمانين . هذا . والله أعلم .

الباب السادس والتسعون
مشتمل على جوابين

رأيت في بعض الكتب أنّ الكاف قد تجرد عن معنى التشبيه عند اتصالها بكلمة "ما". فكما أنّ كلمة "ما" كفتها عن العمل كذلك نزعت عنها بعض مفادها و معناها وهو التشبيه.

و حينئذ تفيد تخصيص الفعل المطلوب بالمنسوب إليه الفاعل أو المفعول أو استحقاق المنسوب إليه له مثل إفادة اللام للاختصاص نحو: السرج للدابة. أو الاستحقاق نحو: العمارة للدار.

و عبر ابن هشام عن هذين المعنيين بشبه الملك. لأنّ الدابة و الدار لا يتصور منهما الملك الحقيقي. و الفرق بين الاختصاص و الاستحقاق على ما في التصريح للأزهري أنّ التي للاستحقاق هي الواقعة بين معنى و ذات. و المراد من المعنى الوصف. و التي للاختصاص بخلاف ذلك. ولا يرد عليه نحو " النار للكافرين " مع كونها للاستحقاق لا الاختصاص لأنّ النار لا تختص بالكفّار لدخول العُصاة فيها. و ذلك لأنّ الأصل عذاب النار. و العذاب معنى. انتهى. تصريح شرح توضيح لابن هشام النحوي ج٢ ص١٠.

فالمعنى: اللّٰهم خصّ محمدًا وآله و إبراهيم و آله بالصلاة القائمة و البركات الدائمة، أو خصّ محمدًا وآله بذلك و قد خصصت إبراهيم وآله بذلك في الماضي.

و يمكن أن يكون في عبارة ابن هشام الآتية إشارة إلى هذا المعنى، حيث قال في المغني في معاني الكاف: الثاني التعليل. أثبت ذلك قوم و نفاه الأكثرون. و قيّد بعضهم جوازه بأن تكون مكفوفة "بما" كحكاية سيبويه: كما أنّه لا يعلم فتجاوز الله عنه. و الحق جوازه في المجردة و في المقرونة "بما" الزائدة و "بما"

المصدرية نحو " كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ " الآية . قال الأخفش : أي لأجل إرسالي فيكم رسولاً منكم فاذكروني . و هو ظاهر في قوله تعالى " وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ " .

ثم قال ابن هشام نقلاً عن البعض : و أجاب بعضهم بأنّه من وضع الخاص موضع العام . إذ الذكر و الهداية يشتركان في أمر واحد و هو الإحسان . فهذا في الأصل : و أحسن كما أحسن الله إليك . و الكاف للتشبيه . ثم عدل عن ذلك للإعلام بخصوصية المطلوب . انتهى كلام ابن هشام رحمه الله سبحانه .

فتفكّر في قوله " و الكاف للتشبيه ثم عدل إلخ " . فله تقريران . أحدهما يوافق ما نحن بصدده . هذا . والله أعلم وعلمه أتمّ .

الباب السابع والتسعون
في الجواب الخامس عشر ومائة

لا يبعد أن يقال : إنّ هذا من باب التشبيه المقلوب . و أصل الصلاة هكذا : اللّهم صلّ على إبراهيم و على آل إبراهيم كما صلّيت على محمد و على آل محمد إلخ .

و اختير القلب في التشبيه ليكون أقرب إلى الأدب و التواضع بجعل إبراهيم و صلاته مشبّهًا به ظاهرًا وإن كان في الحقيقة مشبّهًا ، فإنّ إبراهيم أب لنبينا صلى الله عليهما وسلم .

و ليكون أبعث للمصلّي و أندب للقاري على تكثير الصلاة ، حيث يرى أنّ نبيه محمدًا ﷺ هو الأصل في الصلاة المقدّم في الدعاء .

و ليكون إشارة إلى أنّ الصلاة على إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إنّما يعود نفعها على محمد ﷺ ، لكونه ابنه و من آله و نسله . لاسيما صلاة هذه الأمّة التي فيها كلامنا . حيث يصلّون على إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من حيث أنّه جد نبيهم . فقدم اسم نبينا لتحصيل هذه الإشارة .

و التشبيه المقلوب كثير في كلام الأدباء و محاورات العرب العرباء و أشعار الشعراء . ما أذعن له البلغاء و الفصحاء . ففي مقامات الحريري رَحِمَهُ ٱللَّهُ : لها نحافة الصب و صقالة العضب و آلة الحرب و لدونة الغصن الرطب . مقامة ٧ .

قال أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشي المتوفّى ٦٢٠ﻫ في شرحه ج١ ص١٤٦ : لو شبّه الخلالة في الرّقة بالعاشق و نحوله لكان جائزًا . وكان من التشبيه المقلوب . وكلاهما بديع في بابه . ثم

قال بعد كلام : و التشبيه المقلوب عندهم شيء مستظرف و مذهب مستحسن . كما قال ذو الرمة :

وَ رَمْلٍ كأَوْرَاكِ العَذَارىٰ قَطَعْتُهُ و قَدْ جَلَّلَتْهُ المُظْلِمَاتُ الحَنَادِسُ

فقلب التشبيه ، لأنّ العادة أنّ تشبه الأعجاز بكثبان الرمل . كما قال الآخر :

ع مثل قضيبٍ تحته كثيبُ

و كما قال الآخر :

و بيضٍ نضيراتِ الوجوه كأنّما تأزَّرْنَ دُوْنَ الأُزْرِ رَمْلَاتِ عالجِ

فهذا الذي جرت به العادة في التشبيه . فقلب ذوالرمة العرف و العادة . فشبّه كثبان النقا بأكفال النساء . و تبعه خالد الكاتب وغيره . حدث جحظة قال : حدثني خالد الكاتب قال : جاءني يومًا رسول إبراهيم بن المهدي فسرت إليه فرأيت رجلًا أسود على فرش قد غاص فيها . فاستجلسني و قال : أنشدني من شعرك . فأنشدته :

رأت منه عيني منظرين كما رأت من الشمس و البدر المنير على الأرض
عشية حيّاني بوردٍ كأنّه خدودٌ أضيفت بعضُهن إلى بعض
و نازعَني كأسًا كأنّ حُبابها دموعي لمّا صدَّعن مقلتي غمضي
و راح و فعلُ الراح في حركاته كفعل نسيم الريح في الغصن الغضّ

فزحف حتى صار في ثلثي الفراش . و قال : يا فتى ! شبهوا الخدود بالورد ، وأنت شبّهت الورد بالخدود .

ثم قال : و قد ترجم ابن جني في خصائصه ترجمة فقال : هذا باب من غلبة الأصول الفروع . ثم أنشد بعض ما أنشدنا و قرنها بمسائل من العربية تشبه الباب . انتهى .

و من التشبيه المقلوب قوله تعالى حكاية عن الكفار " إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ " كما صرح به العلامة الآلوسي رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره ج٣ ص٥٠ حيث قال ، ما حاصله : أنّهم أرادوا أنّ الربا مثل البيع .

فحيث حل بيع ما قيمته درهم بدرهمين حل بيع درهم بدرهمين . إلاّ أنّهم جعلوا الربا أصلاً في الحل و شبّهوا البيع به رومًا للمبالغة ، كما في قوله :

وَ مَهْمَهٍ مُغْبَرَّةٍ أَرْجَاؤُهُ   كَأَنَّ لَوْنَ أَرْضِهِ سَماؤُهُ

قال الحافظ السيوطي رَحِمَهُ اللهُ في الأشباه و النظائر النحوية ج١ ص٧١ في بحث القلب ، ما حاصل كلامه : أنّ القلب أنواع . منها القلب في التشبيه . قال : قال ابن هشام في المغني : القاعدة العاشرة من فنون كلامهم القلب . و أكثر وقوعه في الشعر كقول :

كَأَنَّ سَبِيْئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ   يَكُوْنُ مِزَاجُهَا عَسَلٌ وَ مَاءُ

نصب المزاج فجعل المعرفة الخبر ، و الأصل رفعه . و نصب العسل على أنّ المعرفة الاسم ، و النكرة الخبر .

و قول رؤبة :

وَ مَهْمَهٍ مُغْبَرَّةٍ أَرْجَاؤُهُ   كَأَنَّ لَوْنَ أَرْضِهِ سَماؤُهُ

أي كأنّ لون سمائه لغبرته لون أرضه . فعكس التشبيه مبالغةً و حذف المضاف .

و قول عروة بن الورد :

ع   فَدَيْتُ بِنَفْسِهِ نَفْسِي وَ مَالِي

و قول القطامي :

ع   كما طَيَّنْتَ بِالْفَدَنِ السِّيَاعَا

"الفدن" القصر ، و "السياع" الطين . و منه في الكلام : أدخلت القلنسوة في رأسي . و عرضت الناقة على الحوض و على الماء . قاله الجوهري و جماعة ، منهم الكسائي و الزمخشري . و جعل منه قوله تعالى : وَ يَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِيْنَ كَفَرُوْا عَلَى ٱلنَّارِ .

و في كتاب التوسعة لابن السكيت : أنّ " عرضت الحوض على الناقة " مقلوب . و يقال : إذا طلعت الجوزاء انتصب العود في الحرباء . أي انتصب الحرباء في العود .

و قال ثعلب في قوله تعالى " ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ " : إنّ المعنى : اسلكوا فيه سلسلة . و قيل : إنّ منه " وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا " ، " ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى " ، " اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ " .

وقال الجوهري في قوله تعالى " فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ " : إنّ أصله قابي قوس . فقلّب التثنية و الإفراد . و هو حسن ، لأنّ القاب ما بين مقبض القوس و سيته . أي طرفه . وله طرفان ، فله قابان . و نظيره قوله :

إذا أحسن ابن العمّ بعد إساءة　　فلست لشرّي فعله بحمول

أي لشرّ فعله . و قيل في " فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ " : إنّ المعنى : فعميتم عنها . و في قوله " حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ " : إنّ المعنى : حقيق عليّ ، بياء المتكلم كما قرأ نافع . و في قوله " لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ " : إنّ المعنى : لتنوء العصبة بها . انتهى بعبارته كلام السيوطي .

و قال أيضًا السيوطي رحمه الله في الأشباه ج١ ص٢٦٥ : الفروع قد تكثر و تطرد حتى تصير كالأصول و تشبه الأصول بها . ذكر ذلك ابن جني في الخصائص وقال : من ذلك قول ذي الرمة :

ع　　و رمل كأوراك العذارى قطعته

و العادة أن تشبه أعجاز النساء بكثبان الأنقاء . فلما كثر ذلك و اطرد عكس الشاعر التشبيه . فجعل أوراك العذارى أصلاً و شبه به الرمل . انتهى .

و من هذا الوادي قوله تعالى : أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ . و هو من التراكيب المعضلة كما قال الطيبي : إنّه من التشبيه المقلوب . و الأصل : اتخذ هواه إلهه . قال ابن المنير في تقديم المفعول الثاني : هنا نكتة حسنة . و هي إفادة الحصر . فإنّ الكلام قبل دخول " أرأيت " و " اتخذ " الأصل فيه هواه إلهه . فإذا قيل " إلهه هواه "كان من تقديم الخبر على المبتدإ ، و هو يفيد الحصر . و ذلك أبلغ في ذمّه و توبيخه .

و قال صاحب الفرائد : تقديم المفعول الثاني يمكن حيث يمكن تقديم الخبر على المبتدإ . و المعرفتان إذا وقعتا مبتدأً و خبرًا فالمقدّم هو المبتدأ . فمن جعل ما هنا نظير قولك : علمت منطلقًا زيدًا .

فقد غفل عن هذا . و يمكن أن يقال : المتقدم هنا يشعر بالثبات ، بخلاف المتأخر . فتقدّم "إلٰهه" يشعر بأنّه لابدّ من إله . فهو كقولك : اتخذ ابنه غلامه . فإنّه يشعر بأنّ له ابنًا . و لا يشعر بأنّ له غلامًا . فهذا فائدة تقديم " إلٰهه " على هواه .

و تعقب ذلك الطيبي فقال : لا يشكّ في أنّ مرتبة المبتدإ التقديم و أنّ المعرفتين أيّهما قدم كان المبتدأ ، لكن صاحب المعاني لا يقطع نظره عن أصل المعنى . فإذا قيل : زيد الأسد . " فالأسد " هو المشبّه به إصالةً ، و مرتبته التأخير عن المشبّه بلا نزاع . فإذا جعلته مبتدأ في قولك " الأسد زيد " فقد أزلته عن مقرّه الأصليّ للمبالغة . و ما نعني بالمقدّم إلّا المزال عن مكانه لا القارّ فيه . فالمشبّه به ههنا "الإله" و المشبّه "الهوى" . لأنّهم نزلوا أهواءهم في المتابعة منزلة الإله . فقدم المشبّه به الأصليّ و أوقع مشبّهًا ليؤذن بأنّ الهوى في باب استحقاق العبادة عندهم أقوى من الإله عَزَّوَجَلَّ . كقوله تعالى : " إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْ " . و لمح صاحب المفتاح إلى هذا المعنى في كتابه . انتهى . كذا في روح المعاني ج١٩ ص٢٣ .

قال العلامة الشيخ محمد عبادة العدوي في شرح شذور الذهب لابن هشام في بيان قول الشاعر :

وَ بَلَدٍ مُغْبَرَّةٍ أَرْجَاؤُهُ   كَأَنَّ لَوْنَ أَرْضِهِ سَمَاؤُهُ

في الشطر الثاني القلب . فإنّ فيه عكس التشبيه مبالغةً في وصف لون السماء بالغبرة ، حتى صارت بحيث يشبّه به لون الأرض في ذلك ، مع أنّ الأرض أصل فيه .

و اختلف في القلب . فقبله السكّاكي مطلقًا و قال : إنّه يورث الكلام ملاحة . و ردّه غيره مطلقًا . لأنّه من عكس المطلوب و نقيض المقصود . و الحق أنّه إن تضمّن اعتبارًا لطيفًا غير الملاحة التي أورثها نفس القلب قبل ، كقوله "و بلد إلخ " . و الاعتبار اللطيف المبالغة في وصف لون السماء بالغبرة . و إن لم يتضمّن اعتبارًا لطيفًا لم يقبل ، كقول القطامي يصف ناقة بالسمن :

فَلَمّا أَنْ جَرَى سِمَنٌ عَلَيْهَا   كما طَيَّنْتَ بِالْفَدَنِ السِّيَاعَا

أي كما طينت الفدن بالسياع . أي كما طينت القصر بالطين . انتهى . شرح شذور ج٢ ص١٠٧ . هذا . والله أعلم بالحقائق و الأسرار و الدقائق .

الباب الثامن والتسعون
في الجواب السادس عشر ومائة

يفهم من كلام بعض العارفين و الأولياء الكاملين أنّ المطلوب في الصلاة المأثورة و ضم آله باسمه الشريف فيها و هي " اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم إلخ " الصلوات و البركات الخليليّة لنفسه ﷺ بواسطة آله ، بل فرد واحد كامل من آله عليه الصلاة والسلام . و هو الفرد الذي له مناسبة بالطرفين و ربط مع الحاشيتين و اتصال بالجانبين ، أي جانب الولاية الإبراهيمية و جانب الولاية المحمدية . إذ صاحب كلّ ولاية يتعسر عليه الخروج حسب مقتضى طبيعته من ولايته و مكانه الطبعي . و نبينا ﷺ مع كونه أفضل المخلوقات و مع ذلك التعسر لابدّ له من أن يفوز بالولاية الإبراهيمية ، لكونها وسيلة إلى ولاية أعلى من ولاية إبراهيمية و مقامات أسنى من مقامات خليلية . و هذا فضل جزئيّ لإبراهيم عليه الصلاة والسلام . ولا حرج فيه .

و إن شئت فقل : إنّ لكل ولاية لونًا على حدة و ذوقًا منفردًا . فطلب نبينا ﷺ الانصباغ بصبغة الولاية الإبراهيميّة ، وإن كانت هذه الولاية أصغر من ولاية محمدية و أدنى منها .

و هذا كمن كان عنده ثوب حرير و إستبرق ثم أراد اشتراء ثوب الكتان ليحصل عنده النوعان و يملك عدة أنواع الثياب . ولا يستلزم هذا كون الكتان أفضل من الحرير و الإستبرق أو مساويًا لذلك . أو كغنيّ ذي ثروة كبيرة بايع في السوق و أراد في بيع ربح دراهم معدودة قليلة ، مع أنّ هذا الدراهم المعدودة ليست بشيء في جنب ما يملكه البائع من أنواع الذهب و الفضة و الجواهر . و ليس لأحد الاعتراض عليه في هذا البيع . و هذا مما يعرفه العاقل .

إذا فهمت ذلك فقس عليه معاملة السوق الرحماني الذي يبايع فيه الأنبياء و الرسل عليهم الصلاة والسلام و الأولياء و جميع الأمّة المسلمين الراجين الأرباح في المبايعة مع الله تعالى . نعمت التجارة هذه و حسنت مطلوبًا و مقامًا . إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأنّ لهم الجنة .

فأمر نبينا صلى الله عليه وسلم أمّته بالدعاء و الصلاة عليه ، و ضمّ مع اسمه الشريف اسم آله عليه الصلاة والسلام لتعمّ الفائدة ، و يشمل الدعاء سائر الأولياء المندرجين في آله . و منهم ذلك الفرد الكامل ذو المناسبة التامة مع الجانبين .

قال العبد الضعيف الروحاني البازي : هذا ما يفهم من كلام العارف الأكبر الشيخ أحمد السرهندي المجدّد للألف الثانية قدّس سره . و ادّعى قدس سره أنّه هو ذلك الفرد الكامل . و صرّح أيضًا أنّ بسبب وجوده بعد ألف سنة استجاب الله هذا الدعاء . و إنّ هذا المقام الإبراهيميّ قد حصل لخاتم الرسل عليه و عليهم الصّلاة والسلام .

هذا ما وضحت مرامه و فصّلت كلامه . ولا أفهم كلامه أكثر و أزيد من هذا . وما لعقلي الفاتر و فهمي القاصر أن يدرك حقيقة كلام الأولياء الكاملين حقّ إدراك . و أنّى للظالع أن يدرك شأو الضليع . وأنّى للرضيع أن يصل إلى ما وصل إليه البليغ . فعليك بمطالعة كتبه و مكتوباته .

و هذه عبارته ، قال قدّس سره بعد ما ذكر أنّ مرتبة ذات الله منزهة عن التعين : و التعين الأوّل لتعيين هذه المرتبة مرتبة التعين الوجودي . و هذا التعين الأوّل ظلّ جمال الله و حسنه الذاتيين . و هذا التعين الأوّل في صورة دائرة و هي منشأ الولاية الإبراهيمية . و مركز هذه الدائرة منشأ الولاية المحمدية . و في المركز إجمال ، و في الدائرة تفصيل . و لابدّ لتكميل الولاية الخليليّة لنبيّنا صلى الله عليه وسلم من حصول كمالات الدائرة أيضًا كما حصلت له عليه الصلاة والسلام كمالات المركز .

قال العارف الأكبر الشيخ أحمد السرهندي في المكتوب الرابع و التسعين من المجلد الثالث : و حيث كان لنبينا صلى الله عليه وسلم مناسبة ذاتيّة بمركز ولاية الخلّة التي هي أقرب إلى حضرة إجمال الذات . و مناسبته بمحيط الدائرة أقلّ لكون وجهها إلى تفصيل كمالات الذات . فما لم يتحقق بكمالات محيط تلك الدائرة أيضًا لا تتم ولاية الخلّة .

و من ههنا ورد في الصلاة المأثورة "كما صلّيت على إبراهيم" ليتيسّر له كمالات الخلّة بالتمام كما كانت ميسّرة لصاحب تلك الولاية على نبينا و عليه الصّلاة والسلام . و لمّا كان المكان الطبيعيّ للولاية المحمديّة نقطة مركز دائرة الولاية الخليليّة عليهما الصّلاة والسلام والتحية و سيره ﷺ أيضًا مقصورًا على مركز تلك الدائرة تعسّر خروجه منه و دخوله في محيط الدائرة و اكتساب كمالاته بالضرورة ، لكون ذلك خلاف مقتضى طبيعته .

فاقتضى الحال أن يكون متوسط من أفراد أمّته عليه الصلاة والسلام يكون بتبعيته ﷺ في عين ذلك المركز . و تكون لهذا الفرد المتوسط مناسبة بمحيط تلك الدائرة من وجه آخر ، حتى يكتسب كمالات تلك المرتبة و يتحقق بحقيقتها . و بحكم " من سن سنّة حسنة فله أجرها و أجر من عمل بها " يتحقق نبيه المتبوع بتلك الكمالات أيضًا ، و يتمّ للنبي ﷺ مراتب الولاية الخليليّة .

و بيان سرّ هذا المعمّى على ما ظهر لهذا الفقير : أنّ نقطة مركز دائرة ولاية الخلّة التي امتازت عن سائر نقطها بالمحبّة و إن كانت بسيطة و لكن لما كانت متضمنة لاعتبار الشيئين المحبّيّة و المحبوبيّة ظهرت من تلك النقطة المركزية صورة دائرة محيطها اعتبار المحبّيّة و مركزها اعتبار المحبوبيّة . و منشأ الولاية الموسوية اعتبار المحبّيّة التي هي محيط الدائرة ، و منشأ الولاية المحمديّة اعتبار المحبوبيّة التي هي مركز الدائرة .

ينبغي أن يتصوّر حصول الولاية المحمديّة ههنا . و بعد مضيّ ألف سنة عرضت لمركز هذه الدائرة الثانية التي الحقيقة المحمديّة مربوطة بها وسعة أيضًا و ظهر فيه اعتبارات . فظهر هذا المركز في صورة دائرة مركزها المحبوبية الصرفة و محيطها المحبوبية الممتزجة بالمحبية . و منشأ الولاية الأحمديّة مركز هذه الدائرة . و أحمد اسم ثان للنبي ﷺ . وهو عليه الصلاة والسلام معروف فيما بين أهل السموات بهذا الاسم كما قالوا .

و يمكن أن تكون بشارة عيسى عليه الصلاة والسلام الذي صار من أهل السموات بقدوم النبي ﷺ باسم أحمد لذلك . و لهذا الاسم المبارك قرب كثير من الذات الأحد و أقرب إليها من ذاك الاسم الثاني يعني الاسم المبارك محمد بمرحلة واحدة كما بين . و هذا الاسم امتاز من الاسم المبارك أحد بحلقة ميم واحدة و هي مبدأ المحبّة التي صارت باعثة على الظهور و الإظهار .

و أيضًا الميم التي اندرجت في أحمد من مقطعات الحروف القرآنية المنزلة في أوائل السور و من الأسرار الغامضة . و لحرف الميم هذه خصوصية خاصّة به ﷺ . و تلك الخصوصيّة صارت باعثة على محبوبيّته ﷺ ، و جعلته فائقًا على الكلّ .

و لنرجع إلى أصل الكلام فنقول : إنّ محيط تلك الدائرة التي هي عبارة عن المحبوبّيّة الممتزجة بالمحبّيّة منشأ ولاية فرد من أفراد أمّته عليه و على آله الصلاة والسلام . كان له مناسبة بمحيط الدائرة مع حصول الولاية المحمدية و المركزية . و إنّه اكتسب كمالاته و علم أنّ هذه الدولة الثانية يعني مناسبته بمحيط الدائرة و اكتساب كمالاته حصلت له من طريق الولاية الموسويّة . و كان هو بتطفل هاتين الولايتين جامعًا لكمالات المركز و المحيط . و من المقرّر أنّ كلّ كمال حاصل للأمّة حاصل لنبي تلك الأمّة أيضًا بحكم " من سن سنة حسنة " . الحديث .

فتيسر له ﷺ بتوسط هذا الفرد كمالات محيط تلك الدائرة أيضًا . و تمّت ولاية الخلّة في حقه ﷺ . و اقترن دعاء " اللّهم صلّ على محمد كما صلّيت على إبراهيم " بعد ألف سنة بالإجابة . و كان المسؤول مستجابًا . و معاملته ﷺ بعد تمام ولاية الخلّة مع ذاك السرّ الذي أودع في المركز الذي عبر عنه بالملاحة . و أرجع ذلك الفرد من ذلك المقام إلى العالم لحراسة أمّته . و اختلى بنفسه الكريمة مع المحبوب في حجرة غيب الغيب .

هنيئًا لأرباب النعيم نعيمها و للعاشق المسكين ما يتجرع

ينبغي أن يعلم أنّ محيط المركز الثالث و إن كان يرى أصغر بالنسبة إلى محيط مركز التعين الأوّل و لكنه أجمع . فإنّ كلّ ما هو أقرب إلى حضرة الذات يكون أجمع .

ينبغي أن يعلم صغره كصغر الإنسان . فإنّه مع وجود الصغر فيه اجتمع جميع أصناف العالم . و أيضًا إنّ الشخص الذي تحقّق بكمالات هذا المحيط و خرج من إجمال المركز إلى تفصيل المحيط زال عنه عدم المناسبة بالمحيط ، و التفصيل الذي كان فيه أوّلًا ، و ذهب من تفصيل إلى تفصيل من غير تكلّف ، و تحقق بكمالات ذاك التفصيل أيضًا .

اسمع أنّه مع وجود كمال الاقتدار لما كان نظام العالم منوطًا بالحكمة لابدّ في تربية المحبوبين أيضًا من وجود الأسباب و إن لم يكن وجود السبب غير العلل و سوى نقاب القدرة . سنة الله التي قد خلت من قبل و لن تجد لسنة الله تبديلاً . انتهى كلامه بلفظه مع تعريب فارسيه ج٣ ص١٢٨ .

الباب التاسع والتسعون
في الجواب السابع عشر ومائة

ليس المراد من قولنا "كما صلّيت على إبراهيم" التشبيه . بل المراد التمثيل بحذف المضاف . و هو لفظ " مثل " بفتح الميم و الثاء . أي كمثل ما صلّيت . و حذف المضاف أمر معتاد حتى ثبت في القرآن زهاء ألف . و منه قوله تعالى " أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ " أي كمثل ذوي صيب . و المفاضلة بين المشبّه و المشبّه به إنّما تتحقّق في التشبيه دون التمثيل .

و بعبارة أخرى : أنّ الكاف قد تكون للتشبيه المحض ، و قد تكون للتمثيل بإرادة معنى المثَل بفتح الثاء .

و التمثيل و إن كان لا يخلو عن نوع تشبيه لكن فرق بينه و بين التشبيه المحض حيث يعتاد غالبًا في التشبيه المحض المفاضلة بين الطرفين .

و أمّا التمثيل أي ضرب المثل فلا يجب فيه المفاضلة ، بل كثيرًا ما يكون المشبّه به فيه أدنى . و إنّما يتوخى به إيضاح المطلب و تفصيل المقصد و بيان أحوال المشبّه و تصوير تلك الحقيقة و إبرازها في صورة المشاهد بضرب المثل تتميمًا للبيان كالصفة الموضحة .

فلضرب المثل شأن لا يخفى و نور لا يطفى . يرفع الأستار عن وجوه الحقائق ، و يميط اللثام عن محيا الدقائق ، و يبرز المتخيّل في معرض اليقين ، و يجعل الغائب كأنّه شاهد ، و ربما تكون المعاني التي يراد تفهيمها معقولة صرفة . فالوهم ينازع العقل في إدراكها حتى يحجبها عن اللحوق بما في العقل . فبضرب الأمثال تبرز في معرض المحسوس فيساعد الوهم العقل في إدراكها . و هناك تنجلي غياهب

الأوهام ، و يرتفع شغب الخصام . و تلك الأمثال نضربها للناس لعلّهم يتفكرون .

فالمقصود في هذه الصلاة ضرب المثل و بيان حال الصلاة على محمد و آله بحال صلاة الله على إبراهيم و آله عليهما الصلاة والسلام . ثم لمّا كان الله سبحانه هو المخاطب في المشبّه إذ الصلاة على النبي ﷺ إنّما تتأتّى بهذا الوجه خاطبه الطالب الداعي في المشبّه به أيضًا .

و الصحابة رضوان الله عليهم قد سألوا النبي ﷺ و قالوا : كيف نصلّي عليك ؟ فأرشدهم النبي عليه الصلاة والسلام و قال : قولوا : اللّهم صلّ على محمد و على آله . و ضرب لهم مثلًا بصلاة الله على إبراهيم وعلى آله .

إن قلت : ما الدليل على أنّ المشبّه به في المثَل بفتح الثاء لا يجب أن يكون أقوى و أعلى من المشبّه في وجه الشبه ؟

قلت : الدليل عليه من وجوه :

الأوّل : قد تقدّم أنّ المثل (بفتح الثاء) قد يكون لتوضيح المقام و تفهيم المرام . و لذا صحّ أن يكون المثل قصة مخترعة و أمرًا مفروضًا مطابقًا لنفس الأمر . ولا يتصور في الأمر المفروض أو فيما هو كالمفروض أن يكون أقوى و أعلى من الأمر المتحقق الغير المفروض .

ألا ترى إلى قوله تعالى : مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا . الآية . فإنّ المراد بيان حال المنافقين و ضرب حالهم بحال قوم فرضوا مستوقدين ، وإن كان هذا الفرض مطابقًا لنفس الأمر ، أي مما يمكن . و يفهمه السامع بسهولة و يتصوره بأدنى التفات . و بعد اللتيا و التي فرض هنا جماعة مستوقدون ، لا أنّ ههنا جماعة من المستوقدين معهودين عند المخاطب بهذا الوصف ، شبّه الله تعالى بحالهم حال المنافقين . و هذا ظاهر على المتدبر .

و قوله تعالى : أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ . الآية . و البيان البيان .

و قوله تعالى : كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ . المرام إفهام ما يحصل للمتصدق من الثواب أضعافًا إلى سبع مائة ضعف . فشبّه الله تعالى صدقته بحبّة مفروضة ذات سبع سنابل ، كلّ سنبلة ذات مائة حبة .

نعم ، هذا الفرض ليس مثل فرض المحال المستعمل في حدّ القضية الشرطية اللزومية . حيث قالوا : هي ما يحكم فيه بصدق التالي على تقدير فرض صدق المقدم . و لذا قالوا بصدق نحو قولنا : إن كان زيد حمارًا كان ناهقًا . بل هو فرض أمر ممكن يكثر وقوعه و يسهل فهمه . و يسمّى الفرض بمعنى التجويز العقليّ . و هو الذي يستعمل في حدّ الكليّ و الجزئيّ . كما يقولون : الجزئيّ ما يمنع العقل فرض صدقه على كثيرين ، و الكليّ ما لا يمنع فرض صدقه على كثيرين . فههنا فرضت حبّة من الأفراد الواقعية للحبّات أنبتت سبع سنابل ، في كلّ سنبلة مائة حبّة .

و الثاني : أنّ المثل قد يكون أمرًا محسوسًا لإيضاح المعنى المعقول . و المحسوس لا يعلو المعنى المعقول .

و الثالث : سياق التمثيل . فإنّه إنّما يساق لتفصيل المرام و إبراز الغائب في صورة الشاهد و تفهيم المعنى الدقيق و تسهيل الأمر المعضل . ولا ينظر فيه إلى فضل المشبّه به و قوّته وإن كان له فضل و قوّة في بعض المواضع .

و الرابع : أنّ من نظر في الأمثال السائرة و التمثيلات الدائرة في القرآن و الأحاديث وكلام البلغاء عرف ما ادّعينا سافر المحيا ، و استيقن استيقانًا أنّ المشبّه به في المثل (بفتح الثاء) لا يجب أن يكون أقوى و أعلى من المشبّه .

ألا ترى إلى قوله تعالى : كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ . كيف يفوه أحد بفضل الحبات الحقيرة على صدقة المؤمن و ثوابه المضاعف . أين الثرى من الثريا .

و قوله سبحانه : أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرۡعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ . المراد من " الكلمة الطيبة " شهادة أن لا إله إلّا الله . كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما . و وجه الشبه أنّها تثمر جميع الأعمال الصالحة كما أنّ الشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع . المراد التمثيل بدليل قوله : كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا . فلا وصمة في كون المشبّه به أي الشجرة أدنى شأنًا من كلمة الشهادة .

و قوله تعالى : وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ . التشبيه في الهلاك و سوء الحال . ولا يخفى أنّ المشبّه و هو المشرك أسوء حالاً من الذي خرّ من

السماء . لكن المراد ذكر المثل (بفتح الثاء) لا التشبيه المحض . فلا قدح بكون المشبّه به أدنى حالاً في وجه الشبه و هو سوء الحال .

و قوله تعالى : مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا . شبّه الله تعالى علماء اليهود الذين لم يعملوا بالتوراة و حرّفوها في قبح الحال بالحمار ، مع أنّ الحمار ليس بأقبح حالاً من هؤلاء العلماء الكافرين بالله و برسوله . لكنّه مثل و ليس بتشبيه صرف .

فصل

قد استعجم على كثير من العلماء و الطلبة الفرق بين المثل (بكسر الميم و سكون الثاء) و المثل (بفتحتين) و استفتوني مرارًا .

فأجبتهم بما سيأتي : هما في أصل اللغة بمعنى واحد كالشَّبَهِ و الشِّبْهِ . قال أبوحيان اللغوي النحوي في البحر المحيط : المثل (بفتح الثاء) في أصل كلام العرب بمعنى المثل (بسكون الثاء) و المثيل كشَبَهٍ و شِبْهٍ و شَبِيْهٍ . و هو النظير . و يجمع المثل و المثل على أمثال . قال اليزيدي : الأمثال الأشباه و أصل المثل الوصف هذا مثل كذا . أي وصفه مساوٍ لوصف الآخر بوجه من الوجوه . انتهى .

و أمّا باعتبار الاستعمال فبينهما فروق من وجوه استخرجتها . ولم أر تصريح السلف بها . ولله الحمد .

الأوّل : الكاف الجارّة تتصل المثل (بفتحتين) غالبًا من غير شذوذ دون المثل (بكسر فسكون) كما قال الله تعالى : مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا . و لذا أشكل عليهم قوله تعالى : لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ . و ذكروا في حلّه وجوهًا :

منها : أنّ الكاف زائدة .

ومنها : أنّ هذا من قبيل إثبات الدعوى بطريق الأولى . و إن شئت فقل : من قبيل ذكر الدليل في ضمن الدعوى . لأنّ انتفاء مثل المثل يستلزم انتفاء المثل له تعالى بطريق الأولى .

ومنها : أنّ الكاف لتاكيد التشبيه و إيراث المبالغة . إذ تكرار اللفظ يفيد المبالغة . و المبالغة هنا في النفي لا في المنفي ، نحو قوله تعالى : وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ .

ومنها : ما ألقي في روعي . و هو أنّ الكاف تكون لتشبيه شيء بشيء بغير لحاظ أوصافهما . و " المثل " لذلك مع اعتبار المساواة في الصفات . هذا بالنظر إلى أصل الوضع . و لذا قال أبوحنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ : أقول إيماني كإيمان جبريل ، ولا أقول مثل إيمان جبريل . ففي قوله " لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ " نفي المماثل ذاتًا وصفةً . فلا مثل له تعالى في الذات ولا في الصفات . هذا . والله أعلم .

و نحو قوله تعالى " لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ " قول مالك بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ في مدح النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ :

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِوَاحِدٍ ... فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ كَمِثْلِ مُحَمَّدِ

و الإشكال الإشكال و الأجوبة الأجوبة .

و من هذا الباب قول ذي الرمة . قال ابن أبي عون في كتاب التشبيهات : هو من حسن التشبيه في وضوح الصبح .

وقد لاحَ للساري الذي كمّل السُّرَى ... على أُخْرَيَاتِ اللَّيْلِ فَتْقٌ مُشَهَّرُ

كَمِثْلِ الحِصَانِ الأَنْبَطِ البَطْنِ قائمًا ... تمايلَ عنه الجُلُّ و اللونُ أَشْقَرُ

شبّه اختلاط الضوء بالظلمة بالفرس الأنبط و هو الأبيض البطن . و أدخل الكاف على " مثل " للتاكيد و المبالغة وغير ذلك من الوجوه .

و من هذا الباب قوله تعالى : وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ ۝ .

و الوجه الثاني : أنّ المثل (بفتح الثاء) يتكرر في المشبّه و المشبّه به بخلاف المثل (بسكونها) . كما في القرآن : فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَث . ولا يجوز أن تقول في نحو " زيد كالأسد " : مثل زيد مثل الأسد . بل تقول : زيد مثل الأسد .

و الوجه الثالث : المثل (بالفتح) يستعمل غالبًا في المركّبات والمثل (بسكون الثاء) عامّ . كما أخرج أبونعيم عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ مرفوعًا : مثل الدنيا و الآخرة كمثل ثوب شقّ من أوّله إلى آخره .

فتعلق بخيط منها . فما لبث ذلك الخيط أن ينقطع .

و الوجه الرابع : المثل (بفتح الثاء) يقال فيه نحو " ذكرت له مثلاً " و "ضربت له مثلاً " بخلاف المثل (بالسكون) قال الله تعالى : فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ . و قال : ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا . و قال : وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا .

و الوجه الخامس : يفرقون بينهما بالتعبير فيقولون : إنّ المثل (بالسكون) للتشبيه والمثل (بالفتح) للتمثيل ، و إن كان التمثيل بابًا من أبواب التشبيه .

و الوجه السادس : المثل (بالسكون) لازم الإضافة غالبًا . فلا يستعمل إلّامضافًا كقبل و بعد . و المثل (بفتح الثاء) غير لازم الإضافة . فيضاف تارة ولا يضاف أخرى . قال أبوتمام :

لا تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُوْنَهُ　　مَثَلًا شَرُوْدًا في النَّدَى وَالْبَأْسِ
فَاللهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقَلَّ لِنُوْرِهِ　　مثلاً من المِشْكاةِ و النِّبْراسِ

و قال تعالى : ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً . و قال : وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ . و قال : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ .

و الوجه السابع : المثل (بالفتح) يطلق فيوصف ، بخلاف المثل (بالسكون) حيث لايوصف . و قلّ وقوعه موصوفًا . قال الله تعالى . وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ .

و الوجه الثامن : المثل (بالفتح) متحقق لله تعالى و لصفاته . قال الله سبحانه : وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ . و قال : مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ . الآية . و مثله تعالى (بالسكون) ممتنع ، وكذا مثل صفاته الذاتية . قال الله : لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ .

و الوجه التاسع : المثل (بفتح الثاء) يؤدّي معنى الوصف و الحال و الشأن و القصة و نحو ذلك بخلاف المثل (بسكون الثاء) قال الله : وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً . أي بيّن قصة . و قال : مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ . الآية . أي حالهم كحال العنكبوت . و أثبت الزمخشري وغيره المثل بمعنى الصفة و الحال . و أنكر أبوعلي الفارسي أن يكون المثل بمعنى الصفة

و الحال . وقال : المثل بمعنى الصفة لا يمكن تصحيحه في اللغة . إنّما المثل الشبه . على هذا تدور تصاريف الكلمة . ولا معنى للوصفية في التشابه . كذا في البحر المحيط لأبي حيان ج٢ ص٤٧٧ .

و الوجه العاشر : المشهور أنّ المشبّه به في المثل (بالسكون) يكون غالبًا أقوى أو أفضل من المشبّه في وجه الشبه كالمشبّه به في الكاف . فالمقصود فيه إلحاق الأدنى بالعالي أو العالي بالأعلى نحو : زيد مثل الأسد ، أو كالأسد . بخلاف المثل (بفتح الثاء) حيث يقصد به توضيح المشبّه و تسهيل فهمه . فكثيرًا ما يكون المشبّه به أدنى من المشبّه .

ألا ترى إلى حسن قوله سبحانه "كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖ " ، مع أنّ المشبّه به و هي الحبة شيء حقير بالنسبة إلى المشبّه و هو ثواب المتصدقين . و قال تعالى : مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ . الآية .

و الوجه الحادي عشر : التشبيه بالمثل (بالسكون) ذائع في الكلام المنثور و المنظوم كليهما كما لا يخفى على المتفحص ، بخلاف التمثيل و التشبيه بالمثل (بفتح الثاء) فإنّه مختصّ بالمنثور . و لن تراه في المنظوم إلّا نادرًا بل أندر . و إيّاك و سوء الظن بما قلت ، فإنّ بعض الظن إثم . و إنّي أنّما أنبأتك بعد الفحص البالغ . ولا ينبّئك مثل خبير .

و الوجه الثاني عشر : المثل (بالسكون) ربما يضاف فيراد المضاف إليه ، و يكون هو المقصود بالحكم دون المضاف ، نحو قولك لرجل : مثلك لا يبخل . أي أنت لا تبخل . كما صرّح به السعد رحمه الله تعالى في المطول . ولا كذلك المثل (بالفتح) . وهو ظاهر .

و الوجه الثالث عشر : المثل (بالفتح) كثيرًا ما يضرب لتسهيل أمر عسير الفهم و تقريب ما هو بعيد عن العقل في بادي الرأي .

و هذا سبيل أكثر أمثال القرآن المجيد . ألا ترى أنّ مضاعفة ثواب الصدقة إلى سبع مائة ضعف بعيد عن الفهم . إذ صيرورة درهم واحد تصدق به سبع مائة درهم تعدها عقول العوام محالاً . فالله سبحانه سهّل فهمه و قرّبه إلى الأذهان بضرب مثل حبة ذات سبع سنابل في كلّ سنبلة مائة حبّة . فبهذا المثل أصبح الحكم قريبًا يسيرًا مسلّمًا . فالمثل كأنّه دليل مثبت مقرّب مسهّل . و أمّا المثل (بسكون

الثاء) فليس بهذه المثابة . و يسهل عليك الفرق بعد التفكر في قولنا : زيد كالأسد ، و مثله . و قوله تعالى : كَمَثَلِ حَبَّةٍ . الآية . فإنّ قولنا " زيد مثل الأسد " غير مشتمل على الدليل المسهّل المقرّب المفصّل .

و الوجه الرابع عشر : المثل (بالفتح) لاسيما أمثال القرآن و الأحاديث يشتمل على دليل مثبت مقرّب مفصّل ، كما تقدّم في الوجه الثالث عشر . بخلاف المثل (بسكون الثاء) .

و الوجه الخامس عشر : الأمثال و هو جمع مثل (بفتح الثاء) فن معروف من الفنون الأدبية . و قد صنّفوا فيه كتبًا برأسها ككتاب الأمثال للزمخشري .

و يحتاج الأديب إلى حفظ تلك الأمثال ليزيّن بها عباراته . بخلاف المثل (بالسكون) فإنّه ليس فنًّا مستقلًّا . نعم ، يبحث علماء البيان عن التشبيه ، لكن التشبيه شيء و المثل شيء آخر أي من كلماته . و قلّما يبحثون عن حروف التشبيه وكلماته . و جلّ أبحاثهم عن التشبيه و أقسامه و طرفيه ، بل أبحاثهم الطويلة تتعلّق بالاستعارة و أنواعها . و الاستعارة لا تتحقق فيها حروف التشبيه . و يجب حذفها فيها .

و الوجه السادس عشر : جاز بعد ذكر المثل (بالفتح) أن يرجع و يشار إليه باسم الإشارة أو الضمير و نحو ذلك . و يحكم عليه بلفظ مثل (بالفتح) آخر . فيقال : هو أو هذا مثل الذين فعلوا كذا . فقولنا " هو " مبتدأ ، و قولنا " مثل الذين إلخ " خبر له . قال الله تعالى : ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا . و قبله : فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث . ولا يجري هذا الحكم في " مثل " (بسكون الثاء) . كما لا يخفى .

و الوجه السابع عشر : المثل (بالفتح) لا يطلق إلّا على المشبّه به . و المثل (بالسكون) بعكس ذلك حيث لا يطلق إلّا على المشبّه . فيقال في نحو " زيد كالأسد " : إنّ زيدًا مثل للأسد . و يقال في قوله تعالى " مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا " الآية : إنّ جماعة المستوقدين مثل للمنافقين . قال أبوتمام :

فَاللهُ قَدْ ضَرَبَ الأَقَلَّ لِنُوْرِهِ　　مثلًا من المِشْكَاةِ و النِّبْرَاسِ

فأطلق المثل على المشبّه به .

و الوجه الثامن عشر : المثل (بالفتح) قد يجرّد عن التشبيه و التمثيل لفظًا و تقديرًا

فيذكر و يراد به الحال و الصفة مطلقًا . بخلاف المثل (بالسكون) فإنّ التشبيه يلزمه لفظًا أو تقديرًا فلا يتجرد عنه . قال الله تعالى : ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ . و قبله : مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا . الآية .

و الكلام غير مبني على التمثيل و التشبيه . و المعنى : هذه صفة هذه الأمّة في التوراة و الإنجيل . و أخرج الترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا : أرأيتم لو أنّ نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كلّ يوم خمس مرات . و فيه : قال : فذلك مثل الصلوات الخمس . يمحو الله بهن الخطايا . أراد : ذلك صفة الصلوات و حالهن .

و الوجه التاسع عشر : المثل (بفتح الثاء) نوعان :

النوع الأوّل : التمثيل بلفظ المثل . و أكثر هذه الوجوه المتقدّمة مبنية على هذا النوع . و المثل بهذا المعنى لا يكون أمرًا معيّنًا و كلامًا مخصوصًا . فلكل متكلم أن يذكر مثلاً لما شاء كما شاء . وله حق التصرف في الأمثال المضروبة في الماضي . فميدانه فسيح لا يحد ولا يتناهى . و من هذا النوع أكثر أمثال القرآن و الأحاديث النبوية .

و قيل في تعريفه كما في البحر المحيط : إنّ المثل ذكر وصف ظاهر محسوس و غير محسوس يستدلّ به على وصف مشابه له من بعض الوجوه ، فيه نوع من الخفاء ، ليصير في الذهن مساويًا للأوّل في الظهور من وجه دون وجه . وهو المراد فيما أخرج أحمد في مسنده ج٤ ص٢٠٣ عن أبي قبيل عن عمرو ابن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : عقلت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألف مثل .

و النوع الثاني : ما يخلو عن لفظ المثل و عن قصد التشبيه . نعم ، يستدعي المناسبة . و يعرف بالقول السائر الممثل مضربه بمورده . و قيل : بالقول السائر الذي فيه غرابة من بعض الوجوه . و نقل ابن الأثير في المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر عن البعض أنّه القول الوجيز المرسل ليعمل عليه . و هذا النوع وضعه العرب لأسباب أوجبته و حوادث اقتضته . و يسمى السبب الموجب له مورد المثل . ولا يكون إلّا ماضيًا .

و الأمر الذي يذكر له المثل في الحال يسمى مضرب المثل . و لابدّ من المناسبة التامّة بين المورد

و المضرب . و بقدر قوة المناسبة يزيد حسن المثل و البيان . ولم يجوزوا التصرف في هذا النوع لكونه دالًّا على المورد و المضرب مع الإيماء إلى المناسبة بينهما . فلو تصرف فيه انتفى دلالته على المورد ، و انتفى ما يتفرع على ذلك . و في هذا النوع صنّفوا تآليف ككتاب الأمثال للعلامة الميداني و الأمثال للزمخشري .

و من هذا النوع قولهم : أشهر من الشمس ، أحرص من نملة ، أحزم من الحرباء ، و أحمق من هبنقة . ذهب الحمار يطلب قرنين ، فعاد مصلوم الأذنين . يضرب لمن يطمع في ما لا يستطيع نيله فيخسر ما كان له . رجع بخفي حنين . تفرقوا أيدي سبا . أن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر . يضرب للأمر الظاهر وغير ذلك . و لابتداء جلها قصص لابدّ من معرفتها . و هذا النوع قليل في القرآن .

و لكونه أمرًا قد فرغ عنه لا دخل فيه لصنع المتكلم و علمه ، ما خلا رعاية المناسبة بين المورد و المضرب . بخلاف النوع الأوّل حيث يسبر فيه غور علم المتكلم الضارب له و حسن تصرفه . و لذا أجمع العقلاء على أن أمثال القرآن لا تجارى ولا تضاهى . فإنّ الشعراء و أرباب البلاغة ينقلون إلى كلامهم معاني القران و أمثاله ، لكن لو تأملت لوجدت بين الكلامين تفاوتًا بيّنًا يخبر عن إعجاز القرآن و قصور القدرة عن مماثلته . و إنّ القرائح مصروفة عن معارضته ، و الخواطر مفحمة عن مضاهاته ، و الألسنة مكفوفة عن النطق بمثله . و لتيقنت أنّهم لا يبلغون شأوه ولا يدركون مناله إعجازًا و إعوازًا و إباءً و امتناعًا . هذا .

وفي النوع الأوّل قيل : إنّ الأمثال ترفع الأستار عن وجوه الحقائق ، و تميط اللثام عن محيا الدقائق ، و تبرز المتخيل في معرض اليقين ، و تجعل الغائب كأنّه شاهد ، و المعقول كأنّه محسوس . ثم هذا التقسيم قد سنح لي بعد النظر في كلام القوم . ولم أر في السلف من قسم المثل إلى هذين النوعين . ولله الحمد والمنّة . فالمثل يجري فيه هذا التقسيم ، بخلاف المثل (بسكون الثاء) . و هذا واضح .

و الوجه العشرون : لا يبعد أن يقال في الفرق : إنّ المثل (بالفتح) ربما يذكر و يراد به المشبّه و المشبّه به كليهما . بخلاف المثل (بالسكون) فإنّه لا يطلق إلّا على المشبّه فقط . و يمكن أن يكون منه قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ . الآية . فإنّ قوله "كلمة طيبة إلخ" بدل عن قوله " مثلًا " و مشتمل على المشبّه و المشبّه به . فأطلق المثل عليهما . وله شواهد كثيرة في

الأحاديث .

و الوجه الحادي و العشرون : قال المحقق الحسن بن عبد الله أبو هلال العسكري في كتابه الفروق في اللغة ص١٤٧ : الفرق بين المثل و المثل أنّ المثلين (بكسر الميم) ما تكافآ في الذات و المثل (بفتح الميم و الثاء) بالتحريك الصفة . قال الله تعالى : مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ . أي صفة الجنة . و قولك " ضربت لفلان مثلاً " معناه : أنّك وصفت له شيئًا . و قولك " مثل هذا كمثل هذا " أي صفته كصفته . و قال الله تعالى : كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا . و حاملوا التوراة لا يماثلون الحمار . و لكن جمعهم و إيّاه صفة فاشتركوا فيها . انتهى .

قلت : لم أجد في المنقول سوى هذا الفرق . و لعلّه راجع إلى أحد الفروق المتقدّمة .

الباب الموفّى المائة
وهو مشتمل على جوابين

الكاف ليست للتشبيه حتى يرد ما أوردوا ، بل هي بمعنى الباء للإلصاق نحو " مررت بزيد " أو للمصاحبة نحو " ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٍ " أي معه . " وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ " الآية . و " فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ " . فهما توجيهان يصحّ ههنا اعتبار كليهما .

ثم استعمال الكاف بمعنى الباء صحيح عند بعض النحاة . و كفانا هذا القدر . نقل الإمام ابن هشام في المغني ج١ ص١٥٢ عن بعض النحويين في قول بعضهم "كخير" وقد قيل له "كيف أصبحت" : أنّ معناه بخير . و الكاف بمعنى الباء للإلصاق . أي ألصق إصباحي بالخير ، أو للمصاحبة أي مع خير .

فالمطلوب في قولنا " اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم إلخ " الدعاء بمصاحبة صلاة محمد و صلاة إبراهيم عليهما الصلاة والسلام و مقارنتهما . هذا . و الله أعلم بالصواب و علمه أتمّ .

الباب الحادي بعد المائة
في الجواب العشرين ومائة

و لنذكر مقدمة . و هي : أنّ الحديث يفسّر الحديث كما أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضًا .

و بعدها نقول : التشبيه إنّما هو بين الجعلين لا بين الصلاتين حتى يرد الإشكال . أي بين جعل الصلاة على محمد ﷺ و جعلها على إبراهيم عليه الصلاة والسلام . فلا إشكال . إذ الجعل ليس مما يتصور فيه المفاضلة .

و الدليل على ذلك ورود الحديث بلفظ " الجعل " في بعض الروايات . وهو ما رواه بريدة بن الحصيب رضي الله عنه قال : قلنا : يا رسول الله ! قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك ؟ قال : قولوا : اللّهم اجعل صلواتك و رحمتك على محمد و على آل محمد كما جعلتها على إبراهيم إنّك حميد مجيد . ذكره ابن القيم في الجلاء وغيره .

فبالنظر إلى هذا الحديث لا يبعد أن يقال : إنّ الحديث المشهور الخالي عن لفظ " الجعل " يؤول إلى هذا و يراد منه التشبيه بين الجعلين . و ذكر هذا الحديث الحافظ السخاوي . و لفظه : قال : قولوا : اللّهم اجعل صلاتك و رحمتك و بركاتك على محمد و على آل محمد كما جعلتها على إبراهيم و على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد . قال : رواه أبو العباس السراج و أحمد بن منيع و أحمد بن حنبل و عبد بن حميد في مسانيدهم و المعمري و إسماعيل القاضي كلّهم بسند ضعيف . انتهى .

و عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من سرّه أن يكتال له بالمكيال الأوفى إذا صلّى علينا أهل البيت فليقل : اللّهم اجعل صلاتك و بركاتك على محمد النبي و أزواجه أمّهات المؤمنين و ذرّيّته

و أهل بيته كما صلّيت على آل إبراهيم . الحديث . رواه ابن عدي في الكامل و ابن عبد البر و النسائي في مسند علي .

و أخرج الديلمي في مسنده عن واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ لمّا جمع فاطمة و عليًّا و الحسن و الحسين تحت ثوبه : اللّٰهم قد جعلت صلواتك و رحمتك و مغفرتك و رضوانك على إبراهيم و على آل إبراهيم ، اللّٰهم إنّهم منّي وأنا منهم فاجعل صلواتك و رحمتك و مغفرتك و رضوانك عليّ و عليهم . قال واثلة : و كنت واقفًا على الباب فقلت : و عليّ يا رسول الله ! بأبي أنت و أمّي . فقال : اللّٰهم و على واثلة .

و أخرج الديلمي في مسند الفردوس عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا : إذا صلّيتم عليّ فأحسنوا الصلاة فإنّكم لا تدرون لعلّ ذلك يعرض عليّ . قولوا : اللّٰهم اجعل صلاتك و رحمتك و بركاتك على سيّد المرسلين و إمام المتقين . الحديث . هذا . والله أعلم بالصواب .

الباب الثاني بعد المائة
في الجواب الحادي والعشرين ومائة

إنّ التشبيه نوعان :

الأوّل : ما يكون طرفاه من قبيل الذوات أو الصفات و نحو ذلك مما لا يقصد فيه الحدث الذي هو معنى المصدر . نحو : زيد كالأسد .

و المشبّه به في هذا النوع كثيرًا ما يكون أقوى أو أعلى من المشبّه عند إرادة التفاضل .

والنوع الثاني : ما يكون الطرفان فيه من الأفعال و نحو ذلك مما يدلّ على المعنى المصدري و ما يراد منه صدور الفعل و وقوعه .

ولا يستدعي هذا النوع أن يكون المشبّه به أفضل أو أقوى من المشبّه لا وجوبًا ولا ندبًا . إذ المطلوب فيه معرفة نفس وقوع الحدثين و وجود المعنيين المصدريين . ولا يتأتّى التفاضل بين الأشياء باعتبار الوجود نفسه . فالتفاوت مرتبة إنّما هو في الموجودات لا في وجودها .

و لذا قال علماء المعقولات و الإلهيات : إنّ الوجود كلّيّ متواط لا مشكّك . و المتواطي هو الذي لا يختلف صدقه على أفراده شدّةً و ضعفًا و زيادةً و نقصًا كالإنسان . و من ههنا قالوا : يمتنع أن يكون لشيء واحد وجودان فصاعدًا بأنّ يكون وجوده ضعف وجود موجود آخر .

و بهذا احتجّ العلماء على فساد العالم لو كان فيه آلهة متعددة . تفصيله : أنّه لو كان للعالم خالقان لأعطى كلّ واحد منهما لكلّ مخلوق وجودًا . و هذا يستلزم أن يكون لكلّ مخلوق وجودان . و اجتماع

الوجودين في موجود يبطل ذلك الموجود و يفنيه . إذ كلّ شيء لا يتحمل ما هو خارج عن وسعه . مثل ذلك مثل قربة تسع عشرة صيعان من الماء . فإن رام أحد أن يصب فيها عشرين صاعًا من الماء و يدخله فيها بقوة الكبس و شدة الضغط تنشقّ لا محالة .

فإذا شبّه فعل بفعل و قيل " ذهب زيد كما ذهب عمرو " أو " اذهب يا زيد كما ذهب عمرو " لا يراد فيه أنّ ذهاب عمرو أقوى أو أحسن من ذهاب زيد كما لا يخفى على المتدرب المتفحص . بل يراد أنّ ذهاب زيد وجد أو ينبغي أن يوجد في الخارج كما وجد ذهاب عمرو .

و التشبيه فيما نحن بصدده وهو "كما صلّيت على إبراهيم " من النوع الثاني حيث شبّه فعل بفعل . ولا يقصد فيه التفاضل ، و إنّما المقصود تحقق صلاة محمد ﷺ في الواقع كما تحقّقت صلاة إبراهيم عليه الصلاة والسلام . فلا إشكال . ولله الحمد والمنّة .

ثم ههنا تفصيل حسن يفيد شرح المرام و بسط المقام . و هو أنّه لاح مما تقدّم أنّ التشبيه بين الفعلين يراد به التشبيه بين المصدرين المقيّدين بالزمان و النسبة . لكن المصدر كما صرح به النحاة في بحث المفعول المطلق قد يكون مبهمًا و هو المؤكد نحو " ضربته ضربًا " . قال الرضي : المراد بالتاكيد المصدر الذي هو مضمون الفعل بلا زيادة شيء عليه من وصف أو عدد . فقولك " ضربت " بمعنى أحدثت ضربًا . فلما ذكرت بعده " ضربًا " صار بمنزلة قولك : أحدثت ضربًا ضربًا . فظهر أنّه تاكيد . انتهى .

وقد يكون نوعيًّا نحو : جلست جلسة (بكسر الجيم) و ضربت زيدًا ضرب الأمير .

و قد يكون معدودًا نحو : جلست جلسة (بفتح الجيم) و ضربته ضربة و ضربتين . قال الرضي : و نعني بالعدد ما يدل على عدد المرّات معيّنًا كان أو لا .

فهذه معان ثلاثة للمصدر . و التشبيه بين الفعلين قد يكون بأخذ مصدريهما بالمعنى الأوّل الذي يقصد به أحداث المصدر لا غير كما يقال : ضربت كما ضرب زيد . أي : أحدثت الضرب كما أحدث زيد الضرب ، على ما لاح من كلام الرضي المتقدم أنّ معنى " ضربت " : أحدثت الضرب .

و قد يكون باعتبار أخذهما بالمعنى الثاني أي النوعيّ نحو أن يقال : صالوا و حملوا على العدو كما

حمل خالد بن الوليد رضي الله عنه . أي : حملوا حملة مثل حملة خالد رضي الله عنه في القوة و الشدّة .

و قد يكون باعتبار أخذهما بالمعنى الثالث أي العددي . و لابدّ فيه من التساوي بالعدد بين المشبّه و المشبّه به . و إلّا كان كذبًا . سواء كان العدد متناهيًا نحو أن يقال : أكلت كما أكل زيد . إذا أريد العدد . أي أكلت مرّتين كما أكل زيد مرّتين .

و منه حديث شكاية الفقراء و قولهم في الأغنياء : يصلّون كما نصلّي . أي يصلّون الخمس كما نصلّي الخمس . و لم يريدوا المساواة في النوافل أيضًا لعدم تحديدها و عدم علمهم بذلك ، أو كان غير متناه كما يقال : لا يحصى معلومات الله تعالى كما لا يحصى مقدوراته . فمقدورات الله و معلوماته متساوية الأقدام في الكثرة . و للمتكلمين هنا كلام . لكن نفس الكثرة مسلّمة .

ولا يجب في هذا المعنى الثالث أن يكون المشبّه به أقوى و أعلى من المشبّه كما لا يخفى .

و كذا في المعنى الأوّل حيث يراد نفس إحداث الفعل في المشبّه و المشبّه به لا التفاضل بينهما . و لذا صحّ تشبيه الضد بالضد ، مع أنّ الضدّ لا يماثل الضدّ . فكيف يراد التفاضل بينهما الذي يقتضي الاتحاد في الجنس . و إذا أريد الإحداث و الصدور صحّ التشبيه بينهما لمشاركتهما فى الإحداث . و منه قوله تعالى : كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ . و المراد إحداث العود باليقين مثل إحداث البدء باليقين .

و أمّا المعنى النوعيّ فالأكثر فيه إرادة التفاضل و كون المشبّه به أقوى أو أعرف من المشبّه . يقال : ضربته كما ضرب الأمير . أي ضربته ضرب الأمير . فإنّ ضرب الأمير أشدّ من ضرب غير الأمير . و منه قوله تعالى : يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ . فطيّ السجل أعرف من المشبّه . و منه الحديث في القيامة : فسبقتها كما سبقت هذه هذه لإصبعيه السبابة و الوسطى . أخرجه الترمذي .

و التشبيه فيما نحن فيه و هو "كما صلّيت على إبراهيم" إنّما هو باعتبار المعنى الأوّل . ولا يقصد فيه التفاضل حتى يرد ما يرد . و إنّما المقصود أن يحدث الله الصلاة على محمد كما أحدث الصلاة على إبراهيم .

و لإرادة نفس ماهية الإحداث في هذا المعنى و عدم إرادة التفاضل لا يثنى المصدر إذا وقع مفعولًا مطلقًا للتاكيد ، بخلاف المعنى الثاني و الثالث .

وفي الكافية و شرحها للرضي : فالأوّل لا يثنى ولا يجمع . إذ المراد بالتاكيد ما تضمنه الفعل بلا

زيادة عليه . ولم يتضمن الفعل إلاّ الماهية من حيث هي هي . و القصد إلى الماهية من حيث هي هي يكون مع قطع النظر عن قلّتها و كثرتها . و التثنية و الجمع لا يكونان إلاّ مع النظر إلى كثرتها ، فتناقضا . بخلاف أخويه يعني النوع و العدد . و ذلك لأنّ النوع قد يكون نوعين فصاعدًا . و كذا قد يكون العدد اثنين فصاعدًا . انتهى .

فصل

قال العبد الضعيف الروحاني البازي : الذي قرّرت من تقسيم التشبيه إلى ما يكون بين الفعلين ولا يطلب فيه التفاضل غالبًا و إلى ما يكون على خلاف ذلك ، و إن لم يصرّح به أئمة العربية لكن يستنبط بعد التفتيش الكامل من كلامهم . و يؤيده الفحص البالغ لمحاورات القدماء من العرب الأقحاح و أشعار الشعراء و آيات القرآن و الحديث النبوي . بل بهذا البيان الأزهر الأبهر تنحل مواقع كثيرة و مواقف لا تعد . لا يكون المشبّه به فيها أقوى و أجلّ من المشبّه ولا تكون بينهما مناسبة سوى المشاركة في إحداث الفاعل معنى المصدر و اتصافه بذلك ، كما لا يخفى على ذوي الآراء الصائبة و الألباب الثاقبة . و ترى كثيرًا من قواعد صحيحة مطابقة لنفس الأمر غفل عنهما علماء العربية . فسبحان الذي لايغفل عن شيء و لا تأخذه سنة ولا نوم .

قال الشيخ محمد أنور شاه الكشميري رَحِمَهُ اللهُ في أماليه فيض الباري شرح البخاري ، في شرح قوله تعالى " أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ " : و استشكلوا هذا السؤال . و في الكلام أنواع لم يتعرض إليها النحاة . منها ما لايكون له محكي عنه لا عند المتكلم ولا عند المخاطب كالكلام عند معاتبة أو ملاطفة أو مطايبة كما تقول لخادمك " ما شأنك تعصيني في كلّ أمر ولا تطيعني " مع علمك أنّه مخلص لك . ولا يكون في ذهن المخاطب أيضًا إنّك تذعن به . و لكنّك تخرجه للتهويل عبارة و التبكيت معارضة في اللفظ لا غير . ولو دوّن الناس ما عند البلغاء من أنحاء الكلام لارتفع أكثر الإشكالات ، فإنّها تكون من هذا القبيل . انتهى .

قلت : و قد دوّنت مخترعًا في كتابي هذا عدة تقسيمات للتشبيه بديعة مؤيدة بشواهد قوية . و لله الحمد والمنة .

و هذه شواهد تؤيد ما في هذا الباب :

فمنها قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ . التشبيه في نفس الأكل بالغفلة من غير إرادة التفاضل .

ومنها قوله عليه الصلاة والسلام : الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل . رواه البيهقي عن ابن مسعود رضي الله عنه . أراد المشاركة في إحداث الإنباتين . و لم يرد التفاضل و إلاّ كان الأمر بالعكس . لأنّ إنبات الغناء للنفاق الذي هو مشبّه أشدّ تأثيرًا من إنبات الماء البقل .

ومنها قوله عليه الصلاة والسلام : الذكر ينبت الإيمان في القلب كما ينبت الماء البقل . رواه ابن مسعود رضي الله عنه موقوفًا ، كما قال العسقلاني .

ومنها قوله عليه الصلاة والسلام : الغناء و اللهو ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء العشب . و الذي نفسي بيده أنّ القرآن و الذكر لينبتان الإيمان في القلب كما ينبت الماء العشب . أخرجه الديلمي .

ومنها ما رواه الترمذي عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه في قصة الخروج إلى حنين و مرورهم بشجرة يقال لها "ذات أنواط" . قالوا : يا رسول الله ! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبحان الله . هذا كما قال قوم موسى : ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ . ففيه ثلاث تشبيهات للفعل بالفعل . و المراد نفس الإحداث و الصدور .

ومنها قوله تعالى : كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ .

ومنها قوله تعالى : فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ . أعراف . المطلوب إحداث إخراج الموتى باليقين مثل إخراج الثمرات باليقين . ليس المشبّه به أقوى و أشدّ من المشبّه . ولو اعتبر التفاضل لا المشاركة في وجود الإحداث لكان العكس أنسب . لأنّ المشبّه هنا وهو إخراج الموتى أشدّ تأثيرًا و أكبر تهويلاً و أدخل بإظهار قدرة الله من المشبّه به .

ومنها قوله تعالى : وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ . زخرف .

ومنها قوله تعالى : ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ .

ومنها ما روى عبادة بن الصامت رضي الله عنه : أنّ رسول الله ﷺ قال : من توضّأ فأحسن الوضوء . ثم قام إلى الصلاة فأتمّ ركوعها و سجودها و القراءة فيها . قالت الصلاة : حفظك الله كما حفظتني . ثم صعد بها إلى السماء و لها ضوء و نور ، ففتحت لها أبواب السماء حتى ينتهي بها إلى الله تعالى ، فتشفع لصاحبها . و إذا لم يتمّ ركوعها ولا سجودها ولا القراءة فيها إلاّ قالت الصلاة : ضيعك الله كما ضيعتني . ثم صعد بها إلى السماء و عليها ظلمة ، فأغلقت دونها أبواب السماء . ثم تلف كما يلف الثوب الخلق . فيضرب بها وجه صاحبها . أخرجه البيهقي في الشعب . قال العراقي : سنده ضعيف . و جاء ضعفه من الأحوص بن حكيم .

فالمقصود من التشبيه في قوله "كما حفظتني" و قوله "كما ضيّعتني" و قوله "كما يلفّ الثوب" المعنى الأوّل أي نفس تحقّق معنى الحدث و تأكده ، لا المعنى الثاني الذي يرام فيه التفاضل . وإلاّ كان الأمر بالعكس . إذ المشبّه في هذه التشبيهات الثلاث أشدّ و أقوى من المشبّه به كما لا يخفى .

ومنها ما أخرجه ابن خزيمة في صحيحه عن أبي موسى رضي الله عنه واقعة رجل يصلّي و ينقر في سجوده . فقال رسول الله ﷺ : ترون هذا . لو مات مات على غير ملة محمد ﷺ . ينقر صلاته كما ينقر الغراب الدم .

الباب الثالث بعد المائة
في الجواب الثاني والعشرين ومائة

اعلم : أنّ الله تبارك وتعالى و ملائكته صلّوا على النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا . فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الله أن يصلّي على آله أيضًا كما صلّى عليه ، و أن يجعلهم شركاء له في الصلاة و التعظيم كما صلّى على آل إبراهيم من الأنبياء و جعلهم شركاء مع إبراهيم في الصلاة حيث قال الله سبحانه : رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ .

فالملحوظ في الطرفين المشبّه و المشبّه به مشاركة الآل . و يؤيد ذلك ما في بعض الروايات من الاقتصار على آل إبراهيم . كما أخرج البخاري عن كعب بن عجرة رضي الله عنه : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قولوا : اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد . اللّهم بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

فسنح أنّ وجه الشبه المشاركة في الصلاة . و ظاهر أنّ المشبّه به أقوى بهذا الاعتبار من المشبّه ، لأنّ في آل إبراهيم أنبياء . و الصلاة على الأنبياء جائزة على الاستقلال مستحسنة في الشرع بلا ريب . فلآل إبراهيم عليه الصلاة والسلام مدخل قويّ في الصلاة و حظ وافر مستقلّ منها . حيث جاز أن يصلّى عليهم على الاستقلال . فالمشاركة ههنا في الصلاة قويّة .

بخلاف آل محمد فإنّهم غير أنبياء ، إذ لا نبي بعده عليه الصلاة والسلام . و الصلاة على غير الأنبياء استقلالاً ممنوعة . نعم ، جازت تبعًا . فلأمّة محمد صلى الله عليه وسلم حظّ من الصلاة كبير و مشاركة فيها ببركته عليه الصلاة والسلام . لكن حظ الأنبياء الذين هم آل إبراهيم أكبر و أقوى . فالأمّة طفيليّون . بخلاف الأنبياء إذ كلّ نبي أصيل في

ذلك .

فإن قلت : هل ظهرت لهذا الدعاء دعاء المشاركة في الصلاة فوائد و آثار في الأمّة و هل تقبل الله سبحانه هذا الدعاء ؟

قلت : نعم ، يعلم بعد التدبر في القرآن و الأحاديث أنّ الله تبارك تقبل هذا الدعاء و بدت له نتائج حسنة و عوائد جليّة ، و أنّ الله تعالى جعل لأمّة محمد ﷺ حظًّا وافرًا من الصلاة و البركات . و يدلّ على ذلك وجوه متعددة :

الوجه الأوّل : صلى الله سبحانه و ملائكته على آل محمد في القرآن كما صلّوا على النبي ﷺ فيه .

قال الله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا . و في نسيم الرياض : لمّا نزلت آية " إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا " قال أبوبكر رضي الله عنه : يا رسول الله ! ما أعطاك الله من خير إلّا أشركتنا فيه . فما بالك لم تشركنا في هذا الخير ؟ فنزلت هذه الآية : هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ . انتهى . نسيم الرياض شرح الشفا ج١ ص٣٢٩ ، فصل تاسع ، كراماته .

و قال تعالى : أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٌ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ .

الوجه الثاني : ثبتت صلاة الله و ملائكته على صالحي الأمّة المحمديّة في غير واحد من الأحاديث . كما أخرج أحمد في مسنده ج٦ ص٨٩ عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : إنّ الله عزّ وجلّ و ملائكته عليهم السلام يصلّون على الذين يصِلُون الصفوف . و من سدَّ فُرجة رفعه الله بها درجة .

و أخرج الترمذي في جامعه ج٢ ص١١٠ عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : ذكر لرسول الله ﷺ رجلان : أحدهما عابد و الآخر عالم . فقال رسول الله ﷺ : فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم . ثم قال رسول الله ﷺ : إنّ الله و ملائكته و أهل السماوات و الأرضين حتى النملة في جحرها و حتى الحوت ليصلّون على معلّم الناس الخير . قال : هذا حديث حسن غريب صحيح .

الوجه الثالث : وردت صلاة الملائكة فقط على طوائف من صالحي الأمّة . كما أخرج الستة

إلا النسائي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا : صلاة الرجل في جماعة تضعف على صلاته في بيته و سوقه خمسًا و عشرين ضعفًا . و ذلك أنّه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلّا الصلاة لم يخط خطوة إلّا رفعت له بها درجة و حطت عنه خطيئة . فإذا صلّى لم تزل الملائكة تصلّي عليه ما دام في مصلاه : اللّهم صلّ عليه ، اللّهم ارحمه . ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة .

و أخرج أبو داود عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا . و فيه : فإذا دخل المسجد كان في صلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه . و الملائكة يصلّون على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلّى فيه . يقولون : اللّهم اغفر له ، اللّهم ارحمه ، اللّهم تب عليه . مالم يؤذ فيه أو يحدث فيه .

و أخرج الترمذي في جامعه بسنده ج١ ص١٤٨ عن ثوير عن أبيه قال : أخذ علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بيده فقال : انطلق بنا إلى الحسين نعوده . فوجدنا عنده أبا موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أعائدًا جئت يا أبا موسى أم زائرًا ؟ فقال : لا ، بل عائدًا . فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول : ما من مسلم يعود مسلمًا غدوة إلّا صلّى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي . و إن عاده عشيّة إلّا صلّى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح . و كان له خريف في الجنّة . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب حسن .

و أخرج الترمذي في الجامع عن ليلى عن مولاتها (أي معتقتها و هي أم عمارة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : الصائم إذا أكل عنده المفاطير صلّت عليه الملائكة .

و أخرج أيضًا الترمذي عن حبيب بن زيد قال : سمعت مولاة لنا يقال لها ليلى ، تحدّث عن أم عمارة ابنة كعب الأنصارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أنّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل عليها . فقدّمت إليه طعامًا . فقال : كلي . فقالت : إنّي صائمة . فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنّ الصائم تصلّي عليه الملائكة إذا أكل عنده حتى يفرغوا . و ربما قال : حتى يشبعوا . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . جامع الترمذي ج١ ص١٢٧ .

و أخرج الترمذي في الجامع ج٢ ص١٣٦ عن معقل بن يسار عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : من قال حين يصبح ثلاث مرات : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم . و قرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر ، وكّل الله به سبعين ألف ملك يصلّون عليه حتى يمسي . و إن مات في ذلك اليوم مات شهيدًا . و من قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة .

و أخرج الخطيب في تاريخه ج٧ ص٦ في أحوال أيوب بن مدرك الحنفي : أخبرنا محمد بن الحسن ابن أحمد الأهوازي أخبرنا أبو زياد بن سليمان الصوفي قال : حدثنا الفضل بن هارون البغدادي حدثنا الترجماني إسماعيل بن محمد حدثنا أيوب بن مدرك عن مكحول عن واثلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لا يمسح الرجل جبهته حتى يفرغ من صلاته ولا بأس أن يمسح العرق عن صدغيه و إنّ الملائكة تصلّي عليه ما دام أثر السجود بين عينيه . و تكلّم الخطيب في بعض رواته .

و أخرج الخطيب أيضًا ج٨ ص٣٨٦ في أحوال دهثم بن خلف الفضل القرشي بسنده عن ضرار بن عمرو عن مجاهد عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : صلاة الرجل متقلّدًا سيفه (يعني تفضُلُ) على غير المتقلد سبع مائة ضعف . و سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول : إنّ الله يباهي بالمتقلّد سيفه في سبيل الله ملائكته و هم يصلّون عليه ما دام متقلّدًا .

الوجه الرابع : أمر الله سبحانه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يصلّي على أمّته كما أمر أمّته أن يصلّوا عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فقال تعالى : وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ . إذ لا يبعد أن يشار بهذه الآية إلى ما نحن فيه من بحث الصلاة مع دلالتها على صلاة الجنازة .

و يدلّ على ذلك صنيع البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ فإنّه قال في صحيحه : باب هل يصلّى على غير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . و قوله تعالى : وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ .

الوجه الخامس : قد صلّى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أمّته على الانفراد مستقلًّا . كما ثبت ذلك في عدة أخبار . و كان ذلك خصوصية له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما صرّح به السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ في الخصائص حيث قال : باب اختصاصه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنّ له أن يصلّي بلفظ الصلاة على من شاء . و ليس لأحد غيره أن يصلّي إلّا على نبي أو ملك .

أخرج الشيخان عن عبد الله بن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أتاه قوم بصدقاتهم قال : اللّهم صلّ عليهم . فأتاه أبي بصدقته ، فقال : اللّهم صلّ على آل أبي أوفى .

و في لفظ البخاري : عن ابن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : كان إذا أتى رجل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصدقته قال : اللّهم صلّ عليه . فأتاه أبي . الحديث .

و أخرج ابن سعد و القاضي إسماعيل و البيهقي في سننه عن جابر رضي الله عنه قال : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادته امرأتي : يا رسول الله ! صلّ عليّ و على زوجي . فقال : صلى الله عليك و على زوجك .

و عن قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه : أنّ النبي صلى الله عليه وسلم رفع يديه و هو يقول : اللّهم اجعل صلواتك و رحمتك على آل سعد بن عبادة . أخرجه أبوداود و النسائي . و سنده جيد .

و أخرج أحمد في مسنده ج٣ ص٣٩٨ عن جابر رضي الله عنه مطولاً ، و فيه : قال : و أخرجت امرأتي صدرها و كانت مستترة بسقيف في البيت ، قالت : يا رسول الله ! صلّ عليّ و على زوجي . صلى الله عليك . فقال : صلى الله عليك و على زوجك . الحديث .

و أخرج أيضًا أحمد في مسنده ج٤ ص٣١٥ عن مخارق عن طارق بن شهاب قال : قدم وفد بجيلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكسوا البجليين و ابدءوا بالأحمسين . قال : فتخلف رجل من قيس قال : حتى أنظر ما يقول لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فدعا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس مرات : اللّهم صلّ عليهم ، أو اللّهم بارك فيهم . مخارق الذي يشكّ .

الوجه السادس : شرع للمسلمين الصلاة على اتباع النبي صلى الله عليه وسلم تبعًا و ثانيًا إلى يوم القيامة . و أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن يقرن آله مع اسمه عليه الصلاة والسلام في صيغة الصلاة . و آله كلّ مسلم تقي ، كما ثبت في بعض الآثار . بل أجمع الأمّة بقران الصحابة بعد الآل في صيغ الصلوات من قبيل ذكر الخاص بعد العام أو بالعكس .

و أخرج ابن حبان في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : أيّما رجل مسلم لم يكن عنده صدقة فليقل في دعائه " اللّهم صلّ على محمد عبدك و سولك و صلّ على المؤمنين و المؤمنات و المسلمين و المسلمات " فإنّها زكاة .

الوجه السابع : أنّ الله تعالى يصلّي عشرًا على من يصلّي على النبي صلى الله عليه وسلم مرّةً . كما روى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلّى عليّ واحدة صلى الله عليه عشرًا . أخرجه مسلم و أبو داود و الترمذي .

و روى أبو طلحة رضي الله عنه : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم و السرور يرى في وجهه . فقالوا :

يا رسول الله ! إنّا لنرى السرور في وجهك . فقال : إنّه أتاني الملك فقال : يا محمد ! أما يرضيك أنّ ربّك عَزَّوَجَلَّ يقول : إنّه لا يصلّي عليك أحد من أمّتك إلّا صلّيت عليه عشرًا ، ولا يسلّم عليك أحد من أمّتك إلّا سلّمت عليه عشرًا . قال : بلى . أخرجه النسائي .

فصل

ثم ههنا سؤال قويّ . وهو أنّ على هذا تزيد صلاة المصلّي على صلاة النبي ﷺ . و يحصل له من صلاة الله تعالى عشرة أمثال ما حصل للنبي ﷺ . فإنّه إذا صلى على النبي مرّة صلى الله عليه عشرًا . و لم أر من تعرّض لهذا السؤال و حلّه .

فأقول و على الله التكلان : الجواب من وجوه :

الأوّل : مدار الفضل و الكرامة في أمثال ما نحن بصدده الكيفية لا العدد و الكمية .

ولا يخفى أنّ الصلاة الواصلة إلى النبي ﷺ أجلّ كيفًا من الصلاة الواصلة إلى فرد من الأمّة . فصلاة كلّ فرد من أفراد الأمّة على كثرتها لا توازي صلاته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، مع كونها واحدة . هيهات هيهات أين يقع ضوء المصابيح وإن كانت ألفًا من ضياء الشمس و إن كانت واحدة .

و متى بدت أنوار بدر في الدجى ... ما للسهى من حيلة غير اختفا

و الوجه الثاني : تناول البركات و تحصيل الكمالات بقدر الاستعداد و صفاء الباطن و التهيإ لما يفيض من الله تعالى على القلوب . ولا يخفى أنّ استعداد النبي أتمّ و صفاء باطنه أكمل و استعداد الأمّة أدنى .

فلمّا بزغت شمس الصلاة و أشرقت أراضي القلوب بنور ربّها و استنارت نال كلّ من أشعتها و ضيائها بقدر الاستعداد .

فللنبي ﷺ حظّ من الصلاة بقدر استعداده ، و لغيره نصيب بقدر استعداده . و بين الحظوظ بون كما بين الاستعدادات . فلا يمكن أن يكافئ آلاف حظوظ الأمّة حظًّا واحدًا للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

هيهات عنقاء أن يصطاده أحد فاترك عناك وكن من ذاك في دعة

و الوجه الثالث : قد ذكرنا في باب آخر من هذا الكتاب أن بين صلاة النبي عليه الصلاة والسلام وصلاة غير النبي اشتراكًا بمجرد اللفظ دون الحقيقة .

و هذا مثل اشتراك لفظ الرسول لغة . فيطلق لغة على كلّ من أرسلته لأمر ، و هذا ظاهر ، و يطلق على النبي . و معناه ههنا : إنسان بعثه الله للتبليغ . و إطلاق الرسول بهذا المعنى على غير النبي ممنوع ، بل كفر . فالاشتراك لفظي . يطلق الرسول على الأوّل بمعنى و على الثاني بمعنى آخر .

و هكذا الصلاة على النبي وعلى غير النبي . فصلاة الله على الأنبياء مختصة بهم . ولها معنى يغاير معنى صلاة الله على غيرهم . هذا ما يليق بشأنهم الأعلى و يقتضيه مقامهم الأسنى . و هذا ما يستفاد من قول العلماء عن آخرهم باختصاص الصلاة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام . و بأنّه لا يسوغ لنا أن نصلّي مستقلاًّ على شخص من الأمّة .

و أمّا الله سبحانه فيصلّي على من يشاء . ولا يسأل عما يفعل . وكذلك الملائكة فيصلّون بإذن الله على من يشاء الله سبحانه . وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فله أن يصلّي على من يشاء و يختصه بالصلاة بإذن الله تعالى . فالصلاة التي حصلت للنبي عليه الصلاة والسلام و إن كانت واحدة أعلى نوعًا و أجلّ حقيقةً من عشر صلوات حصلت لمصلّ هو فرد من الأمّة .

و الوجه الرابع : مع عزل النظر عما رقمنا نقول : لا تلزم زيادة ما حصل للمصلّي من صلوات الله على ما حصل للنبي عليه الصلاة والسلام . و إنّما يلزم ذلك لو لم يكن للنبي سوى صلاة هذا المصلّي . لكن الأمر على خلاف ذلك .

إذ المؤمنون ما زالوا شرقًا و غربًا من بدء الإسلام و هلّم جرًّا إلى يوم التناد يصلّون عليه صلى الله عليه وسلم . و تلك أنهار هدايا الصلوات و التسليمات و البركات جارية إلى جنابه العالي عليه الصلاة والسلام . فما نسبة ما حصل لمصلّ من صلاة نفسه إلى بحر صلوات تترى إلاّ كنسبة قطرة إلى البحر .

وذا إيوان الاستعلاء عال فإيّاكم وطمعًا في الوصال

و الوجه الخامس : قد ثبت أن كلّ حسنة لمؤمن حسنة لنبيه عليه الصلاة والسلام . بل المؤمن نفسه من حيث أنّه مؤمن حسنة من حسنات النبيّ . إذ هو الذي صار سببًا لصلاحه و إيمانه . فأجور حسنات المؤمنين قاطبة أجور لنبيهم أيضًا .

و هذه ضابطة معروفة في الشرع . فقوله عليه الصلاة والسلام " من صلّى عليّ واحدة صلى الله عليه عشرًا " ظاهره التوزيع حيث يفهم منه أنّ للمصلّي عشرًا و للنبي واحدة . لكن بعد ملاحظة هذه الضابطة يؤول معناه إلى المشاركة .

فالنبي عليه الصلاة والسلام متفرد بما تفرد به . و مع هذا مشارك مع هذا المصلي في تلك العشر أيضًا .

خليليّ ما هــذا بِهَزلٍ وإنّما　　　عجيبُ الأحادِيثِ غريبُ البَدَائع

و في فتاوى خاتمة المحققين العلامة الشيخ محمد بن سليمان الكردي الشافعي رحمه الله تعالى : اعلم : أنّ النبي صلى الله عليه وسلم له أجر كلّ من عمل خيرًا من أمّته من غير أن ينقص من أجرهم شيء ، ومن غير احتياج إلى افتتاح الأعمال بنية جعل ثوابها له عليه الصلاة والسلام . قال في المواهب اللدنية : قال الشافعي رحمه الله تعالى : ما من عمل يعمله أحد من أمّة النبي صلى الله عليه وسلم إلاّ و النبي أصل فيه . قال في تحقيق النصرة : فجميع حسنات المؤمنين و أعمالهم الصالحة في صحائف نبينا صلى الله عليه وسلم زيادة على ما له من الأجر مع مضاعفة لا يحصرها إلاّ الله سبحانه . لأنّ كلّ عامل و مهتد إلى يوم القيامة يحصل له أجره ، و يتجدد لشيخه مثل ذلك الأجر ، و لشيخ شيخه مثلاه ، و للشيخ الثالث أربعة ، و للرابع ثمانية . و هكذا تضاعف كلّ مرتبة بعدد الأجور الحاصلة بعد النبي صلى الله عليه وسلم . و بهذا يعلم تفضيل السلف على الخلف . فإذا فرضت المراتب عشرًا بعد النبي صلى الله عليه وسلم كان له عليه الصلاة والسلام من الأجر ألف و أربعة و عشرون . فإذا اهتدى بالعاشر حادي عشر صار أجر النبي صلى الله عليه وسلم ألفين و ثمانية و أربعين . و هكذا كلما زاد واحد يتضاعف ما كان قبله أبدًا . كما قاله بعض المحققين . ولله درّ سيدي علي وفاء .

فلا حُسْنَ إلاّ مِنْ مَحَاسِنِ حُسْنِه　　　ولا مُحْسِنٌ إلاّ له حَسَنَاتُهُ

فائدة في الصلاة على غير الأنبياء

قد عقد الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذا بابًا فقال : باب هل يصلّى على غير النبي ﷺ . و قوله تعالى : وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ .

فأمّا الصلاة على الأنبياء غير نبينا صلى الله عليهم وسلم فورد فيها أحاديث :

أحدها حديث علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ . و فيه : صلّ عليّ و على سائر النبيين . أخرجه الترمذي و الحاكم . و حديث بريدة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ مرفوعًا : لا تتركن في التشهد الصلاة عليّ و على أنبياء الله . أخرجه البيهقي بسند واهٍ . و حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ مرفوعًا : صلّوا على أنبياء الله . الحديث . أخرجه إسماعيل القاضي بسند ضعيف .

و روي المنع . كما أخرج ابن أبي شيبة من طريق عثمان بن حكيم عن عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا قال : ما أعلم الصلاة تنبغي على أحد من أحد إلّا على النبي ﷺ .

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ : و هذا سند صحيح . و حكى القول به عن مالك و قال : ما تعبدنا به . و جاء نحوه عن عمر بن عبد العزيز . و عن مالك : يكره . و قال عياض : عامّة أهل العلم على الجواز . و قال سفيان : يكره أن يصلّى إلّا على نبي . و وجدت بخط بعض شيوخ مذهب مالك : لا يجوز أن يصلّى إلّا على محمد . و هذا غير معروف عن مالك . و إنّما قال : أكره الصلاة على غير الأنبياء . و ما ينبغي لنا أن نتعدى ما أمرنا به .

و خالفه يحيى بن يحيى فقال : لا بأس به . و احتج بأنّ الصلاة دعاء بالرحمة فلا يمنع إلا بنص أو إجماع . قال عياض : والذي أميل إليه قول مالك و سفيان . و هو قول المحققين من المتكلمين و الفقهاء . قالوا : يذكر غير الأنبياء بالرضا و الغفران . و الصلاة على غير الأنبياء يعني استقلالاً لم تكن من الأمر المعروف . و إنّما أحدثت في دولة بني هاشم .

و أمّا الملائكة فلا أعرف فيه نصًّا . و إنّما يؤخذ ذلك من الذي قبله إن ثبت ، لأنّ الله تعالى سمّاهم رسلاً .

و أمّا المؤمنون فاختلف فيه . فقيل : لا تجوز إلّا على النبي ﷺ خاصّة . و حكي عن مالك كما

تقدّم .

و قالت طائفة : لا تجوز مطلقًا استقلالاً ، و تجوز تبعًا فيما ورد بالنص أو ألحق به لقوله تعالى : لَا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا . و لأنّه لما علّمهم السلام قال : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . ولمّا علّمهم الصلاة قصر ذلك عليه و على أهل بيته . و هذا القول اختار القرطبي في المفهم و أبو المعالي من الحنابلة . و هو اختيار ابن تيمية من المتأخرين .

و قالت طائفة : تجوز تبعًا مطلقًا ولا تجوز استقلالاً . و هذا قول أبي حنيفة و جماعة .

و قالت طائفة : تكره استقلالاً لا تبعًا . و هي رواية عن أحمد . و قال النووي : هو خلاف الأولى .

و قالت طائفة : تجوز مطلقًا . وهو مقتضى صنيع البخاري . فإنّه صدر بالآية . و هي قوله تعالى : وَصَلِّ عَلَيْهِمْ . ثم علّق الحديث الدالّ على الجواز مطلقًا . وهو قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : اللّهم صلّ على آل أبي أوفى . و عقبه بالحديث الدال على الجواز تبعًا . وهو قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : قولوا : اللّهم صلّ على محمد و أزواجه و ذريته كما صلّيت على إبراهيم . الحديث .

و وقع مثل حديث عبد الله بن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن قيس بن سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أنّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رفع يديه وهو يقول : اللّهم اجعل صلواتك و رحمتك على آل سعد بن عبادة . أخرجه أبو داود و النسائي . و سنده جيد .

و هذا القول جاء عن الحسن و مجاهد . و نص عليه أحمد في رواية أبي داود . و به قال إسحاق و أبو ثور و داود و الطبري . و احتجوا بقوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ . وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا : أنّ الملائكة تقول لروح المؤمن : صلى الله عليك و على جسدك .

و أجاب المانعون عن ذلك كلّه : بأنّ ذلك صدر من الله و رسوله ، و لهما أن يخصّا من شاءا بما شاءا ، و ليس ذلك لأحد غيرهما . و قال البيهقي : يحمل قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بالمنع إذا كان على وجه التعظيم ، لا ما إذا كان على وجه الدعاء بالرحمة و البركة .

و قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ : المختار أن يصلّى على الأنبياء و الملائكة و أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و آله و ذرّيّته

و أهل الطاعة على سبيل الإجمال . و تكره في غير الأنبياء لشخص مفرد . بحيث يصير شعارًا . ولاسيما إذا ترك في حق مثله أو أفضل منه كما يفعله الرافضة . فلو اتفق وقوع ذلك مفردًا في بعض الأحايين من غير أن يتخذ شعارًا لم يكن به بأس . و لهذا لم يرد في حق غير من أمر النبي ﷺ بقول ذلك لهم . و هم من أدى زكاته إلّا نادرًا .كما في قصة زوجة جابر و آل سعد بن عبادة رضي الله عنهما .

و اختلف في السلام على غير الأنبياء بعد الاتفاق على مشروعيته في تحية الحي . فقيل : يشرع مطلقًا . و قيل : بل تبعًا . ولا يفرد لواحد ، لكونه صار شعارًا للرافضة . و نقله النووي عن الشيخ أبي محمد الجويني .كذا في الفتح ج١٣ ص٤٢٤ .

فصل
في بيان سبب مضاعفة أجر الصلاة إلى عشر فما فوقها

قال في شرح الإحياء من مقالة طويلة للإمام الغزالي : و إنّما تضاعفت الصلاة عليه ﷺ لأنّ الصلاة ليست حسنة واحدة بل حسنات . إذ فيها تجدّد الإيمان بالله أوّلًا ، ثم بالرسول ثانيًا ، ثم بتعظيمه ثالثًا ، ثم بالعناية بطلب الكرامة له رابعًا ، ثم تجديد الإيمان باليوم الآخر و أنواع كرامات خامسًا ، ثم بذكر آله سادسًا ، و عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة ، ثم بتعظيم آله بنسبتهم إليه سابعًا ، ثم بإظهار المودّة لهم ثامنًا ، ولم يسأل ﷺ من أمّته إلّا المودّة في القربى ، ثم الابتهال و التضرع في الدعاء تاسعًا ، و الدعاء مخ العبادة ، ثم بالاعتراف عاشرًا بأنّ الأمر كلّه لله . و أنّ النبي ﷺ و إن جلّ قدره فهو محتاج إلى رحمة الله عزّ وجلّ .

فهذه عشر حسنات . سوى ما ورد الشرع به من أنّ الحسنة الواحدة بعشر أمثالها و أنّ السيئة بمثلها فقط . انتهى .

و قال في الدر النضيد : من تفضل الله تعالى على نبيه ﷺ أن حباه بأنّه كما قرن ذكره بذكره في الشهادتين و في جعل طاعته طاعته و محبته محبته كذلك قرن ثواب الصلاة بذكره تعالى . فكما أنّه قال : ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ . و قال : إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي . واذا ذكرني في ملإ ذكرته في

ملإ خير منه . كما ثبت في الصحيح ، كذلك فعل سبحانه وتعالى في حق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بأن قابل صلاة العبد عليه بأن يصلّي عليه سبحانه عشرًا . و كذلك إذا سلّم سلّم عليه عشرًا .

وبهذا علم الجواب عما يقال : كلّ حسنة بعشر أمثالها ، بالنص فما مزيّة الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم .

و إيضاحه : أنّ لها مزية . و هي أن يحبره بعشر درجات من الجنة . و هي بصلاة الله عشرًا . و ذكر الله تعالى للعبد مرّة أعظم من حسنة مضاعفة على أنّه تعالى لم يقتصر على ذلك . بل ضمّ إليه رفع عشر درجات و حط عشر سيئات و كتابة عشر حسنات و كونها له كعتق عشر رقاب .

فتأمل شرف هذه العبادة و عظم تميزها على غيرها بأضعاف مضاعفة . لعلّ ذلك يحملك على الإكثار منها لتفوز بخيري الدنيا و الآخرة . انتهى .

الباب الرابع بعد المائة
في الجواب الثالث والعشرين ومائة

المراد من الصلاة الرحمة و التعظيم . كما صرحوا به . والله تعالى كرّم إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأن جعل من أتباعه و خدّام شرعه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . و نبينا صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء ، لا نبي بعده يقرر شريعته و يخدمها .

فنبينا صلى الله عليه وسلم سأل الله أن لا يحرمه من هذه المنقبة ، و أن يكرمه كما كرّم إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأن يجعل في أمّته مع بقاء شأن ختم النبوة بعض الأنبياء بحيث يخدم شريعته تابعًا له .

و قد تقبّل الله دعاءه بأن أبقى عيسى عليه الصلاة والسلام حيًّا في السماء بفضله و منّه . وكان تعالى عالمًا بهذا الدعاء منذ الأزل . فينزل عيسى عليه الصلاة والسلام عند قرب القيامة ، و يخدم القرآن و شريعة نبينا صلى الله عليه وسلم تابعًا له ، و يقتل الدجّال و الخنزير ، ولا يقبل إلّا الإسلام . ثم يموت و يدفن معه عليه الصلاة والسلام في قبّته في المدينة الشريفة . فتبًّا لمن يدّعي النبوة بعد نبينا صلى الله عليه وسلم سوى عيسى عليه الصلاة والسلام .

ثم في كون عيسى عليه الصلاة والسلام خادمًا تابعًا للقرآن إيماء إلى أنّ جميع أنبياء بني إسرائيل من أتباع القرآن و خدّامه ، لأنّ العبرة بالخواتيم ، و عيسى عليه الصلاة والسلام خاتم أنبياء بني إسرائيل .

ثم اعلم : أنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام له فضل باعتبار كثرة أتباعه من الأنبياء على نبينا صلى الله عليه وسلم ، إذ له تابع واحد و هو عيسى عليه الصلاة والسلام ، لكنّه منقبة جزئيّة و فضيلة غير كلّيّة . وإنّما الفضل الكلّي لنبينا عليه الصلاة والسلام لكونه خاتم الأنبياء و غير ذلك من المزايا و الفضائل الكثيرة . هذا . والله أعلم بالصواب .

الباب الخامس بعد المائة
في الجواب الرابع والعشرين ومائة

ههنا تقرير آخر . وهو أن يقال : إنّ المراد من الصلاة ما تقدّم في الباب السابق . ثم نقول : قد تقبّل الله سبحانه هذا الدعاء في عدة مواضع .

منها الشفاعة الكبرى يوم القيامة حيث يظهر العجز كلّ نبي من الشفاعة . فهناك يبدو أنّه الإمام الأكبر و أنّه متبوع ، و سائر الأنبياء أتباعه . و التابع لا يجترئ في أمثال هذه المواضع عند وجود المتبوع الأكمل و السيد الأبجل .

و **منها** الإسراء . فأسري به إلى المسجد الأقصى ، و صلّى بجميع الأنبياء . و هناك بدا أنّه إمام جميع الأنبياء ، و هم أتباع له حتى إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي كان إمامًا للناس ، كما قال الله تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ . ففي الإسراء إشارة إلى ذلك . و الإشارة تكفيها الإشارة وإن تقدّمت . فالمطلوب في دعاء الصلاة دوام هذه المنقبة له عليه الصلاة والسلام .

فائدة شريفة

ههنا نكتة بديعة تزيدك يقينًا على تلك الإشارة المتقدّمة في صلاته عليه الصلاة والسلام بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليلة الإسراء . و هي أنّه عليه الصلاة والسلام صلّى بهم في مسكنهم أرض الشام و في مسجدهم الأقصى . وهم كانوا أئمة هذا المسجد ، وكان هو قبلتهم . فهم كانوا أحق بالإمامة في مسجدهم ، لما روى أبو مسعود الأنصاري رضي الله عنه مرفوعًا : ولا يؤم الرجل في سلطانه ولا يجلس على تكرمته في بيته إلّا بإذنه . أخرجه الترمذي .

فلما صلّى بهم و قدّمه جبريل عليه السلام ثبت أنّه عليه الصلاة والسلام نبيّهم ، و أنّهم من أتباعه عليه و عليهم الصّلاة و السلام و من خدّام شرعه في الحقيقة ، لأنّ النبي هو الأحق بالتقدّم و الإمامة و إن كان في سلطان التابع و في مسجد الخادم . و علم منه أنّ حديث أبي مسعود رضي الله عنه إنّما هو للأتباع فيما بينهم . و أمّا النبي فحكمه غير ذلك .

و لعل لنحو هذا السرّ أسرى الله تعالى به إلى المسجد الأقصى . إذ لو جمع الله الأنبياء في حرم مكة و مسجدها و صلّى بهم لم يبد هذا السرّ . هذا . والله أعلم .

الباب السادس بعد المائة
في الجواب الخامس والعشرين ومائة

المراد من " آل محمد " المعنى الخاصّ أي ذريته و أبناؤه الذين بهم استمرّ نسله ﷺ و تسلسل نسبه . كما في قوله تعالى : فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَ نِسَآءَنَا وَ نِسَآءَكُمْ . و كذا المراد من آل إبراهيم ذريته و أولاده عليهم الصلاة والسلام الذين هم أجداد النبي ﷺ .

و حاصل المعنى : اللّهم كما جنبت إبراهيم و آل إبراهيم أي أجداد نبينا ﷺ من الشرك و عبادة الأصنام و طهّرتهم بطهارة التوحيد ، كما في القرآن : وَ ٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ . كذلك جنّب محمدًا و ذريته من ذلك و طهّر قلوبهم بالتوحيد و البركات .

فالمسؤول من الله في دعاء هذه الصلاة استنزال الصلاة و البركة على فروعه ﷺ و أبنائه مثل ما نزل على أصوله و أجداده ﷺ . وقد تقبّل الله هذا الدعاء ، كما قال تعالى : إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا .

و مآل التشبيه تشبيه فروعه بأصوله ﷺ . و نحن نسلّم أنّ المشبّه به أفضل ، لكن لا وصمة فيه ، إذ كلّ ذلك يرجع إلى فضل نبيّنا و علوّ شأنه عليه الصلوات و التسليمات . ألا ترى أنّ فخامة شأن الأصول تفخم شأن الفروع ، و كرامة مقام الفروع تبجل مقام الأصول .

فلا الفضلُ في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمدُ في ذا و ذاك

فالفضل يرجع إلى المنسوب إليه . و المجد يؤول إلى المضاف إليه . و هو هنا محمد ﷺ .

فالتشبيه دلّ على أنّه ﷺ مع ما آتاه الله من جمال شمائله وكمال فضائله من أهل بيت أسست بالحلم مبانيه ، وكللت بالعلم مغانيه ، و رفعت بالتوحيد شرفاته ، و نقشت بالحمد غرفاته . وما أحسن ما قيل :

لقد كنت دهرًا قبل أن يكشف الغطا　　أخالك أنّي ذاكر لك شاكرُ
فلما أضاء الليل أصبحت شاهدًا　　بأنّك مذكورٌ و ذكرٌ و ذاكرُ

ثم اعلم : أنّ هنا ثلاثة تقريرات . و هذا أحد الثلاثة . و وضعنا لكلّ واحد من التقريرَين الباقيَين بابًا بعد هذا الباب . فراجعهما . هذا . والله أعلم .

الباب السابع بعد المائة
في الجواب السادس والعشرين ومائة

التقرير الثاني : اعلم : أنّ تقرير هذاالجواب مثل تقرير الجواب السابق في أخذ المعنى الخاص و المصداق المخصوص من آل محمد و آل إبراهيم ، أي الذرّيّة و الأبناء . إلاّ أنّ نبينا ﷺ باعتبار هذا الجواب داخل في ضمن المشبّه به ، أي آل إبراهيم كما أنّه داخل في المشبّه .

فالطرف الأوّل محمد ﷺ و ذريته ، و الطرف الثاني إبراهيم عليه الصلاة والسلام و ذريته الذين منهم نبينا ﷺ .

ثم المشبّه به على هذا الجواب أيضًا أفضل من المشبّه ظاهرًا ، لكن لا يقدح ذلك في شأن المشبّه لدخوله في المشبّه به دخول الجزئيّ تحت الكلّيّ و الفرد تحت الجنس . فله حظّ من فضل الطرف الأوّل و حظّ من أفضليّة الطرف الثاني . و إنّما يقدح لو كان التشبيه مستلزمًا لأفضليّة إبراهيم و آله على محمد و آله ، و إذ لا فلا . بل استلزم أفضليّة جماعة فيهم إبراهيم و آله و محمد على جماعة فيهم محمد و ذريته عليهما الصلاة والسلام .

فنبيّنا ﷺ ملحوظ في الطرفين و مرعيّ في الجانبين ، مندمج في المشبّه به كما أنّه مندرج في المشبّه . و هو الفاضل و الأفضل و الكامل و الأكمل .

وَ مِنْ عَجَبٍ أنّي أحِنُّ إليهم — و أسألُ شوقًا عنهم و هم معي
و تبكيهم عيني وهم في سَوادِها — و تشتاقهم نفسي وهم بين أضلُعي

الباب الثامن بعد المائة
في الجواب السابع والعشرين ومائة

التقرير الثالث : هذا متفرّع على التقرير الثاني . فأقول : لما ثبت في التقرير الثاني أنّ ذات نبينا ﷺ مرعيّة في طرفي التشبيه استدعى ذلك أن تكون أفضل من نفسها . ولا يخفى على المتفطن المستيقظ أنّه لا معنى لكون رجل أفضل من نفسه منفردًا كان أو مع غيره ، لاقتضاء التشبيه التغاير و التعدد ، و هو منتف ههنا .

فعلم أنّ ذكر نبينا ﷺ ليس للتشبيه ، بل لغرض آخر . و هيهات أن تحتاج حضرته المنيفة وجناب ذاته الشريفة عند الصلاة عليها و الدعاء لها إلى تشبيهها بأحد ، لكونه ﷺ أفضل المخلوقات وأكرم الكائنات .

فهو ﷺ مع كونه في الظاهر مرعيًّا في الطرفين و متبرّكًا باسمه في الجانبين و ملحوظًا تحققه في الحاشيتين خارج حقيقةً و مآلاً عن ساحة التشبيه من حيث أنّه تشبيه حذرًا عن المحذور المذكور و اجتنابًا عن المحظور المسطور .

فمآل هذا التشبيه إنّما هو تحقّق أفضليّة جماعة المشبّه به سوى نبينا ﷺ و هم إبراهيم عليه الصلاة والسلام و سائر ذريته على جماعة المشبّه غير النبي ﷺ و هم آل محمد و ذريته من نسله ﷺ .

فثبت منه أنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام و ذريته أفضل من ذرّيّة محمد ﷺ . و من ذا الذي يرتاب في كون إبراهيم عليه الصلاة والسلام أفضل من آل نبينا ﷺ .

إن قلت : هذا البيان ينافي المقصود ، إذ المطلوب حقيقة الصلاة على محمد ﷺ ، وقد قلت إنّه خارج عن ذلك .

قلت : ههنا اعتباران : الأوّل نفس الصلاة . و الثاني تشبيه الصلاة . فنفس الصلاة ثابتة له عليه الصلاة والسلام إصالةً و استقلالاً ، بل هو المقصود الأقصى و المطلوب الأعلى . و خروجه إنّما هو من الاعتبار الثاني . هذا . والله أعلم بالصواب .

الباب التاسع بعد المائة
في الجواب الثامن والعشرين ومائة

المراد من " آل محمد " أمّته و أتباعه إلى يوم القيامة ، كما حكاه ابن عبد البر عن بعض أهل العلم . و رواه البيهقي عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ و عن سفيان وغيره . أو ذلك مع قرابته ، و دخل فيهم الأصول و الفروع . و كذا المراد من " آل إبراهيم " أتباعه .

فدخل في " آل محمد " إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لكونه من أصوله و أجداده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ و من أتباعه أيضًا . و كذا دخل في " آل محمد " آل إبراهيم و أتباعه عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من الأنبياء و عامة المؤمنين الذين خلوا من قبل . لأنّ نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبي الأنبياء . و نبوّة كلّ نبي مأخوذة من نبوّة نبينا و مستفادة منها .

فكلّ نبي خلا من إبراهيم عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وغيره داخل في الحقيقة في أمّة محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . و كذا أمّة كلّ نبي من جملة أمّة نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كما صرح به السبكي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى وغيره ، كما قال الله تعالى : وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ .

و في الخصائص للسيوطي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال :لم يبعث نبيّ قط من لدن نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلاّ أخذ الله ميثاقه ليؤمنن بمحمد و لينصرنه إن خرج وهو حي ، و إلاّ أخذ على قومه أن يؤمنوا به و ينصروه إن خرج وهم أحياء . و كذا دخل في آل إبراهيم محمد صلى الله عليهما وسلم لكونه من أولاده و أتباعه . كما أمره الله تعالى في القرآن باتباع ملّة إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

فاشتبك المشبّه و المشبّه به و تداخلا و توافقا . ولم يبق بينهما فرق في الحقيقة و المعنى و المآل

و المغزى إلّا في اللفظ و الظاهر و إلّا في أن إحدى الصلاتين فيما لايزال ، أي قولنا " صلّ على محمد " و الأخرى فيما سلف و مضى ، أي قولنا "كما صلّيت " . و يكفي هذا القدر من التغاير لصحّة التشبيه و فائدته . و ما أحسن ما قيل :

يومًا يمانٍ إذا لاقيتُ ذا يَمَنٍ　　وإنْ لَقِيتُ مَعَدِّيًّا فعَدْنَانِيُّ

و قال آخر :

فَعَيْنُ الوَصْلِ عَيْنُ الْهَجْر فيه　　و ما يَدْريه إلّا مَنْ رَآهُ

و قال آخر :

مت في عشقي و معشوقي أنا　　ففؤادي من فراقي في عنا
غبت عني فتى أجمعني　　أنا من وجدي مني في فنا
أيها السامع تدري ما الذي　　قلته والله لا أدري أنا

ثم اعلم : أنّه ثبت فضل نبينا ﷺ من هذه الصلاة لوجوه : الأوّل تقدّمه وضعًا . و الثاني كونه ﷺ مقصودًا بالذات في هذا الدعاء . و الثالث كون الصلاة عليه بصيغة المستقبل الدالّة على تحقّقها له في المستقبل مستمرًّا ، بخلاف الصلاة على إبراهيم عليه الصلاة والسلام حيث ذكرت بصيغة الخبر الماضي . و الرابع كون إبراهيم عليه الصلاة والسلام داخلًا في آل نبيّنا باعتبارين : الأوّل اعتبار القرابة . و الثاني كون نبوّته مأخوذة من نبوّة نبينا ﷺ . و أمّا نبينا ﷺ فلم يدخل حقيقة في آل إبراهيم إلّا باعتبار القرابة و ظاهر النشأة . هذا . والله أعلم بالصواب و إليه المرجع و المآب .

الباب العاشر بعد المائة
مشتمل على خمسة أجوبة

اعلم : أنّه قد اتفقت مناظرة بين علماء الإسلام و النصارى و الهندكيين في قرية شاه جهان پور في الهند . وكان مناظر أهل الإسلام و رئيس المناظرة لهم العلامة المتكلّم المحقّق العارف الكبير مولانا محمد قاسم النانوتوي رحمه الله تعالى مؤسس دار العلوم الإسلامية ببلدة ديوبند في الهند . وكانت هذه المناظرة في سنة ١٢٩٥ﻫ . و قامت إلى أيام عديدة . وقد ذكرت بعض أحوال هذه المناظرة في مبدإ هذا الكتاب و في الفصل الثاني من الباب الثاني منه .

فحكي أنّه اعترض في أثناء ذلك بعض النصارى ، وكان اسمه محي الدين ، على مناظر المسلمين أربعة نقوض . النقض الرابع منها ما قال : دعواكم أنّ محمدًا أفضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام باطلة . لأنّكم تقرؤون في كلّ صلاة : اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد . فإبراهيم عليه الصلاة والسلام مشبّه به وكذا صلاته ، و محمد صلى الله عليه وسلم مشبّه وكذا صلاته . و المشبّه به يكون أجلّ و أقوى من المشبّه .

فأنتم معاشر المسلمين تقرّون من حيث لا تشعرون بأنّ إبراهيم أفضل الأنبياء و أجلّ من محمد صلى الله عليه وسلم . فانبرى مولانا محمد قاسم رحمه الله تعالى مجيبًا عن تلك النقوض الأربعة ، لكن انقضى الوقت المقرر قبل أن يفصّل جواب سؤال التشبيه . وكان الوقت المتفق للجواب عشر دقائق . فصاح الخصم و قال : الوقت مضى . فجلس مجلسه مولانا المذكور و اعتذر و قال : لولا ضيق الوقت لأجبت عن نقض التشبيه .

ثم بعد ما أتى مقامه و جلس مجلسه سأل سائل من الرفقاء عن سماحة مولانا محمد قاسم رحمه الله تعالى

و قال : قد بقي جواب قدح اليسوعيّ محي الدين على أفضليّة نبينا ﷺ متمسكًا بتشبيه الصلاة . و قال له ذلك السائل : ماكان جوابك و ردّ قدحه و الخلاص عن اعتراضه حينئذ لولا ضيق الوقت ؟

فقال الشيخ محمد قاسم رحمه الله تعالى : لا يرد اعتراض النصراني ، لأنّ التشبيه نوعان : حقيقي و مجازي . و لزوم كون المشبّه به أفضل إنّما هو في المجازي دون الحقيقي . و الواجب في التشبيه الحقيقي تساوي الطرفين المشبّه و المشبّه به في وجه الشبه ، و عدم تفاوتهما في هذا الوجه ، و إلّا صار التشبيه غلطًا ، و أصبح الكلام خطأً و لغطًا . ولا يخفى أنّ التشبيه في الصلاة حقيقيّ لا مجازي . فاندفع ما قال : إنّ هذا التشبيه يستلزم أفضليّة إبراهيم على محمد صلى الله عليهما وسلم .

نعم ، يرد أنّه على هذا لزم تساوي مقامَي نبينا و إبراهيم عليهما الصلاة والسلام . ولم يثبت ما نعتقده من كونه عليه الصلاة والسلام أفضل من إبراهيم .

و جوابه : أنّ الطرفين في حكم المسكوت عنهما . فلم يلزم تساويهما كما لم يلزم فضل أحدهما على الآخر ، لأنّ الواجب في تشبيه النسبتين تساوي النسبتين فقط . و أمّا تساوي المنسوب و المنسوب إليه فلا يجب ، كما يقال مثلاً : إنّ نسبة الواحد إلى الاثنين مثل نسبة الألف إلى الألفين . فلابدّ ههنا من تساوي النسبتين . أي كما أنّ الألف نصف الألفين كذلك الواحد نصف الاثنين . و أمّا تساوي المنسوب إليه في النسبة الأولى وهو الاثنان و المنسوب إليه في النسبة الثانية وهو الألفان فلا يجب . وكذا لا يجب تساوي المنسوبين أي الواحد و الألف في كلّ واحد منهما . وكيف يمكن مساواة الواحد مع الألف و الاثنين مع الألفين .

و على هذا القياس يقال : كما الروح كذا الملك . يعني إن كان خيرًا فخير ، أي يأتيه عند الموت ملائكة الخير و الرحمة ، وإن شرًّا يأتيه ملائكة العذاب .

و يقال أيضًا : كما الروح كذا البدن . (جيسى روح ويسا بدن) . و المراد : إن كان الروح إنسيًّا كان البدن و الشكل إنسانيَّين ، و إن كان الروح روح خنزير كان الجسم و الشكل خنزيريَّين . ولا يخفى على أحد انتفاء تساوي الأطراف ههنا .

أين تقع أرواح بني آدم لاسيما الأرواح العاصية من الملائكة الذين لا يعصون الله و هم بأمره

يأتمرون . و أنّى الأجسام الكثيفة الناسوتية الماديّة من الأرواح اللطيفة اللاهوتية النورية .

فلا يلزم أن تتساوى أرواح بني آدم و الملائكة في المثال الأوّل ، ولا أن تتماثل الأرواح و الأجسام في المثال الثاني . فمع صحة التشبيه في هذه المواضع بالاتفاق لا يقدح فيه عدم تحقّق مساواة الجانبين . إذ اللازم تساوي النسبتين وهو متحقّق .

و هكذا يقال : كما الشمس كذا الضوء . وكما القمر كذا النور . وكما الحبّة كذا الشجرة و الأوراق . وكما الشجرة كذا الثمرة . فقس على ذلك الصلاة و التشبيه فيها .

و تفصيل هذا الإجمال : كما أنّ للفقر والتصوف طرقًا متعددةً كذلك للنبوة سلاسل عديدةً . فإبراهيم و إسماعيل و محمد صلى الله عليهم وسلّم من سلسلة واحدة ، ابتدأت من إبراهيم و انتهت إلى محمد عليهما الصلاة والسلام ، و يعقوب و أولاده كموسى وغيره عليهم الصلاة والسلام من سلسلة أخرى ، بدأت من يعقوب عليه الصلاة والسلام بل من إسحاق عليه الصلاة والسلام و امتدت امتدادًا .

فاحسب إبراهيم عليه الصلاة والسلام في السلسلة الأولى مثل الحبّة ، و محمدًا صلى الله عليه وسلم مثل الشجرة التامة المثمرة المزهرة المورقة ذات الأفنان و الأثمار . و على هذا القياس اجعل يعقوب عليه الصلاة والسلام ، بل إسحاق عليه الصلاة والسلام بمنزلة البذر و موسى عليه الصلاة والسلام بمنزلة الشجرة الكاملة .

ثم بعد هذا تدبّر في أنّه مع صحّة التشبيه في مثل هذه المواقع أنّى يلزم تساوي الطرفين . و كيف تخرج أفضليّة محمد صلى الله عليه وسلم و تنفلت من اليد .

و الجواب الثاني : نفرض أنّ زيدًا كان عنده مثقال من أفضل الذهب و أحسنه ، و أراد اشتراء ألف منّ من هذا النوع من الذهب . فإنّه يرى البائع هذا المثقال و يقول له : أنا أشتري ألف منّ من الذهب مثل هذا المثقال . فهو في الكلام مصيب و التشبيه صحيح ، حيث جعل المثقال نموذجًا (مشتے نمونۂ خروار باشد) .

و ليس معناه : أنّ المثقال ساوى ألف منّ ، و أنّه يحصل لمالك المثقال العزّة و الغنى اللذان يحصلان لصاحب ألف منّ . كلاّ ، هيهات هيهات ما يتوقع .

بل مراده أن يكون الذهب من قبيل هذا القسم . و المبيع من باب هذا النوع . فالغرض التشبيه في النوع . فيجب التساوي النوعيّ . و التساوي النوعيّ لا يستدعي التساوي في المراتب الشخصية . حتى ينتفي كينونة صاحب الألف أفضل و أثرى ، و ينكر كون مالك المثقال أحوج و أدنى .

إذا دريت هذا فقس عليه التشبيه في الصلاة . فاجعل الصلاة الإبراهيميّة أنموذجًا قاصدًا بها التشبيه في النوع .

ثم كما أنّ صاحب ألف منّ من الذهب أفضل و أثرى من صاحب المثقال ، كذلك محمد ﷺ أفضل من إبراهيم عليه الصلاة والسلام و أعلى .

ثم قال بعد هذين الجوابين : و يتصور التشبيه في النسبة بطريق آخر ، و هو أن يقال : إنّ المقصود الدعاء للنبي ﷺ بأنّه عليه الصلاة والسلام لعبوديته الكاملة و طاعته التامّة و مكارم أخلاقه الفاضلة مستحق مثل إبراهيم عليه الصلاة والسلام للسعادة الأبدية ، و حقيق نحو الخليل عليه الصلاة والسلام بالدرجات السرمدية و العناية الصمدية على ما هو مقتضى كرمه تعالى .

و حاصل التشبيه في قولنا "كما صلّيت " : إنّك يا ربّنا كما أدّيت بمقتضى كرمك و جودك حقوق عبوديّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام كذلك أدِّ ربّنا بمقتضى جودك و فضلك حقوق عبوديّة محمد و طاعته ﷺ .

فالمطلوب التشبيه في نسبة وجوب أداء الحقوق (المراد من الوجوب الوجوب بوعده تعالى ، و الكريم إذا وعد وفى وفاء الواجب ، و إلاّ فالله تعالى منزه عن أن يجب عليه شيء يكون خلافه جرمًا) لا التشبيه في مقدار الحقوق نفسها حتى يلزم تساوي المراتب الإبراهيميّة و المقامات المحمديّة و يخرج أجلية محمد ﷺ من اليد .

تقول : كما أنّ فلسًا واحدًا لشخص واجب الأداء كذلك مائة درهم له واجب الأداء . ولا يخفى أنّه لا يعلم من هذا الكلام إلاّ المساواة في وجوب الأداء ، لا المساواة في الحقوق و مقدارها .

و يدري كلّ ذي فهم أنّ بين مقداري الحقوق في هذا المثال تفاوتًا كما بين الأرض و السماء ، و بونًا بعيدًا كما بين الثريا و الثرى . هذا . انتهت ترجمة كلامه الأردوي بلفظه بأدنى تصرّف .

ثم اعلم : أنّ ما ذكره من الكلام بعد الجوابين و إن كان بظاهره جوابًا واحدًا أي ثالثًا لكن إن

حققت النظر و تدبرت فيه حق التدبر عرفت أنّه محتو على ثلاثة أجوبة :

الأوّل : التشبيه في المستحقيّة . و المعنى : أنّه عليه الصلاة والسلام مستحقّ لعناية الله مثل إبراهيم عليه الصلاة والسلام . و المستحقية صفة محمد و إبراهيم عليهما الصلاة والسلام .

و الثاني : التشبيه في أداء الحقوق . أي أدِّ حقوق طاعته و عبوديته كما أدّيت حقوق طاعة إبراهيم و عبوديته عليهما الصلوات و التسليمات . و الأداء صفة الله تعالى .

و الثالث : التشبيه في وجوب الأداء . كما يفهم من المثال الذي ذكره حيث قال : كما أنّ فلسًا واحدًا لشخص واجب الأداء كذلك مائة درهم له واجب الأداء .

و وجوب الأداء صفة الله تعالى كما أنّ الأداء صفة الله ، و بون بعيد بين الوجوب كما هو الملحوظ في هذا الجواب ، و الأداء كما هو المنظور فيما قبله ، و قد صرّح الفقهاء و علماء الأصول بذلك .

فالمتبرع بأداء دين رجل يوصف بالأداء ولا وجوب عليه . و الذي ترك الصلاة في وقتها يوصف بوجوب الصلاة عليه دون أدائها . و مثله المديون إذا لم يؤدّ الدين الواجب في وقت أدائه . هذا ما أقول . و لك أن تجعل ذلك جوابًا واحدًا لا ثلاثة . و كلٌّ يعمل على شاكلته . و لكلّ وجهة هو موليها . و في الأمثال التي سار ساريها " أعط القوس باريها " .

فارتقت الأجوبة بضمّ هذه الثلاثة مع الجوابين المتقدّمين إلى خمسة .

و من باب التشبيه في المستحقية ما رواه ثابت بن الضحاك رضي الله عنه مرفوعًا كما في صحيح مسلم : من حلف على يمين بملّة غير الإسلام كاذبًا فهو كما قال . الحديث . قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في الفتح : و يحتمل أن يكون المراد بقوله " فهو كما قال " التهديد و المبالغة في الوعيد ، لا الحكم . و كأنّه قال : فهو مستحق مثل عذاب من اعتقد ما قال . و نظيره : من ترك الصلاة فقد كفر . أي استوجب عقوبة من كفر . انتهى .كذا في فتح الملهم ج١ ص٢٦٦ .

قال شيخ شيوخنا مولانا العلامة شبير أحمد العثماني رحمه الله تعالى في فتح الملهم ناقلاً حلّ هذا الإشكال عن قاسم العلوم و الخيرات مولانا محمد قاسم رحمه الله تعالى : إذا كان شيء تحته أنواع أو أصناف و ابتغي منها

بعضها فنأخذ فردًا من أفراد ذلك البعض حقيرًا أو جليلاً و نقول : نبغي مثل هذا .

مثلاً إذا شئنا أن نشتري نوعًا خاصًّا من الثياب فنعرض أنموذجًا . وهي ربما تكون خرقة قصيرة و نقول : هات طاقة كهذا الثوب . فليس المراد تشبيه طاقة من الثياب بتلك الخرقة في القدر و القيمة ، بل المقصود تعيين نوع من أنواع الثياب بأخصر طريق و أوضحه . فإنّ العبارات مع طولها لعلّها لا تكاد تضبط جميع أوصاف الثوب المطلوب .

فهكذا ينبغي أن يفهم أنّ للصلاة و البركة مفهومًا شاملاً لأنواع من الثناء و الرحمة و أقسام من الحنو و البركة . قال الله تعالى في حق كافّة الصابرين : أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ . و خاطب المؤمنين بقوله : هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ . الآية . و قال في نبيه ﷺ : إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . الآية . و قال في قصة نوح عليه الصلاة والسلام : ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ . و قال في إبراهيم عليه الصلاة والسلام : وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ . (عليه الصلاة والسلام) . و قال في عيسى عليه الصلاة والسلام حكايةً عنه : وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ . و قال لامرأة إبراهيم عليه الصلاة والسلام على لسان الملائكة : رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ .

و المطلوب هنا نوع من الصلاة و البركة خاصّ أفيض من الله سبحانه وتعالى على إبراهيم الخليل و آله ﷺ . فالتشبيه بطريق ذكر الأنموذج للصلاة و البركة اللتين نلتمسهما في حق محمد ﷺ . و هذا لا يدلّ على أفضليّة المشبّه به في الكمّ و الكيف من المشبّه . انتهى . هذا . والله أعلم بالصواب و إليه المرجع و المآب .

الباب الحادي عشر بعد المائة
في الجواب الرابع والثلاثين ومائة

ذكر العارف الكبير الصوفي الشيخ الأكبر محي الدين رحمه الله في فتوحاته ، ما خلاصته : أنّ قولنا " اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم " إنّما هو دعاء لأمّة محمد ﷺ بأن يرفع الله درجاتهم و يهب لهم المقامات الرفيعة في الدنيا و الآخرة . فتقبّل الله تعالى دعاءه ﷺ بوجوه :

منها : ما قال عليه الصلاة والسلام فيمن حفظ القرآن : إنّ النبوة أدرجت بين جنبيه .

ومنها : قوله عليه الصلاة والسلام في المبشرات من الرؤيا : إنّها جزء من النبوّة . فوصف بعض أمّته بأنّه قد حصل له هذا المقام وإن لم يكن شرع يخالف شرعه عليه الصلاة والسلام ولم يسمّ باسم النبي و الرسول ، لأنّ باب إطلاق هذا الاسم قد أنسدّ بعده ﷺ .

ومنها : نزول عيسى عليه الصلاة والسلام حكمًا مقسطًا عدلاً من غير تشريع ، و هو نبي و رسول بلاشك . و ليس له مرتبة التشريع عند نزوله لكونه تابعًا لشرع نبينا ﷺ .

ومنها : جعل آله أي أمّته شهداء على أمم الأنبياء كما جعل الأنبياء شهداء على أممهم .

ومنها : أنّه تعالى شرع لعلماء هذه الأمّة الاجتهاد ، و قرر حكم اجتهادهم و تعبدهم به و تعبد مقلديهم به كما كان حكم الشرائع للأنبياء عليهم الصلاة والسلام و مقلديهم . ولم يكن مثل هذا الاجتهاد لأمّة نبي قبلنا . قال الله لنبيه : لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ . فالمجتهد ما حكم إلاّ بما أراه الله في اجتهاده . فهذه نفحات من نفحات التشريع ، ما هي عين التشريع .

ومنها : جعل المحدثين في هذه الأمّة قال عليه الصلاة والسلام : لو كان بعدي نبيّ لكان عمر . رضي الله عنه . و في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال : قد كان في الأمم قبلكم محدثون . فإن يكن في أمتي فيهم أحد فعمر . أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . و " المحدث " الملهم المخاطب في سرّه . و ما قال عمر لشيء " إنّي لأظنه كذا و كذا " إلّا كان كما ظنّ .

و هذه عبارته الطويلة . قال في فتوحاته بعد بيان اختلاف حال الصلاة باختلاف المصلّي و المصلّى له :

و أمّا اختلافها أي الصلاة باختلاف المصلّى عليه فمثل صلاة الحق على عباده . قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا . فسأل المؤمنون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كيفية الصلاة التي أمرهم الله أن يصلوها عليه . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : قولوا : اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم . أي مثل صلاتك على إبراهيم و على آل إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

فهذا يدلك على اختلاف الصلاة الإلهية لاختلاف أحوال المصلّى عليهم و مقاماتهم عند الله . و يظهر من هذا الحديث فضل إبراهيم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ طلب أن يصلّى عليه مثل الصلاة على إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

فاعلم : أنّ الله أمرنا بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يأمرنا بالصلاة على آله في القرآن . و جاء الإعلام في تعليم رسول الله صلى الله عليه وسلم إيّانا الصلاة عليه بزيادة الصلاة على الآل . فما طلب صلى الله عليه وسلم الصلاة من الله عليه مثل صلاته على إبراهيم من حيث أعيانهما . فإنّ العناية الإلهية برسول الله صلى الله عليه وسلم أتمّ . إذ قد خصّ بأمور لم يخصّ بها نبي قبله لا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ولا غيره . و ذلك من صلاته تعالى عليه . فكيف يطلب الصلاة من الله عليه مثل صلاته على إبراهيم عليه الصلاة والسلام من حيث عينه .

و إنّما المراد من ذلك ما أبيّنه إن شاء الله . و ذلك أنّ الصلاة على الشخص قد تصلّى عليه من حيث عينه و من حيث ما يضاف إليه غيره . فكان الصلاة من حيث ما يضاف إليه غيره هي الصلاة من حيث المجموع ، إذ للمجموع حكم ليس للواحد إذا انفرد .

و اعلم : أنّ آل الرجل في لغة العرب هم خاصّته الأقربون إليه . و خاصّة الأنبياء و آلهم هم الصالحون العلماء بالله المؤمنون . و قد علمنا أنّ إبراهيم كان من آله أنبياء و رسل الله . و مرتبة النبوّة و الرسالة قد ارتفعت في الشاهد في الدنيا . فلا يكون بعد رسول الله ﷺ في أمّته نبي يشرع الله له خلاف شرع محمد ﷺ ولا رسول . و ما منع المرتبة ولا حجرها من حيث لا تشريع ولاسيما وقد قال ﷺ فيمن حفظ القرآن : إنّ النبوّة أدرجت بين جنبيه ، أو كما قال ﷺ .

وقال في المبشّرات : إنّها جزء من أجزاء النبوّة . فوصف بعض أمّته بأنّهم قد حصل لهم المقام و إن لم يكونوا على شرع يخالف شرعه . و قد علمنا بما قال لنا ﷺ : إنّ عيسى عليه الصلاة والسلام ينزل فينا حكمًا مقسطًا عدلًا فيكسر الصليب و يقتل الخنزير . ولا نشك قطعًا أنه رسول الله و نبيّه وهو ينزل . فله عليه الصلاة والسلام مرتبة النبوّة بلا شك عند الله ، و ما له مرتبة التشريع عند نزوله .

فعلمنا بقوله ﷺ " إنّه لا نبي بعدي ولا رسول " و " إنّ النبوّة قد انقطعت و الرسالة " إنّما يريد بهما التشريع . فلما كانت النبوّة أشرف مرتبةً وأكملها ينتهي إليها من اصطفاه الله من عباده علمنا أن التشريع في النبوّة أمر عارض بكون عيسى عليه الصلاة والسلام ينزل فينا حكمًا من غير تشريع . وهو نبيّ بلا شك . فخفيت مرتبة النبوّة في الخلق بانقطاع التشريع .

و معلوم أنّ آل إبراهيم من النبيّين والرسل الذين كانوا بعده مثل إسحاق و يعقوب و يوسف عليهم الصلاة والسلام . ومن انتسل منهم من الأنبياء و الرسل بالشرائع الظاهرة الدالّة على أنّ لهم مرتبة النبوة عند الله أراد رسول الله ﷺ أن يلحق أمّته و هم آله العلماء الصالحون منهم بمرتبة النبوّة عند الله ، وإن لم يشرعوا . ولكن أبقى لهم من شرعه ضربًا من التشريع . فقال : قولوا : اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد . أي صلّ عليه من حيث ما له آل كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم . أي من حيث أنّك أعطيت آل إبراهيم النبوّة تشريفًا لإبراهيم عليه الصلاة والسلام . فظهرت نبوّتهم بالتشريع . وقد قضيت أن لا شرع بعدي فصلّ عليّ و على آلي بأن تجعل لهم مرتبة النبوّة عندك وان لم يشرعوا .

فكان من كمال رسول الله ﷺ أن ألحق آله بالأنبياء في المرتبة و زاد على إبراهيم بأنّ شرعه لاينسخ و بعض شرع إبراهيم و من بعده نسخت الشرائع بعضها بعضًا . و ما علّمنا رسول الله ﷺ الصلاة عليه على

هذه الصورة إلّا بوحي من الله و بما أراه الله و أنّ الدعوة في ذلك مجابة .

فقطعنا أنّ في هذه الأمّة من لحقت درجته درجة الأنبياء في النبوّة عند الله لا في التشريع . ولهذا بيّن رسول الله ﷺ و أكّد بقوله : فلا رسول بعدي ولا نبي . فأكّد بالرسالة من أجل التشريع . فأكرم الله رسوله ﷺ بأن جعل آله شهداء على أمم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما جعل الأنبياء شهداء على أممهم .

ثم إنّه خصّ هذه الأمّة أعني علماءها بأن شرع لهم الاجتهاد في الأحكام ، و قرّر حكم ما أدّاه إليه اجتهادهم و تعبّدهم به و تعبّد من قلّدهم به ، كما كان حكم الشرائع للأنبياء و مقلّديهم . ولم يكن مثل هذا لأمّة نبي ما لم يكن نبي بوحي منزل . فجعل الله فضل علماء هذه الأمّة في اجتهادهم ، كما قال لنبيه ﷺ : لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ . فالمجتهد ما حكم إلّا بما أراه الله في اجتهاده . فهذه نفحات من نفحات التشريع ما هو عين التشريع .

فلآل محمد ﷺ وهم المؤمنون من أمّته العلماء مرتبة النبوة عند الله (و هي النيابة في التبليغ و الاجتهاد و نحو ذلك) تظهر في الآخرة . وما لها حكم في الدنيا إلّا هذا القدر من الاجتهاد المشروع لهم . فلم يجتهدوا في الدين و الأحكام إلّا بأمر مشروع من عند الله .

فإن اتفق أن يكون أحد من أهل البيت بهذه المثابة من العلم و الاجتهاد و لهم هذه المرتبة كالحسن و الحسين و جعفر وغيرهم من أهل البيت فقد جمعوا بين الأهل و الآل . فلا تتخيل أنّ آل محمد ﷺ هم أهل بيته خاصّة ليس هذا عند العرب ، وقد قال تعالى : أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ . يريد خاصته . فإنّ الآل لا يضاف بهذه الصفة إلّا للكبير القدر في الدنيا أو الآخرة .

فلهذا قيل لنا : قولوا : اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم . أي من حيث ما ذكرناه لا من حيث أعيانهما خاصّة دون المجموع . فهي صلاة من حيث المجموع .

و ذكرناه لأنّه تقدّم بالزمان على رسول الله ﷺ . فرسول الله ﷺ قد ثبت أنّه سيّد الناس يوم القيامة . و من كان بهذه المثابة عند الله كيف تحمل الصلاة عليه كالصلاة على إبراهيم عليه الصلاة والسلام من حيث أعيانهما . فلم يبق إلّا ما ذكرناه .

و هذه المسألة هي عن واقعة إلهية من وقائعنا . فلله الحمد والمنّة . روي عن النبي ﷺ أنّه قال :

علماء هذه الأمّة كأنبياء سائر الأمم . و في رواية : أنبياء بني إسرائيل . و إن كان إسناد هذا الحديث ليس بالقائم و لكن أوردناه تأنيسًا للسامعين أنّ علماء هذه الأمّة قد التحقت بالأنبياء في الرتبة .

و أمّا قول النبي ﷺ في قوم يوم القيامة : تنصب لهم منابر يوم القيامة ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، تغبطهم الأنبياء و الشهداء . و يعني بالشهداء هنا الرسل ، فإنّهم شهداء على أممهم . فلا نريد بهؤلاء الجماعة من ذكرناهم و غبطهم إيّاهم فيما هم فيه من الراحة و عدم الحزن و الخوف في ذلك الموطن .

و الأنبياء و الرسل و علماء هذه الأمّة الصالحون الوارثون درجات الأنبياء خائفون وجلون على أممهم . و أولئك لم يكن لهم أمم ولا أتباع . و هم آمنون على أنفسهم مثل الأنبياء على أنفسهم آمنون . و ما لهم أمم ولا أتباع يخافون عليهم . فارتفع الخوف عنهم في ذلك اليوم في حق نفوسهم و في حق غيرهم ، كما قال تعالى : لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ . يعني على نفوسهم وغيرهم من الأنبياء و العلماء . و لكن الأنبياء و العلماء يخافون على أممهم و أتباعهم .

ففي مثل هذا تغبطهم في ذلك الموقف . فإذا دخلوا الجنة و أخذوا منازلهم تبيّنت المراتب و تعيّنت المنازل و ظهر عليون لأولي الألباب .

فهذه مسألة عظيمة الخطر جليلة القدر ، لم نر أحدًا ممن تقدّمنا تعرض لها ولا قال فيها مثل ما وقع لنا في هذه الواقعة إلّا إن كان و ما وصل إلينا . فإنّ لله في عباده أخفياء لا يعرفهم سواه . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . فقد تبيّن لك أنّ صلاة الحقّ على عباده باختلاف أحوالهم . فالله يجعلنا من أجلّهم عنده قدرًا ، ولا يحول بيننا و بين عبوديتنا .

و تلخيص ما ذكرناه هو أن يقول المصلّي : اللّهم صلّ على محمد بأن تجعل آله من أمّته كما صلّيت على إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأن جعلت آله أنبياء و رسلاً في المرتبة عندك ، و على آل محمد كما صلّيت على آل إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بما أعطيتهم من التشريع و الوحي . فأعطاهم الحديث . فمنهم محدثون و شرع لهم الاجتهاد و قرّره حكمًا شرعيًا . فأشبهت الأنبياء في ذلك . فحقّق ما أومأنا إليه في هذه المسألة تر الحق حقًّا . انتهى ما قال الشيخ بلفظه سوى التصرف في عدة كلمات . فتوحات ج١ ص٥٤٤ .

فصل

لمّا كان حاصل جواب الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أنّ المطلوب في هذا التشبيه في الحقيقة الدعاء لأمّته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يمنحهم الله تعالى المقامات العليّة و الكمالات السنيّة ، ناسب أن نزف إلى الخلّان و نهدي الإخوان بعض ما آتاه الله هذه الأمّة من الكرامات الروحانية و الكمالات القدسيّة و النفحات النبويّة و الخصائص المسكية و الأحوال السرمديّة و المعارف الروعيّة . و نفصّل هذا الموضوع بتحرير الأقوال المتفرقة من غير استقصاء . فإنّ الموضوع نعم الموضوع . و هو حسبي .

فمن تلك المعارف اللاهوتيّة و الأفضال العليّة كلام الملك كالهاتف مع الأولياء وإن لم يكن للولي حكم التشريع . و أمّا النبي فله التشريع . و أيضًا نزوله على الولي لكونه تابعًا للنبي . و أمّا على النبي فبالإصالة . و قال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ : لا ينزل الملك على الوليّ ، بل يلهم ، و النبي ينزل عليه .

قال الشيخ الأكبر في الباب الرابع و الستين و ثلاثمائة من فتوحاته ج٣ ص٣١٦ : و أمّا من قال من أصحابنا و ذهب إليه كالإمام أبي حامد الغزالي وغيره بأن الفرق بين الولي و النبي نزول الملك . فإنّ الولي ملهم و النبي ينزل عليه الملك مع كونه في أمور يكون ملهمًا ، فإنّه جامع بين الولاية و النبوة . فهذا غلط عندنا و دليل عدم ذوق القائلين به .

و إنّما الفرقان أنّ الملك قد ينزل على الولي بالاتباع و بإفهام ما جاء به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقد ينزل عليه بتعريف صحة ما جاء به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و سقمه مما قد وضع عليه أو توهّم أنّه صحيح عنه ، أو ترك لضعف الراوي وهو صحيح في نفس الأمر . و قد ينزل عليه الملك بالبشرى من الله بأنّه من أهل السعادة . قال تعالى : لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا . و قال في أهل الاستقامة : إنّ الملائكة تنزل عليهم . قال تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ .

و من الأولياء من يكون له من الله ذوق الإنزال في التنزيل ، فما طرأ ما طرأ على القائلين بخلاف هذا ، إلاّ من اعتقادهم في نفوسهم أنّهم قد عموا بسلوكهم جميع الطرق و المقامات ، و أنّه ما بقي مقام إلاّ

و لهم فيه ذوق . و ما رأوا أنّهم نزل عليهم ملك فاعتقدوا أنّ ذلك مما يختص به النبي ﷺ . فذوقهم صحيح و حكمهم باطل ، و هم قائلون : إنّ من أتى منهم بزيادة قبلت منه . لأنّه عدل صاحب ذوق ما عندهم تجريح ولا طعن ولا يتعدون ذوقهم . فمن هنالك وقع الغلط . ولو وصل إليهم ممن تقدّمهم أو كان معهم في زمانهم من أهل الله القول بنزول الملك على الولي قبلوه . انتهى بأدنى حذف .

وفي الإبريز ص١٥١ في علوم القطب الأمّيّ الربّانيّ عبد العزيز الدبّاغ المصري بعد التصريح بنفي النبوّة عن نوع النساء : و إنّه لم تكن لله نبوة في ذلك النوع أبدًا و إنّما كانت مريم صديقة . قال : و أمّا ما ذكروه في الفرق بين النبي و الولي من نزول الملك و عدمه فليس بصحيح ، لأنّ المفتوح عليه سواء كان وليًّا أو نبيًّا لابدّ أن يشاهد الملائكة بذواتهم على ما هم عليه و يخاطبهم و يخاطبونه .

و كلّ من قال " إنّ الولي لا يشاهد الملك ولا يكلمه " فذاك دليل على أنّه غير مفتوح عليه . و إذا فهمت ذلك علمت أن ما استصوبه الحاتمي (أي الشيخ الأكبر) في الفرق غير ظاهر ، لأنّ حاصله أنّ الولي لا ينزل عليه الملك بالأمر و النهي ، بخلاف النبي . و ليس كذلك ، فإنّ الولي ينزل عليه الملك بالأمر و النهي . ولا يلزم منه أن يكون ذا شريعة ، كما في قصة مريم . فإنّ الملك نزل عليها بالأمر . قال تعالى : وَ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ . يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ . انتهى باختصار و تصرّف .

أقول : ولذلك اختلف العلماء في نبوّة مريم . فقال بعضهم : إنّها نبيّة . و منهم من توقف كالشيخ الأشعري رئيس أهل السنّة و الجماعة كما في الإبريز ص١٥٠ .

ومنها : أنّ الله تعالى منح هذه الأمّة وراثة كلّيّة من وراثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ولم يكن للأمم السالفين إلّا وراثة جزئية .

قال الشيخ الأكبر رحمه الله تعالى بعد ذكر عدة صفات الله من العفو و الصفح و التجاوز و المغفرة : و اعلم : أنّ هذا المنزل هو منزل الميراث المعنويّ . و هو منزل الشريعة . و كون الحياة شرطًا في جميع وجود النسب المنسوبة إلى الله . و هذه النسبة أوجبت له سبحانه أن يكون له اسمه " الحيّ " . فجميع الأسماء الإلهية موقوفة عليه و مشروطة به حتى الاسم " الله " .

فالاسم " الله " هو " المهيمن " على جميع الأسماء التي من جملتها " الحيّ " . و نسبة الاسم " الحيّ " لها المهيمنيّة على جميع النسب الأسمائية حتى نسبة الألوهية التي بها تسمّى الله " الله " . قال ﷺ : العلماء ورثة الأنبياء . و ما ورثوا دينارًا ولا درهمًا ، و إنّما ورثوا العلم . فمن أخذ منه أخذ بحظّ وافر . وقال : نحن معاشر الأنبياء لا نرث ولا نورث ، ما تركنا صدقة .

فلم يبق الميراث إلّا في العلم و الحال و العبارة عما وجدوه من الله في كشفهم و أهل النظر في نظرهم . و هؤلاء هم العلماء الذين يخشون الله لعلمهم بأنّه يعلم حركاتهم و سكناتهم على التعيين و التفصيل . فإنّه الذي يراك حين تقوم و تقلبك في الساجدين و في جميع أحوالك .

فأبان ﷺ أنّ الأنبياء لهم التقدّم . فإنّهم لا يورثون حتى ينقلبوا إلى الله من هذه الدار . فكلّ ما يناله المتبع لنبي خاصّ في حياته فإنّه إنعام من ذلك النبي لا ميراث . وكلّ ما نال من نبي قد مات فذلك علم موروث . فكلّ وارث علم في زمان فإنّما يرث من تقدّمه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا من تأخّر عنه .

فوراثة عالم كلّ أمّة كانت لنبي قبل رسول الله ﷺ وراثة جزئية . و هذه الأمّة المحمديّة لمّا كان نبيّها محمد ﷺ آخر الأنبياء وكانت أمّته خير الأمم صحّ للوارث منهم أن يرثه و يرث جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ولا يكون هذا أبدًا في عالم أمّة متقدّمة قبل هذه الأمّة .

فلهذا كانت أفضل أمّة أخرجت للناس ، لأنّها زادت على الوارثين بأمر لم ينله إلّا هذه الأمّة . فعلم الوارثة أتمّ العلوم . وكلّ علم لا يكون عن ورث فإنّه ليس بعلم اختصاص كعلم أصحاب الفترات ، فإنّ علمهم ليس بعلم وراثة و إن كانوا علماء و لكنهم لم يكونوا متبعين لنبي . لأنّه لم يبعث إليهم و ليسوا بأنبياء . انتهى بأدنى تغيير ما في الباب الخامس و الستين و ثلاثمائة من الفتوحات ج٣ ص٣٢٢ .

و من تلك المكارم اختصاصهم بذكرهم في الكتب السابقة بطريق مدحهم و الثناء عليهم و و عدهم بوارثة الأرض . قال الله تعالى : وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ . و أخرج ابن أبي حاتم في التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما في بيان الآية قال : أخبر الله سبحانه في التوراة و الزبور و سابق علمه قبل أن تكون السماوات و الأرض أن يورث أمّة محمد الأرض . و أخرج عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : نحن الصالحون . خصائص السيوطي ج١ ص٧٣ .

ومنها : أنّهم يعطون يوم القيامة نورين مثل الأنبياء . أخرج البيهقي و أبو نعيم عن كعب الأحبار أنّه سمع رجلاً يقول : رأيت في المنام كأنّ الناس جمعوا للحساب . فدعي الأنبياء . فجاء مع كلّ نبي أمّته . و رأى لكلّ نبي نورين . و لكلّ من اتبعه نورًا يمشي به فدعي (أي نبيّنا) ﷺ . فإذا لكلّ شعرة في رأسه و وجهه نور على حدة . يثبته من نظر إليه . و لكلّ من اتبعه نوران يمشي بهما كنور الأنبياء .

فقال كعب : بالله الذي لا إله إلّا هو . لقد رأيت هذا في منامك ؟ قال : نعم . قال : و الذي نفسي بيده أنّها لصفة محمد و أمّته و صفة الأنبياء و الأمم في كتاب الله . لكأنّما قرأه من التوراة . خصائص ج١ ص٤١ .

ومنها : أنّهم أمروا بأحكام أمر بها الأنبياء . أخرج البيهقي عن وهب بن منبه قال : إنّ الله أوحى إلى داود في الزبور : يا داود ! إنّه سيأتي من بعدك نبي اسمه أحمد و محمد صادقًا نبيًّا . لا أغضب عليه أبدًا ولا يعصيني أبدًا . وقد غفرت له ما تقدّم من ذنبه و ما تأخر . و أمّته أمّة مرحومة . أعطيهم من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء و افترضت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء و الرسل . حتى يأتوني يوم القيامة و نورهم مثل نور الأنبياء . و ذلك أنّي افترضت عليهم أن يتطهروا في كلّ صلاة كما افترضت على الأنبياء . و أمرتهم بالغسل من الجنابة كما أمرت الأنبياء . و أمرتهم بالحجّ كما أمرت الأنبياء . و أمرتهم بالجهاد كما أمرت الرسل .

ومنها : ما أخرج الفريابي عن كعب رضي الله عنه قال : أعطيت هذه الأمّة ثلاث خصال لم يعطها إلّا الأنبياء : كان النبي ﷺ يقال له : بلغ ولا حرج . و أنت شهيد على قومك . و ادع أجبك . و قال لهذه الأمّة : مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ . و قال : لِتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ . و قال : ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ . خصائص ج٣ ص١٩١ .

ومنها : ما أخرج أحمد و الحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا : الندم توبة . قال بعضهم : كون الندم توبة من خصائص هذه الأمّة . كذا ذكره السيوطي رحمه الله تعالى .

ومنها : اختصاصهم بساعة الإجابة و بليلة القدر و بشهر رمضان و بالخصال الخمس المكفرة في رمضان و بعيد الأضحى . قال النووي في شرح المهذب : ليلة القدر مختصّة بهذه الأمّة لم تكن لمن قبلنا .

و أخرج الديلمي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إنّ الله وهب لأمّتي ليلة القدر ، ولم يعطها من كان قبلهم .

و أخرج الحاكم و صحّحه عن ابن عمرو رضي الله عنه : أنّ رسول الله ﷺ قال : أمرت بعيد الأضحى . جعله الله لهذه الأمّة .

ومنها : أنّ الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمّة محمد . أخرج ابن راهويه في مسنده و ابن أبي شيبة في المصنّف مرفوعًا : أنّ الجنّة محرّمة على الأنبياء حتى أدخلها ، وهي محرّمة على الأمم حتى تدخلها أمتي .

ومنها : ما ذكره الشيخ عز الدين بن عبد السلام حيث قال : إنّ من خصائصه عليه الصلاة والسلام أنّه يدخل أمّته سبعون ألفًا بغير حساب ، ولم يثبت ذلك لغيره من الأنبياء . أخرج الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا قال : قال رسول الله ﷺ : عرضت عليّ الأمم . و فيه : فرأيت سوادًا كثيرًا . فقيل لي : هؤلاء أمّتك و مع هؤلاء سبعون ألفًا يدخلون الجنّة بغير حساب . و في آخر الحديث : فقال : هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون و على ربهم يتوكّلون . فقام عكاشة بن محصن رضي الله عنه فقال : ادع الله أن يجعلني منهم . قال : أنت منهم . ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم . فقال : سبقك بها عكاشة .

و في رواية الترمذي : مع كلّ ألف سبعين ألفًا و ثلاث حثيات من ربي . و في رواية الطبراني و البيهقي عن عمر بن حزم الأنصاري رضي الله عنه مرفوعًا : قال : إنّ ربّي وعدني أن يدخل من أمّتي الجنة سبعين ألفًا لا حساب عليهم . و إنّي سألت ربّي المزيد فأعطاني مع كلّ واحد من السبعين ألفًا سبعين ألفًا . قلت : يا ربّ ! و تبلغ أمتي هذا . قال : أكمل لك العدد من الأعراب .

ومنها : قال الشيخ عز الدين : و من خصائصه أنّ الله تعالى نزل أمّته منزلة العدول من الحكام . فيشهدون على الناس بأنّ رسلهم بلغتهم . و هذه الخصيصة لم يثبت لأحد من الأنبياء . انتهى . وقد قال الله تعالى : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .

أخرج أحمد و النسائي و البيهقي عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : يجيء النبي يوم القيامة و معه الرجل ، و النبي و معه الرجلان و أكثر من ذلك . فيقال لهم : هل بلغتم . فيقولون : نعم . فيدعى قومهم فيقال لهم : هل بلّغوكم . فيقولون : لا . فيقال للنبيّين : من يشهد لكم أنّكم بلّغتم . فيقولون : أمّة محمد . فتدعى أمّة محمد فيشهدون أنّهم قد بلّغوا . فيقال لهم : وما علمكم أنّهم قد بلّغوا ؟ فيقولون : جاء نبيّنا بكتاب أخبرنا أنّهم قد بلّغوا فصدّقنا . فيقال : صدّقتم . فذلك قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا . قال : عدولاً . لِتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ .

ومنها : أنّ التجلّي الذاتيّ من خصائص نبينا ﷺ بالإصالة ، و لسائر الأنبياء عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تجلّي الصفات . و تجلّي الذات أشرف من تجلّي الصفات . ثم إنّ لكمل أتباعه ﷺ بواسطة اتباعه ﷺ نصيبًا من التجلّي الذاتيّ . هذا . ولله الحمد و المنة . و يعلم من عدة مكتوبات العارف الأكبر الشيخ أحمد السرهندي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ أنّه نال هذا المقام و تشرّف بنصيب من التجلّي الذاتيّ .

فإن قلت : فعلى هذا يلزم أن يكون غير النبي مساويًا مع الأنبياء عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

قلت : قال الشيخ أحمد السرهندي في المكتوب السابع و الثمانين و المائتين من المجلّد الأوّل : لكن ينبغي أن يعلم أنّ للأنبياء عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في تجلّي الصفات من مراتب القرب ما ليس لكمل التابعين من هذه الأمّة مع وجود تجلّي الذات بطريق التبعية . و هذا كما أنّ شخصًا مثلاً إذا وصل إلى الشمس بطيّ مدارج العروج محبّة لجمالها حتى لم يبق بينه و بين الشمس غير حائل رقيق ، و شخص آخر مع وجود محبته لذات الشمس عاجز عن العروج إلى تلك المراتب وإن لم يكن بينه و بين الشمس حائل أصلاً . فلا شكّ أنّ الشخص الأوّل أقرب إلى الشمس و أعلم بكمالاتها الدقيقة .

فكلّ من فيه القرب أزيد و معرفته أكثر فهو أفضل و كماله أوفر . فلا يبلغ وليّ من أولياء هذه الأمّة التي هي خير الأمم مع وجود أفضليّة نبيّهم مرتبة نبي من الأنبياء و إن حصل بمتابعة نبيّه نصيب من مقام به الأفضليّة . و الفضل الكلّيّ إنّما هو للأنبياء عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . و الأولياء طفيليّون . انتهى كلامه بلفظه مع التعريب .

هذه إشارة من إشارات العارفين . أنّى لمثلي فهمها . فلست أنا إلّا ناقلاً لأمثالها . فما وافق السنّة

فهو معتقدي ، و إلاّ فلا .

ومنها : ما ذكره المجدد للألف الثانية العارف الأكبر الشيخ أحمد السرهندي في المكتوب الموفّى المائة من المجلد الثالث ، حيث قال : اسمع اسمع أنّه وإن لم يكن لأحد شركة في هذه الدولة الخاصة المحمديّة و لكن يدرك هذا القدر أنّه قد بقيت بقيّة من تلك الدولة . و هي الخاصّة به بعد تخليقه و تكميله عليه الصلاة والسلام . فإنّ الزيادة و الفضلة من لوازم خوان ضيافة الكرماء ، لتكون نصيبًا للخدمة و حصة . فأعطيها واحد من أمّته صلى الله عليه وسلم . (ويعلم من بعض مكتوباته أنّ ذلك الواحد هو الشيخ أحمد السرهندي نفسه) . و جعلت خمير طينته و جعل بتبعيته و وراثته شريك دولته الخاصّة به عليه الصّلاة والسلام و البركات التامة .

ع لا عسر في أمر مع الكرام

و هذه البقية كبقية طينة آدم عليه الصلاة والسلام حيث كانت نصيبًا لخلقة النخلة ، كما قال عليه الصلاة والسلام : أكرموا عمتكم النخلة فإنّها خلقت من بقية طينة آدم . بلى .

ع و للأرض من كأس الكرام نصيب

انتهى بلفظه و تعريبه . هذه أيضًا إشارة من إشارات العارفين و رمز من رموزهم مثل ما تقدم . فتدبّر . والله أعلم بالأسرار و اللطائف و الحقائق و علمه أتمّ .

الباب الثاني عشر بعد المائة
مشتمل على خمسة أجوبة

لابدّ من ذكر التمهيد أوّلًا تنبيهًا على مبنى هذه الأجوبة المذكورة في هذا الباب . و هو أنّه عليه الصلاة والسلام شارك إبراهيم عليه الصلاة والسلام بذاته في الصلاة بإيراد كاف التشبيه نظرًا إلى أسرار لطيفة عرفانية و وجوه شريفة ربّانية مع قطع النظر عن اعتبار كون أحد الطرفين فاضلًا و الآخر أفضل و نحو ذلك . و للتشبيه أسرار بديعة و حقائق رفيعة .

فمن تلك الوجوه ما قال الإمام النيشابوري . و هو : أنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام سأل الله تعالى أن يبعث نبيًّا من ذرّيّة إسماعيل فقال : رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ . و لذا قال صلى الله عليه وسلم : أنا دعوة أبي إبراهيم . فكافأه شكرًا و أثنى عليه مع نفسه بالصلاة التي صلى الله و ملائكته عليه صلى الله عليه وسلم . و هذه الصلاة من الحق تعالى عليه . و هي قرّة عينه ، لأنّها أكمل مظاهر الحق و مشاهد تجلياته و مجامع أسراره . فالصلاة مشتركة اشتراكًا قوليًّا أو فعليًّا كالصلوات الخمس . فافهم سرّ الصلاتين و اشتراكهما بين رتبتي الخلّة و المحبّة لتجلّي الحق بظهور الهويّة و سريانها في أكمل حلّة جامعة . انتهى كلامه .

ومنها : أنّ سبب هذه المشاركة في الصلاة أثر دعائه عليه الصلاة والسلام و صورة إجابة الله نداءه . حيث ورد في الخبر : أنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام رأى في المنام جنّة عريضة مكتوبًا على أشجارها " لا إله إلّا الله محمد رسول الله " . فسأل جبريل عنها . فأخبره بقصّتها . فقال : يا ربّ ! أجر ذكري على لسان أمّته صلى الله عليه وسلم .كذا في خواتم الحكم للعارف بالله الشيخ علي دده البوسنوي المتوفّى سنة ١٠٠٧هـ .

قلت : لا أعرف حال سند هذا الخبر . و الله أعلم بصحته .

ومنها : ما في خواتم الحكم أيضًا أنّ الله تعالى أمرنا بالصلاة على إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأنّ قبلتنا قبلته و مناسكنا مناسكه و الكعبة بناؤه و ملته متبوعة الأمم . فأوجب الله على الأمّة ثناءه . انتهى .

ومنها : ما قال بعض العلماء : شاركه في الصلاة عليه لأنّه عليه الصلاة والسلام دعا لنا ولم نكن نحن موجودين . فجعل ذلك مكافأة له . قيل : دعا لنا رسولان ، فكافأهما الله تبارك وتعالى بالصلاة والسلام عليهما . الأوّل نوح عليه الصلاة والسلام حيث قال : رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ . الآية . فجعل الله تعالى مكافأته السلام بقوله : سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ . والثاني إبراهيم عليه الصلاة والسلام دعا لنا فقال : رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ . فكافأه الله تعالى بما أمرنا بالصلاة عليه . انتهى .

ومنها : ما قيل : ضمّ إبراهيم مع النبي عليهما الصلاة والسلام في الصلاة لأنّه كان خليل الله ، و محمد حبيب الله . فقرن اسمهما في الصلاة . لأنّ الحبيب يحبّ أن يذكر أحبابه و أخلاّءه . انتهى . كذا في جواهر الحكم للعارف علي دده رحمه الله تعالى .

اعلم : أنّ هذه الوجوه الخمسة في الحقيقة وجوه لمشاركة إبراهيم مع نبينا عليهما الصلاة والسلام و تخصيصه بالذكر في هذه الصلاة ، إلاّ أنّا ذكرناها في سلسلة إشكال فضل المشبّه به اتباعًا لبعض المحقّقين . و نظير هذا ما مضى في الباب التاسع و العاشر و الرابع عشر في هذا الكتاب من أجوبة صاحب الكشاف . و هو من المحقّقين الكبار . فإنّه ذكر في سلسلة الأجوبة وجوهًا ذكرها فخر الدين الرازي في سلسلة وجوه المشاركة . ولك أن تسقطها ولا تعدّها أجوبة ، بل وجوه المشاركة فقط . و لكلّ وجهة هو مولّيها . هذا . والله أعلم بالصواب .

الباب الثالث عشر بعد المائة
في الجواب الأربعين ومائة

الصلاة على إبراهيم عليه الصلاة والسلام والدعاء بها له كان بألسنة الأنبياء الجمّ الغفيراء عليهم الصلاة والسلام الذين هم آل إبراهيم ، بخلاف صلاة محمد و سؤالها له عليهما الصلاة والسلام فإنّها كانت من آله الغير الأنبياء إذ لا نبي بعده .

و من المعلوم أنّ صلاة الأنبياء و دعاءهم أفضل من صلاة غير الأنبياء . و أين الثرى من الثريا . و أنّى يدرك الظالع شأو الضليع . و دعاء الأنبياء كنبي أدعية الأنام وكلام الملوك ملك الكلام . فالمشبّه بهذا اللحاظ أدنى من المشبّه به .

و المعنى : اللّهم آت محمدًا عليه الصلاة والسلام بدعاءنا و نحن أدنى ما آتيت إبراهيم عليه الصلاة والسلام بسؤال الأنبياء عليهم السلام له و إن كانوا أفضل ، إذ فضلك أوسع .

و التحقيق أنّ ما أوتي الأنبياء من الفضائل و المناقب ضربان : ضرب أوتوه بغير دعاء الأمّة . و ضرب أوتوا بدعاءهم لهم . كما ورد في الحديث : سلوا الله لي الوسيلة و المقام المحمود لاسيما بين الأذانين .

و التشبيه في قولنا "كما صلّيت" إنّما هو في الضرب الثاني من الكمالات . فلا إشكال . هذا ما ألهمني ربّي كما ألهمني أكثر ما سطرنا في هذا التأليف من الأجوبة . ولله الحمد والمنة . والله أعلم بالصواب .

الباب الرابع عشر بعد المائة
محتو على جوابين

قال كثير من أهل الكشف العارفين بالله تعالى : إنّ صلاة الله على إبراهيم عليه الصلاة والسلام و آله في الحقيقة صلاة على محمد صلى الله عليه وسلم . ففيه تشبيه الشيء بنفسه باعتبار حالين .

و بنوا هذه المسألة على إثبات الحقيقة المحمديّة و الأحمديّة الجامعة السارية . قالوا : إنّ حقيقته المحمديّة و الحلّة الأحمديّة كاملة وسيعة حسب قوله تعالى : وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ . بدت أشعّة هذه الحقيقة الكاملة في صور شتّى ، و توزعت هذه الحلّة الجامعة على الأنبياء كلّهم . فاكتسى كلّ منهم على حسب استعداده بحكم الله و إذنه .

ثم لهم في الحقيقة المحمديّة أبحاث طويلة الأذيال أذكر نبذة منها . و أكثرها منزع صوفي و مشرب لطائفة خاصّة من العارفين . و إنّى لمثلي أن يفهم مثل هذه الأبحاث الدقيقة . وإنّي رجل مشغول بتدريس العلوم الدينيّة الظاهرة من الحديث و التفسير و الفقه و نحوذلك . ولا أعتقد إلّا ما وافق السنّة . و أمّا النكات الصوفية فلا حرج في القول بها إذا لم تصادم السنّة . و هذه عباراتهم . فما وافق السنّة و إلّا فأنا بريء من القول به . ولست في هذا إلّا ناقلاً محضًا لعباراتهم المتعالية عن أذهان أمثالي .

نقل الشيخ علي دده رحمه الله تعالى في كتابه خواتم الحكم عن بعض العارفين : أنّ خلّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام كانت مستفادة من حيث الباطن من الخلّة المحمدية الثابتة لحقيقته أوّلًا و آخرًا . فأكمل ظهور الخلّة الأحمدية كان في وعاء الإبراهيمية ، و لذلك كان إسماعيل وعاء لها من ذريته .

فمن اطلع على ذلك السرّ فقد وقف على سرّ اشتراك الصلاة عليه و على ذريته في قوله "كما صليت على إبراهيم و على آل إبراهيم" . فإنّه ﷺ داخل في آل إبراهيم . فصلاته على نفسه ظاهرًا و باطنًا . و هو المقام المحمدي الجامعي ﷺ . وقد صرح أهل التحقيق بأنّ أكمل مظهر للحقيقة المحمدية حضرة الخليليّة ثم حضرة الكليميّة . و لهذا السرّ العلي شاركهما رسول الله ﷺ بالذات و صلّى عليهم بوساطته ، لما ورد : إذا صليتم عليّ فصلّوا على موسى . لأنّ الخليل و الكليم أشدّ مناسبة ، فخُصّا و شوركا في الصلاة و الثناء على الحضرة المحمدية . انتهى .

قال العارف بالله السيد أبو العباس التجاني الفاسي في شرح إحدى صلواته الثلاث : إنّ الفيض الإلهي من الحضرة الرحمانية لجميع الوجود من الأزل إلى الأبد . يجتمع ذلك الفيض كلّه في الحقيقة المحمديّة . ثم يسري منه ﷺ منقسمًا على جميع الوجود على حد قوله ﷺ : إنّما أنا قاسم والله يعطي . أخبر أنّ العطاء الأوّل وهو الاقتطاع الإلهي كان مفصلاً في القسمة على ما نفذت به المشيئة الإلهية . انتهى .

و قال التجاني أيضًا : أمّا الحقيقة الأحمديّة فهي الأمر الذي سبق به ﷺ في الحمد لله كلّ حامد من الوجود . فما حمد الله أحد في الوجود مثل ما حمده النبي ﷺ في الوجود . ثم إنّها في نفسها أي الحقيقة الأحمدية غيب من أعظم غيوب الله تعالى .

فلم يطلع أحد على ما فيها من المعارف و العلوم و الأسرار و الفيوضات و التجليات و المنح و المواهب و الأحوال العلية و الأخلاق الزكية . فما ذاق منها أحد شيئًا ولا جميع الرسل و النبيّين . اختص بها ﷺ وحده بمقامها . و كلّ مدارك الأنبياء و المرسلين و جميع الملائكة و المقرّبين و جميع الأقطاب و الصدّيقين و جميع الأولياء كلّ ما أدركوا على إجماله و تفصيله إنّما هو من فيض حقيقته المحمدية .

و أمّا حقيقته الأحمدية فلا مطمع لأحد بنيل ما فيها . فالحاصل : أنّ له ﷺ مقامين : مقام حقيقته الأحمدية وهو الأعلى ، و مقام حقيقته المحمدية وهو أدنى ، ولا أدنى فيه .

و كلّ ما أدركه جميع الموجودات من العلوم و المعارف و الفيوضات و التجليات و الترقيات

و الأحوال و المقامات و الأخلاق إنّما هو كلّه من فيض حقيقته المحمدية ﷺ .

و أمّا ما في حقيقته الأحمدية فما نال منه أحد شيئًا أختصّ به هو وحده ﷺ لكمال عزها و غاية علوها . انتهى بلفظه .

و قال الشهاب الخفاجي رحمه الله تعالى في شرح الشفا عند قول صاحب الشفا " و قال الأشعري رحمه الله تعالى : كلّ آية أوتيها نبي من الأنبياء فقد أوتي مثلها نبينا ﷺ " : قيل : الحقيقة المحمدية صورة الاسم الأعظم الجامع للأسماء . فله التصرّف في العوالم . و منه تستفيد و تستمدّ ما فيها من جهة حقيقته لا من جهة بشريّته . فهو ﷺ الخليفة حقيقة ، و أيّ معجزة كانت لنبي فهي له أوّلاً و بالذات ، ثم جاءت منه لغيره . و إلى هذا أشار في البردة بقوله :

وكلُّ آيٍ أَتَى الرُّسُلُ الكِرامُ بها　　　فإنَّما اتَّصلتْ مِنْ نُورِهِ بِهِمِ

إنّ الله خلق روحه ﷺ قبل الأرواح ، و خلع عليها خلعة النبوة . ثم خلق أرواح البشر ، و أمر أرواح الأنبياء بأن يؤمنوا به ﷺ ، و أخذ عليهم الميثاق باتباعه إن أدركوه ، كما نطق به الكتاب العزيز . فلما أجابوه أشرق عليهم نوره الروحانيّ الربّاني . و صارت في أرواحهم قوى مستعدة لإظهار المعجزات ، كما لأولياء أمّته إذا أظهروا الكرامات لما أشرق عليهم نوره . و هذا هو الذي قصده البوصيري رحمه الله تعالى . فاعرفه . انتهى .

و قال الإمام الشيخ محمد بن عبد الباقي الزرقاني شارح المواهب المتوفّى سنة ١١٢٢هـ تحت قول المصنّف في أوائل المقصد الأوّل : اعلم : أنّه لما تعلّقت إرادة الحق بإيجاد خلقه و تقدير رزقه أبرز الحقيقة المحمدية . هي الذات مع النعت الأوّل كما في التوقيف و في لطائف الكاشي يشيرون بالحقيقة المحمدية إلى الحقيقة المسماة بحقيقة الحقائق الشاملة لها . أي للحقائق و السارية بكلّيّتها في كلّها سريان الكلّيّ في جزئياته .

قال : و إنّما كانت الحقيقة المحمدية هي صورة لحقيقة الحقائق لأجل ثبوت الحقيقة المحمدية في خلق الوسطية هي عين النور الأحمديّ المشار إليه بقوله عليه الصلاة والسلام : أوّل ما خلق الله نوري . أي قدر على أصل الوضع اللغوي . و بهذا الاعتبار سمّي المصطفى بنور الأنوار و بأبي الأرواح . ثم إنّه آخر كلّ كامل ،

إذ لا يخلق الله بعده مثله ﷺ . انتهى .

فائدة

ثم ههنا حقيقتان ، سمّى العارفون كلّ واحدة منهما حقيقة الحقائق . و اعتبار كلّ حقيقة منهما جواب على حدة . فهما جوابان :

الأولى الحقيقة المحمديّة .

والثانية الحقيقة الأحمديّة .

و قالوا : إنّ مرتبة الثانية أعلى من مرتبة الأولى ، لأنّ ولاية المقام الذي يحتوي على محبوبية محضة أعلى من ولاية المقام الذي تمتزج فيه المحبوبية مع المحبّية . و في مقام الحقيقة المحمدية و ولايتها ذلك الامتزاج دون مقام الحقيقة الأحمديّة و ولايتها ، فإنّها محتوية على المحبوبية البحتة . هذا . والله أعلم و علمه أتمّ و أكمل .

الباب الخامس عشر بعد المائة
في الجواب الثالث والأربعين ومائة

قال العارف الكبير الشيخ أحمد السرهندي مجدّد الألف الثانية في مكتوب من مكتوباته ، ما محصوله : أنّ الكمالات الإنسانية و اللطائف البشريّة قسمان : الأوّل ما له تعلق بعالم الأمر . و الثاني ما له تعلق بعالم الخلق . و أنّ الأوّل أدنى من الثاني ، و أنّ الأوّل للأولياء و الثاني للأنبياء ، و أنّ العروج في هذه الكمالات مخصوص بمحمدي المشرب التام الاستعداد ، و أنّ الولاية أقسام : الصغرى و الكبرى و العليا .

ثم إنّ للولاية درجات خمسًا . أعلاها لمحمد ﷺ. و رب تلك الدرجة العلم ، كما أنّ رب الدرجة الإبراهيمية وهي ثانية ربّها " العلم " . و لهذه المناسبة أمر نبينا ﷺ باتباع ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، بل صارت ملته ملته و قبلته قبلته .

والتشبيه في قوله عليه الصلاة والسلام "كما صلّيت على إبراهيم إلخ" باعتبار موطن مخصوص من مواطن إفضال الله تعالى وكمالاته . و هي الكمالات التي لها تعلق بحقيقة الكعبة الربّانية التي هو فوق جميع الحقائق البشريّة و الملكيّة ، فإنّ للخليل ثمة مرتبة لم تتيسر لأحد من الأنبياء .

ففي هذا المقام تظهر الكمالات مفصلة في صورة دائرة مركزها الذي هو مقام الإجمال نصيب نبينا ﷺ . و الدائرة نفسها بتفصيلها مسلّمة للخليل عليه الصلاة والسلام . وكلّ من سواهما من الأنبياء وكمل الأنبياء و الأولياء طفيليّ هناك .

و للمركز تقدّم على الدائرة ، و هو أعلى شأنًا منها . إذ به ربط كلّ جزء من أجزاء الدائرة ، و به قوام

كلّ قطعة من قطع المحيط ، و به استدارة كلّ قوس من أقواس المدير . إلاّ أنّ المركز متصف بالإجمال عار عن التفصيل ، كما أنّ الدائرة محتوية على تفصيل الكمالات و توضيحها مبرأة عن الإجمال .

ولا يخفى أنّ للتفصيل نوع فضل على الإجمال . و نبينا ﷺ طلب تفصيل ذلك الإجمال في قوله "كما صلّيت على إبراهيم " حيث سأل صلاة و بركة مشابهتين بصلاة إبراهيم و بركته ، على نبينا و عليه الصّلاة والسلام . فلا وصمة في هذا التشبيه و فيما لزم منه التفصيل . هذا . ولله الحمد .

قال الشيخ أحمد السرهندي قدّس سره في المكتوب الستين و المائتين : اعلم أيّها الولد : أنّ لطائف عالم الأمر الخمس أعني القلب و السر و الروح و الخفي و الأخفى التي هي من أجزاء العالم الصغير أعني الإنسان أصولها في العالم الكبير كالعناصر الأربعة التي هي أجزاء الإنسان ، فإنّ أصولها في العالم الكبير . و ظهور أصول الخمس فوق العرش حيث يوصف بالإمكانية . و من ههنا يقال لعالم الأمر : لا مكانيًّا تتم دائرة إلاّ مكانَ خلقِه و أمره و صغيره و كبيره بالوصول إلى نهاية تلك الأصول . و إلى هذا الموطن ينتهي امتزاج العدم بالوجود الذي هو منشأ الإمكان .

فإذا طوى السالك هذه الخمس من عالم الأمر بالترتيب ، و شرع في السير في أصولها من العالم الكبير ، و طوى كلّها بالترتيب و التفصيل ، فلا جرم يكون قد أتمّ دائرة الإمكان بالسير إلى الله . و صار مستحقًّا لأن يطلق عليه اسم الفناء . و شرع في الولاية الصغرى التي هي ولاية الأولياء .

فإن وقع السير بعد ذلك في ظلال الأسماء و الصفات الوجوبية التي هي أصل الخمس التي في العالم الكبير في الحقيقة و طوى كلّها فقد أتمّ دائرة ظلال الأسماء الواجبية أيضًا . و حصل له الوصول إلى مرتبة الأسماء و الصفات الواجبية . وهي نهاية عروج الولاية الصغرى .

و بعد ذلك يتحقق الشروع في حقيقة الفناء و وضع القدم في بداية الولاية الكبرى التي هي ولاية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . و دائرة الولاية الكبرى مخصوصة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالإصالة . و وصل أصحابهم الكرام أيضًا إلى هذه الدولة بالتبعية . و نهاية عروج لطائف الأمر الخمس إلى نهاية دائرة الأسماء و الصفات . و بعد هذه الدائرة يكون السير في دائرة أصول تلك الصفات و الشؤونات .

و بعد طيّ هذه الدائرة دائرة أصول تلك الأصول و بعد طيّ دائرة أصول الأصول يظهر قوس من

الدائرة الفوقانية . ينبغي قطعه أيضًا .

و في هذا المقام يحصل شرح الصدر ، و فيه يتشرّف السالك بالإسلام الحقيقي ، و تجلس المطمئنة فيه على تحت الصدر ، و ترتقي في مقام الرضاء . و هذا الموطن هو نهاية الولاية الكبرى التي هي ولاية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

و ينبغي أن يعلم أنّ هذا العروج الذي مرّ ذكره مخصوص بمحمديّ المشرب التامّ الاستعداد . له نصيب كامل من كمالات الجواهر الخمس التي فى عالم الأمر صغيره و كبيره .

و إنّما قلت : إنّ هذا العروج مخصوص بمحمديّ المشرب . لأنّ غير محمدي المشرب منهم من يكون كماله مقصورًا على الدرجة الأولى من درجات الولاية أي مرتبة القلب . و منهم من يكون كماله مقصورًا على الدرجة الثانية التي هي مقام الروح . و منهم من يكون نهاية عروج كماله إلى الدرجة الثالثة أعني مقام السرّ . و منهم من تكون نهاية عروج كماله إلى الدرجة الرابعة أعني مقام الخفي .

و الدرجة الأولى لها مناسبة بتجلّي صفات الأفعال ، و للدرجة الثانية بتجلّي الصفات الثبوتية ، و للدرجة الثالثة بتجلّي الشؤون و الاعتبارات الذاتية ، و للدرجة الرابعة بالصفات السلبية التي هي مقام التنزيه . وكلّ درجة من درجات الولاية تحت قدم نبي من الأنبياء أولي العزم .

فالدرجة الأولى منها تحت قدم آدم عليه الصلاة والسلام . و ربّه صفة التكوين التي هي منشأ صدور الأفعال .

و الدرجة الثانية تحت قدم إبراهيم عليه الصلاة والسلام . و يشاركه في هذا المقام نوح عليه الصلاة والسلام . و ربّهما صفة العلم التي هي أجمع الصفات الذاتية .

و الدرجة الثالثة تحت قدم موسى عليه الصلاة والسلام . و ربّه من مقامات الشؤونات شأن الكلام .

و الدرجة الرابعة تحت قدم عيسى عليه الصلاة والسلام . و ربّه من الصفات السلبية لا من الثبوتية ، فإنّها موطن التقديس و التنزيه . و أكثر الملائكة الكرام يشاركون عيسى عليه الصلاة والسلام في هذا المقام .

و الدرجة الخامسة تحت قدم خاتم الرسل عليه وعليهم الصّلاة والسلام . و ربّه صلى الله عليه وسلم ربّ الأرباب الذي حضر جامع جميع الصفات و الشؤونات و التقديسات و مركز دائرة هذه الكمالات .

و يناسب التعبير عن هذا الشأن بشأن العلم ، لكون هذا الشأن عظيم الشأن جامعًا لجميع الكمالات . و بهذه المناسبة صارت ملته ﷺ ملّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام و قبلته قبلته . ولا يخفى أنّ سلوك اللطائف بالترتيب المذكور أعني الانتقال من القلب إلى الروح و من الروح إلى السرّ ومن السرّ إلى الخفيّ و من الخفيّ إلى الأخفى مخصوص أيضًا بمحمديّ المشرب ، ولا تغلطن في هذا المقام .

و اعلم : أنّ هذا التفاوت إنّما هو متصوّر فيما بين الأولياء ، لأنّ صاحب الولاية القلبيّة أدون من صاحب الولاية الأخفويّة بعد وصول كليهما إلى مرتبة الكمال . و أمّا فيما بين الأولياء و الأنبياء فمفقود ، لأنّ ولاية نبي ولو كانت ناشئة من مقام القلب أفضل من ولاية ولي ولو كانت ناشئة من مقام الأخفى ولو كان ذلك ممن أتمّ الأمر .

و سرّ ذلك أنّ صاحب الولاية تحت قدم نبي تلك الولاية دائمًا أيّ ولاية كانت . قال تعالى : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝ .

نعم ، إنّ هذا التفاوت فيما بين الأنبياء بعضهم ببعض متصوّر ، و صاحب العليا منهم أفضل من صاحب السفلى . ولكن هذا التفاوت فيما بين الأنبياء أيضًا إلى آخر دوائر كمالات عالم الأمر . و ليس التفاضل بعده مربوطًا بالعلوّ و السفل . بل يمكن أن يكون صاحب السفل في ذلك الموطن أفضل من صاحب العلو ، كما شاهدنا التفاوت في ذلك الموطن بين موسى عليه الصلاة والسلام و عيسى عليه الصلاة والسلام . فإنّ موسى جسيم ثمة ذو شأن عظيم ليس لعيسى عليه الصلاة والسلام فيه تلك الجسامة و الشأن . فعلمنا أنّ التفاوت في ذلك الموطن بأمر آخر وراء ذلك العلو و السفل . و سأبيّنه بعد مفصّلاً إن شاء الله .

و كذلك وجدنا فيه التفاوت بين خليل الرحمن و بين سائر الأنبياء غير خاتم الرسل عليهم الصلاة والسلام في الكمالات التي لها تعلق بحقيقة الكعبة الربّانية التي هي فوق جميع الحقائق البشرّية و الملكيّة ، فإنّ للخليل ثمة شأنًا عظيمًا و مرتبةً رفيعةً لم يتيسر لأحد ذلك الشأن و الرتبة .

و في ذلك المقام العالي المناسب لمقام ظهور سرادقات العظمة و الكبرياء كمالات مركز ذلك المقام الذي هو مقام الإجمال نصيب خاتم الرسل ، و الباقي المفصّل كلّه مسلّم للخليل . و كلّ من سواه من الأنبياء و كمل الأولياء طفيليّة هناك .

و كان النبي ﷺ طلب تفصيل ذلك الإجمال حيث سأل صلاة و بركة مشابهتين لصلاة إبراهيم على نبينا و عليه الصّلاة و السلام .

و قد ظهر لهذا الفقير أنّ ذلك التفصيل قد تيسّر له أيضًا بعد مضيّ ألف سنة . و استجيب مسؤوله . والحمد لله على ذلك . و كمالات ذلك المقام العلي فوق كمالات الولاية و فوق كمالات النبوة و الرسالة . و كيف لا تكون فوقها فإن تلك الحقيقة مسجود إليها للأنبياء الكرام و الملائكة .

فائدة

أيّها الولد ! قد علم من المعارف السابقة أنّ الكمالات المتعلقة بعالم الأمر مقدمات معارج للكمالات المتعلقة بعالم الخلق . و الكمالات الأولى ليست بخالية عن الظلّية و مخصوصة بمقامات الولاية . و الكمالات الثانية مبرأة عن شائبة الظلّيّة المناسبة لظهورات هذه النشأة الدنيوية ، و فيها نصيب كامل من مقامات النبوّة . فتكون الطريقة و الحقيقة اللتان هما مربوطتان بالولاية خادمتين للشريعة التي هي ناشئة من مقام النبوة ، و تكون الولاية سلمًا لعروج النبوة .

فائدة

اعلم : أنّ عالم الأمر قد نال هنا يعني في النشأة الدنيا حظًّا وافرًا ، و حصل المشاهدة ، و ستقع المعاملة غدًا في الجنّة على عالم الخلق و تيسّر له رؤية بلا كيف . و مع ذلك أنّ متعلق المشاهدة ظلّ من ظلال الوجوب ، و المرئيّ في الآخرة واجب الوجود . فالفرق الذي بين المشاهدة و الرؤية و الظلّيّة و الإصالة هو فرق ما بين عالم الخلق و عالم الأمر . و اعلم : أنّ المشاهدة ثمرة الولاية ، و الرؤية ثمرة النبوّة . و تيسّر لعامة أتباع الأنبياء . و من ههنا يعرف التفاوت بين الولاية و النبوة أيضًا .

تنبيه

كلّ عارف مناسبته لعالم الأمر أزيد يكون قدمه في كمالات الولاية أزيد . و الذي مناسبته لعالم الخلق أكثر فقدمه في كمالات النبوة أوفر . من ههنا كان لعيسى عليه الصلاة والسلام قدم أزيد في الولاية ، و لموسى

عليه الصلاة والسلام قدم أزيد في النبوة . فإنّ جانب الأمر غالب في عيسى عليه الصلاة والسلام ، و لهذا صار ملحقًا بالروحانيين . و جانب الخلق غالب في موسى عليه الصلاة والسلام ، ولهذا لم يكتف بالمشاهدة بل طلب رؤية البصر . و هذا هو سبب تفاوت أقدام الأنبياء في كمالات النبوة الذي كنت وعدت بيانه فيما تقدّم .

و اعلم : أنّ منصب النبوة كان مختومًا بخاتم الرسل عليه و على آله الصلاة والسلام ، ولكن لأتباعه صلى الله عليه وسلم نصيب كامل من كمالات ذلك المنصب بالتبعية . و هذه الكمالات كانت في طبقة الأصحاب رضي الله عنهم أزيد منها في غيرها . و سرت هذه الدولة أيضًا على سبيل القلّة إلى التابعين و تبع التابعين . ثم شرعت بعدهم في الاختفاء و الاستتار ، و انتشرت كمالات الولاية الظلّية ، و غلبت و شاعت . و لكن المرجوّ أن تتجدّد هذه الدولة المستترة بعد مضيّ الألف ، و يحصل لها الغلبة و الشيوع ، و أن تظهر الكمالات الأصلية و تستتر الظلّية و أن يكون المهديّ عليه الرضوان مروج هذه النسبة العلية . انتهى كلامه باختصار كثير و حذف . ج١ ، من ص٢٤٥ إلى ص٢٥٠ .

فصل

اعلم : أنّ نبينا صلى الله عليه وسلم أفضل المخلوقات كلّها حتى من الكعبة المباركة و حقيقتها . و هذا مجمع عليه ، لكن كلام الشيخ السرهندي على خلاف ذلك . حيث سنح من كلامه المتقدّم أنّ حقيقة الكعبة الربّانية فوق جميع حقائق البشريّة و الملكية . و هذه المسألة من المسائل التي اعترض بها المخالفون للشيخ . و استفتوا في ذلك علماء الحرمين الشريفين سنة ثلاث و تسعين و ألف ١٠٩٣هـ .

و هذه صورة الاستفتاء : ما يقول العلماء في حق أحمد السرهندي الكابلي الذي قال (أي في رسالة المبدإ و المعاد) بتفضيل حقيقة الكعبة على محمد صلى الله عليه وسلم مستدلًّا بأنّ صورة الكعبة مسجود إليها للصورة المحمديّة ، فكذلك حقيقة الكعبة مسجود إليها للحقيقة المحمدية .

و لمّا ألزمه أهل بلاده بلزوم تفضيل صورة الكعبة أيضًا على صورة محمد صلى الله عليه وسلم بعين ذلك الدليل بل أولى التزمه و قال : ينبغي أن يُعلم أنّ صورة الكعبة ليست عبارة عن الحجر و المدر ، إذ لو فرض عدمها لكانت الكعبة كعبة و مسجودة للخلائق .

قال في المكتوب الموَفِّى مائة من المجلد الثالث : الكعبة المسجود إليها للخلق ليست هي الحجر و الطين ولا السقف و الجدران ، لأنّ تلك لو زالت كانت الكعبة مكانها . و إنّما الكعبة لها ظهور ولا صورة لها . انتهى .

ثم قال في المبدإ و المعاد : نعم ، إن لم تكن كذلك لم تكن مستحقة لأن تكون مسجودًا إليها لأفضل الموجودات . انتهى . و قال : إنّ المراد بحقيقة الكعبة هي الحقيقة الأحمدية التي هي تعينه الإمكاني الأمريّ و بالحقيقة المحمدية تعينه الإمكانيّ الخلقيّ لا تعينه الوجوبيّ . فبعد مضي ألف سنة تغلب التي للأحمدية على التي كانت للمحمدية ، فينصبغ عالم خلقه بصبغ عالم الأمر ، فما رجع من خلقه إلى المحمدية يعرج حتى يلتحق بالأحمدية و يتحدان ، لا أنّه يعرج عن الوجوب ، فإنّ العروج عن التعيّن الأوّل الوجوبيّ لا معنى له . انتهى .

و قال في المكتوب التاسع و المائتين : ينبغي أن يعلم أنّ حقيقة كلّ شيء عبارة عن التعين الوجوبي الذي تعين إمكاني ذلك الشخص ظلّ ذلك التعين الوجوبي . و هو اسم من الأسماء الإلهية كالعليم . و ذلك الاسم ربّ ذلك الشخص و مبدأ الفيوض الوجودية له و توابعها . إلى أن قال : فإذا تمهّد هذا فنقول : إنّ محمدًا ﷺ مركّب من عالم الخلق و الأمر و الاسم الإلهي الذي هو ربّه شأن العليم . و الذي يربي عالم أمره هو المعنى الذي صار مبدأ لذلك الشأن . و حقيقة الكعبة أيضًا ذلك المعنى . و إذا كانت حقائق الأشياء الأسماء الإلهية و حقيقة الكعبة فوق تلك الأسماء كانت متبوعة لحقائق الأشياء . فلزم أن تكون مسجودة للحقيقة المحمدية . انتهى كلام اعتراضهم باختصار .

و الجواب : أنّ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ ما قال : إنّ حقيقة الكعبة أفضل من الحقيقة المحمدية ﷺ . بل قال : فوق الحقيقة المحمدية . فتوهّم البعض منه أنّ الكعبة المكرّمة أفضل من النبي ﷺ و الحال أنّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أفضل المخلوقات .

و منشأ التوهم حمل لفظ الحقيقة على ذات الشيء و تشخصه . وهو مبني على الجهل عن اصطلاح هذه الطائفة العليّة و عدم الاطلاع على حقيقة كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ . فإنّ حقيقة الشيء عندهم اسم إلهيّ هو مبدأ لتعين ذلك الشيء كالظلّ و العكس لذلك الاسم ، و الاسم واسطة الفيوض بين الحضرة

القدسية و بين ذلك الشيء ،كما أنّ الشأن الذاتي واسطة بين ذلك الاسم المقّدس و بين الذات المنزه العليّ على ما جرت عليه العادة الإلهية من توسيط الوسائط و المناسبات بين المفيض و المستفيض .

قال الشيخ محي الدين قدّس سره في رسالة القدس : إنّ الأكوان ظلال الأسماء الإلهية . و الأسماء ظلال الشؤون الذاتية .

و عند الشيخ أحمد رحمه الله باعتبار الظهور لله تعالى مراتب :

الأوّل : مرتبة اللا تعين وهو مرتبة الذات البحت . و عند الصوفية يطلق عليه هذه الأسماء الأحدية الذاتية ، و الأحدية المطلقة ، والأحدية الصرفة ، و عالم اللاهوت ، و أزل الأزل ، و خفاء الخفاء ، و بطون البطون ، و غيب الهوية .

و الثاني : مرتبة التعين الوجودي و الحبي .

و الثالث : مرتبة الحياة .

و الرابع : مرتبة العلم الجملي وهو مرتبة الوحدة ، و الشأن التفصيليّ و هو الواحدية ، و الأعيان الثابتة و هي مرتبة الأسماء عندالقوم ، و عالم الجبروت .

و الحقيقة المحمدية عبارة عن اسم "العليم" عند الشيخ أحمد رحمه الله ، و عندهم مرتبة الأسماء مرتبة الوحدة ، و العلم الجملي أيضًا . و هذه المراتب كلّها قديمة أزليّة . تقديم بعضها على البعض بالذات لا بالزمان .

و للعالم مراتب :

الأولى : مرتبة الأرواح وهو عالم الأمر و الملكوت .

و الثانية : مرتبة عالم المثال .

و الثالثة : مرتبة عالم الشهادة وهو عالم الخلق و الناسوت .

و عند الشيخ أحمد قدّس سره محمد ﷺ مركب من عالم الأمر و الخلق . و اسمه ﷺ أحمد باعتبار عالم أمره و محمد باعتبار عالم خلقه .

و اسم الله تعالى الذي مربي عالم أمره وهو مظهره يقال له " الحقيقة الأحمدية " . و هي المعبرة

بحقيقة الكعبة .

و اسمه تعالى الذي هو مربي عالم خلقه ﷺ يقال له " الحقيقة المحمدية " .

و المراد بالحقيقة المحمدية التي فوقها حقيقة الكعبة التعين الإمكاني النوري ، و بحقيقة الكعبة التعين الوجوبي . و صرّح بذلك في المكتوب التاسع و المائتين من المجلد الأوّل بقوله :

بايد دانست كه حقيقت شخص عبارت از تعين وجوبي است كه تعين إمكاني آن شخص ظلّ آن تعين ست . و آن تعين وجوبي اسمي است از أسماء إلهي كالعليم و القدير . و گويم كه حقيقت شخص چنانكه تعين وجوبي أو را گويند تعين إمكاني أو را نيز گويند . انتهى ملخّصًا .

تعريبه : ينبغي أن يعلم أنّ حقيقة الشخص عبارة عن التعين الوجوبي الذي التعين الإمكاني ظلّ ذلك التعين الوجوبي . وهو اسم من أسماء الله تعالى كالعليم و القدير . و أقول : إنّ حقيقة الشخص كما يقال لها " التعين الوجوبي "كذلك يقال لها " التعين الإمكاني " الذي هو ظلّه . انتهى .

و لفظ الحقيقة لا يطلق على الله تعالى ، بل على اسم من أسماء الله تعالى الذي هو مبدأ تعين ذلك الشيء و حقيقته الوجوبية . فلا يرد أنّ أسماء الله توقيفية .

إذا تمهّد هذا فاعلم : أنّ لنبينا ﷺ بحسب تقلّبه في أطواره و أنواره كمالات لا تحصى و مقامات لا تستقصى . فله عليه الصلاة والسلام باعتبار هذا الوجود العنصري و إرشاده لهذا العالم الظلماني اسم مبارك هو محمد ﷺ ، ناش من حقيقته . وهو اسم إلهي يناسب تربية هذا العالم السفليّ المسمّى بحقيقة محمدية .

وله عليه الصلاة والسلام باعتبار وجوده الروحانيّ المربي لعالم الملكوت النورانيّ اسم آخر هو أحمد ، ناش عن اسم و شأن إلهيّ هو مبدأ و أصل للحقيقة المحمدية يناسب تربية ذلك العالم العلويّ المسمّى بالحقيقة الأحمدية المعبّرة بحقيقة الكعبة الربّانية . أي المربي للكعبة و مثبتها .

وله عليه الصلاة والسلام وراء هذين التعينين اللذين هما كالأحياز الطبيعية له عليه الصلاة والسلام عروجات لا تعدّ و أسرار لا تنفد . و إليها يشير قوله عليه الصلاة والسلام : لي مع الله وقت لا يسعني في ذلك الوقت ملك مقرّب ولا نبي مرسل .

و بها يؤمي قوله تعالى : فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ . و هو مورد السرّ الاصطفائيّ و المحبوبيّة الصرفة . و هي مناط الفضل و مدار التفوّق .

فثبت من هذا التقرير و البيان أنّ التفوّق إنّما هو لبعض كمالاته و مراتبه عليه الصلاة و السلام على بعض مراتب له عليه الصلاة و السلام . و إنّ حقيقة الكعبة الربّانية بعض من حقائقه العالية و جزء من حقيقته الجامعة الشاملة . فبطل توهّم التفوّق و أضمحل حديث الأفضلية .

و هذا الذي ذكرناه نبذة مما حقّقه الشيخ رحمه الله تعالى في جواب مسائل سئل عنها في المكتوب التاسع و المائتين من المجلّد الأوّل ، حيث قال : و ينبغي أن يعلم أنّ فضل الحقيقة على الحقيقة لا يوجب فضل الصورة على الصورة لجواز أن يحصل للصورة مع حقيقتها التي هي ربّها قرب و اتصال لم يتيسّر للصورة الأخرى . و هذا مما لا يخفى ، لأنّ كمال القرب إنّما هو بالفناء و البقاء و العروج المخصوص بالبشر ، وغير الإنسان الكامل له مقام معلوم . هذا ملخّص ما ذكروه في ذلك الزمان في الجواب من جانب الشيخ أحمد رحمه الله تعالى .

ثم اعلم : أنّ لفظ الحقيقة في عبارات الشيخ أحمد رحمه الله تعالى يطلق على معان شتّى . فمتى قوبلت بالحقيقة الأحمدية و الكعبة الربّانية يراد بها ما ذكرناه سابقًا من أنّه اسم إلهي مناسب لتربية العالم السفلي .

و متى ذكرت مطلقة يقصد بها الحقيقة الجامعة للحقيقة المحمدية و الأحمدية و الكعبة الربّانية . و هي المعبرة بحقيقة الحقائق . و هي الحقيقة التي لا واسطة بينها و بين الذات المقدسة . كما ذكر في آخر مكتوب من المجلد الثالث له قبيل وصاله بأيّام قليلة : أنّ الحقيقة المحمديّة ظهور أوّل و حقيقة الحقائق . انتهى . هذا . والله أعلم بالحقائق و الأسرار و الدقائق .

الباب السادس عشر بعد المائة
في الجواب الرابع والأربعين ومائة

مقدّمة في كلمات تفيد التشبيه

قال ابن ناقيا البغدادي المتوفّى سنة ٤٨٥هـ في كتابه "الجمان في تشبيهات القرآن" : للتشبيه أدوات : منها الكاف و "كأنّ" و "مثل" و "شبيه" و نحو ذلك . و ربما استغني عن هذه الأدوات بالمصدر نحو : خرج خروج القدح ، و طلع طلوع النجم ، و مرق مروق السهم . ولا يكثر مثل هذا في التنزيل . و إنّما عامة التشبيهات هناك مقرونة بالأدوات . انتهى .

و قال ابن أبي عون البغدادي المتوفّى سنة ٢٣٣هـ في كتاب التشبيهات : و العرب أيّدك الله تشبه "بكأنّ" كقول امرئ القيس :

كأنَّ عُيُوْنَ الْوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا وَ أَرْحُلِنا الجَزْعُ الّذِي لَمْ يُثَقَّبِ

و "بكمن" كقول أوس بن حجر :

فإنّكما يَا ابْنَي جَنَابٍ وُجِدْتُمَا كَمَنْ دَبَّ يَسْتَخْفِي و في الحلْقِ جُلْجُلُ

و بالكاف و "بمثل" و "بكما" كقول كعب بن زهير :

وَلَا تَمَسَّكُ بِالعَهْدِ الذي عَهِدَتْ إلّا كما يُمسِكُ الماءَ الغرابِيلُ

و "بكمثل" و "كأمثال" و "تخال" و "تظن" و "تكاد" و ما أشبهها . و بإضمار أحد هذه

الحروف إذا لم يتسع للشاعر إقامة الوزن بإظهاره . كقوله :

سَمَوْتُ إليها بعدَ مَا نَامَ أَهْلُها   سُمُوَّ حَبَابِ الماءِ حالاً على حالِ

أراد : مثل سمو حباب الماء . انتهى .

و الأكثر الأشهر : الكاف و "مثل" (بسكون الثاء) . و يعلم بعد التفتيش و الفحص التامّ أنّ الأغلب في المشبّه به في التشبيه بالكاف اشتراط كونه أتمّ و أقوى من المشبّه . و هذا ظاهر .

و الغالب في المشبّه به في التشبيه "بمثل" عدم اشتراط ذلك . بل يفيد المساواة فقط بشرط لا شيء . أي لا تفاضل ، أو المساواة مطلقًا . أي لا بشرط شيء .

و إن شئت فقل : المشاركة مطلقًا أي لا بشرط شيء . فيحتمل التفاضل أيضًا .

ثم إنّ " مثل " قد يفيد التفاضل ، و الكاف ربما تفيد المساواة البحتة دون التفاضل . و وجه ذلك على ما يخطر بالبال ، والله أعلم بحقيقة الحال : أنّ الكاف قد تستعمل في معنى " مثل " فتفيد المساواة لقيام قرينة ، و لا " مثل " قديستعمل في معنى الكاف . فيكون للمفاضلة لتحقّق القرينة بناءً على وضع " مثل " للمساواة فقط بشرط لا شيء . و أمّا على وضعه للمشاركة المحضة لا بشرط شيء فلا حاجة إلى جعله عند إفادة المفاضلة بمعنى الكاف .

ولهذا الاستعمال نظائر : **منها** : ما قالوا : إنّ " إذ " و " إذا " للظرفية ، الأولى للماضي والثانية للحال أو المستقبل . لكن قد تحمل " إذ " على " إذا " فتكون للمستقبل ، كما في قوله تعالى : فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ . وقد تحمل " إذا " على " إذ " فتكون للماضي ، كما في قوله تعالى : وَ إِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا .

ومنها : ما قالوا : إنّ " بلى " و " نعم " حرفا جواب . وا لأولى تختص بالنفي و تفيد إبطاله ، كما في قوله تعالى : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ . و الثانية حرف تصديق للمخبر بنفي أو إيجاب .

ثم قد تستعمل " بلى " في الإيجاب حملاً على " نعم " . و منه ما في صحيح البخاري في كتاب الإيمان : أنّه عليه الصلاة والسلام قال لأصحابه رضي الله عنهم : أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة ؟ قالوا : بلى . و كذا

" نعم " لإبطال النفي حملاً لها على " بلى "، كما في قول الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، و قد قال لهم النبي ﷺ " ألستم ترون لهم ذلك " : نعم . أي نعرف لهم ذلك .

ومنها : ما قالوا : إنّ الأصل في خبر " عسى " المضارع مع " أن "، و في خبر "كاد " المضارع بغير " أن " . ثم قد يخلو خبر " عسى " عنها حملاً على "كاد "، و تدخل على خبر "كاد " حملاً على " عسى " .

و إنّما قلت : إنّ "مثل " يفيد المساواة بين الطرفين، لتبادر هذا المعنى منه إلى الذهن . و التبادر قرينة الحقيقة، و لكثرة استعماله في ذلك في كلام البلغاء، كما ستعرفه في الشواهد الآتية .

و بعد بيان هذه المقدمة أقول : لا يبعد أن يقال : إنّ الكاف في قولنا "كما صلّيت على إبراهيم" بمعنى "مثل " . فلا يفهم من هذا التشبيه إلّا مساواة الطرفين المشبّه و المشبّه به، أي مساواة محمد و صلاته لإبراهيم و صلاته عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

و المساواة و إن كانت تضرّنا لكن نحن بصدد دفع أفضليّة المشبّه به ههنا . و هذا القدر يكفينا . و لإثبات أفضليّة نبينا ﷺ دلائل أخر كثيرة من الإجماع و الآثار .

فصل

هذه شواهد أفاد فيها " مثل " المساواة بدون تفاضل مطلقًا أو بدون تفاضل معتدّ به، و تفاوت كثير :

فمنها : ما روى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا : من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من يتبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا . و من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من يتبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئًا . أخرجه الترمذي و صحّحه .

المراد : المساواة في الأجر، بدليل ما بعده و هو : لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا . و كذا المراد من قوله : مثل آثام إلخ .

ومنها : ما رواه جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا : من سنّ سنة خير فاتُّبع عليها فله أجره

و مثل أجور من اتّبعه غير منقوص من أجورهم شيئًا . و من سنّ سنة شرّ فاتّبع عليها كان عليه وزره و مثل أوزار من اتّبعه غير منقوص من أوزارهم شيئًا . أخرجه الترمذي .

ومنها : ما روت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مرفوعًا : إذا تصدّقت المرأة من بيت زوجها كان لها به أجر و للزوج مثل ذلك و للخازن مثل ذلك . ولا ينقص كلّ واحد منهم من أجر صاحبه شيئًا . له بما كسب و لها بما انفقت . أخرجه الترمذي .

ومنها : ما روى زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا : من فطّر صائمًا كان له مثل أجره غير أنّه لاينقص من أجر الصائم شيئًا . أخرجه الترمذي .

ومنها : ما في حديث الشفاعة الكبرى : فيقول عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : إنّ ربّي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله و لن يغضب بعده مثله . وكذا يقول كلّ نبي آدم و نوح و إبراهيم و موسى عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . أخرجه الترمذي . الأنسب بالسياق و الأمس بالمرام أن يراد هنا من " المثل " المساوي لا الأدنى ، إذ الكلام سيق لبيان التهويل و شدّة الغضب . و المقصود نفي غضب يساوي غضب هذا اليوم . و هذا أشدّ تهويلاً من أن يراد نفي غضب هو أدنى من غضب هذا اليوم .

ومنها : ما روى أبو مسعود البدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا : من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله . و في رواية أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أنّ الدالّ على الخير كفاعله . أخرجهما الترمذي . و الكاف في "كفاعله " بمعنى " مثل " للمساواة ، بدليل " مثل " في الرواية الأولى .

ومنها : حديث بيع الربويات . ففي جميع طرقه ذكر لفظ " مثل " دون الكاف . أخرج الترمذي وغيره عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفرعًا : الذهب بالذهب مثلاً بمثل و الفضة بالفضة مثلاً بمثل و التمر بالتمر مثلاً بمثل و البر بالبر مثلاً بمثل و الملح بالملح مثلاً بمثل و الشعير بالشعير مثلاً بمثل ، فمن زاد أو ازداد فقد أربى .

ومنها : قوله تعالى : وَ إِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُمْ . المراد من " الأمثال " المساوون في التولّي ، لأنّ السياق سياق التنبيه و بيان قدرة الله على الاستبدال . و هذا يقتضي أنّ الأمثال المنفيّون في قوله تعالى " ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُمْ " هم المساوون في التولّي ليظهر فضل

الذين يستبدلهم الله إن شاء في عدم التولّي . ولا فائدة في نفي من هو أدنى ، حيث لا يثبت منه نفي المساوي في التولّي مع أنّ المقصود ذلك .

أخرج عبد الرزاق و الترمذي و ابن جرير و ابن أبي حاتم و الطبراني في الأوسط و البيهقي في الدلائل عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية " وَإِن تَتَوَلَّوْاْ " الآية . فقالوا : يا رسول الله ! من هؤلاء الذين إن تولّينا استبدلوا بنا ثمّ لا يكونوا أمثالنا . فضرب رسول الله ﷺ على منكب سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثم قال : هذا و قومه . و الذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطًا بالثريّا لتناوله رجال من فارس .

ومنها : قوله تعالى : وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا . و البيان البيان .

ومنها : قوله تعالى : فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ . ليس المراد من المثل ههنا الأدنى ولا يصح ، بل المساوي في الفصاحة و البلاغة و التأثير و الجامعية . هذا على أنّ الضمير راجع "لما" التي هي عبارة عن المنزل ، و لذا قال المفسّرون في معناها : بسورة مماثلة للقرآن في البلاغة و الأسلوب المعجز .

فقولهم " مماثلة " دليل آخر على أنّ " مثل " للمساواة ، إذ "مماثلة" بمعنى مساوية ، و هو من المثل .

أو المعنى : ائتوا من مثل هذا العبد في البشرية بمقدار سورة تماثله . إن كان الضمير راجعًا للعبد .

ومنها : قوله تعالى : مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ . أي نأت بما هو خير للعباد منها أو مماثل مساو لها . فالمراد من "المثل" ههنا المماثل المساوي ، بدليل مقابلته لخير ، لا الأدنى . نعم ، بحثوا على المثليّة بأنّها في الثواب أو الحكم أو في غير ذلك .

و لكون "المثل" بمعنى المساوي مجمعًا عليه . احتجّ بعض العلماء بهذه الآية و منع نسخ القرآن بالسنة . و منع النسخ ببدل أثقل من الأوّل ، لأنّ السنّة ليست بخير من القرآن ولا مثله . و الأثقل ليس بخير من القرآن ولا بمثل له .

و **أشكل هذا** على الجمهور حيث جوّزوا ذلك . فأجابوا بأجوبة شافية مع تسليم أن" المثل " بمعنى المساوي .

ومنها : أنّه ليس المراد الخيرية و المماثلة في اللفظ و في الظاهر ، بل في النفع و الثواب و المصلحة . فجاز أن يكون الأثقل باعتبار النفع و المصلحة خيرًا من الأخف أو مماثلًا له ، و أن يكون ما اشتملت عليه السنّة خيرًا أو مماثلًا في ذلك .

و هذا أدلّ دليل و في حكم الإجماع على أنّ أصل وضع "المثل" لغةً للمساوي لا للأدنى . و لذا لم يجب أحد متمسكًا بلفظ " مثل " بتسليم أنّ السنّة و إن كانت أدنى من القرآن لكن يجوز أن تنسخ القرآن لكونها مثله أي أدنى منه . و كذا الأثقل بالنسبة إلى الأخف .

بل لو كان مثل الشيء ما هو أدنى منه مع نوع مشابهة في أمر لكانت هذه الآية أكبر حجّة لجواز نسخ الكتاب بالسّنة ، لأنّها مع كونها أدنى من القرآن تشبه القرآن في كونهما وحيًا من الله . و إذ لم يذكروا هذه الحجّة المأخوذة من لفظ " مثل " مع ظهورها و قوّتها على هذا التقدير علم أنّ وضع هذا اللفظ للمساوي مما أجمعوا عليه . هذا . ولله الحمد .

ومنها : قوله تعالى : وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ . أي بما يساوي ما عوقبتم به . فالمراد المساواة و نهيه تعالى إيّاهم عن زيادة العقاب ، بدليل ما أخرج الترمذي وغيره في شأن نزول هذه الآية عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : لمّا كان يوم أحد أصيب من الأنصار . و فيه : فقالت الأنصار : لئن أصبنا منهن يومًا مثل هذا لنربين عليهم . قال : فلمّا كان يوم فتح مكة فأنزل الله تعالى : وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ . الآية .

ومنها : قوله تعالى : وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ . أي في العدد و كونهن سبعًا مثل السماوات . فالمقصود التساوي في العدد . ولذا استدلّ العلماء بهذه الآية على أنّ الأراضي سبع كما أنّ السماوات سبع .

ومنها : ما أخرج الترمذي و أحمد و النسائي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه جبريل عليه السلام فقال له : قم فصله . و فيه : فصلّى العصر حين صار ظلّ كلّ شيء مثله . و فيه : و في اليوم الثاني ، فصلّى العصر حين صار ظلّ كلّ شيء مثليه .

أراد من المثل مساواة الظلّ للشيء ، و من المثلين ضعفه .

ومنها : ما أخرج الترمذي في التفسير عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه لتفسير قوله تعالى : عَلَيْكُمْ

أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ. فذكر حديثًا طويلًا . و فيه : فإنّ من ورائكم أيّامًا ، الصبر فيهنّ مثل القبض على الجمر . للعامل فيهن أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عملكم . قيل : يا رسول الله ! أجر خمسين رجلًا منّا أو منهم ؟ قال : لا ، بل أجر خمسين رجلًا منكم .

القصد تساوي أجر عمل عامل في آخر الزمان و أجر خمسين عاملًا . و أكّد هذا التساوي بقوله عليه الصلاة والسلام : لا ، بل أجر خمسين رجلًا منكم .

ومنها : ما أخرج الترمذي حديث التميم الداري رضي الله عنه و صاحبه عدي بن بداء و بيعهما الجام بألف درهم و اقتسامهما الألف . و فيه : و أدّيت خمسمائة درهم و أخبرتهم أنّ عند صاحبي مثلها . المراد من المثل خمسمائة درهم .

ومنها : عادة المحدثين حيث يذكرون حديثًا بطريقه ثم يذكرون له طريقًا آخر و يقولون في آخره : مثله أو بمثله . و يريدون بذلك تساوي الحديثين متنًا . و هذه عادة لهم فاشية .

ومنها : ما أخرج الترمذي وغيره مرفوعًا : أربع قبل الظهر بعد الزوال تحسب بمثلهن من صلاة السحر .

ومنها : ما أخرج الترمذي وغيره عن المغيرة رضي الله عنه في ذكر من هو أدنى منزلة من أهل الجنة ، فذكر فيه : فيقول : كيف أدخل الجنة و قد نزلوا منازلهم و أخذوا أخذاتهم . قال : فيقال له : فإن لك هذا و مثله و مثله . فيقول : قد رضيت أي ربّ . فيقال له : فإنّ لك هذا و عشرة أمثاله .

ومنها : ما أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتيت ليلة أسري بي على قوم بطونهم كالبيوت ، فيها الحيات تجري من خارج بطونهم . فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة الربا . و في رواية أبي سعيد رضي الله عنه : أنّه عليه الصلاة والسلام مرّ ليلتئذٍ بقوم لهم أجواف مثل البيوت .

" فمثل " في قوله " مثل البيوت " للمساواة كما لا يخفى ، و الكاف في رواية أبي هريرة رضي الله عنه المتقدّمة بمعنى " مثل " أفادت التساوي ، بدليل الرواية الثانية .

و هذه بينة واضحة على أنّ الكاف تقوم مقام " مثل " و تفيد مفاده . و الله أعلم .

ومنها : ما روى العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حديثًا طويلًا رفعه ، و فيه : ثم قال : فوق السماء السابعة بحر بين أعلاه و أسفله كما بين السماء إلى السماء ، و فوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهن و ركبهن مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم فوق ظهورهنّ العرش بين أسفله و أعلاه مثل ما بين السماء إلى السماء ، و الله فوق ذلك . أخرجه الترمذي في التفسير .

أريد مساواة بعد ما بين أظلافهن و ركبهن لبعد ما بين سماء إلى سماء . "فمثل" في الموضعين للتساوي و الكاف أيضًا في التشبيه الأوّل للتساوي . فهي بمعنى " مثل " بدليل ما بعدها .

فصل

ثم ههنا قرائن متعددة تدل على أنّ "مثل" للتساوي في وجه التشبيه دون التفاضل ، بعضها لغوية و بعضها اصطلاحية . ولا أدّعي أنّ هذه كلّها دلائل مثبتة للدعوى ، بل هي قرائن يستأنس بها . و إن كان بعضها أدخل في مرامنا ،كأنّها دلائل .

القرينة الأولى : تبادر هذا المعنى منه إلى الذهن . و التبادر قرينة الحقيقة . ولا أقول : إنّ غير التساوي معناه المجازي ، بل يكفينا أنّ التساوي أسبق إلى الذهن .

القرينة الثانية : كثرة استعماله في هذا المعنى الدالّة على أنّ التساوي أصل معناه الموضوع له أو كالأصل ، كما عرفت في الشواهد المتقدّمة .

القرينة الثالثة : أنّ الكاف حرف مفرد و " مثل " مثلث . و كثرة الحروف قرينة المبالغة في قرب المشبّه من المشبّه به ، و في شدّة التعانق بين الجانبين في وجه الشبه . و القرب يقتضي التساوي و يدفع التفاضل رأسًا أو التفاضل الفاحش .

و هذا كما قالوا : إنّ "الرحمن" أبلغ من "الرحيم" لكثرة حروفه ، و إنّ "شبيهًا" على وزن فعيل أبلغ من "شبه" (بكسر الشين و سكون الباء) لكثرة حروف " شبيه " و قلّة حروف " شبه " .

قال الإمام أبو هلال : الفرق بين الشبه و الشبيه أنّ الشبه أعم من الشبيه . ألا تراهم يستعملون

الشبه في كلّ شيء . و قلّما يستعمل الشبيه إلّا في المتجانسين . تقول : زيد يشبه الأسد أو شبه الكلب . ولا يكادون يقولون : شبيه الأسد و شبيه الكلب . و يقولون : زيد شبيه عمرو . لأنّ باب فعيل حكمه أن يكون اسم الفاعل الذي يأتي فعله على فعل . ولا يأتي ذلك في الصفات .

فإذا قلت " زيد شبيه عمرو " فقد بالغت في تشبيهه به و أجريته مجرى ما ثبت لنفسه . و إضافته إليه إضافة صحيحة . و إذا قلت "زيد شبه عمرو" و "عمرو شبه الأسد" فهو على الانفصال ، أي شبه لعمرو و شبه للأسد ، لأنّه نكرة . و كذلك الفرق بين " العدل " (بكسر العين و سكون الدال) و "عديل" سواء . و ذلك أنّ العدل أعمّ من العديل . و ما كان أعمّ فإنّه أخصّ بالنكرة ، فهو للجنس وغير الجنس . تقول : عمرو عدل و زيد عديله . و عدل الأسد . و لا يقال : عديله . انتهى .

القرينة الرابعة : ما يفهم من كلام الإمام الأديب الحسن بن عبد الله بن سهل أبي هلال العسكري المتوفّى بعد الأربع مائة كما قال السيوطي رحمه الله تعالى ، حيث قال في كتابه الفروق ص١٤٨ : الفرق بين المثل (بكسر فسكون) و الشكل أنّ الشكل هو الذي يشبه الشيء في أكثر صفاته ، حتى يشكل الفرق بينهما ، و يجوز أن يقال : إنّ اشتقاقه من الشكل ، و هو الشمال واحد الشمائل . قال الشاعر :

حَيِّ الحُمولَ بجانِبِ العَزْلِ إذ لا يُلائِمُ شَكْلُهَا شَكْلِي

أي لا توافق شمائلها شمائلي . فمعنى قولك " شاكل الشيء الشيء " أنّه أشبهه في شمائله . ثم سمّي المشاكل شكلاً كما يسمّى الشيء بالمصدر . و لهذا لا يستعمل الشكل إلّا في الصور . فيقال : هذا الطائر شكل هذا الطائر . ولا يقال : الحلاوة شكل الحلاوة . و مثل الشيء ما يماثله و ذاته . انتهى . فقوله " و مثل الشيء ما يماثله و ذاته " صريح في أنّ كلمة "مثل" تدلّ على الاتحاد في الذات و الذاتيات . و هو معنى التساوي .

القرينة الخامسة : ما ذكره أيضًا أبو هلال العسكري قال : الفرق بين كاف التشبيه و بين المثل (بسكون الثاء مع كسر ما قبلها) أنّ الشيء يشبه بالشيء من وجه واحد ، و هذا مدلول الكاف ولا يكون مثله ، أي ما هو مدلول كلمة "مثل" في الحقيقة إلّا إذا أشبهه من جميع الوجوه لذاته . فكأنّ الله لمّا قال " لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ " أفاد أنّه لا شبه له ولا مثل .

ولو كان قوله تعالى " لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ " نفيًا أن يكون لمثله مثيل لكان قولنا " ليس كمثل زيد رجل " مناقضة ، لأنّ زيدًا مثل من هو مثله .

و التشبيه بالكاف يفيد تشبيه الصفات بعضها ببعض ، و بالمثل يفيد تشبيه الذوات بعضها ببعض . تقول " ليس كزيد رجل " أي في بعض صفاته ، لأنّ كلّ أحد مثله في الذات ، و " فلان كالأسد " أي في الشجاعة دون الهيئة وغيرها من صفاته . و تقول : السواد عرض كالبياض . ولا تقول : مثل البياض . انتهى .

فقوله " ولا يكون مثله في الحقيقة إلّا إذا أشبهه من جميع الوجوه لذاته " صريح فيما ادّعينا من الفرق بين الكاف و كلمة " مثل " .

قال العبد الضعيف الروحاني البازي : قد ألهمني ربّي الفرق الذي رقمته من قبل بين الكاف و لفظة " مثل " قبل الاطلاع على قول هذا الإمام أبي هلال العسكري . و هكذا أكثر الأجوبة البديعة و التحقيقات الشريفة المسطورة في هذا الكتاب . كثيرًا ما أتفكّر و أقدر و أستقرىء الفكر الفاتر و أستنبط فأحرّر و أكتب و أهذّب و أفصّل على حسبما يقع في خاطري متخوّفًا من خلاف الحق ، لأنّي صاحب قلم مكسور و صدر مصدور ، داعيًا ربّي أن يطّلعني على الحق و على مؤيدات من نصوص العلماء الكبار ليطمئنّ قلبي ، ثم أطّلع على ذلك في غير ما موضع . فإذا رأيت ما يؤيّدني و يوثق مقالتي أحمد الله سبحانه و أستبشر استبشارًا . فلا تسأل يا أخي عما يحصل لي عندئذٍ من الابتهاج و السرور ، حيث ألقى الله سبحانه في روعي ما هو صواب عند السلف ، و وافق ما نبع من ذهني القاصر ما خرج من أذهان المحققين . ولله الحمد و المنة و عليه التكلان .

القرينة السادسة : ما حكي عن إمام الأئمة أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّه كان يقول : إيماني كإيمان جبريل ولا أقول إيماني مثل إيمان جبريل .

و وجهه أنّا معاشر البشر نؤمن بكلّ ما يجب الإيمان به ، كما أنّ الملائكة آمنوا بجميع ذلك . ثم أنّ كلمة " مثل " تقتضي المساواة في جميع الأحوال و الصفات أو أكثرها . و معلوم أنّ الملائكة يرون ما لانراه و يشاهدون من أسرار عالم الملك و الملكوت و عالم اللاهوت و الجبروت ما لا نشاهده . فلا يمكن

أن يساوي إيمان البشر إيمان الملائكة في هذه الصفات العالية و الأحوال الغائبة لا كلّيًا ولا أكثريًّا .

فلا يصح أن يقول البشر : إيماني مثل إيمان جبربل ، لاقتضاء " مثل " التساوي ، و صحّ أن يقول : إيماني كإيمان جبريل ، لعدم اقتضاء الكاف التساوي ، بل يكفيها المشابهة بوجه ما . و مطلق المشابهة متحققة ألبتة ، فصحّ إيراد الكاف . و قد تقدّم البحث على قول أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ هذا فيما تقدم .

القرينة السابعة : قالوا : إنّ الفرق بين المساواة و المماثلة أنّ المساواة تكون في المقدارين اللذين لا يزيد أحدهما على الآخر ولا ينقص عنه . و التساوي التكافؤ في المقدار . و المماثلة هي أن يسدّ أحد الشيئين مسدّ الآخر كالسوادين . كذا قال العسكري . يفهم من هذا الكلام أنّ المثليّة تستدعي التساوي بين المماثلين بحيث يسدّ أحدهما مسدّ الآخر ، و يغني هذا غناء ذاك كالسوادين . و المماثلة مأخوذة من المثل .

القرينة الثامنة : قال أيضًا : الفرق بين المثلين و المتّفقين أنّ التماثل يكون بين الذوات على ما ذكرنا ، و الاتفاق يكون في الحكم و الفعل . تقول : وافق فلان فلانًا في الأمر . ولا تقول : ماثله في الأمر . انتهى .

القرينة التاسعة : قال أيضًا : الفرق بين المثل و العديل أنّ العديل ما عادل أحكامه أحكام غيره وإن لم يكن مثلاً له في ذاته . و لهذا سمّي العدلان عدلين و إن لم يكونا مثلين في ذاتهما ولكن لاستوائهما في الوزن فقط . انتهى .

فهذان الفرقان أيضًا يؤيدان ما ذكرنا . فتأمّل .

القرينة العاشرة : ما قال علماء المعاني و البيان و الأدب في الفرق بين المثال و النظير (و "المثال" بمعنى "مثل" و مادته مادته) : إنّ المثال ما كان فردًا من أفراد الممثّل له ، كقولنا : الاسم كرجل ، و الحرف كمِن ، و الإنسان كزيد . و النظير ما يوضح ، ولا يكون فردًا لما ذكر هو لإيضاحه ، كقولنا : العلم كالحياة و النور .

و مآل كلامهم هذا أنّ المثال و المثل يجدي المساواة ، فإنّ الأفراد كلّها متساوية الأقدام في الذات . ألا ترى أنّ "رجلاً " في المثال المتقدّم يساوي كلّ اسم في الدلاته على معنى مستقلّ من غير اقتران

أحد الأزمنة الثلاثة بدون تفاوت في هذا المعنى .

القرينة الحادية عشر : المذكور في مطوّلات فنّ الكلام أنّ كلّ اثنين عند أهل الحق ثلاثة أقسام : المثلان ، و الضدّان ، و المتخالفان .

أمّا المثلان فهما المتحدان بالنوع . و بعبارة أخرى موجودان مشتركان في جميع صفات النفس . و صفة النفس ما دلّ على الذات كالموجودية و الجوهرية و الإنسانية ، و يقابلها الصفة المعنوية ، و هي ما دلّ على معنى زائد على الذات كالتحيّز و الحدوث . و يلزم في صفات النفس المساواة فيما يجب و يمكن و يمتنع . و لذا قالوا : المثلان ما يسدّ أحدهما مسدّ الآخر في الأحكام الواجبة و الجائزة و الممتنعة جميعًا .

و أمّا الضدّان فهما معنيان يستحيل اجتماعهما في محلّ كالسواد و البياض .

و أمّا المتخالفان فما سوى المتماثلين و الضدّين كالحيوان و الإنسان . كذا قال العلّامة الثاني السعد التفتازاني وغيره .

القرينة الثانية عشر : هنا قول آخر للأشاعرة ، و هو قولهم بتجدّد الأمثال . اعلم : أنّ الأشاعرة ذهبوا إلى أنّ العرض لا يبقى زمانين ، بل ينعدم و يتجدّد مثله في كلّ آن . فلون هذا الثوب الأسود يفني في كلّ آن ، و يحدث في موضعه و محلّه سواد آخر مثل الفاني . ثم يفني السواد الثاني و يوجد سواد ثالث في محلّه ، و هلّم جرًّا . و إنّما يتوهّم بقاء اللون الأوّل لكون المتجدد مثل الفاني . فتوهّم بقاءه من غلط الحس ، كما نزعم أنّ نار الفتيلة قائمة ، مع أنّها سيالة تنطفيء و يعقبها أخرى . و فرعوا على هذه القاعدة غير واحد من المسائل الاعتقادية .

فأطلقوا الأمثال على الأعراض المتجدّدة لتساويها و اتحادها صورةً و حقيقةً ظاهرًا و باطنًا حتى يتوهّم أنّ هنا عرضًا واحدًا باقيًا .

القرينة الثالثة عشر : قول النظام المعتزلي بتجدّد الجواهر و الأجسام ، أي أمثالها مثل تجدّد الأعراض و أمثالها عند الأشاعرة . و البيان البيان . و اعترضوا على النظام أشدّ الاعتراض و قالوا : قوله سفسطة .

القرينة الرابعة عشر : قول المتكلمين و غيرهم : إنّ الله تعالى لا يماثله شيء . و إلّا لزم تعدّد الوجباء ، بل التركيب المنافي للوجوب .

قال التفتازاني : أمّا إذا أريد بالمماثلة الاتحاد في الحقيقة فظاهر . و أمّا إذا أريد بها كون الشيئين بحيث يسدّ أحدهما مسدّ الآخر ، أي يصلح كلّ واحد منهما لما يصلح له الآخر ، فلأنّ شيئًا من الموجودات لا يسدّه تعالى في شيء من الأوصاف . فإنّ أوصافه من العلم و القدرة وغير ذلك أجلّ و أعلى مما في المخلوقات بحيث لا مناسبة بينهما . انتهى كلامه في شرح العقائد النسفية .

القرينة الخامسة عشر : قول الإمام الزاهد نور الدين أحمد بن محمود البخاري المشهور بالإمام الصابوني في كتابه " بداية الكلام " مستدلًّا على أنّ الله تعالى لا يماثله شيء .

قال : إنّ العلم منّا موجود و عرض و علم محدث و جائز الوجود و يتجدّد في كلّ زمان . فلو أثبتنا العلم صفة لله تعالى لكان موجودًا و صفة قديمة و واجب الوجود و دائمًا من الأزل إلى الأبد . فلا يماثل علم الخلق بوجه من الوجوه . هذا كلامه .

قال السعد التفتازاني بعد ذكر هذه العبارة : فقد صرّح بأنّ المماثلة عندنا إنّما يثبت بالاشتراك في جميع الأوصاف ، حتى لو اختلفا في وصف واحد انتفت المماثلة . انتهى .

القرينة السادسة عشر : قالوا : إنّ التماثل عند الحكماء عبارة عن الاشتراك في تمام الماهية . فالمتماثلان عندهم المشتركان في تمام الماهية .

و قال المتكلمون : هما الموجودان المشتركان في الصفات النفسية . و هي عندهم كلّ صفة ثبوتية راجعة إلى نفس الذات ، لا إلى معنى زائد عليها ، أي لا يحتاج وصف الشيء به إلى تعقل أمر زائد عليه كالإنسانية و الوجود و الشيئية و الحقيقة للإنسان .

و يقابلها الصفات المعنوية . و هي التي يحتاج في الوصف بها إلى تعقّل أمر زائد على ذات الموصوف كالتحيّز و الحدوث .

أو يقال : النفسية هي التي تدلّ على الذات بدون معنى زائد عليها ، و المعنوية ما تدلّ على معنى

زائد على الذات . كذا في خاتمة الحواشي للحكيم المنطقي العلامة الشيخ عبد الحق الهندي الخير آبادي المتوفّى في شوال سنة ١٣١٦هـ على شرح السلّم في المنطق للقاضي الكوفاموي ص٨٣ . طبع الهند .

القرينة السابعة عشر : قال الحكماء و المتكلمون في نفي كون الله تعالى والدًا أو ولدًا ، كما قال الله تعالى : لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ .

قالوا في بيان ذلك : إنّ الوالد و الولد يجب أن يكونا متكافيَين و متماثلَين . و التكافؤ عبارة عن التلازم وجودًا أو تعقّلًا .

أمّا تعقّلًا فهو أن يكون تعقّل أحد المتلازمَين موقوفًا على تعقل الآخر .

و أمّا وجودًا فهو التلازم بين الشيئين بحيث يستدعي كلّ منهما بحسب الذات وجود الآخر ، و يأبى انفكاكه عنه . كذا في شروح شرح القاضي محمد مبارك لسلّم العلوم .

و التماثل بين الشيئين عبارة عن اشتراكهما في الماهية النوعية مثل زيد و عمرو . فإنّهما فردان للإنسان و هو نوع .

أو في الماهية الجنسية كالإنسان و الفرس المشتركين في الحيوانية . و الحيوان جنس لهما .

و يعبّر عن الأوّل بالاشتراك في تمام الماهية ، و عن الثاني بالاشتراك في نفس الماهية وبالاشتراك في الذاتيّ . فإنّ الجنس ذاتيّ و جزء لما تحته من النوع ألبتة .

فالتماثل يوجب التساوي فيما هو مبنى المثليّة و التماثل ، وهو الإنسانيّة في زيد و عمرو . و إن شئت فقل : الكنه الإنسانيّ ، أي الحيوان الناطق . فزيد و عمرو متساويان في ذلك بدون أدنى تفاوت ، لكون الإنسان كلّيًّا متواطيًا .

و كذا الحيوانيّة بين الإنسان و الفرس . فالمتماثلان مشتركان في الذاتيّات أو في الذاتيّ .

و بعد هذا نقول : لو كان لله تعالى ولد لزم أن يكافئه و يماثله . فإن كان الولد واجبًا لزم انتفاء التكافؤ ، إذ المتكافي يتوقف على الغير في الوجود أو التعقل . و هو ينافي الوجوب . و أيضًا لزم التركيب المنافي للوجوب .

ولا يجوز أن يكون الولد ممكنًا ، إذ الممكن لا يماثل الواجب ، لا في تمام الماهية بأن يكون الولد و الواجب تعالى فردين لنوع واحد (العياذ بالله) و هذا ظاهر .

ولا في الجنس بأن يكونا نوعين تحت جنس . و إلّا لزم التركيب ، إذ كلّ ما له جنس فله فصل . و التركيب من خصائص الممكن و الحادث . و الله تعالى قديم بالذات ، منزّه عن شوائب النقص و الإمكان .

و هذا هو البيان بأدنى تغيير في نفي كونه تعالى ولدًا . فثبت أنّ الله سبحانه منزّه عن كونه والدًا أو ولدًا . والحمد لله .

القرينة الثامنة عشر : قال الفلاسفة : الأجسام كلّها متماثلة . فكلّ حكم يجري في نوع منها من حيث أنّه جسم وجب أن يجري في نوع آخر نظرًا إلى الذات الجسمية . و هذا هو مقتضى التماثل .

و بهذا أبطلوا رأي ديمقراطيس الحكيم الشهير . فإنّ ديمقراطيس قال : إنّ البسائط من الأجسام مركّبة من أجسام صغار صلبة لا تقبل التقسيم .

فردّ عليه أتباع أرسطو القائل بتقسيم الجسم لا إلى نهاية ، و قالوا : الأجسام متماثلة . ولا ريب أنّ الأجسام الكبيرة قابلة للانقسام . فوجب أن تكون هذه الأجسام الديمقراطيسيّة أيضًا قابلة للانقسام نظرًا إلى ذواتها على ما هو مقتضى التماثل . فبطل ما قال ديمقراطيس . هذا . والله أعلم بالصواب .

الباب السابع عشر بعد المائة
في الجواب الخامس والأربعين ومائة

اعلم : أنّي قد ذكرت في الباب الخامس من قبل جوابًا يبنى على التواضع .

و هنا مقام آخر عند العارفين أولى و أجلّ من التواضع المعروف . و الأحرى أن يعبّر عنه في حقّ الأولياء من الأمّة بمقام الانكسار و الاستصغار بأن يستصغر صاحبه نفسه في جنب الغير ، و في حق الأنبياء بمقام الفناء و العبودية العليا .

و هذا المقام ذوقي يحصل للأولياء بعد الرياضة الشديدة و المجاهدة و فناء النفس .

و العلماء و الأولياء ورثة النبي ﷺ ، بيد أنّ الأولياء ورثة باطنه عليه الصلاة والسلام ، أي هذا الجنب غالب فيهم ، كما أنّ العلماء ورثة ظاهره عليه الصلاة والسلام من أحكام الشريعة و مسائل العبادات ، أي هذه الجهة غالبة عليهم . و بعضهم ورثة الظاهر و الباطن كليهما .

و الوراثة تستدعي تخلق النبي ﷺ بما ورث منه . فلابدّ أن يكون هذا المقام الأعلى من أخلاقه عليه الصلاة والسلام كما أنّ التواضع من أخلاقه . و إلاّ لم تصحّ الإرث فيه . و أيضًا كان مذمومًا ، إذ كلّ خلق و مقام للأمّة لم يصدر عن النبي ﷺ فهو ردّ .

إن قلت : ما الدليل على تحقّق هذا المقام الأعلى في الأمّة ، و من أين أخذته ؟

قلت : أخذته من صريح كلام كثير من العارفين ، حيث صرّحوا بالفرق بينه و بين التواضع المعروف . منهم العارف الكبير الشيخ عبد الوهّاب الشعراني رحمه الله تعالى المتوفّى سنة ٩٧٢هـ ، حيث قال في

لطائف المنن ج٢ ص١٨٢ :

و ممّا أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ شهودي في نفسي أنّني دون كلّ جليس من المسلمين كشفًا و ذوقًا لا تواضعًا منّي . فإنّ لفظ التواضع يدلّ على أنّ صاحبه أثبت لنفسه مقامًا عاليًا ، ثم تنازل منه إلى جليسه .

و ما هكذا تواضع أهل الله . فإنّهم كلّما ارتفعوا في المقام ظهرلهم حقارة نفوسهم و كمال غيرهم إلى أن ينتهوا إلى شهود أنفسهم تحت الأرضين السفليات في المقام . فلو أنّ أحدًا أقام لهم الأدلّة على أنّهم أعلى مقامًا من أحد المسلمين لم يخرجهم عن شهود نقصهم ، بل لا يصغون إلى ذلك .

و في الحديث : من تواضع لله رفعه الله . فصرّح عليه الصلاة والسلام بأنّ القرب من حضرة الله إنّما يكون بالتواضع . و يفهم منه أنّ التكبر بالعكس .

وقد أجمع العارفون على أنّ العبد ما دام يشهد نفسه فوق أحد من المسلمين فلا يصح له دخول حضرة الله أبدًا ، لأنّها محرّمة على من فيه شيء من الكبر .

فإنّ أهلها ثلاثة أصناف : أنبياء و ملائكة و أولياء . و ليس عند أحد من هؤلاء شيء من الكبر بإجماع . فلا يدخل حضرتهم إلّا من تخلّق بأخلاقهم . و من لم يتخلق بأخلاقهم فهو ممنوع من دخولها حتى في صلاته . و صلاته جسم بلا روح .

و قد كان الإمام أبو القاسم الجنيد رحمه الله تعالى يقول : لا يبلغ أحد مقام الكمال في التواضع حتى يرى نفسه ليست بأهل أن تنالها رحمة الله تعالى ، أي على وجه الاستحقاق . و إنّما رحمة الله لها من باب الفضل و المنة .

و كان السرّي السقطي رحمه الله تعالى يقول : لا يبلغ أحد مقام التواضع حتى يرى أنّه لا يقف أحد للحساب يوم القيامة من المسلمين أكثر أوزارًا ولا معاصي ولا مخالفات منه .

و كان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول : لا يبلغ أحد مقام التواضع حتى يخرج إلى الجمعة أو العيد ، فلا يجد أحدًا في الطريق ولا فى المسجد أو مصلّى العيد إلّا وهو يرى نفسه دونه حتى يرجع .

و كان حمدون القصار رحمه الله تعالى يقول : من ظنّ بنفسه أنّه خير من فرعون فقد أظهر الكبر . لعل

مراده بفرعون أحد ملوك مصر من المسلمين الظالمين ، لا الملك الكافر المذكور في القرآن .

فعلم أنّ كلّ من تحقق بهذا المقام صار يمتدّ من كلّ جليس . و من رأى نفسه فوق جليسه أو مساويًا له حرم مدده . و ذلك أنّ المدد كالماء لا ينحدر إلّا في السفليات . فيا حرمان من رأى نفسه فوق جليسه ، أو مثله . و يا سعادة من رأى نفسه دونه .

ثم قال الشعراني رحمه الله تعالى : ثم لا يخفى أنّه لابدّ لصاحب هذا المقام من عينين : عين ينظر بها أنّه دون كلّ مسلم ليعطي العبودية حقّها و الذلّة لله تعالى حقّها . و عين ينظر بها إلى ما أنعم الله تعالى به عليه . فيرى نعمة الملوك من جملة نعم الله عليه ، لأنّ بوجودهم حفظ دينه و ماله و حريمه و القيام بشعائر الإسلام . فيشكر الله على ذلك . و صاحب العين الواحدة أعور ناقص . وقد ذكرنا علامات المتحقق بهذا المقام ذوقًا في أوّل كتاب البحر المورود في المواثيق و العهود . فراجعه . انتهى كلام الشعراني .

ومن هذا الباب ما قال أبو عبد الله الرازي رحمه الله تعالى : التواضع ترك التميز في الخدمة . و قيل لأبي يزيد رحمه الله تعالى : متى يكون العبد متواضعًا ؟ فقال : إذا لم ير لنفسه مقامًا ولا حالاً ، ولا يرى أنّ في الخلق من هو شرّ منه .

و قال مالك بن دينار رحمه الله تعالى : لو قيل " ليخرج شرّ من المسجد " ما سبقني إلى الباب أحد .

و قال الفضيل رحمه الله تعالى لشعيب بن حرب : يا أبا صالح ! إن كنت تظنّ أنّه شهد الموسم شرّ منّي و منك فبئس ما ظننت .

و قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : أرفع الناس قدرًا من لا يرى قدره ، و أكثرهم فضلاً من لا يرى فضله . و قال : من سام بنفسه فوق ما تساوي ردّه الله سبحانه إلى قيمته .

و حكي عن إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى : ما سررت في إسلامي إلّا ثلاث مرات : مرّة كنت في سفينة و فيها رجل مضحاك كان يقول : كنّا نأخذ العلج في بلاد الترك هكذا ، و كان يأخذ بشعر رأسي و يهزّني . فسرني ذلك ، لأنّه لم يكن يجد في تلك السفينة أحدًا أحقر في عينه منّي .

و الثانية : كنت عليلاً في مسجد . فدخل المؤذن و قال : أخرج . فلم أطق . فأخذ برجلي و جرّني إلى خارج المسجد .

و الثالثة : كنت بالشام و عليّ فرو . فنظرت فيه فلم أميّز بين شعره و بين القمل لكثرته . فسرني ذلك .

و في حكاية أخرى عنه أيضًا : ما سررت بشيء كسروري يومًا . كنت جالسًا فجاء إنسان فبال عليّ . كذا في نشر المحاسن الغالية للإمام عبد الله بن أسعد اليافعي رحمه الله تعالى .

فتفكّر في عبارات هؤلاء الأئمة و الأولياء تفز بفرق واضح بين هذا المقام الأعلى و بين التواضع المعروف . فإنّ المعروف من التواضع أن تتنازل إلى جليسك من مقامك مع رؤيتك لنفسك مقامًا عاليًا .

فنبينا و كذا سائر الأنبياء عليه و عليهم ألف صلوات و تسليمات كانوا متخلّقين بلا ريب على أكمل وجه بهذا المقام الأسنى حسب ما يليق بشأنهم العالي .

إذ كلّ مقام عالٍ حصل لورثتهم فإنّما هو من أشعّة شموسهم عليهم الصلاة والسلام . ولو لم يكونوا عليهم السلام متأدّبين به لما ندب الأئمة الناس إليه ، و لكان ردًّا لقوله عليه الصلاة والسلام : كلّ من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو ردّ ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

فهو عليه الصلاة والسلام كان متخلّقًا بهذا الخلق العظيم مع إخوانه من الأنبياء و الرسل ، و يعاملهم و يجاملهم عليهم الصلاة والسلام معاملة جميلة حسب هذا الخلق الكريم . نعم ، لا مجال لأمثالنا أن نعبّر عنه بسهولة .

بل نقول : إنّه كان بطريق يناسب شأنه الأجل و مقامه الأفضل . ولا نقول : كيف هو و ما حقيقته و ما كنهه ؟ فإنّ ذلك أمر فوق عقولنا عسير . و الأدب أن يقال : إنّه مما نؤمن به ، ولا نستطيع أن نعبّر عنه .

و أقرب التعبيرات أن يقال : هو مقام الفناء أو التواضع الأعلى أو العبدية العليا .

و لك أن تعدّ هذا المقام نوعًا من التواضع عاليًا و تقول : التواضع نوعان : أحدهما عرفي . و هذا لايبنى على شهود صاحبه نفسه دون جميع الجلساء ذوقًا ولا على غيبوبة مقامه عن قلبه و تصوره ، بل يكون فيه تنازل من مقامه العالي . و هو تواضع العوام . و هو المعروف المشهور .

و الثاني حقيقي يبنى على ذوق شهود متقدّم . وهو تواضع الخواصّ .

إذا عرفت هذا فأقول : لا يبعد أن يكون قوله عليه الصلاة والسلام في الصلاة الإبراهيميّة "كما صلّيت على إبراهيم" مبنيًّا على هذا المقام الأعلى من الشهود . فنزل إبراهيم عليه الصلاة والسلام بمنزلة من هو أفضل منه ، و نفسه صلى الله عليه وسلم بمثابة من هو أدنى منه شهودًا ، و إن كان هو عليه الصلاة والسلام أفضل الخلق مطلقًا . و لكلّ مقال مقام ، و لكلّ مقام كلام .

و يسهل عليك فهم تحقّق المراتب المتعدّدة . و منها هذه المرتبة في التواضع ما في المدخل ج٢ ص١١٩ للعارف ابن الحاج رحمه الله تعالى . قال : ثم لا يظنّ ظانّ أنّ الرئاسة إنّما هي في رتب الدنيا ليس إلاّ ، بل هي عامّة في رتب الدنيا و الآخرة . فمن كان عند نفسه شيء فهو عند الله لا شيء . و من كان عند نفسه لا شيء فهوعند ربّه شيء .

و لأجل هذا المعنى قال بعض الشيوخ ، نفعنا الله تعالى به : من رأى أنّه خير من الكلب ، فالكلب خير منه . و ما قاله بيّن . ألا ترى أنّ الكلب مقطوع له بأنّه لا يدخل النار ، بخلاف من لم يقطع له من الآدميين فإنّه محتمل لإحدى الدارين . فإن كان هذا الآدميّ من أهل النار ، العياذ بالله ، فالكلب خير منه . و إن كان من أهل الجنّة فلا شكّ أنّه خير من الكلب .

و لأجل هذا المعنى حكي عن إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى أنّه كان جائعًا ، و وجد فضلة طعام على مزبلة ، فجعل يأكل منه . و إذا بكلب قد جاء فأكل من الناحية الأخرى ، ثم نبح الكلب على إبراهيم . فقال إبراهيم : لا تنبح عليّ ولا أنبح عليك . كُلْ من جهتك ، و أنا آكل من جهتي . إن دخلت أنا الجنة فأنا خير منك . و إن دخلت النار فأنت خير مني . تصريحًا منه رحمه الله تعالى بالمعنى المتقدّم ذكره .

و قد قال الشيخ الإمام أبو عبد الرحمن الصقلي رحمه الله تعالى : إن كانت نفسك في هذه الأرض فسرك في سماء الدنيا . فإن نزلت إلى الأرض الثانية فسرك في السماء الثانية . فإن نزلت إلى الأرض الثالثة فسرك في السماء الثالثة . فإن نزلت إلى الأرض الرابعة فسرك في السماء الرابعة . فإن نزلت إلى الأرض الخامسة فسرك في السماء الخامسة . فإن نزلت إلى الأرض السادسة فسرك في السماء السادسة . فإن نزلت إلى الأرض السابعة فسرك في السماء السابعة .

فإن نزلت عن الأرض السابعة إلى ظهر الثور الذي عليه قرار الأرضين فسرك ناظر إلى العرش .

فقرّر رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أنّه بسبب التواضع و على قدر نزول النفس يسمو أمره و يعلو قدره . فمن أراد الفوز فليعمل على إشارته ، يحظ بالسلامة . انتهى . هذا . والله أعلم بالصواب و إليه المرجع و المآب .

الباب الثامن عشر بعد المائة
مشتمل على الجوابين

لا يبعد أن يقال ، و الله أعلم بالأحوال : إنّ قوله عليه الصلاة والسلام "كما صلّيت على إبراهيم" متفرّع على مشاهدة الذات المحضة له تعالى . و هي لا تكيف ولا يماثلها شيء . و بها تتعلق لذّات أهل الجنة .

أو على مشاهدة الذات مع قوتها و سلطان قهرها . و هذه مشاهدة الخوف و الانزعاج من سلطان القهر . وهما مشاهدتا الاستغراق يكون صلى الله عليه وسلم فيهما غائبًا عن الخلق فضلاً عن النظر إلى من هو أفضل فيهم و من هو غير أفضل .

و له عليه الصلاة والسلام مشاهدة ثالثة و هي مشاهدة الذات مع سائر الخلق من الممكنات . وهي مشاهدة الصحو و الامتياز بين الخلق ، و امتثال الشرائع و تعليم الأمّة . و لعلّ لكونه عليه الصلاة والسلام مستغرقًا في إحدى المشاهدتين الأولَيين لم يعرف أبا هريرة رضي الله عنه في واقعة الحائط و بشارة الجنة لكلّ موحّد . و قال عليه الصلاة والسلام : أبو هريرة ؟ بالاستفهام . بعد ما صعد النظر فيه و حطّه .

و قال يوم حنين لأبي سفيان رضي الله عنه الآخذ بركاب بغله عليه الصلاة والسلام حين بقي في عدة أصحابه : من أنت ؟ فقال : أنا ابن عمك . ثم قال لعباس رضي الله عنه : من أنت ؟ فقال : أنا عمك عباس .

و قال : ما خفي عليّ جبريل إلّا في هذه المرّة . قاله في حديث جبريل في السؤال عن الإيمان و الإسلام و الإحسان .

فهو عليه الصلاة والسلام عند استغراقه في إحدى هاتين المشاهدتين و غيبوبته عن الخلق قال : اللّهم صلّ

على محمد إلخ . وأجرى على لسانه عند التشبيه ذكر من هو أفضل الأنبياء بعده ، و من له قدم عالية في هاتين المشاهدتين ، و هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

وهما مقاما الغيبوبة عن الخلق الخارجان عن مشاهدة الأفضل و المفضول فيهم و الامتياز بينهم ، المتعاليان عن دائرة السؤال بلم و كيف ، الفائقان عن النظر إلى مراتبهم و إعطاء كلّ حقه و تنزيله منزلته ، المتغايران عن عالم التعليم و الإرشاد و التكليف .

نعم ، لو كانت الصلاة الإبراهيمية متعلقة بالمشاهدة الثالثة عالم النظر إلى الخلق و مراتبهم و عالم التعليم و الشرائع لكان لإشكال التشبيه وجه . إذ قصّة التفاضل بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام و إعطاء كلّ واحد منهم مقامه إنّما هو من باب التعليم و تفصيل الشرائع .

ألا ترى أنّ كفّارة اليمين بعد الحنث واجبة في الشريعة ، لكنّه عليه الصلاة والسلام لم يكن يكفّر عن يمينه في إحدى المشاهدتين الأولين ، كما في قوله عليه الصلاة والسلام للأشعريّين : والله لا أحملكم ولا عندي ما أحملكم عليه . صرح به بعض العارفين الكاملين من أصحاب الكشف .

فهنالك لما غاب صلى الله عليه وسلم عن ذاته غاب عن كونها أفضل الخلق بالطريق الأولى . و إذ غاب عن الخلق طرًّا غاب عن كونه أفضلهم بالطريق الأولى . فكان صلى الله عليه وسلم إذ ذاك غائبًا عن المضاف و المضاف إليه جميعًا .

ولا ينبغي لأحد أن يسأل في مثل هذا و يقول : لم جعل الأفضل مشبّهًا و غير الأفضل مشبّهًا به ، و لم لم يعكس . و بالجملة السكوت فيه أنسب و أحرى بالأدب .

إن قلت : ما الدليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينطق حسب هذه المشاهدات الثلاث .

قلت : الدليل على ذلك ما صرح به كثير من العارفين أصحاب الكشف . منهم سيدي عبد العزيز الدبّاغ في الإبريز . قال تلميذه : و سألته رحمه الله تعالى عن قوله عليه الصلاة والسلام " والله لا أحملكم ولا عندي ما أحملكم عليه " يخاطب الأشعريّين ، ثم حملهم عليه الصلاة والسلام بعد ذلك . و النبي صلى الله عليه وسلم لا يقول إلّا الحق ولا يتكلم إلّا بالصدق .

فقال عبد العزيز رحمه الله تعالى : النبي لا يتكلم إلّا بالصدق ولا يقول إلّا الحق ، وكلامه عليه الصلاة والسلام يخرج

على حسب باطنه و مشاهدته . و هو ﷺ يكون تارة في مشاهدة الذات العلية . و في هذه المشاهدة لذة عظيمة لا تكيف ولا تطاق ، ولا يماثلها شيء في الدنيا ، و هي لذّة أهل الجنة في دار الجنة .

و تارة يكون في مشاهدة الذات و قوّتها و سلطان قهرها . و في هذه المشاهدة خوف و انزعاج بسبب مشاهدة القوّة و سلطان القهر .

و في هاتين المشاهدتين يكون غائبًا عن الخلق ولا يشاهد منهم أحدًا .

و تارة يكون في مشاهدة قوّة الذات مع الممكنات ، فيشاهد القوّة سارية في الممكنات . وفي هذه المشاهدة تغيب الذات العلية عن الباطن و تبقى أفعالها .

و في هذه المشاهدة الثالثة يحصل امتثال الشرائع و تعليم الخلق و إيصالهم إلى الحق . فجميع ما ينطق به النبي ﷺ لا يعدو هذه المشاهدات . فتارة يكون على الأوّل ، و تارة على الثانية ، و تارة على الثالثة .

و الحديث المذكور خرج على الثانية . فإنّه عليه الصلاة والسلام كان غائبًا في مشاهدة الذات و قوتها ، وهو غائب عن نفسه فضلاً عن غيره . فلمّا قالوا له : يا رسول الله ! احملنا . و صادفوه في هذه المشاهدة . قال لهم : والله لا أحملكم ولا عندي ما أحملكم عليه . و هو كلام حق . فلما رجع إلى مشاهدة الكائنات و صادف ذلك مجيء الإبل له ﷺ جرى على حكم هذه المشاهدة و ما تقتضيه من اتباع الأوامر و القيام بحق الخلق . فقال : أين الأشعريّون ؟ فدعوا فأعطاهم . فقالوا : يا رسول الله ! إنّك حلفت إنّك لا تعطينا ، وقد أعطيتنا .

فأجابهم ﷺ بما يقتضي أنّ حلفه أوّلاً كان على ما تقتضيه تلك المشاهدة التي كان عليها حينئذ . فقال : ما أنا حمّلتكم ولكن الله حملكم . أي إنّي حلفت على أنّي لا أحملكم ولا عندي ما أحملكم عليه . و هذا هو الكائن . فإنّ الحامل لكم هو الله تعالى لا أنا . فهو إخبار عن كونه ما قال إلّا الحق ولا تكلّم إلّا بالصدق .

قال ابن المبارك تلميذه : فقلت : فلم كفّر عن يمينه عليه الصلاة والسلام حينئذ حيث قال : و إنّي لا أحلف على يمين ، فأرى غيرها خيرًا إلّا كفّرت عن يميني و أتيت الذي هو خير .

فقال رحمه الله تعالى : لم يكفّر النبي ﷺ عن يمينه في هذه القصّة . و الذي ذكره بعد في الحديث إنّما هو ابتداء كلام و تأسيس حكم و إعطاء فائدة شرعيّة . ولم يصدر منه ﷺ تكفير في هذه القصّة رأسًا .

قال ابن المبارك : و إلى هذا ذهب الأكابر من الفحول كالحسن البصري رحمه الله تعالى وغيره . فلله ما أصحّ عرفان هذا الشيخ العظيم .

ثم قال رحمه الله تعالى : و إلى المشاهدة الثالثة الإشارة بقوله ﷺ : إنّه ليغان على قلبي ، فأستغفر الله . الحديث . وقد أخرجه مسلم . انتهى كلامه .

و قال أيضًا العارف عبد العزيز رحمه الله تعالى في وجه خفاء جبريل على النبي ﷺ في حديث أخرجه مسلم في سؤال جبريل عن الإيمان و الإسلام و الإحسان . و قال : ردّوا السائل فطلبوه . فقال : ذلك جبريل . و إنّما خفي عليّ هذه المرّة .

قال رحمه الله تعالى : في هذا الخفاء من التبجيل لنبينا ﷺ و التكريم له و التعظيم لقدره الرفيع شيء لا يطاق ولا يعرفه إلّا من رحمه الله . و ذلك أنّ ذاته عليه الصلاة والسلام قد يحصل لها في بعض الأحيان استغراق في مشاهدة الحق . فتنقطع الذات بجميع علقها و تولها و جميع عروقها و أجزائها و غمور نورها في نور الحق سبحانه . فتبقى منقطعة عن غيره لكنّها محفوظة . فلا تفعل إلّا الحق ولا تنطق إلّا به .

فإذا رأى الملائكة هذه الحالة حصلت للنبي ﷺ و هم يعلمون أنّه لا يطيقها غيره من مخلوقات الله تعالى ، و أنّه عليه الصلاة والسلام لا يشعر بهم حينئذ بادروا و اغتنموها ، وسألوه عن الإيمان و أخذوه عنه و شيخوه فيه . فيقول له الملك و قد جاءه في صورة أعرابي : جئت يا رسول الله ! لأومن بك و لأصدّقك . فعلّمني كيف أومن بالله و رسوله . فيعلّمه .

قال ابن المبارك : فقلت : ولم يتعلّمون الإيمان منه ﷺ ، و يأخذونه عنه و هم عباد الله المكرمون و ملائكته المقرّبون ؟

فقال رحمه الله تعالى : جاه نبينا ﷺ عظيم ، وكلّ من أخذ الإيمان عنه ولم يبدل ، فإنّه لا يرى صراطًا ولا نارًا . فاغتنم الملائكة فرصتها .

فقلت : ولم لايسألونه في غير هذه الحالة ؟ فقال : إذا ردّ عليه الصلاة والسلام إلى حسّه و عرفهم ملائكة

و علموا بأنّه عرفهم فإنّه لا يمكنهم ، و الحالة هذه أن يجعلوا أنفسهم كالأعراب على الحقيقة حتى يخرج لهم الجواب من ذاته الكريمة مع نوره و مدده . بخلاف ما إذا كان منقطعًا إلى الحق سبحانه و صارت الذات لا تسمع من المتكلم إلّا نطقه و كلامه . فإنّ الجواب يخرج على الحالة المطلوبة .

فقلت : و هل الملائكة يعرفون الحالة التي يرد فيها إلى حسّه ﷺ و الحالة التي ينقطع فيها إلى الحق سبحانه ؟ فقال رحمه الله تعالى : لا يخفى ذلك عليهم ولا على من فتح الله بصيرته . والله أعلم . انتهى كلامه .

ثم للأولياء أيضًا واردات و أحوال من نحو ذلك على حسب ما يليق بشأنهم . قال البحر الطامي أبو يزيد البسطامي رحمه الله تعالى : حججت ثلاث مرات :

ففي المرة الأولى رأيت البيت ولم أر ربّ البيت . و في المرّة الثانية رأيت ربّ البيت ولم أر البيت . و في المرّة الثالثة لم أر البيت ولم أر ربّ البيت .

قلت : فيه إشارة إلى أنّ حجته الأولى من حج العوام . و الثانية كانت من بداية مقامات الفناء . ففني عن كلّ محسوس ، فلم ير أحدًا أحق بالوجود من الله تعالى . و هذا معنى قوله " رأيت ربّ البيت " . و إلّا فربّ البيت لا يجوز أن يرى في الدنيا . و كانت نفسه فيها موجودة معه يرى بها و يبصر بها .

فلما حجّ الثالثة فني حتى عن نفسه . فلم يبق معه مرآة يرى بها شيئًا ، ففني في معنى قرب الحق تبارك و تعالى فناءً كلّيًّا . أشار إليه القائل بقوله :

فيفنَى ثم يفنَى ثم يفنَى　　　فكان فناؤُه عَيْنَ البقاءِ

ففي هذه الغيبة يحصل الحضور بطريق أوفى . كذا في رسالة تعريف أهل الإسلام و الإيمان للشيخ نور الدين الحلبي صاحب السيرة المتوفّى سنة ١٠٤٤هـ . وكذا في جواهر البحار ج٢ ص١٢٣ .

و قال الإمام الشعراني في طبقاته ج٢ ص٥٧ في أحوال سيدي عليّ ابن سيدي محمد وفا رحمه الله تعالى : و كان سيدي علي يقول في قول أبي يزيد رحمه الله تعالى " حججت فرأيت البيت ولم أر ربّ البيت ، ثم حججت ثانية فرأيت البيت و رأيت ربّ البيت ، ثم حججت ثالثة فرأيت ربّ البيت ولم أر البيت " انتهى : لو أنّ أبا يزيد عرف الحقيقة حق معرفتها لأنزل كلّ شيء منزلته ، ولم يغب عنه أنّ الكلّ واحد إذا رأى العدد ،

ولا غاب عنه العدد إذا رأى الواحد . فافهم . انتهى ما في الطبقات . فتفكّر . هذا . والله سبحانه أعلم وعلمه أتمّ وأكمل .

الباب التاسع عشر بعد المائة
في الجواب الثامن والأربعين ومائة

في قواعد القرافي المسمّى بأنواء البروق في أضواء الفروق كلام نفيس ، حاصله : أنّ التشبيه فى الخبر يصحّ في الأزمنة الثلاثة . ولا يقع التشبيه في الدعاء إلّا في المستقبل خاصّة ، إذ لا يدعى إلّا بمعدوم مستقبل . فإذا وقع التشبيه في الدعاء أو الأمر أو النهي فهو إنّما يقع بين أمرين معدومين مستقبلين لم يوجدا بعد .

و باعتبار الفرق بين هاتين القاعدتين يندفع الإشكال في قوله : اللّٰهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم إلخ . لأنّ الإشكال مبني على جعل التشبيه في الدعاء كالتشبيه في الخبر . و ليس كذلك . بل إنّما وقع التشبيه بين عطية تحصل لرسول ﷺ لم تكن حصلت قبل الدعاء بعطية حصلت لإبراهيم عليه السلام . فإنّ الدعاء إنّما يتعلق بالمعدوم المستقبل ، و حينئذ يكون الذي حصل لرسول ﷺ قبل الدعاء لم يدخل في التشبيه . و هو الذي فضل به إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

فهما صلوات الله وسلامه عليهما كرجلين أعطي لأحدهما ألف و للآخر ألفان . ثم سأل صاحب الألفين مثل ما أعطي لصاحب الألف . فيحصل له ثلاثة آلاف ، و للآخر ألف فقط .

فلا يرد السؤال من أصله لأنّ التشبيه وقع في دعاء ، لا في خبر . نعم ، لو قيل " إنّ العطية التي حصلت له ﷺ كالتي حصلت لإبراهيم عليه الصلاة والسلام " لزم الإشكال لحصول التشبيه في الخبر . و إذ لا فلا .

فتأمل الفرق بين ذلك ، يندفع لك به أسئلة كثيرة و إشكالات عظيمة . هذا . والله أعلم . كذا

في الفتوحات الربّانية شرح الأذكار النووية للعلامة محمد بن علان الشافعي المكّي المتوفّى سنة ١٠٥٧هـ .

فصل

ناسب أن نذكر ههنا عبارة الإمام القرافي لكونه متمّمًا لما ذكرنا في هذا الباب مفيدًا جدًّا مشملاً على حقائق تنجد العلماء مع ذكر ما يليق بالمقام من عبارات الأفاضل من السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ . فنقول :

قال العلامة شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن الصنهاجي المشهور بالقرافي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب الفروق و القواعد ص٨٥ عند البحث على الفرق الرابع بين قاعدتي " إن " و " لو " الشرطيتين :

إنّ " إن " لا تتعلّق إلّا بمعدوم مستقبل ولو تتعلّق بالماضي . تقول : إن دخلت الدار فأنت طالق . فلا تريد دخولاً تقدّم بل مستقبلاً ، ولا طلاقًا تقدّم بل مستقبلاً . و إن وقع خلاف ذلك أوّل . و تقول في " لو " : لو جئتني أمس أكرمتك اليوم . و لو جئتني أمس أكرمتك أمس . فالمعلّق و المعلّق عليه ماضيان ، و ذلك متعذّر في " إن " ، بل إذا وقع في شرطها أو جوابها فعل ماضٍ كان مجازًا مؤوّلاً بالمستقبل نحو : إن جاء زيد أكرمته . فهذان الفعلان الماضيان مؤوّلان بمستقبل . تقديره : إن يجئ زيد أكرمه .

ثم أطرز الفرق بأربع عشرة مسائل غريبة جليلة :

المسألة الأولى : قال الله تعالى حكاية عن عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ . **فجعل** الشرط و الجزاء ماضيين .

والجواب عنه بوجهين : أحدهما : أنّه قد قال بعض المفسرين : إنّ ذلك وقع منه في الدنيا ، و إنّ سؤال الله تعالى له قبل أن يدّعى ذلك عليه . فيكون التقدير : إن أكن أقوله فأنت تعلمه . فهما مستقبلان ، لا ماضيان .

و قيل : سؤال الله تعالى له يكون يوم القيامة . و هذا القول هو المشهور . فيكونان مستقبلين ،

لا ماضيين .

قال ابن السراج : يجب تأويلهما بفعلين مستقبلين . تقديرهما : إن يثبت في المستقبل أنّي قلته في الماضي يثبت أنّك تعلم ذلك . و كلّ شيء تقرّر في الماضي كان ثبوته في المستقبل معلومًا . فيحسن التعليق عليه .

و يؤكّد القول الأوّل أنّ السؤال كان في الدنيا كما يعلم من الآية نفسها قوله تعالى : إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ . ففيه " إذ " للماضي و " قال " للماضي . فإذا أخبر الله محمدًا ﷺ بهذين اللفظين الماضيين دلّ ذلك على تقدّم هذا القول في زمن عيسى عليه الصلاة والسلام في الدنيا .

و القول الثاني بتأوّل هذين اللفظين بالمستقبل . و يقول : لمّا كان خبر الله تعالى واقعًا في المستقبل قطعًا صار من جهة تحقّقه يشبه الماضي ، فعبّر عنه بلفظ الماضي ، كما قال الله تعالى : أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ . يريد يوم القيامة . و تقديره : يأتي أمر الله تعالى .

فائدة جميلة جليلة

إذا تقرّر أنّ الشرط و جزاءه لا يتعلّقان إلّا بمستقبل معدوم فاعلم : أنّ ذلك في لسان العرب عشر حقائق : الشرط و جزاؤه و الأمر و النهي و الدعاء و الوعد و الوعيد و الترجّي و التمنّي و الإباحة . فتأمّل هذه العشرة ، لا تجد منها واحدًا يتصوّر في ماض ولا حاضر .

سؤال كان يورده الشيخ عز الدين بن عبدالسلام قدّس الله روحه في قوله ﷺ لما قيل له : كيف نصلّي عليك . فقال : قولوا : اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم في العالمين إنّك حميد مجيد .

فكان يقول : قاعدة العرب تقتضي أنّ المشبّه بالشيء يكون أخفض رتبةً منه ، و أعظم أحواله أن يكون مثله . و ههنا شبّهنا عطية رسول الله ﷺ بعطية إبراهيم عليه الصلاة والسلام . فإنّ صلاة الله سبحانه معناها الإحسان . فإنّ الدعاء الذي هو حقيقة اللفظ محال . فتعيّن حمله على مجازه وهو الإحسان ، لأنّ الدعاء إحسان . فيكون من مجاز التشبيه . أو لأنّ الإحسان متعلّق الدعاء و مطلوبه فيكون من باب

التعبير بالمتعلق عن المتعلق .

فإذا تقرّر هذا فنحن نعلم أنّ إحسان الله تعالى لنبينا محمد ﷺ أعظم من إحسانه لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، و تشبيهه به يقتضي خلاف ذلك . فما وجه التشبيه .

و كان يجيب رحمه الله تعالى عن هذا السؤال فيقول : التشبيه وقع بين المجموعين : مجموع المعطى لرسول ﷺ و لآله ، و مجموع المعطى لإبراهيم عليه الصلاة والسلام و لآله . و آل إبراهيم أنبياء و آل رسول الله ﷺ ليسوا بأنبياء . فعطية إبراهيم عليه الصلاة والسلام ذلك أعني المجموع يقسم عليه و على آله . و يقسم المجموع المعطى لرسول الله ﷺ عليه و على آله . فتكون الأجزاء الحاصلة لآل إبراهيم أعظم من الأجزاء الحاصلة لآل رسول الله ﷺ . فيكون الفاضل لرسول الله ﷺ أعظم من الفاضل لإبراهيم عليه الصلاة والسلام . فيكون رسول الله ﷺ أفضل من إبراهيم . و هو المطلوب . و يندفع السؤال .

و كنّا نستعظم هذا الجواب و نستحسنه . ثم بعد وفاته رحمه الله تعالى لمّا ظهرت لي هذه القاعدة ، و هي أنّ هذه في لسان العرب لا تتعلق إلّا بالمعدوم المستقبل ظهر أنّ الجواب يحسن من هذه القاعدة ، و أنّ جواب الشيخ رحمه الله تعالى مستدرك .

و تقريره : أنّ الدعاء لا يتعلق إلّا بمعدوم مستقبل كسائر أنواع الطلب . و قولنا " اللّهم صلّ " دعاء ، فلا يتعلق إلّا بعطية لم تعط لرسول الله ﷺ معدومة . فإنّ طلب تحصيل الحاصل محال .

فالحاصل له عليه الصلاة والسلام لم يتعلق به طلب ألبتة ، لكونه موجودًا حاصلاً . و بهذا الموجود الحاصل له عليه الصلاة والسلام حصل التفضيل له عليه الصلاة والسلام على إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

فيكون الواقع قبل دعائنا مواهب ربّانية لرسول الله ﷺ من خير الدنيا و الآخرة ، لم يدركها أحد من الأنبياء و لم يصل إليها . و نحن نطلب له عليه الصلاة والسلام زيادة على ذلك . تكون تلك الزيادة مثل المواهب الحاصلة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام .

فنحن لو تخيّلناها أقلّ من المواهب الحاصلة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يلزم من ذلك التفضيل له على رسول الله ﷺ .

و مثال ذلك من العادات أن يعطي الملك لرجل ألف دينار و يعطي لآخر مائة دينار . ثم نطلب

نحن من الملك أن يزيد صاحب الألف على الألف مثل ما أعطى صاحب المائة . فإذا فعل ذلك كان الحاصل مع صاحب الألف ألفًا و مائة ، و مع صاحب المائة مائة . و معلوم أنّ ذلك لا يخل بعطية صاحب الألف في ألفه ، بل المائة زيادة على ما وقع به التفضيل أوّلًا . كذلك ههنا .

فهذا جواب حسن سديد بناءً على القاعدة في أنّ الدعاء لا يتعلق إلّا بمستقبل معدوم . ولا يحتاج إلى ذلك التعب و التفضيل الذي ذكره الشيخ ، مع أنّه لا يصحّ . فإنّه جعل متعلق الطلب جميع ما حصل لرسول الله ﷺ . فيلزم تعلق الطلب بالواقع و هو محال . إذ يلزم عليه تحصيل الحاصل و هو غير جائز . و الجواب الحق هو هذا الثاني .

و العجب أنّا طول أعمارنا نقول : ما أمرنا به و هو " اللّٰهم صلّ على محمد " و " صلّى الله على محمد " من غير تشبيه بإبراهيم ولا بغيره .

و معلوم من قواعد العرب أنّ الفعل في سياق الإثبات لا يتناول إلّا إلى أصل المعنى ، و أنّه مطلق لا عام . و من المعلوم أنّ أصل الإحسان ليس في الرتبة مثل الإحسان المشبّه بإحسانه تعالى لإبراهيم عليه الصلاة والسلام .

فإذا كنّا نقتصر على مطلق الإحسان من غير إشكال و يكون ذلك حسنًا من غير خلل فأولى أن يحسن منّا طلب الإحسان المشبّه بإحسان حصل لعظيم من العظماء . فإنّه أضعاف أصل الإحسان و ما المحسّن (بكسر السين مع تشديد) لطلبنا مطلق الإحسان من غير تشبيه ، إلّا أنّا نطلب الزيادة التي لم تكن أعطيت قبل دعائنا ، و طلب الزيادة على الإعطاء العظيم لا يخلّ بصاحب العطية العظيمة الذي نحن نسأل له الزيادة .

و العجب من تنبه الشيخ لإيراد السؤال في الحديث المروي ولم يدرك أنّه يرد في الصلاة المطلقة . و هي أولى بإيراد السؤال فيها إن كان صحيحًا . فتأمله و تأمل ما ذكرته أنا . فهو حسن إن شاء الله تعالى . انتهى ما قال شهاب الدين القرافي في كتابه الفروق .

اعلم : أنّ في هذا الكلام أبحاثًا لابدّ من ذكرها . و هذا إيضاحها : قال شهاب الدين : إنّ " إنْ " لا تتعلق إلّا بمعدوم مستقبل ، و " لو " تتعلق بالماضي ، إلى قوله : ثم أطرز الفرق بأربع عشرة

مسألة غريبة جليلة .

قلت : قوله " إنّ "إن" لا تتعلّق إلّا بمعدوم مستقبل " ليس كذلك ، بل تتعلّق بالماضي أيضًا ، لكنّ الأكثر فيها تعلّقها بالمستقبل . وما اختاره يلزم منه دعوى المجاز في استعمالها في الماضي ، و المجاز على خلاف الأصل .

فإن قيل : إذا كان تعلّقها بالمستقبل هو الأكثر في الاستعمال فاستعمالها في التعلّق بالماضي و إن كان حقيقةً لغويةً فهو مجاز عرفي .

فالجواب : أنّ الأمر فيها لم يبلغ إلى هذا الحد من أنّ استعمالها في التعلّق بالمستقبل هو السابق إلى فهم السامع . فيكون استعمالها في المستقبل حقيقة عرفية ، و في الماضي مجازًا عرفيًا . فإنّ استعمال لفظ و إن كثر في بعض مدلولاته و قلّ في بعضها لا يلزم أن يكون حقيقةً عرفيةً فيما كثر فيه ، و مجازًا عرفيًّا فيما قلّ فيه ، حتى ينتهي إلى أن يكون هو السابق إلى الفهم .

ولفظة " إن " لم يبلغ الأمر فيها إلى هذا الحد . والله أعلم .

و قوله : إنّ " لو " تتعلق بالماضي صحيح .

قال : المسألة الأولى : قال الله تعالى حكاية عن عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ . إلى قوله : و تقديره : أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ .

قلت : إذا تقرر أنّها تتعلّق بالماضي فلا يحتاج فيها إلى تأويل . والله أعلم .

قال : فائدة جميلة إلى آخرها . قلت : ما قاله من " أنّ الأمر و النهي و الدعاء و الوعد و الوعيد و الترجّي و التمنّي و الإباحة لا تتعلّق إلّا بمستقبل " إلى ما قاله في " إن " صحيح . والله أعلم .

قال : سؤال كان يورده عز الدين بن عبد السلام قدّس الله روحه في قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لمّا قيل له : كيف نصلّي عليك ؟ فقال : قولوا : اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم في العالمين إنّك حميد مجيد . إلى آخر السؤال .

قلت : هذا السؤال مبني على مشابهة الفعل المطلوب للفعل المشبّه به في القدر و الصفة .

و ليس ذلك بلازم . فإنّ القائل إذا قال " أعط زيدًا كما أعطيت عمرًا " يحتمل أن يريد بالتشبيه أصل العطاء من غير تعرّض لشيء من صفاته من القدر وغيره . و على هذا لا يرد السؤال . لكن ربما يسئل عن اختصاص إبراهيم بالذكر . فالجواب : أنّ موجب اختصاصه بذلك اختصاصه بالنسبة إليه بالبنوّة و الموافقة في معالم الملّة .

قال : وكان يجيب رَحِمَهُ اللهُ عن هذا السؤال فيقول : التشبيه وقع بين المجموعين ، إلى قوله : و الجواب الحق هو هذا الثاني .

قلت : على تسليم أنّ التشبيه يستلزم المشابهة في أوصافها فهو على تقدير إرادة المشبّه (بكسر الباء) . ذلك يكون جواب عز الدين مستدركًا كما قال شهاب الدين ، و جوابه هو الأصحّ . والله أعلم .

قال : و العجب أنّا طول أعمارنا نقول : ما أمرنا به وهو " اللّهم صلّ على محمد " و " صلى الله على محمد " من غير تشبيه بإبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولا بغيره . إلى قوله : و إنّه مطلق لا عامّ .

قلت : و لقائل أن يقول : ما أمرنا إلّا بالصلاة المشبهة . فإنّها التي وردت في الحديث لا غيرها .

وما قال من " أنّه مطلق لا عام " صحيح .

قال : و من المعلوم أنّ أصل الإحسان ليس في الرتبة مثل الإحسان المشبّه بإحسانه تعالى لإبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . إلى قوله : فإنّه أضعاف أصل الإحسان .

قلت : ما قال هنا ليس بصحيح ، فإنّ مطلق الإحسان لا يصحّ أن يكون إحسان ما مشبه أضعافًا له ، و إنّما يكون أضعافًا لإحسان مقيّد . وليس هذا كلام من فهم المطلق و المقيّد . و الفرق بينهما على وجهه . و الذي حمله على هذا الخطإ استرواحه إلى قاعدة غير صحيحة قرّرها بعد . وهي : أنّ الأعمّ يستلزم الأخصّ عينًا إذا كان الفرق بينهما بالأقل و الأكثر ، و المستلزم هو الأقلّ .

قال : وما المحسن لطلبنا مطلق الإحسان من غير تشبيه ، إلّا أنّا نطلب الزيادة التى لم تكن أعطيت قبل دعائنا ، إلى قوله : الذي نحن نسأل له الزيادة .

قلت : ما قاله هنا صحيح .

قال : و العجب من تنبّه الشيخ لإيراد السؤال في الحديث المرويّ ، ولم يدرك أنّه يرد في الصلاة المطلقة ، و هي أولى بإيراد السؤال فيها إن كان صحيحًا .

قلت : التنبّه لإيراد السؤال على الحديث مبني على استلزام التشبيه للمشابهة في صفات الفعل ، وهو مما يسبق إليه الوهم في مثل هذا الحديث . و أمّا في مطلق الصلاة و أشباهها فلا يسبق ذلك فيها إلى وهم من عرف حقيقة المطلق و المقيّد . و الفرق بينهما بوجهه . و إنّما يسبق ذلك إلى وهم من لا يعرف حقيقتهما ولا الفرق بينهما .

قال : و تأمّل ما ذكرته ، فهو حسن . والله أعلم .

قلت : إنّه ليس بحسن ، والحمد لله . كذا في إدرار الشروق على أنواء الفروق للشيخ سراج الدين أبي القاسم قاسم بن عبد الله الأنصاري المعروف بابن الشاط .

و قال الشيخ محمد علي بن الشيخ حسين مفتي المالكية في كتابه تهذيب الفروق و القواعد السنيّة في الأسرار الفقهيّة عند البحث على الفرق بين " إن " و " لو " : قلت : و على هذا فالفرق أنّ " لو " لمجرد التعليق في الماضي غالبًا . و أمّا " إن " فلمجرّد التعليق في المستقبل غالبًا . فافهم .

قال : و هما وصلان : الوصل الأوّل : قد علمت أنّ الكثير في شرط " إن " و جزائه أن لا يتعلقا إلّا بمستقبل معدوم ، و القليل تعلّقها بماضٍ على ما فيه . و شرط " لو " و جزاؤه بالعكس . وكذا سائر أدوات الشرط . فليس الشرط و الجزاء مما لا يتعلق في لسان العرب إلّا بمستقبل معدوم كالأمر و النهي و الدعاء و الوعد و الوعيد و الترجّي و التمنّي و الإباحة ، بل عدم التعليق بغير المستقبل خاصّ في لسان العرب بهذه الثمانية . فلا يتصوّر واحد منها في ماض ولا حاضر .

و ما أمرنا به في الصلاة على النبي ﷺ ليس إلّا الصلاة المشبّهة ، فإنّها التي وردت في قوله ﷺ لمّا قيل له : كيف نصلّي عليك ؟ فقال : قولوا " اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم في العالمين إنّك حميد مجيد " .

و قولنا " اللّهم صلّ " دعاء . فلا يتعلق إلّا بعطية لم تعط لرسول الله ﷺ معدومة . و الموجود الحاصل له عليه الصلاة والسلام قبل دعائنا لم يتعلّق به طلب ألبتّة ، لأنّ طلب تحصيل الحاصل محال . و ذلك

الموجود الحاصل مواهب ربّانية لرسول الله ﷺ من خيري الدنيا و الآخرة ، لم يدركها أحد من الأنبياء ولم يصل إليها . وما نطلبه له عليه الصلاة والسلام زيادة على ذلك .

فلو تخيّلناه أقلّ من المواهب الحاصلة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام بمقتضى قاعدة " أنّ المشبّه به أعظم من المشبّه في وجه الشبه " لم يلزم منه تفضيل إبراهيم عليه الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ . ألا ترى أنّ الملك لو أعطى لرجل ألف دينار و أعطى الآخر مائة ، ثم طلبنا نحن من الملك أن يزيد صاحب الألف مثل ما أعطى صاحب المائة ، و أجاب الملك طلبنا ، لكان الحاصل مع صاحب الألف ألفًا و مائة و مع صاحب المائة مائة ، لم يلزم على ذلك أن تخيل أنّ مائة صاحب المائة أعظم من مائة صاحب الألف بمقتضى قاعدة التشبيه أو إخلال ما بعطية صاحب الألف في ألفه ، بل المائة زيادة على ما وقع به التفضيل أوّلاً .

فسقط ما أورده العزّ بن عبد السلام على الحديث المذكور من أنّ قاعدة العرب تقتضي أنّ المشبّه بالشيء يكون أخفض رتبةً منه ، و أعظم أحواله أن يكون مثله . و ههنا شبّهنا عطية رسول الله ﷺ بعطية إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فإنّ صلاة الله سبحانه وتعالى معناها الإحسان مجازًا ، إمّا بالاستعارة أو مرسلاً من باب التعبير بالمتعلّق عن المتعلّق ، لا الدعاء الذي هو حقيقة اللفظ لاستحالته . و نحن نعلم أنّ إحسان الله تعالى لنبيه محمد ﷺ أعظم من إحسانه لإبراهيم عليه الصلاة والسلام . و تشبيهه به يقتضي خلاف ذلك . فما وجه التشبيه .

ولا حاجة لجوابه عنه بأنّ التشبيه وقع بين المجموعين : مجموع المعطى لرسول الله ﷺ و لآله ، و مجموع المعطى لإبراهيم عليه الصلاة والسلام و لآله . و آل إبراهيم أنبياء ، و آل رسول الله ﷺ ليسوا بأنبياء . فالمجموع المعطى لإبراهيم عليه الصلاة والسلام يقسم عليه و على آله ، و المجموع المعطى لرسول الله ﷺ يقسم عليه و على آله . فتكون الأجزاء الحاصلة لآل إبراهيم عليه الصلاة والسلام أعظم من الأجزاء الحاصلة لآل رسول الله ﷺ . فيكون الفاضل لرسول الله ﷺ أعظم من الفاضل لإبراهيم عليه الصلاة والسلام . فيكون رسول الله ﷺ أفضل من إبراهيم . و هو المطلوب .

نعم ، الصحيح أنّ الألفاظ الثانية من الدعاء و ما معه و إن كانت لا تتعلّق في لسان العرب إلاّ بالمستقبل إلاّ أنّ ذلك لا يمنع ، كما يأتي من تشبيه ما يتعلّق به واحد منها بغير المستقبل .

و لكن مع ذلك فسؤال ابن عبد السلام المذكور ليس بلازم الورود على الحديث المذكور . و ذلك لأنّ هذا السؤال مبنيّ على مشابهة الفعل المطلوب للفعل المشبّه به في القدر و الصفة ، بأن يكون مراد الداعي بقوله " أعط زيدًا كما أعطيت عمرًا " سوّ بينهما في مقدار العطية و صفتها مع محاسبة زيد بما أعطيته قبل هذا . و ليس ذلك بلازم ، بل يحتمل أن يكون الداعي أراد : سوّ بينهما في مطلق العطية من غير تعرّض لقصد التسوية في مقدار العطية ولا في صفتها . أو أراد : سوّ بينهما في مقدار العطية و صفتها من غير محاسبة زيد بما أعطيته قبل هذا .

و على هذين الاحتمالين لا يصحّ ورود السؤال من أصله . نعم ، ربما يسأل عن موجب اختصاص إبراهيم عليه الصلاة والسلام بذلك . فيقال : موجبه نسبة نبينا صلى الله عليه وسلم إليه بالبنوّة و الموافقة في معالم الملّة ، كما قال ابن الشاط .

و على تقدير إرادة الداعي الاحتمال الأوّل المبنيّ عليه ورود السؤال . فجواب ابن عبد السلام عنه بما ذكر مستدرك بأنّ مقتضاه تعلّق الطلب بالموجود الحاصل له صلى الله عليه وسلم ، و الحال أنّ طلب تحصيل الحاصل محال . فافهم . انتهى . هذا . والله أعلم بالصواب .

الباب العشرون بعد المائة
في الجواب التاسع والأربعين ومائة

التشبيه ثلاثة أنواع :

الأوّل : حقيقي كأكثر تشبيهات القرآن .

و الثاني : مجازي نحو التشبيهات الشعرية و ما يكون المقصود فيه المبالغة . و هذان النوعان يتعلّقان بالمعنون في الحقيقة و بالمعنى و الحقيقة .

و الثالث : لفظي و هو ما يكون في اللفظ لتحسينه دون المعنى ، و في العنوان لتزيينه دون المعنون و الفحوى ، و في الحكاية لارتباطها دون المحكي عنه و الواقعة .

و حديث أجلية المشبّه به يجري في النوعين الأوّلين . و أمّا النوع الثالث فلا ، لعدم تعلّقه بالواقع والخارج فضلاً عن اعتبار أفضليّة المشبّه به على المشبّه .

ثم كلامي و تحقيقي هذا و إن كان في النظر الجليّ بعيدًا غريبًا لكنه في النظر الدقيق شريف ، و في بادي الرأي نادرًا عجيبًا ، إلاّ أنّه في الحقيقة دقيق و لطيف . إذ له شواهد قويّة و دلائل بهيّة و قرائن سنيّة و نظائر بديعة عربيّة و شرعيّة . فكم من كلام لا يوجد له محكي عنه ، و كم من عنوان لا يرام به الإخبار عن المعنون . أما سمعت كلام الأدباء الألبّاء أنّ لوجه الكلام محسّنات ، و لظاهر المرام مؤكّدات .

فمن هذا الباب قوله تعالى : أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ . ليس المراد حقيقة السؤال ، فإنّه تعالى عالم الغيب و الشهادة .

قال الشيخ الأنور الكشميري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أماليه فيض الباري في شرح قوله تعالى " أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ " : و استشكلوا هذا السؤال . قلت : و في الكلام أنواع لم يتعرض إليها النحاة . منها ما لا يكون له محكي عنه لا عند المتكلم ولا عند المخاطب كالكلام عند معاتبة أو ملاطفة أو مطايبة .كما تقول لخادمك : ما شأنك تعصيني في كلّ أمر ولا تطيعني . مع علمك أنّه مخلص لك . ولا يكون في ذهن المخاطب أيضًا أنّك تذعن به عن جذر قلبك ، و لكنّك تخرجه للتهويل عبارة و التبكيت معارضة في اللفظ لا غير .

ولو دوّن الناس ما عند البلغاء من أنحاء الكلام لارتفع أكثر الإشكالات ، فإنّها تكون من هذا القبيل . و قد نبّه على بعضها أهل المعاني . و يمكن درجه في الخبر ، و لكن ليس المقصود منه الخبر ، بل لازم فائدة الخبر على اصطلاحهم . و صرّح التفتازاني في المطوّل : أنّ للخبر فوائد أخر كالتحزّن و التحسّر أيضًا . انتهى كلام الشيخ . فيض الباري ج٤ ص٣٥ .

و من هذا القبيل قوله تعالى : وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ . المطلوب صرف نظره إلى العصا لا حقيقة الاستفهام .

و منه الحلف بغير الله الواقع في عدة أحاديث صحيحة . وهو أمر معضل حتى قيل : إنّه قضية ولا أبا حسن لها .كما في حديث ضمام بن ثعلبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ : أفلح و أبيه إن صدق . رواه البخاري و مسلم في كتاب الإيمان .

قال الشيخ الأنور رَحِمَهُ ٱللَّهُ : قد ثبت عنه ﷺ الحلف بغير الله في نحو أربعة أو خمسة مواضع . فيض الباري ج١ ص١٣٩ .

و منه الحلف بقولهم " لعمري " و " لعمرك " و نحو ذلك . وهو معروف عند العلماء و وقع في الحديث في غير موضع ، مع أنّ الحلف بغير اسم الله ممنوع .

روي عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنّه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من حلف بغير الله فقد أشرك . و روى البخاري عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا : لا تحلفوا بآبائكم . فمن كان حالفًا فليحلف بالله . ج٢ ص١١٠٠ .

و جواب ذلك : أنّ الحلف الواقع في الحديث و في قولهم " لعمري " لم يقصد به حقيقة الحلف

و تعظيم المقسم به الموجب للشرك و الكفر . و إنما قصد به تزيين اللفظ و تحسين العبارة ليس إلّا .

قال الشيخ الأنور رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ : و أحسن الأجوبة أنّه قسم لغويّ لا شرعيّ . و المقصود في الأوّل تزيين الكلام لا غير . و المقصود من الثاني التأكيد مع تعظيم المحلوف به . و الممنوع هو الثاني دون الأوّل . و المذكور هو الأوّل دون الثاني . انتهى بتصرّف . فيض الباري ج١ ص١٣٩ .

قال الحافظ فضل الله التورپشتي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ في شرح المصابيح : قد روي عن النبي ﷺ في حديث طلحة بن عبيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : جاء رجل من أهل نجد ثائر الرأس إلى رسول الله ﷺ . و فيه : قال رسول الله ﷺ : أفلح الرجل و أبيه إن صدق . فإنّه ليس بحلف . فإنّ النبي ﷺ لم يكن يشرك بالله ، و قد أخبر أنّه شرك ، و إنّما هو تدعيم للكلام و صلة له . و هذا النوع و إن كان موضوعًا في الأصل لتعظيم المحلوف به ، فإنّهم قد أسبغوا فيه حتى كانوا يدعمون به الكلام و يوصلونه . و هذا النوع لا يراد به القسم . انتهى كلام التورپشتي بالاختصار .

و قال الخطابي : هذه كلمة جارية عل ألسن العرب ، تستعملها كثيرًا في خطابها . تريد بها التوكيد ، و قد نهى رسول الله ﷺ أن يحلف الرجل بأبيه . فيحتمل أن يكون جرى ذلك منه على عادة الكلام الجاري على الألسن ، وهو لا يقصد به القسم كلغو اليمين المعفو عنه ، قال الله تعالى : لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ . الآية . قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : هو قول الرجل في كلامه : لا والله و بلى والله و نحو ذلك . انتهى .

فقصّة أفضلية المشبّه به و اقتضاء التشبيه لذلك ليست أهم من قصة القسم . و استدعاؤه تعظيم المحلوف به و الحنث و الكفارة عند الحنث و استلزامه الشرك عند الحلف بغير الله .

و لمّا ساغ تجريد القسم عن مقتضياته العربيّة و الشرعية ، و كلّها أمور خطيرة ، ساغ تخلية التشبيه عن مقتضاه . وهو من النكات اللفظية و الأمور اليسيرة بالطريق الأولى .

و كما أنّ القسم في المواضع المذكورة للتوكيد و التحسين كذا التشبيه في الصلاة على محمد و على إبراهيم عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للتحلية و التزيين .

و من هذا القبيل قول النبي ﷺ " عقري حلقي " لبعض أزواجه ﷺ . و " لكع "

للحسن ، و منه " رغم أنف أبي ذرّ " و منه " تربت يداك " في حديث أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا . و قوله ﷺ لعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا حين افتقدته من ليلتها : أخشيت أن يحيف الله عليك و رسوله . و قول سليمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لامرأتين تحاكمتا إليه في ولد : إيتوني بالسكين أشقّه بينكما . و قول أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حيث أرسله النبي ﷺ بنفسه لحاجة ، فقال : والله لا أذهب . و هو يقول : إنّه كان في نفسه أن يذهب . فهذا أنواع من الكلام ليس لها المحكي عنه كما قال الشيخ الأنور رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى .

و من هذا القبيل نوع من الاستعارة لا تعلق لها بالمعنى . ذكره العلامة الخفاجي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى تحت قوله تعالى : قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ . و هذه الآية من المشكلات ، حيث جمع الضمير الراجع إلى الله تعالى . قال المازني : جمع الضمير ليدل على التكرار ، فكأنّه قال : ربّ ارجعني ارجعني ارجعني . و مثل ذلك تثنية الضمير في " فقا نبك " و نحوه .

و استشكل ذلك الخفاجي بأنّه إذا كان أصل ارجعوا مثلاً " ارجع ارجع ارجع " لم يكن ضمير الجمع ، بل تركيبه الذي فيه حقيقة . فإذا كان مجازًا فمن أيّ أنواعه ؟ و كيف دلالته على المراد ؟ وما علاقته ؟ و إلّا فهو مما لا وجه له . و من غريبه أنّ ضميره كان مفردًا واجب الاستتار . فصار غير مفرد واجب الإظهار . هذا كلام الخفاجي .

ثم قال الخفاجي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : لم تزل هذه الشبهة قديمًا في خاطري . و الذي خطر لي أنّ لنا استعارة أخرى غير ما ذكر في المعاني ، و لكونها لا علاقة لها بالمعنى لم تذكر . وهي استعارة لفظ مكان لفظ آخر لنكتة بقطع النظر عن معناه . وهو كثير في الضمائر كاستعمال الضمير المجرور الظاهر مكان المرفوع المستتر في "كفى به " حتى لزم انتقاله عن صفة إلى صفة أخرى ، و من لفظ إلى آخر . و ما نحن فيه من هذا القبيل فإنّه غير الضمائر المستترة إلى ضمير جمع ظاهر . فلزم الاكتفاء بأحد ألفاظ الفعل و جعل دلالة ضمير الجمع على تكرر الفعل قائمًا مقامه في التأكيد من غير تجوّز فيه . و لابن جني في الخصائص كلام يدلّ على ما ذكرناه . فتأمل . انتهى كلامه . روح المعاني ج١٨ ص٦٣ .

الباب الحادي والعشرون بعد المائة
في الجواب الخمسين ومائة

لابدّ قبل التفصيل من معرفة ثلاثة أمور :

الأوّل : أنّ المراد من آل محمد على هذا التوجيه ذرّيّته عليه الصلاة والسلام من أولاد فاطمة رضي الله عنها .

و **الثاني :** أنّ المراد من آل إبراهيم آله الذين هم أجداد نبينا صلى الله عليه وسلم خاصّة من إسماعيل إلى ولادته عليه الصلاة والسلام .

و **الثالث :** أنّ آل إبراهيم أي أجداد نبينا صلى الله عليه وسلم خاصّة كلهم كانوا مؤمنين بالله تعالى موحّدين له تعالى ، إلى أن وصلت النوبة إلى عبد الله بن عبدالمطلب . وقد صرّح بذلك كثير من الأئمة و العلماء كابن عباس رضي الله عنهما و مجاهد و الحافظ السيوطي رحمهما الله تعالى .

و بعد معرفتها أقول : لا يبعد أن يقال : إنّ المراد من هذه الصلاة الدعاء لذريته عليه الصلاة والسلام بالإيمان و الاستقامة في التوحيد . و ليس المطلوب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فقط . فإنّها كانت حاصلة له عليه الصلاة والسلام من قبل ، لقوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ . الآية . حتى يرد الإشكال من تشبيهها بصلاة إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

إن قلت : فذكر محمد قبل آل محمد للتمهيد أو هو أيضًا مقصود بالذات للصلاة عليه ؟

قلت : الملتفت إليه بالذات في الصلاة و إن كان ذريته لكن ذكره عليه الصلاة والسلام أيضًا مقصود بالذات في هذه الصلاة . فإنّ الصلاة تكريم و تبجيل ، و تبجيل ذرية الرجل تبجيل لهذا الرجل أيضًا ،

لاسيما إذا حصل التبجيل بدعائه و شفاعته ، حيث يرجع مسرورًا إذا كرّم أولاده لقبول شفاعته . فتبجيلهم تبجيل للأب و فرحهم فرح له ، كما أنّ إهانتهم إهانة للأب و حزنهم حزنه .

فعلى هذا معنى هذه الصلاة : اللّهم صلّ عليّ و على آلي ، أي كرّمني في حق ذرّيتي بأن يكونوا كلّهم موحّدين مؤمنين بك إلى يوم القيامة ، كما صلّيت على إبراهيم و على آله ، أي كرّمته في ذريته بأن كانوا جميعًا مؤمنين بك موحّدين لك .

و لعلّ هذا التوجيه من أحسن التوجيهات إن شاء الله ، حيث علم به تحقق دعائه عليه الصلاة والسلام و شفاعته بالإيمان و التوحيد لذريته إلى يوم القيامة ، كما دعا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لبنيه ذلك ، حيث قال : وَٱجْنُبْنِيْ وَ بَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ . و عن مجاهد : استجاب الله دعوة إبراهيم في ولده ، فلم يعبد أحد منهم صنمًا بعد دعوته ، و جعل من ذريته من يقيم الصلاة .

و لم يثبت في عامّة صحاح الأحاديث صريحًا و تفصيلاً دعاؤه عليه الصلاة والسلام بالإيمان لذريته الذين يأتون بعده مثل دعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام لذريته ، مع أن شفقته تقتضي ذلك . فإذا حملت هذه الصلاة الإبراهيمية على هذا المحمل يثبت نصّ مفصلاً في دعائه عليه الصلاة والسلام لهم .

نعم ، ثبت بعض الأدعية الجزئية ، لكنّها في الظاهر مختصّة بذريته الموجودين في زمنه عليه الصلاة والسلام ، كحديث الكساء و نحو ذلك .

إن قلت : آل محمد آل لإبراهيم أيضًا ، لكونه عليه الصلاة والسلام من أولاد إبراهيم عليه الصلاة والسلام . فما وجه ذكرهم على حدة و تشبيههم في الدعاء بآل إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

قلت : نعم ، آل محمد آل إبراهيم ، لكن ذرّيّة إبراهيم قبل خلق نبينا صلى الله عليه وسلم ينسبون إلى إبراهيم ، فيقال : آل إبراهيم . و بعد خلقه إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، فيقال : آل محمد . و المعتبر في ذلك العرف . و العرف أملك . و أيضًا محمد سيّد الأنبياء عليه و عليهم الصّلاة والسلام . فلا ينبغي أن ينسب آله إلى نبي آخر ، و إن كان لهذه النسبة مساغ باعتبار النشأة الظاهرة .

فلمّا دعا إبراهيم لآله و هم أجداده صلى الله عليه وسلم بالإيمان و التوحيد و تقبل الله دعاءه فلم يكن فيه أحد يعبد الأصنام ، حذا حذوه النبي عليه الصلاة والسلام متبعًا له ، فدعا لذريته ذلك الدعاء . و نرجو قبول هذا

الدعاء . و نرجو أن لا يوجد فيهم إلى يوم القيامة أو إلى ما يشاء الله تعالى أحد يعبد الأصنام أو يموت على عبادتها . و كلّهم أو أكثرهم يكونون موحّدين لله تعالى إن شاء الله تعالى . و في الحديث الصحيح : من قال لا إله إلّا الله دخل الجنة . وفي رواية : حرّمه الله على النار .

قال العبد الضعيف الروحاني البازي : بعد ما سطرت هذا البحث على خوف و خطر تحيّرت ، إذ لم أر لأحد من العلماء التصريح بدخول ذرّيّة فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا كلّهم الجنة و بكونهم موحّدين . فدعوت الله تعالى أن يطلعني إن كان ما قلت حقًّا على نصّ للعلماء مؤيد . فاطّلعني بعد شهر على مؤيد صريح من نصّ العلماء . ولله الحمد . و هو هذا :

قال العارف بالله السيد عبد الله ميرغني في كتابه الأسئلة النفسيّة و الأجوبة القدسيّة ، وهو كتاب نفيس ، بناه على أربعة و أربعين سؤالاً و أجوبتها .

قال في جواب السؤال الثاني و العشرين : و سألني ما حكم من أتى بفاحشة من البضعة النبوية ، فولد من ذلك ولد ، هل يهدر ذلك كما هو ظاهر عموم الشرع ، الولد للفراش و للعاهر الحجر ، أم هنا تخصيص . فإنّي مختار في شأن البضعة و الإهدار .

فقلت : قد كنت في غاية الحيرة من ذلك ، ولم أر شيئًا للعلماء هنالك . ثم فتح الله منهجًا من المسالك . و بيانه : أنّ أصل هذا الشأن بابتداء سيّد ولد عدنان ﷺ . ولا شكّ أنّه أصل الكون و منبعه ، ولا شكّ فيما تفرّع منه أنّه مهدر و غير مهدر كالكفار وغير ذلك ، و المهدر ما كان من أطراف الاكتساب وغيره من أرباب الأحساب . فالحسب في كمال النسب . و المكتسب مقترف و مجتنب . فالقريب ما دنا ، و البعيد ما نأى . و منه الأشقياء و الفضلات . و منه ما نحن فيه من الأبحاث . و من هذا البحث تبيّن إهدار ولد الفاحشة البحت . وهو مطابق للشرع الأقوم . والله أعلم .

فإن قلت : فعلى ما قررت قد يكون بعض الولد شقيًّا مع اقتضاء آية التطهير لعدمه ، بل في الحديث : إنّما سميت فاطمة لأنّ الله فطمها و ذريتها عن النار .

بل قد وردت أخبار بعدم تعذيبهم . حتى قال بعض العلماء : يعتقد في أهل البيت أنّ الله تعالى متجاوز عن جميع سيّآتهم لا بعمل عملوه ولا بصالح قدموه ، بل بسابق عناية من الله لهم . فلا يحلّ لمسلم

أن ينتقص إعراض من شهد الله بتطهيره و ذهاب الرجس عنه . و ما نزل بناديهم من الظلم و الجور نزل منزلة القضاء الوارد من الله تعالى كالغرق و الحرق و نحو ذلك . إذ لهم من الحرمة ما لسيّدهم الذي نسبوا إليه . إلى آخر ما في نصيحة الشيخ زروق و غيرها .

قلت : لم تكن الشقاوة إلّا فيما انفصل قبل الظهور من عالم النور . أمّا بعده فلإتمام الكمال ، فلا يلحقه النقص بحال ، ولم يزل في كمال .

و إن قلت : هذا ابن نوح عليه الصلاة والسلام لم يكن من أهله لفقدان فضله .

قلت : لا يقاس ابن نوح عليه الصلاة والسلام بابن جامع الفتح و الفتوح ، و أين الشبح من الروح . فقياس الثريا بالثرى قياس من عقله إلى وراء .

و بما قرّرنا تبيّن نفي الشقاوة و ثبوت وقوع الولد من الفاحشة من أهل البيت على خلاف ما حكاه بعضهم عن الشيخ ابن عربي من أنّه لا يتصور من ذلك ولد ، لكون البضعة محفوظة . و هذا ينكره الواقع ، فإنّه لو وقع الاحتمال بوقوع ذلك من الرجل لامتنع ذلك في جانب المرأة ، لأنّه منها يقينًا . و إنّ نفي ذلك يؤدّي إلى القدح في أنساب الناس و إلى اختباط كبير . و ما قلناه إن شاء الله هو التحقيق علمًا و ذوقًا و كشفًا .

نعم ، **إن قيل :** شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم عظيم و جاهه جسيم و قدره لا يقدر ، فنرجو أن لا يهدر في العقبى . أمّا الآن فلابدّ من الإهدار للردع و الانزجار ، كما هو حكم ظاهر الشرع ، فليس ببعيد . انتهى كلام السيّد ميرغني رحمه الله تعالى .

قلت : و صرّح العارف بالله الشيخ أحمد زروق رحمه الله تعالى أيضًا في نصيحته بذلك . و ما ذكر ميرغني رحمه الله تعالى من قوله " قال بعض العلماء : يعتقد في أهل البيت " إلى قوله " من الحرمة ما لسيّدهم الذي نسبوا إليه " عبارة الشيخ أحمد زروق بعينها في نصيحته .

و قال السيد ميرغني رحمه الله تعالى في مقام آخر في الكتاب المذكور : و مما قررته سابقًا يقطع بأنّه لا يقاس عليه غيره من الأنبياء ولا أولادهم على أولاده صلى الله عليه وسلم . لأنّ هذا أمر خصّه به و بذريته بسببه ، فلا أحد يلحق به . و في الحديث : نحن أهل بيت ، لا يقاس بنا أحد . خرّجه الملاّ .

فإن قلت : قد وردت أحاديث مقتضية لوقوع نقص و كفر كحديث : أنّ أهل بيتي هؤلاء يرون أنّهم أولى الناس بي ، و ليس كذلك أنّ أوليائي منكم المتّقون من كانوا و حيث كانوا . و صحّح الحاكم حديث : وعدني ربّي في أهل بيتي من أقرّ منهم بالتوحيد و لي بالبلاغ أن لا يعذّبهم . و أنّه ﷺ لا يغني عنهم من الله شيئًا ، و نحو ذلك .

قلت : و أيضًا وردت أكثر منها و أعظم في أضداد ذلك و أزيد من ذلك . و إنّما ورد ذلك لأجل الإنذار و الإرشاد و عدم الاغترار . كيف و مع القطع باتصال يستحيل معه الانفصال . انتهى . هذا . والله أعلم بالصواب .

فصل

إنما قلنا " إنّ آل إبراهيم عليه الصلاة والسلام و ذريته الذين هم أجداد نبينا ﷺ خاصّة كانوا موحّدين " لما صرّح كثير من العلماء و الأئمة و العارفين بذلك .

قال الشيخ عبد الله الشرقاوي رحمه الله تعالى في تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة و السلاطين ص٥٥ : لم يزل ينتقل نوره ﷺ من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات . و هو معنى قوله تعالى : وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ . و كان كلّ جدّ من أجداده من لدن آدم يأخذ العهد و الميثاق أن لا يوضع ذلك النور إلّا في الطاهرات ، إلى أن وصلت النوبة إلى عبد الله بن عبد المطلب . فكانت نساء قريش يرغبن في نكاحه .

وقد لقي في زمانه ما لقي يوسف عليه الصلاة والسلام من امرأة العزيز . و قد روى الترمذي عن العباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إنّ الله خلق الخلق و جعلني في خيارهم ، ثم تخيّر القبائل فجعلني في خير قبيلة ، ثم تخيّر البيوت فجعلني في خير بيت . فأنا خيرهم نفسًا و خيرهم بيتًا ، أي ذاتًا و أصلًا . انتهى .

و عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا : خرجت من لدن آدم من نكاح غير سفاح . أخرجه ابن عساكر و ابن سعد . و عنه مرفوعًا : ما ولدني إلّا نكاح كنكاح الإسلام .

و أخرج ابن سعد و ابن عساكر عن الكلبي قال : كتبت للنبي ﷺ خمسمائة أمّ . فما وجدت

فيهن سفاحًا ولا شيئًا مما كان من أمر الجاهلية .

و أخرج البزار و الطبراني و أبو نعيم من طريق عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى : وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ . قال : ما زال النبي ﷺ يتقلب في أصلاب الأنبياء حتى ولدته أمّه .

و أخرج ابن سعد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا : خير العرب مضر ، و خير مضر بنو عبد مناف ، و خير بني عبد مناف بنو هاشم ، و خير نبي هاشم بنو عبدالمطلب . والله ما افترق فرقتان منذ خلق الله آدم إلّا كنت في خيرهما .

قال أبو نعيم : وجه الدلالة على نبوّته من هذه الفضيلة أنّ النبوّة ملك و سياسة عامة . و الملك في ذرى الأحساب و الأخطار من الناس ، لأنّ ذلك أدعى إلى انقياد الرعيّة له و أسرع إلى طاعته . و لذلك سأل هرقل أبا سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : كيف نسبه فيكم ؟ قال : هو فينا ذونسب . قال هرقل : و كذلك الرسل تبعث في نسب قومها . راجع الخصائص ج١ ص٩٨ .

و أخرج ابن جرير في تفسير قوله تعالى حكاية عن إبراهيم الخليل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ . عن مجاهد قال : استجاب الله دعوة إبراهيم في ولده ، فلم يعبد أحد منهم صنمًا بعد دعوته ، و جعل من ذريته من يقيم الصلاة .

قال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ : و هذه الأوصاف كانت لأجداده ﷺ خاصّة ، دون سائر ذرّيّة إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . و كلّ ما ذكر عن ذرّيّة سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من المحاسن فإنّ أولى الناس به سلسلة الأجداد الشريفة الذين خصّوا بالاصطفاء . و انتقل إليهم نور النبوّة واحدًا بعد واحد . ولم يدخل ولد إسحاق عليه السلام و بقية ذرّيّةإبراهيم ، لأنّه دعا لأهل هذه البلدة . ألا تراه قال : رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا . و عقّبه بقوله : وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ .

فلم تزل ناس من ذرّيّة إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على الفطرة . يعبدون الله . ويدلّ له قوله تعالى : وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ . فإنّ الكلمة الباقية هي التوحيد . و عقب إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هم سيدنا محمد ﷺ و نسله و آباؤه الكرام .

فأبواه ناجيان منعمان في أعلى درجات الجنان ، لأنّهما ماتا في زمن الفترة ، و أهل الفترة ناجون

و إن غيّروا و بدّلوا و عبدوا الأصنام على الراجح . إلّا من أخبر ﷺ بعدم نجاتهم ، كامرئ القيس و أضرابه . انتهى . كذا في تحفة الناظرين .

قال البوصيري رحمه الله تعالى في همزيته :

لمْ تزلْ في ضمائر الكونِ تُختَا رُ لك الأُمهاتُ و الآباءُ

أي كما طابت ذاتك بما أوتيته من الكمال الأعلى كذلك طاب نسبك . فلم يكن في أمهاتك من لدن حواء إلى أمّك آمنة ، ولا في آبائك من لدن آدم إلى أبيك عبد الله إلّا من هو مصطفى مختار . و شاهد ذلك حديث البخاري : بعثت من خير قرون بني آدم قرنًا فقرنًا حتى كنت من القرن الذي كنت منه .

قال ابن حجر المكي رحمه الله تعالى في شرح الهمزية : و اعلم : أن آدم عليه الصلاة والسلام ولد من حواء أربعين ولدًا في عشرين بطنًا إلّا شيثًا وصيّه عليه الصلاة والسلام ، فإنّه ولد منفردًا كرامة لكون نبينا ﷺ من نسله . ثم لمّا توفّي عليه الصلاة والسلام وصّى ابنه بوصيّة أبيه له أن لا يضع هذا النور الذي كان بجبهة آدم عليه الصلاة والسلام . ثم انتقل إلى شيث عليه الصلاة والسلام . إلّا في المطهّرات من النساء . ولم تزل هذه الوصية معمولاً بها في القرون ، إلى أن وصل ذلك النور إلى جبهة عبد الملطب ، ثم ولده عبد الله . و طهّر الله هذا النسب الشريف من سفاح الجاهلية ، كما ورد في الأحاديث كحديث في سنن البيهقي : ما ولدني من سفاح الجاهلية شيء ما ولدني إلّا نكاح الإسلام .

و روى ابن سعد و ابن عساكر عن محمد بن السائب بن الكلبي عن أبيه قال : كتبت للنبي ﷺ مائة أمّ . فما وجدت فيهن سفاحًا ولا شيئًا مما كان من أمر الجاهلية .

وروى الطبراني و أبو نعيم و ابن عساكر عنه ﷺ قال : خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي و أمّي ، و لم يصبني من سفاح الجاهلية شيء .

و روى أبو نعيم قوله عليه الصلاة والسلام : لم يلتق أبواي قط على سفاح ، ولم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفًّى مهذّبًا ، لا تتشعب شعبتان إلّا كنت في خيرهما .

و روى ابن مردويه : أنّه قرأ ﷺ : لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٌ مِّنۡ أَنفَسَكُمۡ (بفتح الفاء اسم تفضيل) . و قال : أنا أنفسكم نسبًا و صهرًا و حسبًا . ليس في آبائي من لدن آدم سفاح . كلّنا نكاح . انتهى .

الباب الثاني والعشرون بعد المائة
محتو على جوابين

لابدّ من ذكر مقدمة . و هي : أنّ علماء المعاني و البيان ذكروا كما في الأطول و كشاف اصطلاحات الفنون : أنّ الغرض من التشبيه في الأغلب يعود على المشبّه نحو " زيد كالأسد " حيث قصد فيه إثبات الشجاعة لزيد .

وقد يعود الغرض إلى المشبّه به . وهو ضربان :

الأوّل : إيهام أنّ المشبّه به أتمّ من المشبّه ،كما في التشبيه المقلوب .

والضرب الثاني : بيان الاهتمام بالمشبّه به كتشبيه الجائع وجهًا كالبدر بالرغيف نحو : هذا الوجه كالرغيف . أو تشبيه البدر بالرغيف نحو : البدر كالرغيف . و يسمّى هذا الضرب من الغرض إظهار المطلوب .

و قد يعود إلى المشبّه و المشبّه به جميعًا . فالأنواع أربعة . هذا خلاصة كلامهم .

ولا يخفى أنّ اشتراط كون المشبّه به أتمّ مخصوص بالقسم الأوّل . و أمّا الأقسام الأخيرة الثلاثة فلا يشترط فيها ذلك . و قد استقصيت البحث على التشبيه المقلوب في باب آخر من هذا الكتاب . فراجعه .

والظاهر في القسم الثالث كون المشبّه أتمّ من المشبّه به . فإنّ البدر في قولنا " البدر كالرغيف " أعلى شأنًا و أتمّ من الرغيف في نفس الأمر .

و **أمّا القسم الرابع** فيحتمل الوجهين في الواقع أتمّيّة المشبّه أو المشبّه به .

و بعد هذه المقدمة أقول : يمكن أن يكون التشبيه في قولنا "كما صلّيت على إبراهيم" من باب القسم الثالث أو الرابع .

فإن جعل من باب القسم الثالث فمطلوب نبينا ﷺ بالأمر بذلك الاهتمام بشأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، و التنويه بمقامه الفخيم من بين سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بعد رسول الله ﷺ ، و إظهار حق أبوّته و حق دعائه . و لشدّة رغبته عليه الصلاة والسلام به جعله مشبّهًا به كأنّه أفضل منه ادّعاءً ، لا أنّه أفضل منه في نفس الأمر . و إلّا لم يكن من قبيل التشبيه المقلوب .كمن جعل الرغيف مشبّهًا به للبدر كأنّه أفضل منه ادّعاءً و إظهارًا للاهتمام بمطلوبه ، لا أنّه أتمّ و أكمل من البدر في الواقع .

و إن جعل من القسم الرابع فهو جواب آخر . و القسم الرابع و إن دلّ على التساوي في الغرض لكن يكفي لغرضنا . إذ غرضنا دفع ما قيل : إنّ هذا التشبيه المتحقّق في الصلاة الإبراهيميّة يدلّ على أنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام أفضل من محمد ﷺ . و أمّا أفضليّة نبينا ﷺ فثابتة بوجوه أخر كثيرة . هذا . ولله الحمد و المنة . و علمه أتمّ و أكمل .

الباب الثالث والعشرون بعد المائة
في الجواب الثالث والخمسين ومائة

المذكور في قولنا " صلّ على محمد و آله كما صلّيت على إبراهيم " صلاة الله تعالى . و صلاة الله سواء كانت على إبراهيم أو كانت على محمد غير متناهية ، لا تقف عند حدّ ولا تنتهي على غاية .

إذ الصلاة بمعنى التعظيم و التكريم . و ذلك لم ينقطع و لن ينقطع عنهما في وقت ، ولم يخلوا و لن يخلوا صلى الله عليهما وسلم في دهر ، بل كان كلّ واحد منهما متّصفًا به يوم ولد و يوم مات ، و متّسمًا به يوم يبعث حيًّا ، و هلُمّ جرًّا إلى أن يلج الجنة خالدًا في تلك القصور و الروض . له نعيم مقيم ما دامت السمٰوات و الأرض .

و التفاوت بين الأمور كمًّا و كيفًا إنّما يتأتّى إذا كانت متناهية . و أمّا في الأشياء الغير المتناهية فلا .

حَدِيثي قديمٌ في هَواها و ما لَهُ كما عَلِمَتْ بَعْدٌ وليسَ له قَبْلُ

و قد صرّح بذلك علماء الكلام و المنطق وغيرهم ، قالوا : إذا فرض سلسلتان : أحدهما سلسلة الأعوام و الأخرى سلسلة الشهور ، ولا يخفى أن زمان الشهر أقل من زمان العام ، لكن إذا كانت سلسلتاهما غير متناهيتين لا يسوغ لأحد أن يقول بالتفاوت ، و أن يدّعي أن إحداهما أكبر من الأخرى . و هذا غير مخفي على من له دربة في علمي الكلام و الفلسفة . فتفكّر و تدبّر .

و نظير هـذا في المعدومات ما قالوا : إنّ التفاوت و التفاضل في الأمور يتحقّق إذا كانت

موجودة أو ممكنة . و أمّا إذا كانت محالاً فلا . فلا يصح أن يقال : هذا أشدّ محالاً من الآخر .

و نظيره في الموجودات ما ذكره بعض المحدّثين و المحقّقين : أنّ الصدق و الكذب لا يتصوّر فيهما التفضيل في قسم واحد أو أقسام محصورة من الأحاديث .

و لذا أشكل حديث رواه الترمذي في الشمائل عن علي رضي الله عنه في وصفه عليه الصلاة والسلام : كان أوسع الناس صدرًا و أصدق الناس لهجةً . و حديث آخر و هو : ما من ذي لهجة أصدق من أبي ذرّ . قال العلامة الخفاجي رحمه الله تعالى في نسيم الرياض ج٢ ص٨٠ ، فصل حسن عشرته : ثم إنّ في التفضيل في الصدق سؤالاً . و هو أن الصدق هو المطابقة للواقع . فما طابق فهو صادق ، وما لم يطابق فهو كذب . فكيف يتصوّر التفاوت فيه حتّى يكون هذا صادقًا و ذاك أصدق . و هذا إنّما يرد لو كان التفضيل في كلام واحد أو أنواع منه محصورة . و أمّا لو أريد كلّ كلام صدر عن متكلّم فلا يرد ما ذكر . انتهى .

ثم اعلم : أنّه قد صرّح كثير من العلماء على أنّ صلاة الله تعالى على نبينا غير متناهية . قال العلامة الصاوي رحمه الله تعالى : إن قلت : إنّ صلاتهم طلب من الله أن يصلّي عليه ، و هو تعالى مصلٍّ عليه مطلقًا ، طلبوا أو لا .

أجيب بأنّ الخلق لما كانوا عاجزين عن مكافأته صلى الله عليه وسلم طلبوا من القادر المالك أن يكافئه . ولا شكّ أنّ الصلاة الواصلة للنبي صلى الله عليه وسلم من الله لا تقف عند حدّ . فكلّما طلبت من الله زادت على نبيّه . فهي دائمة بدوام الله تعالى . انتهى . الصاوي ج٤ ص٢٢٠ . و ما أحسن قول القائل :

إنَّ في الموجِ للغَريقِ لَعُذْرًا واضحًا أنْ يَفُوتهُ تَعْدادُه

هذا . والله أعلم بالصواب و علمه أتمّ .

فصل

اعلم : أنّ الحكماء و المنطقيّين و المتكلّمين اختلفوا في التفاوت و الزيادة بين الأمور الغير المتناهية على قولين . و بنوا على ذلك أبحاثًا عظيمةً في غير ما موضع .

فمن تلك المواضع برهان التضاعف لإبطال الغير المتناهي . وهو من أقوى البراهين عندهم . و يبتني على مقدمات :

الأولى : أنّ ضعف الشيء يكون أزيد منه ، عددًا كان أو معدودًا .

و الثانية : أنّ زيادة الزائد لا يكون إلّا بعد انصرام جميع آحاد المزيد عليه إذا كانت مرتّبةً .

و الثالثة : أنّ كلّ عدد قابل للتضعيف .

و الرابع : أنّ كل ما هو خارج من القوّة إلى الفعل معروض للعدد بالضرورة ، متناهيًا كان أو غير متناهٍ .

و بعد هذه المقدمات نقول : لو وجدت الأمور الغير المتناهية بالفعل لكانت معروضة لعدد بالمقدّمة الأخيرة . فيقبل ذلك العدد التضعيف بحكم المقدّمة الثالثة ، و يكون ضعفه أزيد منه بحكم الأولى ، ولا تكون الزيادة إلّا في الآخر بحكم الثانية . فيلزم تناهي ما فرض عدم تناهيه . و ذلك ما أردناه .

فهذا البرهان إنّما يستقيم على مذهب من يجوز الزيادة على غير المتناهي ، كما يدلّ عليه عموم المقدّمة الثالثة .

و اعترض على هذا البرهان بوجوه :

الأوّل : ما ذكره العلامة الشيخ محبّ الله البهاري في حواشي السلّم حيث قال : لم لا يجوز أن يكون التضاعف خاصّة المتناهي دون غيره . انتهى .

و الثاني : ما نقل عن القاضي محمد مبارك الكوفاموي ، و هو قوله : الحقّ أنّ الأمور الغير المتناهية لا تتّصف بالزيادة و النقصان بالقياس إلى نظائرها ، لأنّهما من عوارض الكمّ من حيث التناهي و بعد تعيّن المحدود . نعم ، يمكن الحكم عليها بالتساوي مطلقًا من حيث عدم انقطاع التطابق بين آحادها . انتهى .

فهذان الاعتراضان مبنيّان على أنّ الأمور الغير المتناهية لا تقبل الزيادة و النقصان فيما بينها

ولا تجوز الزيادة عليها .

و من تلك المواضع برهان ذكر في الأسفار لإبطال الغير المتناهي . و تقريره : أنّ كلّ عدد فهو قابل للزيادة ، فيكون أقلّ من عدد . فالعدد العارض للغير المتناهية أيضًا يقبل الزيادة ، فيكون متناهيًا .

و اعترض عليه الفاضل مولانا عبد الحي اللكنوي رحمه الله تعالى في كتابه الكلام المتين ص١٢ بقوله : لا نسلّم عروض العدد للغير المتناهي . انتهى .

و يعلم من كلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في كتابه " تهافت الفلاسفة " أنّه يجوز الزيادة في الأمور الغير المتناهية ، و أنّه يجوز كون سلسلة من الأمور الغير المتناهية نصف سلسلة أخرى من الأمور الغير المتناهية أو ربعها و نحو ذلك . و تمسّك لذلك بأدوار الأفلاك و السيّارات . و منع ذلك ابن رشد رحمه الله تعالى في كتابه " تهافت التهافت " و قال : إنّما ذلك من خصائص المتناهي ، ولا يجري في غير المتناهي . راجع تهافت التهافت ج١ ص٧٦ .

الباب الرابع والعشرون بعد المائة
مشتمل على جوابين

يمكن أن يقال : إنّ الكاف في قولنا "كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم " ليست للتشبيه حتى يرد ما ورد ، بل للمقابلة و المبادلة . أي صلّ على محمد و على آله بدل صلاتك على إبراهيم و على آل إبراهيم . فإنّه عليه الصلاة والسلام أحرى بذلك من إبراهيم لكونه أفضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

إن قلت : هل صرّح أحد من السلف بمجيء الكاف للمقابلة .

قلت : نعم ، صرّح به بعض المفسّرين المحقّقين . قال العلامة الآلوسي رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى "كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ۝ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ۝ " : متّصل بما قبله . فالكاف للتشبيه . و قيل : متّصل بما بعده . أي اذكروني ذكرًا مثل ذكري لكم بالإرسال . أو اذكروني بدل إرسالنا فيكم رسولاً . فالكاف للمقابلة متعلّق "باذكروني" . و منها يستفاد التشبيه ، لأنّ المتقابلين متشابهان و متبادلان . انتهى ملخّصًا . روح المعاني ج٢ ص١٨ .

إن قلت : على هذا ما معنى الصلاة و ما مآل الكلام ؟

قلت : في معناها وجهان . كلّ وجه جواب على حدة :

الوجه الأوّل : معنى الصلاة : اللّهم صلّ على محمد و على آله بمقابلة صلاتك على إبراهيم و آله . إذ نبينا صلى الله عليه وسلم أولى بذلك من إبراهيم و سائر الأنبياء ، لكونه أفضلهم عليه و عليهم الصّلاة والسلام .

و إن شئت فقل : اللّهم إنّك صلّيت على إبراهيم في زمانه ، و كان لائقًا بصلاتك و جديرًا بذلك عند ذاك لكونه نبيًّا رسولاً ، فنحن نسأل بمقابلة صلاتك على إبراهيم و بدل بركاتك عليه أن تصلّي على محمد و تبارك عليه ، إذ هو رسول هذا الزمان إلى الثقلين ، لا نجاة إلاّ في اتباعه . فهو أليق بصلاتك و أجدر بذلك في زمنه لكونه أفضل الأنبياء و أكرم خلق الله على الإطلاق .

و الوجه الثاني : معناها : اللّهم صلّ على محمد و آته البركات بدل ما صلّيت على إبراهيم ، فإنّ صلاتك على إبراهيم تستدعي هذه المقابلة و المبادلة ، أي تستدعي أن تصلّي على محمد ، لأنّ الصلاة على إبراهيم إنّما تتمّ بالصلاة على محمد ، لكونه من أبنائه و آخر ولد له ، جعله الله نبيًّا رسولاً و ختم به الأنبياء . فإتمام صلاة إبراهيم يقتضي أن نصلّي بدل ذلك على محمد كثيرًا كما أنّ إرسال الله فينا رسولاً يقتضي أن نذكر الله كثيرًا و نشكر له .

و إن شئت فقل : إنّ الصلاة على محمد من ثمرات الصلاة على إبراهيم و إنّها غايتها ، كما أنّه عليه الصلاة والسلام دعوة أبيه إبراهيم و بشرى عيسى عليهما الصلاة والسلام . و هذا كما أنّ ذكرنا لله تعالى قلبًا و لسانًا بالإخلاص من ثمرات إرسال الله تعالى فينا رسولاً . و إنّه غاية الإرسال و الغرض له . (المراد من الغرض الحكمة و الفائدة لا العلّة الغائيّة الفلسفيّة الباعثة على الفعل المتمّمة لفاعليّة الفاعل) . قال الله تعالى : كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ . إلى قوله : فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي .

و إنّما قلنا " إنّ صلاته عليه الصلاة والسلام من ثمرات صلاة إبراهيم و إنّها غايتها و غرضها " لأنّه عليه الصلاة والسلام من أكرم أولاد إبراهيم ، و كان عليه الصلاة والسلام مطلوب إبراهيم ، إذ دعا له فقال : رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ .

فالله كرّم إبراهيم عليه الصلاة والسلام و أهل بيته بالصلاة و البركة ، و نبينا صلى الله عليه وسلم هو الفرد الأكمل لهذا البيت ، وقد جاء في آخرهم أوّلاً ، و انتهت به عليه الصلاة والسلام سلسلة الصلاة والبركة ثانيًا ، لكونه خاتم الأنبياء ، و جعله الله أفضل هذا البيت و أفضل الخلق كلّه ثالثًا .

و معلوم أنّ تبجيل مثل هذا البيت لا يتمّ بدون تبجيل الفرد الأكمل الآخر أي الخاتم ، و أنّ تبجيل هذا الفرد من ثمرات تبجيل هذا البيت لكونه آخرًا و خاتمًا . فالصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم

من ثمرات الصلاة على إبراهيم و آله عليه الصلاة والسلام و غايتها و غرضها الأعلى و مقصودها الأقصى لكونه آخرًا و خاتمًا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، كما تكون الغاية و الثمرة في الآخر .

فنحن نصلّي بمقابلة صلاة الله على إبراهيم و بدلها على محمد لتصير تلك الصلاة تامّةً مثمرةً واصلةً إلى غايتها المطلوبة و نهايتها المبغيّة . هذا . والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب .

الباب الخامس والعشرون بعد المائة
في الجواب السادس والخمسين ومائة

حاصله : أنّ الصلاة كما قالوا لا تنفع النبي ﷺ ، بل نفعها عائد للمصلّي فقط .

و **إيضاح ذلك** أن التشبيه ثلاثة أنواع :

الأوّل : ما لا يكون من قبيل الدعاء ، بل يكون إخبارًا نحو : زيد كالأسد .

و **الثاني :** ما كان دعاء تحت الأصل المعروف في الدعاء ، و هو أن يحصل به بعد القبول نفع للمدعوّ له نحو قولك لسلطان : أعط زيدًا مثل ما أعطيت بكرًا . حيث يحصل فيه بعد القبول نفع من العطاء مثل ما حصل لبكر .

و **الثالث :** ما كان دعاء غريبًا غير داخل في ذلك الأصل بأن لا يحصل به النفع للمدعوّ له ، و إن قبل ، بل للداعي فقط ، كما في الصلاة الإبراهيميّة و تشبيهها . حيث صرّحوا بأنّ نفع الصلاة عائد للمصلّي فقط ، لا للنبي ﷺ . فإنّه غني عن صلاتنا ، كما مرّ تفصيله في الباب الحادي و الثلاثين .

إذا عرفت هذا فأقول : النوعان الأوّلان يقصد فيهما تحصيل الوصف أي النفع للمشبّه مآلًا أي بعد قبول الدعاء كما في الثاني ، أو الإخبار عن حصول الوصف و النفع له حالًا كما في النوع الأوّل ، و لتقوية تحصيل هذا الوصف و النفع للمشبّه يذكر المشبّه به و يشبّه به ، كما لا يخفى على المتفكّر .

و الأغلب في هذين النوعين كينونة المشبّه به أقوى و أجلّ من المشبّه ، ليصحّ قياس نفع المشبّه عليه و تقويته به . و لذا قيل :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قَدْرُهُ   إِذَا قِيلَ إِنَّ السَّيْفَ أَعْلَى مِنَ الْعَصَا

بخلاف النوع الثالث فإنّ الظاهر عدم لزوم كون المشبّه به أقوى و أجل ، إذ لا يقصد فيه وصف المشبّه و نفعه حتى يقاس على المشبّه به و يقوّى به . نعم ، لو قصد ذلك القياس و التقوية لكان للزوم أجلية المشبّه به وجه ، و إذ لا فلا .

وقد قالوا : انتفاء العلّة يستلزم انتفاء المعلول . و معلوم أنّ التشبيه في الصلاة الإبراهيميّة من النوع الثالث . فلا يدلّ على أنّ المشبّه به فيه أجلّ من المشبّه .

ثم هذا الفرق بين النوعين الأولين و بين النوع الثالث واضح ، لكنه يحتاج إلى تجريد الطبع و لطف القريحة . فزنه بميزان العقل تجده أعلق بالقلب ، و إن لم يقرع سمعك كما لم يقرع سمعك كثير من الأجوبة و التحقيقات المنيفة في هذا الكتاب . ولله الحمد و المنّة . سطرت هذا قبيل صلاة عشاء الثامن عشر من شهر رمضان سنة ١٣٩٥ھ بلاهور .

الباب السادس والعشرون بعد المائة
في الجواب السابع والخمسين ومائة

قد بسطنا في الباب الحادي و الثلاثين أنّ فائدة الصلاة راجعة إلى المصلّي دون المصلّى عليه ، و أنّها لا تنفع النبي ﷺ ، بل تنفع المصلّي فقط ، لاستغنائه ﷺ من صلاتنا ، و أنّ لها ظهرًا و بطنًا . و لكلّ حدّ مطلع .

فهي في الظاهر دعاء له عليه الصلاة والسلام ، و في الباطن دعاء للمصلّي نفسه لوجهين :

الأوّل : دخوله في آل محمد ، فإنّ آله كلّ مؤمن تقيّ .

و الثاني : أنّ الله يصلّي عليه بالصلاة عشرًا .

قال أبو محمد المرجاني : صلاتك عليه ﷺ في الحقيقة لمّا كان نفعها عائدًا عليك صرت في الحقيقة داعيًا لنفسك . انتهى . كذا في القول البديع . فحصحص من هذا أنّ حكم الصلاة و فائدتها شرعًا على عكس الظاهر .

إذا تمهّد هذا فأقول : لا يبعد أن يجعل حقيقتها و حكمها الشرعيّ قرينة على عكس حال لفظها و صيغتها ، و يقال : إنّ هذه الصلاة الإبراهيمية تدلّ على أفضليّة المشبّه على المشبّه به على عكس ما عرف و اشتهر من أفضلية المشبّه به على المشبّه ، ليتّسق المعنى و اللفظ ، و يتناسق الظاهر و الباطن ، و ينتظم الحكم الشرعيّ و الصيغة .

فاعرف هذه النكتة البديعة ، ولا تقس ما نحن فيه على نحو " زيد كالأسد " فإنّه باب و ذاك باب آخر . و الإشكال إنّما ورد من قياس أحدهما على الآخر و جعلهما من باب واحد . هذا . والله أعلم .

الباب السابع والعشرون بعد المائة
وهو مشتمل على ثلاثة أجوبة

لابدّ من ذكر مقدمة . وهي أنّ التشبيه نوعان : لغويّ ، و اصطلاحيّ . أي ما يبحث عنه علماء البيان ، و إن كان هو أيضًا لغويًّا ثابتًا في كلام العرب العرباء .

ثم تقسيم التشبيه إلى هذين النوعين قد صرّحوا به كما في المطول وغيره . و أيضًا صرّحوا بأنّ اللغويّ أعمّ مطلقًا من الاصطلاحيّ .

و عرّفوا الاصطلاحيّ بأنّه الدلالة على المشاركة بين أمرين في معنى لا على وجه الاستعارة التحقيقية و الاستعارة بالكناية و التجريد . فنحو " رأيت أسدًا في الحمام " استعارة تحقيقيّة ، و نحو " أنشبت المنيّة أظفارها " استعارة بالكناية ، و نحو " لقيني منه أسد " تجريد .

و قال السعد في المطوّل : و ينبغي أن يزاد في هذا التعريف قولنا بالكاف و نحوه لفظًا أو تقديرًا ليخرج عنه نحو " قاتل زيد عمرًا " و " جاءني زيد و عمرو " . هذا مختار الخطيب و أتباعه . و قال السكّاكي : إنّ التجريد من قبيل التشبيه .

و عرّفوا اللغويّ كما في التلخيص بأنّه الدلالة على مشاركة أمر لأمر آخر في معنى ، أي في وصف ، احترازًا عن المشاركة في عين نحو " شرك زيد عمرًا في الدار " فإنّه لا يسمّى تشبيهًا .

و قال المحقّق عبد الحكيم في حواشي المطوّل ص٣٩٨ : التشبيه في اللغة جعل الشيء شبيهًا بآخر . انتهى . فالملحوظ في اللغويّ مطلق المشاركة ، ولا يلزم فيه لا وجوبًا ولا استحسانًا أتمّيّة المشبّه

به ، بل ولا حرف التشبيه . و لذا قال السعد وغيره : إنّ هذا التعريف شامل لنحو قولنا " قاتل زيد عمرًا " و نحو " جاءني زيد و عمرو " و ما أشبه ذلك لتحقّق المشاركة بينهما في القتال و المجيء . و ظاهر عبارة السعد هذه دخول ذلك في التشبيه اللغويّ . فالتشبيه اللغويّ أعم مطلقًا من الاصطلاحيّ .

و قال السيد رحمه الله في حواشي المطوّل : إنّ قولك " جاءني زيد و عمرو " يدلّ صريحًا على ثبوت المجيء لكلّ واحد منهما . و يلزم من ذلك مشاركة أحدهما للآخر في المجيء . فالمتكلّم إن لم يقصد به هذا المعنى اللازم فلم يدلّ به المخاطب على مشاركة أمر لأمر في معنى ، فلا يندرج في التفسير المذكور بناءً على ما ذكره من معنى الدلالة . فإنّه لا يتصوّر إلّا فيما قصده المتكلم . و إن قصده لم يضرّ اندراجه فيه ، لأنّه بمعنى : شارك زيد عمرًا في المجيء أو تشاركا فيه . فيكون تشبيهًا لغةً .

و كذلك قولك " قاتل زيد عمرًا " معناه ثبوت القتل لزيدٍ متعلّقًا بعمرو صريحًا و عكسه ضمنًا . و يلزم من ذلك مشاركة أحدهما للآخر في القتل . فإن لم يقصد به اللازم فلا اندراج . و إن قصد وجب أن يندرج . و ما قيل من " أنّ باب فاعَل و تفاعَل للمشاركة و التشارك " فتفسير باللازم . انتهى .

فنحو قولك " جاءني زيد و عمرو " و " قاتل زيد عمرًا " داخل في التشبيه اللغويّ صريحًا عند العلامة التفتازاني ، و التزامًا عند السيد ، و غير داخل فيه بوجه من الوجوه عند الفاضل عبد الحكيم اللاهوري ، حيث قال في حواشي المطوّل ص٣٩٨ : و ليس شيء منهما تشبيهًا و إن قصد بهما معنى الاشتراك ، لأنّ التشبيه ليس مجرّد الاشتراك في وصف ، بل لابدّ فيه من ادّعاء مماثلة أحد الأمرين لآخر في وصف و مساواته إيّاه . في القاموس : شبّهه مثّله . و في التاج : التشبيه مانند كردن . انتهى .

و قال بعض العلماء : إنّ التشبيه اللغويّ أيضًا مثل الاصطلاحيّ ، لا يخلو عن آلة التشبيه لفظًا أو تقديرًا . و اختاره السيّد في كتابه التعريفات .

و بالجملة : بين التشبيه اللغويّ و الاصطلاحيّ فرق من وجوه :

الأوّل : أنّ اللغويّ أعمّ مطلقًا من الاصطلاحيّ .

و الثاني : لابدّ في الاصطلاحيّ من آلة التشبيه لفظًا أو تقديرًا ، بخلاف اللغوي حيث لا يلزم فيه ذلك عند الأكثر .

و **الثالث :** تتفرع على الاصطلاحي الاستعارة الحقيقيّة و بالكناية ، دون اللغويّ .

و **الرابع :** الأغلب في الاصطلاحي كون المشبّه به أعلى و أتمّ من المشبّه ، بخلاف اللغوي فإنّه للمساواة أو أعمّ .

و **الخامس :** يتعين في الاصطلاحي المشبّه و المشبّه به وجوبًا . فإنّ ما هو مدخول أداة الشبه فهو مشبّه به ، و الآخر مشبّه . و أمّا اللغوي فإن كان بأداة الشبه تعيّنا فيه أيضًا و إلاّ فلا . فاللغوي أعمّ .

و **السادس :** نحو " جاءني زيد و عمرو " و نحو " قاتل زيد عمرًا " مندرج في اللغوي دون الاصطلاحي .

و **بعد تمهيد هذه المقدّمة أقول :** لبيان الجواب ههنا سبيلان . كلّ سبيل جوابٌ برأسه ، بل السبيل الأوّل يتضمن جوابين .

أمّا السبيل الأوّل فتوضيحه أنّ الكاف قد تكون للتشبيه اللغوي . و ظاهر فحواه مساواة الطرفين : المشبّه و المشبّه به . وقد صرّح الفاضل اللاهوري بكونه للمساواة كما تقدّم من كلامه .

و قد تكون للتشبيه الاصطلاحي . و حينئذ يكون المشبّه به أتمّ و أقوى غالبًا من المشبّه . و الكاف في قولنا "كما صلّيت " للتشبيه اللغوي . وهو لا يدلّ على التفاضل ، بل على المساواة . فلم يثبت من هذا التشبيه إلاّ مساواة محمد لإبراهيم و صلاته لصلاته عليهما الصلاة والسلام .

و هذا القدر كافٍ لغرضنا . و يندفع به اعتراض من قال : إنّ هذا التشبيه يدلّ على أفضليّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام المشبّه به من محمد ﷺ . و المساواة و إن كانت تضرّنا في الظاهر لكن لا ضير فيها في الحقيقة ، لأنّ لإثبات أفضليّة نبينا ﷺ دلائل أخر لا تحصى .

ثم هذا السبيل مبني على أن التشبيه اللغوي للمشاركة بشرط لا شيء أي بشرط لا تفاضل ، أو بشرط شيء أي بشرط المساواة . فهو يحوي جوابين . أساس أحدهما أخذ المشاركة بشرط لا شيء ، و أساس الآخر أخذ المشاركة بشرط شيء . و لك أن تجعلهما جوابًا واحدًا . وللناس فيما يعشقون مذاهب .

و أمّا السبيل الثاني فبيانه : أنّ التشبيه اللغويّ يدلّ على مطلق مشاركة أمرين في وصف ،

لا على أتمّيّة المشبّه به و أفضليّته في الوصف . و هذا المطلق هو الذي يعبّر عنه علماء المعقول بقولهم : لا بشرط شيء . و مرتبة لا بشرط شيء أعمّ من مرتبة الأخذ بشرط شيء و بشرط لا شيء ، كما لا يخفى على من له معرفة بفنّ المعقول .

فعلى هذا الاحتمالات في مطلق المشاركة ثلاثة :

الأوّل : مساواة الطرفين في الواقع .

و الثاني : أن يكون المشبّه أفضل و أتمّ من المشبّه به في الواقع . و بالنظر إلى هذين الاحتمالين يندفع اعتراض أفضليّة المشبّه به ، و هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

و الثالث : أن يكون المشبّه به أتمّ و أفضل من المشبّه . و هذا الاحتمال و إن كان يضرّنا لكنّه احتمال محض و عقليّ بحت ، فلا يقدح في أفضليّة نبينا صلى الله عليه وسلم .

و أيضًا أكثر الاحتمالات الثلاثة أي الاحتمالان الأوّلان يعارض الأقلّ أي الاحتمال الثالث ، و للأكثر حكم الكلّ ، و يرجح حكم الأكثر على الأقلّ .

و أيضًا نفس الاحتمال إنّما يكفي لمن بصدد المنع . و المعترض ههنا مدّع و معارض ، فإنّ معتقدنا أنّ نبينا صلى الله عليه وسلم أفضل من إبراهيم عليه الصلاة والسلام كما أنّه أفضل من سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . و المعترض عارض معتقدنا هذا ، و ادّعى أنّ إبراهيم أفضل من محمد عليهما الصلاة والسلام ، و استدل بالصلاة الإبراهيميّة و تشبيهها . فأجبنا عن استدلالهم هذا بما أجبنا . و المعارض لا يكفيه نفس الاحتمال كما بيّن في كتب المناظرة . فاندفعت معارضته . ولله الحمد .

نعم ، الاحتمال يكفي للمجيب ، و نحن مجيبون مدافعون . فالاحتمال الواحد يكفينا ، فكيف باحتمالين مؤيّدين لنا في المدافعة و دفع الاعتراض .

نعم ، لو لم يكن عندنا دليل على أفضليّة نبينا صلى الله عليه وسلم سوى هذه الصلاة الإبراهيمية لأمكن القدح في دعوانا بالاحتمال . لكن عندنا بفضل الله دلائل كثيرة على أفضليّة نبينا صلى الله عليه وسلم .

هذا على التسليم و إلاّ فالقدح بهذا الاحتمال غير مسلّم و إن كنّا مدّعين أيضًا ، لأنّ هذه الدلائل

الكثيرة على فضل نبينا ﷺ ترجّح الاحتمالين الأوّلين ، بل الاحتمال الثاني فقط الدالّ على أنّ المشبّه أي رسول الله ﷺ أفضل من المشبّه به أي إبراهيم عليه الصلاة والسلام . هذا . والله أعلم بالصواب و إليه المرجع و المآب .

الباب الثامن والعشرون بعد المائة
في الجواب الحادي والستين ومائة

مقدّمة

نجد كثيرًا من الأمور جليّة الآثار ، واضحة الأحكام ، متداولة بين الأنام ، معروفة عند الخواصّ و العوام ، بينة حتى عند البله و الصبيان . لكن حقائقها بعد تحت حجب الإبهام لم يحط بها أحد من العلماء و الفضلاء .

فمنها : العلم . هل ترى شيئًا هو أشهر و أجلى من العلم ، لكن لمّا يعلم حقيقته باليقين إلى الآن . و لذا كثر فيها اختلاف الأئمة و العلماء . فقيل : العلم إزالة شيء و سلبه . و قيل : إثبات شيء و حصوله ،كما فصّله السيد الزاهد في شرح الرسالة القطبية . و على التقدير الثاني قيل : صورة في الذهن . و قيل : حصولها فيه . و قيل : إضافة . و قيل : صفة ذات إضافة . و قيل : صفة توجب التمييز التام . و قيل : صفة يتجلّى بها المذكور لمن قامت هي به . و قيل : انفعال النفس و قبولها للصورة . و قيل : حالة إدراكيّة انجلائيّة . و قيل : عين وجود الأمر المجرّد القائم بذاته . و قيل : لا حدّ له لكونه بديهيًّا . و قيل و قيل .كما فصّلته في تآليفاتي في المنطق .

ومنها : المغناطيس .كلّ يعلم أنّه جذّاب للحديد ، لكن اتفق القدماء و فلاسفة هذا العصر على إبهام سبب الجذب و حقيقته كما بيّنت الأقوال في ذلك في كتبي في الهيئة القديمة و الحديثة .

ومنها : الروح . فإنّه أمر معروف باعتبار الآثار . و أمّا حقيقته فلا يعلمها إلاّ الله . قال الله :

قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّيۚ .

ومنها : أنّ إبرة البوصلة المغنطيسيّة تشير دائمًا إلى الشمال ، لكنّ الفلاسفة عن آخرهم معترفون بإبهام سبب ذلك .

يقول العبد الضعيف الروحاني البازي : لا يبعد أن تعدّ الصلاة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من هذا الباب باب الروح و العلم . فإنّا نعتقد أنّ الصلاة أمر ذو منقبة ، محفوف بالجلال و ملفوف في الجمال ، ربيع قلوب العارفين و مرتع ألسنة الذاكرين ، مجمع ألطاف الهدايا و أصناف التحايا ، و مصدر أشتات المفاخر و أسباب المآثر ، مفتاح أبواب الأماني العالية و المباغي الغالية و المطالب الفاخرة في الدنيا و الآخرة . و السعيد من استكثر منه ، و الشقيّ من أعرض عنه . و نستيقن أنّ من صلّى مرّةً صلى الله عليه عشرًا . و نؤمن بأنّ الله يصلّي على النبي و أمرنا بذلك ، و أنّ المؤمن يتقرّب بالمواظبة على الصلاة إلى الله سبحانه ، و يرجو بها شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم .

و بالجملة : الصلاة أمر معروف عندنا معاشر المسلمين ثوابًا و عملاً و موردًا و مصدرًا ، لكنّا لا نعرف حقيقة الصلاة ولا نعلم أنّ كنهها ما هو ، و أيّ شيء هي في ذاتها ، كما لا نعرف حقيقة الروح .

إن قلت : حقيقة الصلاة علوّ المرتبة و التقرّب إلى الله تعالى . و المصلّي يسأل الله لنبيه بصلاته أن يمنحه ذلك .

قلت : هذا من ثمرات الصلاة . و قد تقدّم أنّ ثمراتها معروفة مسلّمة . و كلّ مؤمن يعتقد أنّ الصلاة لها فوائد عظيمة ، و أنّها سبب التقرّب إلى الله ، و فيها طلب المراتب السنيّة للنبي عليه الصلاة والسلام . لكن الشجرة تغاير الثمرة ، و المفيد يباين المفاد . فكنه الصلاة و أصل معناها مجهول بعد . و التقرّب و الإعلاء ليس عين حقيقة الصلاة و معناها ، إذ قول الرجل " اللّهم أعل محمدًا أو قرّبه إليك " لا يسمّى صلاة بالإجماع ، بل هو مطلق دعاء له عليه الصلاة والسلام . و أيضًا جاز أن يدّعى بهذا لكلّ مؤمن بأن يقال : اللّهم قرّب إليك أبابكر و عمر و أعل درجتهما .

و الصلاة دعاء مخصوص بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فعنّ لك أنّ التقرّب أو علوّ الدرجة ليس بحقيقة الصلاة و أصل معناها ، بل ذلك من ثمراتها أو لوازمها .

فمعنى الصلاة مجهول و كنهها مستور بعد . و التفاضل إنّما يكون في الأمور المعلومة . و كيف يسوغ لأحد أن يدّعي في حكم أو وصف أنّ الحاصل منه لزيد أفضل أو أقوى أو أكثر من الحاصل لعمرو مع كون الحكم و الوصف مجهولَين لديه كنهًا . فالقول بالتفاضل فيما نحن بصدد بيانه ممنوع .

ثم الدليل على مجهوليّة كنه الصلاة و معناها وجوه :

الوجه الأوّل

إنّ " صلّى فلان على النبي " بمعنى القول ، أي قال : صلّى الله عليه . مثل استرجع فلان أي قال : إنّا لله و إنّا إليه راجعون . و حوقل أي قال : لاحول ولا قوة إلّا بالله . و هذا باب يسمّيه أهل العربية باب النحت . و منه بسمل أي قال : بسم الله الرحمن الرحيم . و هلّل أي قال : لا إله إلّا الله . و كبّر أي قال : الله أكبر . و سبّح أي قال : سبحان الله .

فالله تعالى يصلّي على النبي كما هو منصوص في القرآن العزيز . فإن أريد بصلاة الله ما أريد من قولنا " صلّيتُ على النبي " أي قلتُ : صلّى الله عليه ، و تلفّظت به ، كان معناها : أنّ الله يقول هذه الصيغة و يتكلّم بهذه الجملة المركّبة من الكلمات . و هذا لا يصح في حق الله تعالى . و نسبة القول و التكلّم بجملة الصلاة إلى الله سبحانه متعذر بوجهين :

الأوّل : شأن الله تعالى أجلّ من أن يتلفظ عند الصلاة على النبي بهذه الصيغة التي صيغت من مادة " ص ، ل ، و " ولا يصحّ أن ينسب مثل هذا القول و التكلّم إلى الله أو أن يحتاج إلى تأليف حروف و كلمات لتحصيل مراد . و لذا لم يقل من الأئمة : إنّ هذه هي كيفية صلاة الله على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

فقولنا " اللّهم صلّ على محمد " ليس المراد منه طلب أن يتكلّم الله بمادة " ص ، ل ، و " و هذا ظاهر . و لهذا قالوا في قوله تعالى "كُنْ فَيَكُوْنُ " : ليس المراد أنّه يتكلّم بلفظ "كن " أي الكاف و النون . إذ لا يحتاج هو تعالى إلى ذلك ، بل هذه الكلمة كناية عن إرادة الله و أمره و تكوينه .

و الثاني : لزوم التسلسل في الأقوال ، فإنّ قول الله " صلّيت على النبي " و قوله " أصلّي عليه " على هذا التقدير يقتضي مقولاً آخر نحت ، و أخبر عنه قوله " صلّيت على النبي "كما أنّ قولنا " استرجع

زيد " يقتضي مقولاً آخر نحت عنه هذا القول و المقول الآخر هو " إنّا لله و إنّا إليه راجعون " .

" فصلّيت " يستدعي مقولاً آخر هو " صلّيت " . ثم هذا أي " صلّيت " الثاني أيضًا يستدعي معناه " صلّيت " الثالث لكونه قولاً منحوتًا . و هذا الثالث أيضًا يستدعي مقولاً و هو " صلّيت " الرابع ، و هكذا . فيتسلسل الأقوال .

و هذا كما قال أصحاب المنطق : إنّ لكل شيء وجودًا سوى الوجود . فليس للوجود وجود ، هو وصف له ، و إلّا كان للوجود الثاني وجود ثالث ، و للوجود الثالث وجود رابع ، و هكذا . فيقع التسلسل في الوجودات . فإذن ليس للوجود وجود . صرّح به الشيخ أبو علي بن سينا .

و هذا التسلسل إنّما لزم لأخذ ظاهر معنى الصلاة ، أي القول المنحوت من قول آخر و التكلّم بمادة " ص ، ل ، و " و لادّعاء أنّ هذا هو كنه صلاة الله على الأنبياء و حقيقتها .

فإذن صلاة الله عليهم ليست على ظاهرها ، و ليست حقيقتها مادة " ص ، ل ، و " ولا التكلّم بهذه المادة . و كذا الذي نسأله من الله في قولنا " اللّهم صلّ على محمد " ليست حقيقة ذلك طلب تكلّم الله بمادة " ص ، ل ، و " كما لا يخفى .

و إنّما المراد من صلاة الله و الصلاة المسؤولة شيء آخر ، لا نقدر قدره ولا ندرك كنهه ، بيد أنّا نستيقن أنّه فضل غالٍ و مجد عالٍ و أمر عظيم المنقبة ، فخيم المرتبة ، بحيث لا يقدر قدره إلّا الله تعالى .

فنحن معاشر المصلّين نسأل الله بقولنا " اللّهم صلّ على محمد " لنبينا ﷺ هذا المجد العظيم المرتبة و إن كنّا لا نكتنهه ، لكن الله سبحانه عالم الحقائق يعلمه ، فنفوّضه إليه تعالى . فمنّا السؤال و التفويض ، و من الله القبول و الإجابة . هذا غاية جهد العبد المقل في الصلاة و امتثال أمر الله . ولا يكلّف الله نفسًا إلّا وسعها .

والوجه الثاني

إنّ الصلاة مختصة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فهي دعاء مقصور عليهم ، وليست عين الدعاء ، ولا مترادفة له ، إذ الدعاء جائز لكلّ مسلم دون الصلاة . و هذا الاختصاص يدلّ على أنّها نوع من الدعاء

عظيم مجهول الكنه لعامّة البشر ، ولا يعلم كنهه إلّا الله و من أطلعه الله بالوحي كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام . و غاية علم البشر من الأمم أنّها أمر ذو منقبة جليلة ، و أنّها مختصة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، و أنّها لا تتأدّى من الثقلين إلّا بالتكلّم بمادة الصاد و اللام و الواو .

ثم إن شئت فهم هذه النكتة بالتفصيل فعدّ نوعًا نوعًا من آلاف أنواع الدعاء ، و سمّ كلّ واحد منها باسم ، فإنّك تجد عقلك ارتدّ إليك حسيرًا عاجزًا ، ولا يستطيع و لن يستطيع أن يدّعي ادّعاء مستيقن في نوع منها أنّ هذا إنّما هو مسمّى الصلاة و حقيقتها بحيث لا تتعدّاه و بحيث لا يرتاب فيه .

مثل دعاء السلامة ، دعاء الهداية ، دعاء توفيق الحسنات ، دعاء العلم ، دعاء ثناء الله ، دعاء تعظيم الله ، دعاء تقريب الله بأن يقرب الله العبد إليه ، دعاء المال ، دعاء الترقي ، دعاء الحسنات ، دعاء الحفظ ، دعاء الستر ، دعاء الصبر ، دعاء الشكر ، دعاء الجاه ، دعاء النور ، دعاء الصلاح ، دعاء الفتح ، دعاء المغفرة ، دعاء الرزق ، دعاء الجنة ، دعاء الفضل ، دعاء العزّة ، دعاء الترقي و العلوّ ، دعاء الصحة ، دعاء التوفيق ، دعاء القبول ، دعاء التقوى ، دعاء الزهد ، دعاء العبادة ، دعاء الاستعانة ، دعاء الإحسان ، دعاء العمل الصالح ، دعاء تيسير المرور على الصراط ، دعاء الذكر ، دعاء الفرح و السرور ، دعاء حسن الخاتمة وغير ذلك من أنواع الدعاء . لا يتعيّن نوع منها لأن يكون كنهًا للصلاة . غاية ما يدّعى في بعضها أنّها من فوائدها و ثمراتها ، لا أنّها هي لجواز طلب هذه الأنواع لغير الأنبياء ، بخلاف الصلاة فإنّها مختصة بهم عليهم الصلاة والسلام . فلا يقدر أحدٌ أن يدرك حقيقة الصلاة و أن يقضي هذا النحب .

وَ ذَا إِيْوَانُ الاستعلاَءِ عَالٍ   فإيّاكُمْ وَ طَمَعًا فِي الْوِصَالِ

والوجه الثالث

إنّ الصلاة على الأنبياء عليهم السلام لا تتأدى إلّا بصيغة واحدة و مادة متعينة . و هي مادة " ص ، ل ، و " . و هذا قرينة جليّة على دقّة حقيقة الصلاة و علوّها ، و خفاء أصل معناها على العقول بحيث لا يمكن لأحد الوصول إلى هذه الحقيقة و التعبير عنها إلّا بلفظ واحد مخصوص أخبرناه الله تعالى و أطلعنا عليه مع أنّ دائرة الألفاظ و التعبيرات وسيعة ، لاسيّما في اللغة العربية .

فكلّ لفظ استبدلته غير هذه المادة يقصر عن مغزى الصلاة ، ولا يؤدّي مؤدّاها ، ولا يسمّى في الشرع صلاة .

و نظير الصلاة في تخصيص لفظ واحد اسم الجلالة من أسماء الله الحسنى . فلا يدلّ على ذات الله بغير لحاظ الصفات إلاّ هذا الاسم الجليل العلم لذات الله سبحانه . فلا يمكن التعبير عن ذات الله بغير الجلالة . و ليس للإنسان أن يضع من عند نفسه اسمًا يدلّ على ذات الله تعالى .

كيف و كنه الله لا يمكن أن يتصوره البشر و تحدّه الأفكار ، بل العقول دون الوصول إليه تكبو . فهو مجهول بعد ، و العجز عن إدراكه إدراك .

و الإنسان إنّما يقدر أن يعبّر عن شيء بألفاظ شتّى يختارها من عند نفسه بشرط معرفته إيّاه و إحاطته به . و أمّا عند فقد الشرط هذا لا يتيسّر له الوصول إليه إلاّ بتقليد من علم ذلك الشيء و أخبره باسم دالّ عليه و مؤدٍّ إليه .

فالشيء الذي لا تعرف كنهه كيف يسوغ لك أن تدّعي من عند نفسك أنّ هذا اللفظ دلّ على كنهه . هيهات هيهات ما تدّعي . فليس لك السبيل إليه إلاّ إذا سقطت على خبير بالكنه يطلعك على اسم دالّ عليه .

فالله عالم الغيب والأسرار ، يعلم كنه نفسه و وضع له اسم الجلالة ، و يعلم حقيقة الصلاة و معناها و وضع لها مادة " ص ، ل ، و " . هذا إن كان هو واضع الكلمات ، أو أرشدنا إلى ذلك إن كان واضعها غيره تعالى . و على التقديرين ليس لنا إلاّ التقليد و الاتّباع و التعبّد بما أمرنا .

فثبت أن اختصاص الصلاة بمادة خاصة قرينة لمجهوليّة كنهها و معناها ، و مرآته تخبر عن مجهولها ، و ظاهرها ينبأ عن باطنها .

و من بعد هذا ما يدقّ بيانه　　　　و ما كتمه أحظى لديّ و أجمل

والوجه الرابع

إنّ الله أمرنا أن نصلّي على النبي ﷺ فقال : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا . و نحن نأتمر أمر الله و نقول : اللّهم صلّ على النبي . فنفوّض ذلك إلى الله تعالى ، إذ معنى صلاتنا : صلّ أنت يا ربّنا عليه .

و هذا في الظاهر امتثال عجيب . الله يقول أمرًا لنا : صلّوا عليه أيها المؤمنون . و نحن نجيبه ممتثلين أمره فنقول : صلّ أنت يا ربّنا عليه . فنفوّض الصلاة إليه تعالى . أليس هذا امتثالاً عجيبًا ، إذ تفويض المأمور ما أمر به إلى الآمر لا يعدّ في العرف امتثالاً .

لكن لطيف مجاملة الله إيّانا بعد ذلك أعجب ، حيث يحبّ هذا التفويض و يرضى به و يثيبنا و يصلّي علينا عشرًا . و هذا من أعجب لطائف مننه و أكبر بدائع كرمه .

و وجه ذلك أن العبد يعترف في هذه الحوالة بجهله معنى الصلاة و عدم معرفته كنهها و بعجزه عن إدراك حقيقتها و توفية حقها .

فقول المصلّي " اللّهم صلّ على محمد " مآله : إنّك يا ربّنا أمرتنا بالصلاة على النبي و نحن مطيعون أمرك ، لكن لا نعرف حقيقتها . فنفوّض ذلك إليك . و نسألك أن تصلّي أنت عليه صلاة كما تحبّ و ترضى وكما هو أهله .

فإقرار المصلّي بجهل حقيقة الصلاة و بعجزه عن توفية حقها يرضي الله إرضاءً فيثيبه . إذ يعلم الله أنّ العبد عاجز عن إدراك كنهها و أداء حقها ، فتفويضه الصلاة إليه في موقعه و اعترافه بالعجز في موضعه . و ليس من باب ما في التنزيل حكاية عن بني إسرائيل : فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ .

و قد ثبت في الآثار و أقوال العلماء أنّ الإقرار بالجهل و التفويض إلى الله في بعض المأمورات و إظهار العجز في بعضها مرضاة للربّ و مجلبة للخيرات .

و من هذا الباب ما ورد في الحديث : لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك . ففيه

تفويض ثناء الله إليه تعالى ، و إظهار العجز عن إحصائه ، و عدّ أفضل المحامد أو من أفضلها .

و في الفتوحات الوهبيّة شرح الأربعين النووية : اختلف في الفاضل من الحمد فقيل : الحمد لله بجميع محامده كلّها ما علمت منها وما لم أعلم على جميع نعمه كلّها ما علمت منها وما لم أعلم . و زاد بعضهم : عدد خلقه كلّهم ما علمت منهم و ما لم أعلم . و قيل : اللّهم لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك . و قيل : الحمد لله حمدًا يوافي نعمه و يكافي مزيده .

و فيه : ولو حلف ليثنينّ على الله أحسن الثناء يقول : لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك . و زاد بعضهم : فلك الحمد حتى ترضى . انتهى بحذف .

و يدلّ كلام الغزالي رحمه الله في شكر الإحياء على أنّ في هذا الحديث إشارة إلى أعلى مقامات العبدية ، حيث قال : و لمّا أمر الله تعالى نبيه ﷺ بطلب القرب فقيل له "وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِبْ" . قال في سجوده : أعوذ بعفوك من عقابك ، و أعوذ برضاك من سخطك ، و أعوذ بك منك . لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

فقوله ﷺ " أعوذ بعفوك من عقابك " كلام عن مشاهدة فعل الله فقط . فكأنّه لم ير إلّا الله و أفعاله . فاستعاذ بفعله من فعله . ثم اقترب ففنى عن مشاهدة الأفعال و ترقى إلى مصادر الأفعال و هي الصفات فقال : أعوذ برضاك من سخطك . و هما صفتان .

ثم رأى ذلك نقصانًا في التوحيد فاقترب و رقي من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال : و أعوذ بك منك . و هذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل و صفة ، و لكنّه رأى نفسه فارًّا منه إليه و مستعيذًا و مثنيًا ، ففنى عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك نقصانًا ، و اقترب فقال : لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

فقوله " لا أحصي " خبر عن فناء نفسه و خروج عن مشاهدتها . و قوله " أنت كما أثنيت على نفسك " بيان أنّه المثني و المثنى عليه ، و إنّ الكلّ منه بدا و إليه يعود . انتهى .

و من باب التفويض و إظهار العجز ما ذكره الإمام الشعراني رحمه الله في لطائف المنن : روي أنّ رجلًا قال : اللّهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك و لعظيم سلطانك . فعضلت على الملكين ، فلم يعرفا

قدر ثوابها . فقال الله : اكتباها كما قال عبدي ، و عليّ جزاؤه بها . فقوله "كما ينبغي" تفويض حمد ينبغي لجلال الله إليه و إظهار عدم علمه بما يناسب عظيم سلطانه . فانظر إلى كثرة ثوابه حتى أشكل على الملكين .

و من هذا الباب ما روي أنّ من قال " جزى الله سيدنا و نبينا محمّدًا عنّا خيرًا بما هو أهله " مرّة واحدة أتعب سبعين كاتبًا ألف صباح . ذكره الشعراني رحمه الله تعالى . فقوله " بما هو أهله " فيه إظهار عجزه عن إدراك ما هو أهله و تفويض ذلك إلى الله تعالى .

و قريب من هذا الباب " الحمد لله بجميع محامده كلّها ما علمت منها و ما لم أعلم على جميع نعمه كلّها ما علمت منها و ما لم أعلم عدد خلقه كلّهم ما علمت منهم و ما لم أعلم . روي في الأثر أنّ شخصًا قالها يوم عرفة مرة . فلما حجّ العام الثاني شرع يقولها . فناداه الهاتف : يا فلان ! من العام الماضي إلى الآن نكتب لك في ثواب هذه التحميدة ، فما فرغنا . كذا في لطائف المنن للشعراني رحمه الله تعالى .

و من هذا الباب ما روي أنّ موسى عليه الصلاة والسلام قال في مناجاته : إلهي خلقت آدم بيدك و فعلت و فعلت ، فكيف شكرك ؟ فقال الله : اعلم : أنّ كلّ ذلك منّي . قال الغزالي رحمه الله تعالى بعد ذكره : فكانت معرفته شكرًا ، فإذًا لا تشكر إلّا بأن تعرف أنّ الكلّ منه . انتهى .

و من هذا الباب ما روي أنّ داود عليه الصلاة والسلام قال : يا ربّ ! كيف أشكرك و أنا لا أستطيع أن أشكرك إلّا بنعمة ثانية من نعمك . و في لفظ آخر : و شكري لك نعمة أخرى منك توجب عليّ الشكر لك . فأوحى الله إليه : إذا عرفت هذا فقد شكرتني . و في خبر آخر : إذا عرفت أنّ النعمة منّي رضيت منك بذلك شكرًا . ذكره الغزالي في شكر الإحياء .

و من باب التفويض و الاعتراف بالجهل الموجب لرضاء الله و ثوابه ما قالوا : إنّ قول العالم فيما لا يعلم " الله أعلم " أو " لا أدري " نصف العلم .

أخرج الترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّه كان يقول : أيّها الناس ! من علم منكم شيئًا فليقل لما لا يعلم : الله أعلم . فإنّ من علم المرء أن يقول لما لا يعلم : الله أعلم . وقد قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم : قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ مَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ .

و روى مالك عن عبد الله بن زيد بن هرمز رحمهما الله تعالى قال : إنّي لأحبّ أن يكون من بقايا العالم

بعده " لا أدري " ليأخذ به من بعده . و ذكر الشعبي عن عليّ رضي الله عنه : أنّه خرج عليهم و هو يقول : ما أبردها على الكبد . فقيل له : و ما ذلك ؟ قال : أن تقول للشيء لا تعلمه " الله أعلم " .

و أخرج ابن عبد البر في جامع بيان العلم عن عبد الرحمن بن مهدي يقول : كنّا عند مالك ابن أنس رحمه الله تعالى . فجاءه رجل فقال له : يا أبا عبد الله ! جئتك من مسيرة ستة أشهر . حملني أهل بلدي مسألة أسألك عنها . قال : فسل . فسأله الرجل عن المسألة . فقال : لا أحسنها . قال : فبهت الرجل كأنّه قد جاء إلى من يعلم كلّ شيء . فقال : أيّ شيء أقول لأهل بلدي إذا رجعت إليهم . قال : تقول لهم : قال مالك : لا أحسن . و عن ابن وهب : لو كتبنا عن مالك " لا أدري " لملأنا الألواح .

والوجه الخامس

إنّ الأئمة و العلماء اختلفوا في معنى الصلاة اختلافًا كثيرًا كما ستعلم . و هذا الاختلاف من أظهر علامات إبهام معناها عليهم و مجهوليته لديهم بعد ، حيث لم يتّفقوا فيه على أمر .

تفكّر في لفظ الصلاة الدائر بينهم الجاري على ألسنتهم آناء الليل و النهار ، ثم تدبّر في تبحرهم و سعة مقاماتهم العلميّة و إحاطتهم بأسرار آلاف آلاف أحكام الشريعة و نكات اللغة العربية ، و مع هذا عجزوا عن تعيين معنى هذه الكلمة . إنّ في ذلك لآيات لأولي الألباب . هل تعلم كلمة أخرى تحيّروا فيها هذا التحير . أليس هذا أبهر آية على أنّ كنه الصلاة أمر مكنون ، لا يعلمه إلّا الله و من أطلعهم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام و الأولياء رحمهم الله تعالى الواصلين إليه تعالى .

هيهات عنقاء أن يصطاده أحد　　　　فاترك عناك و كن من ذاك في دعة

و هذا تفصيل أقوالهم في معنى الصلاة :

القول الأوّل : الدعاء . فالصلاة على النبي دعاء مسألة . قال ابن القيم رحمه الله تعالى : الدعاء نوعان : دعاء عبادة و دعاء مسألة . و العابد داعٍ كما أنّ السائل داعٍ . و بهما فسر قوله تعالى "وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ" . قيل : ادعوني أثبكم . و قيل : سلوني أعطكم . و قوله تعالى " أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا

دَعَانِ " . انتهى .

و فيه نظر . أمّا أوّلاً فيقال : صلّى عليه . ولا يقال : دعا عليه . إلّا في الشرّ و المضرّة نظرًا إلى كلمة " على " . و أمّا في الخير فيقال : دعا له . و أجيب : بأنّ مدار الترادف المعنى و مدار الصلات و المتعلقات اللفظ و خصوص المادة . فلا يلزم في لفظين متحدين معنى اتحاد المتعلقات ، ولا صحة قيام أحدهما مقام الآخر .

و أمّا ثانيًا فلأنّ الدعاء جائز لكلّ مؤمن ، بخلاف الصلاة فإنّها مختصّة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

القول الثاني : السلام . قال العلامة الحليمي رحمه الله تعالى : جاز أن تكون الصلاة بمعنى السلام عليه . قال ابن حجر رحمه الله تعالى في الفتح : و فيه نظر . و وجه النظر ما روي في سؤال الصحابة : فقلنا : يا رسول الله ! قد علمنا كيف نسلّم عليك ، فكيف نصلّي عليك ؟

القول الثالث : التبريك . روي عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنّ معنى صلاة الملائكة الدعاء بالبركة . و قد علّق البخاري ذلك عنه فقال : و قال ابن عباس رضي الله عنهما : يصلون يبركون .

القول الرابع : المغفرة . و ستعلم تفصيل ذلك .

القول الخامس : الاستغفار .

القول السادس : المغفرة و الدعاء .

قال السخاوي رحمه الله تعالى في القول البديع : و تستعمل الصلاة بمعنى الاستغفار أيضًا . و منه قوله صلى الله عليه وسلم : إنّي بعثت إلى أهل البقيع لأصلّي عليهم . فإنّه فسر في الرواية الأخرى : أمرت أن أستغفر لهم . و بمعنى البركة . و منه قوله صلى الله عليه وسلم : اللّهم صلّ على آل أبي أوفى . و بمعنى القراءة . و منه قوله تعالى : وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا . و بمعنى الرحمة و المغفرة . انتهى .

و عند ابن أبي حاتم في تفسيره عن سعيد بن جبير و مقاتل بن حيان : هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ . يغفرلكم و يأمر الملائكة أن يستغفروا لكم .

و عن الضحاك : هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ . قال : صلاة الله مغفرته ، و صلاة الملائكة الدعاء .

و في الدر المنثور : أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الآية " إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ " الآية . قال : صلاة الله على النبي هي مغفرته . إنّ الله لا يصلّي و لكن يغفر . و أمّا صلاة الناس على النبي فهي الاستغفار . و رجّح الشيخ شهاب الدين القرافي أنّ الصلاة من الله المغفرة . و كذا فسّره الأرموي و البيضاوي .

القول السابع : التزكية و الاستغفار و الدعاء . قال الراغب : الصلاة في اللغة الدعاء و التبريك و التحميد ، و من الله التزكية ، و من الملائكة الاستغفار ، و من الناس الدعاء .

القول الثامن : التعظيم . قاله الحليمي في شعب الإيمان . فإذا قلنا " اللّهم صلّ على محمد " فإنّما نريد : اللّهم عظّم محمدًا في الدنيا بإعلاء ذكره ، و إظهار دينه ، و إبقاء شريعته . وفي الآخرة بتشفيعه في أمّته ، و إجزال أجره و مثوبته ، و إبداء فضله للأوّلين و الآخرين بالمقام المحمود ، و تقديمه على كافّة المقرّبين . و على هذا فالمراد بقوله تعالى " صَلُّوا۟ عَلَيۡهِ " : ادعوا ربّكم بالصلاة عليه . انتهى . ولا يعكر عليه عطف آله و أزواجه و ذريته عليه . إذ تعظيم كلّ أحد بحسب ما يليق به .

القول التاسع : ذكر العلامة اللغوي مجد الدين معنى عامًّا يشمل الصلاة على النبي ﷺ و افتخر به . قال : و عندنا فيها قول هو القول إن شاء الله تعالى . و ذلك أنّ مادة " ص ، ل ، و " و " ص ، ل ، ي " موضوعة لأصل واحد و هو الضم و الجمع ، و جميع تفاريعها راجعة إلى هذا المعنى .

و بيان ذلك أنّ " ص ، ل ، و " منها الصلا و هو وسط الظهر من الإنسان و من كلّ ذي أربع . و قيل : ما انحدر من الوركين . كلّ ذلك لما فيه من الانضمام و الاجتماع . و منه صلاه بالنار شواه . لأنّه ينضم و يجتمع أجزاؤه . و صلا يده سخنها و أدفأها لانضمام الحرارة إليها . و صلاه خدعه لأنّه يجتمع لخدعه كانضمام الصياد . و المصلّي من أفراس الحلبة يجمع مع السابق . و الصلات كنايس اليهود لاجتماعهم فيها .

و الثانية : " ص ، و ، ل " . تقول : صال على قرنه صولاً ، إذا سطا عليه . و المصولة المكنسة ، لأنّه يجمع بها الكناسة . و المصول شيء يجمع فيه الحنظل و ينقع لتذهب مرارته .

و الثالثة : " ل ، و ، ص " . تقول : لاص لوصًا إذا لمح من خلل الباب كالمختفي . و اللواص و الملوص الفالوذ لانعقاده و انجماعه . و اللواص أيضًا العسل لذلك و لاص حاد عن الطريق كأنّه طلب

الاختفاء و الاجتماع ، وكذلك " ل ، ي ، ص " .

و الرابعة : " ل ، ص ، و " و " ل ، ص ، ي " . تقول : لصاه إليه ، إذا انضم إليه لريبة . وكذلك لصى يلصي كرمى يرمي .

و الخامسة : " و ، ص ، ل " . وصله وصلاً لأمه . فظهر به بذلك معنى الضم و الجمع في جميع مواد الكلمة . فسمّي الصلاة صلاة لاشتمالها على جميع المقاصد و الخيرات و جمعها لها .

القول العاشر : الثناء . ففي البخاري : عن أبي العالية أنّ معنى صلاة الله على نبيه : ثناؤه عليه عند ملائكته . و معنى صلاة الملائكة عليه : الدعاء له .

و اختاره ابن القيم رحمه الله في جلاء الأفهام حيث قال : إنّما سمّي طالب الصلاة مصلّيًا لوجود حقيقة الصلاة منه . فإنّ حقيقتها الثناء و إرادة الإكرام و التقريب و إعلاء المنزلة . فالعبد طلب ذلك من الله تعالى أن يفعله برسوله .

و قال لترجيحه : إنّ الصلاة لابدّ فيها من كلام . فهي ثناء من المصلّي على من يصلّى عليه و تنويه به و إشارة لمحاسنه . و أيضًا أنّ الله فرّق بين صلاته و صلاة ملائكته ، و جمعهما في فعل واحد . فقال : إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ . الآية . و هذه الصلاة لا تجوز أن تكون بمعنى الرحمة . و إنّما هي ثناؤه سبحانه و ثناء ملائكته عليه .

و أيضًا إذا كان معناها الثناء لم تكن الصلاة في الآية لفظًا مشتركًا بين معنيين كما قيل ، ولم تكن مستعملة فيهما معًا كما قيل ، إذ فيما قيل محاذير متعددة ، بل تكون مستعملة في معنى واحد . و هذا هو الأصل في الألفاظ .

و اختاره الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح حيث قال : و أولى الأقوال ما تقدّم عن أبي العالية أن معنى صلاة الله ثناؤه عليه و تعظيمه ، فإنّه يحصل به استعمال لفظ الصلاة بالنسبة إلى الله و إلى ملائكته و إلى المؤمنين بمعنى واحد .

القول الحادي عشر : الرحمة . و اختاره المبرد حيث قال : أصل الصلاة الرحمة . فهي من الله رحمة و من الملائكة رحمة و استدعاء الرحمة من الله . و عنه : و من الملائكة رقة تبعث على استدعاء الرحمة .

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : و هذا القول هو المعروف عند كثير من المتأخّرين . انتهى .

و عن جُوَيبر عن الضحاك قال : صلاة الله رحمته ، و صلاة الملائكة الدعاء . و في رواية عنه : صلاة الله مغفرته ، و صلاة الملائكة الدعاء . أخرجهما إسماعيل القاضي من طريقه .

و نقل الترمذي عن سفيان الثوري و غير واحد من أهل العلم قالوا : صلاة الربّ الرحمة ، و صلاة الملائكة الاستغفار . و هو منقول عن أبي العالية و الضحاك ، إلاّ أنّهما قالا : صلاة الملائكة الدعاء . و قد تقدّم ذكر قول الضحاك . و قال الإمام فخر الدين الرازي و الآمدي : إنّها الرحمة .

و قال ابن الأعرابي : الصلاة من الله الرحمة ، و من الآدميّين و غيرهم من الملائكة و الجنّ الركوع و السجود و الدعاء و التسبيح ، ومن الطير و الهوامّ التسبيح . قال الله تعالى : كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ . و قال ابن عطية : صلوات الله عفوه و رحمته و بركته و تشريفه العبيد في الدنيا و الآخرة . و قال في قوله تعالى " هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ " : صلاة الله على العبد هي رحمته له و بركته لديه و نشره الثناء الجميل عليه ، و صلاة الملائكة دعاؤهم .

و روى ابن أبي حاتم في تفسيره عن الحسن : أنّ بني إسرائيل سألوا موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ : هل يصلّي ربّك ؟ قال : فكأنّ ذلك كبر في صدر موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ . فأوحى إليه : أخبرهم أنّي أصلّي . و أنّ صلاتي : إنّ رحمتي سبقت غضبي . و هو في معجم الطبراني الأوسط و الصغير عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا : قلت : يا جبريل ! أيصلّي ربّك جلّ ذكره ؟ قال : نعم . قلت : ما صلاته ؟ قال : سبوح قدوس ، سبقت رحمتي غضبي .

فائدة

ردّ الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا القول بأربعة عشر وجهًا :

الأوّل : يردّه قوله تعالى : أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ . إذ العطف يقتضي المغايرة بين المعطوف و المعطوف عليه .

و الثاني : الصلاة خاصّة بالأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ . و أمّا رحمته فوسعت كلّ شيء . نعم ، الرحمة من

لوازم الصلاة و ثمراتها .

و الثالث : تجوز الرحمة على المؤمنين بالإجماع ، بخلاف الصلاة .

و الرابع : لو كانت بمعنى الرحمة لأسقط الوجوب عند من أوجبها عمن قال : اللّهم ارحم محمدًا و آله . و ليس الأمر كذلك .

و الخامس : الإنسان قد يرحم من يبغضه ، فيجد في قلبه له رحمة ، ولا يصلّي عليه .

و السادس : الصلاة لابدّ فيه من كلام ، فهي ثناء المصلّي على المصلّى عليه . ولا يلزم الكلام في الرحمة .

و السابع : لو كانت صلاة الله الرحمة ، و معلوم أنّ صلاة الملائكة إنّما هي الدعاء ، لزم استعمال مشترك لفظيّ في معنييه معًا في قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ . الآية . و في ذلك محاذير متعددة .

و الثامن : قال النبي ﷺ : من صلّى عليّ مرّة صلى الله عليه عشرًا . فلو كانت صلاة الله بمعنى الثناء كان الجزاء من جنس العمل ، كما هو الضابطة . ولو كانت رحمة ، و معلوم أنّ صلاة العبد ليست رحمة بل ثناء على النبي ﷺ ، لم يكن الجزاء من جنس العمل ، إذ الجزاء رحمة و العمل ههنا ثناء .

و التاسع : لو قال رجل " رحم الله رسول الله " بدل " صلى الله عَليه وسلم " لبادرت الأمّة بالإنكار عليه ، و عدّوه مبتدعًا . ولو كانت الصلاة بمعنى الرحمة لم يكن للإنكار وجه .

و العاشر : قال الله تعالى : لَا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا . هذا الحكم يعمّ خطابه و مغيبه فيقال عند الخطاب : يا رسول الله . ولا يقال : يا محمد . كدعاء بعضهم بعضًا باسمه . فهكذا في مغيبه لا ينبغي أن يجعل ما يدعى به له من جنس ما يدعو به بعضنا بعضًا . و الرحمة يدعى بها لكلّ مسلم ، يقال : رحمه الله . فينبغي أن لا تكون الصلاة بمعنى الرحمة ، و إلاّ كان الدعاء للنبي كدعاء بعضنا لبعض .

و الحادي عشر : الصلاة لا تعرف في اللغة الأصليّة بمعنى الرحمة أصلاً ، و المعروف عند

العرب من معناها الدعاء .

و الثاني عشر : يسوغ بل يستحب لكلّ واحد أن يسأل الله فيقول : اللّهم ارحمني . ولا يسوغ أن يقول : اللّهم صلّ عليّ . و إلاّ كان معتديًا في دعائه ، و الله لا يحب المعتدين . هذا ملخّص ما ذكره ابن القيم رحمه الله . ولا يخفى ما في بعض الوجوه من الكلام .

القول الثاني عشر : ما اختاره أبوالقاسم السهيلي رحمه الله . قال ابن القيم رحمه الله في بدائع الفوائد : و رأيت لأبي القاسم السهيلي كلامًا حسنًا في اشتقاق الصلاة . و هذا لفظه : قال : معنى الصلاة اللفظة حيث تصرفت ترجع إلى الحنو و العطف ، إلاّ أنّ الحنو و العطف يكون محسوسًا و معقولاً ، فيضاف إلى الله منه ما يليق بجلاله ، كما أنّ العلو محسوس و معقول . فالمحسوس منه صفات الأجسام ، و المعقول منه صفة ذي الجلال و الإكرام . و هذا المعنى كثير موجود في الصفات . و الكثير يكون صفة للمحسوسات و صفة للمعقولات . و هو من أسماء الرب تعالى . و قد تقدس عن مشابهة الأجسام و مضاهاة الآلام . فالمضاف من هذه المعاني معقولة غير محسوسة . و إذا ثبت هذا فالصلاة كما تسمّى عطفًا و حنوًا ، تقول : اللّهم اعطف علينا . أي ارحمنا . قال الشاعر :

وَ مَا زِلْتُ فِي لِيْنِي لَهُ وَ تَعَطُّفِي　　　　عَلَيْهِ كما تَحْنُو عَلَى الْوَلَدِ الْأُمُّ

و رحمة العباد رقّة في القلب إذا وجدها الراحم من نفسه انعطف على المرحوم و انثنى عليه ، و رحمة الله للعباد جود و فضل . فإذا صلّى عليه فقد أفضل عليه و أنعم . و هذه الأفعال متعدية بعلى . مخصوصة بالخير . لا تخرج عنه إلى غيره .

فقد رجع كلّها إلى معنى واحد إلاّ أنّها في معنى الدعاء و الرحمة صلاة معقولة أي انحناء معقول غير محسوس . ثمرته من العبد الدعاء لأنّه لا يقدر على أكثر منه ، و ثمرته من الله الإحسان و الإنعام . فلم تختلف الصلاة في معناها ، إنّما اختلفت ثمرتها الصادرة عنها .

و الصلاة التي هي الركوع و السجود انحناء محسوس ، فلم يختلف المعنى فيها إلاّ من جهة المفعول و المحسوس ، و ليس ذلك في الحقيقة باختلاف . و لذلك تعدّت كلّها " بعلى " و اتفقت في اللفظ المشتق من الصلاة . ولم يجز "صلّيت على العدو" أي دعوت عليه . فقد صار معنى الصلاة أرقّ و أبلغ من معنى

الرحمة و إن كان راجعًا إليه ، إذ ليس كلّ راحم ينحني على المرحوم . انتهى بحذف يسير .

القول الثالث عشر : ما يخطر ببالي . و التفصيل أنّ لي في معنى الصلاة تحقيقين :

الأوّل مبني على نظر دقيق . و هو أنّ معناها مجهول لا يعلمه إلّا الله و المقرّبون من الأنبياء و الملائكة بإطلاع الله إيّاهم . و هذا الذي أنا متصد لبيانه في هذا الباب .

و الثاني مبني على نظر جليّ . و فيه ماشيت مع العلماء الكرام و سلكت مسلكهم في تعيين معنى الصلاة .

فأقول بناءً على التحقيق الثاني : إنّ الصلاة بمعنى النور المختص بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا استعملت اسمًا . و أمّا إذا استعملت مصدرًا فبمعنى طلب ذلك النور لهم إن نسبت إلى المخلوق ، و بمعنى منح ذلك إن نسبت إلى الله تعالى .

فمعنى قولنا " إنّ الله يصلّي على النبي " أنّه يمنحه ذلك النور و يزيده . و معنى قولنا " نصلّي عليه " نطلب له زيادة ذلك النور . و كذا معنى قولنا " إنّ الملائكة يصلّون عليه ". و معنى أمر الله المؤمنين في قوله " صلّوا عليه " : اسألوني له ذلك النور أي زيادة النور لا أصله ، فإنّه ثابت له عليه الصلاة والسلام بصلاة الله تعالى .

فالصلاة عبارة عن نور يفيضه بدر النبوة ، و يسببه الوحي الربانيّ النازل على هذا البدر . و لاختصاص الوحي و النبوّة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام اختصت الصلاة أيضًا بهم .

ثم لا يبعد أن يقال ، و العلم عند الله : إنّ لهذا النور آثار كرامة و زلفى في الدنيا و الآخرة ، يؤتيهم الله بها الدرجات و المقامات حسب ضياء هذا النور ، و تستضيء به أمّة كلّ نبي .

إن قلت : دعاء النور جائز لكلّ مؤمن بأن يقال : اللّهم آتنا نورًا و نور قلوبنا بنور الإيمان . ولايجوز أن يصلّى على غير النبي . فكيف يصحّ قولك : إنّ الصلاة بمعنى طلب النور ؟

قلت : الصلاة نور خاص ، و يطلب فيها ذلك النور كما تقدّم لا مطلق النور . و الذي يطلب و يسأل للمؤمنين هو مطلقه لا ذلك . و هذا النور المطلق الذي سببه نور الإيمان يتشعب إلى نور العلم ،

كما قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ : إنّ العلم نور يقذفه الله في قلوب العلماء العاملين ، و إلى نور الصلاة و نور الصوم و نور الحج وغير ذلك من الطاعات .

فلكلّ حسنة نور ينبوعه نور الإيمان . و إلى هذا إشارة في قوله تعالى : وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ . و قوله تعالى : وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ . و قوله تعالى : وَ جَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ . و قوله تعالى : أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ .

فالنور المسؤول للنبي منبعه الوحي المختص به ، و النور المسؤول للمؤمن منبعه الإيمان . اشترك فيهما لفظ واحد ، و اختلفت حقيقتاهما و مصداقاهما . بل النور اسم من أسماء الله تعالى أيضًا " ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ " ، و يطلق على الضوء المحسوس أيضًا كضوء الشمس و القمر . فيستعمل في هذه المعاني الأربعة مع اختلاف حقائقها .

إن قلت : هل وقعت الإشارة إلى هذا النور في النصوص ؟

قلت : نعم ، أشير إليه في عدة آيات و أخبار كقوله تعالى : قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ . و قوله : وَ ءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَ نُورٌ . و قوله : إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَ نُورٌ . و قوله : وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا . و قوله تعالى : يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ . و قوله : وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ .

فالنبوة نور ، و سائر الكتب السماوية أنوار ، و الصلاة على الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نور ، و طلب زيادته لهم من الله تعالى نور . و هذا النور إنّما أدرك آدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ و بيصه في وجه داود عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حين أخرجت ذريته من ظهره عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ، أو كان نورًا آخر . والله أعلم .

و لعلّ إلى هذا النور أشار صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و سأل الله زيادته في قوله : اللّهم اجعل لي نورًا في قلبي و نورًا في قبري و نورًا من بين يديّ و نورًا من خلفي و نورًا عن يميني و نورًا عن شمالي و نورًا من فوقي و نورًا من تحتي و نورًا في سمعي و نورًا في بصري و نورًا في شعري و نورًا في بشري و نورًا في لحمي و نورًا في دمي و نورًا في عظامي . اللّهم أعظم لي نورًا و أعطني نورًا و اجعل لي نورًا . أخرجه الترمذي عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا .

والوجه السادس

و من الوجوه الدالّة على إبهام معنى الصلاة و كنهها و على أنّها أمر خارج عن مجال عقولنا بل عن عامة أصول الشريعة المعقولة ما صرّح الأئمة : أنّ كلّ عمل فيه المقبول و المردود إلّا الصلاة على النبي ﷺ فإنّها مقبولة قطعًا غير مردودة .

و هذا حكم امتازت به الصلاة عن عامّة أصول الإسلام . فإنّ الصوم و الحج و الصلاة و الجهاد و الزكاة مثلاً لكونها فرائض أفضل من الصلاة على النبي ﷺ لكونها مندوبة غير مفروضة إلّا في العمر مرة واحدة أو مجلس واحد مرة عند سماع اسمه عليه الصلاة والسلام ، كما فصل في موضعه ، مع أنّ هذه الفرائض منها المقبول و المردود كما لا يخفى .

و أيضًا كلمة التوحيد كما في الدر المختار وغيره أفضل من الصلاة ، مع أنّها قد تردّ إذا كانت عن قلب غافل .

و أيضًا الصلاة في الظاهر مثل الدعاء ، و الدعاء منه المقبول و المردود . و قس على هذا سائر العبادات و الطاعات فإنّها ترد و تقبل . و أمّا الصلاة فلا تكون إلّا مقبولة ، ولا يقاس حكمها على أحكام سائر الأحكام .

و هذا يدلّ على أنّ كنه الصلاة متعالٍ عن مجال الأفهام و القياس ، و أنّه أمر محبوب واصل في حضرة الجبروت و الملكوت على كلّ حال . و الثمرة تنبئ عن الشجرة . و ليس لنا إلّا التسليم و امتثال حكم الله بالصلاة على النبي ﷺ و إن لم ندرك كنهها .

قال العلامة العارف الفاسي رحمه الله تعالى : و من تمام كلام أبي سليمان : و كلّ الأعمال فيها المقبول و المردود إلّا الصلاة على النبي ﷺ فإنّها مقبولة غير مردودة . انتهى .

و روى الباجي عن ابن عباس رضي الله عنهما : إذا دعوت الله عزّ وجلّ فاجعل في دعائك الصلاة على النبي ﷺ ، فإنّ الصلاة عليه مقبولة ، والله سبحانه أكرم من أن يقبل بعضًا و يردّ بعضًا . هذا . و قد سبق في الباب الحادي و السبعين من هذا الكتاب تفصيل ذلك فراجعه .

والوجه السابع

الصلاة كما قالوا : لا تنفع النبي ﷺ ، بل نفعها عائد للمصلّي فقط ، كما فصّلناه في الباب الحادي و الثلاثين من هذا الكتاب ، مع أنّها دعاء له عليه الصلاة والسلام . فالصلاة و إن قبلت لا تنفعه عليه الصلاة والسلام .

و هذا أمر عجيب خارج عن عامّة الأصول المعقولة في الإسلام ، و فائق عن حيطة إدراك عقولنا . كيف و المعقول عند علماء الشرع من الدعاء لشخص إذا قبله الله أن ينفع المدعوّ له . مثلاً إذا قلت : اللّهم اشف زيدًا . و قبل الله دعاءك ، فمعنى القبول أن يحصل لزيد شفاء من المرض ، ولا معنى لقبول هذا الدعاء مع عدم حصول النفع لزيد المدعوّ له لا في الدنيا ولا في الآخرة .

و الصلاة على النبي ﷺ مع كونها دعاءً له عليه الصلاة والسلام و مع كونها مقبولةً لا تنفع إلّا المصلّي فقط الغير المدعوّ له . و هذا شاهد عدل على أنّ الصلاة طاعة ممتازة غريبة لا تقاس حقيقتها على حقائق سائر الطاعات ، ولا قبولها على قبولها ، و إنّ كنهها متعالٍ عن أفهامنا ، و فائق عن مجال عقولنا .

والوجه الثامن

اعلم : أنّي بعد الفراغ عن كتابة هذا البحث البديع الإلهاميّ وجدت تصريح بعض كبار العارفين بالله تعالى بأنّ حقيقة الصلاة لا تدرك . فشكرت الله تعالى شكرًا .

منهم الإمام العارف الشهير السيد الشريف أبو العباس التجاني الفاسي رحمه الله المتكلم بالعلوم اللدنية صاحب الطريقة العلية التجانية من أهل القرن الثالث عشر ، حيث قال في كتابه " جواهر المعاني " وهو كتاب على شكل " الإبريز " جمع فيه علومه بعض خلفائه : إعلم : أنّ الصلاة في حق الله تعالى على نبيه ﷺ وصف قائم بذاته تعالى على الحد اللائق الذي يليق بعظمته و جلاله . هو أمر فوق ما يدرك و يعقل ، فإنّ الوصف الوارد في حقّ كلّ موجود و إن اشترك في اللفظ و الاسم ، فالحقيقة مباينة في حق الموجودات .

فالصلاة في حقّنا عليه ﷺ هي الألفاظ البارزة من ألسنتنا بالدعاء و التضرّع إلى الله فيما ينبئ

عن تعظيم نبيه ﷺ منّا . و ليست كذلك صلاته سبحانه وتعالى على نبيه ﷺ ، فهي فوق ما يدرك و يعقل ، فلا تفسّر بشيء .

بل نقول : يصلّي على نبيه ولا تكيف صلاته . ألا ترى أنّ السجود في حق الموجودات لله ، فكلّها ساجد لله ، وليس السجود المعهود في حق الآدميّ لله تعالى يماثل سجود الجمادات و الحيوانات و الأشجار فردًا فردًا . فإنّ لكلّ واحد من تلك الأفراد سجودًا يليق بجلاله ، فإنّ السجود في حق جميعها متماثل في الاسم و الإطلاق ، و الحقيقة متفرّقة في جميعها ، و سجود كلّ واحد غير سجود الآخر . و أمّا صلاة الملائكة على النبي ﷺ فتعقّلها في حقهم كتعقّلها في حقنا . انتهى كلام العارف التجاني .

ومنهم العارف بالله الشيخ علي دُدّه البوسنوي المتوفّى سنة ١٠٠٧هـ على ما في خلاصة الأثر ، حيث قال في كتابه "خواتم الحكم" : و أمّا سرّ الصلاة عليه فالصلاة رحمة خاصّة به من عند الله تعالى بالذات ، و بواسطته على الخلق كما قال سبحانه وتعالى : وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ . ولو لاه لم تخرج الدنيا من العدم إلى الوجود .

و قيل : الصلاة سرّ بينه و بين الله تعالى ، كما أوّل بعض العارفين قوله عليه الصلاة والسلام " و جعلت قرّة عيني في الصلاة " أي في صلاة الله تعالى عليّ و ملائكته ، و أمره المؤمنين بذلك إلى يوم القيامة توسّلًا به و تقرّبًا به و صلةً منه . فهذا غاية الكرامة و الغبطة العظمى و الفضيلة الكبرى لحبيبه المجتبى و خليله المرتضى . انتهى . هذا . والله أعلم بالصواب .

الباب التاسع والعشرون بعد المائة
في الجواب الثاني والستين ومائة

أقول : قد حصحص من البحث المطنب في الباب المتقدّم أنّ الصلاة أمر مجهول الكنه و مستور أصل المعنى مثل الروح . فأقول : إنّها مختصّة بالأنبياء عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اختصاص النبوّة و الرسالة و الوحي بهم . و هي حقائق أربع : النبوّة ، و الرسالة ، و الوحي ، و رابعتها الصلاة ، حيث تشبه الوحي و أختيه في الاختصاص بالأنبياء عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

و إن شئت فقل : هي من ثمرات النبوّة و الوحي حيث لا يصلّى إلّا على من اتصف بالنبوة و نزول الوحي عليه .

و إن شئت فقل : الصلاة و النبوة صنوان لدوحة واحدة ، و غصنان لشجرة طيبة أصلها ثابت و فرعها في السماء ، و عينان نضّاختان من ينبوع واحد .

و إن شئت فقل : هما متلازمتان وجودًا و موردًا ، إذ لا يتّصف بهما إلّا نبي ، و متّفقتان حكمًا ، و متخالفتان مفهومًا ، إذ لكلّ مفهوم برأسه .

إن قلت : ثبتت الصلاة على غير الأنبياء ، كما روي أنّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صلّى على آل أبي أوفى . وقال الله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ .

قلت أوّلًا : هذا محض اشتراك لفظي . فالصلاة على غير الأنبياء بمعنى الرحمة أو التبريك و نحو ذلك مما يناسب عامّة الأمّة من المؤمنين .

و ثانيًا : أنّ الله لا يسأل عما يفعل ، و يقدر قدر كلّ خلق ، فيمنحه ما يليق بقدره ، و يضع كلّ شيء موضعه ، و يميّز بين الحقائق و المعاني .

و كذلك من أوحى إليهم و أطلعهم على ذلك كالأنبياء و الملائكة ، فلهم أن يصلّوا على المؤمنين لمعرفتهم بالحقائق ، و فروقها حسب وحي الله إليهم . فهم عارفون بصلاة تعمّ المؤمنين ، وبصلاة تختص بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، قادرون على أن يعطوا كلًّا حقّه بدون اشتباه كما أنّ الله عالم قادر بذلك ، ولا كذلك عامة الأمّة . ولذا منع المؤمنون عن الصلاة على غير الأنبياء . فليس لهم أن يقيسوا أنفسهم على تلك النفوس القدسية و بالعكس . أين الثرى من الثريا ، و أنّى للحباحب أن يجاري السراج الوهّاج .

و نظير ذلك الحلف بغير اسم الله ، فإنّ الله منعنا عن ذلك ، مع أنّه أقسم في كلامه القديم هذا الأقسام كقوله : وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ . و قوله : وَ ٱلشَّمْسِ وَ ضُحَىٰهَا .

ثم إنّ حكم الحلف شديد لتعلّقه بتعظيم الله و توحيده . فمنع الخلق مطلقًا سواء كان نبيًّا أو ملكًا عن الحلف بغير اسمه تعالى ، و سدّ الباب مطلقًا عملًا بالحزم و الاحتياط .

ولا كذلك الصلاة فإنّها متعلّقة بالبشر ، و يوصف بها الإنسان ، وهو النبي . فتطرق إليها شيء من العموم بإذن الله لبعض مقرّبيه من الأنبياء و الملائكة . فصلّى النبي عليه الصلاة والسلام على آل أبي أوفى و الملائكة على المؤمنين ، إلّا أنّه عموم لفظيّ فقط . إذ الصلاة على المؤمنين بمعنى الرحمة و نحو ذلك . و أمّا الصلاة على الأنبياء فلا يعلم معناها و كنه مغزاها إلّا الخبير العليم و من أوحى الله إليه .

ومن سوغ من العلماء الصلاة على غير الأنبياء فلا ريب في أنّهم أيضًا قائلون بهذه المغايرة المعنوية بين الصلاتين . فآل البحث إلى الاشتراك اللفظيّ ، و ثبت أنّ الصلاة المسؤولة للأنبياء غير الصلاة على المؤمنين بالإجماع .

و نظير ذلك وصف الرسالة . فيوصف غير النبي بأنّه رسول لغةً ، كما إذا أرسلت رجلًا إلى شخص آخر ، فهو رسول لغةً . فأطلق الرسول على غير النبي . لكن هذا محض اشتراك لفظ . و المعنى مختلف . فإنّ النبي رسول بمعنى أنّ الله أرسله و أوحى إليه ، و حاشا أن يطلق الرسول بهذا المعنى على غير النبي ، كسفيرك المرسل إلى شخص (معاذ الله) . بل إن أطلقه شخص بهذا المعنى على غير النبي كفر .

و **بالجملة** الصلاة مجهولة الحقيقة و المعنى . مبلغ علمنا فيها أنّها أمر ذو منقبة جليلة و ملازم للنبوّءة ، مقصور على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فلا يبعد أن يقال : كما أنّ النبوّة نفسها مشتركة في جميع الأنبياء ، و كذلك الوحي أي إيحاء الله إليهم ، لا تفاوت بينهم في نفس النبوّة و الرسالة و الإيحاء إليهم ، كما صرّح به المحقّقون ، كذلك الصلاة أمر استوى فيه جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من غير تفاوت .

فاندفع الإشكال و اندمغ استدلال منكري أفضلية نبينا صلى الله عليه وسلم بقولنا : كما صلّيت على إبراهيم . إذ قصّة فضل المشبّه به و قوّته إنّما تتحقق فيما يكون الوصف قابلاً للتفاوت و التفاضل . و إذ لا فلا .

فعلى هذا قولنا " اللّهم صلّ على محمد و آله كما صلّيت على إبراهيم " مثل قول الله " إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ " . الآية . ولم يقل أحد : إنّ هذه الآية تدلّ على أنّ نوحًا عليه الصلاة والسلام أفضل من نبينا صلى الله عليه وسلم . و وجه ذلك أنّ الوحي و نزوله لا يقبل التفاوت و التفاضل . فالصلاة على الأنبياء عندي من هذا الباب .

و أيضًا قوله تعالى ههنا " وَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ " عطف على " أَوۡحَيۡنَآ " المتقدّم . و الكلام صار هكذا : إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب و الأسباط . و هذا مثل قولنا : اللّهم صلّ على محمد كما صلّيت على إبراهيم و على آله .

و مثل هذا في التنزيل كثير كقوله تعالى : إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا . مزمّل . و قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا . أي أوحينا إليك كما أوحينا إلى سائر الرسل .

إن قلت : قال الله تعالى : تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَ رَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖ . و قال تعالى : وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖ . فهاتان الآيتان تدلّان على تحقّق تفاضلهم في النبوة و الرسالة ، فكيف يصح قولك : إنّهم متساوية الأقدام في ذلك ؟

قلت : التفاضل بين الأنبياء مسلّم و ثابت دون نبوّتهم . فتفاضلهم يرجع إلى مقاماتهم و خصوص أحوالهم .

قال العلامة العسقلاني رحمه الله تعالى في المواهب نقلاً عن البعض : منع التفضيل في حق النبوة

و الرسالة . فإنّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيها على حدّ واحد لا يتفاضل . و إنّما التفاضل في زيادة الأحوال و الخصوص و الكرامات و الرتب . و أمّا النبوة في نفسها فلا تتفاضل . و إنّما التفاضل بأمور أخر زائدة عليها ، و لذلك منهم رسل و أولو العزم . انتهى .

قلت : و إليه الإشارة في قوله تعالى : لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُوْنَ .

قال العارف بالله الشيخ محي الدين ابن عربي في الباب الثامن و الخمسين و مائتين من الفتوحات : إنّ الرسل لم يفضّل بعضهم بعضًا من حيث ما هم رسل ، و كذلك الأنبياء لم يفضّلوا على بعضهم من حيث كونهم أنبياء . و إنّما فضل الأنبياء و الرسل بأحوال أخر ، ليست هي عين ما وقع فيه الاشتراك ، إذ ما من جماعة يشتركون في مقام إلّا و هم على السواء فيما اشتركوا فيه . هذا هو الأصل . انتهى .

و قال في الباب الثالث و السبعين من الفتوحات : إنّ معنى المفاضلة المعقولة من قوله تعالى : فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ . أي أعطينا هذا ما لم نعط هذا . لكن من مراتب الشرف ، فمنهم من فضّله الله بأن خلقه بيده كما يليق بجلاله ، و أسجد له ملائكته ، و هو آدم عليه الصلاة والسلام ، و منهم من فضّله بالكلام كموسى عليه الصلاة والسلام ، و منهم من فضّله بالخلّة كإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، و منهم من فضّله بالصفوة و هو يعقوب عليه الصلاة والسلام . فهذه كلّها صفات مجد و شرف . انتهى .

الباب الثلاثون بعد المائة
في الجواب الثالث والستين ومائة

للمشبّه به فضل جزئيّ على المشبّه ، ولا حرج في هذا . قال الحافظ العيني رحمه الله سبحانه في العمدة : المجموع شبّه بالمجموع . ولا شكّ أنّ آل إبراهيم أفضل من آل محمد ، إذ فيهم الأنبياء عليهم السلام ، ولا نبي في آل محمد ﷺ . انتهى . هذا . والله أعلم بالصواب وإليه المرجع و المآب .

تنبيه

اعلم : أنّه تمسّك بهذه الصلاة الإبراهيميّة الفرقة القاديانية أتباع مرزا غلام أحمد المتنبئ الزنديق الهنديّ على تحقّق سلسلة النبوّة بعد نبينا محمد ﷺ . قالوا : الغرض من هذا التشبيه أن يرسل الله تعالى في أمّة محمد و آله ﷺ أنبياءً و رسلاً ، كما أرسل في آل إبراهيم أنبياءَ و رسلاً ، و زعموا أنّ هذا هو المقصود من طلبنا صلاة الله لمحمد و لآله المشبّهة لصلاة الله على إبراهيم و على آل إبراهيم . هذا .

و أنت تعلم أنّ هذا كذب من القول و زور . تبًّا لهم ما أبعدهم عن فهم كلام الله و كلام النبي ﷺ ، و ما أغرقهم في الزيغ ، إذ لا يخفى على ذي فهم أنّه لا تعلق لهذه الصلاة بهذا الموضوع موضوع إبقاء سلسلة النبوة . فلا يتمسك بأمثال هذا إلاّ أمثالهم . وقد جاءت نصوص قاطعة من القرآن و الأحاديث على أنّ نبينا محمدًا ﷺ خاتم الأنبياء ، لا نبيّ بعده ولا رسول . و وقع عليه الإجماع ، و حارب الصحابة رضي الله عنهم على ذلك مسيلمة الكذاب و الأسود و من نحا نحوهما . و كذا من بعد الصحابة إلى هذا الزمان . اللّهم ثبّت قلوبنا على دينك ، و اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . آمين .

الباب الحادي والثلاثون بعد المائة
محتو على جوابين

لا يبعد أن يقال: مقصود النبي ﷺ بهذه الصلاة بل بتشبيهها الدعاء لمشاركة أمّته معه في صلاة الله بأن يصلّي الله عليهم أيضًا كما صلّى عليه عليه الصلاة والسلام كما أشرك الله آل إبراهيم مع إبراهيم في الصلاة، فصلّى عليهم أيضًا كما صلّى على إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

والتفصيل: أنّ الله أنزل هذه الآية " إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ " الآية. فصلّى عليه ﷺ ولم يشرك معه في منقبة الصلاة أمّته عليه الصلاة والسلام، مع أنّ عادة الله كانت خلطهم معه عليه الصلاة والسلام في مثل هذه المناقب تفضّلاً.

و رسول الله ﷺ كان شفيقًا رحيمًا على أمّته، فأراد عليه الصلاة والسلام مشاركتهم معه في ذلك، فدعا الله تعالى أن يصلّي معه عليهم أيضًا و أن يبارك عليهم أيضًا عند ما يصلّي و يبارك عليه عليه الصلاة والسلام، كما صلّى و بارك على آل إبراهيم عند ما صلّى و بارك على إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فأشركهم مع إبراهيم في الصلاة، و أمر أمّته لتحقيق المشاركة أن يقولوا هكذا: اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم. الحديث. و معناه: اللّهم كما أشركت آل إبراهيم مع إبراهيم في الصلاة ولم تحرمهم هذه المنقبة أشرك آلي و أمّتي معي أيضًا في الصلاة ولا تحرمهم منقبة الصلاة.

فالتشبيه في قوله "كما صلّيت على إبراهيم" إنّما قصد به تحقيق هذه المشاركة و تقريرها، لا تقرير الصلاة على محمد، فإنّها كانت متقرّرة محقّقة من قبل بلا ريب لقوله تعالى: إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ. الآية. و ما هو متقرّر ثابت لا يطلب، و إنّما يطلب الغير الثابت و الغير المتقرّر، و هو مشاركة الأمّة،

فطلب ﷺ هذه المشاركة من الله تعالى .

فلا اعتراض ، ولله الحمد و المنة ، إذ الاعتراض على أفضليته عليه الصلاة والسلام إنّما يرد لو كان المطلوب تشبيه الصلاة المطلوبة لنفس محمد بصلاة إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، و إذ لا فلا .

ثم الدليل على إرادة هذه المشاركة في هذه الصلاة عدّة نصوص من الآثار :

منها : ما ذكره السيوطي رحمه الله تعالى في الدر المنثور حيث قال : أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله " إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ " الآية ، قال : لمّا نزلت جعل الناس يهنّؤونه بهذه الآية . و قال أبي بن كعب رضي الله عنه : ما أنزل فيك خيرًا إلّا خلطنا به معك إلّا هذه الآية . فنزلت " بَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ " الآية .

فهذا الأثر صريح في أنّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا آسفين لهذا الحرمان ، و أنّهم طلبوا منه ﷺ المشاركة معه في الصلاة .

و في الكشاف : روي أنّه لمّا نزل قوله تعالى " إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ " قال أبوبكر : ما خصّك الله يا رسول الله بشرف إلّا و قد أشركنا فيه . فنزلت . انتهى .

ومنها : ما ثبت في بعض الأحاديث التصريح بلفظ " مع " الدالّ على المشاركة . فعند الطبراني من طريق الحكم بسند رواته موثقون عن كعب بن عجرة رضي الله عنه مرفوعًا بلفظ : تقولون : اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم و صلّ علينا معهم و بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم و على آل إبراهيم و بارك علينا معهم .

و أخرج الدار قطني و أبو حفص بن شاهين عن ابن مسعود رضي الله عنه بسند فيه عبد الوهاب ابن مجاهد ، وهو ضعيف ، بلفظ : علّمني رسول الله ﷺ التشهد كما كان يعلّمنا السورة من القرآن : التحيات لله . و فيه : اللّهم صلّ على محمد و على أهل بيته كما صلّيت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد . اللّهم صلّ علينا معهم . اللّهم بارك على محمد و على أهل بيته كما باركت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد . اللّهم بارك علينا معهم . صلوات الله و صلاة المؤمنين على محمد النبي الأمّيّ . الحديث .

و أخرج البيهقي عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما نحو حديث كعب رضي الله عنه الماضي . و فيه : و علينا معهم .

فقوله " و علينا معهم " في هذه الروايات كأنّه تفسير لما أريد من التشبيه ، و لما قصد من الصلاة على هذه الطريقة . و لذا روى النميري أنّ الحسن البصري كان إذا صلّى على النبي ﷺ يقول : اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد و أصحابه و أولاده و أهل بيته و ذريته و محبّيه و أتباعه و أشياعه و علينا معهم أجمعين . يا أرحم الراحمين . كذا في القول البديع .

ومنها : ما روى أبو هريرة رضي الله عنه مرفوعًا : من سرّه أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلّى علينا أهل البيت فليقل : اللّهم صلّ على محمد النبي و أزواجه أمّهات المؤمنين و ذريته و أهل بيته كما صلّيت على إبراهيم . إنّك حميد مجيد . أخرجه أبوداود .

فأرشد عليه الصلاة والسلام بقوله " إذا صلّى إلخ " أي إذا أراد الصلاة على أهل بيتي أي آلي بالمعنى الخاص . و كذلك حكم الآل بالمعنى العامّ أي جميع الأتباع . فليقل : اللّهم صلّ إلخ ، بأنّ المطلوب ههنا الصلاة على الآل مع الصلاة عليه عليه الصلاة والسلام ، أي إشراكهم معه في شرف الصلاة . ولو لم يكن المقصود هذه المشاركة لقال عليه الصلاة والسلام : إذا صلّى عليّ .

و لكون هذه المشاركة مطلوبة يروى عنه ﷺ : لا تصلّوا عليّ الصلاة البتيراء . قالوا : و ما الصلاة البتيراء يا رسول الله ؟ قال : أن تقولوا : اللّهم صلّ على محمد ، و تمسكون . بل قولوا : اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد . أخرجه أبو سعد في شرف المصطفى ، و ذكره السخاوي في القول البديع .

ومنها : ما جاء في كثير من الأحاديث الاكتفاء بآل إبراهيم في المشبّه به كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه المتقدّم . و روى أبو مسعود الأنصاري البدري رضي الله عنه قال : أتانا رسول الله ﷺ و نحن في مجلس سعد بن عبادة رضي الله عنه . فقال له بشير بن سعد رضي الله عنه : أمرنا الله أن نصلّي عليك يا رسول الله ! فكيف نصلّي عليك ؟ قال : فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنّينا أنّه لم يسأله . ثم قال رسول الله ﷺ : قولوا : اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على آل إبراهيم ، و بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد . رواه مسلم و مالك في الموطأ و أبو داود .

فالاكتفاء بآل إبراهيم إشارة إلى أنّ المطلوب من هذه الصلاة الدعاء لإشراك آل محمد في الصلاة معه عليه الصلاة والسلام بأن يصلّي الله عليهم أيضًا كما صلّى على آل إبراهيم .

ومنها : ما يدلّ على إرادة إشراك الأمّة في الصلاة أنّه جاء في عامّة الروايات قران الآل مع محمد ﷺ . و أمّا المشبّه به فثبت فيه الاكتفاء بالآل أو إبراهيم عليه الصلاة والسلام في أكثر الروايات . إذ المشبّه به مقصود بالدعاء ثانيًا و بالعرض ، فالأنسب فيه الإجمال . و المشبّه مقصود به أوّلًا و بالذات ، فالأحرى فيه التفصيل ، لاسيّما تفصيل جهة قصدت بالتشبيه ، و هي جهة المشاركة . و هذه الجهة تقتضي أن لا يخلو المشبّه من ذكر آل محمد . و قد تكلّمنا على أسرار لزوم القران في المشبّه دون المشبّه به بالتفصيل في باب آخر ، فراجعه .

ومنها : ما أخرج الديلمي في مسنده عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لما جمع فاطمة و عليًّا و الحسن و الحسين تحت ثوبه : اللّهم قد جعلت صلواتك و رحمتك و مغفرتك و رضوانك على إبراهيم و آل إبراهيم ، اللّهم إنّهم منّي و أنا منهم ، فاجعل صلواتك و رحمتك و مغفرتك و رضوانك عليّ و عليهم . قال واثلة رضي الله عنه : و كنت واقفًا على الباب ، فقلت : و عليّ يا رسول الله ، بأبي أنت و أمّي . فقال : اللّهم و على واثلة .

فسياق هذا الحديث يدلّ دلالة ظاهرة على أنّ المطلوب بالدعاء إشراك الآل في الصلاة معه عليه الصلاة والسلام ، و كذا جمعهم تحت ثوبه و قوله : اللّهم إنّهم منّي و أنا منهم . و لذا قال واثلة رضي الله عنه : و عليّ يا رسول الله ، بأبي أنت و أمّي . فسأله أن يدخله عليه الصلاة والسلام في الطائفة المشاركين ، فأدخله رسول الله ﷺ فيهم و قال : اللّهم و على واثلة .

ومنها : ما ثبت في بعض الأحاديث الاقتصار على الآل في المشبّه و المشبّه به . و فيه قرينة أنّ المطلوب بالذات في الصلاة الإبراهيمية إنّما هو الصلاة على آل محمد و مشاركتهم معه عليه الصلاة والسلام . أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلنا : يا رسول الله ! قد علمنا كيف السلام عليك ، فكيف نصلّي عليك ؟ قال : قولوا : اللّهم اجعل صلواتك و بركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

إن قلت : جاء في بعض الروايات "كما صلّيت على إبراهيم " بغير ذكر آل إبراهيم . فما حال تشبيه هذه الروايات ؟

قلت : المشبّه به فيها أيضًا الصلاة المقيّدة التي أشرك الله معه عليه الصلاة والسلام فيها آل إبراهيم ، بقرينة

الروايات الأخر التي ذكر فيها آل إبراهيم .

إن قلت : ثبت في بعضها الاكتفاء في المشبّه بمحمد فقط ، ولم يذكر فيه آل محمد ، كما أخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قلنا : يا رسول الله ! هذا السلام عليك ، فكيف نصلّي ؟ قال : قولوا : اللّهم صلّ على محمد عبدك و رسولك كما صلّيت على إبراهيم ، و بارك على محمد و آل محمد كما باركت على إبراهيم و آل إبراهيم . فجمع بينهما في البركة دون الصلاة .

قلت : الجواب الجواب . فالمطلوب في المشبّه الصلاة المخصوصة التي يشترك فيها معه عليه الصلاة والسلام آل محمد . و المعنى : اللّهم صلّ على محمد صلاة مخصوصة مشتركًا معه فيها آل محمد كما صلّيت على إبراهيم عليه الصلاة والسلام هذه الصلاة المشترك فيها معه عليه الصلاة والسلام آل إبراهيم . هذا . ولله الحمد .

أو يقال : هذا اختصار من بعض الرواة . والله أعلم . قال ابن حجر رحمه الله تعالى في الفتح : قلت : و الحق أنّ ذكر محمد و إبراهيم و ذكر آل محمد و آل إبراهيم ثابت في أصل الخبر . و إنّما حفظ بعض الرواة مالم يحفظ الآخر . انتهى . هذا . والله أعلم بالصواب .

فصل
في ذكر جواب آخر

بعد الفراغ من كتابة هذا الباب رأيت نص سفيان بن عيينة المحدث الإمام رحمه الله تعالى بأنّ المراد من هذه الصلاة إشراك الأمّة في الصلاة و تكريم الله إيّاهم بذلك . و هذا نصّه المؤيد لما ذكرت سابقًا :

عن أبي توبة قال : سئل سفيان عن قوله : اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد . قال أي سفيان : أكرم الله أمّة محمد صلى الله عليه وسلم فصلّى عليهم كما صلّى على الأنبياء . فقال : هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ . و قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ . و السكن من السكينة . فصلّى عليهم كما صلّى على إبراهيم و على إسماعيل و إسحاق و يعقوب و الأسباط عليهم الصلاة والسلام . و هؤلاء الأنبياء المخصوصون منهم . و عمّ الله هذه الأمّة بالصلاة ، و أدخلهم فيما دخل فيه نبيهم صلى الله عليه وسلم . ولم يدخل في شيء إلّا دخلت فيه أمّته . و تلا قوله : إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ . الآية . و قال :

هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ . و ذكر قوله تعالى : إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا لِّيَغۡفِرَ . إلى قوله : مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ . القصة . ذكرها أبو نعيم في الحلية ج٧ ص٣٠٢ .

ثم ههنا نكتة . و هي أنّ قول سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع كونه مؤيّدًا لما بيّنّا جواب مستقلّ ، إذ فرق بينه و بين ما بيّنّا بوجوه :

الأوّل : ما قلنا متفرع على أنّ النبي ﷺ طلب من الله أن يشرك معه الأمّة في الصلاة . فهذه الصلاة فيها سؤال هذه المشاركة من الله . ثم أمر أمّته بسؤال ذلك منه تعالى . بخلاف ما قال سفيان ، حيث لا يتفرع على لحاظ هذا الدعاء و السؤال .

و الثاني : أنّ هذه الصلاة على قول سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ من باب قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ . وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ . و على ما ذكرنا من قبل من باب قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ : اللّهم إنّ إبراهيم كان عبدك و خليلك دعا لأهل مكة بالبركة ، و أنا عبدك و رسولك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم في مدّهم و صاعهم مثلي ما باركت لأهل مكة مع البركة بركتين . أخرجه الترمذي عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ .

و الثالث : الصلاة الإبراهيمية على قول سفيان ثمرة و نتيجة لقوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ . الآية . و قوله تعالى : وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ . و على قولنا بالعكس أي قوله تعالى ذلك كأنّه ثمرة و نتيجة للصلاة الإبراهيمية ، حيث تقبّل الله دعاء النبي ﷺ لمشاركة الأمّة في الصلاة ، فصلّى الله عَزَّ وَجَلَّ علينا و كذا ملائكته كما صلّى على نبينا ﷺ في قوله : إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ . الآية .

و الرابع : أنّ على قول سفيان الصلاة الإبراهيمية فرد واحد من جملة قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ . الآية ، و مظهر من جملة مظاهره . بخلاف ما قلنا .

و الخامس : قول سفيان مبنيّ على أنّ هذه الصلاة إحسان الله على هذه الأمّة و إكرامه تعالى لهم ، حيث أدخلهم ابتداءً و رحمةً من نفسه عليهم من غير طلب منهم فيما دخل فيه نبيهم ﷺ . و قولنا من قبل مبني على طلب ذلك الإحسان والإكرام والإدخال . و فرق جليّ بين الإحسان ابتداء و بين طلبه و إن كان المآل واحدًا ، حيث حصل الإحسان و الإكرام بعد طلبه و سؤاله . هذا . و لله الحمد والمنة .

الباب الثاني والثلاثون بعد المائة
في الجواب السادس والستين ومائة

ذكر العارف الكبير القطب العظيم رأس الأولياء الشيخ أحمد السرهندي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ، ما محصوله : الذي صار مكشوفًا بكرم الله تعالى هو أنّ التعين الأوّل لحضرة الذات تعالت و تقدست هو تعين حضرة الوجود . و هو المحيط بجميع الأشياء . و هو الذي عين الكمال و الجمال الذاتيّين لله تعالى . و هو ظلّهما الأوّل . و قال : هذا التعيّن الأوّل منشأ الخلّة . و هو ربّ خليل الرحمن عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . و هذا التعيّن في صورة دائرة مركزها الذي هو جزؤها الأشرف هو ربّ حبيب الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ و منشأ تعيّنه و تعيّن محبته و منشأ الولاية المحمدية . فالتعيّن الأوّل الذي هو منشأ الولاية الخليليّة له نوع فضل . و هو فضل جزئيّ من حيث كونه أوّل مظهر لظهور جمال الله و كماله الذاتيّين . و للمركز الذي هو مبدأ الولاية المحمديّة فضل كلّيّ . إذ كلّ ما حصل لأجزاء الدائرة حصل للمركز أيضًا ، إذ لا وجود للدائرة بدون المركز .

فنبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طلب هذا الفضل الحاصل لإبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قوله : اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم . ثم ادّعى الشيخ أحمد رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أنّ نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعطي هذا الفضل و استجيب له هذا الدعاء بعد الألف بدعائه و سؤاله من الله تعالى .

قال العارف الأكبر الشيخ أحمد السرهندي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في المكتوب الثالث و التسعين إلى حضرة المخدوم زاده الخواجه محمد سعيد رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : و الذي صار مكشوفًا في الآخر بكرم الله و فضله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو أنّ التعين الأوّل لحضرة الذات (أي ذات الله تعالى) تعالت و تقدّست هو تعيّن حضرة الوجود و المحيط بجميع الأشياء و الجامع لجميع الأضداد و الخير المحض و كثير البركة ، حتى أنّ الأكثرين من مشائخ هذه

الطائفة قالوا : إنّه عين الذات . و منعوا كونه زائدًا على الذات تعالت و تقدّست . و فيه غاية الدقّة و كمال اللطافة بحيث لا يكاد بصر كلّ أحد يدركه ، ولا يقدر تمييزه من الأصل .

و لهذا بقي تعيّنه مختفيًا إلى هذه المدة ، ولم يتميز من المتعين ، و عبده جمّ غفير بزعم أنّه هو الله ، و لم يطلبوا معبودًا و مطلوبًا ما وراءه ، و اعتقدوا أنّه هو المبدأ للآثار الخارجية ، و ظنّوا أنّه المكوّن للحوداث اليوميّة .

و هذا التميیز أعني تمييز الحق عما دون الحق كان دولة مدخرة لهذا المسكين العاجز المتأخّر ، و نفي مشاركة غير المعبود مع المعبود سبحانه وتعالى كان حصة باقية من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، مختبية لملتقط ما سقط من موائدهم . هذا . الحمد لله الذي هدانا لهذا . وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . لقد جاءت رسل ربّنا بالحق . و قد صار مكشوفًا أنّ هذا التعيّن الأوّل الوجوديّ هو رب خليل الرحمن على نبينا و عليه الصّلاة والسلام و مبدأ تعينه و تعين خلّته ، و صار مكشوفًا أنّ مركز هذا التعيّن الذي هو جزؤه الأشرف و فيه نسبة الأقربيّة بالأصل من بين الأجزاء الأخر هو ربّ حبيب الله و مبدأ تعينه و تعيّن محبته عليه و على جميع الأنبياء الصلوات و التسليمات .

فإن قيل : إذا كان التعيّن الأوّل ربّ الخليل ، فما معنى قول نبينا صلى الله عليه وسلم " أوّل ما خلق الله نوري " ؟

قلت : إنّ مركز الدائرة أسبق أجزاء الدائرة ، و أيضًا أنّ للجزء تقدّمًا على الكلّ . فيكون مبدأ تعينه صلى الله عليه وسلم الذي عبر عنه " بنوري " أسبق من الكلّ بالضرورة . و مركز الدائرة و إن كان جزءً من الدائرة و الدائرة كلًّا له و لكنّه جزء نشأ منه سائر أجزاء الكلّ . فإنّ جميع أجزاء محيط الدائرة ظلال ذلك الجزء الذي هو مركز تلك الدائرة . فلو لم يكن ذلك الجزء لما كان من الدائرة اسم ولا رسم .

فاتّضح أنّ ربّ حضرة الخليل و مبدأ تعيّنه هو التعيّن الأوّل ، و منشأ التعين الأوّل الذي هو الجزء و المركز و أشرف أجزاء تلك الدائرة ربّ حضرة خاتم الرسل عليه و عليهم الصّلاة والسلام و مبدأ تعينه . فيكون أسبق الكلّ حقيقة خاتم النبوة ، و يكون منشأ ظهور الآخرين أيضًا هي . و من ههنا ورد في الحديث القدسيّ في شأن حبيب الله : لولاك لما خلقت الأفلاك ، و لما أظهرت الربوبية .

فإذا كان مبدأ تعين خاتم الرسل عليه و عليهم الصّلاة والسلام مركز دائرة التعين الأوّل الذي

هو مبدأ تعيّن الخليل عليه الصلاة والسلام فلا جرم تكون الولاية المحمديّة التي منشأها المحّبة مركز الولاية الخليليّة التي منشأها الخلّة . و الولاية الخليليّة مع وجود أوّليّتها لا تكون حائلةً و حاجزةً بين الولاية المحمديّة و بين حضرة الذات تعالت و تقدّست . فإنّ لمركز الدائرة سبقة ذاتية على الدائرة . فلا يكون الخلف حائلاً للسلف ، بل الأمر بالعكس .

و وجه آخر لسبق هذا المركز و قربه . اسمع أنّه كلّما يتعمق في السير في هذه النقطة التي هي المركز يتميّز المحبّ من المحبوب من تلك النقطة التي حاصلها المحبّة . و تظهر صورة دائرة مركزها المحبوبية و محيطها المحبّيّة . و تلك المحبّيّة هي مبدأ الولاية الموسويّة . و المحبوبية هي مبدأ الولاية المحمديّة على صاحبها الصلاة والسلام . فهذا المركز الذي هو المحبوبية أسبق من ذلك المركز الذي هو المحبّة ، و صار دائرة و أقرب إلى حضرة الذات ، فإنّ للمركز سبقة و قربًا ليسا للدائرة . فكانت الولاية المحمدية أسبق من الولاية الموسوية أيضًا و أقرب .

و وجه آخر لسبقة الولاية المحمدية و قربها . اسمع أنّه كلما يتعمق في السير في هذا المركز الذي هو المحبوبية بفضل الله تعالى تعرّض لهذا المركز أيضًا صورة دائرة يرى مركزها محبوبية صرفة ، و يظهر محيطها محبوبية ممتزجة بالمحبية . و هي نصيب فرد من أفراد أمّته بتبعيته عليه و على آله الصلاة والسلام ، بل بتبعية الولاية الموسوية على صاحبها الصلاة والسلام التي لها مناسبة بمحيط الدائرة .

و من ههنا قيل : إنّ الولاية المحمدية مركز في جميع الأوقات ، و كيفية المحبية أيضًا من بركات تلك الولاية ، فإنّ المركز الثاني إنّما صار دائرة بامتزاجها به . و ظهر منه مركز آخر . ينبغي أن يعلم أنّ هذا المركز الثالث أورث للمعاملة ترقيًا كثيرًا ، و جعلها أقرب من الأقرب .

ع لا عسر في أمر مع الكرام

و ما أظهر زيادة على ذلك من هذه الأسرار و الدقائق و ماذا يقال و يبين مما وراء التعين الأوّل أكثر من ذلك و إن لم يكن وراء التعين الأوّل لكونه جزءه أو جزء جزئه بواسطة أو بواسطتين ، ولكنّه بعيد عن التعيّن الأوّل في النظر الكشفي بمراحل ، و أقرب منه إلى المطلوب بمنازل .

فإن قيل : إنّ كلّ كمال ميسّر للجزء ميسّر للكلّ ، فإنّ الكلّ عبارة عن ذلك الجزء مع أجزاء

أخر ، فما وجه حصول السبقة و القرب للجزء دون الكلّ ؟

قلت : إنّ الكمال الذي يحصل للجزء بالإصالة يحصل ذلك للكلّ بتبعيته للجزء لا بالإصالة . ولا شكّ أنّ للإصالة سبقة ليست هي للتبعيّة ، و للأصل قرب ليس هو للفرع . فلو كان مركز الدائرة أسبق قدمًا من الدائرة في كمالاته المخصوصة به لساغ .

و التحقيق في الجواب أنّ كمال الجزء إنّما يسري في الكلّ إذا كان ذلك الكمال ناشئًا من ماهية الجزء الأصلية . و أمّا إذا كان الكمال عارضًا للجزء بعد انقلاب ماهيته لا يلزم أن يسري ذلك الكمال في الكلّ . فإنّ ذلك الجزء لم يبق جزء لذلك الكلّ بعد انقلاب ماهيته حتى يسري الكمال فيه مثلاً إذا جعل جزء من الورق بعمل الإكسير ذهبًا و انقلب ماهية الورق إلى ماهية الذهب لا يمكن أن يقال : إنّ كمالات هذا الجزء الذهبيّة تسري فى الفضّة التي هي كلّه . فإنّ ذلك الجزء لم يبق جزء لها بعد الانقلاب حتى تسري كمالاته . فافهم و قس عليه معرفة ما نحن فيه .

فإن قيل : إنّ التعين الأوّل الوجوديّ هل له وجود في الخارج أو ثبوت علمي فقط . و كلّ واحد من هذين الشقين غير صحيح ، فإنّه لا موجود في الخارج عند هؤلاء الأكابر غير ذات واحدة تعالت ، ولا اسم في ذلك الخارج من التعيّنات و التنزّلات ، ولا رسم . ولو قلنا بالثبوت العلميّ يلزم أن يكون التعيّن العلميّ سابقًا عليه ، وهو خلاف المتقرّر .

أجيب : أنّه ثابت في نفس الأمر . فلو قيل بالثبوت الخارجيّ بمعنى أنّ له ثبوتًا فيما وراء العلم أيضًا لساغ . و الله سبحانه الملهم للصواب . انتهى بلفظه .

و قال أيضًا في مكتوب يلي المكتوب السابق إلى حضرة المخدوم زاده الخواجه محمد معصوم رحمه الله تعالى : إنّ الحق سبحانه وتعالى جميل في حدّ ذاته و الحسن و الجمال الذاتيّين ثابتان له ، لا ذلك الحسن و الجمال اللذان ندركهما و نتعقلهما و نتخيّلهما . و مع ذلك في تلك الحضرة مرتبة أقدس ، لا يمكن الوصول إلى تلك المرتبة من غاية عظمتها و كبريائها . ولا يمكن توصيفها بالحسن و الجمال . و التعيّن الأوّل الذي هو التعيّن الوجوديّ تعين ذلك الكمال و الجمال الذاتيّين و ظلّهما الأوّل . و تلك الرتبة التي لا مجال فيها للحسن و الجمال أيضًا ، ليس فيها تعيّن أصلاً . فإنّها من غاية عظمتها و كبريائها لا تكون متعينة بتعيّن

أصلاً .

ع في أيّ مرآة يكون مصوّرًا

و مع ذلك أودع في مركز دائرة التعين الأوّل سرّ و كيفية من تلك المرتبة المقدّسة ، و عينت فيه علامة من تلك المرتبة المقدّسة المنزّهة عن العلامة . فكما أنّ التعين الأوّل منشأ الولاية الخليليّة كذلك ذلك السرّ و الكيفية المودعَين في مركز دائرة التعين منشأ للولاية المحمديّة على صاحبها الصلاة والسلام و التحية . انتهى .

الباب الثالث والثلاثون بعد المائة
في الجواب السابع والستين ومائة

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ في شرح حديث أخرجه البخاري في صحيحه ، وهو حديث كعب ابن عجرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، و فيه : أنّ النبي ﷺ خرج علينا . فقلنا : يا رسول الله ! قد علمنا كيف نسلّم عليك ، فكيف نصلّي عليك ؟ قال : قولوا : اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم إنّك حميد مجيد :

هذا اللفظ يساعد قول من قال : إنّ معنى قول الصحابي " علمنا كيف السلام عليك " أي في قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ، " فكيف نصلّي عليك " : أي على أهل بيتك . لأنّ الصلاة عليه قد عرفت مع السلام من الآية . فقال : فكان السؤال عن الصلاة على الآل تشريفًا لهم . وقد ذكر محمد في الجواب لقوله تعالى : لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ . و فائدته الدلالة على الاختصاص .

قال : و إنّما ترك ذكر إبراهيم لينبّه على هذه النكتة . ولو ذكر لم يفهم أنّ ذكر محمد على سبيل التمهيد . انتهى كلام الطيبي .

قلت : اتّضح من كلام الطيبي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ أمور :

الأوّل : أنّ ذكر محمد على سبيل التمهيد .

والثاني : أنّ سؤال الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ إنّما كان عن الصلاة على أهل بيته .

والثالث : المراد من الآل المعنى الخاصّ أي أهل بيته ، لا المعنى العامّ أي جميع أتباعه المؤمنين .

و الرابع : ترك ذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام للتنبيه على أنّ ذكر محمد صلى الله عليه وسلم للتمهيد .

وبعد هذا التفصيل أقول : يفهم من كلام الطيبي هذا رحمه الله تعالى جواب آخر ، و حاصله : أنّ المقصود ههنا الصلاة على أهل البيت ، و هي المشبهة بصلاة إبراهيم و آل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ولم تقصد الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم ولم يسألوا عنها حتى تشبه بصلاة إبراهيم و آله عليه الصلاة والسلام .

فائدة

ردّ الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى ما قال الطيبي بقوله في الفتح : ولا يخفى ضعف ما قال ، إذ وقع في حديث أبي مسعود رضي الله عنه عند أبي داود و النسائي "على محمد النبي الأمّيّ" و في حديث أبي سعيد رضي الله عنه في الباب "على محمد عبدك و رسولك كما صلّيت على إبراهيم" ولم يذكر آل إبراهيم ولا آل محمد . و بهذا ظهر فساد ما قال الطيبي . انتهى باختصار .

فائدة

قد سلف مثل هذا الجواب جواب آخر في الباب المذكور من قبل . لكن بينهما فرق من وجوه :

الأوّل : هذا الجواب مبني على أخذ الآل بالمعنى الخاصّ ، أي أهل البيت لزومًا للتشريف ، بخلاف المتقدّم فإنّه عامّ ، سواء أخذ المعنى الخاصّ أو العام للآل .

و الثاني : هذا يتفرّع على أنّ سؤال الصحابة رضي الله عنهم لم يكن عن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بل عن الصلاة على الآل . و المتقدّم غير متفرّع على هذا ، بل على أنّ سؤالهم كان عن الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام .

و الثالث : المتقدّم يدور على أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لشفقته على الأمّة و اهتمامه بهم سأل الله أن يشرك معه أمّته في الصلاة كما أشرك مع إبراهيم آله و أتباعه فيها . ولا يدور هذا الجواب على ذلك ، بل على اهتمام الأمّة و عامّة الصحابة بأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم تشريفًا لأهل البيت و إرضاءً للنبي صلى الله عليه وسلم . هذا . والله أعلم بالصواب و إليه المرجع و المآب .

الباب الرابع والثلاثون بعد المائة
في الجواب الثامن والستين ومائة

قد أثبتنا بدلائل شافية إن شاء الله في باب آخر من قبل أنّ الصلاة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مجهولة كنهًا و معنًى ، و أفهامنا قاصرة عن إدراك حقيقتها . فعلى هذا لا يبعد أن يقال : إنّ التفاضل إنّما يمكن في وصف معلوم المعنى و الحقيقة كالشجاعة في نحو " زيد كالأسد " و الجود في نحو "زيد كالحاتم " و إلّا فلا . وهذا أمر جليّ . و كيف تتطرق عقولنا إلى التفاضل في أمر عجزت عن إدراكه ، وهي جاثية على الركب دونه . إنّ السفن لا يجرين على اليبس ، فكيف يجارى بينهن .

و إنّ الجياد لا يعدون على سطح الماء ، فأنّى لأحد أن يسابق بينهن عليه . و هكذا للعقول مضمار و للأذهان ميدان . فحلبة حكومتهن المعلومات لا المجهولات . و حقيقة الصلاة من المجهولات التي لا يعلمها إلّا الله تعالى و الأنبياء عليهم الصلاة والسلام و خواصّ أوليائه تعالى . ولا مجال للعقل أن يغوص فيها و يحكم بالتفاضل . فليس لنا في أمثال الصلاة إلّا السكوت . و في الأمثال : من صمت نجا . و لمّا أنسدّ باب المفاضلة ههنا اندفع قول من قال : إنّ هذه الصلاة تدلّ على أنّ إبراهيم و صلاته أفضل من محمد و صلاته .

هذا . وإن شئت فقل : التشبيه صنفان : أحدهما ما كان الطرفان فيه معلومين كنهًا و معنًى ، و كذا وجه الشبه .

و الثاني ما كان بخلاف ذلك ، كالتشبيه فى الصلاة الإبراهيمية . و قصّة التفاضل بين الطرفين مختصّة بالصنف الأوّل دون الثاني . فالثاني من المستثنيات بدليل العقل . و حكم العقل أملك .

ثم إنّ الصنف الأوّل لما كان أكثر استعمالاً في عامّة كلامهم حكموا حكمًا عامًّا بأنّ المشبّه به

يلزم أن يكون أقوى من المشبّه ، ولم يستثنوا لشذوذ الصنف الثاني حيث لا يتحقق إلاّ في نحو الصلاة ، و الشاذّ كالمعدوم . و إلاّ ففي الحقيقة لابدّ من استثنائه بحكم العقل . و العقل أقضى في أمثال هذه المواضع .

و نظير ذلك المقطعات القرآنية . فإنّها مجهولة المراد و المعنى . فليس لأحد أن يقول : إنّ " الٓمٓ " أكثر جمعًا للمعاني و الأسرار و أفضل من " الٓر " و بالعكس ، أو إنّ إحداهما أبلغ من الأخرى . و البلاغة تأدية المراد حسب ما يقتضيه الحال ، مع أنّهم أجمعوا على أنّ القرآن كلّه و إن كان معجزًا لكن بعضه فوق بعض في البلاغة والفصاحة .

و لهذا قال بعض أهل الكشف من العارفين : إنّه لا ذوق لنا في مقامات الأنبياء حتى تتكلم بالتفاضل بينهم . فالمختار عدم التفاضل بين المرسلين على التعيين بالعقل لعدم إدراك العقل مقاماتهم ، مع إيماننا بأنّ بعضهم أفضل من بعض عند الله تعالى . إذ الخوض في مقام المرسلين غير محمد ﷺ من الفضول . فلا ينبغي أن يتكلّم في مقام الرسول إلاّ رسول ، ولا في مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلاّ نبي ، ولا فى مقام الوارثين إلاّ رسول أو نبيّ أو وليّ أو من هو منهم .

هذا هو الأدب الإلهيّ . و كلّ ذلك لكون مقاماتهم فائقة عن مجال عقولنا و أفهامنا . ولو لا أنّ محمدًا ﷺ أخبرنا أنّه سيّد ولد آدم لما ساغ لنا أن نفضله بعقولنا . انتهى كلامه بأدنى تصرّف .

الباب الخامس والثلاثون بعد المائة
وهو مشتمل على ستة أجوبة

هذه أجوبة ستة ذكرها الحافظ الشهير أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي في كتابه " أحكام القرآن " :

مآل الأوّل : أنّ المراد من التشبيه في هذه الصلاة سؤال ذلك له عليه الصلاة والسلام أضعافًا مضاعفة. فلإبراهيم أصل الصلاة ، و لنبينا أضعاف ذلك . والأضعاف خير من غير الأضعاف ألبتة .

و الثاني : أنّ المطلوب طلب دوام ذلك و استمراره إلى يوم القيامة . فلا ينقطع هذا كما لا ينقطع ذلك .

و الثالث : أنّ في الصلاة تكريم النبي و تبجيله . فالمقصود في ذلك رفع درجات الأمّة و إتمام النعمة عليهم بأن يكرم نبيهم على ألسنتهم .

و الرابع : ريم في هذه الصلاة أن يحصل الثواب للأمّة ببركة هذا السؤال . فإنّ الصلاة تنفع المصلّي لقوله عليه الصلاة والسلام : من صلّى عليّ مرّة صلّى الله عليه عشرًا .

و الخامس : أنّ المسؤول في ذلك طلب رحمة يبقى ببركتها دينه عليه الصلاة والسلام إلى يوم القيامة .

و السادس : أنّ فيها إشارة إلى المغفرة و الاستغفار .

قال ابن العربي رحمه الله تعالى في أحكام القرآن ج٤ ص١٥٨٥ : المسألة الرابعة قوله عليه الصلاة والسلام "كما صلّيت على إبراهيم " و هي مشكلة جدًّا ، لأنّ محمدًا أفضل من إبراهيم ، فكيف يكون أفضل منه . ثم يطلب له أن

يبلغ رتبته (أي رتبة إبراهيم) . و في ذلك تأويلات كثيرة أمّهاتها عشرة :

الأوّل : أنّ ذلك قيل له قبل أن يعرف بمرتبته . ثم استمرّ ذلك فيه .

الثاني : أنّه سأل ذلك لنفسه و أزواجه (و آله) لتتم عليهم النعمة كما تمت عليه .

الثالث : أنّه سأل ذلك له و لأمّته على القول بأنّ آل محمد كلّ من اتبعه .

الرابع : أنّه سأل ذلك مضاعفًا له حتى يكون لإبراهيم بالأصل و له بالمضاعفة .

الخامس : أنّه سأل ذلك لتدوم إلى يوم القيامة .

السادس : أنّه يحتمل أن يكون أراد ذلك له بدعاء أمّته تكرمةً لهم و نعمةً عليهم بأنّ يكرم رسولهم على ألسنتهم .

السابع : أنّ ذلك مشروع لهم ليثابوا عليه . قال ﷺ : من صلّى عليّ صلاة صلّى الله عليه عشرًا .

الثامن : أنّه أراد أن يبقى له ذلك لسان صدق في الآخرين .

التاسع : أنّ معناه : اللّهم ارحمه رحمةً في العالمين يبقى بها دينه إلى يوم القيامة .

العاشر : أنّ معناه : اللّهم صلّ عليه صلاة تتخذه بها خليلاً كما اتخذت إبراهيم خليلاً .

قال القاضي : و عندي أيضًا أنّ معناه أن تكون صلاة الله عليه بصلاته و صلاة أمّته كما غفرلهم بشرط استغفاره . فاعلم : أنّ الله قد غفر له . ثم كان يديم الاستغفار ليأتي بالشرط الذي غفر له . انتهى بلفظه .

فالتأويل الرابع و الخامس و السادس و السابع و التاسع إشارة بالترتيب إلى الجواب الأوّل و الثاني و الثالث و الرابع و الخامس . وقوله " قال القاضي : و عندي أيضًا أنّ معناه إلخ " يمكن أن تكون فيه إشارة إلى الجواب السادس . و أمّا غير هذه الستة من تأويلات ابن العربي هذه فداخلة في بعض الأجوبة المرقومة في أبواب هذا الكتاب . هذا . والله أعلم بالصواب .

الباب السادس والثلاثون بعد المائة
في الجواب الخامس والسبعين ومائة

المشبّه في قولنا " اللّٰهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت إلخ " دون المشبّه به في الصلاة التي هي وجه الشبه .

تفصيله : أنّ المشبّه به ههنا محتو على صنفين : الأوّل إبراهيم . و الثاني آل إبراهيم ، و هم أنبياء بني إسرائيل عليهم الصلاة والسلام . وكلا الصنفين مستقل في الصلاة ، كامل في ذلك . فيصلّى على آل إبراهيم مستقلاً كما يصلى على إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

و كذا المشبّه مشتمل على صنفين : الأوّل محمد عليه الصلاة والسلام . والثاني آل محمد . ولا يصلّى مستقلاً إلّا على الصنف الأوّل ، إذ الصنف الثاني الذي هو آل محمد غير أنبياء ، ولا يصلّى مستقلاً على غير الأنبياء عند الجمهور .

فظهر أنّ المشبّه دون المشبّه به في الصلاة ، و أنّ للمشبه به فضلاً على المشبّه نظرًا إلى الصلاة ، و أن مناط المفضوليّة في المشبّه آل محمد أي الصنف الثاني فقط ، لا مطلقًا ، بل باعتبار الصلاة .

ولا يخرج على هذا فضل محمد عليه الصلاة والسلام من اليد لا ذاتًا ولا صلاةً . فهو صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء و أكرم خلق الله مطلقا ، و صلاته الحاصلة له عليه الصلاة والسلام أجلّ من صلوات سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

و أمّا آله عليه الصلاة والسلام فحالهم ما عرفت . فلا ريب في أنّه عليه الصلاة والسلام أفضل خلق الله ، و كذا لا ريب في أن آله دون المشبّه به في الصلاة . هذا . والله أعلم بالصواب .

الباب السابع والثلاثون بعد المائة
مشتمل على خمسة أجوبة

التشبيه قسمان :

أحدهما : ما يكون من حيث الكيفية أي القدر و الشأن نحو : زيد كالأسد . أريد المشاركة في الكيفية أي الشجاعة . و منه : أصحابي كالنجوم . أراد التشارك في الضياء حسيًّا كان كما في النجوم أو معنويًّا كما في الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، و في حصول الاهتداء بهما .

و القسم الثاني : ما يكون من حيث الكميّة أي المقدار و العدد و نحو ذلك . و المشبّه به إنّما يكون أجلى و أقوى إذا كان التشبيه من القسم الأوّل دون القسم الثاني . و التشبيه في الصلاة الإبراهيمية من القسم الثاني . فلا اعتراض . كذا قيل . حكاه صاحب الفتح المبين السيد أبو بكر محمد شطا الدمياطي الشافعي رحمه الله تعالى وغيره . و المعنى : اللّهم صلّ على محمد و على آله بعدد ما صلّيت على إبراهيم و على آله .

و التفصيل : أنّ الكمّ يطلق في عرف النحاة و يكنى به عن العدد و المقدار .

و أمّا أصحاب المعقول فقالوا : الكمّ ما يقبل القسمة لذاته ، أي يمكن أن يفرض فيه أجزاء . و قيل : ما يقبل المساواة و اللامساواة لذاته ، و هو من أقسام العرض التسعة . و العرض يقابل الجوهر . فلا يطلق الكمّ عندهم على الجسم لكونه جوهرًا . و لذا قيّدوا حدّه بقولهم " لذاته " إخراجًا للجسم الذي هو جوهر و محلّ للكم و للحال في الجسم ، فإنّ قبولهما للقسمة بواسطة الكمّ .

و أمّا في العرف العام فالكم يطلق على ما يقبل القسمة مطلقًا بحذف قيد " لذاته " . فالكمّ

العرفيّ أعمّ مطلقًا من الكمّ بمعنى أصحاب المعقول ، حيث يطلق على الجسم و على كلّ ما يقبل البسط و القبض .

ثم قالوا : الكمّ نوعان :

الأوّل : المنفصل ، وهو ما لا يكون بين أجزائه المفروضة حدّ مشترك تتلاقى عنده . وهو منحصر في العدد . وقال بعض المتقدمين : له قسمان . و الثاني القول ، لأنّ الكمّ المنفصل أمّا قارّ وهو العدد أو غير قارّ وهو القول . فإنّ أجزاء القول لا توجد معًا ، و ليس بينها حدّ مشترك .

و النوع الثاني : المتصل ، و هو ما يكون بين أجزائه المفروضة حدّ مشترك . و المتصل قسمان :

الأوّل قار الذات كالخط و السطح و الجسم التعليميّ .

و الثاني غير قار الذات ، وهو الزمان . هذا . و التفصيل في الفنّ الإلٰهي .

قال العبد الضعيف الروحاني البازي : الكمّ يستعمل عرفًا في نحو أمور تسعة : منها العدد ، و منها الموزون ، و منها المكيل ، و منها المذروع ، و منها الزمان ، و منها الأجسام باعتبار الطول و القصر مع قطع النظر عن الزنة و الكيل وغير ذلك ، و منها معنى مالئ لظرف ملأ الجسم له كما ورد في الحديث : أنّ بعض الأذكار و الأوراد يملأ الميزان أو ما بين السماء و الأرض .

و هذا المعنى يحتمل أن يكون جسمًا ، والله على كلّ شيء قدير . فهو على هذا ليس بقسم على حدة . و يحتمل أن يكون شيئًا آخر لا يعلم حقيقته إلّا الله تعالى ، كما هو مفصّل في شروح كتب الحديث و غيرها . و هناك بحثوا على وزن الأعمال يوم القيامة .

و منها أمر يقبل الانتشار و الإحاطة على الأشياء كضياء الشمس المنتشر على الأرض المحيط بها و بما يقابلها . فشدة الضياء و ضعفه من قبيل الكيف ، و إحاطته و قدر انتشاره على موضع صغير أو كبير من قبيل الكمّ . و لذا يوصف بالصغر و الكبر تبعًا للمكان . و الفرق بالاعتبار . ولو لا الاعتبارات لبطلت الحكمة بل الشريعة .

و منها نفس المقدار مع قطع النظر عن خصوص الزنة و الكيل و نحو ذلك . فالمقدار كالجنس .

ثم التشبيه في الصلاة باعتبار الكمّ يتحقق بخمسة وجوه . و كلّ وجه جواب برأسه . فهي

خمسة أجوبة كما أن الوجوه خمسة .

الأوّل : التشبيه باعتبار العدد ، وقد مرّ معناه .

و الثاني : باعتبار الزنة و الثقل . و المعنى : اللّهم صلّ على محمد زنة ما صلّيت على إبراهيم . أي ليكن زنة الصلاة المحمديّة بقدر زنة الصلاة الإبراهيميّة . و ثبوت الوزن و الثقل للأعمال أو لثوابها منصوص في القرآن و الأحاديث . من ذلك ما روي مرفوعًا : كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن " سبحان الله و بحمده ، سبحان الله العظيم " .

و في فتح الملهم : أنّ الأقوال و الأعمال و المعاني تتجسّد ذواتها في العالم .

فإن قلت : كيف توزن الأعمال و هي أعراض مستحيلة البقاء ، ولا توصف بالثقل و الخفّة .

فالجواب : أنّ نصوص الشرع تظاهرت على وزن الأعمال و ثقل الموازين و خفّتها . فوجب القبول و ترك الاعتراض بسبب قصور الفهم و ركاكة العقل . ولاسيّما في هذا العصر حيث شاهدنا آلات يقيّد فيها النغمات و الأصوات و يوزن بها الأعراض كحرارة المريض و النهار و النار . و من أطلعه الله على الأسرار و كشف له عجائب الأقدار يرى أنّ المقيّد بعقله ليس له مقدار . انتهى بحاصله .

و الثالث : باعتبار الإحاطة و قدر الانبساط . و المعنى : طلب انبساط نور الصلاة المحمديّة بقدر انبساط نور الصلاة الإبراهيميّة ، و أن يحيط بالعالم بقدر ما أحاط نور الصلاة الإبراهيمية .

و تحقّق النور للصلاة و سائر الصالحات مما لا ينكره مؤمن لنصوص كثيرة ،كما أخرج مسلم في كتاب الطهارة عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : الصلاة نور ، و الصدقة برهان ، و الصبر ضياء ، و القرآن حجة لك أو عليك . و هذا النور هو المراد عند كثير من المفسّرين في قوله تعالى : يَسۡعَىٰ نُورُهُمۡ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ .

و الرابع : باعتبار نفس المقدار بدون لحاظ العدد و الوزن و قدر الإحاطة . و معنى المقدار أمر جليّ يعرفه الخواصّ و العوامّ . فلا حاجة بنا إلى زيادة البحث في تفسيره . و المعنى : اللّهم صلّ على محمد مقدار ماصليت على إبراهيم .

و اتصاف الصلاة وغيرها من الأعمال الحسنة بالمقدار ورد به التصريح في الآثار الصحيحة ، كما أخرج مسلم في كتاب الطهارة من صحيحه عن أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : الطهور شطر الإيمان ، و الحمد لله تملأ الميزان ، و سبحان الله و الحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء و الأرض . و في رواية للدارمي : لا إله إلاّ الله و الله أكبر تملآن ما بين السماء و الأرض . مشكاة .

و أخرج الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ عن رجل من بني سليم قال : عدّهن رسول الله ﷺ في يدي أو في يده : التسبيح نصف الميزان ، و الحمد لله يملأه ، و التكبير يملأ ما بين السماء و الأرض ، و الصوم نصف الصبر ، و الطهور نصف الإيمان .

فمن هذه الآثار سنح أنّ الأعمال و الأذكار تتّصف بوصف الملأ ، و الملأ من خواصّ المقدار . و إن شئت فقل : من خواصّ أمور ذات مقادير كما يملأ الماء الوعاء . فالماء يوصف بأنّه ذو مقدار مع قطع النظر عن الزنة و الذرع و الكيل و العدد . فهذا مرادنا بالمقدار هنا . و نسمّيه به . فسمّه أنت أيّها القارئ بما شئت . و هذا مرادنا بقولنا في الإطلاق السابع لمعاني الكمّ " معنى مالئ لظرف ملأ الجسم له " .

و الخامس : باعتبار طول الزمان . و المعنى : اللّهم صلّ على محمد مدة طويلة بقدر طول مدة ما صلّيت على إبراهيم ، و ليكن طول زمان الصلاة المحمديّة بقدر طول زمان الصلاة الإبراهيمية .

فائدة

التشبيه في الكمّ بأنواعها الخمسة يراد به عرفًا التساوي في القدر ، بخلاف التشبيه في الكيف فإنّ العرف جارٍ فيه غالبًا بإلحاق الأدنى بالعالي و العالي بالأعلى و الكامل بالأكمل . و أمّا الكم فلابدّ في التشبيه فيه من تساوي الحاشيتين : المشبّه و المشبّه به . و العرف قاضٍ في المحاورات و أملك في الإطلاقات . التشبيه كمًّا في الخبر يوجب تساوي الطرفين ، و في الدعاء كمًّا فيما نحن فيه يقتضي أن لا ينقص المشبّه في الكمّ من المشبّه به .

نعم ، احتمل أن يزداد فيه من المشبّه به . و هذا هو المراد من التساوي في الدعاء ، أي ذلك لا بشرط شيء . مثلاً إذا قلت لرجل " أعطني خمسة دراهم كما أعطيت زيدًا خمسة " أردت أن لا تكون

عطيتك أقلّ من عطية زيد ، ولا تريد أن لا تزداد عطيتك على عطية زيد . فإنّ الزيادة لا تنافي التشبيه في الدعاء بل تزيده قوة . و هذا مما يسهل فهمه بعد اعتبار العرف . ألا ترى إلى قولك " زيد كالأسد " فإنّ الأسد أشجع من زيد و أعرف في ذلك منه ، لأنّ الشجاعة من الكيفيات ، و إلى قولك " ماء هذا الاناء كماء ذلك الاناء " و أردت القدر و الكمّ . وجب تساوي ماء الإنائَين ، إن صاعًا فصاع و إن فرقًا ففرق . و إلّا كان الكلام كاذبًا .

فالتشبيه في الكمّ ينافي أن تنقص الصلاة المحمديّة من الصلاة الإبراهيمية عددًا و زنةً و قدرًا و انبساطًا و زمانًا . ولا ينافي الزيادة لأنّها أمر مسكوت عنه ، فيحتمل أن تزيد الصلاة المحمديّة في الكم بأنواعها على الصلاة الإبراهيمية بعد حصول التساوي . لأنّ المفهوم المخالف غير معتبر عند المحقّقين من الأحناف و الشوافع و غيرهم ، كما فصّل في التحرير لابن همام و شروحه و في تفسير البيضاوي و الإمام الرازي في غير ما موضع . منه قوله تعالى : فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ .

فصل

في التشبيه باعتبار طول الزمان نكتة لطيفة و إشارة دقيقة شريفة . و هي أنّ التساوي باعتبار الزمان يفيد أنّ مدة بقاء أمّة محمد ﷺ لا تكون إن شاء الله ناقصًا من مدة بقاء آل إبراهيم التى خلت فيها آلاف الأنبياء من لدن إبراهيم إلى ولادة نبينا عليهما الصلاة والسلام .

نعم ، بالنظر إلى سعة رحمة الله تعالى و عظيم شأن نبينا ﷺ لا نقنط من أن تزيد على مدة آل إبراهيم عليه الصلاة والسلام . ولا ييأس من رحمة الله إلّا القوم الكافرون . و يرجى ببركة هذه الصلاة المباركة أن لا تقوم القيامة قبل تمام هذه المدة . و القيامة علمها عند ربي . ولا يعلم الغيب إلّا الله .

فصل

لا مندوحة من معرفة مدة ما بين إبراهيم و نبينا عليهما الصلاة والسلام ، لينكشف الغطاء عن التشبيه في

طول الزمان و تزداد المسرّة بطول مدّة هذه الأمّة على رغم من قللها .

فأقول : ولد إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالأهواز . و قيل : ببابل ، و هي في العراق . وكان نمروذ عاملاً على سواد العراق و ما اتصل به للضحاك الملك المشهور في الفرس . و قيل : كان ملكًا مستقلاًّ برأسه . فأخذ إبراهيم عليه الصلاة والسلام و رماه في نار عظيمة سنة ثمان و ستين و ثلاثمائة و ثلاثة آلاف من هبوط آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة . فكانت النار عليه بردًا و سلامًا . و في تاريخ القدس : كان ذلك سنة ٣٣٣٩ من الهبوط . و فيها هاجر إبراهيم عليه الصلاة والسلام من بابل إلى فلسطين .

و في تقويم التواريخ : كانت هجرته ٣٣٩٣ من الهبوط . و في هذه السنة كان خروج بعض القبائل على الضحاك و عزله عن المملكة و سلطنة أفريدون الفارسي . و كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام في آخر أيّام بيوراسب المسمّى بالضحاك ، وفي أوّل ملك أفريدون . وكان بناء الكعبة المكرّمة على يديه في سنة ٣٤٢٣ من الهبوط . و فيها ولادة إسحاق عليه الصلاة والسلام . و كانت ولادة إسماعيل عليه الصلاة والسلام قبل هذا بأربعة عشر عامًّا .

ثم أقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام و من آمن معه بحران مدة . ثم سار إلى مصر و صاحب مصر فرعون و وهبه هاجرة . ثم سار من مصر إلى الشام و أقام بين الرملة و إيليا . و ولدت له هاجرة إسماعيل . و معناه بالعبراني مطيع الله . فحزنت سارة لذلك ، فوهبها الله إسحاق عليه الصلاة والسلام . و ماتت هاجرة بمكة . و عاش إسماعيل عليه الصلاة والسلام مائة و سبعًا و ثلاثين سنة . و مات بمكة . و دفن عند قبر أمّه هاجرة بالحجر .

و كانت وفاته بعد وفاة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بثمان و أربعين سنة . و المدة بالتقريب بين إبراهيم عليه الصلاة والسلام و بين الهجرة ألفان و سبعمائة و ثلاث و تسعين سنة . و كانت ولادة يعقوب عليه الصلاة والسلام سنة ٣٤٩٨ من الهبوط . و توفّي إبراهيم عليه الصلاة والسلام سنة ٣٤٩٨ من الهبوط . و ولد إبراهيم عليه الصلاة والسلام لمضي ألف و إحدى و ثمانين سنة للطوفان و سنة ثلاث و عشرين و ثلاثمائة و ثلاثة آلاف من هبوط آدم عليه الصلاة والسلام .

و من الغريب الواقع في التوراة أن عمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان يوم وفاة نوح عليه الصلاة والسلام ثلاثا و خمسين سنة . فيكون لقي نوحًا عليه الصلاة والسلام و خالطه . و يؤيد ذلك ما في بعض كتب التاريخ : أنّ الفرس و الهند يزعمون أنّ أفريدون الملك في آبائهم هو نوح عليه الصلاة والسلام ، و أنّه بعث إلى الضحاك .

و قد تقدّم أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في آخر زمن الضحاك و أوّل سلطنة أفريدون . و قالوا : إنّ

الضحاك ملك نحو ألف سنة . كذا في لقطة العجلان و تقويم التواريخ .

قلت : ظهر من هذا الكلام قولان في المدة التي بين إبراهيم و هجرة نبينا صلى الله عليهما وسلم :

الأوّل : أنّها ٢٧٩٣ سنة .

و الثاني : بناءً على ما نقلنا من بعض نسخ التوارة ٣٥٧١ سنة .

وذلك لما اتفق صاحب تاريخ القدس و صاحب تقويم التواريخ أنّ ولادة نبينا ﷺ كانت في سنة ثلاث و ستين و مائة و ستة آلاف ٦١٦٣ من هبوط آدم عليه الصلاة والسلام .

و ولد نوح بعد مضى ألف و ستمائة و اثنتين و أربعين سنة من الهبوط . وكان الطوفان على ما في لقطة العجلان و تقويم التواريخ و غير ذلك حين كان عمر نوح عليه الصلاة والسلام ستمائة سنة ، و عاش تسعمائة و خمسين سنة على ما في القرآن . و هنا أقوال أخر تركناها .

فوفاة نوح عليه الصلاة والسلام كان بعد مضي ٢٥٩٢ من الهبوط . و قد تقدّم ما نقلنا من التوراة أنّ عمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان حين وفاة نوح عليه الصلاة والسلام ثلاثًا و خمسين سنة . و إذا أخرج ٥٣ من ٩٥٠ أي من سني عمر نوح عليه الصلاة والسلام تبقى ٨٩٧ .

فثبت أنّ ولادة إبراهيم عليه الصلاة والسلام كانت حين كان عمر نوح عليه الصلاة والسلام ٨٩٧ سنة ، و حين مضي ٢٥٣٩ سنة من هبوط آدم عليه الصلاة والسلام . و كانت ولادة نبينا ﷺ سنة ٦١٦٣ من الهبوط كما تقدم . فإذا أخرجت ٢٥٣٩ من ٦١٦٣ تبقى ٣٦٢٤ .

فظهر أنّ المدة بين ولادة نبينا و إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ٣٦٢٤ سنة ، و بإخراج ٥٣ أي إخراج سني ما قبل الهجرة من ذلك تكون ٣٥٧١ . فهذه هي المدة بين إبراهيم و الهجرة .

قال الشيخ رفيع الدين بن أحمد ولي الله المحدث الدهلوي رحمه الله تعالى : لا يخفى أنّ هذه السنين سنون شمسيّة ، و السنون المأخوذة من مولد النبي ﷺ قمرية ، و جمعها في الحساب لا يخلو من مسامحة ، بل المناسب إمّا إرجاع ما بعد المولد إلى الشمسيّة أو إرجاع ما قبله إلى القمريّة .

فاعلم : أنّ من هبوط آدم عليه الصلاة والسلام إلى المولد الشريف إذا أخذت قمريّة صارت ستة آلاف

و ثلاثمائة و إحدى و خمسون سنة قمريّة و مائتان و تسعة و عشرون يومًا . و هو قريب من سبعة أشهر . و من المولد الشريف إلى آخر سنة من الهجرة ثلاث و خمسون و ألف و مائتان (هذه سنة كتابة الشيخ هذا البحث) . فمن هبوط آدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى آخر تلك السنة سبعة آلاف و ستمائة و أربع و ستون سنة قمريّة و أشهر بضع . (اعلم : أنّ هذا الحساب إلى سنة كتابة الشيخ رفيع الدين البحث ، و هي سنة ١٢٥٣هـ . و أمّا حساب زماننا فنحن الآن في شهر ربيع الأوّل من سنة ١٣٩٥هـ ، فمن الهبوط إلى آخر هذه السنة ٧٧٤٦ سنة ، أي سبعة آلاف و سبعمائة و ستّ و أربعون سنة) .

و أيضًا فمن المولد الشريف إلى آخر السنة المذكورة ١٢٥٣هـ ألف و مائتان و ثمانية عشر سنة شمسيّة و ستون يومًا بالتقريب ، وهو قريب من شهرين . فمن هبوط آدم إلى آخر السنة المذكورة سبعة آلاف و ثلاثمائة و إحدى و سبعون سنة شمسية . فاحفظ فإنّ جمهور أهل التاريخ و منهم صاحب تاريخ القدس و الخليل و تقويم التواريخ قد خلطوا الأمر و غفلوا عن التمييز . والله الهادي . انتهى .

و هنا أقوال كثيرة غير ما ذكرنا . قال الطبري وغيره : فجميع سني العالم من آدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى الهجرة على ما يزعمه اليهود أربعة آلاف سنة و ستمائة و اثنتان و أربعون سنة ، و على ما يدعيه النصارى في توراة اليونانيّين ستة آلاف سنة غير ثمان سنين ، و على ما يقوله الفرس إلى مقتل يزدجرد أربعة آلاف و مائة و ثمانون سنة ، و مقتل يزدجرد عندهم لثلاثين من الهجرة .

و أمّا عند أهل الإسلام فبين آدم و نوح عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عشرة قرون ، و القرن مائة سنة ، و بين نوح و إبراهيم عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كذلك ، و بين إبراهيم و موسى عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كذلك . و نقله الطبري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا و محمد بن عمرو بن واقد عن جماعة من أهل العلم ، و قال : إنّ الفترة بين عيسى و بين محمد صلى الله عليهما وسلم ستمائة سنة . و رواه عن سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ و كعب الأحبار . قال ابن خلدون : والله أعلم بالحق في ذلك . و البقاء لله الواحد القهار .

و قال ابن قتيبة الدينوري المتوفّى ٢٧٦هـ في كتابه المعارف ص٢٦ : قال وهب : و عاش آدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ألف سنة . و في التوراة : ألف سنة إلّا سبعين سنة . و كان بين آدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ و الطوفان ألفا سنة و مائتا سنة و اثنتان و أربعون سنة ، و بين الطوفان و بين وفاة نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ثلاثمائة و خمسون

سنة ، و بين نوح و إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ألفا سنة و مائتا سنة و أربعون سنة ، و بين إبراهيم و موسى عليهما الصلاة والسلام سبعمائة عام ، و بين موسى و داود عليهما الصلاة والسلام خمسمائة عام ، و بين داود و عيسى عليهما الصلاة والسلام ألف سنة و مائتا سنة ، و بين عيسى و محمد صلى الله عليهما وسلّم ستمائة سنة و عشرون عامًا . فهذا تاريخ على رواية وهب ابن منبه . انتهى .

فعلى هذا المدة بين إبراهيم و نبيّنا صلى الله عليهما وسلّم ٣٠٢٠ سنة .

و قال المؤرخ ابن الكلبي ناقلاً عن ابن عباس رضي الله عنهما : كان من آدم إلى نوح ألفا سنة و مائتا سنة ، و من نوح إلى إبراهيم ألف و مائة و ثلاث و أربعون سنة ، و يقال : ألف و مائة و اثنتان و أربعون سنة ، و من إبراهيم إلى موسى خمسمائة و خمس و سبعون سنة ، و يقال : و خمس و ستون سنة ، و من موسى إلى داود خمسمائة و تسعون سنة ، و يقال : تسع و سبعون سنة ، و من داود إلى عيسى ألف و ثلاث و خمسون سنة ، و من عيسى إلى محمد صلى الله عليه و على جميع الأنبياء ستمائة سنة . انتهى . كذا في المحبر للعلامة الأخباري محمد بن حبيب . فعلى هذا القول يكون المدة بين إبراهيم و نبينا عليهما الصلاة والسلام ٢٨١٨ سنة .

و قال المؤرخ الشهير السيد سليمان الندوي رحمه الله تعالى في كتابه " أرض القرآن " ما حاصل جمع المتفرقات : أنّ زمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام متقدّم على مولد عيسى عليه الصلاة والسلام بنحو ألفين و أربعمائة سنة ، و أدرك زمان الملك حورابي من الملوك السامية الذي ملك بابل خمسا و خمسين سنة من سنة ٢٣٤٢ إلى ٢٢٨٨ قبل مولد عيسى عليه الصلاة والسلام .

فإذا جمعت ٢٤٠٠ مع سني ميلاد عيسى عليه الصلاة والسلام إلى آخر سنة تحريرنا هذا البحث و هي ١٩٧٥م و الشهر مايو كان الحاصل ٤٣٧٥ سنة من زمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى هذا الوقت .

و الثابت عند أهل التحقيقات الجديدة المعولة أنّ النبي صلى الله عليه وسلم ولد يوم الاثنين في سنة ٥٦٩م ، أي بعد مضي نحو خمسمائة و تسع و ستين سنة من ميلاد عيسى عليه الصلاة والسلام . فعلى هذا كانت المدّة بين إبراهيم و نبينا صلى الله عليهما وسلّم نحو ٢٩٦٩ سنة .

هذا . و قد سنح ما نمقنا عدّة أقوال في المدّة التي هي بين إبراهيم و نبينا عليهما الصلاة والسلام :

الأوّل : أنّها ٢٧٩٣ سنة .

و الثاني : أنّها ٣٦٢٤ سنة .

و الثالث : أنّها ٣٠٢٠ سنة .

و الرابع : أنّها ٢٨١٨ سنة .

و الخامس : أنّها ٢٩٦٩ سنة .

و كلّ ذلك مدّة مديدة . نرجو ببركة هذه الصلاة المباركة أن لا تقلّ مدّة هذه الأمّة منها ، و أن يمنّ الله علينا بالمزيد عليها ، و أن لا تقوم القيامة قبل تمام هذه المدة .

فصل

للتشبيه في الكمّيّة بأنواعها الخمسة شواهد كثيرة :

منها : ما أخرجه الشافعي رحمه الله في رسالته ص١٤٦ : نهى رسول الله ﷺ عن بيع التمر بالتمر إلّا مثلاً بمثل . المراد : المثليّة في المقدار و الكمّيّة باعتبار الوزن .

ومنها : حديث أشراط الساعة . أخرجه الترمذي في باب فتنة الدجال عن النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه قال : ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة . و فيه : قلنا : يا رسول الله ! و ما لبثه في الأرض ؟ قال : أربعين يومًا ، يوم كسنة و يوم كشهر و يوم كجمعة و سائر أيامه كأيامكم .

هذه التشبيهات الأربعة في الكمّ باعتبار طول الزمان . و لابدّ في مثل ذلك من التساوي بين المشبّه و المشبّه به زمانًا . أي يوم من أيامه يساوي سنةً ، و يوم يساوي شهرًا ، و يوم يساوي جمعة ، و ما سوى ذلك يساوي أيامكم .

ثم في هذا الحديث : و يأمر الأرض أن تنبت فتنبت فتروح عليهم سارحتهم كأطول ما كانت ذُرًى و أمدّه خواصرَ و أدرّه ضُرُوعًا .

فالتشبيه في قوله عليه الصلاة والسلام "كأطول ما " و في قوله " و أمدّه " في نفس المقدار ، و في قوله عليه الصلاة والسلام

" و أدره ضروعًا " يمكن أن يكون باعتبار الوزن ، أي وزن اللبن في الضروع .

ومنها : ما أخرجه الترمذي رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من قال : سبحان الله العظيم و بحمده مائة مرة غفرت له ذنوبه و إن كانت مثل زبد البحر .

المراد من قوله " مثل زبد البحر " المثليّة و المساواة في نفس المقدار . و يمكن أن يراد به الوزن . و الله أعلم .

ومنها : ما أخرجه الترمذي رحمه الله تعالى عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما على الأرض أحد يقول " لا إله إلاّ الله و الله أكبر و لاحول ولا قوة إلاّ بالله " إلاّ كفّرت عنه خطاياه ولو كانت بمثل زبد البحر .

ومنها : ما أخرجه الترمذي رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللّهم إنّ إبراهيم عبدك و خليلك و نبيك و أنا عبدك و نبيك ، و إنّه دعاك لمكّة و أنا أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك به لمكّة و مثله معه . المطلوب بقوله عليه الصلاة والسلام " بمثل ما " مقدار البركات الحاصلة لمكّة بدعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام بدليل دخول الباء عليه و بدليل قوله " و مثله معه ". أي أنا أدعوك للمدينة ضعف ما دعاك إبراهيم عليه الصلاة والسلام لمكة .

ومنها : ما أخرج الترمذي رحمه الله تعالى عن صفيّة رضي الله عنها تقول : دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم و بين يديّ أربعة آلاف نواة أسبّح بها . فقال : سبّحت بهذه . ألا أعلّمكِ بأكثر ما سبحت به ؟ فقلت : علّمني . فقال : قولي "سبحان الله عدد خلقه" أي مثل عدد خلقه .

ومنها : ما أخرج الترمذي رحمه الله تعالى عن جويرية رضي الله عنها : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها : ألا أعلّمكِ كلمات تقولينها " سبحان الله عددَ خلقِه ، سبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله رِضَى نفسِه ، سبحان الله رضى نفسه ، سبحان الله رضى نفسه ، سبحان الله زِنَة عرشِه ، سبحان الله زنةَ عرشه ، سبحان الله زنَة عرشه ، سبحان الله مدادَ كلماته ، سبحان الله مداد كلماته ، سبحان الله مداد كلماته " .

فقوله عليه الصلاة والسلام " عدد خلقه " أي مثل عدد خلقه تشبيه في الكم باعتبار العدد ، و في قوله " زنة عرشه " تشبيه باعتبار الوزن ، و في قوله " مداد كلماته " أي مثل قدر مدادها تشبيه باعتبار نفس

المقدار بدون اعتبار الوزن و العدد .

ومنها : ما أخرج مسلم عن جويرية رضي الله عنها : أنّ النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلّى الصبح و هي في مسجدها . ثم رجع بعد أن أضحى و هي جالسة . فقال : ما زلت على الحال التي فارقتك عليها ؟ قالت : نعم . قال النبي ﷺ : لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات . لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن " سبحان الله و بحمده عددَ خلقِه و رِضى نفسِه و زنة عرشه و مداد كلماته " .

ومنها : ما روى ابن عمر رضي الله عنهما في صفة الدجال مرفوعًا : ألا و إنّه أعور عينه اليمنى كأنّها عنبة طافية . أخرجه الترمذي وغيره . إشارة إلى مقدار طفو عينه و ارتفاعها على وجهه .

ومنها : لا يبعد أن يكون من هذا القبيل ما روى أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : بعثت أنا و الساعة كهاتين . و أشار بالسبابة و الوسطى . فما فضل إحداهما على الأخرى .

و عن المستورد بن شداد الفهروي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : بعثت أنا في نفس الساعة ، فسبقتها كما سبقت هذه هذه لإصبعيه السبابة و الوسطى .

ومنها : ما رواه عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : الذهب بالذهب مثلاً بمثل ، و الفضّة بالفضّة مثلاً بمثل ، و التمر بالتمر مثلاً بمثل ، و البر بالبر مثلاً بمثل ، و الملح بالملح مثلاً بمثل ، و الشعير بالشعير مثلاً بمثل . فمن زاد و ازداد فقد أربى . أخرجه الترمذي .

المراد من المثليّة في الذهب و الفضة المثليّة باعتبار الوزن لكونهما من الموزونات ، و فيما سواهما المثليّة باعتبار المقدار أي الكيل .

ومنها : ما رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا : إنّما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر ثم ماتوا عليها . ثم ذكر مكثهم في النار مختلفًا على اختلاف الجرائم و خروجهم منها بالشفاعة . و فيه : و منهم من يمكث فيها شهرًا ثم يخرج . و أطولهم مكثًا فيها مثل الدنيا منذ يوم خلقت إلى يوم أفنيت ، و ذلك سبعة آلاف سنة . الحديث .

فالتشبيه في قوله عليه الصلاة والسلام " مثل الدنيا " في الكم باعتبار طول الزمان . ثم بيّن ذلك الزمان بعده

بقوله : و ذلك سبعة آلاف سنة .

ومنها : ما ورد في الحديث : من بنى لله مسجدًا ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتًا مثله في الجنة .

و روى ابن ماجه عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : من بنى لله مسجدًا كمفحص قطاة أو أصغر بنى الله له بيتًا في الجنة .

التشبيه في قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ " ولو كمفحص قطاة " في الكم باعتبار المقدار ، ولذا يستشكل هذا الحديث ، فإنّ المفحص لا يغني شيئًا ، ولا يتمكّن الإنسان أن يسكن فيه و يصلّي فيه . و ذكروا في حلّه وجوهًا كثيرة ، شكر الله مساعيهم : منها أنّه محمول على المبالغة . و منها أنّه في حق من يزيد في المسجد عند الحاجة بهذا القدر . و منها أنّه محمول على أن يشترك جماعة في بناء المسجد الكبير ، فيقع في حصة كلّ واحد منهم ذلك القدر . و منها أنّه محمول على المسجد بمعنى موضع السجود .

ومنها : قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن . أخرجه الترمذي عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

ليس المراد المثليّة في الكيف كرفع الصوت و الترسل و صرف الوجه في الحيعلتين يمينًا و شمالاً ، فإنّ ذلك إنّما يسنّ للمؤذن فقط دون المجيب . بل المراد المثلية في مقدار الكلمات . وإن شئت فقل : في الكلمات و عددها . و لذلك وقع استثناء الحيعلتين في بعض الروايات .

ومنها : حديث أبعاد السماوات . و فيه : ثم قال : فوق السماء السابعة بحر ، بين أعلاه و أسفله كما بين السماء إلى السماء ، و فوق ذلك ثمانية أوعال ، بين أظلافهن و ركبهن مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم فوق ظهورهن العرش ، بين أسفله و أعلاه مثل ما بين السماء إلى السماء . أخرجه الترمذي عن العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا .

هذه التشبيهات الثلاثة في المقدار و تفيد المساواة .

ومنها : ما أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أتيت ليلة أسري بي على قوم بطونهم كالبيوت ، فيها الحيات تجري من خارج بطونهم . فقلت : مَن هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هؤلاء أكلة الربا . التشبيه في قوله "كالبيوت " من جهة المقدار .

ومنها : ما في الأثر : عدل يوم كعبادة أربعين سنة . الظاهر أنّ التشبيه في المقدار و العدد ، أي مقدار ثواب هذا كمقدار ثواب ذاك .

ومنها : حديث أشراط الساعة في إهلاك الله ليأجوج و مأجوج . و فيه : فيرغب نبي الله عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ و أصحابه إلى الله ، فيرسل الله طيرًا كأعناق البُخت ، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله تعالى ، ثم يرسل الله مطرًا لا يكنّ منه بيتُ مدرٍ ولا وبرٍ ، فيغسل الأرضَ حتى يتركها كالزّلَفَة . أخرجه مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . فقوله "كالزلفة " التشبيه فيه في الكيف . و قوله "كأعناق البخت " وقع التشبيه فيه من جهة الكم و المقدار .

ومنها : قوله تعالى : وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ . أي مثل السماوات في العدد . فالأراضي سبع كما أن السماوات سبع . فالتشبيه في الكم و العدد .

ومنها : قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنّ الرجل من أمتي ليبلغ وزن الحرف الواحد من تسبيحه زنة أحد . ذكره الحكيم الترمذي في نوادره . قوله " زنة أحد " أي كزنة أحد ، أو مثل أحد ، لبيان الوزن .

ومنها : ما أخرج البخاري و مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : من تصدّق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلّا طيبًا ، فإنّ الله تعالى يقبلها بيمينه ، ثم يربّيها لصاحبها كما يربّي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل .

فقوله " كما يربّي " تشبيه في الكيف . و قوله " مثل الجبل " تشبيه في الكم ، أي كالجبل في المقدار ظاهرًا ، أو كالجبل في الميزان ثقلًا .

ومنها : ما روى الطحاوي عن أبي العالية قال : علمنا أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوتر مثل صلاة المغرب . هذا وتر الليل ، و هذا وتر النهار .

فقوله " مثل صلاة المغرب " لبيان الكم ، أي عدد الركعات . ولذا احتجّ به الأحناف على أن الوتر ثلاث ركعات بتسليمة واحدة .

ومنها : ما روى ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا : وتر الليل ثلاث كوتر النهار صلاة المغرب . أخرجه الدارقطني و البيهقي .

ومنها : ما روى الأعمش بسنده : أنّ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كره أن يصلّي بعد صلاة مثلها . كما في العمدة للعيني . و روي مثله مرفوعًا . فالتشبيه في قوله " مثلها " محمول على الكم عند أبي يوسف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ ، و تمسك به على مذهبه وهو أنّ المصلّي بعد صلاة الجمعة يصلّي أوّلًا أربع ركعات ثم ركعتين ، على خلاف ما روي عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، حيث قال عطاء : صلّيت مع ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الجمعة . فلما سلّم قام فركع ركعتين ، ثم صلّى أربعًا ، ثم انصرف . أخرجه أبو اسحاق .

ومنها : ما أخرج الترمذي في الجامع عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : إنّ جبريل هبط عليه فقال له : خيرهم يعني أصحابك في أسارى بدر القتل أو الفداء على أن يقتل منهم قابلًا مثلهم . قالوا : الفداء و يقتل منّا . فالتشبيه في قوله " قابلًا مثلهم " في العدد . و كان الأسارى سبعين رجلًا . فقتل من المسلمين يوم أحد هذا العدد بدل ما أخذوا الفداء مقرّين بذلك .

فصل

اعلم : أنّه بعد ما علم في بحث التشبيه باعتبار الكم الإشارة إلى طول مدة هذه الأمّة ، ناسب البحث عن وقت قيام القيامة . فأقول و على الله التكلان : المسلك المختار عند الجمهور أنّ أمر الساعة مجهول ، و رداء الخفاء عليه مسدول ، لا يعلم في أيّ قرن و أيّة ألف تقوم .

و قال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ : إنّ الألف الثانية مخضرمة ، أي نصفها من الدنيا و نصفها الآخر من الآخرة . و صنّف في ذلك رسالة سماها " الكشف عن مجاوزة هذه الأمّة الألف ". و قد طالعتها و هذه خلاصة ما فيها .

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ **:** الذي دلت عليه الآثار أنّ مدّة هذه الأمّة تزيد على ألف سنة ، ولا تبلغ الزيادة خمسمائة ، لأنّه ورد من طرق أنّ مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، و أنّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث في آخر الألف السادسة ، و ورد أنّ الدجال يخرج على رأس مائة سنة ، و ينزل عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيقتله ، ثم يمكث في

الأرض أربعين سنة ، و الناس يمكثون بعد طلوع الشمس من مغربها مائة و عشرين سنة ، و أن بين النفختين أربعين سنة . فهذه مائتا سنة لابدّ منها .

ذكر ما ورد في أنّ الدنيا سبعة آلاف سنة و أنّ النبي ﷺ بعث في آخر الألف السادسة

أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا : إنّما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر ثم ماتوا عليها . فهم في الباب الأوّل من جهنم ، لا تسود وجوههم ، ولا تزرق أعينهم ، لايغلون بالأغلال ، ولا يقرنون مع الشياطين ، ولا يضربون بالمقامع ، ولا يطرحون في الإدراك . فمنهم من يمكث فيها ساعة ثم يخرج ، و منهم من يمكث فيها شهرًا ثم يخرج ، و منهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج . و أطولهم مكثًا فيها من يمكث فيها مثل الدنيا منذ يوم خلقت إلى يوم أفنيت ، و ذلك سبعة آلاف سنة . و ذكر بقية الحديث .

و أخرج ابن عساكر عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا : من قضى لأخيه المسلم حاجة في الله تعالى كتب الله له عمر الدنيا سبعة آلاف سنة ، صيام نهارها و قيام ليلها .

و أخرج الطبراني عن الضحاك بن رمل الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : رأيت رؤيا فقصصتها على رسول الله ﷺ ، فذكر الحديث . و فيه : فإذا أنا بك يا رسول الله على منبر فيه سبع درجات ، و أنت في أعلاها درجة . فقال رسول الله ﷺ : و أمّا المنبر الذي رأيت فيه سبع درجات و أنا في أعلاها درجة ، فالدنيا سبعة آلاف سنة و أنا في آخرها ألفًا آخر ألفها . ثم ذكر حديثًا عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا موقوفًا من طرق صحاح مثل ذلك .

ثم قال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : و قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ " و أنا في آخرها ألفًا " أي معظم المدّة في الألف

السابعة ليطابق ما سيأتي من أنه بعث في أواخر الألف السادسة .

ذكر ما ورد أن الدجال يخرج على رأس مائة و أنّ عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يمكث بعد النزول في الأرض أربعين سنة

أخرج ابن أبي حاتم في التفسير عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : ما كان منذ كانت الدنيا رأس مائة سنة إلّا كان عن رأس المائة أمر . فإذا كان رأس مائة يخرج الدجال ، و ينزل عيسى ابن مريم فيقتله .

و أخرج الطبراني عن عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : تمكث الناس بعد الدجال أربعين سنة . تعمر الأسواق و تغرس النخال .

و أخرج الطبراني عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا : ينزل عيسى ابن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيمكث في الناس أربعين عامًّا .

و أخرج أحمد في مسنده عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مرفوعًا : يخرج الدجال فينزل عيسى ابن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيقتله . ثم يمكث في الأرض أربعين سنة إمامًا عادلًا و حكمًا مقسطًا .

و أخرج أحمد عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا : يمكث عيسى ابن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الأرض أربعين سنة . لو يقول للبطحاء " سيلي عسلًا " لسالت .

و أخرج الشيخ أبو الفتح في كتاب الفتن عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ينزل عيسى ابن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيقتل الدجال ، فيمكث في الأرض أربعين عامًّا ، فيعمل فيهم بكتاب الله و سنتي و يموت . فيستخلفون بأمر عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رجلًا من بني تمام يقال له المقعد . فإذا مات المقعد لم يأت على الناس ثلاث سنين حتى يرفع القرآن من صدور الرجال و مصاحفهم .

و أخرج مسلم و الحاكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا : يخرج الدجال فيمكث في أمّتي أربعين يومًا ، ثم يبعث الله عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيطلبه حتى يهلكه . ثم يبقى الناس بعده سبع سنين ليس بين اثنين عداوة . الحديث .

ذكر مدة مكث الناس بعد طلوع الشمس من مغربها

أخرج ابن أبي شيبة في المصنّف عن الهيثم بن الأسود قال : خرجت وافدًا في زمان معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فإذا عنده عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا . فقال لي عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : من أنت ؟ فقلت : من أهل العراق . قال : هل تعرف أرضًا فيكم كثيرة السباخ يقال لها "كوثى" ؟ قلت : نعم . قال : يخرج منها الدجال . ثم قال : يبقى الأشرار بعد الأخيار عشرين و مائة سنة لا يدري أحد من الناس متى يدخل أوّلها .

و أخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال : يمكث الناس بعد طلوع الشمس من مغربها عشرين و مائة سنة . و أخرج نعيم بن حماد في الفتن مثله .

و أخرج نعيم بن حماد عن كعب قال : إذا انصرف عيسى ابن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ و المؤمنون من يأجوج و مأجوج لبثوا سنوات ، رأوا كهيئة الهرج و الغبار ، فإذا هي ريح قد بعث الله لقبض أرواح المؤمنين . فتلك آخر عصابة تقبض من المؤمنين . و يبقى الناس بعدهم مائة عام ، لا يعرفون دينًا ولا سنّةً ، يتهارجون تهارج الحمر ، عليهم تقوم الساعة .

ذكر مدة ما بين النفختين

أخرج البخاري و مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا : بين النفختين أربعون عامًّا . وأخرج ابن

أبي داود و ابن مردويه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مثله . و أخرج ابن المبارك في الزهد عن الحسن قال : بين النفختين أربعون سنة . الأولى يميت الله بها كلّ حيّ ، و الأخرى يحيي الله بها كلّ ميّت .

و في كتاب العلل لأحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ : عن وهب يقول : قد خلا من الدنيا خمسة آلاف سنة و ستمائة سنة . إنّي لأعرف كلّ زمان منها ما كان فيه من الملوك و الأنبياء . و هذا يدلّ على أن مدّة هذه الأمّة تزيد على الألف بنحو أربعمائة سنة تقريبًا .

انتهت خلاصة رسالة السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ .

و في بهجة الناظرين و آيات المستدلّين : قد احتجّ كثير من العلماء على تعيين قرب زمانها بأحاديث لا تخلو عن نظر . و أفرد الحافظ السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ رسالة . و قال : تقوم الساعة في نحو الألف و الخمسمائة . و كلّ ذلك مردود . و ليس للمتكلّمين في ذلك إلّا ظن و حسبان . لا يقوم عليه من الوحي برهان . انتهى . و قد ردّ على السيوطي العلامة السفاريني في البحور الزاخرة في علوم الآخرة ، و ضعّف الأحاديث التي تمسك بها .

قلت : ما كان لمثل الحافظ السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ على جلالة مقامه العلميّ أن يدخل في المغيبات التي هي من مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلّا الله تعالى . وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها بعد ما سأله عنها جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ : ما المسؤول عنه أعلم من السائل .

و قد يرد عليه بأنّه قد مضى من الهجرة إلى يومنا هذا نحو ألف و ثلاثمائة و خمس و تسعين سنة ، و إلى الآن لم تطلع الشمس من مغربها ، و لا خرج الدجال الذي خروجه قبل طلوعها من مغربها بعدة سنين ، ولا ظهر المهدي الذي ظهوره قبل الدجال بسبع سنين ، ولا وقعت الأشراط التي قبل ظهور المهدي .

فلو ظهر المهدي اليوم لم يمكن أن تقوم القيامة إلّا بعد مائتي سنة حسب حساب السيوطي ، أي في القرن السابع عشر .

و حكي عن بعض الفلاسفة أنّه خلق هذا العالم الذي نحن فيه وهو عالم الكون و الفساد و الطالع السنبلة و يدثر عن مضي ثمان و سبعين ألف سنة . و ذلك عنه مضي مدة سلطان كلّ من

البروج الاثني عشر ، و وصول الأمر إلى برج الميزان . و زعموا أنّ مدة سلطان الحمل اثنا عشر ألف سنة ، و مدة سلطان الثور أقلّ بألف ، و هكذا إلى الحوت .

و هذا جدول مدة سلطان كلّ برج .

حمل	١٢٠٠٠	أسد	٨٠٠٠	قوس	٤٠٠٠
ثور	١١٠٠٠	سنبله	٧٠٠٠	جدي	٣٠٠٠
جوزاء	١٠٠٠٠	ميزان	٦٠٠٠	دلو	٢٠٠٠
سرطان	٩٠٠٠	عقرب	٥٠٠٠	حوت	١٠٠٠

ولا يخفى أن هذا القول مما لا اعتبار له .

و زعم بعضهم أنّ مدة العالم مقدار قطع الكواكب الثابتة لدرج الفلك التي هي ثلاثمائة و ستون درجة ، و قطع الثوابت لكلّ درجة على قول بطلميوس في مائة سنة ، و لكلّ برج في ثلاث آلاف سنة ، و تتمّ الدورة في ست و ثلاثين ألف سنة . فهذه مدة بقاء العالم .

و عند قوم من المحقّقين كابن الأعلم وغيره تقطع الثوابت في كلّ سبعين سنة شمسية جزءً واحدًا ، و تتمّ الدورة في خمس و عشرين ألف سنة و مائتي سنة .

و قال محي الدين المغربي : تقطع جزءً واحدًا في ست و ستين سنة ، و تتمّ الدورة في ثلاث و عشرين ألف سنة و سبعمائة و ستين سنة .

و كلّ ذلك خبط ، إذ لا تعلق له بقيام الساعة .

و من العجائب و الأضاحيك ما قال بعض الإسلاميّين : إنّ الساعة تقوم بعد ألف و أربعمائة و سبع سنين ، أخذًا من قوله تعالى " فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً " و قوله سبحانه " لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةً " بناءً على أنّ عدة حروف " بغتة " بالجمل الكبير ألف و أربعمائة و سبع . انتهى .

ثم لقائل أن يقول : هي ألف و ثمانمائة و اثنان بحسب أنّ عدد تاء التانيث أربعمائة لا خمسة ،

فإنّه رأي بعض أهل الحساب كما في فتاوى خير الدين الرملي . و أنت تعلم أنّ مثل هذا مما لا ينبغي لعامل أن يعوّل عليه أو يلتفت إليه .

و قال المقدسي في كتابه " البدء و التاريخ " : روي في الخبر : أنّ الله وضع الدنيا على سبعة أيام من أيام الآخرة ، كلّ يوم ألف سنة . و روي ثمانية أيام . و روي ستة أيّام . و روي خمسون يومًا . و روي مائة ألف سنة و خمسون ألف سنة . هذا ما رواه المسلمون . و أمّا اختلاف أهل الأرض في سني العالم في الكثرة و القلّة و كمية ما يقع فيه من الاجتماعات و القرانات فشيء يطول وصفه .

وقد ذكر ابن عبد الله القسري في كتاب القرانات قول خمس فرق : أوّلهم السند و الهند الذين ادّعوا أنّ أصل كلّ فرقة مأخوذ من أصلهم ، و أنّ عدد سني عالمهم و أدوارهم أربعة ألف ألف ألف و ثلاثمائة و عشرون ألف ألف سنة .

و الصنف الثاني : أصحاب الأرجبهز ، جعلوا سني عالمهم أربعمائة ألف و اثنين و ثلاثين ألف سنة . و سنو هذه الفرقة جزء من عشرة ألف جزء من السند و الهند .

و الصنف الرابع : (هكذا في النسخة المطبوعة ، فانظر أين الصنف الثالث) أهل الصين ، جعلوا سني عالمهم مائة و خمسة و سبعين ربوة و ثلث ربوة و نصف عشر ربوة ، كلّ ربوة عشرة آلاف سنة ، يكون سني المدار ألف ألف و سبعمائة ألف و ثلاثون ألفًا و ثماني مائة و ثلاثًا و ثلاثين سنة و أربعة أشهر .

و الصنف الخامس : الفرس و أهل بابل و كثير من الهند و الصين معهم ، جعلوا سني عالمهم ثلاثمائة و ستين ألف سنة .

و هذه السنون مناسبة لدرج الفلك . و إذا قسمتها على عشرة خرج ستة و ثلاثون ألف سنة مقدار ما يقطع الكواكب الثابتة جميع الفلك . لأنّ الكواكب الثابتة يقطع كلّ برج في ثلاثة آلاف سنة .

قال : و وقع الطوفان في نصف سنة العالم في أوّل دقيقة من الحمل ، فعلمت العلماء عليه ، و جعلوا هذه السنة أصلاً محفوظًا عندهم ، و سموه سني الألوف المغيرة للزمان و الدهور و الأديان و الملل و الأحداث العظيمة في العالم من خراب و عمارة و زوال ملك على ما ذكره أفلاطن و أرسطاليس

و من قبلهما من اليونانيّين .

و يقال : إنّ هذه الأحداث لم يزل تأثيره قديمًا مذ أوّل خلق الله أيّام العالم إلى وقتنا هذا . إنّه كان قبل آدم أمم كثيرة و خلق و آثار و مساكن و عمارات و أديان و ملك و أملاك و خلائق على خلاف هذا الخلق في الطباع و الأخلاق و الكسب و المعاش و المعاملات . و إنّه كان قد يتصل العمارة في بعض المواضع ألوف فراسخ لا ينقطع مع مآكل عجيبة و لغات غريبة و طول القامات و صغرها و غير ذلك ما لا يدرى كيف كان . و إنّه قد أبادهم الطوفانات و الرجفات و الزلازل و الهدات و النيران و العواصف . ثم خلق الله آدم الذي انتشر منه أهل هذا العالم الذي نحن منه و فيه . انتهى ما قاله المقدسي بحروفه . والله أعلم بصحة ذلك . و نحن لا نؤمن إلّا بما ثبت في السنّة و وافقها . والله يعلم الغيب ، لايعلمه إلّا هو .

فصل

اعلم : أنّ ههنا إشكالًا لم أر من تعرّض له في حديث أخرجه الترمذي وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما : أنّ رسول الله ﷺ قال : إنّما أجلكم فيما خلا من الأمم كما بين صلاة العصر إلى مغارب الشمس . و إنّما مثلكم و مثل اليهود و النصارى كرجل استعمل عمّالًا فقال : من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط ، فعملت اليهود على قيراط قيراط . ثم قال : من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ، فعملت النصارى على قيراط قيراط . ثم أنتم تعملون من صلاة العصر إلى مغارب الشمس على قيراطين قيراطين ، فغضبت اليهود و النصارى ، قالوا : نحن أكثر عملًا و أقلّ عطاءً . فقال : هل ظلمتكم من حقّكم شيئًا ؟ قالوا : لا . قال : فإنّه فضلي أوتيه من أشاء . قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

تفصيل الإشكال : أنّ هذا الحديث بظاهره يدلّ على قلة عمر هذه الأمّة بالنسبة إلى عمر أمّة موسى و عيسى عليهما الصلاة والسلام . وقد صرّح كثير من العلماء بأنّ هذا مدلول هذا الحديث ، مع أنّ مدة بقاء هذه الأمّة إلى يومنا و هي سنة ١٣٩٥هـ زائدة على ما بين نبينا و عيسى عليه السلام من المدة و هي مدة النصارى و قريبة مما بين عيسى و موسى عليهما الصلاة والسلام و هي مدة اليهود ، كما تقدّم من تفصيل تواريخ ذلك .

و الجواب من وجوه :

الوجه الأوّل : ليس المراد التقابل بين مدة بقاء هذه الأمّة و مدة بقاء الأمم الماضية على الدين الواجب القبول حتى يرد ما يرد . بل المراد ، و الله أعلم بالحقيقة ، التقابل بين أعمار أفراد تلك الأمم و أعمار أفراد هذه الأمّة . و المعنى : إنّما أجلكم أي أجل كلّ شخص و عمر كلّ فرد منكم قصير كما قصر ما بين صلاة العصر إلى الغروب . و عمر كلّ فرد من الأمم السابقة كان طويلاً كما طال ما بين بدء النهار إلى صلاة العصر . و التفاوت بين الأعمار مثل التفاوت بين هذين الجزئين للنهار . و المقصود بيان الضابطة الأكثريّة لا الكلّيّة . وقد صرّح المؤرخون بطول أعمار من قبلنا من بني إسرائيل .

و أمّا أعمار هذه الأمّة فما بين ستين إلى سبعين سنة .

أخرج الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين . و أقلّهم من يجوز ذلك .

إن قلت : ما السرّ في إقصار الله تعالى أعمار أمّته عليه الصلاة والسلام ؟

قلت : الجواب الأسلم التوقف و التفويض إلى الله العالم بالأسرار . نعم ، جاز شرعًا للعلماء الخوض في إبداء أسرار الشريعة و لطائف حكم الله تعالى حسب فهمهم حفظًا للدين و تقويةً له و دفعًا لخدشات ناقصي العقل و الدين و ترغيبًا لهم في التسليم لأحكام الشرع و زيادةً في اطمينان الكاملين . فأقول : يظهر لي فيه أسرار متعددة :

السرّ الأوّل : ضعف هذه الأمّة باعتبار القوى البدنية الطبيعية بالنسبة إلى قوى الأمم المتقدّمة كما لا يخفى . و في حديث المعراج و تخفيف الصلوات : ثم احتبسه موسى عليه الصلاة والسلام عند الخمس فقال : يا محمد ! والله ، لقد راودت بني إسرائيل على أدنى من هذا فضعفوا و تركوه . فأمّتك أضعف أجسادًا و قلوبًا و أبدانًا و أبصارًا و أسماعًا . و فيه : فرفعه عند الخامسة فقال : يا ربّ ! إنّ أمّتي ضعفاء أجسادهم و قلوبهم و أسماعهم و أبدانهم فخفّف عنّا . الحديث . قال السيوطي رحمه الله تعالى : أخرجه البخاري و مسلم و ابن جرير و ابن مردويه عن أنس رضي الله عنه .

و السرّ الثاني : هذا من آثار قرب القيامة و علاماته ، حيث يقصر كلّ شيء عن حالته

الثابتة له في الماضي ، فتقصر الأعمار حسب هذا القانون الإلهي العامّ ، بل الأعمار هي الأزمان ، و عمر كلّ شخص هو زمان حياته . و جاء نصّ صريح بانزواء أطراف الزمان الطويل و صيرورته مثل أقصر زمان .

أخرج مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، و الترمذي عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان . فتكون السنة كالشهر ، و يكون الشهر كالجمعة ، و تكون الجمعة كاليوم ، و يكون اليوم كالساعة ، و تكون الساعة كالضرمة بالنار . و اللفظ للترمذي .

ثم تقارب الزمان هذا منتهى القصر . و المقصود كما قيل سلب الله بركة الزمان عنه عند قرب الساعة . و لي في شرح هذا الحديث وجه آخر لطيف بديع لا يسعه المقام .

ثم القصر نوعان : ظاهريّ و باطنيّ . و المتحقق في تقارب الزمان المطلق باطنيّ ، إذ يتعذر الظاهريّ كما لا يخفى . و في أعمار هذه الأمّة ظاهريّ حيث جعلها ما بين الستين إلى السبعين .

و ههنا حديث آخر مثل ذلك في أيام الدجال . أخرج ابن ماجه و ابن خزيمة و الحاكم و الضياء : أنّ أيّامه أربعون سنة . السنة كنصف السنة ، و السنة كالشهر ، و الشهر كالجمعة ، و آخر أيّامه كالشررة . يصبح أحدكم على باب المدينة فلا يبلغ بابها الآخر حتى يمسي . و هذا يحتمل القصر الظاهريّ و المعنويّ . والله أعلم .

و السرّ الثالث : قصر الله أعمار هذه الأمّة رحمةً عليهم بتعجيل إيصالهم إلى ما أعدّ لهم من قرّة أعين بعد الموت إن كانوا خيارًا ، و بتخلية الأرض و إراحة سكّانها عن شرورهم إن كانوا أشرارًا .

و هذا كما ورد في الجنازة . أخرج الترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يبلغ به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : أسرعوا بالجنازة ، فإن تك خيرًا تقدّموها إليه . وإن تك شرًّا تضعوه عن رقابكم . قال الترمذي : حسن صحيح . ففي الأعمار القصيرة أسرار لله سبحانه كثيرة .

قد قلتُ إذ مدحوا الحياةَ فأسرفوا　　　في الموتِ أَلفُ فضيلةٍ لا تُعْرَفُ
منها أمانُ لقائِه بلقَائِه　　　و فراقُ كلّ معاشرٍ لا يُنْصِفُ

و السرّ الرابع : قصر الأعمار يستلزم كثرة الأموات ، و كثرتها مذكرة للإنسان و واعظة لذوي الألباب و مرغبة في الآخرة . فالله سبحانه جعل لهذه الأمّة بقصر أعمارهم وعّاظًا من أنفسهم . ولذا قال الله : وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ . وهذه رحمة لا تدرك غايتها . قال الله تعالى : وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ . و لهذا كتب عمر الفاروق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ على خاتمه : كفى بالموت واعظًا يا عمر .

فقصر الحياة مؤنس بالله و بذكره ، موحش عن الدنيا و أهلها . نقل أبو نعيم في الحلية عن الجنيد بن محمد قال : سئل الحارث بن أسد : ما علامة الأنس بالله ؟ قال : التوحّش من الخلق . قيل له : فما علامة التوحش من الخلق ؟ قال : الفرار إلى مواطن الخلوات و التفرّد بعذوبة الذكر . كما قال بعض الحكماء في مناجاته : يا من آنسني بذكره و أوحشني من خلقه . و في قول الله لداود عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ : كن بي مستأنسًا و من سواي مستوحشًا . و قيل لبعض المتعبّدين : ما فعل فلان ؟ قال : أنس فتوحش .

و السرّ الخامس : لو كانت الأعمار طويلة لضاقت علينا الأرض بما رحبت . انظر إلى كثرة عدد بني نوع الإنسان في هذا العصر . فإنّهم حسب إعلان الجرائد في هذه السنة سنة ١٣٩٥هـ نحو أربعة بلايين . هذا على قصر الأعمار و كثرة الأموات . ولو كانت طويلة و تسلسلت لرجل ولادة الأولاد و أولاد الأولاد مع حياة جدّه و جدّ جدّه و تسلسل ولادة ولد الأجداد لضاق على نوع الإنسان الربع المسكون و أمكنته .

و صرّح علماء الهيئة القديمة و جغرافيا أنّ المعمور المسكون من الربع قدر قليل . و هو من حيث العرض الشماليّ اثنتا عشرة درجة و أربعون دقيقة إلى آخر الإقليم السابع ، أي إلى حيث العرض الشماليّ خمسون درجة و ثلث . هذا رأي الجمهور . و ما بعده إلى القطب الشماليّ لا يسكنه أحد لشدّة البرد هناك . فقدر المسكون سبع و ثلاثون درجة و أربعون دقيقة . و عند البعض : آخر العمارة حيث العرض ثلاث و ستون درجة .

و ما سوى ذلك كالجانب الجنوبي من خط الاستواء ، و الجانب الشمالي منه إلى حيث العرض ١٢ درجة و ٤٠ دقيقة ، قلّت العمارة بحيث لا تعدّ عمارة .

هذا حال العصر القديم . و أمّا اليوم ففي الجانب الجنوبيّ من خط الاستواء و في خط الاستواء ،

و منه إلى ما يقرب من القطب الشماليّ دول كبيرة و بلاد كثيرة و سكّان من الإنسان لا يحصون . فامتلأت الأرض من أربعة بلايين . ولو طالت الأعمار ازداد العدد جدًّا و ضاقت الأرض .

فأقصر الله أعمار هذه الأمّة سواء كانت أمّة إجابة أو أمّة دعوة رحمةً و إحسانًا علينا أمّة من هو رحمة للعالمين . و هذا مظهر من مظاهر كونه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رحمة للعالمين . وقد أحسن من قال :

جَزَى اللّٰهُ عَنّا الموتَ خَيرًا فإنَّهُ　　　أَبَرُّ بِنَا مِنْ كُلِّ برّ و أَرْأَفُ
يُعَجِّلُ تَخلِيصَ النُّفُوسِ مِنَ الرّدَى　　　وَ يُدْنِي مِنَ الدَّارِ التي هي أشرفُ

و السرّ السادس : يبتني هذا على ما يبتني عليه السرّ الخامس ، لكن لا باعتبار ضيق المساكن كما في الخامس ، بل باعتبار ضيق أمر الرزق . فلو طالت الأعمار لانتهى عدد سكّان الأرض إلى مآت بلايين ، و لضاق أمر المعاش و تعسر حصول الرزق .

ألا ترى إلى كثرة يأجوج و مأجوج كيف يأتون في أيام عديدة على ما في الأرض من المأكولات و المشروبات ؟ كما أخرج مسلم من حديث النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا في خروج يأجوج ومأجوج ، وفيه : و يشربون مياه الأرض حتى أنّ بعضهم ليمرّ بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركونه يبسًا حتى أنّ من يمر من بعدهم ليمرّ بذلك النهر فيقول : قد كان ههنا ماء مرّة . و فيه : و يمرّون ببحيرة طبرية فيشربون ما فيها . و يمرّ آخرهم فيقولون : لقد كان بهذه مرة ماء . الحديث .

وسبب هذا كثرة عددهم . و كثرة العدد من بني آدم أو غيرهم ينتجها كثرة الأولاد الحاصلة من طول الأعمار .

كما أخرج النسائي من رواية عمرو بن أوس عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا : أنّ يأجوج و مأجوج يجامعون ما شاؤوا . ولا يموت رجل منهم إلّا ترك من ذرّيته ألفًا فصاعدًا .

و أخرج ابن حبان في صحيحه عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا : أنّ يأجوج و مأجوج أقلّ ما يترك أحدهم من صلبه ألفًا من الذرّيّة .

هذا حال يأجوج و مأجوج . و إنّما ذكرته ليسهل عليك فهم ما بينت من ضيق المعاش

و أسباب الرزق الموجبة لها كثرة عدد بني آدم المفضية إليها الأعمار الطويلة .

والله سبحانه هو الرزّاق المسبب المكرم لمن هو خليفة أرضه . فأقصر أعمار بني آدم في زمان كثر فيه عددهم تكريمًا لهم و إراحةً لهم عن آفة عامّة من مضايق المعيشة و قحط الرزق .

و هذه الرحمة تعمّ الكفّار و المسلمين أمّة الدعوة و الإجابة . و هي ثمرة من ثمرات كونه عليه الصلاة والسلام رحمة للعالمين .

و قد دعا النبي ﷺ لأمّة الإجابة خصوصًا أن لا يسلط الله عليهم القحط العامّ .

أخرج الترمذي عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال : صلّى رسول الله ﷺ صلاةً فأطالها . فقالوا : يا رسول الله ! صلّيت صلاةً لم تكن تصلّيها ؟ قال : أجل ، إنّها صلاة رغبة و رهبة . إنّي سألت الله فيها ثلاثًا . فأعطاني اثنتين و منعني واحدة . سألته أن لا يهلك أمّتي بسنة فأعطانيها . الحديث .

و بالجملة ضيق العيش و تعسّر أمر الرزق آفة كبيرة ، ربما يجعل الحياة على الرجل عذابًا . وهذا هو السرّ في دعاء النبي ﷺ لأمّته : أن لا يسلط الله عليهم القحط . حكى السيوطي في المحاضرة وغيره : أنّ في سنة ستين بعد المأتين وقع بمصر غلاء لم يسمع بمثله من عهد يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام . و أقام سبع سنين بحيث أكلت الميتة و بيع الكلب بخمسة دنانير . ولم يبق للخليفة سوى ثلاثة أفراس بعد العدد الكثير .

و نزل الوزير يومًا عن بغلته فأخذت من غلمانه فذبحت وأكلت . فأخذ الذين أكلوها و صلبهم . فأصبحوا و قد أكلهم الناس ولم يبق إلاّ عظامهم . و بلغت البيضة دينارًا و أردب القمع مائة دينار . حتى حكى صاحب المرآة أنّ امرأة خرجت من القاهرة و معها مدّ جوهر . فقالت : من يأخذه بمثله من البر ؟ فلم يلتفت إليها أحد .

و في سنة سبع و تسعين بعد ذلك هبط النيل ، فاشتدّ الغلاء و الوباء و تفرّق الناس و تمزقوا كلّ ممزق . و كان الرجل يذبح ولده فتساعده أمّه على طبخه . و كان الرجل يدعو صديقه إلى بيته ليضيفه فيذبحه و يأكله . و يدعو الطبيب إلى مريض خدعة فيذبحه و يأكله .

قال الذهبي في العبر : فلو قال القائل "مات ثلاثة أرباع الإقليم" لما أبعد . كذا في كتاب رحلة الشتاء و الصيف ص٢٩ للشيخ محمد بن عبد الله . هذا حال الإنسان عند المجاعة و ضيق أمر الرزق ، أعاذنا الله منه .

و السرّ السابع : العيش الضنك و الفقر المدقع الموجب له طول العمر و كثرة الأولاد شاغل عن ذكر الله كبير و مفاوم هائل لعامة المسلمين في عبادتهم و توجههم إلى معبودهم و التهيإ للآخرة ، باعث على كسب الحرام و الوقوع في المشتبهات بل في الكفر ، كما قال عليه الصلاة والسلام : كاد الفقر أن يكون كفرًا . و لذا يتعوّذ عليه الصلاة والسلام من الفقر المدقع و الدين .

و السرّ الثامن : كثرة الأولاد اللازمة لطول الأعمار فتنة عمياء لكلّ والد من عامّة الناس إلّا من عصمه الله . و قليل من عباد الله المعصوم . قال الله تعالى : إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَ أَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ .

و من كثر عياله كثر وباله ، و قلّ ما يميز بين الخبيث و الطيب ، و قلّ ما يتفرّغ لعبادة الله و الاستعداد للآخرة . فالولد مبخلة مجبنة مجهلة ، كما روت خولة بنت حكيم رضي الله عنها . قالت : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم وهو محتضن إحدى بني ابنته وهو يقول : إنّكم لتبخلون و تجبنون و تجهلون ، و إنّكم لمن ريحان الله .أخرجه الترمذي .

فقصر أعمار هذه الأمة المستلزم لقلّة الأولاد و العيال رحمة عليهم و سبب لتكثير أهل الجنة منهم ، حيث تفرغوا للأنس بالله و ذكره تعالى .

إن قلت : كثرة الأولاد مطلوبة و مستحسنة لقوله عليه السلام : تزوّجوا الولود الودود ، فإنّي أباهي بكم الأمم يوم القيامة . فكيف تكون آفة ؟

قلت : مرادنا الكثرة المفرطة الشاغلة عن الآخرة المانعة عن العبادة التي هي البغية القصوى لخلق الإنسان . ولذا رجح الإمام الشافعي و غيره رحمهم الله تعالى التبتّل عن النكاح و التأهّل في حالة الاعتدال .

و في طبقات الإمام الشعراني رحمه الله تعالى : كان عامر بن عبد الله إذا تشوس من إنسان و دعا عليه يقول : اللّهم أكثر ماله و أصحّ جسمه و أطلْ عمره . انتهى .

و رأيت في الحلية : أنّ عامر بن عبد الله لما سُيّر شيّعه إخوانه ، وكان بظهر المِرْبَد فقال : إنّي داعٍ

فأمِّنُوا . قالوا : هات فقد كنا نشتهي هذا منك . قال : اللّٰهم من وشى بي و كذب عليّ ، و أخرجني من مصري ، و فرّق بيني و بين إخواني ، اللّٰهم أكثِرْ ماله و ولده و أصِحَّ جسمه و أطِلْ عمره . انتهى .

والسرّ التاسع : المناصب في الدنيا شتى الأنواع كمنصب الحكومة و الولاية . و فيه مراتب بعضها فوق بعض ، و منصب تملّك الأموال ، و منصب علمي كمراتب العلماء ، و منصب رئاسة لكبراء قبائل و غير ذلك من أنواع كثيرة . و كلّ ذلك منابع الشرف الجمّ ، و مطالع المجد الأشم ، و أسباب الجلالة و وسائل الكرامة ، يقتتل عليها أربابها ، و يختصم فيها ذَوُوها .

و معلوم أنّ توسيع دائرة العزّة و الكرامة بأن يحظي بها أشخاص كثيرون و طوائف متعددة أقرب إلى الإنصاف و أولى من تضييقها بأن لا تحصل إلّا لفرد واحد أو شرذمة قليلة .

ثم قصر الأعمار مما يتوسل به إلى هذا التوسيع ، و طولها أكبر أسباب التضييق و الحرمان . فيموت أمير و يخلفه آخر و يلتذ بأكبر منصب ، و يرتحل حاكم و يقوم مقامه آخر ، و يعتز بأعز مقام ، و يفوظ رئيس لقوم في مدة زهيدة ، و يترأس شخص آخر ، و يتمتّع بالحظّ الأوفر من أمانيه ، و يتوفّى الأب في زمان قصير و يملك ما تركه ولده ، و يتنعم هذا الولد في نعمة يملكها هو مستبدًّا . و هكذا يأخذ كلّ شخص حظّه لقصر عمر من تقدمه ، و يستبدّ بنصيبه من أمتعة الدنيا .

ولو طال عمر ذي منصب لحرمه غيره إلى مدة طويلة ، و ضاق الأمر ولم يتوسع .

والله رحمن الدنيا كما أنّه رحيم الآخرة ، و رحمته وسعت كلّ شيء ، وسعتها تقتضي توسيع دائرة الفضل و الكرامة الموجب له قصر الأعمار . و هذا غيض من فيض كون نبينا ﷺ رحمة للعالمين .

وحكي أنّ ملكًا قال لوزيره : ما أحسن هذه الولاية لولا الموت . فقال له وزيره وكان عاقلاً : الموت جعلك ملكًا ، حيث مات من كان ملكًا قبلك . ولو لم يمت لم تتملك على الناس . فللموت منّة عليك عظيمة .

ما اختلف الليلُ و النهار ولا — دارت نجومُ السماء في فلك
إلّا لينتقل السلطان من ملك — قد زال سلطانُه إلى ملك
و مالك العرش لم يزل أبدًا — ليس بفانٍ ولا بمشترك

و ما أحسن ما قال :

إنّ الْوِلَايَةَ لا تدُوْمُ لواحدٍ إنْ كنتَ تُنْكِرُ ذَا فأين الأوّلُ
فَاغْرِسْ مِنَ الْفِعْلِ الْجميلِ كرائمًا فَإِذَا عُزِلْتَ فَإِنَّها لا تُعْزَلُ

و السرّ العاشر : مثل التاسع إلّا أنّ الملحوظ هنا الكمالات و المناصب المفضية إلى علو الدرجات في الآخرة إصالة ، و إن حصلت بها عزّة و فضل في الدنيا أيضًا بالتبع .

فانظر إلى طائفة المصنّفين في كلّ عصر ، و ما حصل لهم بذلك عزة في الناس و قبول عند الله و ثواب في الآخرة . فلو كانت أعمار هذه الأمّة طويلة و كان الإمام البخاري و مسلم و أحمد و النسائي وغير هؤلاء مثلاً أحياء إلى قرون لم يجترأ مدة حياتهم أحد من عامة المحدّثين أن يصنّفوا في الحديث شيئًا أدبًا معهم أو هيبة منهم أو لما أنّهم لم يذروا شعبة من العلوم إلّا وقد أحاطوا بما يمكن فيها من الأبحاث العلمية ، ولم يتركوا لغيرهم مجالاً علميًّا يجول فيه قلمه .

فكان طول عمرهم سبب حرمان عامّة المحدثين عن ثواب التأليف و خدمة الدين و العزّة و القبول عند الله و رسوله .

ثم انظر إلى الحافظ العيني و ابن حجر و الإمام ابن تيمية و ابن القيم و السيوطي رحمهم الله تعالى و أضرابهم كيف ملأوا الدنيا بتصانيفهم على هذه الأعمار القصيرة . فلو بقوا إلى زماننا أو إلى عدة قرون لم يتركوا مجالاً علميًّا لغيرهم من عامّة العلماء المصنّفين ، و سدّوا عليهم سبل المآثر الدينيّة و الحسنات العلميّة . و هكذا حال طائفة المدرّسين المعلّمين الذين ذخروا بتعليم علوم الدين ذخائر عند الله سبحانه و رزقوا قبولاً و عزّة في الناس .

ولو كان عمر السابقين من فحول العلم كالفخر الرازي و السعد و السيد السند و المحقق الطوسي و أمثالهم طويلاً إلى قرون لم يرجع إلى غيرهم أحد ، و حرم عامة المعلّمين عن ادّخار تلك الذخائر عند الله . و هكذا طائفة المفتين و طائفة الشيوخ المرشدين لمن يأتونهم من المريدين السالكين سبيل الآخرة . فعلم أن إقصار الله سبحانه الأعمار رحمة عظيمة على علماء هذه الأمّة و محسنيها ، و وسيلة لتقسيم البركات

و توزيع كنوز الذخائر عند الله سبحانه ، حيث أخذ منها كلّ بقدر استعداده الحظ الأوفر و النصيب الأزهر . و هذا أثر من آثار كون نبينا ﷺ رحمة للعالمين .

و هكذا حال مجددي كلّ أمّة ،كما ورد في الحديث . فيموت مجدّد مائة لقصر عمره ، و يحوز مقامًا عظيمًا عند الله و ثوابًا لتجديد الدين . ثم يقع الاحتياج في مائة أخرى تليها إلى مجدد . و هكذا في كلّ مائة يأتي مجدّد جديد فتنقسم بركات الله تعالى و رحمته و مقامات قربه على أفراد كثيرة ، فيأخذ كلّ حظًّا وافرًا من الأجور كما هو مقتضى رحمته الوسيعة .

فلو طال عمر مجدّد مائة إلى قرون كان هو المجدد مدة حياته ، و حرم كثير من طائفة هؤلاء المجدّدين بركات الله تعالى ، و ضاقت دائرة الرحمة .

أخرج أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : إنّ الله عزّ وجلّ يبعث لهذه الأمّة على رأس كلّ مائة سنة من يجدد لها دينها .

قال صاحب جامع الأصول وغيره : قد تكلّم العلماء في تأويل هذا الحديث . و كلّ واحد أشار إلى المقام الذي هو مذهبه ، و حمل عليه الحديث . و الأولى الحمل على العموم ، فإنّ لفظة " مَن " تقع على الواحد و الجمع . ولا تختص أيضًا بالفقهاء ، فإنّ انتفاع الأمراء بهم و إن كان كثيرًا فإنّ انتفاعهم بأولي الأمر و أصحاب الحديث و القرّاء و الوعّاظ و الزهّاد أيضًا كثير ، و حفظ الدين و قوانين السياسة و بث العدل وظيفة الأمراء .

و كذا القرّاء و أصحاب الحديث ينفعون لضبط التنزيل و الأحاديث التي هي أصول الشرع ، و الوعّاظ و الزهّاد ينفعون بالمواعظ و الحثّ على لزوم التقوى و الزهد في الدنيا ، لكن ينبغي أن يكون مشارًا به إلى فنّ من هذه الفنون . ففي رأس المائة الأولى من أولي الأمر عمر بن عبد العزيز ، و من الفقهاء محمد بن علي الباقر و القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق و سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم و الحسن البصري و ابن سيرين و غيرهم من طبقتهم ، و من القرّاء عبد الله بن كثير ، و من المحدّثين ابن شهاب الزهري وغيرهم من التابعين و تابع التابعين رحمهم الله تعالى .

و في رأس المائة الثانية من أولي الأمر المأمون ، و من الفقهاء الشافعيّ و أحمد بن حنبل لم يكن

مشهورًا حينئذ و اللؤلؤي من أصحاب أبي حنيفة و أشهب من أصحاب مالك ، و من الإمامية علي بن موسى الرضا ، و من القرّاء يعقوب الحضرمي ، و من المحدثين يحيى بن معين ، و من الزهّاد معروف الكرخي رحمهم الله تعالى .

و في الثالثة من أولي الأمر المقتدر بالله ، و من الفقهاء أبو العباس بن سريج الشافعي و أبو جعفر الطحاوي الحنفي و ابن جلال الحنبلي و أبو جعفر الرازي الإمامي ، و من المتكلمين أبو الحسن الأشعري ، و من القرّاء أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد ، و من المحدّثين أبو عبد الرحمن النسائي رحمهم الله تعالى .

و في الرابعة من أولي الأمر القادر بالله ، و من الفقهاء أبو حامد الإسفرايني الشافعي و أبو بكر الخوارزمي الحنفي و أبو محمد عبد الوهاب المالكي و أبو عبد الله الحسيني الحنبلي المرتضى الطرطوسي أخو الوضاح الشاعر ، و من المتكلمين القاضي أبو بكر الباقلاني و ابن فورك ، و من المحدثين الحاكم بن النسفي ، و من القرّاء أبو الحسن الحمامي ، و من الزهّاد أبو بكر الدينوري رحمهم الله تعالى .

و في الخامسة من أولي الأمر المستظهر بالله ، و من الفقهاء الإمام أبو حامد الغزالي الشافعي و القاضي محمد المروزي الحنفي و أبو الحسن الراغوي الحنبلي ، و من المحدّثين رزين العبدري ، و من القرّاء أبو الفداء القلانسي رحمهم الله تعالى .

هؤلاء كانوا من المشهورين في الأمّة . و إنّما المراد بالذكر من انقضت المائة و هو حيّ عالم مشهور مشار إليه بالبنان . والله أعلم . انتهى . ففي الموت و الأعمار القصيرة حكم لله و أسرار .

و السرّ الحادي عشر : كثير من سكّان الأرض بل أكثرهم مبتلون بمصائب بدنيّة أو ماليّة أو غير ذلك ، و محبوسين في شبكات الظالمين . و قصر العمر و الموت رحمة لهم ، تنجيهم من البلاء العظيم ، و تنقذهم من هذه الظلمات ، و تسليهم عنها بانصرامها سريعًا ، و يبعثهم على التجلد و الصبر ، لأنّهم إذا نظروا إلى جزائه الأجزل و زمانه الأقلّ يهون عليهم مسّ النكبات . و كذا يقطع عرق الظلم بموت الظالم في مدة قصيرة .

ولو كانت الأعمار طويلة لطال الظلم و دام البلاء و عيل الصبر ، إذ الصبر في مدّة مديدة أشدّ من القبض على الجمرة ، و لأصبحت هذه الدنيا دار خنين و أنين و مقام زفير و شهيق . و يا ليته ينفع .

و في مثل هذه الأحوال قال قائل :

هـذا الزمانُ الذي كنَّا نُحـاذِره　　　فيما يحدث كعبٌ و ابنُ مسعودِ
إنْ دامَ ذا الحال لم نحزن على أحدٍ　　　يَمُوتُ مِنّا ولم نفـرح بمولودِ

فرحم الله الأمّة المرحومة و قصر أعمارهم لكونهم أمّة رحمة للعالمين . فهذا برض من عدّ رحمة للعالمين ﷺ .

و السرّ الثاني عشر : كثرة الأموات لقصر الأعمار إشارة إلى قرب الساعة ، و دليل على تحقّقها ، و إيقاظ للأمّة عن سنة الغفلة ، إذ الساعة عبارة عن عموم الموت لكلّ حيّ و فناء العالم ، و الكثرة أخت العموم . و للساعة علامات قريبة و أقرب و بعيدة و أبعد . و هذا من القسم الرابع .

فموت كلّ شخص في زمان قصير ، و مضي كلّ جيل من أجيال الناس في مدة قليلة قيامة صغرى و إيماء إلى أنّ الدنيا قد آذنت بالانصرام و ولّت حذاء .

بل قد ثبت في الأحاديث الصحيحة إطلاق القيامة و الساعة على انصرام جيل من الناس ، بل على موت كلّ شخص أيضًا ، كما روي في الحديث المرفوع : من مات فقد قامت قيامته .

و أخرج مسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : كان الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة : متى الساعة ؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم فقال : إن يعش هذا لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم .

و أخرج مسلم أيضًا عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ رجلًا سأل رسول الله ﷺ : متى تقوم الساعة ؟ و عنده غلام من الأنصار يقال له "محمد" . فقال رسول الله ﷺ : إن يعش هذا الغلام فعسى أن لا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة .

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ نقلًا عن القاضي عياض : المراد بساعتكم موتكم . و معناه : يموت ذلك القرن أو أولئك المخاطبون .

ثم موت النبي ﷺ لما كان أكبر دليل على تحقق القيامة و قربها ، إذ لا نبيّ بعده ، و أشدّ تأثيرًا في

إيقاظ الأمّة عدّ من علامات الساعة .

كما أخرج البيهقي في دلائل النبوّة عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وهو في خباء من أدم . فقال : يا عوف ! احفظ خلالاً ستًّا بين يدي الساعة : إحداهنّ موتي ، ثم فتح بيت المقدس ، ثم موتان يظهر فيكم يستشهد الله به ذراريكم و أنفسكم ، و يزكّي بها أعمالكم ، ثم استفاضة المال بينكم . الحديث .

ويدلّك على أن كثرة الأموات من أشراط الساعة كثرة وقوع حوادث و زلازل وملاحم و أمراض ، يكثر فيها الأموات إلى غاية على حسب قرب القيامة ، كما روي ذلك في الأحاديث .

فمنها : ما روى البخاري و ابن ماجه و الحاكم في المستدرك عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أعدد بين الساعة ستًّا : موتي ، ثم فتح بيت المقدس ، ثم مُوتانًا كقعاص الغنم .

و " موتان " على وزن غفران الموت الكثير الوقوع ، و " قعاص " بضم القاف داء يأخذ الغنم فلا تلبث أن تموت . و ففيه إخبار عند العلماء عمّا يقع من الطواعين و الأوباء . و للحافظ السيوطي رحمه الله تعالى رسالة في تفصيل ذلك ، سماها ما رواه الواعون في أخبار الطاعون .

روى ابن عساكر في تاريخ دمشق : لم يكن طاعون أشدّ من ثلاثة طواعين : طاعون أزدجرد ، و طاعون عمواس ، و طاعون الجارف . كان طاعون عمواس في خلافة عمر رضي الله عنه سنة ١٧هـ ، و قيل : سنة ١٨هـ . و مات فيه من جيش المسلمين ثلاثون ألفًا ، منهم أبو عبيدة بن الجراح و معاذ بن جبل رضي الله عنهما .

و طاعون الجارف وقع بالبصرة سنة ٦٤هـ . و جزم به ابن الجوزي في المنتظم . أو في سنة ٦٩هـ ، أو سنة ٧٠هـ ، أو سنة ٧٦هـ على اختلاف الأقوال . و مات فيه لأنس بن مالك رضي الله عنه ثلاثة و ثلاثون ولدًا .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : كان ثلاثة أيّام . مات في أوّل يوم منه من أهل البصرة سبعون ألفًا ، و في اليوم الثاني منه أحد و سبعون ألفًا ، و في اليوم الثالث منه ثلاثة و سبعون ألفا . و أصبح الناس في اليوم الرابع موتى إلّا القليل من آحاد الناس ، حتى ذكر أنّ أمّ الأمير بها ماتت فلم يجد من يحملها .

و وقع بدمشق سنة تسع و ستين و أربعمائة ، وكان أهلها نحو خمسمائة ألف ، فلم يبق منهم سوى ثلاثة آلاف و خمسائة .

ثم وقع في سنة تسع و أربعين و سبعمائة ، ولم يعهد نظيره في الدنيا ، فإنّه طبق الأرض شرقًا وغربًا ، و دخل البلاد كلّها حتى مكة المشرّفة ، و وقع في الحيوانات أيضًا . و قال ابن أبي حجلة : مات فيه على جهة التقريب نصف العالم أو أكثر ، و بلغ الموت في القاهرة كلّ يوم زيادة على عشرين ألفًا . هذا .

و منها : ما أخرج الترمذي عن طلحة بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : من اقتراب الساعة هلاك العرب .

و منها : ما روى الطبراني عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مرفوعًا : سيكون بعدي خسف بالمشرق ، و خسف بالمغرب ، و خسف في جزيرة العرب . قيل : أنخسف الأرض و فينا الصالحون ؟ قال : نعم ، إذا كثر الخبث .

و أنت تعلم أنّ الخسف سبب كثرة الأموات .

و منها : ما أخرج البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا : لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم ، و تكثر الزلازل ، و يتقارب الزمان ، و تظهر الفتن ، و يكثر الهرج وهو القتل . و الزلازل مما يقع فيها أموات كثيرة . قال صاحب المرآة : وقعت في سنة اثنتين و خمسمائة زلازل عظيمة بالشام و شيراز و طرابلس ، مات فيها نحو ألف ألف و مائة ألف إنسان .

و السرّ الثالث عشر : طول العمر مرقاة طول الأمل ، و هو موبق . و ما أوبق الناس إلّا أمانيهم الكاذبة و طول أملهم الداعي إلى الحرص و حبّ الدنيا . فإنّ المرء إذا رجا أنّه يحيى إلى قرون جمع أمتعة العيش الكافية لمدّة طويلة من بناء دار بعد دار و شراء عقار بعد عقار ، و ما يقضي به حوائج الولد و ولد الولد و ولدهم .

و كل ذلك من أسباب الخسران في الدنيا و الآخرة . فقصّر الله أعمار هذه الأمّة رحمة عليهم و سدًّا لسبل طول الأمل و الحرص و محبة الدنيا .

ثم إنّك ترى الناس مسجونين في سجن الأمل و الحرص على الدنيا ، غافلين عن الآخرة مع هذه الأعمار القصيرة التي هي ما بين الستين و السبعين ، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : يشيب ابن آدم و يشبّ معه

خصلتان : الحرص و طول الأمل .

وما هـذه الأيّام إلّا صحائف نُؤَرِّخُ فيها ثم تُمْحى وتُمحقُ
وأعجب شيء أنّ دائرة المُنَى تُوسِّعها الآمالُ و العمر ضيّقُ

فلو كانت أعمارهم طويلة بلغ السيل الزبى ، و كانت الفتنة أشدّ .

فاستبان أن قصر الأعمار دواء لداء موبق ، و رحمة عظيمة لله على الأمّة الوسط المرحومة أمّة رحمة للعالمين ، و فيض من فيوض كون نبينا رحمة للعالمين ﷺ . أخرج أبو نعيم في الحلية عن عمران بن حسان عن الحسن قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم فقال : هل منكم أحد يريد أن يؤتيه الله تعالى علمًا بغير تعلّم و هدًى بغير هداية ؟ هل منكم أحد يريد أن يذهب الله عنه العَمى و يجعله بصيرًا ؟ ألا من رغب في الدنيا و طال أمله فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك . و من زهد في الدنيا و قصر أمله فيها أعطاه الله علمًا بغير تعلّم و هدًى بغير هداية . الحديث .

و السرّ الرابع عشر : فيه إظهار فضل هذه الأمّة يوم القيامة ، حيث يؤتيهم الله تعالى يوم القيامة أعلى المقامات و أسنى الدرجات مع قصر أعمارهم . إذ لو كانت طويلة لتوهّم أنّ ذلك لكثرة أعمالهم و حسناتهم حسب طول أعمارهم .

و السرّ الخامس عشر : جعل الله الإنسان خليفة في الأرض عامرًا لها . و مقتضى الحكمة الإلهية أن تطول الأعمار في بدء الخلافة و بدء التعمير تكثيرًا لعدد العامرين . حيث كان عدد أفراد الإنسان عند ذاك قليلًا . و لهذا كانت أعمار الأمم الماضية طويلة حسب القرب إلى البدء . و أمّا بعد بلوغ عددهم إلى كثرة كثيرة في آخر الزمان زمان هذه الأمّة فالحكمة تقتضي قصر أعمارهم رحمة عليهم ، لئلا تضيق عليهم الأرض من كثرة مفرطة . فكثرة الأموات لقصر الأعمار رحمة كبيرة لله على نوع الإنسان ، كما قال داود بن أبي هند : اثنتان لو لم تكونا لم ينتفع أهل الدنيا بدنياهم : الموت و الأرض تنشف الندى . ذكره أبو نعيم في الحلية ج٣ ص٩٤.

و السرّ السادس عشر : الأصل في هذا العالم الذي خلقت و أبقيت لأجله الدنيا إنّما هو

المؤمن كما لا يخفى ، و الدنيا سجن المؤمن ، كما ورد في الحديث ، و الإطلاق و الخروج من السجن سريعًا مطلوب و محبوب للمسجون و رحمة له ، و المكث طويلاً فيه مكروه و عذاب له ، و رحمة الله على هذه الأمّة أكثر منها على سائر الأمم . و هذا يقتضي قصر أعمارهم لا طولها . فأقصر الله أعمارهم . هذا . ولله الحمد . ولله درّ من قال :

مَنْ كانَ يَرجُوْ أَنْ يَعيشَ فإنّني ... أَصْبَحتُ أَرْجُوْ أنْ أَمُوتَ لأُعتقَا

في الموتِ ألفُ فَضِيلةٍ لَوْ أنّها ... عُرِفَتْ لكانَ سَبِيلُهُ أنْ يُعْشَقَا

و السرّ السابع عشر : أكمل الناس إيمانًا هذه الأمّة أمّة نبينا ﷺ . و المؤمن الكامل يتمنى لقاء الله تعالى و يحبّ الوصول إليه تعالى و يدعو لذلك . و الموت جسر يوصل الحبيب إلى الحبيب . و في الحديث : من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه ، و من كره لقاء الله كره الله لقاءه .

فأقصر الله تعالى أعمار هذه الأمّة إجابة إلى دعائهم و إيصالاً لهم إلى منيتهم و بغيتهم .

و هذا كما قال عليه الصلاة والسلام : اللّهم الرفيق الأعلى . و قال يوسف عليه الصلاة والسلام : تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ . و يناسب هذا البحث تأنيسًا و تأسيسًا و تأييدًا و إيضاحًا ما قال العارف الكبير الشيخ علي دده رحمه الله تعالى في كتابه خواتم الحكم : (السؤال الرابع و الأربعون) : لِمَ أبقى الله تعالى شرّ الخلق إبليس و أمات خير الخلق محمدًا ﷺ ؟

الجواب ، والله أعلم : أجاب بعض العلماء بقوله : لأنّ الدنيا خير للإبليس ، فأمهله تعالى لحكمة منه ، و الآخرة خير لمحمد ﷺ كما قال سبحانه : وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ . و قال تعالى : وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ .

و قيل : أمات خير البريّة لسرّ الخلافة و الوراثة ، فإنّ خليفة محمد ﷺ يرث حكمته و يحفظ أمّته و معرفته فيحصل للعلماء من أمته فضل الخلافة و الوراثة ، كما أشار ﷺ بقوله : حياتي خير لكم و مماتي خير لكم . قالوا : هذا خيرنا في حياتك . فما خيرنا في مماتك ؟ فقال : تعرض عليّ أعمالكم كلّ عشيّة اثنين و خميس . فما كان من خير حمدت الله ، و ما كان من شرّ استغفرت الله لكم . و قال ﷺ : إذا أراد الله رحمة بأمّة قبض نبيها قبلها ، فجعله لها فرطًا و سلفًا .

و قيل : إنّ محمدًا ﷺ أحيي سنته و أكمل شريعته و أبقى الحق أحكامها بعده . فينتقل بانتقاله إلى حضرته خيرها و يبقى إلى يوم القيامة ، فيتشرّف بقدومه الأحياء كما تتشرّف الدنيا بحياته .

و قال ﷺ : أنزل الله عليّ أمانين لأمّتي : وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ . فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار .

و قيل : دعا إبليس لبقائه في الدنيا بقوله : أَنظِرۡنِيٓ . فأجيبت دعوته . و إنّه سنّ سنّة الكفر فيرجع إليه ضرّه دنيا و أخرى . فحياته سوء و مماته سوء . كما قال تعالى في حق الكفار : سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَ مَمَاتُهُمۡ .

و قيل : ادّخره لشقائه ، كيلا يتأذّى بقدومه الأموات كما يتأذّى بوجوده الأحياء .

و قيل : قبض سبحانه حبيبه المصطفى ﷺ لدعائه بقوله : اللّهم الرفيق الأعلى . فأجيب دعاؤه ﷺ . و قال يوسف عليه الصلاة والسلام : تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ . انتهى كلام الشيخ علي دده رحمه الله تعالى .

و السرّ الثامن عشر : ما ذكره الحكيم الترمذي رحمه الله تعالى في النوادر ص٢٨ ، قال : الأصل العشرون في حكمة قصر أعمار هذه الأمّة . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : عمر أمّتي من ستين سنة إلى سبعين .

و قال ﷺ : معترك المنايا ما بين الستين إلى السبعين . و قال ﷺ : أقلّ أمتي أبناء السبعين .

قال أبو عبد الله محمد الترمذي رحمه الله تعالى : من رحمة الله على هذه الأمّة و عطفه عليهم أخّرهم في الأصلاب حتى أخرجهم إلى الأرحام بعد أن نفدت الدنيا ، ثم قصّر أعمارهم لئلا يتلبسوا بالدنيا إلّا قليلاً ولا يتدنّسوا .

فإنّ القرون الماضية كانت أعمارهم و أجسادهم و أرزاقهم على الضعف . كان أحدهم يعمّر ألف سنة ، و جسمه ثمانون باعًا بالباع الأوّل ، و الحبة من القمح مثل كلوة البقرة ، و الرمانة الواحدة يجتمع عليها عشرة نفر ، و العنقود مثله . فكانوا ما يتناولونه من هذه الدنيا بهذه الصفة على مثل تلك الأجساد في مثل تلك الأعمار .

فمنها أشروا و بطروا و استكبروا و أعرضوا عن الله عَزَّوَجَلَّ . فصبّ الله عليهم سوط عذاب على ما نطق به الكتاب العزيز . ثم لم يزل الناس ينقصون في الخلق و الأجل و الرزق ، إلى أن صارت هذه الأمّة آخر الأمم ، حتى يأخذوا من الدنيا أرزاقًا قليلة بأجساد ضعيفة في مدة قصيرة ، حتى لا يأشروا ولا يبطروا .

فهذا تدبير من الله عَزَّوَجَلَّ رحمة لهذه الأمّة . ثم ضوعف لهم الحسنات ، فجعلت الحسنة الواحدة بعشرة إلى سبعمائة إلى ما لا يعلمه من التضعيف إلّا الله تعالى ، و أيّدوا باليقين ، و أعطوا ليلة القدر .

فجعلت حسناتهم على ثلاث منازل ، لأنّهم ثلاثة أصناف : ظالمون و مقتصدون و سابقون .

فالصنف الأوّل هم أهل تخليط ، قوم موحدون ، لا يرعوون عن الحرام ولا يحفظون حدود الله تعالى ، خلطوا عملاً صالحًا و آخر سيّئًا . فهم الظالمون . فالحسنة منهم بعشر أمثالها .

والصنف الثاني قوم متقون ، قائمون على الحدود و على سبيل الاستقامة و هم المقتصدون . فالحسنة منهم بسبعمائة ، لأنّ جوارحهم صارت مسبلة لله تعالى ، قد استقامت على سبيل الله تعالى . فإذا انفقوا من جوارحهم عملاً كان بسبعمائة كالذي ينفق ماله في سبيل الله فهو بسبعمائة .

و مما يحقّق ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إذا حسن إسلام العبد تمّم الله له عمله بسبعمائة ضعف . فقوله " حسن إسلامه " هو أن يستقيم و يكون مستقيم الطريق إلى ربّه ، لا يعرج يمينًا وشمالاً ، أي لا يعصي . فهذا ترفع أعماله من جوارح طاهرة . و الأوّل من جوارح دنسة .

والصنف الثالث قوم أهل يقين ، انتبهوا و حييت قلوبهم بالله عَزَّوَجَلَّ و ماتت منها الشهوات ، وهم السابقون المقرّبون . قال الله تعالى في السابقين : وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ .

فأعمالهم مضاعفة ، لا يعلم تضعيفها إلّا الله تعالى ، و هو قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنّ الرجل من أمّتي ليبلغ وزن الحرف الواحد من تسبيحه زنة أُحد .

و ما روي عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّه قال : إنّ الرجل من هذه الأمّة يعدل عمل يومه سبع

سماوات و سبع أرضين .

و ما روي عن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أنّ الرجل من هذه الأمّة ليخرّ ساجدًا فيغفر لمن خلفه . فكان كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتوخّى الصف الأخير من المسجد رجاء ذلك ، و يذكر أنّه وجده كذلك . انتهى .

إن قيل : طول العمر رحمة و سبب لزيادة الحسنات كما ورد في الحديث الصحيح .

قلت أوّلًا : قد ورد في الحديث أيضًا أنّ طول عمر العاصي و الكافر استدراج له سبب لشدّة العذاب .

و ثانيًا : أنّ طول العمر إنّما هو رحمة بالنسبة إلى البعض الذي هو محسن . فلم يقل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنّ طول العمر مطلقًا مطلوب و رحمة . و بحثنا المتقدّم كان باعتبار طول الأعمار مطلقًا . و يدل على ما قلنا ما أخرج الترمذي عن عبد الله بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أنّ أعرابيًّا قال : يا رسول الله ! من خير الناس ؟ قال : من طال عمره و حسن عمله .

و ثالثًا : كون الطول مطلوبًا و رحمة إنّما هو في أعمار هذه الأمّة بأن يطول عمر محسن منهم . لكن هذا العمر الطويل قصير بالنسبة إلى أعمار الأمم المتقدّمة علينا . و بحثنا السابق كان في الطول المفرط الذي أعطيته الأمم الخالية .

و رابعًا : هذا اعتبار و ذاك اعتبار . فطول العمر المفرط مستحسن باعتبار ، و غير مستحسن باعتبارات أخر سطرناها من قبل .

و هذا كما أنّ الغني مستحسن باعتبار ، و في الحديث : لا حسد إلّا على اثنين . فذكر منها المال الكثير . و غير مستحسن باعتبار آخر ، و لذا كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحبّ الفقر ، وكان الفقر مطلوبًا لكثير من الأولياء الفارّين من الغنى و كثرة المال .

و يؤيد ذلك ما أخرجه الترمذي بسنده عن علي بن زيد عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه أنّ رجلًا قال : يا رسول الله ! أيّ الناس خير ؟ قال : من طال عمره و حسن عمله . قال : فأيّ الناس شرّ ؟ قال : من طال عمره و ساء عمله . فسنح من هذا الحديث أنّ طول العمر خير باعتبار وهو اعتبار حسن

العمل ، و شرّ باعتبار و هو اعتبار سوء العمل .

و روى البخاري و مسلم و البيهقي عن جابر بن سمرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : شكى أهل الكوفة سعدًا إلى عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا . فعزله و استعمل عليهم عمّارًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . فشكوا حتى ذكروا أنّه لا يحسن الصلاة . فأرسل إليه فقال : يا أبا إسحاق ! إنّ هؤلاء يزعمون أنّك لا تحسن الصلاة ؟ قال سعد : أمّا أنا ، والله ، فإنّي كنت أصلّي بهم صلاة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ما أخرم عنها ، أصلّي صلاة العشاء فأركد في الأوليين و أخف في الأخريين . قال عمر : ذاك الظن بك يا أبا إسحاق .

فأرسل معه رجلًا أو رجالًا إلى الكوفة . فسأل أهل الكوفة ، ولم يدع مسجدًا إلّا سأل عنه ، و يثنون عليه معروفًا ، حتى دخل مسجدًا لبني عبس .

فقام رجل منهم يقال له " أسامة بن قتادة " ، يكنى " أبا سعدة " ، قال : إذ نشدتنا فإنّ سعدًا كان لا يسير بالسرية ، أي لا يسير مع الجيش للقتال ، ولا يقسم بالسوية ، ولا يعدل في القضيّة .

قال سعد : أما والله . لأدعون الله بثلاث : اللّهم إن كان عبدك هذا كاذبًا و قام رياءً وسمعةً فأطل عمره و أطل فقره و عرّضه للفتن . قال : فكان بعد ذلك إذا سئل يقول : شيخ كبير مفتون ، أصابتني دعوة سعد .

قال عبد الملك بن عمير : فأنا رأيته بعد أن قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر ، و إنّه ليتعرّض للجواري في الطرق يغمزهنّ .

فدعاء سعد على هذا الرجل بأن يطيل الله تعالى عمره يهدينا إلى أنّ طول العمر ربما يكون لصاحبه فتنة و آفة . فطول العمر و إن كان نعمة من وجه لكنه آفة من وجه آخر .

فصل

و لنرجع إلى حلّ إشكال حديث آجال الأمم .

الجواب الثاني : أنّ المقصود من هذا الحديث بيان كثرة ثواب هذه الأمّة الوسط ، حيث

يعملون قليلاً و يثابون كثيرًا . و أمّا اليهود و النصارى فكانوا يؤتون نصف ذلك من الأجر على ضعف العمل . ثم ضرب مثلاً بأجزاء النهار لإفهام العمل الكثير و القليل و الفرق بين أجر هؤلاء و هؤلاء .

الجواب الثالث : في هذا الحديث بيان أصل عمر هذه الأمّة ، و كانت قليلة بالنسبة إلى أعمار أمّة اليهود و النصارى . و ضرب لبيان إفهام أصل عمر هذه الأمّة مثلاً من صلاة العصر إلى المغرب .

ثم زاد الله تعالى عمرها من فضله لما حسنت ، و في الحديث : أنّ البرّ و الإحسان إلى الوالدين و ذوي القربى يزيد في الأثر و العمر . هذا في أعمار الأشخاص . فلا بعد في ازدياد عمر بقاء مجموع الأمّة من حيث المجموع للحسنات و الأعمال الطيبة .

الجواب الرابع : المراد من قوله " إلى صلاة العصر " و من قوله عليه الصلاة والسلام " من صلاة العصر إلى مغارب الشمس " وقت صلاة العصر أي أوّل وقتها . و أوّل وقت العصر من أوّل المثل الثاني كما هو مذهب كثير من الأئمة ، حيث يقولون بأنّ المثل الثاني من العصر ، و هو مختار بعض الأحناف أيضًا كما فصل في كتب الفقه .

فهذا الحديث على هذا التقدير نصّ في طول مدة هذه الأمّة و زيادتها على مدّة النصارى .

و يمكن أن تزيد على مدّة اليهود أيضًا ، إذ لم يبين الحديث إلّا منتهى عملهم وهو نصف النهار . و لابدّ فيه من نكتة . فلعلّ النكتة فيه أنّ بدء عملهم لم يكن من طلوع الشمس ، بل كان بعد ارتفاعها و مضي ثلث النهار أو ربعها ، كما هو المعتاد عند العمّال و الأجراء ، حيث يبتدؤون العمل وقت الضحى . فلو كان ابتداء عمل اليهود من الضحوة الصغرى أو الكبرى ازدادت مدّة الأمّة المحمديّة على اليهود أيضًا . هذا .

هذا بيان حسن . لكن لا يوافقه قولهم في آخر الحديث " نحن أكثر أعمالاً و أقلّ عطاءً " حيث يدلّ بظاهره على طول مدّتهم . إلّا أن يقال : إنّ معنى قولهم " أكثر عملاً " أشقّ و أشدّ عملاً . ولا يخفى أنّهم كانوا مكلّفين بأعمال هي أشقّ و أشدّ مما كلّفنا به . و إطلاق الأكثر على الأشقّ غير مستبعد .

الجواب الخامس : ليس المراد التقابل بين عمر هذه الأمّة و عمر اليهود و النصارى ، بل المراد التقابل بين مدة جميع الأمم الماضية من بني آدم و بين مدّة هذه الأمّة . ولا ريب أنّ مدة الأمّة المحمديّة

أقلّ من مدة جميع الأمم المتقدّمة .

و يدلّ عليه قوله عليه الصلاة والسلام في أوّل الحديث : إنّما أجلكم فيما خلا من الأمم . إذ الظاهر أنّ المراد جميع الأمم الخالية . و أمّا قوله عليه الصلاة والسلام " و إنّما مثلكم و مثل اليهود و النصارى إلخ " فكلام مستأنف ، ليس إيضاحًا لما قبله . بل فيه بيان كثرة ثواب هذه الأمّة و إن قلّ عملهم ، و قلّة ثواب اليهود و النصارى و إن كثر عملهم . هذا . ولله الحمد و المنة . والله أعلم بالصواب و إليه المآب .

الباب الثامن والثلاثون بعد المائة
مشتمل على جوابين

سمعت بعض العارفين و العلماء الكاملين قال في حلّ هذا الإشكال : إنّ في قولنا "كما صلّيت على إبراهيم إلخ" إيماء إلى دعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام و إلى ما تقبّل الله تعالى دعاءه في حق ذريته . فأرسل الله سبحانه في ذرّيّة إبراهيم ببركة هذا الدعاء أنبياء و رسلاً . فنبينا صلى الله عليه وسلم سأل الله سبحانه في قوله "اللّهم صلّ على محمد إلخ" بركات ذلك الدعاء الإبراهيميّ بأن لا تنقضي هذه البركات ، بل تبقى بعده عليه الصلاة والسلام في أمّته إلى يوم القيامة . و مثل هذا التشبيه مما لا يلاحظ فيه التفاضل حتى يرد ما ورد .

ثم ههنا تقريران . كلّ تقرير جواب برأسه لتغاير مبناهما .

التقرير الأوّل متفرع على الدعاء الذي دعا به إبراهيم عليه الصلاة والسلام عند رفع قواعد الكعبة المباركة ، كما قال الله سبحانه حكاية عنه : رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ . فهذا دعاء مختص بنبينا صلى الله عليه وسلم . وقد تقبل الله سبحانه هذا الدعاء حيث أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولذا كان نبينا عليه الصلاة والسلام يقول : أنا دعوة أبي إبراهيم و بشرى عيسى عليهما الصلاة والسلام . فذاته الكريمة مظهر الدعاء الإبراهيميّ .

ثم الظاهر أنّه عليه الصلاة والسلام منتهى الدعاء الإبراهيميّ و غايته التي لا يتعداها إلى من بعد نبينا صلى الله عليه وسلم و إلى من سواه من الآل و الأمّة المحمديّة . إذ يتبادر من فحوى الآية المذكورة أنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يدع لمن بعد نبينا صلى الله عليه وسلم من الأمّة المحمديّة ، بل إنّما أراد إبراهيم بالدعاء ظهور خاتم الأنبياء لا غير عليهما الصلاة والسلام . و أيضًا يتبادر من الآية أنّ بركات هذا الدعاء الذي هو أكبر أدعية بني آدم و أجلها على الإطلاق بحيث

لا نظير له قد انتهت بميلاد خاتم الأنبياء و انقضت بعد إرسال الله إيّاه رسولاً نبيًّا تاليًا للكتاب و معلّمًا للأمّة و مزكّيًا . هذا ظاهر معنى الآية .

فنبينا ﷺ سأل الله تعالى في قوله " اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم " إبقاء بركات هذا الدعاء الإبراهيميّ في آله و أمّته إلى يوم القيامة ، و أن لا ينطفئ نوره إلى نفخة الصور . و هذا بطن الآية . و لكلّ آية ظهر و بطن . و لكلّ حدّ مطلع .

إن قلت : ما صورة بقاء بركات هذا الدعاء في الأمّة المحمدية ؟

قلنا : الآية المذكورة مشتملة على أربعة أدعية :

الأوّل : دعاء بعث الرسول فيهم .

و الثاني : دعاء تلاوة الآيات عليهم .

و الثالث : دعاء تعليم الكتاب و الحكمة .

و الرابع : دعاء تزكيتهم .

و الأوّل مستثنى من البقاء ، حيث سدَّ الله باب النبوة مطلقًا بعد رسول الله ﷺ ، كما هو منصوص في القرآن و الأحاديث . نعم ، بقيت مبشرات النبوة ، و هو الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له ، كما روي في الأحاديث الصحاح . و أمّا الثلاثة الأخيرة فصورة بقائها في الأمّة أن يجعل الله فيهم من يتلو عليهم الآيات و يعلّمهم الكتاب و الحكمة و يزكّيهم . وقد تقبّل الله تعالى هذا الدعاء ، فأنشأ في هذه الأمة العلماء و العارفين بالله الوارثين لعلوم نبيّهم المهتدين بهديه التالين المعلّمين المزكّين . ولا تزال طائفة من الأمّة ظاهرين على الحق ، لا تأخذهم في الله لومة لائم ، ولا تخذلهم مخالفة أعداء الله و أعداء الدين ، كما ورد في الحديث الصحيح . و إليه الإشارة في قوله عليه الصلاة والسلام : العلماء ورثة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) .

والتقرير الثاني مبني على أدعية أخرى لإبراهيم عليه الصلاة والسلام في حق ذريته ، لا على دعاء تلك الآية المتقدّمة .

كما في قوله تعالى حكاية : رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا

وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ . بقرة .

و في قوله تعالى حكاية : رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا و تَقَبَّلۡ دُعَآءِ . رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَ لِوَٰلِدَيَّ وَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ . إبراهيم .

و في قوله تعالى : وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَ بَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ . إبراهيم .

و في قوله تعالى : قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ . بقــرة .

و بيان هذا التقرير سهل ، يعلم بأدنى تدبّر في أدعية هذه الآيات بعد ضبط بيان التقرير الأوّل . والله أعلم بالصواب . و إليه المرجع و المآب .

الباب التاسع والثلاثون بعد المائة
في الجواب الثالث والثمانين ومائة

ما ذكر في المواهب اللدنية و منحة الخالق حواشي بحر الرائق و عمدة القاري و ذكره القاضي عياض و كثير من العلماء ، و هو أنّه عليه الصلاة والسلام قال ذلك قبل العلم بأنّه أفضل من إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

وقد أخرج مسلم من حديث أنس رضي الله عنه : أنّ رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : يا خير البرية . قال : ذاك إبراهيم .

قال ابن العربي بعد الإشارة إلى هذا الجواب : إنّه عليه الصلاة والسلام سأل لنفسه التسوية مع إبراهيم عليه الصلاة والسلام و أمر أمّته أن يسألوا له ذلك . فزاده الله تعالى بغير سؤال أن فضّله على إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

قال ابن حجر رحمه الله تعالى وغيره : و تعقّب بأنّه لو كان كذلك لغير صفة الصلاة عليه بعد أن علم أنّه أفضل . انتهى .

و قال ابن القيم رحمه الله تعالى في " جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام " بعد ذكر هذا الجواب : ولو سكت قائل هذا لكان أولى به و خيرًا له . فإنّ هذه الصلاة التي علّمهم النبي صلى الله عليه وسلم إيّاها لمّا سألوه عن تفسير " إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا " . فعلّمهم هذه الصلاة ، و جعلها مشروعة في صلوات الأمّة إلى يوم القيامة . و النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل أفضل ولد آدم قبل أن يعلم بذلك و بعده . و بعد أن علم بذلك لم يغير نظم الصلاة التي علمها أمّته ، ولا أبدلها بغيرها ، ولا روى عنه أحد خلافها . فهذا من أفسد جواب يكون . انتهى بلفظه .

قلت : لا يبعد أن يقال في جواب التعقب : إنّ الأحكام ربما تبقى شريعة مستمرّة و إن انتفت أسبابها و عللها لسرّ يعلمه الله و رسوله .

و نظير ذلك الرمل في الطواف و السعي بين الصفا و المروة حكاية لما فعلت هاجرة أم إسماعيل عليها الصلاة والسلام و سعت بينهما ، و رمي الجمار ، و الركعتان بعد العصر اللتان كان رسول الله ﷺ يصليهما ، و قد نهى عن الصلاة بعد العصر .

و من هذا الباب الترجيع في الأذان لأبي محذورة رضي الله عنه و تكرار السجدة ، كما في البحر الرائق أنّ جبريل عليه السلام أمّ رسول الله ﷺ فأطال السجدة ، فرفع رسول الله ﷺ رأسه و ظنّ أنّ جبريل رفعه ، ثم وضعه ثانيًا لمّا بدا له أنّه لم يرفعه ، فجعله الله تشريعًا . لاسيما ما يكون من قبيل الإخبار . و منه التشبيه في "كما صلّيت" فإنّه لا ينسخ . و التغيير فيه شائبة النسخ و يوهم ذلك .

و لهذا نظائر في كلّ فن من المعقول و المنقول . قال أبو البقاء في التبيين : إذا ثبت الحكم لعلة أطرد حكمها في الموضع الذي امتنع فيه وجود العلة . ألا ترى أنّك ترفع الفاعل و تنصب المفعول في موضع يقطع بالفرق بينهما من طريق المعنى ، كما لو قلت : ضرب الله مثلاً . فإنّك ترفع الفاعل و تنصب المفعول ، مع أن الفاعل و المفعول معقول قطعًا .

قال : و نظيره من المشروع أنّ الرمل في الطواف شرع في الابتداء لإظهار الجلد ، ثم زالت العلة و بقي الحكم . و مثل ذلك العدة عن النكاح شرعت لبراءة الرحم ، ثم ثبتت في مواضع ليست فيها شغل الرحم . قال : و سبب ذلك أن النفوس تأنس بثبوت الحكم ، فلا ينبغي أن يزول ذلك الأنس .

ثم قال أبو البقاء : و نظيره في التصريف أنّ الواو في مضارع "وعد" و "وزن" حذفت منه لوقوعها بين ياء و كسرة نحو "يعد" ثم حذفت مع بقية حروف المضارعة مع عدم العلّة ليكون الباب على سنن واحد . وله نظائر أخرى . انتهى .

و قال ابن عصفور في شرح الجمل : إنّ الإعراب يفتقر إليه في الأسماء للتفرقة بين المعاني . ولو لا الإعراب لالتبست . ثم قال : فإن قيل : الإعراب قد يوجد في الأسماء غير مفتقر إليه نحو "شرب محمد الماء" و "ركب الفرس عمرو" و أشباه ذلك . ألا ترى أنّ الفاعل ههنا لا يلتبس بالمفعول إذا أزيل

الإعراب . فالجواب أنّ الإعراب لما افتقر إليه في بعض الأسماء حمل سائره على ذلك ، كما أنّ العرب لما حذفت الياء من " يعد " لوقوعها بين ياء و كسرة حذفت من " أعد " و " نعد " و " تعد " حملاً على ذلك . انتهى .

وقال ابن القواس في شرح ألفية ابن معط : قدر الكسرة في المنقوص لاجتماع الأمثال ، إذ الياء بكسرتين و الضم حملاً على الكسر للمناسبة فيهما بدليل اجتماع أصليهما ردفين دون الألف ، و لأنّ الضمة أثقل من الكسرة بدليل قلب الواو ياء إذا اجتمعتا مطلقًا ، و ظهر النصب لخفّة الفتحة ولم تعد الواو في " رأيت غازيًا و داعيًا " فيقال : غازوا و داعوا ، لثبوت القلب رفعًا و جرًّا تغليبًا للحالتين و طردًا للباب . انتهى .

و قال ابن فلاح في المغني : قلبت الهمزة في صحراء واوًا في الجمع نحو " صحراوات " كراهة الجمع بين علامتي تأنيث ، و قلبت في التثنية طردًا للباب على سنن واحد . انتهى . و هذا باب طويل سمّاه النحاة بطرد الباب ، يجري به الأحكام في مواضع لا توجد فيها عللها . راجع لبسطها الأشباه النحوية للشيخ الحافظ السيوطي ج١ ص٢٣٢ .

الباب الأربعون بعد المائة
في الجواب الرابع والثمانين ومائة

شبّه هنا صلاة آل محمد بصلاة إبراهيم و آل إبراهيم عليهما الصلاة والسلام . و المشبّه به على هذا أفضل من المشبّه ، إذ لا ريب في فضل إبراهيم و آله على آل محمد عليهما الصلاة والسلام .

و التفصيل : أنّ لهذه الصلاة إعرابين :

الأوّل : تقدّم العطف على ربط كاف التشبيه بأن يعطف أوّلًا قولنا " على آل محمد " على قولنا " على محمد " ثم يلاحظ التشبيه .

فالعطف مقدم على التشبيه في هذا الإعراب . و إشكال أفضليّة المشبّه به مختص بهذا الإعراب ، حيث يدخل نبينا صلى الله عليه وسلم في المشبّه كما أنّ آله يدخل فيه . فالمشبّه أجلّ من المشبّه به ، أي من إبراهيم و آل إبراهيم . فكيف يطلب للأفضل عطية مثل عطية المفضول .

و الإعراب الثاني : تأخّر العطف من ارتباط كاف التشبيه بأن يلاحظ ربط التشبيه أوّلًا ، أي تشبيه صلاة آل محمد بصلاة إبراهيم و آل إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، ثم يعطف هذا المجموع أي المشبّه و المشبّه به على قولنا " على محمد " ثانيًا .

فالمشبّه في هذا الإعراب آل محمد فقط من غير دخول نبينا صلى الله عليه وسلم فيه . و نظرًا إلى هذا الإعراب لا يرد ذلك الإشكال . إذ لا يرتاب أحد في أفضليّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام و آله على هذا المشبّه أي آل محمد صلى الله عليه وسلم .

إن قلت : هل نبّه أحد من السلف على هذا الطريق من الإعراب ؟

قلت : نعم ، نبّه عليه غير واحد من العلماء المحقّقين . منهم العلامة العصام رحمه الله تعالى في تعليقاته على الفوائد الضيائية لعبد الرحمن الجامي رحمه الله تعالى شرح كافية ابن الحاجب رحمه الله تعالى . و منهم العلامة عبدالغفور في حواشيه الشهيرة في أرجاء العالم على الفوائد الضيائية . و منهم العلامة عبد الحكيم اللاهوري رحمه الله تعالى في تعليقاته على حاشية عبد الغفور .

و أشار إليه الفاضل الخيالي رحمه الله تعالى في تعليقاته على شرح العقائد للسعد ، و السيد السند رحمه الله تعالى في حواشي المطول ، و العلامة حسين بن أحمد رحمه الله تعالى الشهير بزيني زاده في الفوائد الشافية في إعراب الكافية ، و منهم العلامة عبد الله بن أبرار رحمه الله تعالى في مصدر السرور على حاشية عبد الغفور . و منهم الشيخ ملا جمال رحمه الله تعالى في شرح الفوائد الضيائية .

قال ابن الحاجب : و هو (أي الاسم) معرب و مبنيّ .

قال الجامي قبل قوله " معرب و مبنيّ " : قسمان ، مشيرًا إلى أن العطف مقدّم على الحمل ، فيعطف أوّلًا قوله " مبنيّ " على " معرب " ثم يحمل المجموع على المبتدإ ، و إلّا لم يصحّ التقسيم .

قال في مصدر السرور ص٢٠٧ : قال الشارح قدس سره : قسمان ، إشارة إلى دفع ما يرد من أنّ " هو " مبتدأ و " معرب " خبره و " مبنيّ " عطف عليه . و هذا مستلزم لعطف الخاص على العام ، لأنّ المعرب خاص من الاسم كما هو الظاهر . و ذلك غير جائز ، لأنّ ذلك الحمل إمّا أن يكون حملًا أوّليًّا أو يكون حملًا شائعًا . و انتفاء الأوّل لوجود التغاير فيما بين الخاصّ و العامّ ظاهر . و أمّا انتفاء الثاني فلأنّ اللازم فيه أن يكون الموضوع فردًا للمحمول أو يكون أفراد الموضوع أفراد المحمول كما تقرّر . و العامّ بالنظر إلى الخاصّ ليس كذلك .

بيان الدفع : أنّ الخبر مجموع قول المصنف " معرب و مبنيّ " لا معرب فقط . أعني أنّ العطف مقدّم على الربط ، لا الربط على العطف . انتهى بحروفه .

و على هذا الطريق يحمل كلّ عبارة فيها تقسيم الشيء إلى أجزائه أو ذكر المعدود بعد العدد نحو قولك " السكنجبين خلّ و عسل و ماء " و " الجسم الهيولى و الصورة الجسمية و الصورة النوعية " كما زعم الفلاسفة . فيقدّم في هذه الصورة العطف على الحمل و الربط بما قبله .

نعم ، يقدّم الربط و الحمل على العطف في تقسيم الكلّيّ إلى جزئيّاته نحو " الحيوان إنسان و فرس و بقر " و " الكلمة اسم و فعل و حرف " .

و من هذا الباب ما قال ابن الحاجب في الكافية عند البحث على الإعراب : و أنواعه رفع و نصب و جرّ . و في هذا الحمل إشكال ، حيث لا يصحّ أن يقال : أنواعه رفع . أو يقال : أنواعه نصب . و هكذا كما لا يخفى .

فوجّهه العارف بالله الجامي في الفوائد الضيائية بتقدير لفظ " ثلاثة " قبل قوله " رفع إلخ " .

قال العلامة العصام في إيضاح كلام الجامي : هذا نبّه على أنّ الخبر مجموع الثلاثة ، فلا يشكل الحمل على أنواعه و وجه تقديم العطف على الربط . انتهى .

و قال العلامة الشيخ عبد الغفور رحمه الله تعالى في تعليقاته على الفوائد الضيائيّة ص١١٧ طبع هند : قوله " ثلاثة " أشار به إلى أنّ مجموع قوله " رفع و نصب و جرّ " خبر واحد ، ليصحّ الحمل على قوله " و أنواعه " . فيكون العطف مقدّمًا على الحمل ، كما في قولك : البيت سقف و جدران . انتهى .

و من هذا الباب قوله تعالى : قَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَ نِعْمَ ٱلْوَكِيلُ . قالوا : فيه إشكال ، فإنّ قوله " نِعْمَ ٱلْوَكِيلُ " جملة إنشائية ، و قد عطفت على قوله " حَسْبُنَا ٱللَّهُ " و هي خبرية . و عطف الإنشاء على الإخبار غير جائز أو غير فصيح .

و أجابوا عنه بوجوه . منها ما اختاره السيد السند رحمه الله تعالى ، و هو أنّه عطف على " حَسْبُنَا ٱللَّهُ " . و عطف الإنشاء على الإخبار فيما له محلّ من الاعراب جائز ، لكونهما بمنزلة مفردين دون جملتين . كذا نقل عن السيد رحمه الله تعالى المدقّق الخيالي رحمه الله تعالى في شرح شرح العقائد النسفية ص١٠ عند البحث على إعراب قول السعد : و هو حسبي و نعم الوكيل .

و قال الخيالي رحمه الله تعالى أيضًا نقلاً عن السيد رحمه الله تعالى : و يدلّ عليه قطعًا قوله تعالى : قَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَ نِعْمَ ٱلْوَكِيلُ . لأنّ هذه الواو من الحكاية لا من المحكي ، إذ لا مجال للعطف فيه إلّا بتأويل بعيد لا يلتفت إليه ، و هو أن يقال : تقديره " و قلنا نعم الوكيل " . انتهى .

قلت : تكلّم السيّد على هذا الإعراب في تعليقاته على المطول في موضعين . قال فيها بعد

البحث " إنّ ذلك جائز في الجمل التي لها محلّ من الإعراب " : نصّ عليه العلامة (التفتازاني) في سورة نوح و مثله بقولك : قال زيد نودي للصلاة و صلّ في المسجد . و كفاك حجة قاطعة على جوازه قوله تعالى : قَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَ نِعْمَ ٱلْوَكِيلُ . فإن هذه الواو من الحكاية لا من المحكي . أي قالوا حسبنا الله و قالوا نعم الوكيل . انتهى بحروفه .

راجع تعليقاته على المطول ص٥ ، ٦ و ص١٧٧ ، ١٧٨ ، طبع هند . فإنّه بحث هنالك بحثًا مشبعًا .

ملخّص كلام السيد في الآية : أنّ لإعرابها محملين :

المحمل الأوّل : أن تكون الواو من المحكي ، و كونها من المحكي متفرّع على تقديم العطف على الحكاية .

و بعبارة أخرى : كونها من المحكي متفرّع على تقديم العطف على صيرورة " حَسْبُنَا ٱللَّهُ " مقولاً لقوله : قالوا . و على هذا المحمل يعطف أوّلاً قوله " نِعْمَ ٱلْوَكِيلُ " على قوله " حَسْبُنَا ٱللَّهُ " ثم يجعل هذا المجموع مجموع المعطوف و المعطوف عليه مقولاً لقوله " قَالُوا۟ " و منصوبًا به محلًّا .

و المحمل الثاني : أن تكون الواو من الحكاية أي من كلام الحاكي القائل " لقالوا " . و كونها من المحكي مبني على أنّها لم تكن في المحكي ، و إنّما أتى بها الحاكي ، و على أنّ الحكاية مقدّمة على العطف .

و بعبارة أخرى : هذا المحمل مبني على تقديم صيرورة قوله " حَسْبُنَا ٱللَّهُ " مقولاً لقوله " قالوا " بأن يجعل أوّلاً هو مقولاً " لقالوا " و منصوبًا به محلًّا ، ثم يرجع و يعطف ثانيًا قوله " نِعْمَ ٱلْوَكِيلُ " على قوله " حَسْبُنَا ٱللَّهُ " .

فعلى هذا تأتي " لقالوا " مقولان : الأوّل قوله " حَسْبُنَا ٱللَّهُ " و الثاني قوله " وَ نِعْمَ ٱلْوَكِيلُ " . و في المحمل الثاني عطف الإنشاء على الإخبار فيما له محلّ من الإعراب ، و هو جائز لكونهما منصوبين و بمنزلة مفردين لا جملتين .

فالسيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ حمل الآية على المحمل الثاني . فارتفع الإشكال . ولله الحمد والمنة .

إن قلت : ما الفرق بين هذا الجواب و بين جواب الإمام الشافعيّ رحمه الله تعالى المذكور من قبل في الباب التاسع و العشرين ؟

قلت : بينهما فروق :

الأوّل : جواب الإمام حسب تقرير العلماء له مبني على أنّ الكلام تمّ على قوله " على محمد " و بعده كلام مستأنف مستقلّ . و أمّا هذا الجواب فلا ينبني على هذا ، بل الصلاة إلى قوله " و على آل إبراهيم " كلام واحد .

و الثاني : في جواب الإمام يتعلق قولنا " و على آل محمد " بفعل مقدّر وهو " صلّ ". و أصل الكلام هكذا : اللّٰهم صلّ على محمد و صلّ على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم . و في جوابنا هذا يتعلق بالفعل المذكور كما تعلّق قولنا " على محمد " بالفعل المذكور . ولا حاجة إلى تقدير فعل آخر ، بل لا يجوز كما لا يخفى .

و الثالث : قد تقدّم أنّ بعض المحقّقين اعترضوا على جواب الإمام بوجوه عديدة . ولا يرد تلك النقوض على هذا الجواب لاستغنائه عن ارتكاب ما يستبعد كتقدير الفعل و نحو ذلك ،كما لا يخفى .

و الرابع : هذا الجواب يدور على أصلٍ معروف مسلّم بين العلماء ، و هو لحاظ تقدّم الربط على العطف و بالعكس . ولذا قال به كثير من المحقّقين في غير ما موضع و تشبّثوا به في حلّ عدة مواضع معضلة ، و حملوا عليه بعض آيات من القرآن كما تقدّم .

فتخريج الكلام على هذا الأصل قول متين و محمل جيّد و منهاج مستقيم لا عوج فيه و رأي مقبول . بخلاف جواب الشافعي قدّس الله سرّه فإنّه لا ينبني على هذا الأصل نظرًا على عامة عبارات ذكرها العلماء في تفسيره . و لذا نسبه الإمامان ابن تيمية رحمه الله تعالى و ابن القيم رحمه الله تعالى إلى الركاكة في العبارة ، كما تقدّم . هذا . والله أعلم بالصواب و علمه أتمّ و أكمل .

الباب الحادي والأربعون بعد المائة
في الجواب الخامس والثمانين ومائة

هذا ما يفهم من كلام العارف بالله الشيخ أحمد السرهندي المجدّد للألف الثانية باتفاق علماء العرب و العجم . و سرهند بلدة في الهند . و قد أشار الشيخ في مكتوباته الشهيرة في عالم الإسلام إلى أنّ المرتبة المطلوبة في دعاء قولنا " اللّهم صلّ على محمد و على آل محمد كما صلّيت على إبراهيم و على آل إبراهيم " قد حصلت له ﷺ في زمان الشيخ رحمه الله تعالى ، و كمل العدد من الأدعية و الداعين الذي ربط الله تعالى به حصول هذه المرتبة له عليه الصلاة والسلام .

قال في المكتوب السادس إلى الخواجه مجد الدين محمد معصوم رحمه الله تعالى من المجلد الثاني من مكتوباته مبيّنًا فيه وجه كونه عليه الصلاة والسلام مأمورًا باتباع ملّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام :

أظنّ أنّ المقصود من خلقي هو أن تكون الولاية المحمدية منصبغة بالولاية الإبراهيميّة عليهما الصلاة و التحية ، و أن يمتزج حسن ملاحة هذه الولاية بجمال صباحة تلك الولاية . قد ورد في الحديث : أخي يوسف أصبح و أنا أملح ، و أن يبلغ مقام المحبوبية المحمديّة بهذا الانصباغ درجة عليا .

و يشبه أن يكون المقصود من الأمر باتباع ملّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام حصول هذه الدولة العظمى ، و أن طلب الصلوات و البركات المماثلين لصلوات إبراهيم و بركاته على نبيّنا و عليه الصّلاة والسلام إنّما هو لأجل هذا الغرض . و الملاحة و الصباحة كلتاهما منبئتان عن حسن الذات تعالت و تقدّست من غير مزج الصفات . ولكن حسن الصفات و الأفعال و الآثار كلّها مستفاد من حسن الصباحة الكثيرة البركة . و حسن الملاحة أنسب بحضرة الإجمال .

و كأنّ الملاحة مركز للحسن ، و الصباحة دائرة ذلك المركز . و كما أنّ في حضرة الذات بساطة كذلك فيها وسعة أيضًا . و ليست تلك البساطة و الوسعة مما يجيء في فهمنا ، و ما ذلك الإجمال و التفصيل مما يدرك بإدراكنا ، لا تدركه الأبصار و هو يدرك الأبصار و هو اللطيف الخبير . و البساطة و الوسعة اللتان نثبتهما في حضرة الذات كلّ واحدة منهما متمايزة عن الأخرى ، لا أنّها عين الأخرى كما ظنّ البعض .

و أمّا التميز الذي هو ثابت في تلك المرتبة بين الأنبياء فهو خارج عن حيطة إدراكنا و بعيد عن دائرة أفهامنا . فتكون الصباحة و الملاحة أيضًا متمايزتين في تلك المرتبة ، و تكون أحكام كلّ واحدة منهما مغايرة لأحكام الأخرى .

فعلم أنّ المقصود الذي كنت فهمته من خلقي قد حصل . و مسؤول ألف سنة صار مقرونًا بالإجابة . الحمد لله الذي جعلني صلة بين البحرين و مصلحًا بين الفئتين أكمل الحمد على كلّ حال . و الصلاة والسلام على خير الأنام و على إخوانه الكرام من الأنبياء و الملائكة العظام .

و لمّا صارت الصباحة أيضًا متلوّنة بلون الملاحة لا جرم حصلت الوسعة لمقام الخلّة الإبراهيميّة أيضًا ، و نال المحيط حكم المركز أيضًا .

ينبغي أن يعلم أنّ لمقام المحبة مناسبة بمرتبة الملاحة ، و لمقام الخلّة بمرتبة الصباحة . و في المحبة كانت المحبوبية الصرفة نصيب خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام ، و المحِبّيّة الخالصة مخصوصة بكليم الله عليه الصلاة والسلام ، و في الخليل عليه الصلاة والسلام نسبة الجليسيّة و النديميّة . و كلّ من المحبّ و المحبوب غير الجليس و النديم ، و لكلّ واحد منهما نسبة على حدة .

و لمّا كان هذا الفقير مربًّى بالولاية المحمدية و الولاية الموسوية على صاحبيهما الصلاة والسلام كان له موطن و مسكن في مقام الملاحة . و نسبة المحبوبية غالبة فيه بواسطة محبته للولاية المحمدية . و نسبة المحبية مستورة و مغلوبة . انتهى كلام العارف الشيخ أحمد بتعريب . مكتوبات ج٢ ص١٤ . هذا . والله أعلم بالأسرار و الحقائق و علمه أكمل و أتمّ .

الباب الثاني والأربعون بعد المائة
في الجواب السادس والثمانين ومائة

من مارس كتب الأدباء و طالع دواوين الشعراء و نظر في مقامات الألباء الأذكياء و تفحّص أسفار الفصحاء البلغاء و خطب الخطباء استيقن استيقانًا أنّ التشبيه سواء كان مع ذكر كلمة التشبيه أو بحذفها و سواء كان الطرفان له مذكورين أو أحدهما المشبّه به كما في الكناية أو المشبّه كما في غيرها محذوفًا كثيرًا ما لا يستدعي أن يكون المشبّه به فيه أفضل و أكمل أو أعرف و أشهر .

بل قد يكون بخلاف ذلك . و كثيرًا ما يؤتون بالتشبيه لكونه أدلّ على دقة الخيال و لطف المنال ، و أدخل في تزيين الكلام و تأثير قلوب الخواصّ و العوامّ و ترشيح المرام ، و أعرق في تحسين تراكيب الألفاظ و ترصيع الإشارات بالإلحاظ يزيد الكلام حلاوةً و بهاءً و الغرض طلاوةً و رواءً . بل كلّما كان التشبيه أدقّ و على الذهن أشقّ و من تبادر العقل أبعد و لطيران التخيّل و التفكّر أطلب و أقصد كان أعلق بالقلب و أبدع ، و أعجب عند الأديب و أنفع ، و أدلّ على أنّ مورده للطائف الشوارد أصيد ، و للدرر المنثورة أنظم و أنضد ، و عند الارتقاء للوامع دراري السماء أطلب و أصفد .

يختارون في الاستعارات ألفاظًا لمعانيها مهابة في السمع و إن لم تكن أفضل ولا أشهر في النفع . ألا ترى كيف استعاروا اللجّة للمعالي . لأنّ اللجة مخوفة قلّ من يقدم على هولها أو يركب ظهرها . و ألا ترى إلى قول أبي الفتح البستي ، و حسنه العلامة الصفدي :

حذفت و غيري مثبتٌ في مكانه　　　كأنِّيَ نون الجمع حين تضاف

فقوله "كأنّي نون الجمع " أي فضل لنون الجمع بالنسبة إلى المشبه ، وهو الشاعر المنشد ، و أيّة شهرة لحذفها حيث لا يعرف ذلك إلّا طائفة النحاة ، ولا يتفكّر فيه أحد من العوام . نعم ، في هذا التشبيه لطافة و دقّة و بعد شقة يتأثر منها القلب ، و ذلك لا يخفى . و ألا ترى إلى قول المولي صفي الدين عبد العزيز الحلي :

ولقد ذكرتك و العجاج كأنه مطل الغني و سوء عيش المعسر

لا فضل ولا كمال ولا شهرة لمطل الغني و سوء عيش المعسر بالنسبة إلى العجاج . و إن سلّمنا فليس تفوق هذا الشعر لذلك ، بل لكون التشبيه أشدّ تأثيرًا في القلوب و ألطف لكونه أبعد عن الذهن و أخفى عليه . و قول أبي الطيب المتنبي :

كأن الهام في الهيجا عُيُونٌ وقد طُبِعَتْ سيوفُك من رُقادِ
وَقَدْ صُغْتَ الأَسنّة مِنْ هُمُومٍ فما يَخْطُرْنَ إلّا في فؤادِ

تفكّر في حلاوة هذا الكلام و طلاوة هذا المرام . و ما هو إلّا لبعد التشبيه عن الأذهان و دقّة مصيده عند الإخوان ، حيث لا يطلع عليه إلّا أمثال المتنبي ، لا لكينونة الهام و السيف أدنى فضلاً و معرفة ، و العين و الرقاد أعلى في ذلك . و أين فضل الطل من الوابل الصيب .

و قول ابن المعتز :

فكأنّه في الحربِ شَمْـــسٌ والرؤوسُ له مغارب

فتفوّق هذا الشعر ليس ، لأنّ الشمس و المغارب أعلى من السيف و الرأس و إن كان فضل الشمس و المغرب مسلّمًا ، بل هذا التفوق لشدة الربط و المناسبة بين الطرفين و دقّة ذلك ، بحيث لا يقدر عليه إلّا الخواص . و من هذاالقبيل قول الآخر ، و ما أحسنه :

كأنّ سِنَانَ ذابلِهِ ضَمِيرٌ فليسَ عَنِ الْقُلُوْبِ له ذَهَابُ

حيث شبّه المقصود الذي هو بصدد بيانه بلزوم الضمير بالقلب . و هذا المشبّه به قلّما يذهب إليه ذهن أحد . و من ثم صار به الشعر لطيفًا .

و منه ما قال الزمخشري في مقاماته ، مقامة الصدق ص١٩٢ : و صنه أي اللسان من خطأ الكذب و عمده كما يصان اليماني في غمده .

شبّه صون اللسان بصون السيف مع كون المشبّه أفضل و أعلى و أمره أحكم و أشدّ لتحسين الكلام . لأنّ التشبيه و الاستعارة في الكلام كالملح في الطعام .

و قال أيضًا في هذه المقامة : لو مثل الصدق لكان أسدًا يروع ، ولو صور الكذب لكان ثعلبًا يروغ .

شبّه الصدق بالأسد و الكذب بالثعلب . فازدادت مهابة الكلام و بهاؤه ، لا لأنّ الأسد أعلى من الصدق و الثعلب أقبح و أسوء من الكذب .

و قال أيضًا في هذه المقامة : ولا يكونن موعدك مثل لمع البروق (هي الناقة) بالذنب . ولا مشبّهًا بلمع البروق الخلّب . انظر إلى المهابة في هذا الكلام ، ما أورثه التشبيه بأمرين بعيدين لا ينتقل إليهما الذهن إلّا بعد تفكر .

و قال الشاعر في التغرب :

تَتقاذَفُ الأَهْوَالُ بي فَكأنَّني وُلِّيتُ أَمْرَ مِسَاحَةِ الآفَاقِ

و من تشبيهات أبي الطيب الحسنة البعيدة عن العقول ما لا يطير إليه إلّا خيال مثل أبي الطيب :

يُخيَّلُ لي أنّ البلادَ مسامعٌ و أنّي فيها ما تقول العواذلُ

و قال الآخر :

ولي سنة لم أدرِ ما سُنَّةُ الكرى كأنّ جفوني مسمعي والكرى العذلُ

يعني أن النوم ما دخل عينيه كالعذل الذي لم يجر في مسمعه .

قال الصلاح الصفدي : هذا أحسن من قول أبي الطيب أوّلاً .

و من هذا القبيل قول ابن سهل المغربي ، وما أحسنه لدقّة مغزى التشبيه ، لا لفضل المشبّه به ولا لكونه أشهر :

كأنّ القلب و السلوان ذهنٌ　　يحوم عليه معنى مستحيلُ

و هو مأخوذ من قول أبي تمام الطائي :

و كنتُ أعزَّ عِزًّا من قُنوعٍ　　تعوّضَه صَفوحٌ عن جَهولِ
فصرتُ أذلَّ من معنًى دقيقٍ　　به فقرٌ إلى فهمٍ جليلِ

و قال أبو الطيب في كثرة الأسفار ، و أبدع فيه تشبيهًا حيث شبّه نفسه بريشة :

كَرِيْشَةٍ بِمَهَبِّ الرِّيحِ سَاقِطَةٍ　　لا تَسْتَقِرُّ عَلى حَالٍ مِنَ الْقَلَقِ

و ما ألطف ما قال القاضي عبد الوهاب لصيد فكره التشبيه الشاذّ الفاذّ الشارد عن الفكر الحاذّ :

أطال بين الديار ترحالي　　قصور مالي و طول آمالي
إن بتُّ في بلدةٍ مشيت إلى　　أخرى فما تستقرّ أجمالي
كأنّني فكرة الموسوس ما　　تبقى مدى ساعةٍ على حالِ

و من لطائف الاستعارات و شرائف التشبيهات ما صاده باز فكر الأرجاني حيث قال في الأسفار و كثرتها :

و أخو الليالي ما يزال مراوحًا　　ما بين أدهمِ خيلها و الأشهبِ
فالأرض لي كرة أواصل ضربَها　　و صوالجي أيدي المطايا اللُّغَّبِ

شبّه الأرض بالكرة و قطعها بضرب الكرة و أرجل النياق بصوالج تضرب بها الكرة و الفضاء المعلّق فيه الأرض بميدان اللعب بالكرة .

و ما أحسن قول ابن عنين :

فَحَتّامَ لا أَنفَكُّ في ظَهْرِ سَبْسَبِ أهَجِّرُ أو في بَطْنِ دَوِّيَةٍ قَفْرِ
أُشَقِّقُ قَلْبَ الشَّرقِ حَتّى كأَنّني أُفَتِّشُ في سَوْدَائِهِ عَنْ سَنَا الْفَجْرِ

و ما ألطف ما قال أبو الحسين الجزار لبعد المشبّه به عن عامة الأذهان ، و هو الدجال الملعون القبيح ، و مع قبحه أصبح الكلام به لطيفًا . قال :

والأرض قد ثقلت عليها وطأتي إذ عمّها الإدبار و الإقبالُ
حتّامَ أمسحها فلولا أنّ لي عينينِ قالَ الناسُ ذا الدجالُ

و قال ابن اللبانة :

كأَنَّما الأَرضُ عنّي غيرُ راضيةٍ فلَيسَ لي وَطَنٌ فيها ولا وَطَرُ

و بالغ شهاب الدين أحمد المناوي في قوله ، و ذكرته استطرادًا :

إنْ عِشْتُ عِشْتُ بِلا أهلٍ ولا وَطَنٍ و إن مَضيتُ فَلا قَبرٌ ولا كَفَنُ
أَظنُّ قَبري بطونَ الْوَحْشِ تَرحَلُ بي بعد الممات ففي الحالينِ لي ظَعَنُ

و قال المولى جمال الدين محمد بن نباتة :

ليتَ شِعْرِي إلى متَى أَتَشكّى سَفرًا ما له ولو مُتُّ آخِر
بطني سَارِي الْوُحُوشِ قبرِي فما أَبـــــرَحُ في الموتِ و الحياةِ مُسَافِر

و المناوي أخذ المعنى من قول أبي بكر بن العطار اليابسي حيث قال في القتلى :

وقد عوَّضتهم من قبورٍ حواصلاً فيا من رأى ميتًا يطيرُ به القبرُ

ذكرت هذه الأقوال الثلاثة استطرادًا ، و الكلام يجرّ الكلام .

وما أسنى ما قال أبو الحسين ابن الإمام الغرناطي في جمع التشبيهات :

يا ليت شعري و الأماني كلُّها　　برقٌ يغُرُّكَ أو سَرَابٌ يَلْمَعُ
هل ترتَعَنّ ركائبي في بَلدَةٍ　　أم هكذا خُلِقَتْ تَخُبُّ وَ تُوْضعُ
في كلّ يومٍ منزل و أحبة　　كالظلّ يلبس للمقيل و يخلعُ

و قال أبو الحسن علي بن زريق البغدادي في ذلك :

تأبَى المطالبُ إلاّ أن تُجَشِّمَه　　للرزقِ كَدْحًا و كم مِمَّنْ يُودِّعُه
كأنّما هو في حَلٍّ و مُرْتَحلٍ　　مُوَكَّلٌ بفضَاء الأرضِ يذرَعُه

كلّ هذه الأقوال من واد واحد . و من هذا الباب التشبيه بنحو واو عمرو في كونها حشوًا و زائدة لتحسين الكلام و تلطيف المرام و تنشيط السامع بذكر أمر ظريف ، لا لكونها أفضل و أعلى أو أشهر و أجلى . كما لا يخفى على المتفطن الأديب . قال أبو نواس يهجو أشجع السلمي :

قلْ لمن يدّعي سُليمْى سفاهًا　　لستَ منها ولا قُلامة ظفرِ
إنّما أنتَ من سُليمْى كَوَاوٍ　　أُلْصِقَتْ في الهِجاءِ ظُلْمًا بِعَمْرِو

و من اللطائف ما حكي أنّ بعض الناس رأى في منامه أنّه قد كتب على ظفره واوًا . فجاء إلى المعبر و قصّ عليه الرؤيا . فقال له : أنت دعيّ في نسبك . و استشهد بالبيتين المذكورين .

و قال آخر يهجو :

غير المقُوْلِ عيوبه كالواوِ مِنْ　　عمرٍو يُرى و اللّفظ عنه قصيرُ
كالنّونِ من زيدٍ يُقال مديحُهُ　　باللّفظِ لكِنْ لا يراهُ بصيرُ

و قال التهامي :

لغوٌ كحرفِ زِيدَ لا معنى لهُ　　أوْ وَاوُ عمرٍو فقدُها كوجودِها

و قال أبو سعيد الرستمي :

أفي الحقِ أنْ يُعطى ثلاثون شاعرًا ويُحرَم ما بين الورى شاعرٌ مثلي
كما سامحوا عَمْرًا بِوَاوٍ مَزِيدةٍ و ضُوَيْق اسم اللهِ في ألِف الْوَصْلِ

و قال شرف الدين بن عنين :

كأنّي في الزّمان اسمٌ صحيحٌ جَرى فتحكَّمتْ فيه العوامل
مزيدٌ في بنيه كواوِ عمرٍو ملغى الحظِّ فيه كراءِ وَاصِل

و ما أحلى قول ابن نفادة :

أقلّ وجدي مُذْ تَنَاءَوا فِكَرُ و بعض ما ألقاه فيهم سَهَرُ
أَنْحَلني الوجدُ فجسمي أَلِف الـــــــوَصْلِ و أسقامي ليست تظهرُ

و من هذا القبيل تشبيه الصدغ بالواو . وهو كثير مشهور بين الشعراء .

و من ذلك قول ابن قلاقس الإسكندري :

قَرَنْتَ بواو الصدغ صادَ المُقَبّلِ و أبديتَ لامًا من عذارٍ مسلسلِ
فإن لم يكن وصلٌ لديك لعاشقٍ فماذا الذي أبديت للمتأمّلِ

و قال البهاء زهير :

عَسَى عَطْفَةٌ لِلْوَصْلِ يَا واوَ صُدغِهِ و حقك أنّي أعهد الواوَ تعطِفُ

و قال مهيار ملغزًا في السيف :

و ابنٍ سررتُ به إذ قيل لي ذكرٌ فصنتُهُ و يُصَانُ الدُّرُّ في الصّدفِ
أخشى الرياحَ عليه أن تهبّ فما تراهُ في غيرِ حجري أو على كتفي
يتيهُ من فوقِ كرسيٍ وهبتُ لهُ من اللّجين بقدٍّ قام كالألفِ

و قد أحسن محاسن الشواء حيث قال في جارية زرقاء العيون :

و غـادةٍ قلت لها ألَّا رعيتِ في الحبّ لنا إلَّا
و طرفكِ الأزرق ما بالهُ يحدث فينا لحظه القتلاَ
قالت ألا يقتل طرف حكى لون سنان الرمح و الشكلاَ
قد عملت " إنّ " على أنّها حرف وقد أشبهت الفعلاَ

و من هذا القبيل التشبيه بالحروف و الأسماء و الأفعال و نحو ذلك ، حيث لا يتوخّى فيه إلّا اختيار الجدة ، و كلّ جديد لذيذ . ولا يقصد فيه إلّا إيراد البعيد الأجنبي . و مثل ذلك يورث التعجب ، ولا يراد فيه إلّا إظهار القدرة على تقييد الأوابد و الغرائب . وهذا يدلّ على أن صاحبه ذو العقل الفعّال و الفكر الجوّال و اللسان القوّال .

قال الزمخشري في مقامة النحو من مقاماته ص١٩٥ : يا أبا القاسم أعجزت أن تكون مثل همزة الاستفهام إذ أخذت على ضعفها صدر الكلام . ليتك أشبهتها متقدّمًا في الخير مع المتقدّمين . ولم تشبه في تأخّرك حرف التأنيث و التنوين .

و أيضًا قال : ضارع الأبرار بعمل التوّاب الأوّاب . فالفعل لمضارعته الاسم فاز بالإعراب .

ثم قال : و مادة الخير أن تخفى شخصك إخفاء الضمير المستكنّ . فإنّ الخفاء يجمع يديك على النجاة و الاستعصام كما استعصمت الواو من القلب بالإدغام . ولا يكونن ضميرك عن الهمّ الديني ساليًا كما لا يكون أفعل من الضمير خاليًا . و عوضه من تلك السلوة ذلك الهمّ كما عوضت الميم من حرف النداء في اللّهم ، و أثبت على دين الحق الذي لا يتبدل ، ولا يحول ثبات الحركة البنائية التي لا تزول ، ولا تكن في الترجيح بين مذهبين كالهمزة الواقعة بين بين . إنّك لاترى شيئًا إلّا مستهدفًا للحوادث و النوائب كما ترى الاسم عرضة للخوافض و الروافع و النواصب . و تجلد في المضي على عزمك و تصميمه ، ولا تقصر عما في الفم من جلادة ميمه . وليحجبك همّك عن الركون إلى هؤلاء المستولية كما تحجب عن الإمالة الحروف المستعلية ، و احذر أن يعرفك الديوان و عطاؤه ما دامت مبدلة من واوه ياؤه . انتهى كلام الزمخشري باختصار .

و أمّا تشبيه أعضاء الإنسان بالحروف فقد أكثر من ذلك الشعراء و الأدباء طلبًا للاستظراف و رومًا للاستملاح . فشبّهوا الحاجب بالنون و العين بالعين و الصدغ بالواو و الفم بالميم و الصاد و الثنايا بالسين و القامة بالألف و الطرة بالشين . فمن ذلك قول البعض :

لا تقولي "لا" فمكتوب على وجهك المشرق نورًا نعم
بحروف خلقت من قدرة ما جرى قط عليها قلم
نونها الحاجب و العين بها طرفك الفتان و الميم فم

و قول الصلاح الصفدي :

عَلِقتُها من بنات التُّرك قد غَنِيَتْ بدمع عاشِقِها عن منَّة الشُّنُفِ
يا لَلهوى عينُها عينٌ و حاجبُها نونٌ و تمَّ العنا من قدّها الأَلِفِ

و قول محاسن الشواء :

أرسلَ فَرْعًا ولَوَى هاجري صُدغًا فأعيى بهما واصفَهْ
فخِلْتُ ذا من خَلْفِهِ حيَّةً تسعى و هذا عقربًا واقفَهْ
ذي أَلِفٌ ليست لوصلٍ و ذي واوٌ و لكن ليستِ العاطفَهْ

و قول جمال الدين يحيي بن مطروح :

قالت لنا أَلِفُ العذار بخدّه في ميم مبسمه شفاء الصادي

و قول الآخر :

كأنّ عذاره المسكيّ لامٌ و مبسم ثغره الدريّ صادُ
و مسبل شعره ليل بهيم فلا عجب إذا سُرق الرقادُ

و قال ابن نقادة :

صنم الجمال فصاده من عينها　　و النونُ حاجبها بخالٍ تنقطُ
و الميم فوهًا فالحروف تألّفتْ　　مكتوبةً وا لصبر عنها يكشطُ

و ما أحسن قول الآخر :

ياسين طرتها و صاد عيونها　　إنّي أُعَوِّذها بسورة طه

و قال الصلاح الصفدي :

سين الثنايا حوتها ميم مبسمهِ　　طوبى لم ذاق منها كأس تسنيمِ
و من عجائب وجدي أن بي سقمًا　　مابرؤه غير تلك السين و الميمِ

و قول الآخر :

تالله ما لمعذّبِي في حسنهِ　　شَبَهٌ فأيُّ حشًا عليه لم تهِمْ
لامُ العذارِ و ميمُ مبسمهِ على　　ما أدَّعِي من حسنه برهان لِمْ

فالأدباء و البلغاء يفتخرون برفعة التخيّل و التشبيه بأمر خفي . روي أنّه خرج الوزير نظام الملك أبو الحسن علي المشهور بالعدل و ببناء المدارس إلى الصلاة ، فجلس قليلاً ، ثم التفت إلى الحاضرين و قال : هنا بيت شعر أريد له أوّلاً ، وهو :

فكأنّني وكأنّه وكأنّها　　أملٌ ونَيْلٌ حالَ بينهما القضا

وكان في الجماعة أبو القاسم مسعود بن محمد الخجندي الشافعي ، فقال :

أفدي حبيبًا زارني متنكرًا　　فبدا الوشاة له فولّى معرضًا

و قال المولي جمال الدين يوسف الصوفي :

كأنّما البدر وقد أشرقت　　أنواره بين غضونِ الغصون
وجه حبيبٍ زار عشاقَهُ　　فاعترضتْ من دونهِ الكاشحون

و قال الصلاح الصفدي في هذا التشبيه :

كأنّما الأغصان لما انثنتْ أمام بدر التمّ في غيهَبِهِ
بنت مليكٍ خلف شبّاكِهَا تفرَّجَتْ منهُ على موكِبِهِ

و قال أيضًا :

كأنّما الأشجار في روضها و البدر في غيهبِهِ مسفرُ
بنتُ مليكٍ خلف شبّاكها قامت إلى موكبِهِ تنظرُ

و قال أيضًا :

و كأنّما الأغصان تثنيها الصبا و البدر من خللٍ يلوحُ و يحجبُ
حسناء قد عامت و أرخَتْ شعرَها في لُجَّةٍ و المَوجُ فيه يلعبُ

و قال الشيخ المحدث تقي الدين بن دقيق العيد :

الحمد لله كم أسمو بعزمي في نيل العُلى و قضاءُ الله ينكسهُ
كأنّني البدرُ يبغي الشرقَ و الفَلَكُ الْـ أعلى يعارضُ مسراهُ فيعكسُهُ

قلت : أخذه تقي الدين من ناصح الدين الأرجاني حيث قال :

سَعْيِيْ إليكم في الحقيقة و الذي تجدون عنكم فهو سَعْيُ الدهر بي
أَنحُوكُم و يردُّ عزمي القهقرى دهري فسَيْرِي مثل سير الكوكبِ
فالقصد نحو المشرق الأقصى له و السير رأيُ العين نحو المغربِ

لكن الشيخ ابن دقيق العيد أتى به كاملاً في بيت واحد . فهذه التشبيهات و الاستعارات في غاية الحسن التي تكبو الفحول دون بلوغها ، و يعجز الشعراء عن الظفر بمصونها و التحلّي بمصوغها . و إذا نظرت فيها تيقنت أن حسنها لكونها دقيقة خفيّة بحيث صارت الأشعار بها مليحة بهيّة ، لا لكون المشبّه به أفضل و أشهر ، وإن كان لا ينكر فضله في بعض الأشعار المذكورة .

و من هذا الوادي تشبيه الشعراء الشمس بأشياء مشرقة لامعة لتحسين الكلام ، و إبداء مقام الخاطر في الارتقاء ، و إظهار منزل التخيّل عند الأذكياء .

قال الوزير أبومحمد المهلبي :

الشَّمْسُ من مَشْرِقِها قد بَدَتْ　　مُنِيرَةً ليْسَ لها حاجِبُ
كأنَّها بَوْتقَـةٌ أُحْمِيَتْ　　يَجُولُ فيها ذهبٌ ذائِبُ

أين إشراق الذهب المسبوك في البوتقة و الإناء من إشراق الشمس ، و أين الثرى من الثريا ، لكن مع هذا انظر إلى رونق للشعر أورثه التشبيه و بهاء ألبسه هذا التنويه . لولا البيت الثاني المحتوي على التشبيه لكان الكلام مبذولاً مخذولاً عاميًا خاليًا عن الفائدة ، فضلاً عن الرونق و البهاء .

و ظرف ظافر الحداد الإسكندري في قوله :

أُنْظُرْ لِقَرْنِ الشَّمْسِ بَازِغَةً　　في الشَّرْقِ تَبْدُو ثم تَرْتَفِعُ
كسَبِيْكَةِ الزَّجّاجِ ذائِبَةً　　حَمْرَاءَ تَنْفُخُهَا فَتَتَّسِعُ

و أخذه الآخر فقال و أحسن :

يا حُسنها وقد دنا طلوعها　　فأضحكت بقُربها سماءَها
كأنّها عينٌ بها جاريةٌ　　وقد أفاضت في السماءِ مَاءَها

و قال ابن المعتز في الشمس و الغيم وهو بديع :

تظل الشمس تَرمُقُنا بلحظٍ　　مريضٍ مُدْنَفٍ من خلفِ سِتْرِ
تحاول فَتْقَ غيمٍ وهو يأبَى　　كعِنِّينٍ يريد نكاحَ بكرِ

و قال المهلبي :

و الشمس حيرى خلف غيمٍ عارضٍ　　فكأنَّنا في ضوء ليلٍ مُقمرِ

و قال في طلوعها مبادرة القمر :

أما ترى الشمسَ وهي طالعة تمنعُ منّا إدامة النظرِ
حَمْرَاءَ صفراءَ في تلوُّنها كأنّها تشتكي من السَّهرِ
مِثل عروسٍ غداةَ ليلتِها تمسكُ مرآتها من القمرِ

و ما أحسن قول ابن طباطبا :

متى أبصرتَ شمسًا تحتَ غيم ترى المرآةَ في كفِّ الحسودِ
يقابلُها فيلبِسُها غشاءً بأنفاسٍ تزايدُ في الصعودِ

و هذا يشبه شعر أبي بكر محمد بن هاشم في السماء :

و تنقّبتْ بِخَفيفِ غيمٍ أبيضٍ هي فيه بين تخفُّرٍ و تبرُّجِ
كتنفُّسِ الحسناء في المرآة إذ كملتْ محاسنُها ولم تتزوّجِ

و قال أبو حفص بن برد :

و البدر كالمِرآةِ غيَّرَ صَقْلَها عَبَثُ الغواني فيه بالأنفاسِ

و ما أعدل قول المعوج :

كأنَّ شعاعَ الشمسِ في كلِّ غُدوةٍ على وَرقِ الأشجارِ أوّلَ طالعِ
دنانير في كفِّ الأشلِّ يضمّها لقبضٍ فتهوِي من فُرُوْجِ الأصابعِ

و هو مأخوذ من قول أبي الطيب المتنبي :

و ألقى الشرق منها في ثيابي دنانيرًا تفرّ من البنانِ

و لكن زاده في المعنى "كف الأشلّ" لكثرة اضطرابها في حركتها . وهو حسن . ولكن هذه الزيادة أيضًا أخذها من قول ابن المعتز :

٤   و الشمس كالمرآة في كف الأشلّ

و من هنا أخذ ابن قلاقس رحمه الله تعالى قوله :

و الرمل في حُبُكِ النسيمِ كأنّما   أبدَى غضونَ سوالفِ المذعور
و البحر يرعد متْنُه فكأنّه   دِرْعٌ يُشَنُّ بمعطفي مقرور

بل أخذه من قول الآخر في الخمر :

كانَتْ سراجُ أُناسٍ يهتدون بها   في سالفِ الدَّهْرِ قبْلَ النَّارِ و النُّوْرِ
تَهْتزُّ في الكأس مِنْ ضعْفٍ و من كبرٍ   كأنّها قَبَسٌ في كفِّ مقْرُوْرِ

و أخذها القاضي الفاضل أيضًا فقال :

والشمسُ من بين الأرائِك قد حكَتْ   سيفًا صَقِيلاً في يد رعشاء

و قال ابن الرومي :

كأنَّ جنوحَ الشّمسِ عندَ غروبها   وقد جعلتْ في مَجنَحِ الليل تَمْرضُ
تَخاوُصُ عَينٍ مسَّ أجفانَها الكرى   ترنّق فيها النّومُ وهي تغمّضُ

وقال ابن قلاقس :

و الشّمسُ في وقتِ الأصيل بهارةٌ لُفَّتْ بِوَرْدِ

و قال ابن خفاجة :

والنقعُ يُكسر من سنا شمس الضحى   فكأنّه صدأٌ على دينارِ

و قوله " صدأ على دينار " فيه نظر . لأنّ الذهب من جملة خواصّه أنّه لا يعلوه صدأ ولا يركبه ولا يبليه التراب . نعم ، قالوا : إذا علق في مكان تتصاعد إليه الرطوبات كما إذا علق في فضاء بير أو ما أشبهه ربما بلي و يعلوه صدأ . و ابن النبيه استعمل الصدأ ، فأحسن في قوله :

والظّلُّ يسبح في الغديرِ كأنّه   صدأٌ يلوحُ على حسامٍ مُرْهَفِ

و هو تشبيه وقع موقعه بخلاف قول ابن خفاجة . وقد أحسن ابن سناء الملك أيضًا في قوله :

كأنّ أصل الجوّ في نهرها   سحالة العسجد في المبردِ

و قال الإمام العلامة شهاب الدين أبو الثناء محمود رحمه الله تعالى :

والشمس في طَفَلِ الإمساء تنظر من   طرفٍ غدا وهو من خوفِ الفراقِ خفي
كعاشقٍ سارَ عن أحبابه وهفَا   به النّوى فتَراءَاهُمْ على شرفِ

و لابن الرومي في غروب الشمس :

و لاحَظَتِ النّوَّارَ وَهْيَ مريضةٌ   وقد وضعتْ خدًّا على الأرضِ أذرعَا
و ودَّعتِ الدُّنيا لتقضيَ نحبَها   وشَوَّلَ باقي عُمرِها فتَضَعْضَعَا
كما لاحظتْ عُوَّادَها عينُ مُدْنَفٍ   توجَّع من أوصابهِ ما توجَّعا

و قال بعض الأعراب في طلوعها و أحوالها :

و ألبسَ عرضَ الأرضِ لونًا كأنّهُ   على الأفقِ الغربي ثوبٌ معصفَرُ
عليها كدرع الزعفرانِ يشوبهُ   شعاعٌ تلألآ فهو أبيضُ أصفرُ
فلما انجَلَتْ و ابيضَّ منها اصفرارُها   و جالتْ كما جالَ الوشاحُ المشهَّرُ
ترى الظلّ يطوي حين تبدو و تارةً   تراهُ إذا زالتْ على الأرضِ يُنشرُ
كما بدأت إذ أشرقتْ بطلوعِها   تعودُ كما عادَ الكبيرُ المعمّرُ
فأفنت قرونًا وهي إذ ذاكَ لم تزلْ   تموتُ و تحيا كلّ يومٍ و تنشَرُ

و قال الزين الجوبان :

أُنظر إلى الشّمس وقد عمَّمَتْ رُؤْسُ الهضابِ الصُّلْعِ بالأصفرِ
كأنّها في الجوّ قلّاعة و جاء فلّاحٌ عليها خَرِيْ

{ رُؤْس أي رُؤُوْس ، التخفيف لضرورة الشعر }

و تكلف ابن الرومي و عدد للقمر معايب و شبّهه بأمور مستقبحة فقال :

قالَ يا بدرُ أنتَ تغدِرُ بالسا رِي و تغري بزَوْرَةِ الحَسنَاءِ
كَلَفٌ في بياضِ وجهكَ يحكي نَمَشًا فوق وجنةٍ بَرصاءِ
يعتريكَ المَحَاقُ في كلّ شهرٍ فترى كالقُلاعة الجَجْنَاءِ

قالوا : القمر يغرّ الساري ، لأنّه يخفي الكواكب فيضلّه . و يفضح العاشق . و قال فيه الشاعر يذمّه :

يا سارقَ الأنوارِ من شمسِ الضُّحَى يا مُثكِلي ثوبَ الكَرى و مُنَغِّصِي
لم يظفرِ التشبيهُ منكَ بطائلٍ مستلحفًا بَهَقًا كجلدِ الأبرصِ

و من هذا الباب عادة الشعراء البلغاء يشبهون جوهر السيف بمدبّ النمل و نحو ذلك . وما نسبة النمل من السيف و مدبّها من جوهره ، و أنّى للسراج أن يدرك مقام البدر الساطع و النجم الطالع . هيهات هيهات أن يماثل الغراب الباز الأشهب ، أو أن يساجل الدجاج الصقر . إلّا أنّ هذا التشبيه كما سترى يجعل المنظوم مقبولاً مطبوعًا ، و المنثور محبوبًا مسموعًا . قال امرؤ القيس :

متوسِّدًا عَضْبًا مَضَارِبُه في مَتْنه كَمَدَبَّةِ النَّمْلِ

و قال البحتري :

وَكأنّما سُوْدُ النّمَالِ و حُمْرُها دَبّتْ بأَيْدٍ في قَرَاهُ و أَرْجُلِ

و قال كشاجم :

كأنّ نملًا دارجًا   صَعَّدَ فيه و هبطْ
ماضٍ ترى في متنه   ماءً بنار مختلطْ
يقدّ إن أعملته   طولًا وإن عارض قطْ

وقال الطغرائي :

و أبيض طاغيّ الحدِّ يَرعُدُ متنه   مخافة عزمٍ منك أمضى من النصلِ
عليم بأسرار المنون كأنّما   على مَضْرِبَيْهِ أُنزلت سورة القتلِ
تفيض نفوس الصيد دون غراره   و تطفح عن متنيه في مدرج النملِ

و قال أبو العلاء المعري في السيف :

سَليلُ النّار دقّ و رقَّ حتّى   كأنّ أباه أَوْرَثَه السُّلالَا
محلّى البرد تحسبه تردّى   نجوم الليل و انتعل الهلالَا
مقيم النصل في طرفي نقيضٍ   يكون تباينٌ منه اشتكالَا
تبيّن فوقه ضحضاح ماءٍ   و تبصر فيه للنار اشتعالَا
إذا بَصُرَ الأمير و قد نضاهُ   بِأَعلى الجوّ ظنّ عليه آلَا
و دبَّتْ فوقَهُ حُمْرُ المنايا   ولكِنْ بعد ما مُسِخَتْ نِمالَا

و قال الوزير أبومحمد بن عبد الغفور :

تُرِيهِ المنايا الحُمْرُ فيه وجوهَنا   ماثلة الأرواح في صورة الذّرِّ

و هو مأخوذ من قول البحتري المذكور . و أخذه الآخر فقال و أجاد :

جداولُ ماءٍ ما تسوغُ لِوَارِدٍ   ترى النَّمْلَ غَرْقَى فيه غيرَ الأكارِعِ

و قال البحتري :

وكلِّ أبيضَ هنديٍّ به شُطَبٌ　　　مِثْلُ التكسّرِ في جارٍ بِمُنْحَدَرِ
تَغَايَرَتْ فيه أرواحٌ تموتُ به　　　من الضّرَاغِمِ والفُرْسانِ والجزرِ
رَوْضُ المَنايا على أنّ الدّماءَ به　　　و إنْ تخالفنَ ألوانًا من الزّهرِ
ما كنتُ أحسَبُ جَفْنًا قبلَ مسكنِه　　　في الجفْنِ يطوي على نارٍ ولا نهر
ولا ظَنَنْتُ صِغَارَ النَّمْلِ يُمكِنُها　　　مَشْيًا على اللُّجّ أو سَعْيًا على السّعر

و قال البحتري في تشبيه السيف بالبقلة في الخضرة :

حَمَلَتْ حَمَائلُه القَدِيمةُ بقلةً　　　من عَهدِ عادٍ غضّة لم تَذْبُلِ

ومن هنا استمدّ ابن هاني ، و ما استبد فقال :

و جَنَيْتُمُ ثَمَرَ الوَقائعِ يانعًا　　　بالنَّصْرِ من وَرَقِ الحديدِ الأخضَرِ

و ابن سناء الملك أيضًا من هنا أخذه و اقتطعه و فلذه فقال :

ظباه كمثل البقل لونًا و إنّها　　　لترعى العِدَى رعيَ الظباءِ من البقلِ

و قال ابن خفاجة :

و مرقرقِ الإفرند يمضي في العِدَى　　　أبدًا فيفتكُ ما يشاءُ و ينسكُ
و كأنّه و الماء يجري فوقه　　　جذلانَ يبكي للسرور و يضحكُ

و ما أحسن قول القائل :

تدبُّ المنايا الحمرُ في جَنَباته　　　على جامدٍ في الكفِّ في العينِ ذائبِ

و لإيراث الرشاقة في الكلام و الحلاوة في المرام قال جمال الدين محمد بن نباتة :

زِدْ كلّ يومٍ رفعةً في العُلى　　　و ليصنعِ الحاسدُ ما يصنعُ

الدّهرُ نَحْوِيٌّ كما ينبغي ... يدري الذي يخفضُ أو يرفعُ

أي الدهر كالنحوي . فالتشبيه فيه لما ذكرنا ، لا لأنّ النحوي أفضل و أعلى من الدهر .

و لإيراث اللطافة عكس أبو عبيد البكري حيث قال :

وما زال هذا الدهرُ يلحنُ بالورى ... فيرفعُ مجرورًا و يخفضُ مُبتدا

و قال ابن نقادة :

الدهرُ يرفعُ مخفوضًا و يخفضُ مر ... فوعًا من الناسِ عمدًا فهو لحّانُ
فالفضل ينحطُّ والنقصان مرتفعٌ ... كأنّما صرفهُ في الحكم ميزانُ

و قال آخر :

الدهر كالميزان يرفع ناقصًا ... أبدًا و يخفضُ راجحَ المقدارِ
و إذا انتحى الإنصاف ساوى كونه ... في الوزن بين حديدةٍ و نضارِ

و قال التهامي :

تأمَّلِ القَدَرَ المحتومَ و ارضَ بهِ ... فإنّما وَزَنَ الدنيا بميزانِ
فظلَّ يزدادُ فيها كلُّ منتقصٍ ... علاًّ و يهبطُ فيها كلُّ رجحانِ

و لإظهار التدقيق و علو التخيل قال محمد بن شرف القيرواني في خدمة الحر أصحابه :

خادمُنا خيرُنا و أفضلُنا ... نطرحُ أعباءنا و يحملُها
فنحن يسرى اليدينِ تخدمها ... يُمناهما الدهرُ و هي أفضلُها

انظر إلى مهابة الكلام الحاصلة بالتشبيه المعنوي للخادم باليد اليمنى . ولو لا هذا التشبيه كان الكلام مما لا يلتفت إليه . وقال النور الأسعردي فيمن مدحه ثم ندم على مدحه :

يمينًا ما مدحتُكَ من ضلالٍ　　　و لي في ذاكَ عذرٌ للمعالي
و لكني أُكَمِّلُ منك نقصًا　　　كما جعل الطراز على الشمالِ

و قال آخر :

و إنْ لم أكُنْ أهلاً لِمَا قد سألتُهُ　　　فقد عطَّلُوا اليمنى وقد حَلَّوُا اليُسرى

و ما أحسن قول شيخ الشيوخ شرف الدين عبد العزيز :

النذلُ مفروضٌ له يسرهُ　　　و الحُرُّ بالإقتارِ مرفوضُ
كذلك المنقوصُ لم ينخفِضْ　　　و أكملُ الأسماءِ مخفوضُ

و منه قول الوراق الخطيري :

كنْ ناقصًا تثرِ فإنّ الغنى　　　يُحرَمُهُ الكاملُ في فهمهِ
فالبدرُ يحوي من نجوم الدُّجى　　　في النقصِ ما يعدمُ في تمّهِ

و قال قوام الدين أبو طالب :

إذا طُبِعَ الزَّمانُ على اعوجاجٍ　　　فلا تَطْمَعْ لنَفْسكَ في اعْتدالِ
فلولا أن يكونَ الزَّيغُ طَبْعًا　　　لما مالَ الفؤَادُ إلى الشّمالِ

فقوله " لما مال إلخ " فيه إبداء قوة الخيال ، و جعل الكلام أعلق بالبال ليس إلّا . و قال أحمد ابن الخازن :

مَنْ يَستقمْ يُحْرَمْ مُنَاهُ و مَنْ يَزِغْ　　　يختصَّ بالإسعافِ والتمكينِ
انظرْ إلى الألِفِ استقامَ ففاتَهُ　　　نقطٌ و فازَ بهِ اعوجاجُ النُّونِ

فقوله " انظر إلى الألف إلخ " لتزيين الكلام و إظهار جدّة الفكر . ولذا عكس أبو طالب يحي ابن زياد فقال :

إن كنتَ تسعى للزيادةِ فاستقمْ   تَنَلِ المرادَ ولو سموتَ إلى السَّمَا
ألِفُ الكتابةِ وهو بعضُ حروفه   لَمَّا استقامَ على الجميع تقدَّمَا

كما عكس المعنى على الشعراء ابن قزل المشد فقال :

إنْ تَرقَّ إلى المعالي أُولو الفضـــــلِ وساختْ تحتَ الثَّرى السُّفهاءُ
فَحبابُ المُدامِ يعلو على الكأ   سِ محلًّا و ترسبُ الأقذاءُ

و من هذا الباب قول آخر :

لقد قعدَ الزمانُ بكلّ حرٍّ   و خصّ أخا الحماقة باليَسَارِ
كآحاد الحساب على يمينٍ   وآلاف الحساب على اليسارِ

و أخذه صدر الدين محمد بن عثمان فقال :

عقودُ الحسابِ كيومِ الحسابِ   فمَنْ قَلَّ وقرًا سما في المعالي
كذالك اليمينُ لها ما يَقِلُّ   و عقْدُ الكثيرِ نصيبُ الشِّمالِ

وقال مجير الدين محمد بن تميم :

الدهرُ عندي لا محالةَ أحولُ   و أسألْ به مَن كان طبًّا عاقلاَ
يرنو ليلحَظ فاضلاً فيَرُدُّهُ   حوَلٌ بعينيْه فيلحظُ جاهلاَ

أبدى فيه سعة الخاطر تصرّفًا ، فأصبح شعره ظريفًا و إن لم يكن شريفًا . وكذا أبدى الصلاح الصفدي سعة تصرف فكره فقال :

أفدي حبيبًا له في كلّ جارحة   مني جراح بسيف اللحظ و المقل
تقول و جنته من تحت شامته   لي أسوة بانحطاط الشمس عن زحل

وكذا ما قال ابن اللبانة :

لمّا تناهيتُ علمًا ظلَّ ينقصني عند الكمال يصيبُ النيّرَ السّرر
و في الغراب إذا فكرت مُغْرِبَةٌ من فرطِ إبصاره يُعْزَى له العور

و يدلك على ما ادّعينا من أنّ المشبّه به كلّما كان أبعد عن تبادر الذهن كان الكلام أحسن و أدخل في القلب و أعلق بالفؤاد إذا كان التشبيه مورثا للظرف و اهتزاز عطف الذهن ، ما حكى الواحدي : قال أبو الحسن محمد بن أحمد الشاعر : كان سيف الدولة يسرّ بمن يحفظ شعر أبي الطيب . فأنشدته يومًا قول أبي الطيب :

رأيتُكَ في الّذينَ أرى ملُوكًا كأنّكَ مُستقيمٌ في مَحالِ
فإنْ تَفُقِ الأنامَ وأنتَ منهم فإنّ المِسْكَ بعضُ دَمِ الغَزَالِ

فقلت : و كان أبو الطيب حاضرًا هذا البيت ، و الذي يتلوه لم يسبق إليه . فقال سيف الدولة : كذا حدّثني الثقة أنّ أبا الفضل محمد بن الحسين قال كما قلت . فأعجب المتنبّي و اهتزّ . فأردت أن أحركه فقلت : إنّ فيه عيبًا في الصنعة . فالتفت المتنبي التفات حنق و قال : ما هو ؟ قلت : قولك "مستقيم في محال" . و المحال ليس من ضد الاستقامة ، بل ضدها الاعوجاج . فقال الأمير : هب القصيدة جيمية ، فكيف تعمل في تغيير قافية البيت الثاني . فقلت عجِلاً كردّ الطرف :

ع فإنّ البَيْضَ بعضُ دَمِ الدَّجَاجِ

فضحك ثم ضرب بيده الأرض و قال : حسن مع هذه السرعة ، إلاّ أنّه يصلح أن يباع في سوق الطير ، لا مما يمدح به أمثالنا يا أبا الحسن . انتهى .

قلت : إنّما لم يرتض سيف الدولة البيض و الدجاج لكونهما من الأشياء المعروفة المستقرّة في كلّ ذهن القريبة من كلّ عقل . بخلاف المسك و الغزال . هذا .

و ذكر الصلاح الصفدي في شرح لامية العجم ج٢ ص٢٠٨ هذه القصة ، لكن بيانه يغاير بيان الواحدي . قال الصلاح الصفدي بعد ذكر هذين البيتين : و حكي أنّ أبا الطيب قيل له : هذا الإيراد في

مجلس سيف الدولة ، و أنّ المحال لا يطابق الاستقامة ، و لكن القافية ألجأتك إلى ذلك . ولكن لو فرض إنّك قلت "كأنك مستقيم في اعوجاج "كيف كنت تصنع في البيت الثاني ؟ فقال ، ولم يتوقف :

ع فإن البيض بعض دم الدجاج

فاستحسن هذا من بديهته .

قلت : إنّما يستحسن هذا في سرعة البديهة ، و إلاّ أين قوله " فإنّ البيض بعض دم الدجاج " من قوله " فإنّ المسك بعض دم الغزال " . و كذا حكاية خلف الأحمر مع أصحابه في قول النمر بن تولب العكلي :

ألَمَّ بصُحبتي وهمٌ هجوعُ خيالٌ طارِقٌ من أُمِّ حصنِ
لها ما تشتهي عَسَلٌ مُصَفّى متى شاءتْ و حُوَّارَى بسمنِ

فقال لهم : لو قال " أمّ حفص " في البيت الأوّل ما كنتم تقولون في الثاني ؟ فسكتوا . فقال : و حواري بلمص . و اللمص الفالوذج . قلت : و لكن أين لفظ السمن و عذوبته من اللمص . و قول أبي الطيب هذا يشبه قوله في عضد الدولة :

ولولا كونكم في الناس كانوا هراءً كالكلام بِلا معاني

و ما أرقّ قول الشاعر في وصف مصلوب و تشبيه يديه الممدودتين على الجذع بيدي العاشق الممدودتين يوم الفراق و بتمطي المستيقظ من نوم ، مع أنّ المشبّه أقوى مدًّا و أشد امتدادًا و أطول زمانًا .

قال الشاعر :

كأنَّه عاشقٌ قد مَدَّ ساعده يومَ الفراقِ إلى توديعِ مُرتحلِ
أو قائمٌ من نُعاسٍ فيه لُوثَتُهُ مُواصِلٌ لتَمَطّيه من الكَسَلِ

و من هذا الباب ما قال ابن حمديس في هذا الموضوع :

و مرتفعٍ في الجذع إذ حطُّ قدرِهِ أساءَ إليـه ظالمٌ وهو محسنُ
كذي غرَقٍ مدَّ الذراعينِ سابحًا من الجوِّ بحرًا عومهُ ليس يُمكِنُ
و تحسبُهُ من جنةِ الخلد دانيًا يعانقُ حورًا لا تراهُنَّ أعينُ

و قال عمر الخياط :

أنظـر إليـه كأنّهُ متظلّمٌ في جذعهِ لحظ السماءِ بطرفهِ
بَسَطَ اليـدينِ كأنّه يدعو على مَن قد أشارَ على الأمير بحتفهِ

و قال النمر بن تولب :

فإن تك أثوابي تمزّقن على بلًى فإنّي كنصل السَّيْف في خلق الْغَمْدِ

برأ نفسه عن عيب أثواب بليت بخيال دقيق و تشبيه يتأثر منه السامع ، حيث شبّه نفسه بالسيف في غمد خلق لإثبات ذلك المرام ، لا لأنّ السيف أعلى أو أشهر أو أعرف ، حيث لا يسلّم مادح النفس ذلك و إلاّ كان ذامًّا لنفسه . و منه قول أبي هفان :

لَعَمْري لئن بَيّعْتُ في دارِ غُرْبتي ثيابيَ أنْ ضاقت عَليَّ المآكِلُ
فما أنا إلّا السيف أخلق جفْنَه له حِليَةٌ من نَفْسِه وهو عاطلُ

و قال لبيد :

فأصبحتُ مِثْلَ السَّيفِ أَخْلَقَ جَفْنَهُ تقادُمُ عَهْدِ الْقَيْنِ و النَّصْلُ قاطعُ

و قال الخمّار في مدح ممدوح له ، و قصر المدائح عن شأنه مظهرًا دقّة فكره بأنّها كأنصاف كتب :

كان إنشادنا قصائده أنصاف كتبٍ ليسَتْ بمؤتلفه

و قال أبو العتاهية يخاطب الموت :

كأنّك قد هجمتَ على مَشِيبي كما هجمَ المشيبُ على شَبَابي

أراد إبداء تشبيه غريب ثابت في العقول . و لم يرد أن المشيب أخوف من الموت و أشدّ منه .

و قال آخر يصف الحرب :

دَنَوْتُ له بِأبيضَ مَشْرَفِيٍّ كما يَدنُو الْمُصافِحُ للسَّلَامِ

و قال ابن المعتز :

و عمَّ السماءَ النقعُ حتى كأنّه دُخانٌ و أطرافُ الرِّماحِ شَرَارُ

و له يصف سواد الخمر :

كأنّ بأيدي شاربيها إذا انتشوا محابرُ ورّاقين قد مُلِئَتْ حِبرًا

قد آن أن أزفّ إلى الإخوان مناظرة و مباحثة جرت بين الرشيد و ندمائه من الوزراء . و هي تدلّ على أنّ للتشبيه مقامًا فخيمًا عند العرب ، و على أنّ فخامته منوطة بدقّة خياليّة تورث القارئ طربًا ، و بلطافة تهزّ السامع طربًا ، مع قطع النظر عن كون المشبّه به أقوى و أفضل من المشبّه . وهي بمرأى منك و مسمع . ترى كلّ واحد يدّعي العلو لدعواه دقّةً و لطافةً ، ولا يتعرّض لفضل المشبّه به و قوّته لا صراحةً ولا إشارة . ذكر هذه المباحثة ابن ناقيا البغدادي في كتابه الجمان ص٢٢٣ حيث قال :

حدّثني سالم بن المحسِّن الكاتب إملاءً من حفظه قال : قال الأصمعيّ : استَدعاني الرشيد في بعض الليال ، فراعني رسلُه . فلمّا مَثَلتُ بين يديه إذا في المجلس يحيى بن خالد و جعفر و الفضل . فلمّا لحظني الرشيد استدناني . فدنوتُ و تبيّن ما لبسني من الوجَل . فقال : ليُفْرِخ روعُك . فما أردنا إلّا لِمَا يُرادُ له أمثالُك . فمكثتُ هُنيهةً ، حتى ثابتْ نفسي .

فقال : إنّي نازعت هؤلاء في أشعر بيتٍ قالتهُ العربُ في التشبيه ، و لم يقع إجماعُنا على بيتٍ يكون الإيماءُ إليهِ دون غيره ، فأردناك لفصلِ هذه القَضيّة و اجتناء ثَمرة الخِطَار فيها . فقلت : يا أمير المؤمنين ! التَّعيينُ على بيت واحد في نوع قد توسَّعت فيه الشُّعراء و نَصبته مَعْلَمًا لأفكارها و مَسرَحًا لخواطرها لَبَعيدٌ أن يقع النَّصّ عليه . و لكن أحسنُ الناسِ تشبيهًا امرؤ القيس . قال : في ماذا ؟ قلت :

قوله :

كأنّ عُيُونَ الوَحشِ حَولَ خِبائِنا و أَرْحُلِنا الجَزْعُ الّذي لَمْ يُثَقَّبِ

و قوله أيضًا :

كأنّ قلوبَ الطَّيرِ رَطْبًا و يابِسًا لدَى وَكرِها العُنَّابُ و الحَشَفُ البَالِي

و قوله أيضًا :

سَمَوْتُ إليها بعدَ ما نامَ أهلُها سُمُوَّ حَبابِ الماءِ حالًا على حالِ

قال : فالتفتَ إليّ يحيى و قال : هذه واحدة ، قد نصّ على أنّ امرأ القيس أبرعُ تشبيهًا . فقال يحيى : هي لكَ يا أميرَ المؤمنين . ثم قال لي الرشيدُ : فما أبرعُ تشبيهاتِه ؟ قلتُ : قوله في صفةِ الفرس :

كأنّ تَشَوُّفَهُ بالضُّحى تَشَوُّفُ أَزْرَقَ ذِيْ مِخْلَبِ

إذا بُزَّ عنه جِلالٌ له تقولُ : سَليبٌ ، ولَمْ يُسْلَبِ

فقال الرشيدُ : هذا حسنٌ . و أحسن منه قوله :

فَرُحْنا بِكَابْنِ الماءِ يُجنَبُ وَسْطَنا تَصَعَّدُ فيه الْعَينُ طَوْرًا وَ تَرْتَقِي

فقال جعفر : يا أمير المؤمنين ! ما هذا هو التّحكيم . قال الرشيد : و كيف ؟ قال : يَذكر أميرُ المؤمنين ما كان اختيارُه وقع عليه ، و نذكر ما اختَرناه ، و يكونُ الحكمُ واقعًا من بعدُ . فقال الرشيد : أَمْرَضْتَ . قال الأصمعيّ : فاستحسنتُها منه . يقال : أَمْرَضَ الرجلُ . إذا قاربَ الصَّواب . ثم قال الرشيد : تَبدأ يا يحيى . فقال يحيى : أشعرُ الناسِ تشبيهًا النابغة في قوله :

نَظَرتْ إليك بِحاجَةٍ لم تَقْضِها نَظَرَ المريضِ إلى وُجُوهِ العُوَّدِ

و في قوله أيضًا :

فإنّكَ كالليلِ الذي هو مُدْرِكِي وَ إِنْ خِلْتُ أَنّ المُنتأَى عنكَ واسعُ

و في قوله أيضًا :

مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ مَوْشِيٍّ أَكَارِعُهُ   طَاوِي المَصِيرِ كَسَيْفِ الصَّيْقَلِ الْفَرَدِ

قال الأصمعي : فقلتُ : أمّا تشبيهُه مرضَ الطَّرف فحَسَنٌ ، إلاّ أنّه قد هجنه بذكر العِلّة و تشبيه المرأة بالعَليلِ .

و أحسن منه قولُ عدِيّ بن الرِّقاع :

وكأنّها ، بينَ النساءِ أعَارَها   عَيْنَيْه أَحْوَرُ مِنْ جَآذِرِ جَاسِمِ
وَسْنَانُ أقْصَدَهُ النُّعَاسُ فَرَنَّقَتْ   في عَيْنِه سِنَةٌ و ليس بِنائِمِ

و أمّا تشبيهُ الإدراك بالليل فقد يتساوى الليل و النهار فيما يدركانه . و إنّما كان سبيلُه أن يأتي بما ليس له قَسِيم ، حتى يأتي بمعنى ينفردُ به . ولو شاء قائل أن يقول : قول النُّمَريِّ أحسن لَوَجَدَ مَساغًا ، و هو قوله :

فَلَو كنتُ بالعَنْقاءِ أوْ بِأُطُومِها   لَخِلْتُكَ إلاّ أَنْ تَصُدّ تراني

و أمّا قوله "كسيفِ الصَّيقَلِ الفَرَد " فالطِّرِمّاح أحقّ بهذا المعنى ، لأنّه أخذه فجوّده و زاد عليه ، و إن كان النابغة افترعه . و قول الطِّرماح :

يَبْدُو وَ تُضْمِرُه البِلادُ كأنّه   سيفٌ ، على شَرَفٍ ، يُسَلُّ ويُغْمَدُ

فقد جمع في هذا البيت استعارةً لطيفةً بقوله " و تُضْمِرُه البِلادُ " و تشبيهَ اثنين باثنين في قوله " يبدُو و يختَفِي " و " يُسَلُّ و يُغْمَدُ " . و جمعَ حُسنَ التقسيم و صحّةَ المقابلة . قال : فاستبشر الرشيدُ و بَرِقت أساريرُ وجهه ، حتى خلتُ بَرَقًا يُومض منها . و قال ليحيى : نضلتك و ربّ الكعبة . و امتُقِع يحيى ، و كأنّ الملّ قد ذُرَّ على وجهِه . فقال الفضل : لا تعجل ، يا أمير المؤمنين ! حتى يمرّ ما قلتُه أيضًا بِسَمعه . فقال : قل . قال : قول طَرَفَة :

يَشُقُّ حَبَابِ الماءِ حَيْزُوْمُهَا بِهَا   كَمَا قَسَمَ التُّرْبَ المُفَايِلُ بِالْيَدِ

و قوله أيضًا :

لَعَمْرُكَ إنّ الموتَ ما أَخْطَأَ الْفَتٰى لِكَالطِّوَلِ الْمُرْخٰى و ثِنْيَاهُ بِالْيَدِ

و قوله أيضًا :

و وَجْهٍ كأنّ الشمسَ حَلَّتْ رِدَاءها عليـه ، نَقِيِّ اللَّوْنِ لم يَتَخَدَّدِ

قال : فقلت : هذا حسنٌ كلُّه ، وغيره أحسن منه . وقد شَرِكَهُ في هذه المعاني جماعةٌ من الشعَراء . و بعد فطَرَفة صاحبُ واحدةٍ ، لا يُقْطَعُ بقوله على البُحور . و إنّما يُعَدّ مع أصحابِ الواحدات . قال : و مَنْ هم ؟ قلت : الحارث بن حِلِّزَة في قوله :

آذَنَتْنَا بِبَيْنِها أسمـاءُ رُبّ ثاو يملّ منه الثواء

و الأشعر الجعدي الجعفي في قصيدته التي أوّلها :

هَلْ بانَ قلبُك من سُلَيْمٰى فاشتَفٰى ولقد عُنِيتَ بِحُبِّها فيما مَضٰى

و الأَفْوَهُ الأودي في قوله :

إنْ تَرَيْ رَأسيَ فيه قَزَعٌ و شَوَاتِي خَلَّةٌ فيها دُوَارُ

و علقمة بن عبدَة الفحل في قوله :

طَحَا بِكَ قَلْبٌ في الْحِسانِ طَرُوبُ بُعَيْدَ الشَّبابِ عَصْرَ حَانَ مَشِيْبُ

و سويد بن أبي كاهل في قوله :

بَسَطَتْ رَابِعَةُ الْحَبْلَ لنـا فمَدَدْنا الْحَبْلَ منها ما اتَّسَعْ

و عمرو بن كلثوم في قوله :

أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكِ فَأَصْبَحِينا وَلا تُبْقِي خُمُورَ الْأَنْدَرِينا

و عمرو بن معد يكرب :

أَمِنْ رَيْحانَةَ الدَّاعِي السَّمِيْعُ يُؤَرِّقُنِي و أَصحابِي هُجُوْعُ

قال : فاستخفّ الرشيد الأريحية فقال : أُدْنُهُ فإنّك جَحِيشُ وَحْدِك . قال : فزاد في عيني نبلاً . فقال جعفر متمثّلاً :

ع لَبِّثْ قليلاً يَلْحَقِ الْهَيْجا حَمَلْ

يعرِّض بأنّه يجوز أن يدرك هو ما يحاوله . فقال الرشيد :

فَاتَتْكَ وَاللهِ السَّوَابِقُ بعدَها و جِئْتَ سُكَيْتًا ذا زَوائدَ أَرْبَعِ

و رأيت الحميّة في وجهه . فقال جعفر : على شريطةِ حِلمِك يا أمير المؤمنين . فقال : أتراه يَسَعُ غيرَك و يضيقُ عنك . فقال جعفر : لستُ أنُصُّ على شاعرٍ واحد أنّه أحسن بيت واحد تشبيهًا ، و لكن قول امرئ القيس :

كأنّ غلامِي إذ عَلا حَال مَتْنِهِ عَلى ظَهْرِ بازٍ في السماءِ مُحَلِّقِ

و قول عديّ بن الرقاع :

يتعاوَرانِ من الغُبارِ مُلاءَةً غَبْرَاءَ مُحْكَمَة هما نَسَجاها
تُطْوَى إذا وردا مَكانًا جاسيًا و إذا السَّنابِكُ أَسْهَلَتْ نَشَراها

و قول النابغة الذبياني :

فإنّكَ شمسٌ و الْمُلُوكُ كَواكبٌ إذا طلَعَتْ لم يَبْدُ منهن كوكبُ

قال : فقلت : هذا كلّه حسن بارع ، وغيره أبرع منه . و إنّما يحتاج أن يقع التعيين على ما افترعه قائله ، فلم يُتَعَرَّض له ، أو تعرَّض له شاعرٌ فوقع دونه . فأمّا قول امرئ القيس " على ظهرِ بازٍ في السماءِ مُحَلِّق " فمن قول أبي داود :

إذا شاء راكبُه ضمَّهُ ... كما ضَمَّ بازٍ إليه الجَناحا

و أمّا قول ابن الرِّقاع " يتعاوَرانِ من الغُبار مُلاَءَةً " فمن قول الخَنْساءِ :

جارَى أباهُ فأَقْبَلا وَهُما ... يتعاوَرانِ مُلاَءَةَ الحُضْرِ

و أوّل من نطق بهذا المعنى شاعرٌ قديم من عُقَيل ، فقال :

أَلاَ يا دِيَارَ الحَيِّ بِالْبَرَدَانِ ... عَفَتْ حِجَجٌ بعدِي لَهُنَّ ثَمانِ
فلَمْ يبقَ منها غيرُ نُؤْيٍ مُهَدَّمٍ ... و غيرُ أَثافٍ كَالرَّكِيِّ دِفانِ
و آثارُ هابٍ أَوْرَقِ اللَّونِ سافَرَتْ ... بهِ الرِّيحُ وَالأمطارُ كلَّ مكانِ
قِفارٌ مَرَوْراتٌ يَحارُ بِها القَطَا ... وَ يُضْحِيْ بها الجَأْبانِ يَعْتَرِكَانِ
يُثِيرانِ مِن نَسْجِ العَجاجِ عليهِما ... قَمِيْصَينِ أَسْمالاً و يَرْتَدِيانِ

و أمّا قول النابغة " فإنّكَ شمسٌ و الملوكُ كواكبُ " فقد تقدّمه شاعر من شعراء كِندةَ ، فيه يمدح عمرو بن هِند ، و هو أحقّ به من النابغة ، إذ كان أبا عُذْرِهِ . فقال :

تَكادُ تَمِيدُ الأرضُ بالنّاس أن رَأَوْا ... لِعَمْرِو بنِ هِنْدٍ غَضْبَةً و هو عاتِبُ
هو الشمسُ رَاقَتْ يومَ سَعْدٍ فأَفْضَلَتْ ... عَلى كُلِّ ضَوْءٍ ، و المُلوكُ كواكبُ

قال : فكأنّي أَلْقَمْتُ جعفرًا حجرًا ، واهتزّ الرشيد من فوق سريره أشَرًا ، وكاد يطير منه عُجْبًا وطَرَبًا .

و قال : يا أصمعي ! اسْمع الآن ما وقع عليه اختياري . قلت : ليقل أمير المؤمنين ، أحسن اللّٰهُ توفيقه . فقال : قد عينت عليّ ثلاثة أشعار . أقسم باللّٰه إنّني أملكُ قصب السبق بأحدها . فقال يحي : خفّض على همتك ، يا أمير المؤمنين ! فيأبى الله إلاّ أن يكون الفضلُ لك . ثم قال الرشيد : أتعرف تشبيهًا أفخَمَ و أعظمَ في أحقرِ مشبّهٍ و أصغرِه و أقذره في أحسن معرِضٍ من قول عَنترة الذي لم يَسبقه إليه سابقٌ ، ولا طَمِعَ في مجاراته طامعٌ ، حين شبَّه ذُبابَ الرَّوضِ العازِب في قوله :

وَ خَلاَ الذُّبابُ بها فليسَ بِبَارِحٍ   غَرِدًا كَفِعْلِ الشَّارِبِ الْمُتَرَنِّمِ
هَزِجًا يَحُكُّ ذِراعَهُ بذِراعِهِ   قَدْحِ الْمُكِبِّ على الزِّنادِ الأَجْذَمِ

ثم قال : هذا من التشبيهاتِ العُقْمِ . قلت : هو كذاك يا أمير المؤمنين . و بمجدِكَ آليتُ . ما سمعتُ أحدًا وصفَ شعرًا أحسنَ من هذه الصِّفة .

فقال : مَهْلاً ، لا تعجَلْ . أتعرفُ أحسنَ من قولِ الحُطَيئة يصفُ لُغامَ ناقته ؟ و تعلمُ أحدًا قبله أو بعده شبَّه تشبيهه فيه ، حيث يقول :

تَرَى بينَ لِحْيَيْهَا إذا ما تَزَغَّمَتْ   لُغَامًا كَبَيْتِ العنكبوتِ الْمُمَدَّدِ

فقلت : يا أمير المؤمنين ! لا والله ، ما علمتُ أحدًا تقدّمه أو أشارَ إلى هذا التشبيه قبله .

فقال : أتعرفُ أبدع و أوقعَ من تشبيه الشَّمّاخ لنعامةٍ سَقط ريشُها و بقِيَ أثرُه ، حيث يقول :

كأنّما مُنْثَنَى أَقْمَاعِ ما مَرَطَتْ   مِنَ الْعِفَاءِ بِلِيتَيْهَا الثّآليلُ

فقلت : لا والله . فالتفتَ إليَّ يحي بن خالد فقال : أَوَجَبَ ؟ قال : وَجَبَ . قال : فأزيدُك ؟ قال : و أيُّ خيرٍ لم يزدني منه أميرُ المؤمنين ؟ قال : قول النابغة :

رَمَى ضرعَ نابٍ فاستقلَّ بطعنةٍ   كَحَاشيةِ الْبُرْدِ اليَمَاني الْمُسَهَّمِ

ثم التفتَ إلى الفضل فقال : أَوَجَبَ ؟ قال : وجَب . قال : أزيدُك ؟ قال : ذاك إلى أمير المؤمنين . قال : قول الأعرابي :

بها ضَرْبُ أذْنابِ العِظَاءِ كَأَنَّهُ   مَلاعِبُ وِلدانٍ تَخُطُّ وَ تَمْصَعُ

ثم التفت إلى جعفر فقال : أَوَجَبَ ؟ قال : وَجَب . قال : أزيدُك . قال : لأمير المؤمنين علوّ الرأي . قال : قول عديّ بن الرقاع :

تُزْجِي أَغَنَّ كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ   قَلَمٌ أَصابَ مِن الدَّواةِ مِدادَها

قال : فقلت : يا أمير المؤمنين ! هذا بيت حَسد عَدِيًّا عليه جَرير . قال : و كيف ذاك ؟ قلت : زعَم أبوعمرو أنّ جريرًا قال لمّا ابتدأ عديٌّ يُنْشِد :

عَرَفَ الدِّيَارَ تَوَهُّمًا فَاعْتَادَهَا   مِن بَعْدِ ما شَمِلَ الْبِلَى أَبْلادَها

قلتُ في نفسي : قد رَكِبَ مَرْكَبًا صعبًا ، سَيُبْدَع به . فما زال يتخلّص من حسن إلى حسن ، حتى قال :

ع   تُزْجِي أَغَنَّ كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ

قال : فرحمتُه و ظننتُ أنّ مادّتَه ستقصُر به . فلمّا قال :

ع   قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَها

حالَتِ الرحمةُ حسدًا . قال : لله دَرُّكَ يا أصمعيّ . ثم أطرق و رفَعَ طرفَهُ إليّ و قال : أَتُرَاكَ تغبِنُني عَقلي بانحطاطِكَ في هَواي ؟ فقلتُ : كلّا واللهِ ، يا أمير المؤمنين ! إنّك لَتَجِلُّ عن الحَرْش .

قال : انظُرْ حَسَنًا . قلت : قد نظرت . قال : فالسَّبقُ لمن ؟ قلت : لأمير المؤمنين . قال : قد أسهمتُ لك فيه العُشْرَ ، و العُشْرُ كثير . ثم رمى بطرفِه إلى يحي و قال : " المالَ " تَهدُّدًا و وَعِيدًا " الساعةَ و أَولى لك " . قال : فما كان إلّا "كَلا " و " ما " حتى نُضِّدَت البِدَر بين يديه إلى أن كادت تحولُ بيني و بينه . و رأيت ضَوء الصبح قد غلب على ضوءِ الشّمع .

فأشار إلى خادمٍ على رأسِه أن مَكِّنْه ، و قال : هي ثلاثَةُ ألفِ ألفِ درهم فدونَكَ . فاحتمل ثلاثين بَدْرَة ، و انصرفْ إلى منزلك . و نهضَ عن مجلسِه و أمرَ الخدمَ بمُعاونتي على تعجيلِ حَمْلِه . فاحتمل كلّ خادمٍ بدرةً . ولا يكادُ يستقلُّ بها . فكانتْ أسعدَ ليلة ابتسمَ فيها الصباحُ عن ناجذ الغِنَى . انتهى ما في الجمان .

و يناسب ذلك ما ذكره الخطيب في تاريخ بغداد ج١٣ ص٢٥٤ عن أبي ذكوان عن التوزي عن أبي عبيدة قال : أرسل إليّ الفضل بن الربيع إلى البصرة في الخروج إليه ، فقدمت عليه . و كنت أخبر عن تجبره . فأذن لي ، فدخلت وهو في مجلس له طويل عريض ، فيه بساط واحد قد ملأه ، و في صدره فرش

عالية ، لا يرتقى إليها إلّا على كرسي ، و هو جالس عليها . فسلّمت بالوزارة ، فردّ و ضحك إليّ ، و استدناني حتى جلست مع فرشه . ثم سألني و ألطفني و بسطني و قال : أنشدني . فأنشدته من عيون أشعار أحفظها جاهلية . فقال لي : قد عرفت أكثر هذه و أريد من ملح الشعر . فأنشدته . فطرب و ضحك و زاد نشاطه .

ثم دخل رجل في زيّ الكتاب له هيئة ، فأجلسه إلى جانبي و قال له : أتعرف هذا ؟ قال : لا . قال : هذا أبو عبيدة علامة أهل البصرة ، أقدمناه لنستفيد من علمه . فدعا له الرجل و قرظه لفعله هذا . و قال لي : إن كنت إليك لمشتاقًا . و قد سئلت عن مسألة ، أفتأذن لي أن أعرّفك إيّاها . قلت : هات . قال : قال الله تعالى : طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ . و إنّما يقع الوعد و الإيعاد بما قد عرف مثله ، و هذا لم يعرف .

فقلت : إنّما كلم الله العرب على قدر كلامهم . أمّا سمعت قول امرئ القيس :

أيقتلني و المشرفيّ مضاجعي و مسنونةٌ زرقٌ كأنياب أغوالِ

و هم لم يروا الغول قط ، و لكنه لمّا كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به .

فاستحسن الفضل ذلك و استحسنه السائل . و اعتقدت من ذلك اليوم أن أصنع كتابًا في القرآن لمثل هذا و أشباهه ، ولما يحتاج إليه من علمه . فلمّا رجعت إلى البصرة عملت كتابي الذي سميته "المجاز" .

و سألت عن الرجل . فقيل لي : هو من كتّاب الوزير و جلسائه ، يقال له : إبراهيم بن إسماعيل ابن داود الكاتب العبرتائي . انتهى . والله أعلم بالصواب وإليه المرجع و المآب .

الباب الثالث والأربعون بعد المائة
في الجواب السابع والثمانين ومائة

يمكن أن يقال : إنّ المراد من التشبيه في "كما صلّيت على إبراهيم" جميع الأجوبة الصحيحة و الوجوه المقبولة من بين الأجوبة المسطورة في الأبواب المتقدّمة على حسب ما ساغ إرادتها على سبيل التبادل أو الجمع .

و لذلك نظائر في كتب الأئمة كثيرة ، كما قالوا : إنّ علّة النهي عن السمر بعد العشاء الأخيرة أنّ مصلي العشاء قد كفرت عنه ذنوبه بصلاته ، فيخشى أن يكون منه الزلّة ، فيتدنّس بالذنب بعد الطهارة . و علّله البعض بوقوع الصلاة التي هي أفضل الأعمال خاتمة عمله . و هو قريب من ذلك . و البعض بأنّ الله قد جعل الليل سكنًا ، و الحديث يخرجه عن ذلك . و البعض بأنّ نومَه يتأخر ، فيخاف فوات الصبح عن وقتها ، أو عن أوّله . و البعض بخشية من له تهجد فواته .

قال شيخ الإسلام تاج الدين السبكي رَحِمَهُ اللهُ في الطبقات ج٢ ص٢٥ بعد ذكر هذه الوجوه لمنع السمر : قلت : و يمكن أن يتعلّل بكلّ من هذه المعاني لجواز اجتماعها . انتهى . والله أعلم .

انتهى بهذا الجواب سرد الأجوبة عن إشكال التشبيه في حديث "كما صلّيت على إبراهيم" و طويت الكشح لوجوه اقتضت ذلك عن ذكر بعض أجوبة ذكرتها أوّلاً . وقد بذلت الجهد في تحرير أبحاث الكتاب و تهذيب مسائله و دمغ أقوال من أنكر فضل نبينا ﷺ على الخلق .

و في وطننا باكستان فرقة زائغة للملحدين ، تسمّى طائفة أهل القرآن ، يزعمون أنّ أفضل

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، متمسّكين بتشبيه هذه الصلاة الإبراهيمية . و هذه زيغة من زيغاتهم . و إنّما سمّوا أنفسهم بأهل القرآن خداعًا لعوام المسلمين . و زعموا أنّ القرآن يكفي لكلّ شيء من الأحكام الدينية و الأمور الدنيوية . و ينكرون التمسّك بالأحاديث النبوية في الأحكام الشرعية . و زعموا أنّ الأحاديث لا عبرة بها في الإسلام . أعاذنا الله من مثل إلحادهم .

و هؤلاء الجهلة لم يدروا أنّ الأحاديث وحي مثل وحي القرآن غير متلوّ ، كما قال الله تعالى : وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ . و إنّها شرح للقرآن ، و تفصيل لما أجمل فيه ، و إيضاح لما أبهم ، و تفسير لما أشكل .

ثم إنّي قد ألّفت قبل هذا الكتاب كتابًا صغيرًا في حلّ إشكال هذا التشبيه . ذكرت فيه نحو أربعين جوابًا . سميته " تنبيه الفهيم " . ثم صنّفت هذا الكتاب الكبير بتوفيق الله و قوته . و هو إن شاء الله كافٍ في دفع الشبهات الباطلة في هذا المقصد ، و شافٍ في إثبات أنّ نبينا ﷺ أفضل خلق الله على الإطلاق . و يرى الناظر فيه أجوبة أنا أبو عذرها و أبحاثًا بديعة لطيفة لا يجدها في غيره . فما كان صوابًا و وافق الكتاب و السّنة فمن الله الرحمن ، و ما خالفهما وكان خطأً فمنّي و من الشيطان ، و لينبذه القارئ ، إذ لا نجاة إلّا فيما وافق الكتاب و السنة و جماعة المسلمين .

و أدعو الله سبحانه أن يتقبّل هذا الكتاب . و أرجوه سبحانه أن يجعله مباركًا ، و أن يبارك على كلّ بيت يكون هو موجودًا فيه لبركة الموضوع الذي صنّف فيه هذا الكتاب ، و لما رأيت مبشرات كثيرة في اثناء تأليفه من زيارة الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات والصحابة والأولياء في المنام . ولاحول ولا قوة إلّا بالله .

و أسلمت نفسي إلى الله ، و وجّهت وجهي لله ، وما توفيقي إلّا بالله ، و أنّ الفضل بيد الله ، و أنّ الهدي هدي الله ، و أنّ الأمر كلّه لله ، و أن مردنا إلى الله ، و ما الحكم إلّا لله ، وما بنا من نعمة فمن الله ، ولا يأتي بالخير إلّا الله ، ولا يصرف الشر إلّا الله ، و ليس شيء بضارّنا شيئًا إلّا بإذن الله ، ولا عاصم اليوم من أمر الله إلّا الله ، و نعم القادر الله ، و نعم المولى الله ، و نعم النصير الله ، ولا يغفر الذنوب إلّا الله . أعددت لكلّ حركة و سكون بسم الله ، و لكلّ نعمة الحمد لله ، و لكلّ حسنة المنة لله ، و لكلّ سيئة

أستغفر الله ، و لكلّ شدّة استعنت بالله ، و لكلّ مصيبة إنّا لله و إنّا إليه راجعون . ولا حول ولا قوّة إلّا بالله . و أستهدي الله ، و أستكفي الله ، و أستعين بالله ، و أستغفر الله ، و أستظهر بالله ، و أعتصم بحبل الله ، و أومن بالله ، و أتوكّل على الله . بسم الله اعتصمت ، و بالله تحصّنت ، و على الله الحيّ الذي لا يموت توكّلت .

اللّهم اغفر لي ما سبق من الذنوب ، و اعصمني فيما بقي من الأجل ، فإنّ الخير كلّه بيدك ، و أنتَ بنا رؤوف رحيم . اللّهم وفّقنا لطاعتك ، و أتمم تقصيرنا ، و تقبّل منّا يا ذا الجلال و الإكرام .

اللّهم إنّي وجهت وجهي إليك ، و أسلمت نفسي إليك ، و ألجأت ظهري إليك ، و فوّضت أمري إليك ، اللّهم صلّ على محمد و على آله و أصحابه و أتباعه أجمعين ، يا أرحم الراحمين .

تمّ الكتاب

الفهـــرس

الصفحة	الموضوع

١ .... مقدمة في أحوال المصنّف رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ مع ذكر تأليفاته من غير استقصاء .
٥٣ .... خطبة الكتاب و ذكر السبب الباعث على تصنيف هذا الكتاب .
٥٧ .... بيان مقدمة هي كالدهليز لابدّ من ملاحظتها لمطالع هذا الكتاب .
٥٩ .... **الباب الأوّل** مشتمل على أربعة فصول . الأوّل في حدّ التشبيه . ذكر المصنف فيه ستة حدود له .
٦٠ .... الفصل الثاني في الغرض من التشبيه . و ذكر هنا نحو ستة عشر غرضًا له .
٦٣ .... الفصل الثالث في التنويه بشأن التشبيه . و ذكر بعض كتب مهمّة صنفت برأسها لهذا المقصد .
٦٥ .... الفصل الرابع في بيان مسابقة الشعراء و الأدباء بجمع تشبيهات متعدّدة في كلام واحد . وهو من لطائف فصول هذا الكتاب و مزاياه .
٦٥ .... بيان جمع تشبيهين و ثلاثة إلى عشرة في بيت واحد أو بيتين .
٦٦ .... دعوى ابن حزم الظاهري المحدث الفقيه أنّه جمع تشبيه خمسة أشياء في بيت واحد و أنّه لا يقدر أحد على أكثر منه .
٧١ .... **الباب الثاني** في فضائل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وفيه ثلاثة فصول . الفصل الأوّل في المقامة الأدبية . و هي من البدائع التي هي بغية الأديب .
٧٦ .... الفصل الثاني في أنّ نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل خلق الله على الإطلاق .

٧٦............. ذكر مناظرة اتفقت بين مولانا محمد قاسم النانوتوي رحمه الله تعالى و بعض علماء النصارى و علماء الهندوسية ، و احتجاج علماء النصارى بتشبيه الصلاة الإبراهيمية على أنّ إبراهيم أفضل من محمد عليهما الصلاة والسلام .

٧٧............. حكى الإمام الشعراني رحمه الله تعالى أنّه وقع في سنة ٩٦٠هـ أنّ شخصًا من العلماء أنكر فضل النبي صلى الله عليه وسلم على الرسل عليهم الصلاة والسلام مستندًا ببعض الأحاديث . فصنف علماء الإسلام في ردّه كتبًا .

٨٠............. بيان فضل النبي صلى الله عليه وسلم على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بستين خصلة .

٨١............. ذكر أقوال العلماء في أنّ نبينا صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حتى آدم عليه الصلاة والسلام و إيضاح ذلك .

٨٢ .... بيان أنّ الحليمي وافق المعتزلة في تفضيل الملائكة على الأنبياء . و ذكر رأي الشيخ ابن عربي في ذلك .

٨٢ .... إيضاح مذهب الجمهور في ترتيب الأفضل ثم الأفضل .

٨٣............. ذكر حديث " لا تفضّلوني على الأنبياء " و الجواب عنه .

٨٤ .... ذكر الأنبياء أولي العزم و ما أفتى به عزّ بن عبد السلام و تمالأ العلماء على تكفيره بسبب فتواه .

٨٥............. ذكر أقوال بعض أهل الكشف في ذلك .

٨٦ .... الفصل الثالث في ذكر وجوه أفضليّته عليه الصلاة والسلام . و قد أتى فيه المصنّف بحقائق و بدائع لا تجدها مجموعة في غير هذا الكتاب .

٨٦ .... الوجه الثاني قوله تعالى " وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ " فيه إشارة إلى قران اسمه مع اسم الله تعالى فيذكر حين يذكر .

٨٦ .... الوجه الثالث . قال القطب : في قوله تعالى " فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ " إشارة إلى أنّه جمع جميع كمالات الأنبياء كلّهم و إلى أنّه أفضلهم .

٨٧............. الوجه الخامس . اختص هو عليه الصلاة والسلام بالمقام المحمود .

٨٧............. الوجه التاسع . اختص عليه الصلاة والسلام بأنّ الله غفر له ما تقدّم من ذنبه و ما تأخر . و تفصيل ذلك .

٨٨................ الوجه العاشر ما ذكر الغزالي رحمه الله تعالى .
٨٨................ الوجه الحادي عشر . دعوته و نبوّته عليه الصلاة والسلام عامّة . و إيضاح معنى عموم نبوّته .
٨٩ .... الوجه الثاني عشر أنّه عليه الصلاة والسلام أقدم نبوّة لقوله : كنت نبيًّا و آدم بين الروح و الجسد .
٨٩ .... ذكر أقوال في معنى قوله عليه الصلاة والسلام : كنت نبيًّا و آدم بين إلخ . القول الأوّل ، معناه علم الله ذلك .
٩٠................ القول الثاني ما اختاره المؤلف وهو أنّ معناه أنّ نبوته كانت مشهورة في الملإ الأعلى .
٩١ .... القول الثالث ما اختاره المؤلف أيضًا وهو أنّ المواثيق أخذت على الملائكة بأن ينصروه .
٩٢................ القول الرابع . قال السبكي رحمه الله تعالى : معناه أنّ روحه أو حقيقته خلقت قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام .
٩٢................ بيان ما قال المجدّد للألف الثانية في معنى ما ادّعى بابا آبريز أنّه لما عجن الله طينة آدم عليه الصلاة والسلام في الأزل صببت الماء في ذلك الطين .
٩٣ .... القول الخامس . فيه إشارة إلى تقدّم خلق نوره عليه الصلاة والسلام و دفع تعارض بين حديث " أوّل ما خلق الله نوري " و " أوّل ما خلق العقل " .
٩٤................ القول السادس للشيخ الأكبر . وهو أنّه عليه الصلاة والسلام كان يعرف نبوّته قبل خلق آدم . و فيه إثبات الصور قبل هذه النشأة . و بيان أن سائر الأنبياء نوّابه عليه الصلاة والسلام ، و أنّ خاتم الأولياء مظهر ولاية خاتم الرسل ، و أنّ كلّ نبي يأخذ من مشكاته عليه الصلاة والسلام .
٩٧ .... الوجه الثالث عشر كون اسمه الشريف مكتوبًا على قوائم العرش و أوراق الأشجار و الغرفات في الجنة و على كتفي آدم و خاتم سليمان عليهما الصلاة والسلام .
٩٧ .... الوجه الرابع عشر أخذ الميثاق على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يؤمنوا به عليه الصلاة والسلام كما في القرآن العزيز .
٩٨ .... الوجه الخامس عشر قوله عليه الصلاة والسلام : أنا سيّد الناس يوم القيامة .
٩٨ .... الوجه السادس عشر قوله عليه الصلاة والسلام : أكسي حلّة من حلل الجنة .
٩٨ .... الوجه السابع عشر ما أخرجه أبو نعيم .
٩٨ .... الوجه الثامن عشر ما روي عن انس رضي الله عنه .
٩٩................ الوجه التاسع عشر قوله عليه الصلاة والسلام : أنا سيّد العالمين .

٩٩................ الوجه العشرون قوله عليه الصلاة والسلام : الجنّة حرمت على الأنبياء حتى أدخلها .

٩٩................ الوجه الحادي و العشرون أنّ الله لم يناده في القرآن باسمه .

٩٩................ الوجه الثاني و العشرون لابن عربي مع شرحه للجامي . و فيه بيان نظرية ظريفة لابن عربي في تفاضل الأنبياء . و هي أن تفاضلهم إنّما هو بتفاضل أممهم .

١٠١ .... الوجه الثالث والعشرون ما يفهم من كلام الشيخ محي الدين . و هو أنّ جميع الأنبياء مستمدّون في نبوّاتهم من مشكاة نبوة نبينا عليه الصلاة والسلام . و هناك إيضاح الجامي لقول الشيخ أنّ الأنبياء يستمدّون من مشكاة خاتم الأولياء . و هذا بحث مهمّ .

١٠٢................ إن قلت : كلامه يدلّ على أنّ خاتم الأولياء أفضل من الأنبياء و على أنّ الولاية أجلّ من النبوة . و هناك حلّه بأجوبة ثلاثة .

١٠٢................ الجواب الأوّل قول الشيخ محي الدين ردّه العلماء منهم العارف بالله الشيخ أحمد السرهندي .

١٠٣ .... ذكر الفروق الأربعة عشر بين الولاية و النبوة .

١٠٩................ كلام الإمام ابن تيمية رحمه الله في ردّ من يدّعي وجود خاتم الأولياء و أنّ ما ذكره الحكيم الترمذي مردود . و تفصيل ذلك .

١١١ .... حديث "كنت نبيًّا و آدم بين الماء و الطين" لا أصل له . و الصحيح : كنت نبيًّا و آدم بين الروح و الجسد .

١١١ .... قيل : إن خاتم الأولياء اثنان : أحدهما عيسى عليه الصلاة والسلام . و ثانيهما ولي من الأولياء لقيه الشيخ محي الدين .

١١٤................ تحقيق المؤلّف في كثرة ختم الأولياء و وجوده في أزمنة متعددة و تأييد ذلك بأقوال العارفين .

١١٥ .... الوجه الرابع و العشرون كونه عليه الصلاة والسلام رحمة للعالمين . و ذكر نقول العلماء في بسط ذلك . و هذا من أعزّ لطائف هذا الكتاب .

١٢٠................ الوجه الخامس والعشرون أن العالم خلق لأجله عليه الصلاة والسلام .

١٢١................ حديث " لولاك لما خلقت الأفلاك " موضوع .

١٢١................ السماء غير الفلك في الشرع . و دلائل ذلك و ذكر الفروق بينهما ، منها أن الكواكب في

الأفلاك لا في السماوات . و أن الأفلاك تحت السماوات . و هذا بحث لطيف لا تجده في غير هذا المجموع .
١٢٣.............. الوجه السادس و العشرون .
١٢٣.............. الوجه السابع والعشرون كون لواء الحمد بيده . و فيه بيان أن ألوية الحمد سبعة و أسماء الله المرقومة فيها ألف و ستمائة و أربعة و ستّون اسمًا كما قال بعض أهل الكشف .
١٢٤ .... سئل السيوطي رحمه الله تعالى عن لواء الحمد هل هو لواء حقيقي أو معنوي .
١٢٤ .... الوجه الثامن و العشرون . له عليه الصلاة والسلام مزايا لا تحصى حتى قيل : إنّ الحقيقة المحمديّة لا يدرك كنهها . و قالوا : حقيقتان لا تدركان . و إيضاح ذلك .
١٢٥ .... قصّة لطيفة لابن الفارض و رقصه لبيت في مدح النبي عليه الصلاة والسلام فتحه الله عليه ، و حكاية مقابلة هذا البيت مع بيت صاحب البردة .
١٢٦.............. الوجه التاسع و العشرون . الضمير في قوله تعالى " وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ " راجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فلاح منه أنّه أفضل من إبراهيم .
١٢٦.............. بيان مذهب المعتزلة في ذلك .
١٢٦.............. مناظرة العزّ بن عبد السلام رحمه الله تعالى مع نصراني في ذلك . ثم موت نصراني فيها . و يشبه ذلك مناظرة الشاه عبد العزيز الدهلوي رحمه الله تعالى مع نصراني .
١٢٧.............. الوجه الثلاثون . له عليه الصلاة والسلام معجزات كثيرة .
١٢٧.............. قدح المؤلّف على تائية السبكي قدحًا لطيفًا ، و ذكر عدد نجوم السماء عند منجمي العصر . و هذه فائدة شريفة .
١٢٨ .... الوجه الحادي و الثلاثون في بيان لطائف أسمائه عليه الصلاة والسلام . لاسيما اسميه "محمد" و "أحمد" . و ذكر عدة فوائد .
١٣١ .... الفائدة السادسة في أنّ اسم محمد مشتمل على إشارة إلى عدد المرسلين و هم ثلاثمائة و أربعة عشر رسولًا .
١٣٢.............. الوجه الثاني و الثلاثون في صلاة الله تعالى عليه و أمره المسلمين بأن يصلّوا عليه . و تفصيل ذلك .

١٣٤ .... إن قلت : إنّ الملائكة أمروا بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام . و هذه فضيلة لم تحصل لنبينا صلى الله عليه وسلم . و الجواب من خمسة وجوه .
١٣٥ .... إن قلت : إنّه عليه الصلاة والسلام أوّل من تنشق عنه الأرض فيلقى موسى عليه الصلاة والسلام آخذًا بساق العرش و أنّ إبراهيم يكسى حلّتين يوم القيامة . و هناك ذكر عدّة أجوبة عن هذا السؤال .
١٣٦ .... حكاية لطيفة في فضل النبي صلى الله عليه وسلم و كرامة لبعض الأولياء .
١٣٨ .... الوجه الرابع و الثلاثون أنّ أمّته عليه الصلاة والسلام أكثر الأمم دخولاً في الجنة . و ذكر كشف بعض العارفين في تعيين عدد أهل الجنة . و هذا من اللطائف و الغرائب .
١٣٩ .... الوجه الخامس و الثلاثون . جعل الله علماء أمّته كأنبياء بني إسرائيل . و تفصيل ذلك .
١٤٠ .... رؤيا العارف الشاذلي رحمه الله تعالى . وفيها : سأل موسى عليه الصلاة والسلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالى مسألة . و جواب الغزالي عنها .
١٤١ .... الوجه السادس و الثلاثون تخلّق نبينا صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق فوق ما تخلّق به أحد من خلق الله تعالى . و إيضاح هذا المرام بأقوال العلماء .
١٤٤ .... الوجه السابع و الثلاثون أنّ الله أجلسه على العرش تبجيلاً .
١٤٥ .... الوجه الثامن و الثلاثون . له عليه الصلاة والسلام أسماء كثيرة . و تفصيل ذلك .
١٤٦ .... الوجه التاسع و الثلاثون و الأربعون أنّه عليه الصلاة والسلام أحبّ الخلق إلى الله تعالى و إلى كلّ مؤمن .
١٤٨ .... **الباب الثالث** في إيضاح السؤال في "كما صلّيت على إبراهيم " .
١٥٠ .... **الباب الرابع** في الجواب الأوّل . وهو أنّ هذا السؤال شرع ليتخذه الله خليلاً ، و ردّه ابن القيم رحمه الله تعالى . و هناك جواب ردّه .
١٥١ .... بيان أنّ مقامات القرب لا تتناهى .
١٥٣ .... **الباب الخامس** في الجواب الثاني . و هو أنّه مبني على التواضع .
١٥٥ .... **الباب السادس** مشتمل على الجوابين . ذكرهما القاضي عياض .
١٥٥ .... فصل . إن قيل : ما الحكمة في ذكر إبراهيم مع محمد عليهما الصلاة والسلام في الصلاة . و هناك ذكر نحو اثني عشر جوابًا .

١٥٨ .... **الباب السابع** في الجواب الخامس . وهو تشبيه أصل الصلاة بأصلها وهو منقول عن الشافعي .

١٦١............... فصل . ضعّف ابن القيم رحمه الله هذا الجواب بوجوه . و هناك أجوبتها من المصنّف .

١٦٥............... **الباب الثامن** في الجواب السادس . وهو أن لإبراهيم عليه الصلاة والسلام فضل جزئي . وهو كونه عليه الصلاة والسلام دعوته .

١٦٦............... **الباب التاسع** في الجواب السابع للشيخ التهانوي . و هو قريب من السادس .

١٦٧............... **الباب العاشر** في الجواب الثامن . وهو أنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام منادي الشريعة كما أنّ نبينا صلى الله عليه وسلم منادي الدين .

١٦٨............... **الباب الحادي عشر** مشتمل على جوابين . أحدهما أنّ الكاف للتعليل .

١٧٠ .... **الباب الثاني عشر** في الجواب الحادي عشر . وهو أنّ التشبيه من وجه لا ينافي الفرق من وجه آخر مثل " إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ " الآية .

١٧١ .... **الباب الثالث عشر** في الجواب الثاني عشر . و هو أنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام من حيث كونه والدًا له فضل جزئي .

١٧٢............... **الباب الرابع عشر** في الجواب الثالث عشر . وهو قريب من المتقدّم .

١٧٣ .... **الباب الخامس عشر** وهو محتو على جوابين . وهما مبنيان على الواسطة . و هناك بيان أقسام الواسطة الثلاثة ، و بيان قسمين آخرين إلهاميين لطيفين .

١٧٦............... **الباب السادس عشر** في الجواب السادس عشر . وهو أنّ التشبيه من قبيل التهييج و إثبات الوصف للأفضل بالطريق الأولى .

١٧٧ .... **الباب السابع عشر** في الجواب السابع عشر . و هو أنّ التشبيه نوعان . الأوّل ما يكون للمشاركة في كلّي ، و يقصد فيه دخول المشبّه في الكلّي مثل دخول المشبّه به فيه . ولا يجب فيه كون المشبّه به أقوى . و منه التشبيه في الصلاة . و الثاني بخلاف ذلك . و يلاحظ فيه أمور ثلاثة .

١٨٠ .... **الباب الثامن عشر** في الجواب الثامن عشر . لإبراهيم عليه الصلاة والسلام فضل جزئي ، وهو كونه متبوعًا .

١٨١ .... فصل . إن قلت : ما المراد من اتباع إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي أمر الله به نبينا صلى الله عليه وسلم . قلت : له تسعة أجوبة . وهذا بحث مهم لابدّ من مطالعته .

١٨٥ .... **الباب التاسع عشر** في الجواب التاسع عشر للشيخ العيني . و هو أنّه من باب إلحاق ما لا يعرف بحال ما يعرف . و ذكر شواهد ذلك . و تعبير المؤلف عنه بعبارة أخرى أحسن .

١٨٩............. **الباب العشرون** في الجواب العشرين . وهو أنّ التشبيه نوعان . الأوّل ما يكون للمد ، و الثاني ما يكون للإسقاط . و المشبّه في الأوّل يكون غالبًا أدنى ، و الثاني بعكس ذلك . و تشبيه الصلاة من النوع الثاني . و هذا بحث لطيف من خصائص هذا المجموع .

١٩١............. **الباب الحادي و العشرون** في الجواب الحادي و العشرين . سمعت بعض العلماء يقول : لا حرج في أن تكون الصلاة الإبراهيمية أعلى من الصلاة المحمدية ، إذ ذاك فضل جزئيّ ، و لنبينا صلى الله عليه وسلم آلاف آلاف فضائل ، فله الفضل الكلّيّ .

١٩٢ .... **الباب الثاني و العشرون** وهو مشتمل على جوابين . التشبيه للمجموع بالمجموع . و هناك جواب ذكره النووي رحمه الله تعالى .

١٩٣............. **الباب الثالث و العشرون** في الجواب الرابع و العشرين و هو أنّه عليه الصلاة والسلام نبي الأنبياء حتى إبراهيم عليهم الصلاة والسلام . وكلّ فضل لهم غرفة من بحر كمالاته عليه الصلاة والسلام . و أيّ نقص في أن يأخذ السلطان شيئًا من أمينه و خازنه .

١٩٥............. فصل في كونه عليه الصلاة والسلام نبي الأنبياء و الملائكة ، و بيان حديث "كنت نبيًّا و آدم بين الروح و الجسد " .

١٩٧............. كلام الجامي رحمه الله تعالى على أنّ الحقيقة المحمدية مشتملة على حقائق النبوة و الولاية ، و معنى استمدادهم من خاتم الأولياء .

١٩٨............. فصل في بيان المراد من قولهم : إنّ ولاية بعض الأولياء قد تكون مأخوذة من ولاية عيسى أو موسى أو إبراهيم أو نوح عليهم الصلاة والسلام . و تفصيل الولاية المحمديّة و العيسوية و الموسوية . و بيان مأخذ ولاية الخلفاء الأربعة و المهدي ، و أنّ سلسلة النقشبندية أجلّ السلاسل ، و أنّ للأقطاب و الأبدال مناسبة خاصة بعليّ رضي الله عنه .

٢٠٠............. حديث أبي نعيم في عدد أولياء الله تعالى الذين هم على قلب آدم و موسى و إبراهيم و ميكائيل

عليهم الصلاة والسلام . و هناك بيان عدد الأبدال و أسمائهم .

٢٠٣ .... فصل . لكون نبوته عليه الصلاة والسلام جامعة للنبوات ناسب أن يكون كتابه جامعًا لجميع الكتب السماوية . و إيضاح ذلك .

٢٠٣ .... فصل في أنّ معجزاته عليه الصلاة والسلام جامعة لمعجزات جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

٢٠٤ .... **الباب الرابع و العشرون** في الجواب الخامس و العشرين . ذكر السخاوي أنّ التشبيه في دعاء الخليلَين للأمّة . أي استجب هذا الدعاء لأمّة محمد كما استجبته لأمّة إبراهيم عليهما الصلاة والسلام .

٢٠٥ .... **الباب الخامس و العشرون** في الجواب السادس و العشرين . الكاف بمعنى مثل . و قصد به المضاف إليه نحو مثلك لا يبخل . و المطلوب صلاة هي عين ما صلّيت على إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

٢٠٧ .... **الباب السادس و العشرون** في الجواب السابع و العشرين . التشبيه نوعان . خبري نحو زيد كالأسد ، و المشبّه به غالبًا يكون فيه أقوى . و إنشائي و هو على ثلاثة أقسام . ولا يجب فيه كونه أقوى و أجلّ . و منه التشبيه في الصلاة الإبراهيمية .

٢٠٩ .... **الباب السابع والعشرون** في الجواب الثامن و العشرين . الكاف ليست للتشبيه ، بل للتشابه المفيد تساوي الطرفين في الوصف . وهناك بحث على الفرق بين التشبيه و التشابه . وهو بحث مهمّ لابدّ من مطالعته .

٢١٣.............. **الباب الثامن و العشرون** في الجواب التاسع و العشرين . أنّ لإبراهيم عليه الصلاة والسلام منقبة جزئية ، و هو أنّه أوّل ما يكسى .

٢١٥.............. **الباب التاسع و العشرون** في الجواب الثلاثين . نقل عن الإمام الشافعي وهو أن الكلام تمّ على " صلّ على محمد " و التشبيه إنّما هو للصلاة على آل محمد بصلاة إبراهيم عليهما الصلاة والسلام .

٢١٥.............. و تعقب بأنّه كيف يطلب لغير الأنبياء مثل صلاة إبراهيم . و حلّ هذا الإشكال بوجوه متعددة .

٢١٧.............. فصل . للعلماء خدشات في هذا الجواب . منهم الزركشي و ابن القيم و ابن دقيق العيد رحمهم الله تعالى . و حلّ ذلك بوجوه .

٢١٨.............. فصل في تفصيل اعتراضات ابن القيم رحمه الله تعالى مع ذكر دفعها من المؤلف .

٢٢١ .... **الباب الثلاثون** في الجواب الحادي و الثلاثين . التشبيه نوعان . الأوّل ما يقصد فيه اتصاف الطرفين بوجه الشبه بحيث لا يتعدّى المتكلم نحو زيد كالأسد ، و المشبّه به يكون فيه أقوى غالبًا . و الثاني ما يعود إلى المتكلم فائدته أكثر من الطرفين ، و منه التشبيه في قولنا "كما صلّيت" ولا يجب فيه أفضليته . نعم ، يجب فيه أفضلية الطرفين من المتكلم .

٢٢٢............. فصل في ذكر أحاديث في فضل الصلاة .

٢٢٤............. **الباب الحادي و الثلاثون** في الجواب الثاني والثلاثين . وهو مثل الجواب المتقدم في الباب السابق .

٢٢٤............. فصل في بيان أقوال الأئمة إنّ صلاتنا هل تفيده عليه الصلاة والسلام أم لا . وهو بحث مهمّ شريف .

٢٢٨............. **الباب الثاني و الثلاثون** في الجواب الثالث و الثلاثين . اشتراط كون المشبّه به أفضل من المشبّه حيث يوجد الأفضل ، و إلّا فلا ، كما فيما نحن فيه .

٢٢٩ .... **الباب الثالث و الثلاثون** في الجواب الرابع و الثلاثين . صلاة نبينا و صلاة إبراهيم عليهما الصلاة والسلام و إن كانت متساوية الأقدام لكن هذا لا يقتضي تساوي المصلّى عليهما . و هنا ثلاثة أمور . المصلّي وهو الله ، و الصلاة ، و المصلّى عليه . ولا تفاوت في الأوّلين بل في الثالث فقط باعتبار الاستعداد . و استعداد مرآة صدر نبينا عليه الصلاة والسلام أعلى و أجلّ .

٢٣١............. كلام العارف بالله الشيخ أحمد السرهندي في تأييد ذلك ، و بيان الفرق بين الخلّة و المحبّة .

٢٣٢ .... الكلام الطويل لبعض العارفين في أنّ قابليته عليه الصلاة والسلام لا تساويها قابليّة أحد من المقرّبين . و هذا بيان نفيس .

٢٣٥ .... **الباب الرابع و الثلاثون** في الجواب الخامس و الثلاثين . هذا التشبيه دليل صريح على أنّ نبينا عليه الصلاة والسلام أفضل من إبراهيم و جميع الأنبياء حيث دعا لنفسه ما كان لإبراهيم و آله من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الكمالات و البركات .

٢٣٥ .... نظير هذا ما احتجّوا على أفضليته عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى : فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ . وهذا من لطائف الأجوبة .

٢٣٦............. كلام ابن عربي في تأييد ما تقدّم .

٢٣٧............. فصل . إن قلت : قوله تعالى " فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ " بظاهره يدلّ على أنّهم أفضل من نبينا

ﷺ . و ذكر هناك عدّة أجوبة مع إيضاح البحث . و هذا بحث نفيس ينبغي مطالعته .

٢٤٠ .... **الباب الخامس و الثلاثون** في الجواب السادس و الثلاثين . يفهم من كلام الشيخ أحمد المجدّد للألف الثانية أنّ لإبراهيم عليه الصلاة والسلام فضلاً جزئيًا ، لأنّه خليل و نبينا حبيب . و الخلّة عامّة موجودة في جميع الموجودات بل في المعدومات أيضًا ، و المحبّة فرد كامل من أفراد الخلّة . فسأل نبينا ﷺ أن يحصل للفرد جميع بركة الكلّيّ . و هناك إيضاح مقام الخلّة و المحبّة و النسبة بينهما من الشيخ أحمد .

٢٤٠ .... **الباب السادس و الثلاثون** في الجواب السابع و الثلاثين . أنّ التشبيه في وصول ذلك بمحض فضل الله وصوله لإبراهيم عليه الصلاة والسلام و آله .

٢٤٣.............. **الباب السابع و الثلاثون** في الجواب الثامن و الثلاثين . الكاف هنا مستعملة في ضدّ معناها ، و أدّت أفضلية المشبّه على المشبّه به نظرًا إلى دلائل خارجيّة من الآيات و الأحاديث .

٢٤٣.............. ذكر نظائر تؤيّد ذلك مما استعملت في أضداد معانيها نحو ثم العاطفة و الفاء و بعد و قبل و كل و بعض و وراء و إلاّ .

٢٤٧.............. **الباب الثامن و الثلاثون** في الجواب التاسع و الثلاثين . توجيه الإمامين ابن عساكر و ابن عبد السلام . و هو أنّه يحصل للمشبّه ما حصل لإبراهيم و آله . ثم تقسم الجملة فيحصل لآل محمد قليل و يتوفّر ما بقي لمحمد ﷺ . فيكون ﷺ أفضل من إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

٢٤٨.............. **الباب التاسع و الثلاثون** في الجواب المتمّم الأربعين . التشبيه نوعان . الأوّل في المفردات نحو زيد كالأسد ، و المشبّه به فيه يكون غالبًا أقوى . و الثاني في الجمل كما فيما نحن فيه ، ولا يشترط فيه كونه أقوى لوجوه لطيفة مذكورة هناك .

٢٥٠ .... **الباب الأربعون** في الجواب الحادي و الأربعين . نقله المجد الشيرازي عن بعض أهل الكشف أنّ المراد : اللّهم اجعل من أتباعه عليه الصلاة والسلام من يبلغ النهاية في أمر الدين كالعلماء بشرعه .

٢٥١ .... **الباب الحادي و الأربعون** في الجواب الثاني و الأربعين . التشبيه نوعان . الأوّل ما يكون المشبه أمرًا واحدًا وكذا المشبّه به نحو زيد كالأسد ، و المشبّه به غالبًا يكون فيه

أقوى . و الثاني بخلاف ذلك ، و المشبّه به فيه قد يكون أقوى من بعض أجزاء المشبّه ، لا من مجموعه . و ما نحن فيه من القسم الثاني .
٢٥٢............. **الباب الثاني و الأربعون** في الجواب الثالث و الأربعين . الكاف بمعنى " على " أي صلّ على محمد ﷺ و آله بناءً على ما صلّيت على إبراهيم عليه الصلاة والسلام . و له تقريران . و هناك ذكر شواهد و نصوص الأئمة لمجيء الكاف بمعنى "على" .
٢٥٤............. **الباب الثالث و الأربعون** في الجواب الرابع و الأربعين . ذكر الشيخ أحمد المجدّد للألف الثانية أن التجلي الذاتي حظ إبراهيم . و هو عليه الصلاة والسلام عقبة أولى لمن أراد الوصول إلى ذات الله ، و مرآة لغيب الغيب . فطلب نبينا عليه الصلاة والسلام مثل صلاة إبراهيم ليصل من ولاية إبراهيم إلى ما فوقها ، وهو حضرة الذات جل شأنها . و لهذا أمر بمتابعته .
٢٥٤............. ذكر عبارة المجدّد للألف الثانية . و فيها إيضاح ذلك . و بيان قسمي الوصول إلى الذات باعتبار النظر و باعتبار القدم . و الفرق بين وصول الخليل و الحبيب عليهما الصلاة والسلام .
٢٥٥............. بيان مقام الخليل و الحبيب حسب الكشف .
٢٥٦............. إن قلت : كيف يسوغ طلب مقامات الأنبياء لآل محمد على ما يدلّ عليه التشبيه . و هناك حلّه بطريق ذوقي كشفي لطيف .
٢٥٧............. فائدة في بيان الفرق بين الوصول النظري و الوصول القدمي .
٢٥٨............. **الباب الرابع و الأربعون** في الجواب الخامس و الأربعين . أنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام رزق حظًّا وافرًا من القبول في الأمم ، و نظرًا إلى هذا الفضل الجزئيّ صح التشبيه .
٢٥٩............. **الباب الخامس و الأربعون** في الجواب السادس و الأربعين . وهو قريب مما تقدّم .
٢٦٠............. **الباب السادس و الأربعون** في الجواب السابع و الأربعين . التشبيه قسمان . أحدهما لبيان حال المشبّه وهو الأشهر . و الثاني لبيان حال المشبّه به المخفي ، ولا يجب فيه كون المشبّه به أقوى بل الحال بالعكس . وما نحن فيه من القسم الثاني . و هناك ذكر شواهد منقولة من كتب الأئمة .
٢٦٤............. **الباب السابع و الأربعون** في الجواب الثامن و الأربعين للعارف أبي محمد المرجاني ، إنّما قال "كما صلّيت على إبراهيم " و لم يقل " على موسى " لأنّ موسى عليه الصلاة والسلام كان التجلّي

له بالجلال فصعق . و إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان له التجلي بالجمال . و المحبّة مثل الخلّة من آثار التجلّي بالجمال .

٢٦٥ .... **الباب الثامن و الأربعون** في الجواب التاسع و الأربعين . المقصود أنّ لهذه الصلاة نوع تعظيم كما فعل في حق إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

٢٦٦ .... **الباب التاسع و الأربعون** في الجواب الخمسين . التشبيه راجع إلى المصلّي السائل فيما يحصل له من الثواب ، لا بالنسبة إلى ما يحصل للنبي صلى الله عليه وسلم . و اعتراض ابن حجر و جوابه من المؤلف .

٢٦٧ .... **الباب الخمسون** في الجواب الحادي و الخمسين . التشبيه قد يكون لبيان حال المشبّه من غير نظر إلى قوة المشبّه به .

٢٦٨ .... **الباب الحادي و الخمسون** مشتمل على جوابين . الكاف ليست للتشبيه بل للمفاجأة أو المقارنة . و شواهد ذلك .

٢٧٠ .... **الباب الثاني و الخمسون** في الجواب الرابع و الخمسين . الصلاة على إبراهيم و محمد عليهما الصلاة والسلام متحدة في الباطن ، لأنّ نور محمد في ظهر إبراهيم عليهما الصلاة والسلام اقتضى الصلاة على إبراهيم . و للجزء تأثير في الكلّ .

٢٧١ .... وجه جحد بني آدم و نسيانهم من بعض أهل الكشف .

٢٧٣ .... **الباب الثالث و الخمسون** في الجواب الخامس و الخمسين . هذا من باب الكلام في قوله تعالى : وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ .

٢٧٤ .... فصل في البحث على المراد من طلب النبي صلى الله عليه وسلم المغفرة مع أنّه معصوم . و هذا بحث مهم بديع ينبغي مطالعته .

٢٨٠ .... **الباب الرابع و الخمسون** مشتمل على جوابين . و الحاصل أنّ وجه الشبه كون صلاة المشبّه و المشبّه به أفضل من صلاة من تقدم .

٢٨٢ .... **الباب الخامس و الخمسون** في الجواب الثامن و الخمسين . التشبيه نوعان . أحدهما للمفاضلة مثل زيد كالأسد ، و لشهرته يتوهّم حصره فيه . و الثاني ما يكون للمساواة ، و منه ما نحن فيه . و ذكر هناك شواهد تدلّ على المساواة . وهو بحث جديد شريف .

٢٨٦............ **الباب السادس و الخمسون** في الجواب التاسع و الخمسين . و فيه ذكر مقدّمة و هي أنّا نفوّض الصلاة إلى الله لقصورنا عن ذلك . فهذا دعاء منّا . و المعنى : اللّهم إنّا ندعو أن تصلي على محمد كما دعاك الأمم الخالية أن تصلي على أنبيائهم . فالتشبيه إنّما هو بين الدعائين لا الصلاتين . فلا إشكال .

٢٨٨ .... **الباب السابع و الخمسون** في الجواب المتمّم الستين . الكاف مقحمة كما في " ليس كمثله شيء " . و " ما " مصدريّة زمانية . و المعنى : صلّ على محمد ما دمت مصلّيًا على إبراهيم . وهناك تفصيل ذلك .

٢٨٩............ فيه نوع بعد ، لكن عند الابتلاء بالبليّتَين يختار الأهون . و هنالك ذكر عدّة شواهد اضطروا فيها إلى التوجيهات البعيدة .

٢٩١ .... **الباب الثامن و الخمسون** في الجواب الحادي و الستين . السؤال للقدر الزائد على أصل الصلاة ، و بانضمامه إلى الأصل يصير القدر الثابت له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أعظم .

٢٩٢............ **الباب التاسع و الخمسون** في الجواب الثاني و الستين . تقرير آخر لما تقدّم .

٢٩٤............ **الباب الستون** في الجواب الثالث و الستين . التشبيه نوعان . الأوّل ما يقصد فيه المدح أو الذم نحو " زيد كالأسد " و " طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ " وفيه يكون المشبّه به أقوى غالبًا . و الثاني ما يقصد فيه بيان محض الواقعة نحو " ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ " ، ولا يجب فيه كونه أقوى . و منه قولنا "كما صلّيت على إبراهيم " . و هناك ذكر شواهد كثيرة .

٢٩٧ .... **الباب الحادي و الستون** في الجواب الرابع و الستين . التشبيه نوعان . الأوّل ما يكون الطرفان فيه من الأنبياء عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما في الصلاة الإبراهيمية ، ولا يلزم فيه كون المشبّه به أجلّ ، و الثاني بخلاف ذلك نحو " زيد كالأسد " . و إيضاح ذلك .

٢٩٧ .... بيان أنّ التفاضل بين الأنبياء عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على وجهين . الأوّل على الإبهام ، و هو جائز ثابت بالنصّ القرآني . و الثانى على التعيين بأسمائهم ، و هو ممنوع إلاّ على سبيل التعليم . و هذا معنى حديث " لا تفضّلوني على الأنبياء " و حديث " لا ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى " . و هذا بحث طويل شريف ينبغي مطالعته .

٢٩٩.............. تنبيه مهم . وهو أن التفاضل بحيث يورث التباغض و القدح كما هو في صورة التعيين لا يجوز .

٣٠٠ .... فصل في أنّه كما لا يسوغ التفاضل بين الأنبياء الموجب للقدح و التحاسد كذلك لا يسوغ ذلك بين السلف و الأئمة الأربعة و غيرهم من العلماء . و ذكر أقوال العلماء المؤيدة لهذا الغرض . و هذا بيان طويل حقّ أن يرجع إليه .

٣٠٧.............. **الباب الثاني و الستون** في الجواب الخامس و الستين . قيل : هذا التشبيه من قبيل قول رجل لرجل : أعطني مائة درهم كما أعطيت فلانًا مائة درهم . ولا يلاحظ فيه أحد الطرفين على الآخر .

٣٠٨.............. **الباب الثالث و الستون** في الجواب السادس و الستين . وهو مأخوذ من كلام المجدّد الشيخ أحمد السرهندي مبني على الفرق بين المحبّة و الخلّة . فالخلّة من خواصّها الأنس و الاطمينان حتى حالة المحنة ، و المحبة ممتازة بالحزن و الألم . فالمطلوب في تشبيه صلاة الحبيب بصلاة الخليل هذا الفرح و الطمانينة . و هناك إيضاح ذلك حسب ذوق العارفين .

٣١٠ .... **الباب الرابع و الستون** في الجواب السابع و الستين . الكاف للربط المحض من غير إرادة حقيقة التشبيه . و إيضاح ذلك مع ذكر شواهده .

٣١٥ .... **الباب الخامس و الستون** في الجواب الثامن و الستين . التشبيه ثلاثة أنواع . الأوّل في الأعيان نحو زيد كالأسد . و الثاني في الأعراض ، و المشبّه به فيهما يكون غالبًا أقوى . و الثالث في الفعل و الحدث أي المعنى المصدري ، و المشبّه به فيه لا يكون أقوى بل لا يمكن إلّا نادرًا ، و منه قولنا "كما صلّيت " . و عند ذاك تحقيقات و نكات لطيفة يجب مطالعتها .

٣١٨ .... فصل في ذكر شواهد ذلك .

٣٢٠.............. **الباب السادس و الستون** في الجواب التاسع و الستين . هذا الدعاء مثل دعاءنا في الفاتحة " ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ " الآية . أي المنعم عليهم من الأنبياء وغيرهم .

٣٢١.............. **الباب السابع و الستون** في الجواب المتمم السبعين . قد يكون المشبّه به محبوبًا في

الترغيب أو مستكرهًا في الترهيب . فيذكر لهذه الجهة و إن كان أدنى من المشبّه ، و قولنا "كما صلّيت على إبراهيم " من باب ذكر الطيبات .

٣٢٢ .... شواهد التشبيه بالأمور المستحسنة المحبوبة و إن كانت غير أفضل .

٣٢٧............. **الباب الثامن و الستون** في الجواب الحادي و السبعين . يحصل من التشبيه أنّ نبينا ﷺ أفضل من إبراهيم ، إذ كان حبيبًا من قبل . ثم سأل لنفسه مقام الخلّة فصار خليلاً . و هنا ذكر الفرق بين هذا الجواب و الجواب المذكور في الباب الأوّل .

٣٢٨ .... فصل في مباحث الحبيب و الخليل . هذه لطائف البدائع و أسرار مكنونة من أعزّ نفائس هذا الكتاب .

٣٢٨ .... مآخذ الخليل باعتبار الاشتقاق .

٣٢٩............. فصل في الفرق بين الخليل و الحبيب و متمسكات من قال : إنّ الحبيب أعلى من الخليل .

٣٣١ .... مادة الحبّ تحتوي على أمور خمسة .

٣٣١ .... قال ابن القيم و الغزالي رحمهما الله : إنّ درجة الخليل أعلى من درجة الحبيب . و دلائل ذلك .

٣٣٣ .... فصل . المختار عند المؤلف أنّ الخلّة أمر وسيع يقبل المشاركة على خلاف ما قال كثير من العلماء : إنّ الخلّة لا تقبل المشاركة . و هنا بيان أنّ عدم احتمالها للمشاركة أمر شرعي باعتبار أخذ المنتهى ، لا لغوي .

٣٣٤............. بيان أنّ قوله عليه الصلاة والسلام " لو كنت متخذًا خليلاً غير الله لاتخذتُ أبابكر (رضي الله عنه) " لا يدل على عدم المشاركة بوجوه سبعة . و هي من اللطائف ينبغي مطالعتها .

٣٣٥............. بيان أن معنى " لو كنت متخذاً خليلاً " و " لو كنت متخذًا حبيبًا " واحد ، لكن خصّ الخليل بالذكر دون الحبيب لئلا يحتج به نحو الروافض على مزعوماتهم الباطلة .

٣٣٦ .... قوله عليه الصلاة والسلام " إنّي أبرأ إلى كلّ خليل من خلته " يدلّ على سعة دائرة الخلّة لغةً .

٣٣٧ .... بيان أنّ قصر النبي ﷺ للخليل على فرد واحد إنّما هو باعتبار إرادة الفرد الأكمل ، فهو مثل البيت و الحديث و المدينة لبيت الله وحديث النبي و مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام ، و مثل قوله عليه الصلاة والسلام : لا يقولنّ أحدكم للعنب الكرم فإن الكرم قلب المسلم .

٣٣٩............. الخليل جنس له أفراد كثيرة لكن الله هو الخليل الأكبر كما أنّ الله هو الرفيق الأعلى على ما

أشار إليه النبي عليه الصلاة والسلام عند الوفات .

٣٣٩............. بيان نكتة وهي لِمَ قيّد " الرفيق " بالأعلى عند الوفات ولمْ يقيّد " الخليل " بالأكبر و الأعلى ونحو ذلك مع أنّ المراد ذلك .

٣٤٠............. فائدة شريفة . اعلم : أنّ البيان السابق مبني على أن الخلّة أعلى أنواع المحبة . و ههنا نقول : لا يبعد أن يكون لمحبّة الله مرتبة أو مراتب فوق الخلة .

٣٤١ .... بيان أنّ نبينا صلى الله عليه وسلم حبيب لخليل فحبيب ، و إبراهيم عليه الصلاة والسلام حبيب لخليل فقط . و تحقيق ذلك . و هذا بحث نفيس لا تجده في كتب .

٣٤١ .... إن قلت : يعلم من هذا أنّ الحبيب أعمّ من الخليل مع أنهما قسمان . و قسيم الشيء يباين الشيء . قلت أوّلاً : هما متباينان مفهومًا ، و العموم إنّما هو باعتبار المصداق . و ذكر شواهد ذلك من كتب أهل المعقول .

٣٤٢............. فائدة في معنى قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الشفاعة الكبرى : إنّما كنت خليلاً من وراء وراء ، و التمسك على هذا المرام .

٣٤٣ .... و بالجملة مقامات القرب من الله لا تحصى ، و الاستدلال على ذلك بحديث الشفاعة .

٣٤٣ .... ذكر أقوال العارفين كالسهروردي وغيره في إيضاح هذا المرام .

٣٤٤ .... فصل . سنح ما سبق أنّ الخلّة لغةً أمر وسيع قابل للاشتراك . و هناك ذكر عشرين وجهًا تؤيّد هذه الدعوى . و هذا البحث من أعزّ نفائس هذا الكتاب ما لا تجده في كتاب .

٣٤٤ .... الوجه الثاني و الثالث في ذكر حديث " إنّ كلّ اثنين من الأنبياء يوم القيامة خليلان " .

٣٤٥............. الوجه الرابع في ذكر حديث أطلق فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم على جبريل أنّه خليلي .

٣٤٥............. الوجه الخامس . الاستدلال من قوله عليه الصلاة والسلام : لولا أنّ الله سمّاه صاحبًا لاتخذتُه خليلاً .

٣٤٥............. الوجه السادس . ذكر حديث " لكلّ نبي خليل و أنّ خليلي أبو بكر (رضي الله عنه) " .

٣٤٦ .... الوجه السابع . الاستدلال من حديث إغلاق الأبواب ، و فيه : قال الناس : أغلق أبوابنا و ترك باب خليله .

٣٤٦ .... الوجه الثامن . الاستدلال من حديث " خليلي عثمان " و حديث " لكلّ نبي خليل و خليلي سعد بن معاذ " و حديث " خليلي من هذه الأمّة أويس القرني " و حديث " لكلّ

نبي خليل و أنّ خليلي و أخي عليّ بن أبي طالب " .
٣٤٧ .... الوجه التاسع . الاستدلال من قول أبي ذرّ و أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيرهما عند التحديث " سمعت خليلي ﷺ " و " أمرني خليلي " . و تفصيل تلك الأحاديث .
٣٤٨ .... الوجه العاشر . ذكر أقوال السلف أطلقوا فيها الخليل على غير الله وغير رسوله الدالة على سعة مجال معناه ، و إيضاح ذلك .
٣٤٩ .... الوجه الحادي عشر . الاستدلال من شعر جرير .
٣٤٩ .... الوجه الثاني عشر . استعمالهم جمع الخليل يدلّ على المدعى .
٣٥٠ .... الوجه الثالث عشر . التمسك من قول الشعراء " خليليّ " بالمثنى .
٣٥١ .... الوجه الرابع عشر . استدلال من قصيدة النابغة التي أنشدها بين يدي النبي ﷺ .
٣٥٢ .... الوجه الخامس عشر . الاستدلال من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : وإن كان ليذبح الشاة فيفرقها في خلائلها .
٣٥٣ .... الوجه السادس عشر . الاستدلال من حديث " لكلّ إنسان ثلاثة أخلاء : المال و الأهل و العمل " .
٣٥٣ .... الوجه السابع عشر . الاستدلال من حديث أبي العالية .
٣٥٣ .... الوجه الثامن عشر . الاستدلال من حديث : ألا إني أبرأ إلى كلّ خليل من خلّته .
٣٥٤ .... الوجه التاسع عشر . استعمال فصحاء العرب للخليل في معنى الصديق .
٣٥٤ .... الوجه موفّى العشرين . البيان المتقدّم كان مبنيًّا على موافقة من قال : إنّ الخلّة أعلى مراتب الحبّ إرخاءً للعنان . و هنا تحقيق آخر للمؤلف البازي ، وهو أنّ الخلّة ليست أعلى المراتب . و إيضاح ذلك .
٣٥٥ .... نعم ، الشارع خصّ الخلّة بأعلى المراتب لقوله : لو كنت متّخذًا خليلاً إلخ . بإرادة منتهى الحبّ ، لكنّه أمر شرعيّ لا لغويّ . و هذا كالزكاة خصّه الشرع بالفرض الماليّ المخصوص . و معناه لغةً النماء و البركة .
٣٥٥ .... من دلائل ذلك أنّ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ صرّح بأنّ أعلى مراتب الحبّ التتيم . و إيضاح ذلك بذكر مراتب الحبّ الكثيرة .

٣٥٦ .... بيان أنّه لا يصحّ حديث : من عشق و عفّ و كتم إلخ .

٣٥٦ .... أئمة اللغة و الأدب ذكروا مراتب الحبّ ، ولم يذكروا أنّ الخلّة أعلاها . و هنا نقل مراتب الحبّ من الأئمة .

٣٥٧ .... إن قلت : ذكر المجد رحمه الله تعالى مراتب الحبّ العشر ، ثم جعل الخلّة أعلى المراتب ، و هنا إيضاح ذلك مع الجواب عما ذكر المجد الفيروز آبادي . و هذا بحث لطيف .

٣٥٨ .... بيان أنّ الأسباب الجالبة للحبّ عشرة .

٣٥٩ .... **الباب التاسع و الستون** في الجواب الثاني و السبعين . الأنبياء كلّهم دخلوا في آل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، و منهم نبينا صلى الله عليه وسلم . ففيه تشبيه الجزء بالكلّ ، و إيضاح ذلك . هذا ما اختاره الإمامان الكبيران ابن القيم و ابن تيمية رحمهما الله تعالى .

٣٦٠ .... بيان ما قال ابن تيمية في المنهاج و ابن القيم في الجلاء .

٣٦١ .... فصل في بيان الإشكال مع جوابه و أنّ الأحاديث الواردة فيه على ستة أقسام .

٣٦٣ .... فائدة شريفة في جمع ألفاظ هذه الصلاة المأثورة ، و هي بغية المحدث .

٣٧٠ .... فصل . إن قلت : فلم جاء ذكر محمد صلى الله عليه وسلم و آله بالاقتران و جاء الاقتصار على إبراهيم عليه الصلاة والسلام أو آله في عامّة الروايات . و هناك ذكر عدّة أجوبة من المؤلّف الروحاني . والجواب السابع لابن القيم .

٣٧٢ .... **الباب السبعون** في الجواب الثالث و السبعين . التشبيه نوعان . الأوّل ما يطلب ترغيب الناس في المشبّه به مثل رغبتهم في المشبّه و صرفهم إليه نحو صرفهم إلى المشبّه . و منه عند المصنّف : فضل عائشة على سائر نساء العالمين كفضل الثريد . ومنه تشبيه الصلاة هذه . و الأغلب فيه كون المشبّه أفضل ليصحّ الترغيب . و منه ما يقع في التخلص . و تأييد ذلك بشواهد لطيفة تورث الفرح و السرور .

٣٧٨ .... **الباب الحادي و السبعون** في الجواب الرابع و السبعين . التشبيه أنواع . الأوّل ما ليس بدعاء نحو زيد كالأسد ، ولا فائدة في تكراره . و الثاني ما هو دعاء لكن لا يتيقّن قبوله كدعاء غير الأنبياء ، و يحسن تكراره للتاكيد لا للتأسيس رجاءَ القبول . و منه الاستغفار و تكراره . و الثالث ما هو دعاء متيقّن قبوله في كلّ مرة ، و التكرار فيه يفيد التأسيس .

و منه الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام ، و بالإعادة فيه يفضل المشبّه على المشبّه به أضعافًا .

٣٨١ .... فصل في بحث أنّ الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مقبولة دائمًا ، و تفصيل أقوال العلماء في ذلك . و هذا بحث شريف حريّ بالمطالعة .

٣٨٤............. **الباب الثاني و السبعون** في الجواب الخامس و السبعين . "كما" بمعنى "كذا" بتقدير حرف العطف أو بدونه . و تقدير العاطفة كثير في القرآن و الحديث و كلامهم . و "صلّيت" على هذا بمعنى "صلّ" الأمر . و هناك ذكر شواهد كون الخبر بمعنى الأمر و تقدير حرف العطف .

٣٨٧ .... **الباب الثالث و السبعون** في الجواب السادس و السبعين . ما استخرجته أنّ مقام إبراهيم في وسط طريق محمد صلى الله عليه وسلم ، و مقام نبينا فوق مقام إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، و الوصول إليه يتوقف على الوصول إلى مقام ابراهيم عليه الصلاة والسلام . و هذا الوصول قصد في التشبيه . و يدلّ عليه كلام بعض العارفين .

٣٩٠............. **الباب الرابع و السبعون** مشتمل على جوابين .

٣٩٣ .... **الباب الخامس و السبعون** محتو على جوابين . التشبيه على خمسة أنواع . الأوّل ما يكون لتعريف المشبّه نحو الحرف "كمن" ، و علامته صحة الحمل و عدم كون المشبّه به أقوى . و الثاني ما قصد فيه محض التشبيه نحو زيد كالأسد ، و علامته عدم صحة الحمل . و الثالث في الفعلين المتحدين إلّا في المتعلقات ، و منه التشبيه في الصلاة . و هو أقرب إلى القسم الأوّل . و هنا نظران . جليّ و دقيق . و في الدقيق صلاة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعض من صلاة محمد صلى الله عليه وسلم مثل قولنا : الحرف كمن . و هناك إيضاح الأقسام الخمسة .

٣٩٨............. **الباب السادس و السبعون** مشتمل على خمسة أجوبة .كلمة "على" بمعنى "عن" التعليلية أو بمعنى "مع" أو اللام التعليلية أو "عند" أو الباء .

٣٩٨............. تصريح الأئمة بمجيء "على" بمعنى "عند" و أخواتها المذكورة .

٣٩٩ .... و منه الحديث المشكل : أسلمت على ما سلف من خير .

٤٠٢ .... إن قلت : على هذا آل محمد مَن هم ؟ و جواب ذلك .

٤٠٤ .... إن قلت : نحن نطلب نصًّا أوضح . و هناك جوابه . و ذكر اعتراضات ابن العربي و جوابها

من المؤلّف .

٤٠٧ .... **الباب السابع و السبعون** في الجواب السادس و الثمانين . هذه الصلاة من قبيل قول سليمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ .

٤٠٩ .... **الباب الثامن و السبعون** في الجواب السابع و الثمانين . إنّه جواب عن سلامه أرسل إلينا ليلة المعراج فنصلّي عليه لذلك .

٤١١ .... **الباب التاسع و السبعون** في الجواب الثامن و الثمانين . وقع التشبيه لتأليف متّبعيه و ترغيب أهل الكتاب إلى الإسلام .

٤١٢.............. **الباب الثمانون** في الجواب التاسع و الثمانين . الكاف بمعنى المبادرة .

٤١٣ .... ثم " صلّيت " على هذا يحتمل أن يكون بمعنى المضارع ، و شواهد ذلك من الأحاديث .

٤١٥ .... **الباب الحادي و الثمانون** في الجواب التسعين . التشبيه نوعان . الأوّل ما لا يكون من قبيل الدعاء نحو زيد كالأسد ، و هو قسمان . و النوع الثاني ما هو دعاء كما فيما نحن فيه ، ولا يلزم فيه أفضليّة المشبّه به ، لأنّ الدعاء يخرج الأشياء عن أصلها مثل إخراج الأمر عن الاستعلاء و الماضي إلى المضارع .

٤١٦ .... **الباب الثاني و الثمانون** في الجواب الحادي و التسعين . الحاصل أنّ المطلوب الوفاء من الله تعالى حسب ما وعد في الماضي عند الصلاة على إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . فالصلاة في الطرفين واحد . و هنا بحث تشبيه الشيء بنفسه .

٤١٧ .... أقسام وجود كلّ شيء عشرة . و هذا بحث بديع فراجعه .

٤٢٠.............. **الباب الثالث و الثمانون** يشتمل على خمسة أجوبة . الكاف بمعنى "إذ" للوقت مع التعليل أو بدونه أو للقسم أو بمعنى "على" و على الأخيرين كلمة "ما" إمّا موصولة و إمّا مصدرية .

٤٢١ .... الكاف من عجائب الحروف ، و إيضاح ذلك .

٤٢٣.............. **الباب الرابع و الثمانون** في الجواب السابع و التسعين . التشبيه نوعان . الأوّل ما يكون الطرفان فيه مفردين ، و يكون وجه الشبه فيه غالبًا غير الوجود من الصفات ، و يتركّب منه الهليّة المركبة ، و الأغلب فيه كون المشبّه به أقوى . و الثاني ما يكونان فعلين ، و المراد هنا قرانها في الوجود ، و يتحقق منه الهليّة البسيطة . و هنالك ذكر

علامته . ولا يجب فيه كون المشبّه به أقوى و أعلى . و منه ما نحن فيه .
٤٢٣............... الوجود كلّيّ متواط لا يحتمل التفاضل . و لذا قالوا : وجود الواجب و الممكن مختلفان حقيقة .
٤٢٤ .... استدلال مولانا محمد قاسم النانوتوي رحمه الله تعالى على توحيد الله .
٤٢٥ .... مصدر الوجود و العدم و الإماتة لا يكون لبيان النوع .
٤٢٥ .... كلام شريف للرضي على كلمة "كما" .
٤٢٧............... **الباب الخامس و الثمانون** في الجواب الثامن و التسعين . آل إبراهيم هم آلاف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، و نبينا صلى الله عليه وسلم عند البعض أفضل من كلّ واحد لا من المجموع . و هناك بيان الاختلاف و إحقاق أنّه عليه الصلاة والسلام أفضل من المجموع أيضًا .
٤٢٨ .... فصل في تحقيق أنّه عليه الصلاة والسلام أفضل من مجموع الأنبياء أيضًا كما أنّه أفضل من كلّ واحد منهم . و بيان ردّ ما نقل عن العزّ بن عبد السلام في خلاف ذلك ، و ذكر رسالة بحروفها للعزّ رحمه الله تعالى في أنّه عليه الصلاة والسلام أفضل الخلق على الإطلاق ، و هي رسالة نفيسة .
٤٣٧ .... **الباب السادس و الثمانون** في الجواب التاسع و التسعين . قيل : كون المشبّه به أقوى غير لازم نحو : مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ . و ذكر شواهد ذلك .
٤٣٨............... حكاية أبي تمام الشاعر في مدح أحمد بن المعتصم و الاعتراض عليه و إنشاده ارتجالًا في الجواب .
٤٤٠ .... **الباب السابع و الثمانون** و فيه أربعة تقريرات . و الحاصل : صلّ على محمد صلى الله عليه وسلم ثانيًا و تفصيلًا كما صلّيت عليه أوّلًا إجمالًا عند الصلاة على إبراهيم عليه الصلاة والسلام .
٤٤١............... فصل في التقرير الثاني .
٤٤٢ .... فصل في التقرير الثالث .
٤٤٣............... فصل في التقرير الرابع . و هناك أبحاث نفيسة .
٤٤٦............... **الباب الثامن و الثمانون** في الجواب الرابع بعد المائة . الصلاة من مقولة الكيف أو الفعل فلا تقبل التفاوت كالإيمان . و التشبيه بالكاف لا يلاحظ فيها الصفات ، بخلاف التشبيه " بمثل " . و لذا قيل : إيماني كإيمان جبريل ولا أقول مثل إيمان جبريل .

فالكاف كالضمير . فلا يلزم من هذا التشبيه كون إبراهيم عليه الصلاة والسلام أفضل . نعم ، لو كان التشبيه " بمثل " لزم ذلك .

فصل في بيان أنّ هذا الفرق بين الكاف و " مثل " باعتبار الأصل . و أمّا الاستعمال ففيه وسعة . و هناك ذكر شواهد ذلك ٤٤٧

بيان مسألة الطلاق المتفرعة على الفرق بين الكاف و " مثل " ٤٤٨

بيان أنّ ما نقل عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى : إيماني كإيمان جبريل لا مثل إيمانه . هل هو صحيح أم لا ، و إيراد أقوال العلماء في إيضاح المراد منه ٤٤٨

الباب التاسع و الثمانون في الجواب الخامس و المائة . المراد تشبيه المجموع بالمجموع و أفضلية المشبّه به إنّما هو باعتبار آل إبراهيم عليه الصلاة والسلام فقط ٤٥١

الباب التسعون في الجواب السادس و المائة . إنّ الكاف مقحمة و ما بعدها مفعول الفعل المتضمن لمعنى الإعطاء أو الجعل و نحو ذلك . و هناك بحث زيادة الكاف ٤٥٢

الباب الحادي و التسعون في الجواب السابع بعد المائة . قال الشيخ الأنور رحمه الله تعالى : إنّ التشبيه غير مقصود . و إنّه اقتباس من قوله تعالى : رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ ٤٥٤

الباب الثاني و التسعون في الجواب الثامن بعد المائة . الكاف لإفادة الاستمرار كما في الحديث : كما أنتم فذهب فاغتسل ٤٥٥

الباب الثالث و التسعون مشتمل على جوابين . وهو أنّ إبراهيم و آله أهل بيت النبوة أوتوا بركات كثيرة . و هنا تفصيل تلك الفضائل حسب ما ذكره ابن القيم رحمه الله تعالى ٤٥٦

الباب الرابع و التسعون في الجواب الحادي عشر و المائة . ألهمتُ بين النوم و اليقظة أنّ مجموع المشبّه ليس بأفضل من مجموع المشبّه به . نعم ، محمد وحده صلى الله عليه وسلم أفضل منه . و التفصيل أنّ لتفضيل المجموع على المجموع طرق ثلاث ، وإيضاح هذه الطرق . و هذا بحث بديع من خصائص هذا الكتاب لابدّ من مطالعته ٤٦٠

الباب الخامس و التسعون في الجواب الثاني عشر و المائة . هذا من قبيل "كن كما أنت " أي تشبيه الشيء بنفسه باعتبار زمانين ٤٦٩

٤٧١ .... **الباب السادس و التسعون** و هو مشتمل على جوابين . في بعض الكتب أنّ الكاف قد تجرد عن التشبيه عند اتصالها " بما " ، فتفيد إفادة لام الاختصاص أو الاستحقاق ، و إيضاح ذلك .

٤٧٣ .... **الباب السابع و التسعون** في الجواب الخامس عشر و مائة . هذا من التشبيه المقلوب . و هناك تفصيل شواهد القلب ، و إيضاح ذلك .

٤٧٨ .... **الباب الثامن و التسعون** في الجواب السادس عشر و مائة . مأخوذ من كلام بعض العارفين و هو المجدّد للألف الشيخ أحمد السرهندي أنّ ضم آله باسمه الشريف لطلب البركات الخليليّة لنفسه ﷺ بواسطة فرد واحد كامل من آله الذي له مناسبة بالولاية الإبراهيميّة و المحمديّة ، لتنصبغ الولاية المحمدية بالولاية الإبراهيمية و إن كانت الأولى أعلى من الثانية . و هناك إيضاح هذا ببيان كشفي .

٤٨٣ .... **الباب التاسع و التسعون** في الجواب السابع عشر و مائة . ليس المراد التشبيه بل التمثيل بحذف المضاف أي لفظ " مثَل " بفتح الثاء . و المفاضلة تتحقق في التشبيه دون التمثيل ، و إيضاح ذلك .

٤٨٤ .... ذكر عدّة دلائل و شواهد لعدم لزوم أفضلية المشبّه به في التمثيل . و هذا بحث لطيف .

٤٨٦ .... فصل في الفروق بين " المَثَل " بفتح الميم و الثاء و " المِثْل " بكسر الميم و سكون الثاء ، و هي تنيف على عشرين فرقًا . و هذا البحث من نفائس لا تجدها في غير هذا الكتاب .

٤٩٤ .... **الباب الموفّى المائة** مشتمل على جوابين . الكاف بمعنى الباء للإلصاق أو للمصاحبة . و هنا إثبات هذا بنقل الأئمة .

٤٩٥ .... **الباب الحادي بعد المائة** في الجواب العشرين و مائة . التشبيه إنّما هو بين الجعلين لا بين الصلاتين حتى يرد الإشكال . و هناك ذكر مقدمة و هي أنّ الحديث يفسّر الحديث ، و نقل أحاديث تدلّ على أنّ التشبيه بين الجعلين .

٤٩٧ .... **الباب الثاني بعد المائة** في الجواب الحادي و العشرين و مائة . التشبيه نوعان . الأوّل ما يكون طرفاه من الذوات أو الصفات مما لا يراد فيه الحدث نحو زيد كالأسد . و الثاني ما كان من الأفعال و نحو ذلك مما يدلّ على المعنى المصدري ، ولا يكون المشبّه به أقوى غالبًا

إلّا في الأوّل ، و ما نحن فيه من الباب الثاني . و إيضاح ذلك .

٤٩٧.............. الوجود كلّيّ متواط ، و يحتجّ بهذا على نفي تعدد الآلهة .

٤٩٨.............. بيان أن التشبيه بين الفعلين إنّما يراد به مصدراهما . و المصدر على ثلاثة أقسام . للتاكيد و النوع و المرة . و بيان الفرق بين ذلك بما لا تجده في غير هذا الكتاب . و هذا بحث بديع .

٥٠٠ .... فصل في أنّ تقسيم التشبيه هذا و إن لم يصرّح به الأئمة لكنه مؤيد بفحص المحاورات و آيات القرآن . و هنا بيان شواهد ذلك .

٥٠٣.............. **الباب الثالث بعد المائة** في الجواب الثاني و العشرين و مائة . إنّ الله صلّى على النبي عليه الصلاة والسلام كما في الآية . فسأل هو عليه الصلاة والسلام من الله أن يصلّي على آله أيضًا كما صلّى على آل إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

٥٠٤.............. بيان أنّ الله تقبّل هذاالدعاء بوجوه سبعة . منها أنّه و ملائكته صلّوا عليهم . و هناك بيان صلاة الله و الملائكة على الأمّة . و كذا صلاته عليه الصلاة والسلام عليهم . و منها أنّه تعالى يصلّي عشرًا على من صلّى واحدة . و إيضاح هذا على أكمل وجه . و هذا بحث شريف .

٥٠٨ .... فصل في ذكر سؤال ، وهو أنّ على هذا تزيد صلاة المصلّي على صلاة النبي لأنّ الله يصلّي عليه عشرًا إذا صلّى واحدة . و ذكر خمسة أجوبة . و هو بحث نفيس .

٥١١ .... فائدة في الصلاة على غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

٥١٥ .... **الباب الرابع بعد المائة** في الجواب الثالث و العشرين و مائة . المراد من الصلاة التعظيم بأن يعظم الله أمّته و يجعل فيهم أنبياء كما جعل في آل إبراهيم الأنبياء . فقبل الله هذا الدعاء حيث أبقى عيسى عليه الصلاة والسلام حيًّا ، فينزل في آخر الزمان كرجل من أمّة نبينا يخدم دينه .

٥١٦.............. **الباب الخامس بعد المائة** في الجواب الرابع و العشرين و مائة . هنا تقرير آخر لما تقدّم في الباب المذكور سابقًا .

٥١٦.............. نكتة شريفة في بيان جمع الله الأنبياء له ليلة الإسراء في المسجد الأقصى دون المسجد الحرام بمكة . و هذه نكتة لا تجدها في الكتب .

٥١٨ .... **الباب السادس بعد المائة** في الجواب الخامس و العشرين و مائة . المراد من آل محمد المعنى الخاصّ أي ذريته ، و كذا من آل إبراهيم ، و المطلوب استنزال الصلاة على فروعه

مثل نزولها على أصولها . فالمشبّه به و إن كان أفضل لكن لاحرج فيه ، إذ فضله يرجع إلى فضل نبينا ﷺ . و له ثلاثة تقريرات ، لكلّ تقرير باب برأسه .

٥٢٠ .... **الباب الثامن بعد المائة** في الجواب السابع والعشرين ومائة .

٥٢١ .... **الباب السابع بعد المائة** في الجواب السادس والعشرين ومائة .

٥٢٣ .... **الباب التاسع بعد المائة** في الجواب الثامن و العشرين بعد المائة . المراد من آل محمد الأتباع . فدخل في آل محمد إبراهيم و آله من الأنبياء لأنّه عليه الصلاة والسلام نبي الأنبياء . فكلّ نبي وكلّ أمّة من جملة أمّته عليه الصلاة والسلام . وكذا دخل في آل إبراهيم محمد عليهما الصلاة والسلام لكونه من أولاده . فاتّحد المشبّه و المشبّه به .

٥٢٥ .... **الباب العاشر بعد المائة** مشتمل على خمسة أجوبة لمولانا محمد قاسم النانوتوي رحمه الله تعالى مؤسس دار العلوم . ذكرها في مناظرة اتفقت مع بعض النصارى و الهنود .

٥٣١ .... **الباب الحادي عشر بعد المائة** في الجواب الرابع و الثلاثين و مائة . جواب ابن عربي وهو أنّ هذا دعاء لأمة محمد ﷺ بأن يرفع الله درجاتهم . فتقبّل الله هذا الدعاء بوجوه . منها المبشّرات و كونهم شهداء و نزول عيسى عليه الصلاة والسلام و كونهم أصحاب اجتهاد و محدثين .

٥٣٦ .... فصل في تفصيل كمالات منحها الله هذه الأمّة . و هذا بحث شريف بديع . فمنها نزول الملك على الأولياء .

٥٣٧ .... و منها الوراثة الكلّيّة من وراثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . و إيضاح ذلك .

٥٣٩ .... و منها أنّهم يعطون نورين مثل الأنبياء كما أخرجه البيهقي .

٥٣٩ .... و منها ثلاث خصال لم يعطها إلاّ الأنبياء .

٥٣٩ .... و منها ساعة الإجابة و ليلة القدر و شهر رمضان و نحو ذلك .

٥٤٠ .... و منها ما قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : نزلت هذه الأمّة منزلة العدول فيشهدون على الناس يوم القيامة .

٥٤١ .... و منها التجلّي الذاتي . و إيضاح ذلك بكلام أصحاب الكشف .

٥٤٣ .... **الباب الثاني عشر بعد المائة** مشتمل على خمسة أجوبة ذكرها البعض . و في آخر الباب عليها كلام فراجعه .

٥٤٥ .... **الباب الثالث عشر بعد المائة** في الجواب الأربعين و مائة . وهو أنّ الصلاة على إبراهيم و الدعاء له كان بألسنة آله الأنبياء ، و الصلاة على محمد بألسنة آله الغير الأنبياء . و دعاء الأنبياء أعلى من دعاء غير الأنبياء . فالمشبّه به نظرًا إلى هذا أفضل .

٥٤٦ .... **الباب الرابع عشر بعد المائة** مشتمل على جوابين . و الحاصل أنّ هذا كتشبيه شيء بنفسه باعتبار الحالين . و مبناهما إثبات الحقيقة المحمدية و الأحمدية . و هنا تفصيل ذلك بذكر عبارات العارفين .

٥٥٠ .... **الباب الخامس عشر بعد المائة** في الجواب الثالث و الأربعين و مائة للشيخ العارف السرهندي . و هو أنّ للولاية خمس درجات . أعلاها لمحمد ﷺ و ربّ تلك الدرجة العلم . و الثانية لإبراهيم عليه الصلاة والسلام و ربّها العلم أيضًا . و لهذه المناسبة أمر عليه الصلاة والسلام باتباع ملّته .

٥٥٠ .... ثم التشبيه في "كما صلّيت " باعتبار الكمالات التي لها تعلّق بحقيقة الكعبة التي هي فوق جميع الحقائق . فإنّ للخليل ثمة مرتبة لم تتيسّر لأحد . و هي في صورة دائرة مركزها الذي هو مقام الإجمال لنبينا ﷺ . و الدائرة بتفصيلها للخليل عليه الصلاة والسلام . و المركز أعلى من الدائرة . و نبينا عليه الصلاة والسلام سأل في قوله "كما صلّيت إلخ " هذا المقام مقام تفصيل الكمالات . و هناك تفصيل هذه المباحث على حسب طريقة أهل الكشف . و هذا من البدائع و العجائب .

٥٥٥............ فصل . يعلم من كلام هذا الشيخ أنّ حقيقة الكعبة فوق جميع الحقائق . و هذا ينافي اعتقاد الأمّة أنّ نبينا ﷺ أفضل خلق الله . و هي من المسائل التي اعترض بها المخالفون على الشيخ و استفتوا علماء الحرمين سنة ١٠٩٣هـ . و الجواب عن ذلك بإيضاح . و هذا بحث مهمّ .

٥٦٠............ **الباب السادس عشر بعد المائة** في الجواب الرابع و الأربعين و مائة . و فيه ذكر مقدّمة في كلمات التشبيه و أنّ أكثرها استعمالًا الكاف و " مثل " .

٥٦١............ يعلم بعد الفحص أنّ الأغلب في التشبيه بالكاف كون المشبّه به أتمّ من المشبّه و " بمثل " كونه مساويًا للمشبّه . وقد يقع أحدهما موقع الآخر . و الكاف ههنا بمعنى " مثل " تفيد المساواة .

٥٦٢ .... فصل في ذكر شواهد تدلّ على أنّ كلمة " مثل " تفيد المساواة .

٥٦٧............ فصل في ذكر قرائن تدلّ على أنّ " مثل " للتساوي ، بعضها لغوية و بعضها اصطلاحية ، تتعلق بالحديث و اللغة و الأدب و المنطق و الفلسفة و الكلام . و هذا بحث يدلّ على سعة علمية .

٥٧٥............ **الباب السابع عشر بعد المائة** في الجواب الخامس و الأربعين و مائة يبني على مقام من التواضع لكنّه أعلى و أجلّ من التواضع المعروف . و إيضاح هذا بذكر كلام العلماء فيه .

٥٨١............ **الباب الثامن عشر بعد المائة** مشتمل على جوابين . لا يبعد أن يكون التشبيه متفرّعًا على إحدى المشاهدتين . مشاهدة الذات المحضة له تعالى و هي لا تكيّف ، و مشاهدة الذات مع قوّتها و سلطان قهرها و هي مشاهدة الخوف .

٥٨١............ هنا مشاهدة ثالثة . و إيضاح المشاهدات الثلاث بكلام العارفين . و هذا بيان لطيف حريّ بالمطالعة .

٥٨٧............ **الباب التاسع عشر بعد المائة** في الجواب الثامن و الأربعين بعد المائة . قال العلامة القرافي : التشبيه في الخبر يصحّ في جميع الأزمنة . و الإشكال في قولنا "كما صلّيت على إبراهيم " مبني على هذا . و ليس كذلك فإنّه واقع في الدعاء الملحوظ فيه المستقبل خاصّة . و إيضاح ذلك .

٥٨٨............ فصل في ذكر كلام القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع إيضاحه و بيان ما له و ما عليه . و ذكر كلام بعض العلماء حسب ما يليق بالمقام . و هو بحث حريّ بالمطالعة .

٥٩٨............ **الباب العشرون بعد المائة** في الجواب التاسع و الأربعين بعد المائة . التشبيه ثلاثة أقسام . الأوّل حقيقيّ كأكثر تشبيهات القرآن . و الثاني مجازيّ و هو ما يفيد المبالغة كما في الأشعار . و الثالث لفظيّ لتحسين اللفظ و تزيينه . و المشبّه به إنّما يكون في النوعين الأوّلين أقوى غالبًا دون الثالث . و هذا بحث بديع نفيس ينبغي مطالعته .

٦٠١............ **الباب الحادي و العشرون بعد المائة** في الجواب الخمسين و مائة . لابدّ أوّلًا من معرفة أمور ثلاثة . و هي أن المراد من آل محمد أولاد فاطمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ، و أنّ المراد من آل إبراهيم أجداد نبينا ﷺ من أولاد إسماعيل ، و أنّ أجداد نبينا كلّهم كانوا مؤمنين بالله كما قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ . فالمقصود من تشبيه هذه الصلاة الدعاء لذريته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالإيمان

و التوحيد كما كان آل إبراهيم كلّهم مؤمنين موحّدين .
٦٠١............... إن قلت : فذكر محمد ﷺ للتمهيد أو هو أيضًا مقصود بالصلاة ؟ و جواب ذلك .
٦٠٢............... إن قلت : آل محمد هم آل لإبراهيم أيضًا . فما وجه ذكرهم على حدة ؟ و هناك جوابه .
٦٠٣............... قال المصنف البازي : بعد ما سطرت هذا الجواب على خوف دعوتُ الله أن يطلعني على نصّ من أقوال العلماء مؤيد . فأطلعني الله على ذلك . و تحرير أقوال مؤيدة .
٦٠٥ .... فصل . صرّح كثير من العلماء أنّ أجداد نبينا عليه الصلاة والسلام كانوا موحّدين ، و كذا والديه عليه الصلاة والسلام . و إيضاح ذلك . و هذا بحث شريف .
٦٠٨............... **الباب الثاني و العشرون بعد المائة** محتو على جوابين . و لابدّ من مقدّمة في بيان الغرض من التشبيه .
٦١٠ .... **الباب الثالث و العشرون بعد المائة** في الجواب الثالث و الخمسين و مائة . صلاة الله على إبراهيم و محمد عليهما الصلاة والسلام غير متناهية ، و التفاوت بين الأمور كمًّا و كيفًا مختصّ بالأمور المتناهية كما بيّن في علم المنطق . و نظيره في المعدومات الأمور المحالة ، فلا يقال : هذا أشدّ محالاً من ذلك . و في الموجودات الصدق ، فلا يقال في حديث واحد : هذا أصدق من ذاك . و لهذا أشكل حديث : أصدق الناس لهجةً أبو ذرّ (رضي الله عنه) . و هناك ذكر قول بعض العلماء الذي يؤيدنا .
٦١١ .... فصل . الحكماء و العلماء اختلفوا في تحقق التفاوت كمًّا و كيفًا بين الأمور الغير المتناهية . و هناك ذكر برهان التضاعف ، و بيان أنّه لا يتم إلّا على قول من يقول بالزيادة والنقصان في غير المتناهي .
٦١٣............... بيان أنّ الإمام الغزالي رحمه الله قال بهذا التفاوت في كتابه التهافت ، و ابن رشد لا يقول به كما صرّح به في تهافت التهافت .
٦١٤ .... **الباب الرابع و العشرون بعد المائة** مشتمل على جوابين . و حاصله أنّ الكاف ليست للتشبيه بل للمبادلة ، و إيضاح معنى ذلك .
٦١٧............... **الباب الخامس و العشرون بعد المائة** في الجواب السادس و الخمسين و مائة . التشبيه ثلاثة أنواع . الأوّل ما لا يكون دعاء مثل زيد كالأسد . و الثاني ما كان دعاء تحت

الأصل المعروف ، وهو أن يحصل به بعد القبول نفع للمدعو له . و الثالث ما كان دعاء لكن لا ينفع إلّا الداعي دون المدعو له و إن قبل كما في الصلاة حيث نفعها عائد للمصلّي فقط ، كما مرّ تفصيله . و الأغلب في النوعين الأوّلين كون المشبّه به أعلى و أقوى دون النوع الثاني .

٦١٩ .... **الباب السادس و العشرون بعد المائة** في الجواب السابع و الخمسين و مائة . هذا دعاء لكن حكمه على عكس ما هو المعروف حيث لا ينفع إلّا الداعي . فلا يبعد أن يجعل ذلك قرينة على عكس حال لفظها بأن يقال : هذه الصلاة تدلّ على أفضلية المشبّه على المشبّه به .

٦٢٠ .... **الباب السابع و العشرون بعد المائة** مشتمل على ثلاثة أجوبة . لابدّ من ذكر مقدمة في أنّ التشبيه نوعان . لغويّ و اصطلاحيّ . و هنا نقل أقوال المحققين في ذلك و ذكر الفروق الستة بينهما . و هو بحث لطيف .

٦٢٢ .... ذكر سبيلين مشتملين على ثلاثة أجوبة .

٦٢٥ .... **الباب الثامن و العشرون بعد المائة** في الجواب الحادي و الستين و مائة . ذكر هناك مقدمة في أنّ كثيرًا من الأشياء جلية الآثار لكن حقائقها محجوبة عند العلماء . منها العلم و الروح و المغناطيس و إبرة البوصلة المغنطيسية . و عند المؤلف البازي الصلاة من هذا الباب . فاندفع سؤال التفاضل في الصلاة ، لأنّ التفاضل بين الأمور المستورة الحقائق غير ممكن . و هذا بحث لطيف .

٦٢٧ .... ذكر وجوه تدل على أنّ الصلاة مجهولة كنهًا مثل الروح . و هذا تحقيق إلهامي خلا عنه الكتب ، و من أعزّ نفائس هذا الكتاب .

٦٢٧ .... الوجه الأوّل . صلّى فلان على النبي بمعنى القول . أي قال صلّى الله عليه ، مثل حوقل أي قال لا حول ولا قوة إلّا بالله . و نسبة هذا المعنى إلى الله محال من وجهين . فصلاة الله المطلوبة شيء آخر لا نقدر قدره ولا ندرك كنهه . ولذا نفوّض الصلاة إلى الله تعالى .

٦٢٨ .... الوجه الثاني . الصلاة دعاء مختص بالأنبياء ، و ليست مثل عامّة الأدعية . و إن كنت في ريب فعدّ أنواع الدعاء لا تجد واحدًا منها عين الصلاة . و إيضاح ذلك . فعلم أنّها مجهولة الكنه .

٦٢٩ .... الوجه الثالث . الصلاة لا تتأدّى إلّا بصيغة واحدة و هي مادة " ص ، ل ، و " . و هذا قرينة على دقّة حقيقة الصلاة .

٦٣١............. الوجه الرابع . أنّ الله أمرنا أن نصلّي على النبي . و نحن نمتثل أمره فنقول : اللّهم صلّ عليه . فنفوّض ذلك إليه تعالى . و تفويض المأمور ما أمر به إلى الآمر امتثال عجيب ، لكن معاملة الله بعده أعجب حيث يثيب و يرضى به .

٦٣١............. بيان أنّ التفويض في بعض المأمورات إلى الله و إظهار العجز مرضاة لله و عين الامتثال ، و بسط ذلك . و هذا بحث طيب لطيف .

٦٣٤ .... الوجه الخامس . للعلماء في الصلاة أقوال كثيرة . و هنالك ذكر نحو ثلاثة عشر قولاً . و بالجملة هم تحيّروا في تعيين معنى الصلاة مع كونها دائرة على الألسنة آناء الليل و النهار . و هذا يدلّ على أنّ الصلاة مجهولة كنهًا . و بسط هذه الأقوال بسطًا مشبعًا .

٦٤١ .... القول الثالث عشر . ما يخطر ببالي و هو أنّ الصلاة بمعنى النور الخاصّ . فهي إذا نسبت إلى الله فمعناها منح ذلك النور . و إذا نسبت إلى المخلوق فمعناها طلب هذا النور للنبي ﷺ . و إيضاح هذا .

٦٤٣ .... الوجه السادس . صرّح العلماء على أنّ الصلاة على النبي ﷺ لا تكون إلّا مقبولة . و بهذا امتازت عن عامّة أصول الإسلام ، إذ فيها المقبول و المردود . و هذا يدلّ على أنّ كنه الصلاة متعالٍ عن مجال الأفهام و القياس . و بسط هذا .

٦٤٤............. الوجه السابع . الصلاة كما قالوا : لا تنفع النبي ﷺ . و هذا أمر عجيب .

٦٤٤............. الوجه الثامن . تصريح كبار العارفين بأنّ حقيقة الصلاة مجهولة .

٦٤٦ .... **الباب التاسع و العشرون بعد المائة** في الجواب الثاني و الستين و مائة . ثبت في الباب المتقدّم أنّ الصلاة مجهولة كنهًا . فأقول : ههنا حقائق أربع . النبوة و الرسالة و الوحي و الصلاة . مصداقها واحد . فالصلاة مثل الوحي في الاختصاص بالأنبياء . فكما أنّ النبوة مشتركة بين الأنبياء و كذلك الوحي و لا تفاوت بينهم في ذلك ، كذلك الصلاة أمر استوى فيه جميع الأنبياء من غير تفاوت . فالتشبيه في الصلاة مثل قوله تعالى : إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٍ .

٦٤٨ .... ذكر أقوال العلماء في أنّ الأنبياء متساوية الأقدام في نفس النبوة و الرسالة ، و أنّ تفاضلهم بأحوال أخر .

٦٥٠ .... **الباب الثلاثون بعد المائة** في الجواب الثالث و الستين و مائة . و هو أنّ للمشبه به فضلاً جزئيًّا لاشتمال آل إبراهيم على الأنبياء دون آل محمد . ذكره الحافظ العيني رحمه الله تعالى .

٦٥٠ .... تنبيه . اعلم : أنّ الفرقة الزائغة القاديانية تمسّكت بالصلاة الإبراهيمية على جري سلسلة النبوّة بعد نبينا صلى الله عليه وسلم . و هناك ردّ قولهم .

٦٥١ .... **الباب الحادي و الثلاثون بعد المائة** مشتمل على جوابين . لا يبعد أن يكون مقصود النبي عليه الصلاة والسلام بهذه الصلاة الدعاء لمشاركة أمّته في صلاة الله كما أشرك الله آل إبراهيم مع إبراهيم في ذلك . فلا اعتراض . إذ الاعتراض على أفضليّة نبينا صلى الله عليه وسلم إنّما يرد لو كان المطلوب الأعلى تشبيه الصلاة المطلوبة لنفس محمد بصلاة إبراهيم عليهما الصلاة والسلام . وإذ لا فلا .

٦٥٢ .... الدليل على إرادة هذه المشاركة عدّة نصوص . و بسط ذلك بأحسن طريق . و هذا تحقيق عجيب و تدقيق لطيف لا تجده في غير هذا الكتاب .

٦٥٥ .... فصل في ذكر جواب آخر لسفيان بن عيينة المحدث المشهور . و بيان الفروق بينه و بين الجواب المتقدّم .

٦٥٧ .... **الباب الثاني و الثلاثون بعد المائة** في الجواب السادس و الستين و مائة للإمام العارف بالله الشيخ أحمد السرهندي المجدّد للألف الثانية .

٦٦٢ .... **الباب الثالث و الثلاثون بعد المائة** في الجواب السابع و الستين و مائة للعلامة الطيبي رحمه الله تعالى .

٦٦٤ .... **الباب الرابع و الثلاثون بعد المائة** في الجواب الثامن و الستين و مائة مبني على أنّ الصلاة مجهولة كنهًا .

٦٦٦ .... **الباب الخامس و الثلاثون بعد المائة** مشتمل على ستة أجوبة للإمام أبي بكر بن العربي ، ذكرها في أحكام القرآن .

٦٦٨ .... **الباب السادس و الثلاثون بعد المائة** في الجواب الخامس والسبعين و مائة .

٦٦٩ .... **الباب السابع و الثلاثون بعد المائة** مشتمل على خمسة أجوبة . التشبيه قسمان .

الأوّل من حيث الكيفية . و الثاني من حيث الكمّيّة ، و في الثاني لا يلاحظ التفاضل ، وما نحن فيه من قبيل الثاني .

٦٦٩ .... معنى الكمّ عند النحاة و أهل المعقول ، و بيان معانيه التسعة في العرف .

٦٧٠ .... ثم التشبيه باعتبار الكمّ بخمسة وجوه . وكلّ وجه جواب برأسه . الأوّل باعتبار العدد ، و الثاني في الزنة و الثقل ، و الثالث في الإحاطة ، و الرابع في نفس المقدار ، و الخامس في طول الزمان . و إيضاح ذلك بطريق بديع لا تراه في غير هذا الكتاب .

٦٧٣ .... فصل في أنّ في التشبيه باعتبار طول الزمان إشارة إلى مدّة بقاء الأمّة المحمدية و إلى أنّها لا تكون إن شاء الله ناقصًا من مدة آل إبراهيم . و يرجى أن لا تقوم القيامة قبل تمام هذه المدة . والله أعلم .

٦٧٣ .... فصل . لابدّ من معرفة مدة ما بين إبراهيم و نبينا عليهما الصلاة والسلام لكشف الغطاء عن التشبيه في طول الزمان وازدياد المسرّة بطول مدّة هذه الأمّة . وفيه ذكر تاريخ ولادة إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

٦٧٤ .... بيان عمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام و ما في التوراة أنّ عمره كان يوم وفاة نوح عليه الصلاة والسلام ثلاثًا و خمسين سنة . و هذا عجيب . و بسط زمان مضي من هبوط آدم إلى زمان نوح و إلى زمان إبراهيم عليهم الصلاة والسلام و إلى زماننا هذا .

٦٧٥ .... بيان تحقيق الشاه رفيع الدين رحمه الله تعالى في الزمان الماضي من هبوط آدم عليه الصلاة والسلام بحساب السنين الشمسية و القمرية .

٦٧٦ .... أقوال أخر في بيان مدة ما بين الأنبياء من آدم إلى نوح ، و منه إلى الطوفان ، و منه إلى إبراهيم ، و منه إلى موسى، و منه إلى داود ، و منه إلى عيسى ، و منه إلى نبينا عليهم الصلاة والسلام .

٦٧٧ .... خلاصة البيان أنّ الأقوال في المدة التي بين إبراهيم عليه الصلاة والسلام و نبينا صلى الله عليه وسلم خمسة .

٦٧٨ .... فصل في سرد شواهد التشبيه بأنواعها الخمسة من الآيات و الأحاديث و أقوال البلغاء و العلماء .

٦٨٤ .... فصل في البحث عن وقت قيام القيامة ، و ذكر خلاصة رسالة السيوطي رحمه الله تعالى أنّ القيامة تقوم على نحو نصف الألف الثانية أي نحو سنة ١٥٠٠هـ .

٦٨٥ .... ذكر ما ورد أنّ الدنيا سبعة آلاف سنة .

٦٨٦ .... ذكر ما ورد أنّ الدجال يخرج على رأس مائة .

٦٨٦ .... مدة مكث الناس بعد طلوع الشمس من مغربها .

٦٨٧ .... مدة ما بين النفختين .

٦٨٧ .... الردّ على السيوطي رحمه الله تعالى من جانب العلماء في تعيين وقت القيامة . و أنّ الدخول في المغيبات لا ينبغي لأمثال السيوطي رحمه الله تعالى .

٦٨٧ .... ذكر ما حكي عن بعض الفلاسفة أنّ العالم خلق و الطالع السنبلة و يدثر عند مضي مدة سلطان البروج . و ذكر جدول مدّة كلّ برج .

٦٨٨ .... ذكر ما حكي عن بعضهم أنّ العالم يدثر عند إتمام الكواكب الثابتة الدورة . و ذكر أقوالهم في مدة دورة الثوابت .

٦٨٨ .... من العجائب ما استخرج بعض الإسلاميّين وقت قيام القيامة عن كلمة " بغتة " في قوله تعالى : لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً . و ردّ هذا القول .

٦٨٩ .... ذكر ما نقل المقدّسي في كتابه من عمر الدنيا عند المسلمين و عند غيرهم من الفرق المتعددة .

٦٩٠ .... فصل في ذكر إشكال لم يذكره غير المصنف . و هو أنّه يعلم من حديث آجال الأمم أنّ عمر هذه الأمّة قليل جدًّا بالنسبة إلى أعمار الأمم الماضية . و هو خلاف الواقع . إذ عمر هذه الأمّة زائد على عمر أمّة عيسى عليه الصلاة والسلام . و ذكر أجوبة ذلك . و هو بحث مهمّ من خصائص هذا الكتاب .

٦٩١ .... إن قلت : أيّ سرّ في إقصار الله سبحانه أعمار أمّة محمد ﷺ . و هناك جوابه بذكر الأسرار . و هذا من بدائع أبحاث ما لا تجده في غير هذا المجموع .

٦٩١ .... السرّ الأوّل . ضعف هذه الأمّة باعتبار القوى البدنية . و إيضاح ذلك .

٦٩١ .... السرّ الثاني . هذا من آثار قرب القيامة . و إيضاح هذا بالأحاديث .

٦٩٢ .... السرالثالث . قصر الأعمار رحمة لله على هذه الأمّة . و بيان ذلك .

٦٩٣ .... السرّ الرابع . قصر الأعمار يقتضي كثرة الأموات . و كثرتها مذكرة للإنسان مرغبة في الآخرة .

٦٩٣ .... السرّ الخامس . لو كانت الأعمار طويلة لضاقت علينا الأرض . و تفصيل ذلك بذكر المعمور من الأرض ، و عدد بني نوع الإنسان في هذا العصر .

٦٩٤ .... السرّ السادس . مثل ما سبق ، لكن باعتبار ضيق أسباب الرزق . و تفصيل ذلك بذكر عدد يأجوج و مأجوج و كثرة أولادهم ، و ذكر أقحاط وقعت في العالم و ذبح الناس أولادهم لذلك .
٦٩٦ .... السرّ السابع . العيش الضنك الموجب له طول العمر و كثرة الأولاد شاغلان للإنسان عن ذكر الله و عبادته .
٦٩٦ .... السرّ الثامن .كثرة الأولاد فتنة لعامة الناس إلّا من عصمه الله . و إيضاح ذلك بأنّ العارفين كانوا يدعون على من سخطوا عليه بإطالة الله عمره و تكثير الأولاد .
٦٩٧ .... السرّ التاسع . مناصب العزة في الدنيا كثيرة ، و توسيع دائرتها أقرب إلى العدل ، و قصر الأعمار مما يتوسل به إلى هذا التوسيع .
٦٩٨ .... السرّ العاشر . مثل ما تقدّم ، إلّا أنّ هذا باعتبار الكمالات الأخروية . و إيضاح ذلك بذكر مجددي كلّ مائة . و هذا بحث مهمّ حري بالتوجه .
٧٠٠ .... السرّ الحادي عشر . أكثر سكّان الأرض مبتلون بالمصائب ، فقصر الأعمار يعجل النجاة من المصائب و من ظلم الظالمين .
٧٠١ .... السرّ الثاني عشر .كثرة الأموات لقصر الأعمار إشارة إلى قرب القيامة . و توضيح ذلك بذكر الأحاديث الكثيرة .
٧٠٣............ السرّ الثالث عشر . طول العمر مرقاة لطول الأمل ، و هو مهلك و آفة .
٧٠٤............ السرّ الرابع عشر . فيه إظهار فضل هذه الأمّة .
٧٠٤............ السرّ الخامس عشر . هذا مقتضى الحكمة . و إيضاح ذلك .
٧٠٤............ السرّ السادس عشر .
٧٠٥ .... السرّ السابع عشر . الدنيا سجن المؤمن ، و الخروج من السجن سريعًا مطلوب ، فأقصر الله الأعمار لهذا . و ذكر كلام بعض العارفين .
٧٠٦............ السرّ الثامن عشر . ما ذكره الحكيم الترمذي .
٧٠٨............ إن قيل : طول العمر رحمة كما ورد في الحديث ، فكيف يصحّ هذه الأسرار المتقدّمة ؟ و هناك ذكر أربعة أجوبة له . و هذا بحث مهمّ .

٧٠٩............. فصل . رجع الكلام إلى حلّ الإشكال في حديث آجال الأمم . و ذكر الأجوبة الأربعة الباقية .

٧١٢............. **الباب الثامن و الثلاثون بعد المائة** مشتمل على جوابين . و الحاصل أنّ في هذه الصلاة إشارة إلى إجراء بركات الدعاء الإبراهيمي .

٧١٥ .... **الباب التاسع و الثلاثون بعد المائة** في الجواب الثالث و الثمانين و مائة . حاصله أنّ هذا كان قبل أن يعلم نبينا ﷺ أنّه أفضل الأنبياء .

٧١٥ .... اعتراض الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى على هذا الجواب . و الجواب عن ذلك من المصنّف .

٧١٨ .... **الباب الأربعون بعد المائة** في الجواب الرابع و الثمانين و مائة . حاصله أنّ لهذه الصلاة إعرابين . الأوّل تقدّم التشبيه على العطف ، و على هذا لا يرد الإشكال . و الثاني بالعكس ، و عليه بناء الإشكال . و هنالك ذكر أقوال كثيرة للعلماء في تأييد ذلك . و إيضاحه . و هذا بحث نفيس .

٧٢٣............. **الباب الحادي و الأربعون بعد المائة** في الجواب الخامس و الثمانين و مائة للعارف الإمام الشيخ أحمد السرهندي قدّس سرّه .

٧٢٥ .... **الباب الثاني و الأربعون بعد المائة** في الجواب السادس و الثمانين و مائة . هو أنّ من طالع الدواوين و كلام الأدباء علم أنّ التشبيه كثيرًا ما يراد به دقّة الخيال و تحسين الكلام ، و أنّه كلّما كان أخفى و من الذهن أبعد كان الكلام لطيفًا . و إيضاح ذلك .

٧٢٥ .... قد استقصى المصنّف في هذا الباب البحث بإيراد الأشعار و الشواهد و أتى بما لا يقدر عليه إلّا الأديب الوسيع النظر و المطالعة . فطالعه حيث لا تجده مجموعًا في غير هذا الكتاب .

٧٤٩ .... ذكر مناظرة تتعلق بالتشبيه وقعت بين هارون الرشيد و وزرائه ، و جعلهم الأصمعيّ حَكَمًا .

٧٥٧............. ذكر إشكال يتعلق بقوله تعالى " طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ " و حلّ ذلك من أبي عبيدة .

٧٥٨............. **الباب الثالث و الأربعون بعد المائة** في الجواب السابع و الثمانين . و هو آخر الأجوبة . ولله الحمد و المنّة .

تمّ الفهرس

فتح اللہ

بخصائص اسم اللہ

تصنیف

محدثِ اعظم، مفسرِ کبیر، مصنفِ افخم، ترمذیٔ وقت حضرت مولانا محمد موسیٰ روحانی بازی

طیب اللہ آثارہ واعلیٰ درجاتہ فی دار السلام

علم و درایت کے جہاں میں روشنی کا ایک جگمگاتا مینار

بزبانِ عربی یہ گراں مایہ اور عدیم النظیر کتاب معبود حقیقی کے اسم ذاتی یعنی لفظ ''اللہ'' کے ساڑھے سات سو سے زائد عجیب ولطیف علمی اسرار ورموز اور حقائق ومعارف پر حاوی ہے جن کے مطالعے سے اللہ تعالیٰ کی ذات کی عظمت و ہیبت کا احساس اور اس کے عِلم کی جامعیت دلوں میں جاگزیں ہوتی ہے۔

ایک ایسا موضوع جس پر آج تک کسی نے قلم نہیں اٹھایا

اس معرکۃ الآراء ومحیر العقول کتاب کو دیکھ کر مکہ مکرمہ کے بعض اولیاء اللہ و اہل کشف فرمانے لگے کہ یہ عظیم القدر کتاب اللہ تعالیٰ کے خصوصی فضل و کرم اور الہام سے لکھی گئی ہے اور اگر دو ہزار علماء کبار بھی جمع ہوجائیں تو ایسی بصیرت افروز ودقیق کتاب نہیں لکھ سکتے۔

النحو في الكلام كالملح في الطعام

بُغيةُ الكامِل السّامي

شرح

المحصُول والحاصِل للجامي

مع حاشيته

الطريق العادل إلى بُغية الكامِل

تصنيف

مُحدّثِ اعظم، مُفسّرِ کبیر، مُصنّفِ افخم، ترمذیٔ وقت حضرت مولانا محمّد موسیٰ رُوحانی بازی

طیّب اللہ آثارہ و أعلیٰ درجاتہ فی دار السلام

محدث اعظم حضرت مولانا محمد موسیٰ روحانی بازی رحمہ اللہ تعالیٰ کی پہلی تصنیف جو کہ علم نحو کی مشہور و معروف کتاب شرح جامی کی مشکل ترین بحث "حاصل محصول" کی محقق، بسیط اور سہل شرح ہے۔

علم نحو کا عظیم الشان اور گرانقدر سرمایہ

اس کتاب کی جامعیت و علمیت کا اندازہ حضرت مولانا شمس الحق افغانیؒ کے ان الفاظ سے لگایا جا سکتا ہے انہوں نے فرمایا "میں نے آج تک اسم و فعل و حرف سے متعلق اس قدر جامع و مکمل تحقیقات عرب و عجم کی کسی کتاب میں نہیں دیکھیں۔ اس کتاب نے میرے علم میں بے انتہا اضافہ کیا"۔ نظر ثانی کے بعد مصنف رحمہ اللہ تعالیٰ نے اس کتاب میں مزید علمی دقائق و قیمتی ابحاث کا اضافہ کیا ہے جس سے اس کتاب کی ضخامت دوگنی ہو کر تقریباً پانچ صد صفحات تک پہنچ گئی ہے۔

النهج السهل

الیٰ

مباحث الآلِ والأھل

تصنیف

محدّثِ اعظم، مفسّرِ کبیر، مُصنفِ افخم، ترمذیٔ وقت حضرت مولانا محمد موسیٰ روحانی بازی

طیّب اللہ آثارہٗ وأعلیٰ درجاتہٗ فی دار السلام

انتہائی جامع ،محقق اور عظیم الشان علمی خزانہ

- بزبان عربی تقریباً چار صد صفحات پر مشتمل عجیب وبدیع کتاب۔
- لفظ ”آل“ و ”اہل“ سے متعلق انتہائی جامع اور کامل ابحاث۔
- ”آل“ و ”اہل“ کے درمیان ۳۸ لطیف ودقیق فروق کی تشریح وتوضیح۔
- ”آلِ نبی“ سے کون لوگ مراد ہیں؟
- آلِ نبی کے مصداق میں ائمۂ اسلام کے ۱۵ اقوال کی تفصیل۔
- اہلِ تشیع کے متعدد پیچیدہ اعتراضات کے دقیق جوابات۔
- جدید علمی مباحث وفنی دقائق جو دیگر کتب سلف وخلف میں نہ ملیں گے۔
- مزید برآں آج تک اسلاف کی تمام کتابوں میں لفظ ”آل“ کے صرف دو ماخذ مذکور ہیں مگر اس کتاب میں لفظ ”آل“ کے ۱۷ عجیب وغریب ماخذ کی توضیح مع ادلہ ہے جو مصنف رحمہ اللہ تعالیٰ کے علمی مرتبے کا ایک چھوٹا سا نمونہ ہے۔

النَّجْمُ السَّعْد

فِي مباحث

أمَّا بعدُ

ایک مختصر لفظ یعنی " أما بعد " پر محدث اعظم ، فقیہ افہم ، امام العصر ، حضرت مولانا محمد موسیٰ روحانی بازی طیب اللہ آثارہ کی تحریر کردہ ایک عظیم اور منفرد کتاب۔

بلند علمی ذوق رکھنے والوں کیلئے ایک منفرد، شاہکار اور گراں قدر علمی ذخیرہ

کتاب میں شامل چند اہم مباحث کی تفصیل۔

- " أما بعد " کا شرعی حکم کیا ہے؟
- سب سے پہلے لفظ " أما بعد " کس نے استعمال کیا؟
- " أما بعد " کن مواقع میں ذکر کیا جاتا ہے؟
- " أما بعد " کی اصل کیا ہے اور اس کا کیا معنی ہے؟
- " أما بعد " سے متعلق تمام ابحاث وتحقیقات۔
- نیز کتاب ہذا میں حضرت شیخ المشائخ رحمہ اللہ تعالی نے لفظ " أما بعد " کی نحوی ترکیب میں تیرہ لاکھ انتالیس ہزار سات سو چالیس ١٣٣٩٧٤٠ وجوہ اعراب ذکر کی ہیں اور ان کی تشریح کی ہے۔ ایک مختصر سے لفظ کی اس قدر نحوی تراکیب پڑھ کر عقل دنگ رہ جاتی ہے اور انسان بے اختیار عربی زبان کو سید الألسنہ اور مصنف رحمہ اللہ کو سید المصنفین کہنے پر مجبور ہو جاتا ہے۔
- مزید براں اس کتاب میں بہت سی ایسی دقیق ابحاث علمی مسائل اور فنی غرائب کی تفصیل ہے جن کے حصول کیلئے علمی ذوق وشوق رکھنے والے حضرات بیتاب رہتے ہیں۔

البرکات المکیۃ

فی

الصلوات النبویۃ

امیرالمؤمنین فی الحدیث شیخ المشائخ حضرت مولانا محمد موسیٰ روحانی بازی طیب اللہ آثارہ
کی تصنیف کردہ انتہائی مبارک اور پر تاثیر کتاب۔

وظائف پڑھنے والوں کیلئے بیش بہا اور نادر خزانہ

حیرت انگیز تاثیر کی حامل درود شریف کی عجیب و غریب کتاب جو عوام و خواص میں بے انتہاء مقبول ہے۔ اس کتاب میں حضرت شیخ رحمہ اللہ تعالی نے رسول اللہ ﷺ کے آٹھ سو (۸۰۰) سے زائد اسماء کو احادیث کی مستند کتب سے انتہائی تحقیق کے بعد درود شریف کی شکل میں یکجا کیا ہے۔ کتاب کی ابتداء میں درود شریف کے فضائل اور کتاب پڑھنے کا طریقہ تفصیلاً درج ہے۔

حضرت محدث اعظمؒ خود فرمایا کرتے تھے کہ مجھے بیشمار لوگوں نے بتلایا ہے کہ اس کتاب کے گھر میں پہنچتے ہی انہوں نے قلیل مدت میں اس کتاب کے عجیب و واضح فوائد محسوس کیے اور ان کی تمام مشکلات حل ہوئیں۔ وفات کے بعد ان کے ایک شاگرد نے خواب میں دیکھا کہ روضۂ رسول ﷺ کی جالی کا دروازہ کھلا اور اندر سے حضرت شیخ رحمہ اللہ تعالی انتہائی خوشی کی حالت میں مسکراتے ہوئے باہر تشریف لائے۔ شاگرد نے آگے بڑھ کر سلام کیا اور عرض کیا کہ استاذی آپ کی قبر مبارک سے جنت کی خوشبو آ رہی ہے اس کی کیا وجہ ہے؟ تو حضرت محدث اعظم رحمہ اللہ تعالی نے مسکراتے ہوئے جواب دیا کہ کیا آپ کو معلوم نہیں کہ میری کتاب "برکاتِ مکیہ" کو بارگاہ نبوی ﷺ میں شرفِ قبولیت حاصل ہوا ہے اسی لئے میری قبر سے جنتی خوشبو آ رہی ہے۔

قصیدۂ طوبیٰ

فی

اسماءِ اللہ الحُسنیٰ

تصنیف

محدّثِ اعظم، مفسّرِ کبیر، مصنّفِ افخم، ترمذیٔ وقت حضرت مولانا محمّد موسیٰ روحانی بازی

طیّب اللّٰہ آثارہ وأعلیٰ درجاتہ فی دار السلام

پریشانیوں اور مصائب میں مبتلا لوگوں کیلئے ایک عظیم تحفہ

نہایت مبارک اور بے مثال و بے نظیر قصیدہ

اس مبارک قصیدے میں اللہ جل جلالہ کے ننانوے اسمائے حسنیٰ سمیت تقریباً پونے دو صد نام نظم کیے گئے ہیں۔ قصیدۂ طوبیٰ عالم اسلام کا پہلا قصیدہ ہے جس میں اللہ تعالی کے اسماء دعا کے انداز میں بزبان عربی منظوم ہیں اور عوام الناس کی آسانی کیلئے اردو ترجمہ بھی درج کیا گیا ہے۔ عرب وعجم میں بے شمار علماء وخواص وعوام نے اس قصیدے کو تکالیف، پریشانیوں اور مصائب سے نجات، مشکلات کے حل اور قضائے حاجات کے لیے بے انتہاء مفید پایا ہے۔ قصیدۂ طوبیٰ پڑھنا شروع کیجئے چند دن میں ہی آپ خود اس کی برکات کا مشاہدہ کرلیں گے

چھوٹے گناہوں اور نیکیوں کے اَثرات

مسمّٰی بہ

اِستِعظامُ الصَّغائر

تصنیف

مُحدّثِ اعظم، مُفسّرِ کبیر، مُصنّفِ افخم، ترمذیٔ وقت حضرت مولانا محمّد موسیٰ رُوحانی بازی

طیّب اللّٰہ آثارہٗ وأعلیٰ درجاتہٗ فی دار السلام

قلب و روح کی تسکین کا سامان لئے ہوئے ایک منفرد کتاب

اندھی مادیت کے اس عہدِ زیاں کار میں گناہوں کی یلغار بڑھتی جا رہی ہے جس نے دولتِ ایمان و یقین سے بہرہ مند باعمل مسلمانوں کو سخت صدمے سے دوچار کر رکھا ہے تو عام مسلمان بھی روح و احساس سے عاری اس زندگی میں شدید مایوسی اور پریشانی کا شکار ہیں۔ اس مایوسی کے عالم میں گناہوں اور نیکیوں کی حقیقت اور ان کی تاثیر سے روشناس کروانے والی یہ البیلی کتاب روشنی و ہدایت کی طرف انسان کی رہنمائی کرتی ہے۔ زبان و بیان کی تاثیر لیے ہوئے یہ عجیب و منفرد کتاب جس کا لفظ لفظ اور سطر سطر دل کے دریچوں پر دستک دیتا ہوا محسوس ہوتا ہے۔ مزید برآں اس مبارک کتاب میں امتِ محمدیہ اور گذشتہ امتوں کے بہت سے بزرگوں کے ایمان افروز واقعات بھی درج کیے گئے ہیں۔ نیز اس کتاب میں بہت سے ایسے مختصر اعمال و مختصر دعائیں بھی مذکور ہیں جن کا ثواب بہت زیادہ ہے۔

ابواب الصرف

علمِ صرف میں کمزور طلباء وطالبات کیلئے عظیم خوشخبری

ابتدائی طلباء کیلئے دنیا کی آسان ترین اور جامع ترین علمِ صرف

ترمذئ وقت محدّثِ اعظم مُفسّرِ کبیر، **حضرت مولانا محمد موسیٰ روحانی بازی** رحمہ اللہ تعالیٰ

کے انوارات وبرکات والا علمِ صرف کا انتہائی مبارک ونافع طریقہ

اب اردو ترجمہ والا ابواب الصرف کا جدید ایڈیشن بھی دستیاب ہے

مدارسِ دینیہ کے بعض طلباء عربی عبارت نہیں پڑھ سکتے، عموماً اس کی بنیادی وجہ علم صرف میں کمزوری ہوتی ہے کیونکہ علم نحو میں مہارت کیلئے علم صرف میں مہارت نہایت ضروری ہے۔ ایسے مایوس طلباء کیلئے یہ ابواب نعمتِ غیر مترقبہ ہیں۔ بڑے درجات کے طلباء صرف تین چار ماہ کے مختصر عرصے میں ان ابواب کو یاد کر کے اپنی علمی بنیاد کو خوب مضبوط کر سکتے ہیں۔

علم صرف پڑھانے والے مدرّسین حضرات کیلئے ایک عظیم علمی خزانہ

مدرّسین حضرات اپنے تلامذہ کی مضبوط علمی بنیاد بنانے کے لئے ایک مرتبہ یہ ابواب پڑھانے کا تجربہ ضرور کریں۔ ان شاء اللہ تعالیٰ صرف ایک مرتبہ کے تجربہ سے ہی وہ ان ابواب کو ہمیشہ کیلئے اپنا لیں گے۔ پاکستان وبیرون ملک میں طلباء وطالبات کے جن مدارس نے بھی ان ابواب کا تجربہ کیا وہ اس کے ناقابل یقین نتائج دیکھ کر حیران رہ گئے۔

ان ابواب کو پڑھانے اور سننے کا خاص طریقہ جاننے کیلئے حضرت مولانا محمد موسیٰ روحانی بازی رحمہ اللہ تعالیٰ کے بیٹے مولانا محمد زہیر روحانی بازی حفظہ اللہ کے دروس انٹرنیٹ (یوٹیوب وغیرہ) پر موجود ہیں جن سے بآسانی استفادہ کیا جاسکتا ہے۔

مزید معلومات وتفصیلات کیلئے جامعہ محمد موسیٰ البازی رابطہ نمبر 0301-8749911

جامعہ محمد موسیٰ البازی برہان پورہ، عقب گورنمنٹ بوائز ہائی سکول رائے ونڈ لاہور